« تفسير ابن عطية »

المحرر الوجيز
في
تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الأول

تحقيق وتعليق

الرحالي الفاروق — عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد إبراهيم — محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : ٥٥١
رقم التصنيف : ٢٢٢ ٣٤ ت

« تفسير ابن عطية »

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الأول

تحقيق وتعليق

الرحالي الفاروق — عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد إبراهيم — محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة
صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

(جميع الحقوق محفوظة للمحققين)

الطبعة الأولى

المحـرم ١٣٩٨ هـ
الدوحـة : ـــــــــــ
ديسمبر ١٩٧٧ م

«تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع .... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير» .

(ابن تيمية)

«لمَّا رجع النَّاسُ إلى التَّحقيق والتَّمحيص ، وجاء أبو محمد عبد الحق ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها » .

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، علّم القرآن ، خلق الإنسان ، علّمه البيان ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، هَدَى الحائر ، وأرشد الضال ، وأُعْطِيَ جوامع الكَلِم وَفَصْلَ الخطاب ،وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبداً : كتاب الله ،وسنة نبيه.

نحمده سبحانه أن أنعم علينا بنعمة الإيمان ، ونشكره وحده أن هدانا لهذا العمل ، وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله ، وإنها لنعمة كبرى ، أن يُيَسِّر الله لنا خدمة كتابه العزيز ، وأن يجعلنا ممن يتعلمون القرآن ويُعلّمونه ، وممن يسهمون بجهودهم في سبيل الأمة الاسلامية المجيدة.

وليس من شك في أن الله سبحانه وتعالى قد اختص هذه الأُمة بفضله ، ومنحها الخير الدائم ، حين أنزل فيها هذا الكتاب العزيز دستوراً ومنهاجاً ، وهداية وبشارة ، وشفاء ورحمة ، [إنَّ هذا القرآن يَهْدي لِلَّتي هي أَقْوَمُ ، ويُبَشِّرُ المؤْمنينَ الَّذينَ يَعْمَلونَ الصالحاتِ أَنَّ لهم أَجْراً كبيراً] . [وَنُنَزِلُ من القرآن ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤْمنين] .

ولقد عاش المسلمون في ظلال هذا الكتاب سادة أعزة ، وإخوة أحبة ، وَكَوَّنوا مجتمعاً فريداً في مبادئه وقِيَمِهِ ومُثُلِهِ ، وكانوا على هذا يعتصمون به من المحن ، ويتغلبون به على الفتن ، ويرجعون إليه في أُمور دينهم ودنياهم ـ وكانوا دائماً بفضله خير الأُمم ، إنه كتاب حق ونور ، وَصَفَه مُبَلِّغُهُ الصادق صلى الله عليه وسلم فقال :

(كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأُ مَنْ قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحُكْمُ ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، مَنْ تركه تجبُّراً قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيرِه أَضَلَّه

الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواءُ ، ولا تتشعب معه الآراءُ ، ولا يشبع منه العلماءُ ، ولا يملُّه الأتقياءُ . مَن علِمَ علمَه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم) .

ثم خَلَفَ من بعد الآباء أبناءٌ تركوا هذا الكتاب فَضَلَّتْ بهم الطرق ، وعَمِيَت عليهم الدروب ، وأصبحوا وراء الأمم حضارة ومعرفة ، ولولا بقية من المؤمنين الصادقين ظلت متعلقة به ، مسترشدة بتعاليمه ، متمسكة بمبادئه ـ لضاعت هذه الأمة الإسلامية في زحام الحياة .

نعم ـ لولا القرآن يُتْلَى ويدرس بين هذه الأمة ، لَكُتِبَ عليها الفناءُ كما كُتِب على غيرها ، لكنه ـ ولله الحمد ـ ظل على الأيام منارة هداية ومعرفة ، وأسلوب حياة قوية متينة ، وستبقى هذه الأمة في ظلال هذا الكتاب الخالد برغم الأعداء وما يكيدون ، وبرغم الصراع العنيف بين المذاهب والآراء ، مصداقاً لقول الله تعالى [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] .

إننا نعيش بين أبعاد للزمن ثلاثة ، نعيش بين الأمس واليوم والغد ـ ويومنا هو وليدُ أمسنا ، وغَدُنَا وليدُ يومنا ، ولن نستطيع أن نخرج على حدود هذه الأبعاد الزمنية ، لا نستطيع أن نعيش خارج الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله ، فنحن جزءٌ منه ، وهو بأبعاده جزءٌ منا ، وإذا كان الحاضر يبدو أقوى في مشاعرنا وأفكارنا وحواسنا لأننا نحياه ، فإن الماضي يبقى بقوته وراء الأحداث واضح التأثير ، قويّ التوجيه ، لأننا نتاجه ، وأثر من آثاره ، ومن هنا كان علينا أن نجمع إلى يومنا أمسنا ، وأن نرجع إلى ماضينا نأخذ منه الخبرة والتجربة ، ونستمد منه الأصالة والقوة ، في كل ما نحتاج إليه من علم ومعرفة حتى نصل إلى الغد في أمان .

لا بد أن نربط الماضي بالحاضر ، وأن نعيد إحكام الصلة بين أبعاد الزمن الثلاثة لنرجع كما كنا في ماضينا : عِلْماً ومعرفة ، وسيادة وعزة ، ومنعة وقوة ، وتقدماً وازدهاراً ، لا سبيل أمامنا غير هذا ، وإذا تركنا ماضينا ضاع منا حاضرنا ، وضاع منا غدنا ، وليس هناك أمة من الأمم تعيش بدون ماض وغد .

من هنا كان إيماننا بإحياء التراث الإسلامي ،ومن هنا كان رجوعنا إلى هذه الذخائر التي تركها لنا الآباء ميراثاً على الزمن ، وإنه لخير لنا أن ننفق من ميراثنا ، وأن نجعل منه رصيداً نزيد عليه ، ونُنَمِّيه ، بدلا من أن نستجدي الأغنياء بالمعرفة والحضارة اليوم ، لماذا نتسول المعرفة وعندنا منها زاد لا يفنى ؟ لماذا نعيش فقراء ونحن الأغنياء في كل شيء ؟ لماذا ؟ ـ نحن لا ننادي بأن نترك علم الآخرين لهم ، وإنما ننادي بأن نجعل من علم آبائنا أساساً لمعرفتنا وحضارتنا ، ثم نضيف إلى ذلك كل جديد ونافع من علوم غيرنا ، هكذا فعل آباؤنا من قبل ، وهكذا يجب أن نفعل اليوم .

إنَّ التراث الإسلامي ذخيرة غنية برصيد من الفكر والرَّأي والعلم لا مثيل له ،وعلينا أن نرجع إلى هذه الكنوز ، لنزيل عنها غبار النسيان ، وضباب الزمن ـ ولنخرجها إلى الدنيا مجلوة زاهية ناضرة حية كما هي في جوهرها وحقيقتها . وإن خير مافي هذا التراث جانبه الروحي المشرق بصفاء اليقين ونور الإيمان ، وخير ما في هذا الجانب الروحي دراسات القرآن وعلومه ـ ونحن اليوم أحوج الناس إلى هذا الجانب الروحي ، لنروي ظمأنا ، ونداوي جروحنا ـ أرواحنا ظمأى إلى نور الله ، ونور الله في كتابه وفي كتب الدارسين لكتابه . فليعقل العاقلون منا هذه الحقيقة .

لهذا كله عدنا إلى تراثنا ، واستخرجنا منه درة فريدة غالية ،وجوهرة ثمينة نادرة ، هي هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم إلى أبناء الإسلام في كل مكان ، وهو كتاب اجتمعت فيه عدة ميزات تجعله جديراً بالعناية والاهتمام .

فهو من كتب التراث التي أشرنا إلى أثرها في تحقيق غاياتنا وأهدافنا إذا وصلنا بها بين ماضينا وحاضرنا ، وجعلناهما درب طريق إلى الغد المأمول .

وهو كتاب يَشْرفُ بموضوعه ، وشرفُ العلم يكون على قَدْرِ شرف المعلوم ، ويكفي أن موضوعه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وهو كتابُ واحدٍ من علماء الأندلس ـ الفردوس المفقود ـ يُرينا صورة صادقة لأمجاد أمتنا في هذه البقاع الغالية ويثْبِتُ لنا أن الحضارة العربية كانت دائماً حضارة علم ومعرفة ، وبحث ودراسة حيثما حلت ، وأينما كانت .

ومن توفيق الله أن تلتقي اليوم جهود مشرقنا العربي ، ومغربنا العربي على إخراج هذا الكتاب في ثوب قشيب من التحقيق والتدقيق والتعليق ، برغم ما بيننا من بُعْدِ الزمان والمكان ، وبرغم ما حاولته معنا أمم الحضارة الحديثة من تمزيق لوحدتنا ، وتفريق لكلمتنا ، وتشتيت لجموعنا ، وتشكيك في إرادتنا وعزيمتنا ـ على مدى قرون وقرون .

ولكن ، ها نحن أولاء نعود ـ نعود من جديد كما كنا : أمة واحدة ، فِكْرُها واحد ، وأملها واحد ، ومنهجها في الحياة واحد ، وهو منهج الحق والخير والكمال ، ذلك لأن الماضي يجمع بيننا ، والحاضر يوثق من صلاتنا ، والمستقبل يمنحنا أقوى ما في الحياة ـ يمنحنا الأمل في أن نصبح قوة مؤثرة في تاريخ الإنسانية ، عاملة في سبيل الرخاء والأمان والسلام لكل أبناء البشرية .

لقد التقت رغبة صاحب السمو :

الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر المفدى

ورغبة أخيه :

حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية

التقت الرغبتان في ميدان العلم والشرف على إخراج هذا الكتاب ، وتقديمه هدية إلى أبناء الأمة الإسلامية ، هدية غالية بهيّة الرُّواء ، سنيّة الإشراق ، وتَذْكِرَةً لِفِكْرٍ من تراث الأندلس العظيم . .

والتقت في رعايتهما وبتأييدهما نخبة من رجال العلم في المغرب العربي ، وفي المشرق العربي لتحقيق هذه الرغبة السامية ، خدمة للأُمة الإسلامية في حاضرها ، ومستقبلها ، وخدمة للقرآن العزيز الذي كان ولا زال مرشدها ، وهاديها ، ومجدد شبابها على مَرّ الأيام .

ونتيجة لهذه الرغبة السامية ، ولهذا اللقاء الأخوي بين علماء المغرب والمشرق في الأمة العربية الناهضة كان هذا السفر الذي نقدمه بكل فخر واعتزاز ، آملين من ورائه أن يكون لنا عند الله ذخراً ، وأن يكون لأُمتنا زاداً من المعرفة والخير .

وقد اشترك في تحقيق هذا التفسير والتعليق عليه ، وإخراجه في هذه الصورة المشرقة :

من المغرب العربي:

الأستاذ : الرحالي الفاروق

رئيس المجمع العلمي بمراكش.

ومن المشرق العربي :

الشيخ : عبد الله إبراهيم الأنصاري

مدير الشؤون الدينية بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر .

الأستاذ : السيد عبد العال السيد إبراهيم

رئيس التوجيه التربوي بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر .

الأستاذ : محمد الشافعي صادق

م. مدير شؤون القرى بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر .

والله يشهد أن المهمة كانت شاقة وعسيرة ، فالمخطوط قديم ، وكتابته كانت في صورة بعيدة عن الخط العربي المألوف لنا في هذه الأيام ، والنسخ المتوفرة لدينا قليلة في مجال التحقيق والتمحيص . كانت المهمة لهذا صعبة ، تقصر دونها الهمم ، وتعجز عنها العزائم ، لكن الرغبة في خدمة كتاب الله العزيز تُهوِّن كل صعب ، وتُيَسِّر كل عسير ، فخير ما في حياتنا هو كتاب الله ، وخير أعمالنا هو ما اتصل بهذا الكتاب .

والدارسون للتراث العربي يعرفون أن هذا الكتاب قد نال من العناية ما هو جدير به ، وليس هناك من كتاب نال من اهتمام العلماء والمحققين ما ناله القرآن الكريم ، ولقد أقبل عليه العلماء ، واتصلت به الجموع بعد الجموع على الرَّغم من تنوع المعارف ، واختلاف المذاهب ، ولقد ظل مقصد الباحثين من رجال التفسير والتأويل ، وأرباب الفصاحة واللغة ، ورواة الحديث والآثار ، والدارسين من رجال الفقه والأحكام ، والعلماء من أهل الفلسفة والكلام ، وسيظل إلى الأبد مؤئل كل قاصد ، وغاية كل باحث ، ومرجع كل دارس ، وأمل كل عالم ، ونهاية كل طالب ، وريّ كل ظامىء ، وشبع كل جائع ، إنه مائدة الله ، وقد التقينا على هذه المائدة فكانت لنا خير زاد .

وعملنا هذا جهد متواضع ، نسهم به في خدمة كتابنا العزيز ، ونقدمه بين أيدينا إلى ربنا ، تكفيراً عما قدمنا من ذنوب ، وستراً لما فينا من عيوب ، ونسأله سبحانه أن يجعله : بريئاً من كل نقيصة ، صافياً من كل شائبة ، خالصاً من كل شبهة ، محققاً لغايته ، موصلاً لأهدافه ، نافعاً لكل راغب في البحث والدراسة والعلم .

وسنقدم لك بعد هذا أيها القارىء العزيز :

- تعريفاً موجزاً بمؤلف هذا التفسير ـ القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي .
- وتوضيحاً لمنهجه في التفسير والتأويل ، مع بيان قيمة هذا التفسير ومنزلته بين كتب التفسير الأخرى .
- ثم فكرة موجزة عن الخط الذي سرنا عليه في عملنا ، والجهد الذي بذلناه ليخرج لك هذا الكتاب في صورة نرجو ـ إن شاء الله ـ أن تكون دقيقة ناضجة مشرقة .

وما ندعي لأنفسنا الكمال . فما نحن إلا بشر من الناس ، تجري علينا سنة الله في خلقه ، فيثبت منا القلم أو يزل ، ويحضر منا الفهم أو يغيب ، ويصاحبنا التوفيق أو يجانبنا ، فليكن القارىء معنا على هذه القاعدة ، حتى يتقبل منا هفواتنا ، ويغفر لنا زلاتنا ، والله من وراء القصد ، يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

التعريف بالمؤلف

نسـبه :

هو الإمام القاضي ، والفقيه الحافظ ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية – الداخل إلى الأندلس – ابن خالد بن خُفاف المحاربي ، صاحب هذا التفسير العظيم :

(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)

وهو التفسير الذي أجمع المؤرخون والعلماء على أنه غاية في الصحة والدقة ، ونهاية في التنقيح والتحرير ، وإن ذلك لهو أصدق دليل على إمامة هذا العالم الكبير وأمانته ، وعلى وعيه وفهمه وفطنته .

ولقد اختلف المؤرخون في سلسلة نسبه ، ولعل السبب في هذا الاختلاف هو ميل بعضهم إلى الاختصار ، وميل الآخرين إلى الإطالة والتفصيل ، حسب مقتضى الحال ، وأمثلة هذا الاختلاف كثيرة نكتفي منها بأمثلة قليلة :–

– قال أبو حيان رحمه الله في الصفحة التاسعة من الجزء الأول من تفسيره :

«هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي» ا هـ .

– ولكنه عاد في الصفحة العاشرة فقال :

«ولد أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية المحاربي من أهل غرناطة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بِلُرْقَة – وتوفي في الخامس والعشرين من رمضان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . هكذا ذكره القاضي ابن أبي حمزة» ا هـ .

ـ وقال ابن فرحون في كتابه «الديباج المذهب» : «عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن أسلم بن مكرم المحاربي ـ يكنى أبا محمد ، من ولد زيد بن محارب . ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة» ا هـ .

ـ وفي «بغية الوعاة» للحافظ السيوطي :

«عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم ـ وقيل عبد الرحمن ـ بن غالب بن تمام ابن عبد الرؤوف بن تمام بن عطية الغرناطي ، صاحب التفسير ـ الإمام أبو محمد» ا هـ .

ـ وفي «بغية الملتمس» لابن عميرة الضبي :

«عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله ابن تمام بن عطية بن مالك بن عطية بن خالد بن خُفاف بن غالب بن عطية المحاربي ـ أبو محمد» . ا هـ .

ـ وفي «المعجم» لابن الأبار :

«من اسمه عبد الحق ـ عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية ـ الداخل إلى الأندلس ـ بن خالد بن خُفاف المحاربي ـ كذا نسب ابن بشكوال (غالبا) جد والده ، وإنما هو : غالب ابن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية ـ وهو الداخل ـ بن خالد بن خُفاف بن أسلم بن مكرم المحاربي ، محارب قيس ـ أبو محمد ـ من أهل غرناطة» . ا هـ .

ومن هنا يظهر لنا أن الاختلاف في نسبه يتناول بعض أجداده ، وبخاصة جد والده . أهو عبد الرؤوف أم تمام بن عبد الرؤوف ؟ ويتناول اسم جده ـ أهو عبد الرحمن أم عبد الرحيم ؟ ويتناول اسم جده الداخل إلى الأندلس أهو عطية بن مالك أم عطية بن خالد ؟ ـ وصاحب «بغية الملتمس» ص ٣٧٦ هو الذي ذكر من أجداده (عطية بن مالك) ، ثم (عطية بن خالد المحاربي) ، وزاد بعض المؤرخين في السلسلة أن خُفاف هو (ابن أسلم ابن مكرم المحاربي) ، وأن (عطية الداخل) هو والد خالد وليس ابنه ، معترضاً بذلك على ابن بشكوال .

على أن الذي نرتاح إليه هو ماجاء في نسخة خطية من تفسير ابن عطية موجودة في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، وجاء في صفحتها الأُولى :

«قال الشيخ الفقيه ، الإمام الأجل ، الحافظ الأكمل ، القاضي الأعدل ، أبو محمد عبد الحق بن الفقيه الحافظ أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف ابن تمام بن خالد بن عطية ـ وهو الداخل إلى الأندلس ـ ابن خالد بن خُفاف بن أسلم ابن مكرم المحاربي من ولد زيد بن محارب بن خصفة (١) بن قيس عيلان . منْ أهل غرناطة » .

ويتفق مع هذا المصدر ما جاء في «الديباج المذهب» ، وفي «المعجم» لابن الأبار ، ويظهر من هذه المصادر الثلاثة :

ا ـ أن نسبه الحقيقي هو ما رجحناه ، وأن أسرته كانت ذات مكانة ملحوظة في غرناطة.

ب ـ أنه عربي الأصل ، ومن قبيلة عدنان ، لأن قيس بن عيلان هو : «إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان » .

أما تاريخ ميلاده فقد أجمع المؤرخون على أنه كان سنة (٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) (٢) لكنهم اختلفوا في تاريخ وفاته .

ـ فأبو حيان يقول : «توفي في الخامس والعشرين من رمضان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ـ هكذا ذكره القاضي ابن أبي حمزة» .

ـ وفي «الأعلام» للزركلي ٥٣/٤ أنه توفي سنة ٥٤٢ هـ ـ ثم يقول : «وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ و٥٤٦ هـ» .

ـ وفي «بغية الملتمس» ص ٣٧٦ . أنه توفي سنة ٥٤٢ هـ . وقيل : سنة ٥٤١ هـ .

---

(١) خصفة : (بالخاء المعجمة ، وتقديم الصاد على الفاء) كما في (الديباج) وفي (لسان العرب) هي قبيلة من محارب . أما في (الإحاطة) فقد وردت الكلمة (حفصة) بالحاء المهملة وتقديم الفاء على الصاد .

(٢) بغية الملتمس (ص ٣٧٦) والديباج المذهب (ص ١٧٥) وكشف الظنون (٥٢٣/٢) وبغية الوعاة (ص ٢٩٥) والأعلام (٥٣/٤) ونفح الطيب (٢٨٠/٣) .

-وفي «المعجم» لابن الأبار ص ٢٩٥ . أنه توفي في منتصف رمضان سنة ٥٤١ هـ ، ثم قال : «وحكى ابن بشكوال وابن خير أنه توفي سنة اثنتين وأربعين ، والأول قول ابن حميد ، وابن عياد ، وغيرهما ، وهو الصحيح»

ومن العجيب أن ابن بشكوال كان معاصراً له لكنه أخطأ في تاريخ وفاته ، كما أخطأ في سلسلة نسبه .

-وفي «الديباج المذهب» - ص ١٧٤-١٧٥ أنه توفي سنة ٥٤٦ هـ بمدينة «لورقة» ، وأقرب الأقوال إلى الصواب - كما يبدو من اتفاق أكثر المراجع - هو القول بوفاته سنة ٥٤١ هـ .

نشـــأته وحيـــاته :

كانت نشأته علمية بكل معاني هذه الكلمة ، فقد ولد وتربى في بيت علم وفضل ، ولقد كانت أسرته أسرةً عربية كريمة ، جمعت بين أصلين من أصول التفوق ، وهما : عراقة الأصل ، وكرامة العلم .

ولقد قال «ابن فرحون» عن جدهم الداخل إلى الأندلس : «إنه نسل كثيراً لهم قدر وفضل» .

وفي «نفح الطيب» وصف لهذه الأسرة بأن رجالها من أعيان غرناطة .

ووالده هو : الإمام الحافظ ، أبو بكر غالب بن عطية - فقيه ، ومحدث ، وزاهد . أخذ عن أعلام الأندلس ، كالحافظ أبي علي الجياني الغساني ، ورحل إلى المشرق سنة ٤٦٩ هـ . وأخذ عن علمائه ، كأبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين الطبري الشافعي . نزيل مكة - وفي رعاية هذا العالم الفقيه نشأ الوليد عبد الحق ، ولاغرابه أن يشبه الفرع أصله ، وأن يكون الابن مثل أبيه فضلا وعلماً .

بِأَبِهِ اقتـــدى عليٌّ في الكـــرم		وَمَنْ يُشَـــابِهْ أَبَه فمـــا ظَلَمْ

كان الناس يفدون إلى رحاب والده ، فيتعلمون ، والوليد الصغير يرى ذلك كله فيتأثر به ، وينمو وجوّ العلم وطلابه يحيط به ، فيتعلق بهذه الحياة العلمية ، ويدفعه

كمل تفسير سورة البقرة والحمد لله كثيرا

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم وآله وسلم تسليما

تفسير سورة آل عمران

صورة لصفحة من النسخة التونسية المساعدة توضح آخر سورة البقرة وأول سورة آل عمران.

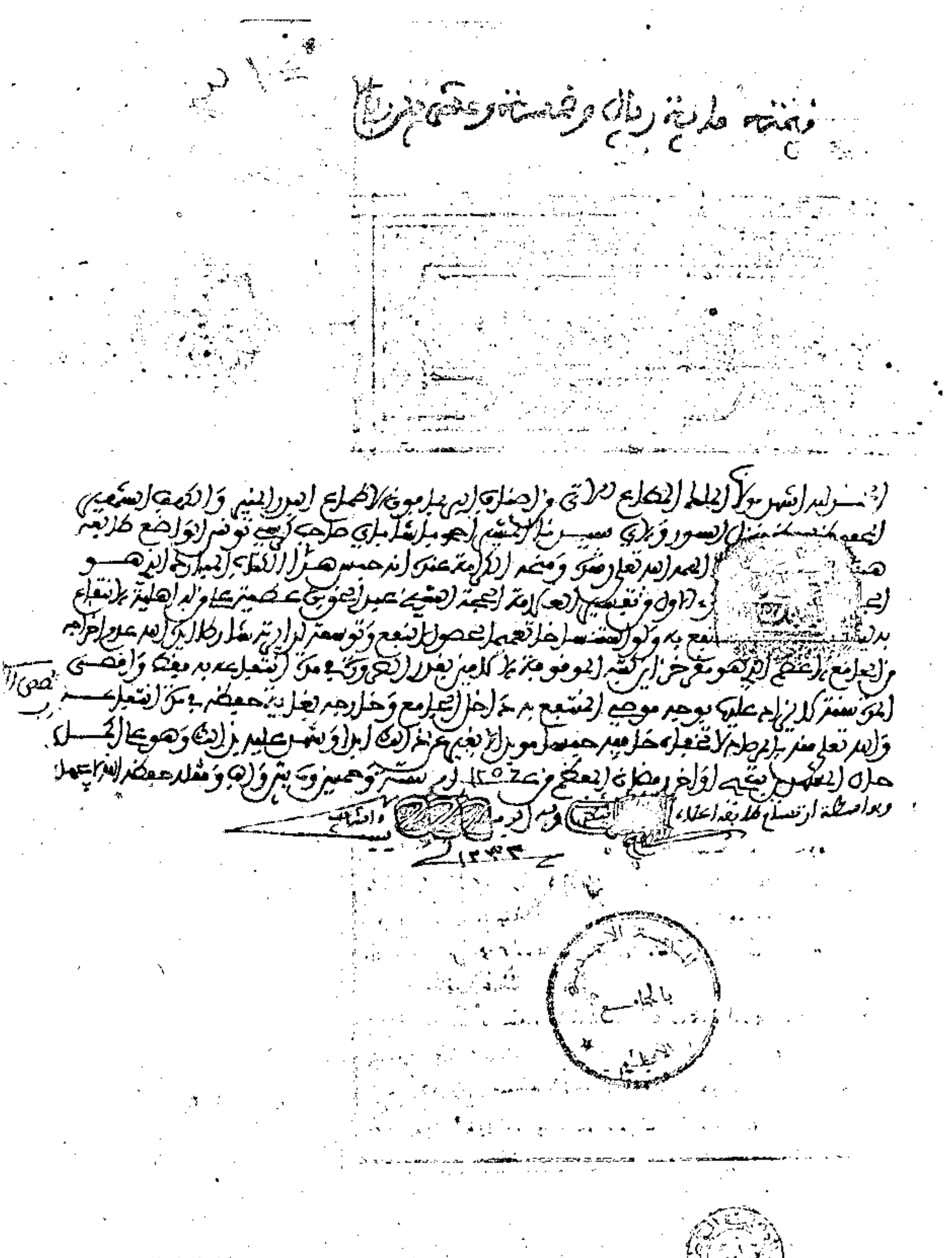

صورة لآخر صفحة من النسخة التونسية المســاعدة وعليها تاريخ نسخها.

إليها طموح فطر عليه ، ويعينه على تحقيق رغباته رعاية واسعة من الوالد الفاضل ، الذي اختار له الأساتذة ، وساعده حتى في تأليف تفسيره .

فهو فرع في شجرة مورقة ، امتدت غصونها ، وكثرت أوراقها ، ونضجت ثمارها ، فأوى إلى ظلها كثيرون ، ونعم بخيراتها طلاب العلم في أماكن كثيرة .

ومن أساتذته أبو علي الغساني ، وأبو علي الصدفي ، وأبو محمد عبد الجبار بن سليمان ، والفقيه أبو محمد القيرواني ، وأبو جعفر بن القليعي . وغيرهم .

وكان رحمه الله غاية في الذكاء والدهاء ، شغوفاً بالتقييد ، واقتناء الكتب ، مولعاً باكتساب العلوم والمعارف ، ولهذا رحل إلى كل عواصم الأندلس وحواضرها ـ يلتقي بالعلماء ، ويأخذ عن الشيوخ ، ويراسلهم في كل مكان إذا عجز عن الالتقاء بهم ، وكان يسألهم الإجازة العلمية حتى كوّن نفسه أحسن تكوين .

هذه النشأة الأصيلة ، وهذه الرغبة القوية في التحصيل والتفوق ـ كانتا سبباً من أسباب نبوغه وشهرته ، واحتلاله مكانة عالية ، حتى عرفه القاصي والداني ، وأثنى عليه كل من عرفه ، أو اطلع على مؤلفاته وآثاره .

وكان ـ رحمه الله ـ من أفاضل أهل السنة والجماعة ، تولى القضاء بمدينة (المُرْيَة)(١) بالأندلس ، فتوخى الحق ، وعدل في الحكم ، وأعز الخطة ، ويذكر أنه كان قد قصد (مرسية) ليتولى قضاءها فصُدَّ عنها ، واعتُدِيَ عليه ، وصُرِفَ عنها إلى (لورقة)(٢) .

والدارس لحياة ابن عطية يجد فيها ألواناً من الجهاد في سبيل مجده ومكانته العلمية ، وفي سبيل أمته وعقيدته . فقد جاهد في سبيل العلم حتى وصل فيه إلى أعلى مكانة ، وجاهد في ميدان القتال ضد أعداء الدين والوطن ، لأن أيام المرابطين كانت أيام معارك وحروب دامية ، وكان ابن عطية ممَّنْ حملوا السيف ، واشتركوا في كثير من الغزوات ، وكان يُكْثِر من التَّغَيُّب عن أهله وبلده ـ وكان والده قد كبر في السن ، وكف بصره ،

(١) مثل : (غُنْيَة) كما في القاموس . ولكن في معجم البلدان أنها بفتح الميم وكسر الراء وتشديد الياء .

(٢) لورقة : بالضم ، حِصْنٌ بالمغرب ـ قاله في القاموس .

وقد طال غياب (عبد الحق) عنه في إحدى الغزوات مما أثار في نفس الشيخ الضرير نوازع الحنين والشوق ، وحرك في قلبه عواطف الأُبوة فكتب إليه أبياتاً كلها رقة وشوق وحنان ، ولمَّحَ له فيها إلى حاجته إلى رعايته ـ قال :

يا نازحَ الدار لم تحفِلْ بِمَنْ نَزَحَتْ دموعَه طارقــاتُ الهم والفكــر
غيّبْتَ شخصك عن عيني فما أَلِفَتْ من بعد مرآك غيْرَ الدمع والسهــر
قد كان أولى جهاد في مواصلــتي لا سيَّما عند ضعف الجسم والكبــر
اعتلَّ سمعي ، وجال الضُّرُّ في بصري بالله كن أنت لي سمعي ، وكن بصري

ومع هذه العواطف الجياشة ، وأمام هذا النداء الأبوي كان ابن عطية يتحمل كل شيء في سبيل أداء واجبه الديني ، وكان يتحمل في سبيل عقيدته ، لأن الحروب كانت ضد أعداء الإسلام والمسلمين الذين تكالبوا على الأندلس في فترة خطيرة من فترات العدوان على الإسلام .

وإلى جانب ذلك جاهد بقلمه ، وكتب رسائل إلى بعض الأُمراء يحثهم فيها على نجدة البلاد التي احتلها الأعداء ، ويُهيب بهم أن ينقذوا الأبرياء من الناس من ظلم الغزاة ، وقسوة المعتدين . وكان دائماً يحث على الجهاد المقدس ، ويلهب الحماس في النفوس بما يُضَمِّنُهُ رسائلَهُ من أشعار حماسية ، يترنم فيها بالبطولات .

بكل هذا الذي أشرنا إليه ـ من بحث عن العلم وسعي إليه ـ ومن حب للمعرفة واقتناء الكتب ـ ومن جهاد في سبيل دينه بقلمه وسيفه ودمه ـ استطاع ابن عطية أن يصل إلى مكانة كبيرة في مجتمعه . وانتهى به الأمر إلى تولي القضاء ، وللقضاء آنذاك منزلة عالية ، ولم يكن يتولاه إلا من هو أهل له علماً وفضلا وخلقاً .

ومما يُرْوَى عنه أنه حين تولى قضاء (المرية) دخل على أهله الدار وعيناه تدمعان تأثراً لمفارقة الوطن والولد ، ورأته ابنته (أم الهناء) على هذه الصورة فأنشدت متمثلة :

يا عين صار الدَّمْعُ عندك عــادةً تبكين في فرحٍ وفي أحــزان

وهذا يدل على أنه أثر في أهل بيته ، وحملهم على حب الشعر ، والاستشهاد به .

ولم يعرف عن ابن عطية أنه تولى قضاء مدينة أخرى غير (المرية) إلا أنه فيما رُوي قصد (مرسية) ليتولى قضاءها فَصُد عنها إلى (لورقة) - كما ذكرنا من قبل - لكن (المقري) في كتابه «نفح الطيب» ذكر أنه قصد إلى (ميورقة) بدلا من (مرسية)، إلا أننا نرجح أنه فعلا كان يقصد (مرسية) - وقد ظن (ابن سعيد) أنه تولى قضاء (غرناطة) - وهذا خطأ، فالواضح أن الذي تولى قضاءها هو والده - أما هو فقد توفي بعد أن صدّ عن (مرسية) بوقت قليل، فلم تكن أمامه فرصة لأن يتولى قضاء آخر.

مكانته :

على الرغم من أن تفسير ابن عطية لم يطبع إلى اليوم فإن الرجل كان صاحب مكانة علمية مرموقة في عصره، وبعد عصره، ولا نجد إجماعاً بين العلماء والشيوخ كإجماعهم على تقديمه، وكلهم يعترفون بفضله، ويجعلونه صاحب مدرسة في التفسير - وهذه هي بعض الآراء التي قيلت فيه ننقلها كما ذكرها أصحابها :

- أثنى عليه (أبو حيان) صاحب «البحر المحيط»، ورجّحَه على غيره كما جاء في «كشف الظنون» : «أثنى عليه أبو حيان، وقال : هو أَجَلُّ من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير».

- وقال عنه (الزركلي) في «الأعلام» : «مفسر، فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والأحاديث، له شعر، ولي قضاء المَرْيَة».

- وجاء في «بغية الملتمس» : «فقيه، حافظ، محدّث مشهور، أديب، نحوي، شاعر بليغ، كاتب، ألف في التفسير كتاباً ضخماً، أربى فيه على ما تقدم، أخبرني به عنه شيخي القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد، قرأ عليه جميعه بالمرية».

- وقال عنه (ابن الأبار) في «المعجم» : «أحد رجالات الأندلس الجامعين إلى الفقه، الحديث والتفسير والأدب - وبيته عريق في العلم».

- وجاء في «طبقات المفسرين» للسيوطي : «الإمام الكبير، قدوة المفسرين».

ـ وقال (ابن خاقان) في «قلائد العقيان» يصف علمه وفضله ، ويصور جانباً من هذه الشخصية الفريدة : «فتى العمر ، كهل العلماء ، حديث السن ، قديم السنا ، لبس الجلالة برداً ضافياً ، وورد ماء الأصالة صافياً ، وأوضح للفضل رسماً عافياً ، سما إلى رتب الكهول صغيراً ، وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيراً ، فسباها معنى وفضلا ، وحواها فرعاً وأصلا ، وله أدب يسيل رضراضاً ، ويستحيل ألفاظاً مبتدعة وأغراضاً » .

ثم قال : « نبعة دوح العلاء ، ومحرز ملابس الثناء ، فذ الجلالة ، وواحد العصر والأصالة ، وقارٌ كما رسا الهضب ، وأدب كما اطرد السلسل العذب ، وَشِيَمٌ تتضاءل لها قطع الرياض ، وتبادر الظن به إلى شريف الأغراض ، سابَقَ الأمجاد فاستولى على الأمد بعبابه ، ولم ينض ثوب شبابه ، أدمن التعب في السؤدد جاهداً ، فتى تناول الكواكب قاعداً ، وما اتكل على أوائله ، ولا سكن إلى راحات بُكره وأصائله ، آثاره في كل معرفة عَلَمٌ في رأسه نار ، وطوالعه في آفاقها صبح أو منار » .

ـ وقال عنه (السيوطي) : «كان يتوقد ذكاء» . وقال : «كان فاضلا من بيت علم وجلالة ، غاية في توقد الذهن ، وحسن الفهم ، وجلالة التصرف» .

آثـــاره وتلاميـــذه :

أهم ما يمتاز به ابن عطية هو تنوع الثقافة ـ ويعتبر فكره نتيجة لهذه الثقافة المتنوعة الغزيرة ـ ونوجز القول عن آثاره فيما يأتي :

١ ـ ألف كتابه العظيم في تفسير القـــرآن الكريم ـ وهو الذي عـــرف بين الناس باسم : « المحـــرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » ـ وقد أفردنا له فصـــلا خاصاً نوضح فيه منهجه وميزاته .

٢ ـ ينسب بعض الباحثين له مؤلفات أخرى ـ ومن هذه المؤلفات كتاب في (الأنساب) ينتقد فيه كتاباً لبعض المعاصرين ـ ذكر ذلك (ابن الأبار) في كتابه «المعجم» ـ ومنها كتاب صغير اسمه (البرنامج) أو (الفهرسة) ـ ولا يزال مخطوطاً ، وقد ترجم فيه لشيوخه الذين أخذ عنهم ـ وأولهم والده (غالب بن عطية) .

وعلى كل فمؤلفاته قليلة ، ولعلها قد ضاعت بفعل الزمن ، وبسبب الأحداث التي توالت على بلاد الأندلس .

٣ ــ ومن آثاره أشعار جيدة ، ورسائل لاتقل عنها جودة . وقد روى (ابن خاقان) ، من شعره مايدل على تمكن . ومن ذلك قوله :

وليلةٍ جُبْتُ فيها الجزعَ مُرتديـاً ... بالسيف أسحبُ أذيالا من الظُّلَـم
والنجمُ حيرانُ في بحر الدجى غَرِقٌ ... والبرق في طيلسان اللّيل كالعَـلم
كأنمـا الليلُ زَنْجِيٌّ بكاهـله ... جُرْحٌ فيثعب أحياناً له بِـدَم

ومن شعره قوله يندب عهد شبابه :

سقياً لعهد شباب ظلْت أمرح في ... ريعانه ، وليالي العيش أسحـارُ
أيام روض الصبا لم تذو أغصـنه ... ورونق العمر غضٌّ والهوى جـارُ
مضى وأبقى بقلبي منه نار أسـى ... كُوني سلاماً وبرداً فيه يانـارُ

إلى أن يقول :

وقارعتني الليالي فانْثَنَتْ كِسَـراً ... عن ضيْغَمٍ ماله ناب وأظفـارُ
إلا سلاح خلال أُخلصت فلهـا ... في منهل المجد إيرادٌ وإصـدارُ
أصبو إلى خفض عيشٍ روضُه خضِلٌ ... أو ينثني بي عن العلياء إقصـارُ

وهو شعر واضح الجودة ، ويدل على قدرة لغوية ، لكنه بالقطع لا يجعله واحداً من الشعراء المعروفين ، بل هو أقرب إلى النظم ورصف الكلمات دون التعبير عن المشاعر الجياشة في عبارات عذبة رقيقة سلسة ــ ومع هذا فحسبه أنه برز في ميادين اللغة والأدب ، والقراءات والفقه ، وأضاف إليها القضاء ومكانته .

أما تلاميذه فهم صفوة من العلماء والشيوخ ، ولقد انتفع بعلمه خلق كثير وكان مَقْصداً يفِدُ إليه الطلاب ، ومن أشهر تلاميذه :

ــ الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن حبيش .

ــ الإمام أبو بكر محمد بن أبي حمزة المرسي .

ـ الإمام أبو جعفر أحمد بن مضاء اللخمي .

ـ الإمام أبو بكر محمد بن خير الأشبيلي .

ـ الفليسوف أبو بكر بن طفيل القيسي صاحب رسالة (حي بن يقظان) المشهورة .

وللحقيقة وحدها نقول :

إن ابن عطية كان نابغة بمقاييس النبوغ في عصره لأنه أحاط بكل العلوم المعروفة في زمانه ، وكان على جانب كبير من الثقافة وتنوع المعارف . وقد أهّلَهُ ذلك لسُمْعَة علمية ظلت باقية على الزمن ، حتى وصلت إلينا مع آثاره وعلى يد تلاميذه .

وهكذا كان ابن عطية عَلَماً في حياته ، وعَلَماً بعد وفاته .

مَنْهَجُهُ فِي التَّفْسِيرِ :

هذا التفسير الذي نعتز بتقديمه اليوم إلى الباحثين والدارسين والراغبين في المعرفة من أبناء الناطقين بالضاد، هو المعروف بين الناس باسم «تفسير ابن عطية»،وهو كما عرف بين أصحاب الدراسات القرآنية : «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» .

ولقد ظل هذا التفسير حبيساً في مخطوطاته قرابة ألف عام إلا قليلا ، وظل الناس يتشوقون إليه بعد أن عرفوه من خلال دراساتهم لكتب التفسير المختلفة . حتى شاء الله أن تجتمع الهمم ، وأن تتضافر الجهود ليخرج إلى الوجود في هذا الثوب الرائع المشرق إن شاء الله .

والحديث عن التفسير والمفسرين حديث طويل ، يمكن فيه أن نتتبع مناهج البحث ، وطرق العرض والتأويل عند الكثيرين ، لكن هذا يخرج بنا عن الغاية التي قصدنا إليها في هذا التعريف. فنحن نريد أن نوضح المنهج الذي وضعه ابن عطية لنفسه حين وجهها لهذا العمل الجليل ، ونريد أن نبين مدى التزامه بهذا المنهج طوال عمله الذي استغرق منه ـ كما يقول ـ صفوة عمره ، وبعد ذلك نتحدث عن منزلة هذا التفسير وقيمته في مجال خدمة القرآن ، وآراء العلماء والباحثين فيه ، وما كان له من أثر في المفسرين وأصحاب علوم القرآن من بعده .

والحقيقة أن ابن عطية قد وضع لنفسه منذ البداية منهجاً كاملا ، ورسم لها طريقاً واضح المعالم ، وحاول دائماً أن يكون ملتزماً ، وأن يسير في حدود هذا الطريق . ولم يخرج ـ فيما رأينا ـ عن منهجه إلا في مواقف نادرة ، وهي ـ لندرتها ـ لا تعتبر إخلالا منه بمنهجه ، ولكنها طبيعة البحث الذي يمتد مع صاحبه سنوات طويلة ، تتغير فيها الظروف والملابسات ، وربما حُمل الباحث على الخروج بعض الشيء عن الخطوط التي رسمها لنفسه،وهذا أمر مقبول في عصر كان البحث العلمي فيه يعتمد على مجرد جهد

فردي ، وذاكرة واعية ، وحافظة لاقطة ، وكان التدوين يستند إلى قدرة فردية ناضجة ، ولكنها ـ مهما كانت ـ ليست كافية لتحديد المعالم ، والتزام المنهج . ونحن اليوم نعتمد على أصول ومدونات ومخطوطات مصورة ، ومراجع لا حصر لها ، وأشرطة وأفلام مسجلة ، نعتمد على ذلك وعلى أكثر منه عند القيام بالبحوث العلمية ، ويضاف إليه تعاون ومشاركة بين كثير من الجهود ، ومع ذلك يَنِدُّ بنا القلم أحياناً أو يضل ، ويغرب عن الفكر ما هو في حاجة إليه من التدقيق ، فما بالنا بهؤلاء العلماء الذين اعتمدوا على أنفسهم ، وعلى بعض مخطوطات من الكتب القليلة ؟ ألحق أن جهودهم تستحق كل تقدير وإعجاب .

وميزة ابن عطية لا تقف عند وضع منهج كامل ، أو تخطيط دقيق لعمله عندما أقبل على تفسير القرآن الكريم ، بل ميزته في أنه ـ إلى جانب ذلك ـ كان رائداً في هذا المجال ، رسم للمفسرين من بعده طريقة مثلى ، ووضع لهم خطة منهجية دقيقة ، وجعل من التفسير عِلْماً يستند إلى قواعد ومبادئ قائمة على الدقة والاستقصاء والترتيب وحسن العرض .

أسس المنهج :

ونحن لا نتكلف حين نحاول توضيح منهج ابن عطية في تفسيره ، لأن الرجل حدثنا بنفسه عن منهجه هذا في مقدمة تفسيره ، وهذه هي أهم الخطوط والأُسس التي رأينا أن نشير إليها في هذا المجال :

أولا : بدأ بالاستعداد لهذا العمل الكبير ، فهو يرى أنه يجب على كل من يريد أن يدخل ميدان التفسير أن يأْخذ من العلوم كلها ، وأن يُعد نفسه إعداداً علمياً كاملا حتى يكون أهلا لهذه المهمة الجليلة ، لأنها فوق طاقة الإنسان العادي ، يقول : «إني لما رأيت العلوم فنوناً ، وحديث المعارف شجوناً ، وسلكت فإذا هي أودية ، وفي كلٍّ للسلف مقامات حسان وأندية ، رأيت أن الوجه لمن تشزّن (١) للتحصيل ، وعزم على الوصول أن يأْخذ من كل علم طرفاً خيارا ...» ثم يقول: «إنه حرم نفسه النوم والراحة حتى يرتقي هذا النجد ، ويبلغ هذا المجد ، ثم جرى في هذا المضمار حتى تصبب عرقاً ، وحاز من العلوم ما قسم له» .

---

(١) تَشَزَّنَ : تَهَيَّأَ واستعد .

فقضيته الأُولى هي كثرة المعارف ، ولهذا توزع الناس فنال كل واحد نصيباً ، وعلى الباحث أن يأْخذ من كل طرف بمقدار — وقد أنفق هو صدر عمره في ذلك حتى وصل إلى ما يريد — وكانت هذه هي خطوته الأُولى .

أما خطوته الثانية فكانت اختيار علم واحد من علوم الشرع ، يستنفد فيه كل طاقاته ، ويُحَصل فيه كل ما يستطيع ، «حتى يضبط أُصوله ، ويُحكم فصوله ، ويلخص ما هو منه أو يؤول إليه ، ويفي بدفع الاعتراضات عليه» . و «حتى يكون لأَهل ذلك العلم كالحصن المشيد ، والذخر العتيد ، يستندون فيه إلى أقواله ، ويحتذون على مثاله»

وقد رأَى أن يختار علم كتاب الله ، لأَنه « هو العلم الذي جعل للشرع قواماً ، واستعمل سائر المعارف خداماً» ، «وهو عنصرها النمير ، وسراجها الوهاج ، وقمرها المنير» .

وهكذا ، استعد ابن عطية لعمله ، وتزود من العلوم كلها بزاد ، ثم تفرغ لعلم واحد منها هو تفسير كتاب الله ، وتفرغ له طول عمره ، «فثنيتُ إليه عنان النظر ، وأقطعتُه جانب الفِكَر ، وجعلتُه فائدة العمر» .

لكنه حين مضى في الشوط طويلا ، رأَى أن مافيه من معارف ونكت وفوائد ، تغلب قوة حفظه ، وأنه عاجز عن أن يحتفظ بها في ذهنه ، ففزع إلى كتابة ما يصطفيه من الآراء ويختاره . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أنه اعتمد على كثير من المصادر في أهم العلوم التي رأَى أن تكون موضع اهتمامه وعنايته في تفسيره ، وهي :

كتب التفسير : واعتمد منها على : تفسير «الإمام أَبي جعفر محمد بن جرير الطبري» المسمى : «جامع البيان في تفسير القرآن» — وتفسير «أَبي بكر محمد بن الحسن — النقاش» المسمى «شفاءُ الصدور» — وتفسير «أَبي العباس أَحمد بن عمار المهدوي» . المسمى «التحصيل لفوائد كتاب التفصيل ، الجامع لعلوم التنزيل» — وتفسير «أَبي محمد مكي بن أَبي طالب» — وهو مخطوط كبير مفقود ، وغيرهم من أئمة التفسير .

كتب القراءات : ونخص بالذكر منها كتب أَبي عمر الداني وهي كتب كثيرة — وكتاب «الحجة» لأَبي علي الفارسي، وكتاب «المحتسب» لأَبي الفتح بن جني .

كتب اللغة والنحو : واعتمد منها على كثير من الكتب ، وبخاصة كتب ـ الخليل ابن أحمد ، وسيبويه ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي علي الفارسي ، والفراء ، والزجاج ، والمبرد ، وثعلب .

وإلى جانب ذلك اعتمد على كتب كثيرة في (الحديث) ، مثل «البخاري ، وصحيح مسلم ، والترمذي ، والنسائي » .

وفي (**الفقه**) : اعتمد على الموطأ للإمام الكبير مالك بن أنس ، وعلى غيره من كتب الفقه في المغرب ، وبخاصة فقه المالكية .

وفي (**التوحيد**) : رجع إلى كتب القاضي أبي بكر الباقلاني ، وكتب الأشعري والجويني .

وهكذا رجع ابن عطية في كل علم إلى أهم مصادره الأصيلة ، على أن اعتماده على هذه الكتب لم يكن اعتماد الناقل فقط ، وإنما كان يذكر آراء المؤلفين والعلماء ، وينسب الرأي لصاحبه في أكثر الأحيان ، وقد يذكر الرأي ولا ينسبه في بعض الأحيان ـ ثم يناقش الآراء إذا لم يكن موافقاً عليها ، ويُثْبِتُ مايراه فيها من قوة وصحة ، أو من ضعف وشذوذ ـ فشخصيته واضحة في كل ما نقله أو علق عليه .

ثانيـاً : الأساس الثاني في منهج ابن عطية أنه جعل من تفسيره كتاباً «جامعاً لكل العلوم» وقد أراد بهذا أن يجعل التفسير في المقام الأول بين علوم العربية ـ فهو ليس علماً مثل غيره ، بل هو قمتها ، وفيه كل ما فيها .

فيه ـ إلى جانب المعاني ـ اللغة والنحو ـ والقراءات والفقه ، والأحاديث وعلم الكلام . وكأنما كان يهدف إلى «التفسير الجامع» ـ مع الدقة والتركيز ، فإذا كان بعض المفسرين قد اهتموا باللغة ، وبعضهم قد اهتم بالأحكام ، وبعض ثالث قد أكثر من مسائل الفلسفة وعلوم الكلام ، إلى غير هذا من الاتجاهات ـ فإن ابن عطية قد جمع كل ذلك في تفسيره .

ولقد نتبه لهذه الحقيقة صاحب «كشف الظنون» حين تحدث عن المفسرين قبل ابن عطية فقال :

«ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم ، ومنهم من ملأ كتابه بما غلب عليه طبعه من الفن» ، ويضرب الأمثلة لذلك حين يقول : «فالنحوي تراه ليس له إلا الإعراب ، وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة ، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجّاج والواحدي في البسيط ، وأبي حيان في «البحر والنهر». والإخباري ليس له شغل إلا القصص ، والإخبار عمن سلف ، سواء كانت صحيحة أو باطلة ، والفقيه يكاد يسرد الفقه جميعاً ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تَعَلُّق لها بالآية أصلا ، والجواب عن الأدلة للمخالفين كالقرطبي . وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة» (١)

وهو ينتقد هؤلاء جميعاً وغيرهم من المبتدعين قائلا : «كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لاغير مع أن فيه تبيان كل شيء» .

ولم يكن صاحب «كشف الظنون» وحده هو الذي تنبه إلى هذا العيب في أساليب المفسرين ، لكنه كان واضحاً عن غيره في ذكر ما أراد - وهذه حقيقة يراها كل من له صلة بعلم التفسير - وفضلا عما ذكره من أن في القرآن تبيان كل شيء ، فإن الباحث عن تأويل آية يحتاج إلى أن يرجع إلى أكثر من تفسير حتى يستطيع أن يعرف الحقائق كلها من قراءات ولغة وحكم وفقه ... الخ .

من هذا تتضح لنا القيمة الكبرى لمنهج ابن عطية ، الذي جمع في تفسيره كل شيء دون أن يطغى جانب على جانب ، ودون أن يُطيل إطالة مملة ، وبهذا أجاد وأفاد .

ثالثاً : رأى ابن عطية أن يسقط القصص التي ملأت كتب المفسرين قبله . وهذه نقطة جديرة بالنظر والتقدير ؛ فلقد امتلأت كتب التفسير بأقاصيص لا سند لها ، ولا داعي إليها لأن فهم الآيات لا يتوقف عليها . والقضية هنا قضية كبيرة ، هي قضية الإسرائيليات التي تعتمد على الأساطير المتناقضة والخرافات الزائفة ، والتي تسربت إلى كتب التفسير لأسباب شتى ، ليس هنا مجال الحديث عنها .

---

(١) كشف الظنون (٢٢٨/١) .

وابن عطية صاحب فضل كبير في هذه القضية ، لأنه أعرض عن ذكر أكثر هذه القصص ، بل لقد عاب على المفسرين قبله عنايتهم بها ، وبخاصة ابن جرير الطبري ، وإذا ذكر ابن عطية واحدة من هذه القصص فإنه يرويها بصيغة التضعيف ، أو يقول : ومن قصص هذه الآيات . وقد يُظهر مافيها من زيف ، وهو عادة لايذكرها إلا عند الضرورة إذ قد تحتاج الآية إليها في نظره ، وكثيراً ما تراه يقول : «وهناك قصص أخرى أعرضت عن ذكرها لضعفها » . وقد وَضَّحَ هو مذهبه في هذا فقال : «لا أذكر من القصص إلا ما تَنْفَكُّ الآية إلا به » ، والأمثلة على ذلك كثيرة ستجدها في التفسير متكررة بصورة تدل على نفور الرجل من الإسرائيليات في وقت كانت فيه مسيطرة على فكر المفسرين .

وقد عرف العلماءُ لابن عطية هذا الفضل وقدروه حقَّ قدره ، وأولهم العلامة ابن خلدون ـ قال في نهاية حديث له عن الإسرائيليات : «فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص ، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخَّص تلك التفاسير كلها ، وتحرى ماهو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب مُتَداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى » .

فابن عطية ـ بهذا ـ باحث علمي بمعنى الكلمة ، يحقق ويدقق ، ويختار صحيح الروايات ، ويترك ضعيف الأسانيد البعيدة عن العقل والدين ، وعمله في زمنه عمل جدير بكل الإعجاب والتقدير .

رابعاً : يتَّصل بما سبق من ميله إلى الدقة والتحقيق أنه كان يقف من آراء العلماء في المعاني موقف الناقد ، فهو لايثبت من أقوالهم هذه إلا ما نُسب إليهم على الأصول التي تَلَقَّى بها السلف الصالح كتاب الله تعالى ، وهي أُصول بريئة من إلحاد أهل القول بالرموز ، نقية من كلام أهل القول بعلم الباطن ، قال : « وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تَلَقَّى السلف الصالح رضوانُ الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية ، السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز واللغز ، وأهل القول بعلم الباطن وغيرهم ، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نَبَّهتُ عليه» . وهذا خير ما يمكن أن يَصْنعه باحث في كتابه ـ بل هو من أهم صور التحقيق والتمحيص العلمي ، وكم رأينا علماء أجلاء

يُفسرون كتاب الله ، ولا يتورعون عن نقل كل كلام يعرض لهم دون تمحيص أو تحقيق ـ أما ابن عطية فمبدؤه الأول أن ينقل الآراء ـ حين ينقل ـ منسوبة إلى العلماء على الأُصول السليمة ، إيماناً منه بأن كتاب الله لابد أن يبقى في معانيه صافياً نقياً.

ويزيد من دقته وأمانته حين يقول ، إنه إذا وقع له رأي منسوب إلى واحد من العلماء الذين يحسن الظن بهم ، أو ثبتت ثقته بهم ، وليس عليهم مطعن في عقيدة ، وكان في هذا الرأي شيءٌ من أغراض الملحدين ـ ذكره ، ونَبَّه عليه ـ فهي الأمانة العلمية الكاملة ، وضعها ابن عطية هدفاً ثابتاً له ، والتزمه في تفسيره .

إننا حين نريد أن نعرف رأي ابن عطية في إخراج ألفاظ القرآن عن ظاهرها ، والالتجاء إلى الرموز ، والمعنى الباطني-يحسن أن نرجع إلى عبارته لنراه يصف هذا العمل بأنه «إلحاد» ، والقرآن عنده كتاب بيان واضح ـ فليس فيه رمز ولا باطن ، الألفاظ فيه على المعنى الظاهر ، إن الهدى والإرشاد لا يُبْنَيَانِ على إلغاز وإبهام ، وإنما لجأ إلى هذا من يقصدون إلى أهداف بعيدة قد تضر بالدين ، بل هي في الحقيقة تعمل على هدم العقيدة الإسلامية التي امتازت بما فيها من وضوح ، وصدق ، والتقاء مع الفطرة ، ويكفي أن من أسماء القرآن الكريم . «الفرقان» لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وهذه التفرقة لاتأتي مع اللبس والإلغاز والإبهام .

خامساً : ثم يأتي الأساس الذي يُعد صُلب المنهج وجوهره ، وقد حدده في قوله : «وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية ، من : حكم ، أو نحو ، أو لغة ، أو معنى ، أو قراءة » .

وفي هذا الأساس عدة نقاط تحتاج إلى توضيح وبيان :

١ـ أنه عندما يتعرض لتفسير آيات الكتاب الكريم ـ يذكر كل ما يتعلق بالألفاظ « على حسب ترتيبها » ، ولا ينتقل من أمر إلى غيره إلا بعد أن يستقصي مافيه من آراء ، ويذكر رأيه إن شاء : فهو حريص كل الحرص على أن يسير مع الألفاظ بالترتيب الذي وردت به في الآيات ، حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره من المفسرين الذين لا يتتبعون الألفاظ بل ينتقلون بينها بدون ترتيب ؛ فإن هذا في نظره : «مُفَرِق للنظر ، مُشَعِّبٌ للفكر» .

٢ ـ ومن هذا يتضح أنه كان صاحب قدرة على التنظيم والتنسيق وحسن العرض ، فهو لا يخلط بين نقاط البحث ، بل تراه ينشط للقول في المعنى حتى إذا انتهى مما يريد ، ووفَّى النقطة حقها من البحث ، انتقل إلى الإعراب ، فإذا مافرغ منه تكلم عن القراءات ، ولا نقول : إنه يلتزم الترتيب الذي ذكرناه ، بل نقول : إنه كان يراعي الترتيب والتنسيق ، فلا تجد في كلامه اضطراباً ، بل هو النظام ، وحسن العرض ، وتوفية كل نقطة حقها قبل الانتقال إلى غيرها ، مما نراه نادراً في كلام المؤلفين في عصره .

٣ ـ قلنا إنه جمع بين مختلف الفنون والعلوم ، ولكنه ميز بين هذه العلوم ، فلم يعطها قدراً واحداً من العناية ، بل نراه قد عُني بالنحو واللغة أشد العناية ، وأصبح تفسيره بهذا حجة في هذا الميدان ، والحق أن أهم الأركان التي يجب أن تنال عناية المفسرين هي «اللغة العربية» بما فيها من إعراب للكلمات ، وبيان لمواقعها ، وتوضيح للاتصال بينها ، وتصريف للمشتقات منها . وكل من قصد إلى تفسير القرآن بغير هذا السلاح فهو بعيد عن التحقيق والدقة والفهم السليم ، ولهذا ترى ابن عطية يخصص في مقدمته باباً عنوانه : «باب في فضل تفسير القرآن ، والكلام على لغته ، والنظر في إعرابه ودقائق معانيه» . وقال في هذا الباب : «إعراب القرآن أصل في الشريعة ، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع» ، وهو يؤكد أن الإعراب هو الفهم الدقيق ، ويَرْوي في ذلك الأحاديث والآثار ، ومن ذلك ما رواه من قوله صلى الله عليه وسلم : (أعربوا القرآن ، والتمسوا غرائبه ، فإن الله يحب أن يُعرب) . وابن عطية يرى أن الصلة وثيقة بين الفهم للقرآن ، وبين الإدراك الصحيح لأشعار العرب ، ولهذا يروي كثيراً جداً من الشواهد العربية ليدلل بها على فهمه للمعاني ، وعلى إعرابه للمفردات ، وعلى بيان ما يرى من اشتقاق وتصريف ، ويروي عن ابن عباس أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أي علم القرآن أفضل ؟ فقال النبي عليه السلام : (عربيته ، فالتمسوها في الشعر) . وقد أجاد ابن عطية في هذا الميدان ، ودلل على باع طويل في العربية ، وأمامك التفسير وستجد فيه من وجوه الإعراب ما يؤكد كلامنا ، وإن شئت فارجع إلى تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم» وانظر ما نقله من آراء البصريين والكوفيين في إعراب كلمة (بسم) ـ أو فارجع إلى ماذكره عن اشتقاق كلمة (الملائكة) أو كلمة

(الشياطين) ، وما نقله من آراء اللغويين في ذلك ، وكيف فضل بعض الآراء على بعض عندما وردت هاتان الكلمتان في قوله تعالى : [وإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً] . وفي قوله تعالى : [فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطانُ عَنْهَا] .

غير أننا نلاحظ هنا أنه دائماً يُفَضِلُ آراء سيبويه ، فتراه بعد أن يعرض الآراء يقول: «والصحيح قول سيبويه» .

٤ ـ والنقطة الرابعة أنه يهتم جداً بذكر كل القراءات ، ويورد منها الصحيح والشاذ ، وقد كان ابن عطية واضحاً جداً في هذا المجال حين قال في مقدمته : «وقصدت إيراد جميع القراءات ، مستعملها وشاذها ، واعتمدت تبيين المعاني ، وجميع محتملات الألفاظ».

فهو يذكر القراءات الصحيحة ، ويذكر القراءات الشاذة ، لكنه دائماً ينبه على شذوذها ، ولقد زاد من توضيح الأمر حين بَيَّنَ الفرق بين القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة بقوله : «ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يُصَلَّى ، لأنها ثبتت بالإجماع ، وأما شاذُّ القراءات فلا يُصلَّى به ، لأنه لم يُجْمِع الناس عليه» .

فالفرق عنده هو الإجماع وعدمه .

ثم يبين لنا السبب في روايته للقراءة الشاذة فيقول : « وإنما أذكره في هذا الكتاب لئلا يُجْهَلْ » .

والمهم أنه لم يقف عند حدود الإشارة إلى القراءة الشاذة أو تضعيفها ، بل نراه في كثير من الأحيان يعلل وينقد ، ويستند في رده لها إلى قواعد اللغة ، أو قواعد النحو غير مُكْتَفٍ بعدم الإجماع ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، وستراها في الكتاب فلا حاجة إلى التمثيل هنا .

٥ ـ النقطة الخامسة هي مذهبه الفقهي ، وابن عطية كان مالكي المذهب ، ولكنه كان غير متعصب لمذهبه ، بل كان يتحرى الحقيقة ، ويخضع للدليل عند ذكر الأحكام الفقهية ، ومن ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى : [وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النكاحِ حَتَّى يبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ] فقد تعرض لذكر الخلاف القائم بين أئمة المذاهب في مسألة من تزوج امرأة في عدتها ، ودخل بها ، وذكر سنداً خاصاً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفيد

أن الجاهل بالحكم لا يتأبد عليه التحريم. وكان يذكر آراء أبي حنيفة والشافعي ، وَيَرُدُّ الرأي الذي لا يرتضي حجته ، أو لا يقبل دليله ، وبخاصة مذهب أبي داود الظاهري الذي ساد في الأندلس فترة من الزمن ، ومع هذا فابن عطية لا يُكثر من ذكر الأحكام الفقهية ، ولا يناقشها إلا في مواقف قليلة .

سادسا : الأساس السادس في منهج ابن عطية هو وضوح شخصيته في تفسيره – ولقد كان له دور بارز ، وله رأيه الذي يثبته بوضوح وقوة .

نعم هو ينقل آراء السابقين ، ويعتمد على المأثور في التفسير ، وأول الآثار التي ينقلها هي : الأحاديث النبوية ، ثم أقوال الصحابة والتابعين ، وكبار العلماء المعروفين ، كعلي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وسعيد ابن جبير ، والضحاك ، وعكرمة ، وقتادة،وأبي العالية،والسدّي ، والحسن بن أبي الحسن ، ومجاهد بن جبر ، وغيرهم ، لكنه لايذكر الأسانيد قصداً إلى عدم الإطالة تحقيقاً لمبدئه في «محرره الوجيز» – وإذا كثرت الآراء اختار ورجّح – وكان دائماً يقف عند الأحاديث وكل ما يُنقَل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويظهر أنه كان ينقل هذه الأحاديث الشريفة عن كتب التفسير السابقة ، ولهذا نراه في بعض المواقف ينقل أحاديث ضعيفة ، أو موضوعة ، دون تحقيق منه أو تعليق عليها .

لكن هذا كله لم يقلل من دوره في الكتاب ، فهو واضح الشخصية كما قلنا ، وهو يبدي رأيه في كثير من المواقف معتمداً على جهده – «كل ذلك بحسب جهدي ، وما انتهى إليه علمي» . وجهده وعلمه في الاختيار أو الترجيح أو التوفيق بين الآراء المختلفة – يظهران في اعتماده على : اللغة ، أو المنطق والعقل ، أو الأحاديث النبوية كما قلنا .

ثم يظهر علمه وجهده في الرأي الجديد الذي يخرج به مخالفاً للمفسرين قبله – وأكثر آرائه الجديدة لها وجاهتها ودقتها ووقعها في النفوس والعقول ، وسترى ذلك في مواضع كثيرة من هذا التفسير العظيم .

سابعا : من الملاحظات الجديرة بالبحث والتأمل أن ابن عطية لم يتجه في تفسيره إلى أسرار البلاغة القرآنية ، ولم يكثر من إيراد وجوه الإعجاز البياني كما فعل الزمخشري مثلا .

ولعل السر في ذلك أن أهل المغرب عموماً برعوا في علوم اللسانيات ، واهتموا بالدراسات اللغوية ، لكنهم لم يبرزوا في علوم البيان كأهل المشرق ، وابن عطية واحد منهم .

وابن عطية يميل إلى تضييق مجال المجاز في القرآن ، ويحرص على التزام الحقيقة ، وكل لفظة يمكن حملها على الحقيقة لاداعي عنده إلى إخراجها عن ذلك إلى ميدان التجوز . ولبعض الباحثين المعاصرين آراءٌ قد تتهم ابن عطية بالعجز عن فهم أسرار البلاغة ، وبالخلط أحياناً بين الاستعارة والتشبيه ، لكن هذا الكلام غير وارد بالنسبة إلى عالم كبير له هذا الباع الطويل في مجال اللغة والقراءات والأحكام ـ إنما هو مبدأٌ التزمه الرجل وليس تقصيراً أو عجزاً .

كذلك نلاحظ أنه قليل الميل إلى سرد آراء الفلاسفة والحكماء ، وإنما يأخذ منها بطرف ، وعندما ينقل عن علماء الكلام فإنه يكون واضحاً محدداً ، لا ينقل الآراء بأسلوب يخل بجوهرها ، بل يحرص على الاحتفاظ بالصورة الأصلية للرأي ، ويقدمها في دقة . وكان واضح الالتزام بمذهب أهل السنة ، لكنه ـ في بعض الأحيان ـ كان يميل إلى رأي غيرهم ، أو على الأقل يضع الرأي المخالف موضع التقدير ، ولقد قيل عنه إنه يميل إلى المعتزلة ، ويأخذ بآرائهم ، وهذا قول مردود ، ناقشناه في موضعه من هذا التقديم ، وبينا رأينا فيه بصراحة .

ثامناً : لعله من الملائم هنا أن نثبت حقيقة وضحت لنا في أثناء عملنا بهذا التفسير ، وهي أن ابن عطية عندما يتعرض لنقطة لا يتركها حتى يوفيها حقها من البحث والاستقصاء ومهما كان البحث الذي يتعرض له فهو دائماً عالم مطلع ملم بالآراء المختلفة .

ارجع إلى تفسيره لقول الله تعالى في سورة الفاتحة : [مَالِكِ يَوْمِ ٱلدين] ، وسترى أنه بدأ فيه بالقراءات فأفاض فيها وأجاد ، وذكر العلل اللغوية ، وسَرَدَ الروايات ، وناقشها مناقشة لغوية وعقلية ، وأثبت تبحره في علم القراءات ، ثم أثبت قدرته اللغوية حين نقل المعاني المختلفة لكلمة (الدين) ، وقال : إنها تأتي في كلام العرب على أنحاء منها : «الملّة ـ وحظُّ الرجل في أقواله وأعماله ، واعتقاداته ـ والعادة ـ وسيرة الملك ـ والجزاءُ ـ والذلُّ ـ والسياسة ـ والحال ـ والداءُ» . ـ وكان كلما ذكر نحواً من هذه

الأنحاء استشهد عليه من كتاب الله تعالى ، ومن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن أشعار العرب وآثارهم . وكثيراً ما ساق على المعنى الواحد أكثر من شاهد ، وعلّق على الشواهد ، وأبان عن موضع الاستشهاد ، وكثيراً ما ينسب الأشعار والآثار لأصحابها ، مع حرص على التنسيق والتتابع – وبعد ذلك كله تراه يختار المعنى المناسب ، ويدلل على اختياره ، ومثل هذا تراه أيضاً في توضيح معنى (الهداية) عند تفسير قول الله تعالى : [اهْدِنَا ٱلصراطَ المُسْتَقِيمَ] . فهو يذكر احتمالات اللفظ في اللغة ، ويدلل على كل احتمال ، ويستشهد له في استقصاء يدل على تبحر في العلم ، وعلى اطلاع واسع ، حتّى لربما ظن بعض القارئين لتفسيره أنه يحاول أن يثبت قدراته في مجالات العلوم المختلفة ، فهو نوع من استعراض العضلات إن صح هذا التعبير عن رجل يتعرض لعمل عظيم هو تفسير كتاب الله تعالى .

غير أن الإنصاف يقتضي أن ننفي هذا الظن ، وأن نقول : إن الرجل يعطي القارئ فوائد في العلوم المختلفة ، وإن الطريق لم يضل به أبداً .

لقد كان ابن عطية دائماً مفهوماً ، محدد الخطوات ، واضح العبارات ، جامعاً كل قول إلى رفيقه ، فاصلا بين الآراء بما يوضح حدود كل رأي ، وحسبك منه هذا إلى جانب علمه لتعترف له بما هو جدير به من العلم والدقة والتنسيق والاستقصاء في البحث .

تاسعاً : ابن عطية يميل إلى تفسير القرآن بالقرآن ، أو على الأقل يختار الرأي الذي يؤيده القرآن ، راجع تفسيره لقول الله تعالى في سورة الفاتحة : [غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، ولا ٱلضَّالينَ] ، تجده يقول : «و (المغضوب عليهم) اليهود – و (الضالين) النصارى » ونسب هذا الرأي لأصحابه ، ثم قال : «وذلك بَيِّن من كتاب الله تعالى ، لأن ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه ، كقوله : [وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله] ، وكقوله تعالى : [قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ ، مَنْ لَعَنَهُ اللهُ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ] .

وهكذا يمضي فيدلل على اختياره بكتاب الله تعالى ، ويقرن الدليل بالدليل ، ويتبع الحجة بحجة أخرى .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان يقف عند الحديث النبوي . فلا يأخذ برأي بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عاشراً : ومما يذكر لابن عطية أنه كان يفسر آيات الجهاد تفسير البطل الذي خبر الحروب وذاق قسوة المعارك ، وقد عرفنا من حياته أنه واحد من العلماء المجاهدين ، جمع بين فضيلتي الجهاد بالقلم ، والجهاد بالسيف في الميدان .

آراء العلماء في تفسيره :

أجمع العلماء على أن تفسير ابن عطية فريد بين التفاسير المختلفة ، وكلهم أقروا بفضله ، واعترفوا بعلمه ، ولا نظن أن هناك إجماعاً على وجود كثير من القيم الفنية والعلمية في واحد من التفاسير كهذا التفسير ، مع أن هؤلاء العلماء يمثلون مذاهب مختلفة ، وعقليات متباينة ، والحق دائماً واضح منير .

وهذه بعض الآراء ننقلها لك عن أصحابها حتى تتأكد من صحة ما ذهبنا إليه :

١ ـ نقل صاحب «كشف الظنون» عن أبي حيان رأيه في تفسير ابن عطية فقال :

«وقد أثنى عليه أبو حيان وقال : هو أجلُّ مَن صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير»(١) .

ومن العجيب أنك حين ترجع إلى تفسير أبي حيان تجده دائماً يتتبع أقوال ابن عطية في الإعراب واللغة ، ويعلق عليها بالنقد ، لكنه ـ مع ذلك ـ لم يقل إلا الحق الذي يمليه عليه ضميره ، والذي حمله على استخدام كلمتي : (أجلُّ ـ وأفضل) .

٢ ـ وقال صاحب «بغية الملتمس» بعد أن ذكر اسمه ونسبه:

ألف في التفسير كتاباً ضخماً ، أربى فيه على كل متقدم ، أخبرني به عنه شيخي القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ـ قرأ عليه جميعه بالمرية » (٢) .

---

(١) كشف الظنون (١٦/٣) ـ وكلام أبي حيان في البحر المحيط (١٠/١) .

(٢) بغية الملتمس ٣٧٦ .

٣ ـ ويقول أبو حيان عندما قارن بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري :

«وكتاب ابن عطية أنقل ، وأجمع ، وأخلص ـ وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص»(١) .

٤ ـ وقال ابن خلدون في «مقدمته» :

«وجاء أبو محمد عبد الحق بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها ، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى» (٢) .

٥ ـ ويعقد ابن تَيْمية رحمه الله مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري في «فتاويه» فيقول :

«وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا ، وبحثاً ، وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير» (٣) .

أثره في المفسرين بعده :

إن أبلغ دليل على قيمة تفسير ابن عطية أنه ترك آثاراً واضحة في مناهج المفسرين بعده ، ومن الطبيعي أن يكون تأثر المفسرين من أبناء المغرب العربي أقوى من تأثر زملائهم في المشرق العربي .

وأهم من تأثر به أربعة ، هم :

١ ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ . فقد ظهر تأثره بابن عطية واضحاً في كتابه: «الجامع لأحكام القرآن» ، فالمتتبع لهذا التفسير الجليل

(١) كشف الظنون ٣/١٦

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣٤٨

(٣) فتاوي ابن تيمية ٢/١٩٤ .

يرى أنه يكاد يسير في خط ابن عطية ، بمعنى أنه التزم نفس المنهج الذي وضع أُسسه ابن عطية .

قال الإمام ابن خلدون رحمه الله في المقدمة :

«وقد تتبع القرطبي في تفسيره ابن عطية ، وسار على منهجه وطريقته . والقرطبي نفسه يضع لنفسه خطوطاً في مقدمة تفسيره ترينا أنه سلك طريق ابن عطية ، ولم نجد اختلافاً بين الرجلين إلا في عناية القرطبي بتخريج الأحاديث النبوية ـ لكنه إلى جانب هذه الميزة أكثر من الإسرائيليات على عكس ابن عطية فكانت هذه عليه لو كنا في مجال الموازنة والمقارنة ـ ويبقى لابن عطية فضل السبق » .

ب ـ أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ـ فقد تأثر كثيراً بابن عطية في تفسيره المسمى «البحر المحيط» .

وأبو حيان يعترف في مقدمته لتفسيره بأنه اعتمد على إمامين كبيرين من أئمة التفسير ، هما الزمخشري وابن عطية ، وقال عنهما : «إنهما أجل من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير». ـ والمنهج الذي سلكه أبو حيان يكاد يشابه منهج ابن عطية ولكنه عني عناية كبيرة بنقل آراء ابن عطية والتعقيب عليها ـ فلا تكاد تمر مسألة في اللغة والنحو ، أو في القراءات إلا وينقل رأي ابن عطية فيها ، لكنه يتتبعه في أكثر النقاط بالتعليق وبالنقد ، وله في ذلك نكات لطيفة ، ونظرات صائبة ، لكنه في بعض الأحيان يكون متجنياً ، ويبدو وكأن جُل همه هو إظهار نواحي الخطإ في كلام ابن عطية ، وقد أشرنا في ذيل الصفحات إلى كثير من هذه النقاط التي تَعَقَّبَ فيها أبو حيان ابن عطية بالنقل والنقد والمخالفة .

ولقد عني بعض العلماء بجمع آراء أبي حيان التي عقب فيها على أقوال ابن عطية والزمخشري في كتب خاصة ، ومن أشهرها كتاب : «المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري» .وهو فيما نعلم لا يزال مخطوطاً إلى اليوم .

جـ ـ الشيخ العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٨٧٥ هـ . فقد اختصر تفسير ابن عطية في كتاب له سماه : «الجواهر

الحسان في تفسير القرآن» . وهذا واضح صريح في كتابه هذا . في المقدمة ، وفي الخاتمة .

قال في المقدمة :

«فإني قد جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يُقِرَّ الله به عيني وعينك ، فقد ضمَّنْتُه - بحمد الله - المهمَّ مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة ، وثقات أعلام هذه الأمة» .

ثم قال في الخاتمة :

«وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية ، وأسقطت كثيرا من التكرار ، وما كان من الشواذ في غاية الوهى ، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغنى عنها» .

وهذا الكلام يوضح نقطتين :- **الأولى** : أن الثعالبي اعتمد كثيراً على تفسير ابن عطية ، **والثانية** : أنه زاد عليه بالتعليق ، ونقل آراء أخرى لأئمة العلماء في مختلف العلوم والفنون ، لكن الرجل كان منصفاً إذ دافع عن ابن عطية في كثير من الآراء .

وقد صرح بذلك كله الشيخ أحمد بابا السوداني في : «نيل الابتهاج» في ترجمة الثعالبي نقلا عن شيخه السخاوي وغيره .

د - وذكر شمس الدين الداودي في طبقات المفسرين في: «ترجمة عبد الكبير بن محمد ابن عيسي أبي محمد الغافقي المرسي» أنه صنَّف تفسيراً جمع فيه تفسير ابن عطية ، وتفسير الزمخشري .

ولسنا نحاول أن نزيد من الثناء على تفسير ابن عطية ، أو الدفاع عنه ، فإنه ليس في موضع الاتهام ، ولم يقلل أحد أبداً من قيمته ، لكننا نحب أن نبين الحقائق وأن ننسب الفضل لأصحابه ، والتفسير بين أيديكم ، وهو حجة واضحة على أن هذا الرجل قد أعد عدته ، وشحذ همته ، وبذل جهده وطاقته في تفسيره هذا ، وكان على مستوى العمل الذي تعرض له ، وجاء فيه بالجديد المبدع .

عقيدة ابن عطية من خلال تفسيره :

أثار بعض العلماء جدلا حول مذهب ابن عطية - وذهبوا إلى أنه يميل أحياناً إلى مذهب المعتزلة ، وقد يختاره على مذهب أهل السنة ولو في بعض الأُمور .

١ - ومن الذين تكلموا في هذا الموضوع من أجلة العلماء شيخ الإسلام أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ - وقد ذكر رأيه هذا في كتابه : «مقدمة في أُصول التفسير - ص ٢٣» قال : «تفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأْثورة عنهم على وجهه - لكان أحسن وأجمل ، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري ، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أُصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أُصولهم ، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة» ا هـ .

وواضح أن ابن تيمية رحمه الله يذكر هنا ثلاث حقائق فيما يرى :

الأولى : أن تفسير ابن عطية أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدع من تفسير الزمخشري . وهذا الكلام يغمز ابن عطية بالاعتزال لكنه يخفف من اعتزاله ، ويجعله أقرب إلى أهل السنة بالنسبة إلى الزمخشري ، فهو قُرْبٌ نسبي .

الثانية : أنه ينقل عن الطبري ، ولكنه يترك ما نقله ابن جرير عن السلف فلا يحكيه ، ولو أنه ذكر كلامهم هذا لكان تفسيره أحسن وأجمل ، ولسنا نظن أن ابن عطية كان مُلْزَماً بنقل كل كلام السلف الذي نقله ابن جرير الطبري ، فلكلٍّ أُسلوبه ، وقد كان ابن جرير ينقل كل الآراء ، ويُرَجح بعضها على بعض أحياناً ، وفي أحيان أُخرى يتركها بدون ترجيح ، أما ابن عطية فلا يختار هذا الأُسلوب - إنه صاحب منهج يقوم على مبادئ ، ومن مبادئه ألا ينقل إلا ما يطمئن إلى صحته ، ويرى أنه يتفق مع العقل - فنقد ابن تيمية غير وارد ، وهل معنى أن يكون ابن عطية من أهل السنة والجماعة أن يتقبل كل صغيرة وكبيرة ، وأن يسلّم بكل ما يقوله علماءُ المذهب دون أن يكون له رأي شخصي ؟ إن هذا يلغي شخصيته ، ويلغي شخصية كل عالم يريد أن ينصف نفسه ويحترم عقله - وإذا كان ابن تيمية في زمانه يتقبل هذا الرأي ويؤمن به فما أحسننا في هذه الأَيام

نرضى لأنفسنا بأن نسلم للسابقين بكل قول حتى ولو لم تقبله عقولنا ، وهذا هو ما فعله ابن عطية على الرغم من تقدمه الكبير في الزمن علينا .

الثالثة : تكشف عن الغاية الحقيقية من كلام ابن تيمية ، إنه يعيب على ابن عطية أنه في بعض الأحيان يميل إلى آراء جماعة من علماء الكلام يسيرون على نهج المعتزلة في استدلالاتهم ، وهو صاحب مذهب ، وله مطلق الحرية في أن يأخذ بما يرى ، لكننا نؤمن أيضاً بأن ابن عطية صاحب رأي ، وله أيضاً مذهبه – إنه يؤمن بالنقل وبالعقل معاً – فإن اتفق في معقوله مع علماء المعتزلة في بعض الأمور ، فإن هذا لاينهض دليلا على أنه واحد منهم ، لأنه في كل آرائه الأخرى يناقضهم ، ويعيب عليهم ، ويرد عليهم حججهم فلماذا إذا نتمسك بنقطة أو نقطتين ، ونجعل منهما أساساً للحكم على مذهب الرجل ، ونترك مئات النقاط والآراء التي يخالفهم فيها ؟ إن الحكم بمثل هذا حكم غير عادل في ميزان الإنصاف والحقائق .

٢ – وهناك عالم جليل آخر أثار هذه النقطة ، واتهم ابن عطية بأنه أخطر على المبتدئين من الزمخشري ، لأن الزمخشري معروف المذهب ، والناس يتناولون كلامه على حذر ، أما ابن عطية فغير مشهور بالاعتزال كالزمخشري ، ومن هنا كانت خطورته على المتعلمين .

هذا العالم هو شيخ الإسلام أحمد بن حجر المتوفى سنة ٩٧٣ هـ – وقد ذكر هذا الكلام في كتابه «الفتاوي الحديثة» وقد جاء فيه سؤال وجواب – أما السؤال فهو : هل في تفسير ابن عطية اعتزال ؟ – وأما الجواب فكان – نعم – فيه شيءٌ كثير ، ثم نقل عن (ابن عرفة) ما أشرنا إليه من أن ابن عطية أشد خطراً على المبتدئين من الزمخشري .

٣ – وقال بعض الباحثين : «من تأمل تفسيره لقوله تعالى : [لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ] أدرك أنه يميل إلى ما تميل إليه المعتزلة ، أو أنه يقدر ما تذهب إليه المعتزلة في مسألة الرؤية ، وإن كان يحترم مع ذلك رأي الجمهور ، أي أهل السنة والجماعة» .

وأبسط ما يقال في الرد على مثل هذا الكلام أن ابن عطية ذكر في تفسير (الزيادة) في هذه الآية قولين :

القول الأول : أن الزيادة هي النظر إلى الله عز وجل – وأيده بأنه رُوِيَ فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم – رواه صهيب – وبأنه رُوِيَ عن أبي بكر ، وحذيفة ، وأبي موسى الأشعري .

القول الثاني : أن الزيادة هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة ضعف .

ثم قال ابن عطية تعقيباً على القولين : «وهذا قول يعضده النظر ، ولولا عظم القائلين بالأول لترجح هذا القول » . هذا هو كل ما أُخذ على ابن عطية

والباحث المدقق يرى :

ا ـ أن ابن عطية لم يُرَجح القول الثاني ، بل أعطى كل قول حقه ، فالأول مروي عن عظماء علينا لهم حق الاستماع والتقدير ، والثاني يعضده العقل والفكر ـ ولكن أيهما أخذ به ابن عطية ؟ لم يقطع ، ولم يقل ـ بل قال : «لولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول » . فترجيحه لم يتم لأن القائلين بالرأي الأول أعظم .

ب ـ أن القول الثاني مروي عن ابن عباس ، والحسن البصري ، ومجاهد وقتادة ، فهل نقول : إن هؤلاءِ من المعتزلة أيضاً ؟

جـ ـ وقف ابن عطية من المعتزلة موقفاً صريحاً واضحاً في كل النقاط المعروفة بأنها موضع خلاف بين أهل السنة وبين المعتزلة ـ وكان دائماً ينصر رأي أهل السنة ، ويعيب على المعتزلة بعبارات فيها طعن وغمز وتجريح ، ونذكر منها هذه الأمثلة :

١ ـ قال في تفسير قوله تعالى :[وَلَوْ يَرَى الَّذينَ ظَلَمُوا إذْ يرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لله جَمِيعاً] : ـ «وثبت بنص هذه الآية القوة لله بخلاف قول المعتزلة في نفيهم معاني الصفات القديمة » .

٢ ـ وقال عند تفسير قوله تعالى : [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] ـ «وفي قوله تعالى : «أُعِدَّتْ» ردٌّ على من قال : إن النار لم تخلق حتى الآن ، وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد» وتأمل قوله : «سقط فيه» لتعلم مقدار نفوره من مذهب منذر بن سعيد هذا ، وهو واضح الاعتزال .

٣ ـ وقال عند تفسير قوله تعالى : [وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدمَ فَسَجَدوا إلا إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكَافِرِينَ] ـ «معنى (وكان من الكافرين) أي في علم الله تعالى أنه سيكفر ، لأن الكافر حقيقة ،والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة » .

٤ ـ وعند تفسيره لقول الله تعالى : [فإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِني هُدًى] ـ قال : «وفي قوله : «مني» إشارة إلى أن أفعال العباد خلق لله تعالى» .

٥ ـ وعند تفسير قوله تعالى : [وإنها لكبيرة إلا علَى الخاشعين ، الذين يظنون أنهم

مُلاقُوا ربِّهم] . قال : «ويصح أن تكون الملاقاة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة ، وورد بها متواتر الحديث» . فتأمل قوله : «وورد بها متواتر الحديث» .

٦ - وعند تفسير قول الله تعالى : [الله لا إله إلا هُوَ الحيُّ القيوم] يثبت صفة الحياة لله على مذهب أهل السنة والجماعة ، ثم يقول : «وذكر الطبري عن قوم أنهم قالوا : لله حياة لا بحياة» - وَيُعَقِّبُ على ذلك بقوله : «وهذا قول المعتزلة ، وهو قول مرغوب عنه» .

٧ - وعند تفسير قول الله تعالى : [لا تُدرِكُهُ الأَبْصارُ ، وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصار ، وَهُو اللَّطِيفُ الْخَبير] يذكر رأي أهل السنة فيقول : «أجمع أهل السنة على أن الله عز وجل يُرى يوم القيامة..... الخ» ، وبعد أن ينسب القول لأهله من السلف يقول : «والوجه أن يبين جواز ذلك عقلا ، ثم يستند إلى وقوع السمع بوقوع ذلك الجائز ، واختصار تبْيين ذلك أن يعتبر بعلمنا الله عز وجل ، فمن حيث جاز أن تعلمه لافي مكان ، ولا متحيزاً ، ولا مقابلا ، ولم يتعلق علمنا بأكثر من الوجود - جاز أن نراه غير مقابل ، ولا محازى ، ولا مكيف ، ولا محدود» . وهو بهذا ينتقض دليل المعتزلة القائلين بأن الرؤية تقتضي مقابلة وتحيزاً وزماناً ومكاناً ... الخ .

ثم يمضي في هدم رأي المعتزلة فيقول : «ثم ورد الشرع بذلك ، وهو قوله عز وجل : [وجوهٌ يوْمئذٍ ناضِرةٌ ، إلى ربها ناظِرَةٌ] - وتعدية النظر بإلى إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤية لا لمعنى الانتظار على ما ذهبت إليه المعتزلة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم - فيما صحَّ عنه **وتواتر** وكثر نقله - (إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر) ... الخ ماقال .

وكلامه هنا طويل ، ومدعم بالحجج النقلية والعقلية وهو موجود في موضعه في التفسير في سورة الأنعام .

فهل بعد هذا كله - وهو غيض من فيض كما يقولون ، أو نقطة من بحر - هل بعد هذا يقال : إنه يميل إلى رأي المعتزلة ؟

الحق أن ابن عطية كان على مذهب أهل السنة والجماعة ، ولكن عن اقتناع لا عن تقليد ، وعن فهم لا عن تسليم .

مَنْهجُنا في هَذا التّحْقِيق :

حين بدأ العمل في تحقيق هذا التفسير الجليل ، كان الهدف الأَول هو البحث عن النسخ الخطية التي يمكن الرجوع إليها ، وقد أُتيحت لنا فرصة الاعتماد على بعض النسخ المخطوطة ، لكنها كلها تعرضت لأَضرار كثيرة أو قليلة ، واحتاجت منا إلى جهود واضحة حتى نصل إلى الأَصل الذي لانشك في أنه عمل ابن عطية .

وأَهم النسخ التي يمكن الإشارة إليها هي :

١ – نسخة كاملة مصورة من تونس ، بخط مغربي .

٢ – النسخة الملكية التي قسمت تفسير ابن عطية إلى أَربعة أَجزاء ، الجزءُ الأَول ينتهي إلى قوله تعالى : [ورفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ] . وقد أُرخ بيوم السبت الخامس والعشرين من صفر الخير عام تسعة وتسعين ومائة وأَلف – وهو تحت رقم (٨٥٣١) – وعدد صفحاته (٥٨٩) .

٣ – النسخة الناصرية الموجودة بالخزانة العامة ضمن مخطوطات الأَوقاف بالمملكة المغربية ، رقم (٨٨٠) – والجزءُ الأَول منها يصل إلى قوله تعالى : [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ] ، وهو تحت رقم (١٣٢٧) – وعدد صفحاته (٢٩٨) .

٤ – النسخة الناصرية الموجودة كذلك بالخزانة العامة ضمن مخطوطات الأَوقاف بالمملكة المغربية تحت رقم (١٨٦) ، والجزءُ الأَول منها يبلغ إلى قوله تعالى : [يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] . وهو تحت رقم (٢٣١) – وعدد صفحاته (٣٦٢) .

٥ – النسخة اليوسفية – وينتهي الجزءُ الأَول منها بانتهاء سورة البقرة ، وهو تحت رقم (١٧٣) ، وعدد صفحاته (٢٠٢) .

٦ – نسخة المكتبة العامة بالعرائش ، وينتهي الجزءُ الأَول منها بانتهاء سورة البقرة كذلك ، وليس له رقم ، وعدد صفحاته (٣٩١) .

والنسخة التي جُعلت أساساً للإخراج ، وكان الاعتماد الأول عليها هي النسخة الناصرية التي تنتمي للأوقاف ، لأنها مع ما أصابها من أضرار كانت أقرب النسخ إلى السلامة ، أما بقية النسخ فقد كانت مساعدة ومعينة عند البحث .

فإن صادف المرءُ الصواب فهذا من فضل الله وعطائه ، وإلا فالمركب صعب غير ذلول ، والإنسان موضع الضعف والقصور ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد قصدنا في منهج عملنا أن نحقق ما يأتي :

أولا : الوصول بقدر الإمكان إلى الأصل الذي نطمئن إليه ، والذي نثق أنه كلام ابن عطية ـ والخطة الغالبة في هذا أنه إذا اختلفت النسخ ، وكانت كلها تمس الموضوع أن نشير إلى مافيها من كلمات بلفظ «وفي بعض النسخ» من دون أن تضاف ، ولا أن توصف بصفات ، وأن يعتبر ما زيد فيها من العبارات ، ويتجاوز عما كان من النقص .

ثانياً : عُنينا بضبط الكلمات التي نراها مظنَّةً للتحريف أو الخطإ عند النطق ، وهدفنا من هذا أن نساعد القارئَ على نطق العبارة في صورتها الصحيحة من أول الأمر ، وراعينا أن نساعد القارئَ على ذلك بالفواصل ، وعلامات الترقيم ، والرجوع من أول السطر ، والفصل بين العبارات والجمل المنقولة ، والآراء المنسوبة لأصحابها ، بحيث يستقل كل كلام عن غيره ، وبحيث يعرف القارئُ كلام ابن عطية من كلام العلماء الذين ينقل عنهم ، وفي هذا المجال كنا نضع هذه العبارة دائماً في أول السطر : «قال القاضي أبو محمد رحمه الله » . لندل على أن الكلام التابع لها إنما هو من كلام ابن عطية الذي يريد به التعليق أو النقد أو أي شيء آخر .

وتحقيقاً لهذه الفائدة وضعنا الآيات القرآنية التي يذكرها المؤلف للاستشهاد بها بين هاتين العلامتين [ ] ـ ووضعنا الأحاديث النبوية بين هاتين العلامتين ( ) أما الآثار التي نرى لها أهمية فقد نضعها بين علامتي التنصيص « » ـ وكذلك بعض الأقوال المنسوبة لأصحابها .

ثالثاً : راعينا ضبط الآيات القرآنية كلها بالشكل ـ أما الآيات المُفَسَّرَةُ فهي منقولة من المصحف الكريم مع الأرقام وقد وضعناها بين هاتين العلامتين ﴿ ﴾ . وأما الآيات التي تأتي للاستشهاد فنشير في أسفل الصفحات إلى رقم الآية ، والسورة التي ذكرت فيها حتى يسهل الرجوع إليها في موضعها من هذا التفسير أو من غيره لمن يريد ذلك .

رابعاً : أما الأحاديث النبوية فقد حرصنا على تخريجها ، وقد نذكر بعض روايات أخرى ورد بها الحديث غير الرواية التي ذكرها المؤلف ، وقد نكمل الحديث إذا كان المؤلف قد ذكر جزءًا منه استكمالا للفائدة ، وتسهيلا على من يريد الرجوع إلى الحديث في مصادره الأصلية .

خامساً : الأبيات الشعرية ضبطناها بالشكل ، ونسبناها إلى قائلها إذا أغفل ابن عطية النسبة ، وقد نشير إلى بعض الأبيات السابقة أو التالية للبيت الذي استشهد به المؤلف ، ونكمل أيضاً البيت إذا كان قد ذكر نصفه ، وقد نشير إلى اختلاف في رواية بعض الألفاظ في البيت ـ ثم حرصنا على التعريف بالقائل إذا كان اسمه يرد لأول مرة ، وحرصنا على شرح بعض الكلمات الغامضة أو التراكيب الصعبة حتى لا نلجئ القارئ إلى الاعتماد على مراجع لغوية ، وقد نذكر المرجع الذي اعتمدنا عليه ، وقد نتركه خشية الإطالة ، وكتب اللغة والمعاجم اليوم كثيرة ، لكن أهم المراجع التي اعتمدنا عليها هي : «اللسان ، والقاموس المحيط ، والصحاح ، والمعجم الوسيط» .

سادساً : حققنا أسماء الأماكن والأعلام من رجال الفقه والكلام ، واللغة والنحو ، والقراءات ، وغيرهم ممن ذكرهم المؤلف ، وكذلك أسماء الشعراء ، وضبطناها بالشكل إن احتاجت ، ونبهنا على من يكون في اسمه شيءٌ من تحريف الرواة ، وَعَرَّفْنَا بالمشهورين من كل هؤلاء عند ذكر الواحد منهم لأول مرة .

سابعاً : قمنا بالتعليق الخفيف على كلام المؤلف في بعض الموضوعات ، وهدفنا من ذلك :

ـ توضيح المعنى إذا رأينا فيه شيئاً من غموض .

ـ ربط الكلام ببعضه إذا طال الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه مثلا .

ـ الإشارة إلى ما قد يبدو من تناقض في كلام المؤلف ، كأن يروي بيت الشعر بروايتين مختلفتين في موضعين متباعدين ، وكذلك في بعض الأقوال والآثار التي استشهد بها .

ـ تسجيل بعض آراء نرى أنها جديرة بالنظر ، وخصوصاً للمفسرين الذين استفادوا من ابن عطية كالقرطبي ، وأبي حيان ، وابن كثير ، واستعملنا في ذلك بعض الرموز اختصاراً للكتابة وهي :

[الطاءُ ـ والقاف ـ والكاف ـ والحاءُ ـ والخاءُ] هكذا : [(ط) (ق) (ك) (ح) (خ)]

وهي على الترتيب تشير إلى :

[الطبري ـ القرطبي ـ ابن كثير ـ أبو حيان ـ مختصر ابن عطية [رحمهم الله جميعاً].

وكل مالم يُنْسب إلى قائله لا بالرموز ولا بالتصريح فهو مما اتفق لنا ، ونسأل الله التوفيق .

ثامناً : أعددنا فهارس مختلفة رأينا أن ينتهي بها الكتاب ـ إن شاء الله ـ في جزء مستقل أو أكثر ، وهي تسعة فهارس :

١ ـ الأبواب والموضوعات .

٢ ـ الأعلام .

٣ ـ البلدان والأماكن .

٤ ـ الأحاديث النبوية .

٥ ـ الآثار السلفية .

٦ ـ الكتب .

٧ ـ الأمثال والأقوال

٨ ـ الغزوات وأيام العرب .

٩ ـ الشواهد الشعرية .

وأخيراً نسأل القارئ الكريم أن يتقبل عملنا بصدر رحب ، وأن يتسامح في هفواتنا ، فالإنسان كما قلنا موضع الضعف والتقصير .

غفر الله لنا أخطاءنا ، وأثابنا بنياتنا ، وتقبل منا عملنا الذي قصدنا به وجهه الكريم، منه نرجو العون والسداد ، وهو ولي التوفيق في المبدإ والمعاد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ... وهو حسبنا ونعم الوكيل

الدوحة في غرة محرم الحرام ١٣٩٨ هـ

الموافق ١١ ديسمبر ١٩٧٧ م

المحققـــون

الرحالي الفاروق	**عبد الله بن ابراهيم الأنصاري**
السيد عبد العال السيد	**محمد الشافعي صادق**

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب، ومقدمته

وهي تشتملُ على أنواعٍ من علوم القرآن: كالقول في فضائله، وتأْويلِ آياته، وكجمعه وإعجازه وعربيَّته، وكتفسير الأَحرُف السبعة الواردة في شأْنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال الراغبُ الأَصبهاني (١) في مقدمة تفسيره :

«أَشرفُ صناعة يتعاطاها الإنسان، تفسيرُ القرآن وتأْويلُه ، وذلك أن الصناعات إنما تشرُف بأَحد ثلاثة أشياء :

ـ إما بشَرَفِ موضوعاتها ، نحو أن يُقال : الصّياغةُ أشرفُ من الدباغة ، لأَن موضوعَها وهو الذهبُ والفضةُ أَشرفُ من جلد الميتة ، الذي هو موضوع الدباغة .

ـ وإما بِشَرَفِ صُوَرِها ، نحو أن يُقال : طبع السيوفِ أشرف من طبع القيود .

ـ وإما بشرَفِ أَغراضها ، كصناعةِ الطب التي غرضُها إفادةُ الصحة ؛ فإنها أَشرف من صناعة الكناسة التي غرضها تنظيفُ المستراح ، فإذا ثبت ذلك ؛ فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث .

ـ وهو أن موضوعَ التفسير كلامُ الله الذي هو ينبوع كلِّ حكمة ، ومعدِنُ كل فضيلة . وصورةُ فعله إظهارُ خفِيّات ما أودعه مُنَزِّلُهُ مِن أسرار ليدَّبَّروا آياتِه ، وليتَذَكر أُولو الأَلباب .

---

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصبهاني أو الأصفهاني المعروف بالراغب أديب من الحكماء العلماء من أهل أصبهان، سكن بغداد، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. توفي سنة ٥٠٢ هـ .

من كُتبه : « جامع التفاسير ـ محاضرات الأدباء ـ حل متشابهات القرآن. وغيرها » . (الأعلام للزركلي ٢ / ٢٧٩) .

ـ وغرضه التمسكُ بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لافناءَ لها . ولهذا عظَّم الله محله بقوله : [وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا](١) .

قيل : هو تفسير القرآن ا. هـ.(٢) .

ـ ثم المنهج السليم للتفسير : أن يتناول المفسِّرُ الآياتِ التي يُفسِّرُ بعضُها بعضًا ، ولا ينبغي له أن يبني حكماً ، أو يقررَ رأيا ، أو يكشفَ معنى ، إلا بعد استيفاءِ هذا المعنى وهو :

تفسير القرآن بالقرآن .

(١) من الآية رقم (٢٦٩) سورة البقرة .

(٢) أي انتهى كلام الراغب الأصبهاني .

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي بَرَأَ النَّسَم (١) ، وأفاض النِّعَم (٢) ، ومنح القِسَم (٣) ، وسَنَّى من توحيده وعبادته العِصم (٤) . ذي العزَّة القاهرة ، والقدرة الباهرة ، والآلاءِ المتظاهرة (٥) ، الذي أوجدنا بعد العدم ، وجعلنا

---

(١) (برأ) بمعنى خلق – يقال : برأ الله الخلق بَرْءاً وبُروءاً : خلقهم ، فهو بارئ . و(النَّسَم) : الخلق – يكون للكبير وللصغير . ويكون لكل من في جوفه روح من الدواب وغيرها – لسان العرب مادة (نسم ١٦/٥٣) . وفي لسان العرب مادة (برأ) ١/٢٢ : قيل : ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ماليس لها بغيره من المخلوقات ، وقلما تستعمل في غير الحيوان ، فيقال : برأ الله النسم ، وخلق السموات والأرض .

(٢) (أفاض) – يقال : أفاض الله الخير أي كثّره – و(النِّعَم) : جمع نِعْمَة ، وهي المنُّ والعطاء .

(٣) (مَنَحَ) : وَهَبَ ، و القِسَم – بكسر القاف – : الحظُّ والنصيبُ من الخير – والجمعُ أقسام .

(٤) (سَنَّى) : هيّأ وسهّلَ ويسّر – و العِصَم جمع عِصْمَة – يقال : عصم الله فلاناً من الشر أو الخطأ عِصْمة : حفظه ووقاه ومَنَعَه . وكلمة (من) في قوله : (من توحيده) للتعليل – والمعنى أن الله هيأ وسهّل للإنسان العصمة من الوقوع في الشر بفضله وتوفيقه ، وبسبب توحيده وعبادته . يقال : سنَّيْتُ الشيء : أي هيأته – ومنه أُخِذت (المسنَّيات) . وأنشد معاوية رضي الله عنه :

وأعْلَم عِلماً ليس بالظَّنِّ أنَّه ... إذا الله سَنَّى عقد شيء تيسَّرا

(٥) (المتظاهرة) : التي يظاهر بعضها بعضا – أي يساعد بعضها بعضا في التدليل على فضل الله .

الخِيار الوَسَط (١) مِن الأُمم ، وَخَوَّلنا (٢) عَوارِفَ لا تُحْصَى ، وهدانا شِرْعَةً (٣) رمت بنا من رضوانه إلى الغرض الأَقصى .

أَنزل إلينا القرآن العزيز ، وَعَدَ فيه وبَشَّر ، وأَوْعَدَ وحذَّر ، ونهى وأَمر ، وأَكْملَ فيه الدين ، وجعله الوسيلة الناجعة ، والحبل المتين ، وَيَسَّره للذِّكر، وخلَّده غابر الدهر ، عِصْمَةً للمعتصمين ، ونوراً ساطعاً في مشكلات المُخْتَصِمين ، وحُجَّةً قائمة على العالم ، ودعوةً شاملة لِفِرَقِ بني آدم . كَلامَهُ(٤) الذي أَعجز الفُصحاء ،وأَخرس البُلَغاء ، وشرَّف العلماء . له الحمدُ دائباً ، والشُّكرُ واصباً (٥) ، لا إله إلاّ هوَ ربُّ العرشِ العظيم .

ـ وأَفضلُ الصلاة والتسليم على رسولِه محمد الكريم ، صفوتِه من العباد ، وشفيعِ الخلائق في المعاد ، صاحبِ المقام المحمود ، والحوضِ المورود ، الناهض بأَعباءِ الرسالة والتبليغ الأَعْصَم (٦) ، والمخصوص بشرف السعاية في الصلاح الأَعظم ، صلى الله عليه وعلى آله صلاةً مستمرة الدوام ، جديدة على مر الليالي والأَيام .

وبعد ـ أَرشدني الله وإياك ـ فإني لما رأَيت العلوم فنوناً ، وحديثَ

---

(١) (الخيار) ـ المختار المُنتقى ـ (للمفرد والمذكر وفروعهما) . و (الوَسَطُ) : العدل والخير يوصف به المفرد وغيره ـ وفي التنزيل : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطاً) أي عدولا أو خياراً .

(٢) خوَّله الشيء : أي أَعطاه إياه متفضلا . (العوارف) : جمع (عارفة) وهي الإحسان .

(٣) (الشِّرعَةُ) : الطريق ، والمذهب المستقيم ـ قال تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً) .

(٤) (كلامه) بدل من (القرآن) في قوله : (أنزل الينا القرآن العزيز) .

(٥) أي : دائماً ، كقوله تعالى : (وَلَهُ الدِّينُ واصِباً) .

(٦) اسم تفضيل ، أو بمعنى العاصم ، وفي بعض النسخ الأعم .

المعارف شُجوناً ، وسَلَكْتُ فإذا هي أودية ، وفي كلٍّ للسَّلَفِ مقاماتٌ حِسان وأندية ، رأيت (١) أن الوجه لمن تَشَوَّقَ (٢) للتحصيل ، وعزم على الوصول ، أن يأخذ من كل طرَفٍ خياراً ، ولن يذوق النوم ـ مع ذلك ـ إلاَّ غِرارا(٣) ، ولن يرتقي هذا النَّجْد ، ويبلغَ هذا المجد ، حتى يُنْضِيَ مطايا(٤) الاجتهاد ، ويَصِلَ التأْويبَ بالإسْآد(٥) ، ويَطْعَمَ الصَّبِرَ (٦) ويكْتَحِلَ بالسُّهاد ، فَجَرَيْتُ في هذا المضمار صَدْرَ العُمْر طلقا ، وذهبتُ(٧) حتى تَفَسَّخْتُ أيْنًا(٨) ، وتَصَبَّبْتُ عَرَقا ، إلى أن انْتَهَجَ بفضل الله عملي ، وحُزْتُ من ذلك ماقُسِمَ لي ، ثم رأيت أنَّ من الواجب على من احْتَبى (٩) ،وتخَيَّرَ من العلوم واجْتبى ، أن يعتمدَ على عِلْم من علوم الشرع ، يستنفِدُ فيه غايةَ الوُسْع ، يجوبُ آفاقه ، ويَتَتَبَّع أعماقه ، ويضبِطُ أُصوله ، ويُحْكِم فصوله ، ويُلَخِّص

---

(١) من الرأي والاعتقاد .

(٢) وفي بعض النسخ (تَشَزَّنَ) ،ومعناه : (تجهز وتهيأ) . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة (ص) فلما بلغ السجدة (تشزَّن) الناس للسجود ، فقال صلى الله عليه وسلم : «إنما هي توبة نبي ، ولكني رأيتكم تشزَّنتم » (أيْ تهيأتم) للسجود . فسجد فسجدوا . ا هـ.

(٣) قليلا ـ ومنه قول الشاعر :

لاأذوق النــوم إلا غِراراً مِثْلَ حَسْوِ الطَّيْر مِنْ ماء الثِّماد

والثماد : الماء القليل .

(٤) (يُنْضِي) : يُتعب ويُهْزِل أي يجعلها هزيلة ـ و (المطايا) جمع مطية : الراحلة من الدواب .

(٥) التأويب : سير النهار كله إلى الليل ـ و (الإسآد) : يقال (أسأدَ) السيرَ : أدأبه ، وأكثر ما يستعمل ذلك في مشي الليل ـ والجملة تفيد معنى مواصلة البحث والاطلاع .

(٦) (الصَّبِرُ): عصارة شجر مُرّ ، وهو بفتح فكسر جمعه صُبُورٌ ، والواحدة صَبِرَةٌ .

(٧) وفي بعض النسخ (وأَدمَنْتُ) .

(٨) (الأيْن) : الإعياء والتعب .

(٩) (احتبى) تمكن من العلوم تمكن الحبوة من صاحبها .

ماهو منه ، أو يؤول إليه ، ويفي بدفع الاعترضات عليه ، حتى يكونَ لأَهل العـلِم كالحصنِ المشيد ، والذُّخرِ العتيد ، يستندون إليهِ في أَقواله ، ويحْتَذُون على مِثاله .

فلما أَردتُ أَنْ أَختارَ لنفسي ، وأَنْظُرَ في علْمٍأُعِدُّ أَنوارَه لِظُلَم رَمْسي؛ سَبَرْتُها (١) بالتّنْويع والتّقْسيم ، وعلمت أَن شرف العلِم على قدر شرف المعلوم ، فوجدت أَمْتَنها حبالا ، وأَرسخَها جبالا ، وأَجملَها آثاراً ، وأَسطَعها أَنْواراً : عِلْمُ كتاب الله جلَّت قدرتُه ، وتقدّسَتْ أَسماؤُه ، الذي (لا يـأْتيهِ ٱلْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حكيمٍ حَميدٍ) (٢) الذي استقل بالسُّنَّة والفَرض ، ونزل به أَمين السماءِ إلى أَمين الأَرض ، هو العلم الذي جعل للشرع قواماً (٣) ، واستعمل سائر المعارف خُداماً ، منه تُؤْخذ مبادئُها ، وبه تعتبر نواشِئُها (٤) ، فما وافقه منها نَصَع (٥) وما خالفه رُفِض ودُفِع ، فهو عُنْصرها النمير ، وسراجها الوهاج ، وقمرها المنير. وأَيقَنتُ (٦) أَنهأَعظمُ العلوم تقريباً (٧) إلى الله تعالى ، وتخليصاً للنيات ، ونَهْياً عن الباطل ، وحضًّا على الصالحات ،

(١) السَّبْرُ : عبارة عن حصر أوصاف المحل واختيار مايصلح أن يكون علة وما لا يصلح ، وهو لقب لمسلك من مسالك العلة عند علماء الأصول ، ويقال : السبر والتقسيم .

(٢) من الآية (٤٢) من سورة (فُصِّلَتَ) – وذكْرُها هنا اقتباس .

(٣) (قِواماً) قوام كل شيء أعماده ونظامه .

(٤) جمع ناشئة ، والمراد أن كل ما ينشأ من الأحكام والفروع فإنما يعتبر بهذا العلم .

(٥) وفي بعض النسخ (بضع) أي : قَبِلَ وسَمِعَ ، من قولهم : بضَعَ الكلامَ بضوعا فهمه . .

(٦) معطوفة على قوله : (فوجدت ....)

(٧) مصدر : قرّبه – تقريباً .

إذ ليس من علوم الدنيا(١) فيخْتِلُ حاملُه من منازِلها صيْدا(٢) ، ويمشي في التلطف لها رويداً . ورجوتُ أنّ الله تعالى يُحَرِّم عَلَى النار فِكرا عَمَرَتْهُ ــ أكثرَ عُمْرِهِ ــ معانيه(٣) ، ولساناً مرَنَ على آياته ومثانيه ، ونفساً ميَّزَتْ براعةَ رصْفِهِ ومبانيه ، وجالت صوامها(٤) في ميادينه ومغانيه . فثنيت إليه عِنانَ النظر ، وأَقْطَعْتُه جانبَ الفِكَر ، وجعلته فائدة العُمُر. وما ونيت ــ عَلِمَ الله ــ إلاّ عن ضرورةٍ بِحَسَبِ ما يُلِمُّ في هذه الدار من شغوب(٥) ومس من لُغُوب . أو بحَسَب تعهُّد نصيبٍ من سائر المعارف . فلما سلكتُ سبيله بفضل الله ذُلُلا(٦) وبلغتُ فيه من اطِّراد الفهْمِ أَمَلا ، رأيتُ أن نُكَتَهُ وفوائدَه تغلبُ قوةَ الحفظ وتَفْدح ، وتسنَحُ لمن يرومُ تقييدها في فِكْرِهِ وتبرح ، وأنّها قد أخذت

(١) أي ليس من العلوم التي تؤدي إلى المخاتلة والمخادعة في الدنيا . هذا واعلم أن من صرف عنايته إلى الكتاب والسنة اكتفى بهما عن غيرهما ، وأرياه الخير والشر وأسبابهما حتى كأنه يعاين ذلك عياناً ، وإذا تبصرت في أحوال العالم وتأملت في أخبار الأمم ، وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته ، طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك دلالة قاطعة على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، فالتاريخ كله تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر .

(٢) (يختل) بالخاء المعجمة ــ من ختل الذئب الصَّيد : تخفى له فهو خاتل وختول . ويقال : ختَله ختْلا وختلانا : خدعه عن غفلة .

(٣) (معاني) فاعل الفعل (عَمَرَ) في قوله : (عَمَرَتْهُ) وقولُه :ــ أكثر عُمْرِهِ ــ اعتراض.

(٤) (صوامها) : المراد (خَيْلُها) ــ ولا يخفى ما في ذلك من التجوز ــ وفي بعض النسخ (سُومها) ــ واختاره بعض المحققين في النسخ المطبوعة حديثاً .

(٥) حدا به إلى هذا موافقة (لغوب) الآتية ، وقد يقال : حكي عن الفراء أن كل ما كان من الثلاثي متعدياً فالفعل والفُعول جائزان في مصدره .

(٦) جمع ذلول ، والذلول : السهل ، ومنه قوله تعالى في سورة النحل : (فَاسْلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا) .

بحظها من الثِّقَل ، فهي تتفَصَّى (١) من الصَّدْر تفصّي الإبل مِنَ العَقْل(٢) . قال الله تعالى : (إنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)(٣) قال المفسرون : أيْ عِلْمَ معانيه والعملَ بها ، وقد قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : (قَيِّدوا العِلْمَ بالكِتاب)(٤) .

ففزعتُ إلى تعليق ما يُتَنَخَّلُ(٥) لي في المناظرة من علم التفسير ، وترتيب المعاني ، وقصدت أن يكون جامعاً وجيزاً ، لا أذكر من القصص إلاّ ما لا تنفكُّ الآيَةُ إلاّ به ، وأَثبتُّ أقوال العلماءِ في المعاني منسوبة إليهم ، على ما تلقى السلف الصالح رضوان الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية ، السليمة من إلْحاد أَهل القول(٦) بالرموز ، وأَهل

---

(١) تفَصّى : تتخلّص وتُفلِت ــ يقال : تفصى من الشيء ، وعنه ــ ويقال : تفصى من الديون ، وتفصى اللحم عن العظم ــ ويقال : ما كدت أتفصى منه : أتخلص منه ــ وقد نظر المؤلف بعبارته هذه إلى ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (تعاهدوا القرآن ، فو الذي نفسي بيده لهو أشدّ تفصياً من الإبل في عُقُلها) عمدة القارىء ٤٩/٢٠ .

(٢) العَقْل : مصدر عقَلَ ــ يقال : عقَلَ البعير عقْلا ــ أى ضمّ رُسْغ يده إلى عضده ، وربطهما معاً بالعقَال ليبقى باركاً ــ ويمكن ضبطها بضم العين والقاف (العُقُل) ــ على أنها جمع عِقَال ، ويكون المعنى أن الإبل تتخلص من القيود التي تمنعها من الحركة .

(٣) الآية (٥) من سورة المزمل .

(٤) رواه الطبراني وأبو نعيم في الحِلْية عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً . ونحوه ما رواه الترمذي في العلم عن أبي هريرة مرفوعاً « استعِنْ بيمينك » أي اكتُبْ . وقد صحت أحاديثُ في الأمر بكتابة الحديث منها حديث : (اكتبوا لأبي شاه) وهو في الصحيحين .

(٥) نخل الشيء ينخله نخلا ، وتَنَخّله ، وانتخله : صفاه واختاره ــ يقال : (تنخلتُ ما في هذا الكتاب) أي اخترت أجوده .

(٦) كأنه يريد ما قيل في فواتح السور ، وفي بعض الآيات من الرموز والإشارات .

القول بعلم الباطن،[١] وغيرهم ، فمتى وقع لأَحدٍ من العلماء الذين قد حازوا حُسْنَ الظن بهم لفظٌ ينحو إلى شيءٍ من أَغراض الملحدين نبَّهْتُ عليه .

وسردْتُ التفسير في هذا التعليق بحسب رُتبة أَلفاظ الآية : من حكم ، أَو نحو ، أَو لغة ، أَو معنى ، أَو قراءة ، وقصدت تتَبُّعَ الأَلفاظ حتى لا يقع طفر[٢] كما في كثير من كتب المفسرين .

ورأَيتُ أَنَّ تصنيف التفسير كما صنع المهدوي[٣] رحمه الله مُفَرِّقٌ للنظر ، مشعِّبٌ للفكر ، وقصدتُ إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها ، واعتمدت تبيين المعاني وجميع محتملات الأَلفاظ ، كل ذلك بحسب جهدي ، وما انتهى إليه علمي ، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول القول . وأَنا أَسأَلُ الله جَلَّت قدرتُه أَن يجعلَ ذلك

---

(١) قال بعض الأئمة : « والملحدون في زمانا هم الباطنية الذين يدعون أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأنهم يعلمون الباطن ، فأحالوا بذلك الشريعة ، لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن » . وقد أشبع الكلامَ على الباطنية ومَنْ حذَا حذوَهم أبو اسحق الشاطبيُّ في (الموافقات)، والإمام الغزالي ، ونصه في (الإحياء) : « ومنَ الطامات صرفُ ألفاظِ الشرْعِ عن ظواهرها المفهومة، إلى أمور باطنة، لا يسبقُ منها إلى الأفهام شيءٌ ، فهذا حرام، وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صُرِفَتْ عن ظواهرها بغير اعتصام من عقل أو نقل ؛ اقتضى ذلك بطلانَ الثقة بالألفاظ ، وسقط منفعة كلام الله وكلام رسوله » ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :(من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) ، وقد عدَّ (ق) في تفسيره هذا من التفسير بالرأي المتوعد عليه . ولا يدخل في هذا استنباط العالم بفهمه من الكتاب والسنة ، لحديث عليّ رضي الله عنه: «أَوْ فَهْمٍ أُعْطِيهُ رجُلٌ مسلم » . ولِفهْم ابن عباس رضي الله عنهما من سورة النصر قربَ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أي الوثب والقفز ، والمراد عدم تتبع ألفاظ الآيات .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي ، أصله من المهدية من بلاد أفريقية ، وتفصيله وتفسيره يسمى بـ(التفصيل الجامع لعلوم التنزيل)، اختصره وسماه (التحصيل)، توفي سنة ٤٣٠ هـ.

كلَّه لوجهه ، وأن يُبارك فيه وينفع به ، وأنا وإن كنت من المقصّرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير ، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير ، وَعَمَرْتُ به زمني ، واستفرغْتُ فيه مُنَني. [١] إذ كتاب الله تعالى لا يتفسر[٢] إلا بتصريف جميع العلوم فيه . وجعلته ثمرة وجودي ، ونُخْبَةَ مجهودي. فَلْيُستَصْوَبْ للمرء اجتهاده ، ولْيُعْذَرْ في تقصيره وخطئه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولْنقدّم بين يدي القول في التفسير أَشياءَ قد قدَّم أَكثرَها المفسرون ، وأَشياءَ ينبغي أَن تكون راسخة في حفـظ الناظر في هـذا العلم ، مجتمعة لذهنه .

---

(١) جمع مُنَّة ، وهي القوة .
(٢) وفي بعض النسخ الخاصة : لا يُفَسَّر .

باب
ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ونبهاء العلماء رضي الله عنهم في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به (١)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّهُ سَتَكونُ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظلِم) . قيلَ: فَما النَّجاةُ منها يارسولَ الله ؟ قال: كتابُ الله تعالى ، فيه : نبأُ مَنْ قَبْلَكم ، وَخَبَرُ ما بَعْدَكم ، وحُكْمُ ما بَيْنَكم ، وهُوَ فَصْلٌ ليسَ بالهزْلِ ، مَنْ تَرَكه تَجَبُّراً قصَمَهُ الله ، ومَنْ ابتغى الهُدى في غيرِه أَضَلَّه الله ، وهُو حَبْلُ الله المتينُ ، ونُورُهُ الْمُبينُ ، والذِّكْرُ الحَكيمُ ، والصِّراطُ المُسْتَقيمُ ، هُوَ الَّذي لا تَزيغُ به الأَهْواء ، ولا تَتَشَعَّبُ مَعه الآراءُ ، ولا يَشْبَعُ منه العُلَماءُ ، ولا يَمَلّه الأَتقياءُ ، مَنْ عَلِمَ عِلْمَه سَبَقَ ، ومن عَمِل به أُجِر ، ومن حَكَمَ به عَدَل ، ومَن اعْتَصَم

---

(١) مما ينبغي أن يُعْلَم أنه لا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة ، حتى يفهم معانيه ، ويدرك مقاصده ، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته ، والغاية من تلاوته ، لينتفع به علماً وعملا ، وأما الذى يتلوه وهو جاهل بأحكامه وشرائعه فمثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، انظر تفسير (ق) .

ويحكى عن الإمام أحمد رضي الله عنه أنه رأى ربه في المنام ، فقال : يارب بأي شيء يتقرب العبد إليك ؟ ، قال : بتلاوة كلامي يا أحمد . قال : (فَهِم المعنى أو لم يفْهَمْ يارب ؟ . قال: فهم المعنى أو لم يفهم) . إلا أن هذه قضية منامية والأحكام لا تثبت بمثل ذلك .

وقد قال الله تعالى : (كِتَابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبابِ) . (أَفَلاَ يَتَدَبَّرونَ الْقُرآنَ) .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون القرآن عن فهم وعلم .

به هُدِي إلى صراط مستقيم)[١] ، وقال أنس في تفسير قوله تعالى: (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى)[٢] قال: هي القرآن . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ أَرادَ عِلْم الأَولين والآخرين فَلْيُثَوِّرِ القرآن)[٣] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتلُوا هذا القرآن ، فإن الله يأْجُرُكم بالحرف منه عَشْرَ حسنات ، أَما إني لا أَقولُ الٓم حرف ، ولكن الأَلفَ حرفٌ واللام حرفٌ والميمَ حرفٌ) . [٤] وروي عنه صلى الله عليه وسلم أَنه قال في آخر خطبة خطبها وهو مريض : (أَيها الناس : إني تاركٌ فيكم الثَّقلين[٥] ، إنَّه لن تَعْمى أَبصارُكم ، ولَنْ تَضِلَّ قلوبُكم ، ولنْ تَزِلَّ أَقدامُكم ، ولن تقصر أَيديكم [٦] ، كتاب الله سبب بينكم وبينه ، طَرَفُه بيده ، وطَرَفُه بأَيديكم ، فاعملوا بمُحْكَمِه ، وآمنوا

(١) رواه الدّارمي في مسنده ، والترمذي في جامعه وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات. قال ابن كثير : لم ينفرد حمزة بروايته ، بل رواه محمد بن اسحق عن محمد بن كعب القرظي ، كما رواه الإمام أحمد ، على أنّ له شاهداً عن ابن مسعود رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه : «فضائل القرآن» . وألفاظ الحديث تختلف باختلاف الروايات فتزيد وتنقص .

(٢) من الآية (٢٥٦) من سورة البقرة .

(٣) يقال : ثوَّر القرآن : بحث عن علمه ومعانيه . ورويت هذه الجملة في الإحياء على أنها من كلام ابن مسعود .

(٤) رواه الترمذي،وأبو نعيم،والخطيب ،والديلمي، عن ابن مسعود رضي الله عنه بألفاظ مختلفة ، ولفظ الترمذي : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشرة أمثالها ، لا أقول الـم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

(٥) تثنية (ثَقَل) كقمر ، والثقَل : الشيء النفيس الخطير ، أو ما يستثقل على جهة التعظيم ، لأن الحق ثقيل على النفس إلا من وفقه الله تعالى .

(٦) يظهر والله أعلم أن هنا حذفاً تقديرُه : « ما تَمَسَّكْتُمْ بهما » .

بِمُتَشابهِهِ ، وأَحِلُّوا حلالَه ، وحرِّموا حرامَه ، أَلا وعِتْرتي وَأَهْلِ بيتي هو الثقل الآخر ، فلا تَسْبَعوهم(١) فَتهْلكوا(٢)) .

وقيل لجعفر بن محمد الصادق : لِم صار الشعر والخُطَبُ يُمَلُّ ما أُعيد منهـا والقرآن لا يُمَل ؟ . فقـال : «لأَن القرآن حُجَةٌ على أَهل الدهر الثاني ، كما أَنه حجةٌ على أَهل الدهر الأَول ، فكلٌّ طائفة تتلقاه غَضًّا جديداً ، ولأَن كلَّ امرئٍ في نفسه متى أَعادهُ وفكرَ فيه ، تلقّى منه في كل مرة علوماً غضةً ، وليس هذا كلُّه في الشعر والخطب» .

وقيل لمحمد بن سعيد : ما هذا التَّرْديد للقصص في القرآن ؟ . فقال : ليكونَ لِمَنْ قرأَ ما تيسَّر منه حظٌّ في الاعتبار .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مَنْ قَرَأَ القرآن فرَأَى أَنَّ أَحداً أُوتي أَفْضلَ مما أُوتى فقد اسْتَصْغَر ما عَظَّم الله »(٣) .

---

(١) أي فلا تسبُّوهم ، ويقال سبَع فلانٌ فلانا : شتمه ووقع فيه .

(٢) انظر رواية الإمام مسلم عن زيد بن أَرقم في فضائل علي رضي الله عنه . ورواية مسلم والترمذي عن أَنس« إني تارك فيكم ما إنْ تمسّكتُم به لن تضلوا بعدي ، أَحدُهما أَعظمُ من الآخر ، كتابُ الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» . ورواية الإمام أَحمد في مسنده والطبراني في الكبير : «إني تارك فيكم خليفتين : كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض» . ورواية النسائي في سننه « إني قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أَهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض » .

أَما رواية ابن عطية فتتفق مع رواية أَبي حيان في نص الحديث ـــ انظر البحر المحيط ١٢/١ . وفي صحيح ابن حبان ص ١٢٢ حديث مروي عن أَبي شريح الخزاعي ، وفيه : « أَليس تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؟ قالوا نعم . قال : فإن هذا القرآن سبب . طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده بدآ » .

(٣) رواه أَبو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً .

وقال صلى الله عليه وسلم : (ما مِنْ شفيعٍ أَفْضلَ عندَ الله تعالى من القرآن ، لا نبيٌّ ولا مَلَك)(١) .

وقال صلّى الله عليه وسلم : (أَفضلُ عِبادةِ أُمتي القرآنُ)(٢) .

وقال عبد الله بنُ عمرو بن العاص: «مَنْ قرأَ القرآنَ فقد أُدْرِجَتِ النبوَّةُ بيْنَ جنْبيه ، إلا أَنه لا يوحى إِليهِ »(٣) .

وَحدَّثَ أَنسُ بن مالك عن رسول الله صلّى الله عليه وسلمَ أَنه قال : (مَنْ قرأَ مائة آيةٍ كُتب مِنَ القانتين ، ومَنْ قرأَ مائتيْ آيةٍ لم يكْتَبْ مِنَ الغافلين ، ومَنْ قرأَ ثلاثمائة آيةٍ لم يحاجّه القرآن)(٤) ،

---

(١) رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا . قاله الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء .

(٢) رواه أبو نعيم في «فضائل القرآن» من حديث النعمان بن بشير وأنس ، وإسنادهما ضعيف .

(٣) حديث عبد الله بن عمرو هذا رواه أبو القاسم الطبراني مرفوعاً ، ورواه الغزالي في الإحياء موقوفا ، ورواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن إسماعيل بن رافع عن رجل لم يُسَمِّه عن عبد الله بن عمر بلفظ : «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه، غير أنه لا يوحى إليه » ، انظر ابن (ك) لدى قوله تعالى : (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاء) .

(٤) نقل (خ) عن الشيخ يحيى النووي أنه قال : روينا في كتاب ابن السني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ خمسين آية لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ، ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة» ،وفي رواية : (من قرأ أربعين آية) بدل (خمسين)، وفي رواية(عشرين آية) ، وفي رواية عن أبي هريرةعن النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين » . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلىالله عليه وسلم : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» . أي المالكين قنطاراً أي مالا كثيراً ، والمراد كثرة الأجر ،كما أن المراد بالقيام قيام الليل . وروى الدارمي والحاكم وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن صلى في ليلة بمائتي آية فإنه يكتب من القانتين المخلصين» ، وبهذا يعلم أنه وقع تقديم وتأخير في الحديث ، واتفق أبو حيان مع ابن عطية في نص الحديث . والله أعلم .

ورَوَى ابنُ عباس عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنّه قال : (أشرافُ أُمتي حَمَلَةُ القرآن) (١) .

ورُوي عن عُمَرَ بن الخطابِ رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: [ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا](٢) الآية ، فقال : سابِقُكُمْ سابق ، ومُقْتَصِدُكُم ناجٍ ، وظالِمُكُمْ مغفورٌ لَهُ (٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلا إِنَّ أَصْفَرَ البيوت بَيْتٌ صَفِرٍ مِنْ كتاب الله)(٤) ،

ورَوَى أَنسُ بنُ مالكٍ أَن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال : (القرآنُ شافعٌ مُشَفَّعٌ ، وماحِلٌ مُصَدَّقٌ ، مَنْ شَفَعَ له القرآن نجا ، ومن مَحَلَ به القرآن يومَ القيامة كبَّهُ الله لِوَجْهِهِ في النار . وأَحقُ مَنْ شَفَعَ لَهُ القرآن أَهْلُهُ وَحَمَلتُه ، وأَوْلى مَنْ مَحَلَ بِهِ مَنْ عَدَلَ عنه وَضَيَّعَهُ)(٥) .

---

(١) رواه أبو القاسم الطبراني ، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة فاطر .

(٣) رواه ابن أبي شيبة ، والبيهقي موقوفاً ، ورواه العقيلي ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث من وجه آخر مرفوعاً .

(٤) رواه الحاكم، عن ابن مسعود موقوفاً ، وقال : رفعه بعضهم ، قاله الحافظ المنذري . وأسنده أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري في كتاب« الرد على من خالف مصحف عثمان» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — في أثناء حديث طويل —: (وإنّ أصفر البيوت البيت الصفر من كتاب الله). وروى الترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : (انّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب) . ولفظ الحديث عند ابن عطية متفق مع لفظه عند أبي حيان .

(٥) رواه ابن حبان، عن جابر، كما قاله المنذري ، ونحوُه ما أخرجه البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (إن هذا القرآن شافعٌ مُشَفَّع ، من اتبعه قاده إلى الجنة ، ومن تركه أو أعرض عنه دَحَّ في قفاه إلى النار) والدّح : الدفع بعُنْفٍ، والماحلُ : الخصْم والمُنَازع ، وقيل : الماحل: الساعي المصَدّق ، من قولهم : محل بفلان: إذا سعى به إلى السلطان .

وقال صلى الله عليه وسلم :(إنَ الذي يتعاهد القرآن ويشْتَدُّ عليه ، له أَجران ، والذي يقرأ القرآن وهو خفيف عليه ، مع السَّفَرَةِ ، الكرام البَرَرة) (١) .

وقال ابن مسعود : مَلَّ أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملَّةً ، فقالوا : يا رسول الله حدِّثْنا ، فأَنزل اللهُ تعالى [ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ](٢) الآية ، ثم مَلُّوا مَلَّة أُخرى ، فقالوا : يا رسول الله قُصَّ عَلَينا ، فأَنزل اللهُ تعالى : [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذا القُرآن](٣)

وروى عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلَّمَ قال : (أَفضلُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القرآن وعَلَّمه)(٤) .

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود، والترمذي ، بلفظ : (الماهر بالقرآن مع السَّفَرة ، الكرام البَرَرَة ، والذي يقرأ وهو يشتد عليه له أجران) ، وفي لفظ : (وهو يتتعتع فيه ، وهو عليه شاق) : انظر : صحيح مسلم ٢/١٩٥ — وسنن الدارمي ٤٢٩ ، وسنن أبي داود ٢/ ٧٠ وصحيح الترمذي ١١/ ٢٩ — وتيسير الوصول ١/ ٨٣ — وسنن الطيالسي ٦/ ٢١٠ .

(٢) من الآية (٢٣) من سورة الزمر .

(٣) من الآية (٣) من سورة يوسف — والحديث رواه ... (ط) في تفسيره عن ابن عباس، وابن مردويه عن ابن مسعود، وأبو عبيد في (فضائل القرآن) .

(٤) رواه البخاري ،وأبو داود ، والترمذي. وفي رواية : (خيركم)،وإنما كان المعلم والمتعلم أفضل لمسا جمعا من النفع القاصر والنفع المتعدي . انظر مسند الإمام أحمد ٢ /٣٣١ — وعمدة القارئ ٢٠/ ٤٢ .

وقال عبد الله بنُ مسعود : إنّ كُلَّ مُؤَدِّبٍ يحِبُّ أَن يُؤْتَي أَدبُهُ ، وإنَّ أَدبَ اللهِ القرآن (١)

ومَرَّ أَعرابيٌّ على عبد الله بن مسعود وعندهُ قوم يقرؤون القرآن ، فقال : ما يصنع هؤلاءِ ؟ فقال له ابنُ مسعود : يقتسمون ميراثَ محمد صلّى الله عليه وسلم .

ومرَّت امرأَةٌ على عيسى بن مريمَ عليه السلام فقالتْ : «طوبى لبَطْنٍ حَمَلك ، ولِثَدْيَيْنِ رَضَعْتَهما » . فقال عيسى : (طوبي لمن قرأَ كتاب الله ، واتَّبعَ ما فيه) . وقال محمدٌ بنُ كعب القُرظي(٢) في قوله تعالى : [رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ](٣) قال : هو القرآن .

وقال بعض العلماءِ في تفسير قوله تعالى [قُلْ بِفَضْلِ ٱللهِ وبِرَحْمَتِهِ](٤) قال : الإسلامُ والقرآن .

---

(١) رواه الدارمي في سُنَنه بلفظ : (ليس من مُؤَدِّب إلا وهو يحب أن يُؤتى أدبُه ، وإن أدب الله القرآن) . وروى الدارمي عنه أيضاً : (إن هذا القرآن مأدُبَة الله،فتعلموا من مأدبته مااستطعتم) . وروى الحاكم في المستدرك،عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :(إن هذا القرآن مأدُبة الله،فاقْبلوا من مأدبته ما استطعتم) . وحديث : (كل مُؤْدِب يحب أن تُؤتى مأدُبَتُه ، ومأدُبَة : الله تعالى القرآن، فلا تهجروه) رواه البيهقي في « الشعب » عن سَمُرة بنُ جُندبٍ . وقوله (فلا تهجروه) أي : عليكم بتلاوته، وتفَهُّم معانيه ، والعمل بأحكامه .

(٢) هو أبو حمزة المدني ، يَرْوي عن عائشة، وأبي هريرة . قال بعضُهم : ما رأيت أعلم بتأويل القرآن من القرظي . توفي سنة ١٢٠ هـ وذهب بعضهم إلى أنه ولد سنة ٤٠ هـ. ومات سنة ١٠٨ هـ. — الإصابة ١٩٧/٦ .

(٣) من الآية (١٩٣) — من سورة آل عمران .

(٤) من الآية (٥٨) من سورة يونس .

وقيل لعبد الله بنِ مسعودٍ : إنَّكَ لتُقلُّ الصوم . فقال : إنَّه يمنعني عن قراءة القرآن ، وقراءتُه أَحَبُّ إليَّ منْهُ (١) .

وقال قوم من الأَنصار لرسول الله صلّى الله عليه وسلم : أَلَمْ تر يارسول الله ثابِتَ بن قيس ، لم تزل دارُه البارحة تَزْهَرُ فيها وحولها أَمثالُ المصابيح ؟ : فقال لهم : (فلَعَلَّه قرأَ سورةَ البقرة) ، فسُئِل ثابتُ ابن قيس ، فقال : نعم ،قرأْتسورة البقرة(٢) . وفي هذا المعنى حديثٌ صحيح ، عن أُسَيْدِ بن حُضيرٍ(٣) ، في تَنَزُّل الملائكةِ في الظُّلَّةِ لصوته بقراءة البقرة(٤) .

(١) أي قراءة القرآن أحبُّ إليّ من الصوم .

(٢) قال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا عباد بن عباد،عن جرير بن حازم،عن عمه جرير ابن يزيد،أن أشياخ أهل المدينة حدثوه،أن الرسول صلى الله عليه وسلم قيل له : ألم تر ثابت بن قيس ابن شماس،لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح؟، قال :(فلعله قرأ سورة البقرة). قال : فسألت ثابتاً فقال : قرأت سورة البقرة. قال ابن كثير : وهذا إسنادجيد، إلا أن فيه إبهاماً،ثم هو مرسل :وثابت ابن قيس هو خطيب الأنصار ،شهد أحداً وما بعدها ، وقتل يوم اليمامة شهيداً — أسد الغابة١ /٢٧٣ .

(٣) هو أسيد بن حضير بن سماك بن الأوس الأنصاري . أسلم بعد العقبة الأولى ، وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين زيد بن حارثة ، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن — روى عنه كعبُ بن مالك ، وأبو سعيد الخدري ، وأنس بن مالك . توفي سنة ٢٠ من الهجرة . أسد الغابة ١/١١٨ ،

(٤) قال إمامُ المحدِّثين، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريُّ في جامعِه الصحيح :وقال الليث،وحدثني يزيد بن الهاد،عن محمد بن إبراهيم،عن أُسَيد بن حُضير رضي الله عنه قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة،وفرسُه مربوطة عنده،إذ جالت الفرسُ،فسكَت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكَت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ،فانصرف ، وكان ابنه يحيي قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، فلما اجترّه رفع رأسه إلى السماء حتى لا يراها ، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال : (اقرأ يا ابن حضير) . مرتين. قال : قد أشفقت يارسول الله على يحيي ، وكان منها قريبا ، فرفعت رأسي وانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثلُ الظلة فيها أمثال المصابيح ، قال:(وتدري ما ذاك) ؟ قال : لا ، قال: (تلك الملائكة ، دنت لصوتك ، ولو قرأتَ لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم) ا ه. أي لا تتوارى الملائكة من الناس .

وذَكَر أَبو عمرو الداني[(١)] عن عَلِيٍّ الأَثْرم[(٢)] قال : كنتُ أَتكلَّمُ في الكِسائي[(٣)] ، وأَقع فيه ، فرأَيته في المنام وعليه ثيابٌ بيضٌ ، ووجهه كالقمر ، فقلت : يا أَبا الحسن ، ما فعل الله بك ؟ فقال : «غفر لي بالقرآن» .

وقال عُقْبة بنُ عامر[(٤)] : عهد إلينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في حَجَّة الوداع فقال : (عليكم بالقرآن[(٥)]) .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص[(٦)] : إنَّ مِنْ أَشراط[(٧)] الساعةِ

(١) أبو عمرو الداني : هو عثمان بن سعيد بن عثمان، المقرئُ المعروف بابن الصيرفي، أحد كبار الأئمة في القراءات ، طلب العلم في القيروان ومكة والقاهرة والمدينة ، وعاد إلى قرطبة ، واستوطن دانية حتّى توفي بها سنة ٤٤٤ هـ ، ومن أشهر كتبه : (التيسير في القراءات السبع) و(المقنع في رسم القرآن) . ولا يرد في هذا التفسير إلا مقيداً ، وإذا أطلق فهو ابن العلاء البصريّ .

(٢) هو علي بن المغيرة أبو الحسن الأثرم ، صاحبُ النحو والغريب واللغة ، سمع أبا عبيدة معمر بن المثنى ، وأبا سعيد الأصمعي . وكان من جملة رواة اللغة ببغداد، ومن مؤلفاته كتاب (النوادر) وكتاب (حديث الغريب) توفي سنة ٢٣٢ هـ .

(٣) هو أبو الحسن عليُّ بنُ حمزةَ النحويُّ المقرئُ ، وقيل له الكِسائي من أجل أنه أحرم في كِساء . قرأ عَلى حمزةَ بنِ حبيب الزيات وتوفي سنة ١٨٩ هـ .

(٤) عقبة بن عامر — صحابي مشهور ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو واحد ممن اشتركوا في جمع القرآن ، وكان من أحسن الناس صوتا به ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين . توفي سنة ٥٨ هـ . الإصابة ٣/ ٢٥٠ .

(٥) في حديث جابر في حجة الوداع : (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله) ، وجابر رضي الله عنه أعلم بحجة الوداع ، إذ كان يقود راحلة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٦) قول عبد الله بن عمرو هذا أخرجه ابن أبي شيبة إلى قوله : (ما اسْتَكْتبَ من غَيْر كتابِ الله) .

(٧) أشراط الساعة : علاماتها — وأشراط الشيء : أوائله ، قال بعضهم : ومنه أشراط الساعة ، وذكرها النبي صلى الله عليه وسلم . والاشتقاقان متقاربان لأن علامة الشيء أوله ، ومشاريط الأشياء أوائلها كأشراطها . ا هـ — اللسان ٩/ ٢٠٣ — مادة (شرط) .

أَن يُبْسَطَ القولُ ، ويُخزن الفعلُ ، ويُرفع الأَشرارُ ، ويُوضعَ الأَخيارُ ، وأَن تُقرأَ المَثْنَاةُ[(١)] على رؤوس الناس لا تغير ، قيل : وما المَثْنَاةُ ؟ قال : ما استُكْتِبَ من غير كتاب الله ، قيل له : فكيف بما جاءَ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ما أَخذْتُموه عمَّنْ تأْمنونه على نفسه ودينه فاعْقِلُوه ، وعليكم بالقرآن فتعلموه ، وعلموه أَبْنَاءَكُمْ ، فإنكم عنه تُسْأَلون ، وبه تُجْزَون ، وكفى به واعظاً لمن عَقَل .

وقال رجل لأَبي الدرداءِ : إنَّ إخواناً لك من أَهل الكوفة يُقْرِئونَكَ السلام ، ويأْمرونك أَن توصيهم. فقال : أَقْرِئْهُمُ السلام ، ومُرْهُمْ فليعطوا القرآن خزائمهم[(٢)] ، فإنه يحمِلُهُم على القَصْد والسهولة ، ويُجَنِّبُهُم الجور والحُزُونَة .

وقال رجل لعبد الله بن مسعود : أَوْصني . فقال : إذا سمعت اللهَ يقول : [يا أَيُّها الذِينَ آمَنوا] فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ ، فإنه خيرٌ يأْمُرُ به ، أَو شَرٌّ ينهى عنه .

وروى أَبو هريرة أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن

---

(١) المَثْناة واحد مَثاني ، وفي لسان العرب : (وأما قولُ عبد الله بن عمرو : من أشراط الساعة : أن توضع الأخيار، وترفع الأشرار، وأن يقرأ فيهم بالمَثْناة على رؤوس الناس، ليس أحدٌ يغيّرها ، قيل : وما المَثْناة ؟ قال : ما استُكتب من غير كتاب الله . كأنه جعل ما استُكتب من كتاب الله مبدأ وهذا مثنى . قال أبو عبيدة : سألت رجلا من أهل العلم بالكُتُب الأوّل قد عرفها وقرأها، عن المَثْناة ، فقال : إن الأحبار والرُّهبان من بني إسرائيل من بعدِ موسى، وضعوا كتاباً فيما بينهم على ما أرادوا من غير كتاب الله ، فهو المَثْناة) . ا هـ .

(٢) المعنى : ينقادون له، ويطيعون أمره ، ومنه قولهم : أطيعوا الله وعزائمه، وأعطوا القرآن خزائمه . وخزائم جمع خزامة . اللسان ١٥/٦٥ . . والخزامة : حلقة من الشعر توضع في ثقب البعير يشد بها الزمام فينقاد . « المعجم الوسيط » .

أَحسن الناسِ قراءةً ،أَو صوتاً بالقراءَة ، فقال : (هو الذي إذا سمعتَه رأَيتَه يخشى الله تعالى)(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (اقرؤُوا القرآن قبلَ أَن يجيءَ قوم يقيمونه كما يقام القــدح ، ويُضَيِّعون معانيه ، يَتَعَجَّلون أَجرَهُ ولا يتأَجَّلونه)(٢) .

ويُرْوَى أَن أَهل اليمن لما قدموا أَيام أَبي بكر الصديق رضي الله عنه ، سمعوا القرآن ،فجعلوا يبكون ، فقال أَبو بكر رضي الله عنه : هكذا كُنَّا ، ثم قَسَتِ القلوبُ(٣).

ورُوي أَن عمر بنَ الخطاب رضي الله عنه ، قرأَ [إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ، مالَهُ مِنْ دافِعٍ] (٤) فأَنَّ أَنَّةً عِيدَ منها عشرين يوماً .

وقال الحسن بن أَبي الحسن البصري : إِنكم اتخذتُمُ القرآن مراحل ، وجعلتم الليلَ جملا تركبونه فتقطعون به المراحل ، وإِن من كان قبلكم رأَوه رسائل إِليهم من ربهم ،فكانوا يتدبَّرونها بالليل ، ويُنَفِّذونها بالنهار .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : أُنزل عليكم القرآنُ

---

(١) أخرجه أبو بكر البزار، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . والأشبه به ما رواه ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله » .

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وأبوداود،عن جابر بن عبد الله بلفظ :«اقرؤوا القرآن ،وابتغوا به الله عز وجل ، من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه » . ا هـ . واللفظ يزيد وينقص . قال المناوي : وسكت عنه أبو داود فهو صالح .

(٣) وكان أبو بكر رضي الله عنه بكّاء إذا قرأ القرآن .

(٤) الآيتان (٧ ، ٨) من سورة الطور .

لتعملوا به ، فأَخذتم درسه عملا ، إن أَحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً ، وقد أَسقط العمل به .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله(١) :

قال الله تعالى : [وَلَقَدْ يَسَّرْنا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ](٢) ، وقال تعالى : [إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً](٣) أَي علمُ معانيه ، والعملُ به ، والقيامُ بحقوقه ـ ثقيلٌ ، فمالَ الناسُ إلى المُيَسَّرِ ، وتركوا الثقيل ، وهو المطلوب منهم .

وقيل لِيُوسف بنُ أَسباطٍ(٤) : بأَي شيءٍ تدعو إذا خَتَمْتَ القرآن ؟ فقال : أَستغفر الله من تلاوتي ، لأَني إذا ختمتُه ، ثمَّ تذكَّرتُ ما فيه من الأَعمال ، خشيت المَقْتَ ، فأَعدلُ إلى الاستغفار والتسبيح .

وقرأ رجل القرآن على بعض العلماءِ ، قال : فلما ختمتُه أَردتُ الرجوع إلى أَوَّله ، فقال لي : اتخذتَ القراءَة عَلَيَّ عملا ؟ اذهب فاقرأه على الله تعالى في ليلك ، وانظر ماذا يُفهمك منه فاعمل به .

(١) هذا هو التعبير الذي استقرَّ عليه رأينا في كل موضع أعلن المؤلف فيه عن رأيه .

(٢) الآية رقم (١٧) من سورة القمر وتكررت في نفس السورة تحت الأرقام (٢٢ ـ ٣٢ ـ ٤٠) .

(٣) الآية رقم (٥) من سورة المزمّل .

(٤) هو ابن واصل الشيباني أبو محمد الكوفي ، نزل قرية بين حلب وأنطاكية ، وكان من عبّاد أهل الشام وقرّائهم ، وكان من خيار أهل زمانه ، وكان لا يأكل إلا الحلال ، فإن لم يجده استف التراب ، توفي سنة ١٩٥ هـ . قاله الحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب) .

باب

في فضل تفسير القرآن والكلام على لغته والنظر في إعرابه ودقائق معانيه

ورَوى ابنُ عباس: أَن رجلا سأَل النبي صلّى الله عليه وسلم فقال: أَيُّ عِلْمِ القرآنِ أَفضلُ؟ فقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلَّم: (عَرَبِيَّتُهُ، فالْتمسوها في الشِّعْرِ)(١). وقال أَيضاً صلى الله عليه وسلَّم: (أَعْرِبوا القرآنَ، والتمسوا غرائبَهُ، فإِنَّ الله يُحِبُّ أَن يُعرَبَ(٢)).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

إِعرابُ القرآن أَصلٌ في الشريعة، لأَنَّ بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع (٣).

---

(١) يشهد لذلك مارواه ابن الأنباري، عن أبي بكر الصديق، قال: لأن أُعرب آية من القرآن أَحبُّ إلي من أن أحفظ آية. وما رواه أيضاً عن عبد الله بن بريدة، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو أني أعلم إذا سافرتُ أربعين ليلة أعربتُ آية من كتاب الله لفعلتُ. وما رواه أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عمر: من قرأ القرآن فأعربه، كان له عند الله أجر شهيد. وأخرج السلفي من حديث ابن عمر مرفوعاً: أعربوا القرآن يدلُّكمْ على تأويله. وروى البيهقي في (الشعب) عن مالك قال: لا أوتى برجل غيرِ عالم بلغة العرب يُفَسِّر كتابَ الله إلاّ جعلته نُكالا.

(٢) رواه أبو يعلي، والبيهقي، من حديث أبي هريرة مرفوعاً، والضمير المستتر للقرآن، والإعراب: البيان، ولنظام الدين النيسابوري تفسير سمّاه: (غرائبُ القرآن، ورغائبُ الفرقان).

(٣) بمعنى أن معرفة القرآن تتوقّف على معرفة اللغة والإعراب. قال ابن عباس: إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر، فإنه ديوان العرب. فما كان موجباً للعمل، جاز أنْ يستدل عليه بالآحاد، وبالبيت، والبيتين من الشعر، وما كان موجباً للعلم، فلا يستدل عليه بمثل ذلك.

وقال أبو العالية في تفسير قوله عز وجل [وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً[١]]. قال : الحكمةُ الفهْمُ في القرآن. وقال قتادةُ: الحكمةُ القرآنُ والفقهُ فيه . وقال غيرُه : الحكمةُ تفسيرُ القرآن . وذكر عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه جابرَ بنَ عبد الله ، فوصفه بالعلم ، قال له رجلٌ : جُعِلْتُ فداك ، تصف جابراً بالعلم وأنتَ أنتَ ؟ قال : إنه كان يعرف تفسير قول الله تعالى [إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ][٢] .

وقال الشعبي : رَحَل مسروق إلى البصرة في تفسير آية ، فقيل له : إن الذي يُفسّرها رحَل إلى الشام ، فتجهز ورحل إليه حتى علم تفسيرها .

وقال إياس بنُ معاوية : مَثَلُ الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون تفسيره ، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا ، وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روعةٌ لا يدرون ما في الكتاب . ومَثَل الذي يَعْرفُ التفسير ، كمثل رجل جاءهم بمصباح ، فقرؤوا ما في الكتاب .

وقال ابنُ عباس : الذي يقرأُ ولا يُفَسِّر ، كالأعرابي الذي يهذُّ[٣] الشِّعْرَ .

وقال مجاهد : أَحبُّ الخلق إلى الله أَعلمُهم بما أَنزل .

وقال الحسن : والله ما أَنزل الله آيةً إلا أَحبَّ أن يُعْلَم فيما أُنْزلت ، وما يَعْني بها[٤] .

---

(١) من الآية (٢٦٩) من سورة البقرة .

(٢) من الآية (٨٥) من سورة القصص .

(٣) الهذّ : السرد والإسراع ، يقال : هذّ قراءته: أسرع فيها، وهذّ الحديث: سَرَدَهُ .

(٤) هذا نص في طلب تعلم علم أسباب النزول .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يفْقَه الرجلُ كُلَّ الفقهِ حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة) (١) .

وقال الحسن : أَهلكتهم العُجْمَةُ ، يقرأُ أَحدُهم الآية فيعي بوجوهها حتى يفتري على الله فيها .

وكان ابن عباس يبدأُ في مجلسه بالقرآن ، ثم بالتفسير (٢) ، ثم بالحديث .

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : مامن شيءٍ إلا وعِلْمُهُ في القرآن ، ولكن رأْي الرجل يَعْجِزُ عنه .

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ، وأبو نعيم في الحلية ، عن أبي قلابة ، قال : قال أبو الدرداء : لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها . وهو كما ترى حديث موقوف ، إلا أنه يمكن أن يرفعه بعض الرواة ، ثم إنه يجب حمل القرآن على أحسن الوجوه ، بأن يحمل على أحسن معانيه ، أو بأن يعمل بأحسن ما فيه ، كالعزائم دون الرخص ، أو العفو دون الانتقام ، وقد قالوا – كما في كتاب الإشارة لابن عبد السلام – : من قال في القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ كان عليه وزر .

(٢) وعند ابن سعد بإسناد صحيح أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سلوني عن التفسير ، فإني حفظت القرآن وأنا صغير .

باب
ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجرأة عليه ومراتب المفسرين

رُوِي عن عائشةَ رضي الله عنها أَنها قالت : (ماكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يُفَسّر من كتاب الله إلا آياً بعددٍ ، علَّمَهُ إياهُنَّ جبريل) [(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذا الحديث : في مُغَيَّبات القرآن ، وتفسير مجمله ، ونحوهما ، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى ، ومن جملة مُغَيباتِه مالم يُعْلِمِ اللهُ به ، كوقت قيام الساعة ونحوه ، ومنها ما يُستقرأُ من أَلفاظه كعدد النفخات في الصور ، وكرتبة خلق السموات والأَرض [(٢)].

وَرُوِي عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (من تكلم في القرآن برأْيه فأَصاب فقد أَخطأَ) [(٣)].

---

(١) أخرجه أبو بكر البزّار ، وهو حديث منكر ، قاله الحافظ بن كثير ، وكذلك طعن فيه ابن جرير ، وقد اختلف العلمـاء : أفَسَّرَ النبي صلى الله عليه وسـلم جميع القـرآن أم فسّر القليل منه ؟ فعلى الأول ابن تيمية وأتباعه ، وعلى الثاني السيوطي وأنصاره . والحق أنه بيّن الكثير ، ولم يبيّن الجميع ، لاختلاف الصحابة في تأويل بعض الآيات ،ولما رواه ابن جرير عن ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

(٢) هذا تأويل صحيح لو كان الحديث صحيحاً . وقد سبق أن نقلنا أنه منكر ،أو مطعون فيه .

(٣) رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي من حديث (سهيل بن أبي حزم) ، وقال الترمذي : غريب . وقد تكلم بعض أهل العلم في (سهيل) . وإنما كان المتكلم برأيه مخطئا ، لأنه تكلف مالا علم له به ، وسلك غير ما أُمر به . وحديث : (من قال في القرآن برأيه ،أو بغير علم ، فليتبوأ مقعده=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذا ، أن يُسأَل الرجلُ عن معنى في كتاب الله ، فيتسور عليه برأيه ، دون نظر فيما قال العلماءُ ، واقتضته قوانين العلوم ، كالنحو والأُصول . وليس يدخل في هذا الحديث أَن يفسر اللغويون لغته ، والنحاة نحوه ، والفقهاءُ معانيه، ويقول كلٌّ واحد باجتهاده المبني على قوانين علمٍ ونظر ، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه(١). وكان جِلَّةٌ من السلف ، كسعيد بن المسيب ، وعامر الشعبي ، وغيرهما ، يعظمون تفسير القرآن ، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأَنفسهم ، مع إدراكهم وتقدمهم . وكان جِلَّةٌ من السَّلَف ، كثيرٌ عددُهم ، يفسرونه وهم أَبقوا(٢) على المسلمين في ذلك ، رضي الله عنهم .

فأَما صدْرُ المفسرين ، والمؤيدُ فيهم ، فعليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، ويتلوه عبد الله بن عباس (٣) رضي الله عنهما ، وهو تجرَّد للأَمر

= من النار) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأمّاما يقال : مِنْ أنَّ مَن فسر القرآن برأيه فقد كفر . فلايعرف حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم . وأعلم أن الرأي نوعان : أحدهما جارٍ على كلام العرب ، ومناسبه للدلائل الشرعية ، وهذا غير مذموم ، بل لا يمكن إهماله ، وثانيهما رأي لا يجري على موافقة العرب ، ولا على قواعد الشرع ، وهذا هو الرأي المذموم الذي يرد ، ولايقبل بحال . ومِثْل القرآن حديثُ النبي صلى الله عليه وسلم ، في امتناع تفسيره بالرأي الذي لا يرجع إلى الشرع ، ولا إلى كلام العرب . روي عن الإمام أحمد أنه سئل عن حرف من الحديث فقال : سلوا أصحاب الغريب ، فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظن . وسئل الأصمعي عن حديث (الجار أحق بصَقَبِه) فقال : أنا لا أفسر حديث رسول الله ، ولكن العرب تزعم أن الصَّقَبَ اللزيق ، والله أعلم .

(١) هذا المعنى معقول ومفهوم وضروري .

(٢) من قولهم : أبقى عليه أشفق عليه ورحمه .

(٣) هو أكثر الصحابه تفسيراً ، حتى جمع عنه تفسير كامل ، وأصح طرق تفسير ابن عباس طريق علي بن أبي طلحة ، وعليها اعتمد البخاري رحمه الله .

وكمَّله وتَتَبَّعه ، وتَبِعَهُ العلماءُ عليه ، كمُجاهد ، وسعيد بن جُبَير ، وغيرُهما . والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقال ابنُ عباسٍ: ما أَخذتُ من تفسير القرآن فعن علي بن أَبي طالب ، وكان عليٌّ بن أَبي طالب يُثْني على تفسير ابنِ عباس ، ويحضُّ على الأَخْذ عنه ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : نِعْمَ تُرْجُمان القرآن عبدُ الله بن عباس ، وهو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم فقِّهْهُ في الدين)(١) ، وحسْبُك بهذه الدعوة . وقال عنه علي بن أبي طالب : ابنُ عباس كأَنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

وَيتْلوه عبد الله بن مسعود ، وأُبيٌّ بن كعب ، وزيدُ بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكل ما أُخذ عن الصحابة فحسن متقدم . ومن المبرّزين في التابعين : الحسن بن أَبي الحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعلقمة . قرأَ مجاهد على ابن عباس قراءَةَ تَفَهُّم ووقوف عند كل آية . ويتلوهم عِكْرِمة ، والضحاك بنُ مزاحم ، وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنما أَخذ عن ابن جُبير ، وأَما السُّدي(٢) رحمه الله

---

(١) رواه البخاري، وفي رواية عند الترمذي : (أنه دعا له بإيتاء الحكمة)، وفي رواية عند البغوي في معجم الصحابة: (اللهم فقّهه في الدين، وعلّمه تأويل الكتاب) . وقد تحققت إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم، فكان ابنُ عباس بحر العلم، وحَبْر الأمة، ورئيس المفسرين ، وتَرجمان القرآن، وله فهم خاص .

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السّدي ، نسبة إلى سُدَّة مسجد الكوفة، كان يبيع بها المقانع ، يروي عن أنس ، وابن عباس ، وتوفي سنة ١٢٧ هـ .

فكان عامر[١] الشعبي يطعن عليه ، وعلى أَبي صالح[٢] ، لأَنه كان يراهما مُقَصِّرَيْن في النظر . ثم حَمَلَ تفسيرَ كتاب الله تعالى عُدولُ كلِّ خَلَفٍ . وأَلَّف الناسُ فيه : كعبد الرزّاق ، والمفضّل[٣] ، وعلي بن أَبي طلحة ، والبخاريُّ ، وغيرهُم .

ثم ان محمدَ بنَ جرير الطبري[٤] رحمه الله ، جمع على الناس أَشتات التفسير ، وقرّب البعيد ، وشفا في الإِسناد . ومن المبرزين في المتأَخرين أَبو إِسحق الزّجّاج ، وأَبو علي الفارسي ، فإِن كلامهما منخول[٥] .

(١) عامر بن شراحيل الإمام العلم ، أبو عمرو الكوفي ، أحد قضاة العدل في زمن عمر بن عبد العزيز ، أدرك خمسمائة من الصحابة ، قال ابن عيينة : كان الناس يقولون : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه . توفي سنة ١٠٣ هـ .

(٢) اسمه (باذام) أو (باذان) مولى أم هانئ بنت أبي طالب ، يروي عن علي وابن عباس . قال زكرياء بن أبي زائدة : كان الشعبي يمر بأبي صالح ، فيأخذ بأذنه فيهزها ويقول : ويلك ، تفسر القرآن وأنت لا تحفظ القرآن . وقال عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت : سمعت الشعبي ، — وقيل له : إن السدي قد أعطي حظاً من عِلم القرآن — فقال : قد أعطي حظاً من الجهل بالقرآن .

(٣) هو ابن سلمة بن عاصم ، أبو طالب اللغوي ، له تفسير يسمى «ضياء القلوب» ، وله ترجمة واسعة . توفي سنة ٣٠٠ هـ .

(٤) قال السيوطي في الاتقان كتاب ابن جرير الطبري أجَلُّ التفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، وللإعراب والاستنباط ، وبذلك فقد فاق تفاسير الأقدمين ، وقال الإمام النووي رحمه الله : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري — وهو كذلك لاحتوائه على أفكار حرة ، وأنظار سديدة ، قد يثور فيها أحياناً على بعض الآراء السلفية ، كما قال في بعض وثباته على رأي الضحاك — وهذا القول مما يضحك منه . وهو في طبقة الترمذي والنسائي .

(٥) — منخول : أي اختاره صاحبُه — يقال : انتخلت الشيء : استقصيت أفضله ، وتنخلته : تخيرته .

وأما أبو بكر النقاش ،وأبو جعفر النحاس[1] ، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما ، وعلى سننهما مكي بن أبي طالب[2] ، وأبو العباس المهدوي متقن التأليف ، وكلُّهم مجتهدٌ مأْجورٌ ، رحمهم الله ، ونضَّر وجوههم .

(١) النقّاش :هو محمد بن الحسن الموصلي المتوفي سنة ٣٥١ هـ .
والنحاس : هو أبو جعفر النحاس النحوي المصرى توفي سنة ٣٣٨ هـ .

(٢) هو أبو محمد القيسي النحوي المقرئ ، أصله من القيروان ، وسكن قرطبة، وسمع بمكة ومصر ، وكان متبحراً في علوم القرآن والعربية ، صنف : (إعراب القرآن ، والموجز في القراءات ، والهداية في التفسير) توفي سنة ٤٣٧ هـ .

باب
معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه(١) »

---

(١) هذا الحديث الشريف ورد من عدة طرق ، أنافت على عشرين طريقاً، كما في (الإتقان) للسيوطي رحمه الله ، وعدّه أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حديثاً متواتراً — ومما أخرجه الشيخان من طرقه، ما وقع من عمر بن الخطاب ، حيث لبب هشام بن حكيم رضي الله عنهما، وانطلق به يقوده إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: يا رسول الله ،سمعت هشاماً يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ، ناستقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ، فقال عليه السلام: (هكذا أنزلت)، ثم استقرأ عمر فقرأ ، فقال له عليه السلام : (هكذا أنزلت)، ثم قال صلوات الله عليه وسلامه: (إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه) أي: فاقرؤوا الميسور لكم مما سمعتموه مني، رحمة لكم— وزِيدَ — في رواية أبي داود — (كلها شاف كاف) ، وفي حديث أبيّ بن كعب عند مسلم والترمذي : (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتُك القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا) ،وعلة إنزال القرآن على ذلك، هو التيسير والتسهيل على هذه الأمة ،لأنه يصعب على المرء أن يتحول من لغته إلى لغة غيره ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : (فاقرؤوا ما تيسر منه) ولتكون معانيه مشتركة ، فتفهمه قبائل العرب ؛ إذ هو للناس جميعاً .

واعلم أنهم اختلفوا في الأحرف السبعة ، فقالت فرقة : ليس ذلك في الألفاظ والحروف ، ثم اختلفوا ، فمن قائل : هي في المعاني : كالوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والمحكم والمتشابه ، والقصص والأمثال ، ثم اختلف القائلون بهذا في تعيين السبع من هذه المعاني— ومن قائل: هي في اختلاف اللفظ واتحاد المعنى ، مثل : أقبل وأسرع وعجّل ، وهلُمّ وتعال ، ومثل : أنظرونا وأمهلونا وأخّرونا وأنسئونا — ومن قائل : هي في صفة التلاوة من : إظهار، وإدغام ، وتفخيم ، وترقيق ، ومدّ ، وإمالة ، لأن العرب اختلفت لغاتها في هذه الوجوه، فيسّر الله تعالى على الناس أن يقرأ كل واحد بلغته— ومن قائل: هي في تبديل خواتم الآيات، كجَعْل (سميع بصير)مكان(غفور رحيم)، وهذا القول فاسد،لأنه استقر الإجماع على منع التغيير في القرآن . ولو شدّد إنسان ما هو مخفف، لبادر الناس إلى الإنكار عليه ، فكيف بتبديل كلمات كثيرة ، ويأتي عن القاضي أبي بكر الباقلاني: أن ذلك كان في أول الأمر ثم =

اختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافاً شديداً ، فذهب فريق من العلماءِ إلى أَنَّ تلك الحروف السبعة ، هي فيما يتفق أَن يقال على سبعة أَوجه فما دونها[1] ، كتعال ، وأَقْبِلْ ، وإليَّ ، ونحوي ، وقَصْدي ،

= نُسخ — وكذلك القول الأول لأنه قد أشير في الحديث إلى القراءة بحرف بدل حرف ، وقد أجمع المسلمون على منع إبدال آية حكم بآية أخرى .

وقالت فرقة أخرى : السبعة الأحرف هي (الألفاظ والحروف) ، ثم اختلفوا ، فمن قائل : يكون الإختلاف فيها بتغيير كلمة بغيرها ، أو بزيادة حرف ، ونقصانه ، أو باختلاف الإفراد والجمع ، أو الخبر والأمر ، أو بتغيير إعراب الكلمة ، أو بالتقديم والتأخير ، أو باختلاف في لغات الحرف الواحد ، وتصريف الفعل ، فمنه ما يختلف لفظاً ومعنى ،ومنه ما يختلف لفظاً لا معنى ، وكل هذه اثبتها عثمان والصحابة رضوان الله عليهم ، وإنما أسقطوا من تلك الأحرف ما لم يتواتر . قال الباجي : ولا سبيل إلى تغيير حرف من تلك الحروف التي في المصحف ، واستدل بأن عثمان والصحابة حرقوا المصاحف ما عدا مصحف عثمان رضي الله عنه ، ولو كان فيها شيء من بقية تلك الأحرف التي أنزل عليها القرآن لم يحرقوها ، وأيضاً حرقوها لأنها كانت على غير ترتيب المصحف المتفق على ترتيبه .

والظاهر حمل الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم أراد اللغات والقراءات ، ولكن أيكون المراد قراءاتٌ سبعٌ في كلمة واحدة أم المراد والاشارة إلى تردد سبع لغات في سائر الكلمات ؟ قال أبو عبيد رحمه الله : وليس معنى تلك السبعة ، أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه ، وهذا شيء غير موجود ، ولكنه عندنا أنه نزل بسبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب ا هـ .

ولنا أن نسأل : هل الأحرف السبعة التي يقرأ بها الناس اليوم هي الأحرف السبعة المذكورة في الحديث أو هي حرف واحد منها ؟ والأول هو ظاهر قول الباقلاني وغيره ، وأن المراد بالأحرف السبعة أحرف القراءات السبع ، وقراءة يعقوب داخلة في ذلك ، لأنه أخذها عن أبي عمرو — وبذلك يظهر التيسير والتسهيل الذي هو سبب نزوله عليها — وتظهر معجزة قوله تعالى — [إنا نَحْنُ نزَّلنا الذِّكْرَ وإنَّا له لحافِظونَ] لأن هذه القراءات محفوظة مع مرور مئات من السنين — وأما قول من قال : إنها واحد من الأحرف السبعة فيرد عليه ، أنها لو كانت كذلك للزم أن توجد بقية الأحرف السبعة، وإن لم تحفظ ، لاقتضاء الآية ذلك ، وعلى هذا القول كثير من القراء والأئمة، والله أعلم .

(١) أي فيما (يختلف لفظه ويتحد معناه) كتعال إلخ .

وأقرب ، وجِيءْ . وكاللغات التي في (اف) . وكالحروف التي في كتاب الله فيها قراءات كثيرة ، وهذا قول ضعيف .

قال ابن شهاب في كتاب مسلم(١) : بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا كلام محتمل .

وقال فريق من العلماء : إن المراد بالسبعة أحرف معاني كتاب الله تعالى ، وهي: أمرٌ ونهيٌ ، ووعدٌ ووعيدٌ ، وقصصٌ ومجادلةٌ ، وأمثالٌ ، وهذا أيضاً ضعيف ، لأن هذه لاتسمى أحرفاً ، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال ، ولا تحليل حرام ، ولا في تغيير شيءٍ من المعاني المذكورة .

وحكى صاحب (الدلائل)(٢) عن بعض العلماء ــ وقد حكى نحوه

(١) أي في صحيح مسلم ، ونصُّه في ترجمة حديث (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) : «قال ابن شهاب : بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً ، لا يختلف في حلال ولا حرام ــ أي أن تلك القراءات قد تكون في كلمة واحدة ، ولكن لا يتغير معناها من حلال إلى حرام وعكسه ، كمالك يوم الدين بالمد وعدمه ، وكالصراط بالصاد والسين والمعنى في الكل واحد وكاف ، فإن فيها سبع قراءات ما بين متواترة وشواذ ، وكثيراً من اللغات » اهـ .

(٢) هو قاسم بن ثابت الذي يأتي ذكره فيما بعد ، وهو قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن السرقسطي العوفي . قال السيوطي في (البغية) : ألّف (الدلائل) في شرح الحديث ، وبلغ فيه الغاية من الإتقان ، ومات قبل إكماله فأكمله أبوه بعده ، وكان عالماً بالفقه والحديث ، متقدماً في النحو والغريب والشعر ، طلب للقضاء فامتنع ، مات بعد ثلاثة أيام من طلبه ، توفي سنة ٣٠٢هـ بسرقسطه ، ومات أبوه ثابت سنة ٣١٤ هـ ، عن خمس وتسعين سنة .

القاضي أبو بكر ابنُ الطيب(١) ـ قال(٢) : تدَبَّرتُ وجوهَ الاختلاف في القراءة ، فوجدتها سبعة ، منها ما تتغيَّرُ حركتُه ، ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل : [هُنَّ أَطْهَرُ] و (أَطْهَرَ)(٣) ، ومنها مالا تَتَغَيَّرُ صورتُه ويتَغَيَّر معناه ، مثل : [رَبَّنَا بَاعِدْ]وَ (بَاعَدَ)(٤) ، ومنها ماتبقى صورتُه ، ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل : [نُنْشِزُهَا](٥) و (نَنْشُرُها) ، ومنها ما تتغيرُ صورته ويبقى معناه ، كقوله [كَالْعِهْنِ ٱلْمَنْفُوشِ](٦) ، و(كالصُّوفِ ٱلْمَنْفُوشِ) ، ومنها ما تتغير صورته ومعناه. مثل : [وطَلْحٍ مَنْضُودٍ](٧) ، (وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ)(٨) ، ومنها بالتقديم والتأْخير ، كقوله : [وجاءَتْ

---

(١) هو محمد بن الطيب أبو بكر القاضي ، المعروف بابن الباقلاني ، المتكلم على مذهب الأشعري ، من أهل البصرة ، سكن بغداد وسمع بها الحديث ـ وكان أعرف الناس بعلم الكلام ـ وله التصانيف الكثيرة في الرد على المخالفين من رافضة ، ومعتزلة ، وخوارج ـ وكان وِرْدُه كل ليلة عشرين ترويحة ما تركها في حضر ولا سفر ـ وقد اشتهر بمناظراته التي يحق أن تسطر بماء الذهب. توفي سنة ٤٠٣ هـ .

(٢) قال : أي صاحب (الدلائل) .

(٣) من قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة هود [هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أطهر لَكُمْ] وقد قرأ الحسنُ البصري ، وعيسى بن عمر بالنصب ، ووجهه أن (هؤلاء) مبتدأ ، و(بناتي) خبر ، و(هُنَّ) ضمير فصل و(أطهرَ) حال. وأنكر ذلك الخليل وسيبويه قائليْن : إن ضمير الفصل يكون بين كلامين ولا يتم المعنى إلا بما بعده . وفي مجالس ثعلب : قال ابن خالويه : وقال أبو عمرو بن العلاء : « من قرأ (هُنَّ أطهرَ) بالفتح فقد تربع في اللحن » .

(٤) في قوله تعالى من الآية رقم (١٩) في سورة سبأ : [وقالوا ربنا باعد بيننا وبين أسْفارنا] .

(٥) من الآية رقم (٢٥٩) من سورة البقرة : [وانْظُرْ إلى الْعِظام كَيْفَ نُنْشِزُها ، ثُم نَكْسُوهَا لَحْماً] .

(٦) من الآية رقم (٥) من سورة القارعة : [وَتَكُونُ الجِبالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوش] والعهن : هو الصوف المصبوغ .

(٧) الآية رقم (٢٩) من سورة الواقعة ـ والطلح هو الموز ، أو شجرٌ عِظامٌ كثير الشوك .

(٨) هذه القراءة وما بعدها من شواذ القراءات .

سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ](١) ، وَ (سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِٱلْمَوْتِ) ، ومنها بالزيادة والنقصان ، كقوله : [تِسْعٌ وتِسْعونَ نَعْجَةً](٢) ، و (أُنْثَى) .

وذكر القاضي أَبو بكر الطيب في معنى هذه السبعة الأَحرف حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا القرآن من سبعة أَبواب ، على سبعة أَحرف: نهي وأَمر ، وحلال وحرام ، ومُحْكَمٌ ومتشابه وأَمثال ، فأَحِلّوا حلالَه ، وحرّموا حرامه ، وائتمروا بأَوامره ، وانتهوا بنواهيه ، واعتبروا بمُحْكمه ،وآمنوا بمتشابِهِه) .(٣) قال القاضي : فهذا تفسيرٌ منه صلى الله عليه وسلم للأَحرف السبعة ، ولكن ليست هذه التي أَجاز لهم القراءة بها على اختلافها ، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة ، ومنه قوله تعالى: [وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبد اللهَ عَلَىَ حَرْفٍ](٤) أَي على وجه وطريقة ، هي ريبٌ وشك ، فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك .

وذكر القاضي أَيضاً أَن أُبَيّاً رضي الله عنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (يا أُبَيٌّ : إني أُقْرِئْتُ القرآنَ على حرفٍ أَو حرفين ، ثمّ زادني الملَكُ حتى بلغ سبعة أَحرف ، ليس منها إلا شافٍ كافٍ ،إنْ قُلْتَ : غفـورٌ رحيم ، سميع عليم ، أَو عليم

---

(١) من الآية رقم (١٩) من سورة (ق) .

(٢) من الآية رقم (٢٣) من سورة (ص) .

(٣) رواه ابن جرير الطبري عن أُبيّ بن كعب ، وابن مسعود .والأبوابُ السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي وغير ذلك ، والتي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهي استوجب الجنة .

(٤) من الآية رقم (١١) في سورة (الحج) .

حكيم ، مالم تَخْتِمْ عذاباً برحمة ، أو رحمةً بعذاب(١)) . وقد أَسْنَدَ ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث ، عن أَبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكَر من كلام ابن مسعودٍ نحوَه .

قال القاضي ابن الطيب : وهذا أَيضا سبعة ، غير السبعة التي هي وجوه وطرائق ، وغير السبعة التي هي قراءات وُسِّع فيها ، وإنما هي سبعة أَوجهٍ من أَسماءِ الله تعالى ، وإذا ثبتَتْ هذه الرواية(٢) حُمِلَ على أَن هذا كان مطلقاً ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أَن يُبَدلوا أَسماءَ الله في موضع بغيره ، مما يوافق معناه أَو يخالفه .

قال القاضي: وزعم(٣) قوم : أَنّ كل كلمة تختلف القراءَة فيها فإنها على سبعة أَوجه ، وإلا بطَل معنى الحديث . قالوا : وتُعْرَفُ بعض الوجوه بمجيءِ الخبر به ، ولا يُعْرَفُ بعضها إذا لم يأْت به خبر .

قال: وقال قومٌ : ظاهر الحديث يوجب أَن يوجد في القرآن كلمة أَو كلمتان تُقرآن على سبعة أَوجه ، فإذا حصل ذلك تمَّ معنى الحديث.

قال القاضي أَبو بكر بن الطيب : وقد زعم قوم أَن معنى الحديث أَنه أُنزِل على سبع لغات مختلفات(٤) ، وهذا باطلٌ ، إلاّ أَن يريد الوجوه

---

(١) رواه أبو داود ، عن أبيّ بن كعب ، رضي الله عنه ، وفيه (مالم تخلط آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب . وقوله في آخر الحديث : (إن قلت غفور رحيم ...) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ يعني أي ذلك قلت يكفيك ولا يضرك . وهذا الحديث يفيد أنه كما وقع الترخيص في اللغات وقع في خواتم الآيات ، بما يناسب المقام من أسماء الله تعالى ، وهو شيء منسوخ .

(٢) أي رواية أبيّ بن كعب رضي الله عنه .

(٣) هذا الزعم بعيد ، وما قاله الآخرون من أن ذلك يكون في بعض الكلمات لا في كل الكلمات هو الحق إن شاء الله ، ويأتي ذلك عن القاضي أبي بكر رحمه الله .

(٤) اعلم أن القاضي أبا بكر رضي الله عنه اعترض تفسير الحديث بسبع لغات ، وفسره بسبع قراءات ، مستدلا على ذلك بأن لغة عمر ، وأُبي ، وابن مسعود واحدة ، ومع ذلك اختلفت قراءاتهم ، وناقشه القاضي أبو محمد ـ بأن اختلاف الوجوه والقراءات تابع لاختلاف اللغات ، واختلاف =

المختلفةَ التي تُسْتعمل في القصة الواحدة ، والدليل على ذلك: أن لغة عمرَ بن الخطابِ ، وأُبيٍّ بن كعب، وهشام بن حكيم، وابن مسعود : واحدة ، وقراءتُهم مختلفة ، وخرجوا فيها إلى المناكرة ، فأَمّا الأَحرفُ السبعةُ التي صوَّب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم القراءة بجميعها، وهي التي راجع فيها فزاده، وسهَّل عليه لعلمه تعالى بما هُم عليه، من اختلافهم في اللغات ؛ فإنها سبعة أَوجه، وسبع قراءات مختلفات وطرائق يُقرأُ بها على اختلافها في جميع القرآن أَو معظمه، حسبما تقتضيه العبارة في قوله: (أُنزل القرآن) ، فإنما يريد به الجميع، أَو، المعظم، فجائز أَن يُقرأَ بهذه الوجوه على اختلافها . ويدل على ذلك قول الناس : حَرْفُ أُبَيٍّ، وحرفُ ابن مسعودٍ . ونقول في الجملة : إن القرآن منزّل على سبعة أَحرف من اللغات ، والإِعراب، وتغيير الأَسماءِ والصور ، وإن

= اللغات ليس اختلافاً شديد التباين، بحيث يجعل بعضهم بعيداً عن لغة الآخر، وجاهلا بها، وإن كانت قد تختلف في الجملة — وبأننا لو فرضنا أنهم من قبيلة واحدة، ولغتهم واحدة ، ماكان ذلك حجة على من قال : القرآن أنزل على سبع لغات، لأن المناكرة لم تكن من حيث اللغة، وإنما كانت من حيث القراءة ، ولربما أقرأه النبي صلى الله عليه وسلم خلاف لغته — وبأن أهل العلم(كأبي عبيدة) ذهبوا إلى أن معنى الحديث أنه أنزل على سبع لغات. ويمكن أن يجاب عن القاضي أبي بكر بأنه إنما أنكر أن يقصد النبي صلى الله عليه وسلم عد اللغات التي تختلف وتتباين ، وأثبت قصد النبي صلى الله عليه وسلم عد الوجوه والطرائق المختلفة في كتاب الله تعالى ، مرة من جهة اللغة ، ومرة من جهة الإعراب ، ومرة من جهة أخرى ، ويجوز أن يقصد النبي صلى الله عليه وسلم عد الجهات التي اختلفت باختلاف اللغات ، ويجوز أن يقصد النبي صلى الله عليه وسلم عد اللغات التي نزل القرآن بلسانها ، وهي قبائل مضر فجعلها سبعة ، وهذا القول أكثر توسعة للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن وجوه القراءات على هذا القول تبقى غير محصورة في سبعة، فعسى أن الملك أقرأه أكثر من سبعة وجوه . هذا حاصل اعتراض القاضي أبي بكر ، ومناقشة القاضي أبي محمد، رحمهما الله .

ذلك مفترِق في كتاب الله ، ليس بموجود في حرف واحد وسورة واحدة ، يقطع[١] على اجتماع ذلك فيها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

انتهي ما جمعتُ من كلام القاضي أَبي بكر رضي الله عنه ، وإطلاقُه البطلانَ على القول الذي حكاه فيه نظر ، لأَن المذهب الصحيح الذي قرره آخراً من قوله: «ونقول في الجملة» ــ إنما صح وترتَّب من جهة اختلاف لغات العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، وهو اختلاف ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض في الأَكثر ، وإنما هو أَن قريشاً استعملت في عباراتها شيئاً ، واستعملت هُذيل شيئاً غيره في ذلك المعنى ، وسعد[٢] بن بكر غيره ، والجميع كلامهم في الجملة ولغتُهم ، واستدلال القاضي رضي الله عنه بأَن لغة عمر ، وأُبيّ ،وهشام ، وابن مسعود واحدة ، فيه نظر ، لأَن ما استعملته قريش ومنهم عمر ،وهشام ، وما استعملته الأَنصار ومنهم أُبيّ ،وما استعملته هُذيل ومنهم ابن مسعود قد يختلف ، ومن ذلك النحو من الاختلاف هو الاختلاف في كتاب الله سبحانه ، فليست لغتهم واحدة في كل شيء ، وأَيضاً فلو كانت لغتهم واحدة بأَن نفرضَهم جميعاً من قبيلة واحدة ، لما كان اختلافهم حجة على من قال : إن القرآن أُنزل على سبع لغات ؛ لأَن مناكرتهم لم تكن لأَن المُنكِرَ سمع ما ليس في لغته فأَنكره ، وإنما كانت لأَنه سمع خلاف ما أَقرأَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ،

(١) وفي بعض النسخ الخاصة : (وجوداً يقطع باجتماع ذلك فيها) .

(٢) في قبائل العرب سعود كثيرة ، منهم : (سعد تميم ، وسعد قيس ، وسعد بكر ، وسعد العشيرة وغيرهم) ، وفي المثل : بكل وادٍ بنو سعد .

وعساه قد أقرأه ما ليس من لغته واستعمالِ قبيلته ، فكأن القاضي رحمه الله إنما أَبطل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قصد في قوله: (على سبعة أحرف) عَدَّ اللغات التي تختلف بجملتها ، وأن تكون سبعاً متباينة ، لِسَبعِ قبائل تَقرأُ كلُّ قبيلة القرآن كله بحرفها ، ولا تُدخل عليها لغة غيرها . بل قصد النبي صلى الله عليه وسلم عنده عدَّ الوجوه والطرائق المختلفة في كتاب الله ، مرَّةً من جهة لغة ، ومرَّةً من جهة إعراب ، وغير ذلك ، ولا مِرْية أن هذه الوجوه والطرائق إنما اختلفت لاختلاف في العبارات بين الجملة التي نزل القرآن بلسانها ، وذلك يُقال فيه اختلاف لغات ، وصحيحٌ أَن يَقْصد عليه السلام عدَّ الأَنحاءِ والوجوه التي اختلفت في القرآن بسبب اختلاف عبارات اللغات ، وصحيحٌ أَن يَقْصد عَدَّ الجماهير والرؤوس من الجملة التي نزل القرآن بلسانها ، وهي قبائل مضر فجعلها سبعة ، وهذا القول أكثر تَوْسعة للنبي عليه السلام ، لأَن الأَنحاءَ تبقي غير محصورة ، فعسى أَن المَلَكَ قد أقرأه بأَكثر من سبعة طرائق ووجوه . قال القاضي في كلامه المتقدم: فجائزٌ أَن يُقرأَ بهذه الوجوه على اختلافها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والشرط الذي يصح به هذا القول هو أَن تُروى عن النبيّ عليه السلام ، ومالَ كثير من أَهل العلم كأَبي عبيد وغيره ، إلى أَن معنى الحديث المذكور أَنه أُنزل على سبع لغات لسبع قبائل انْبَثَّ[1] فيه من كل لغة منها ، وهذا القول[2] هو المتقرر من كلام القاضي رضي

(١) أي انتشر في القرآن من كل لغة منها – يقال انبث الشيء تفرق وانتشر .

(٢) يفهم من هذا أن مختار ابن عطية تبعاً لأبي عبيد هو أن الأحرف السبعة معناها اللغات ، وأما الإمام الطبري فقد ذهب إلى أن المراد بها المعاني المتقاربة في الألفاظ المختلفة .

الله عنه ، وقد ذكر[١] بعضهم قبائل من العرب روْماً منهم أن يُعَيِّنوا السبع التي يحسن أَن تكون مُرادُهُ عليه السلام ، نظروا في ذلك بحسب القطر ، ومن جاوَرَ منْشأَ النبي عليه السلام ، واختلفوا في التسمية وأَكثروا ، وأَنا أُلخص الغرض جهدي بحول الله ، فأَصْلُ ذلك وقاعدتُه قريش[٢] ، ثم بنو سعد بن بكر ، لأَن النبي عليه السلام قُرَشِيٌّ ، واستُرضِع في بني سعد ، ونشأَ فيهم ، ثم ترعرع وَعُقَّت[٣] تمائمه ، وهو يخالط في اللسان كنانة ، وهُذيلا ، وثَقيفاً ، وخزاعة ، وأَسداً ، وضبّة ، وأَلفافها[٤] لقربهم من مكة وتكرارهم عليها ، ثم بعد هذه تميماً وقيساً ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب ، فلما بعثه الله تعالى ، ويسَّر عليه أَمر الأَحرف ، أَنزل عليه القرآن بلغة هذه الجملة المذكورة ، وهي التي قَسَّمها على سبعة لها السبعة الأَحرف ، وهي اختلافاتها في العبارات حسبما تقدم .

قال ثابت بن قاسم : لوقلنا : مِنْ هذه الأَحرفِ لِقُريش ، ومنها لكنانة ، ومنها لأَسد ، ومنها لِهُذيل ، ومنها لِتميم ، ومنها لِضَبَّة وأَلفافها ، ومنها لِقَيْس ، لكان قد أَتى على قبائل مُضَر في مراتب سبعة تستوفي[٥] اللغات التي نزل بها القرآن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

(١) هذا الكلام تأييد لما اختاره من تفسير الأحرف السبعة باللغات المختلفة ، وذلك أنهم ما حاولوا تعيينها بتعيين قبائلها حتى تأولوا الحديث على ذلك .

(٢) في صحيح مسلم عن جابر : (الناس تبع لقريش في الخير والشر) .

(٣) بالقاف . كناية عن كونه نشأ معهم حتى شب وقوي فيهم – انظر لسان العرب مادة عقق .

(٤) أي حلفاءها يقال : فلان لفيف أي صديقه .

(٥) وفي بعض النسخ الخاصة (تستوعب) .

وهذا نحو ما ذكرناه[١] ، وهذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة ، وسلِمَتْ لغاتُها من الدخَل[٢]، ويسرها الله لذلك ليُظْهِرَ آية نبيه بعجزها عن معارضة ما أُنزل عليه ، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب ، في الحجاز ، ونجد ، وتهامة ، فلم تطرقْها الأُمم ، فأَما اليمن وهو جنوبي الجزيرة ، فأَفسدت كلامَ عربه خلطةُ الحبشة والهنود ، على أَن أَبا عبيد القاسم بن سلام[٣] وأَبا العباس المبرد[٤]، قد ذكرا أَن عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلسانها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك عندي إنما هو فيما استعملته عربُ الحجاز من لغة اليمن ، كالعَرِم والفَتَّاح[٥] ، فأَما ما انفردوا به (كالزَّخِيخ والقَلُّوب)[٦] ونحوه ، فليس في كتاب الله منه شيءٌ ، وأَما ما والى العراقَ من جزيرة العرب ، وهي بلادُ ربيعة وشرقي الجزيرة فأَفسدت لغتَها مخالطةُ الفرس والنبط [٧] ونصارى الحِيرَة وغير ذلك .

وأَما الذي يَلي الشامَ ، وهو شمال الجزيرة ، وهي بلاد آل جَفْنَةَ[٨]

(١) اعلم أن الذين فسروا الأحرف السبعة باللغات، منهم من حصرها في قبائل مضر السبعة . ومنهم من لم يحصرها في ذلك ، فقوله : (وهذا نحو ما ذكرناه) أي قريب منه ، والله أعلم .

(٢) أي الفساد والعيب . والدخل (بسكون الخاء المعجمة وبفتحها) يقال : في هذا الأمر دخَل ودغَل .

(٣) من علماء الحديث والفقه ، وهو أول من صنف في غريب الحديث — توفي سنة ٢٢٢ هـ .

(٤) من أئمة اللغة والنحو — من أشهر كتبه (الكامل) . توفي سنة ٢٨٥ هـ . وفيات الأعيان .

(٥) العرم : هو السيل الذي لا يقاوم — والفِتَّاح : هو القاضي .

(٦) الزخيخ : شدة بريق الجمر ، يقال : زخ الجمر برق ، والقِلَّوب كِسنَّور وتَنُّور : الذئب . وهما من لغة اليمن .

(٧) جيل من العجم نزل بين العراقين .

(٨) جفنة : قبيلة من اليمن ، وآل جفنة : رهط ملوك الغساسنة .

وابن الرافلة[١] وغيرهم ، فأفسدتها مخالطةُ الروم وكثيرٍ من بني إسرائيل ، وأما غربي الجزيرة فهي جبال تسكن بعضَها هُذيلٌ وغيرهم ، وأكثرها غير معمور ، فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات ، لم تكدِّرْ صَفْوَ كلامها أُمةُ العجم ، ويُقَوِّي هذا المنزع[٢] أنه لما اتسع نطاقُ الإسلام ، وداخَلتِ الأُمَمُ العربَ ، وتجرَّد أهل الْمِصرين : البصرةِ والكوفةِ ، لِحفْظِ لسان العرب وكَتْب لغتها ، لم يأْخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة ومن كان معها ، وتجنبوا اليمن والعراق والشام ، فلم يُكْتَب عنهم حرف واحد ، وكذلك تجنبوا حواضر الحجاز : مكة والمدينة والطائف ، لأَن السبي والتجار من الأُمم كثُروا فيها فأَفسدوا اللغة ، وكانت هذه الحواضر في مدة النبي صلى الله عليه وسلم سليمة ، لقلة المخالطة ، فمعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أُنزل القرآن على سبعة أَحرف) أَي فيه عبارات سبع قبائل ، بلغةِ جُمْلَتِها نَزَلَ ، فيعبر عن المعنى فيه بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هذيل ، ومرة بغير ذلك ، بحَسَبِ الأَفصح والأَوجز في اللفظة ، أَلا ترى أَن (فَطَرَ) معناها عند غير قريش (ابتدأَ خلقَ الشيءِ وعمَلَه) فجاءَت في القرآن ، فلم تتجه لابن عباس حتى اختصم إليه أَعرابيان في بئر ، فقال أَحدهما : أَنا فَطَرْتُهَا ، قال ابن عباس ففهمت

(١) هو مالك بن رافلة بن أراش ، قتله قطبة بن قتادة الذي كان على ميمنة جيش المسلمين في غزوة مؤتة ، وقال عند ذلك :

طعنت ابن رافلة بن الأراش برمح مضى فيه ثم انحطمْ
ضربت على جيده ضربة فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بني عمه غداة رقوقين سَوْقَ النَّعَم

(والرقوقين) اسم موضع . ويروى(رقوفين) بالفاء في الثاني ، انظر سيرة ابن هشام .

(٢) أي المذهب، وهو النظر إلى لغات القبائل البعيدة عن الأعاجم ، والتي كانت تقيم وسط الجزيرة ، لا في أطرافها شرقاً وجنوباً وشمالا .

حينئذ موقع قوله تعالى : [فَاطِرِ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْض](١) وقال أيضاً : ما كنت أدري معنى قوله : [رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ](٢) حتى سمعتُ بنتَ ذي جدن(٣) تقول لزوجها : تعال أُفاتِحْكَ أَيْ أُحاكمك ، وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى : [أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ](٤) فوقف به فتى فقال : إن أبي يتخوفني حقي . فقال عمر : الله أكبر ، أو يأخذهم على تخوف ، أي على تَنَقُّصٍ لهم . وكذلك اتفق لقطبة(٥) بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة [وَالنَّخْلَ بَاسِقاتٍ](٦) ، ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر ، إلى غير هذا من الأمثلة ، فأباح الله تعالى لنبيِّه هذه الحروف السبعة – وعارضه(٧) بها جبريل في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجازُ ، وَجَوْدَةُ الرَّصْف ، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام : (فاقرؤوا ما تيسر منه) ، بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يُبَدِّل اللفظةَ من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاءِ نفسه ، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ، وكان معرضاً أن يُبَدِّل هذا وهذا ، حتى

(١) من الآية رقم (١) في سورة فاطر ، أو من الآية رقم ١١ في سورة الشورى .

(٢) من الآية رقم (٨٩) في سورة الأعراف .

(٣) ذو جدن قَيْل من أقيال حمير ، وهو أول من غنى باليمن . وفي (الجامع لأحكام القرآن) حتى سمعت بنت ذى يزن .

(٤) من الآية رقم (٤٧) في سورة النحل .

(٥) قطبة بن مالك الثعلبي : صحابي يروي عنه ابن أخيه زياد بن علاقة ، كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر ، وقرأ فيها صلى الله عليه وسلم بسورة (ق) ، فلما بلغ (والنخل باسقات) جعل قطبة يرددها ولا يدري معناها .

(٦) من الآية رقم (١٠) في سورة ق .

(٧) يشير بهذا إلى معنى حديث عمر بن الخطاب ، وهشام بن حكيم ، واختلافهما في قراءة سورة الفرقان .

يكون غيرَ الذي نزل من عند الله ، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي عليه السلام ليوسع بها على أمته ، فقرأ مرة لأُبَيٍّ بما عارضه به جبريلُ صلوات الله عليهما ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً ، وفي صحيح البخاري(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (أقرأني جبريلُ على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف) . وعلى هذا تجيءُ قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان ، وقراءة هشام بن حكيم لها ، وإلاّ فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في كل قراءة منهما ، وقد اخْتَلَفَتَا : (هكذا أقرأني جبريل) ؟ هل ذلك إلا لأنه أقرأه بهذه مرة وبهذه مرة ؟ وعلى هذا يُحمل قول أنس بن مالكٍ حين قرأ :[إِنَّ ناشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قيلاً](٢) ، فقيل له : إنما نقرأ (وأَقْوَمُ) ، فقال أنسٌ :(٣) (أَصْوَبُ وأَقْوَمُ وأَهيأُ) واحد ، فإنَّما معنى هذا أنها مَرْوِيَّةٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلاّ فلو كان هذا لأَحد من الناس أن يضَعه لبطلَ معنى قول الله تعالى : [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا ٱلذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون](٤) .

ثم إن هذه الروايات الكثيرة لمَّا انتشرتْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترق الصحابة في البلدان ، وجاءَ الخَلَف ، وقرأ القرآن كثيرٌ من غير العرب ، ووقع بين أهل الشام والعراق ماذكره

---

(١) أي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) الآية رقم (٦) من سورة المزمّل .

(٣) أنس بن مالك بن النضير الخزرجي ، كان خادم الرسول ، وأكثر من الرواية عنه، شهد الفتوح — وتوفي بالبصرة سنة (٩١) هـ .

(٤) الآية رقم (٩) من سورة الحجر .

حُذيفةُ بن اليمان رضي الله عنه[١] ، وذلك أَنهم اجتمعوا في غزوة أَرْمِينِيَّة فقرأَتْ كلٌّ طائفة بما رُوِي لها ، فاختلفوا ، وتنازعوا ،حتى قال بعضهم لبعض : أَنا كافرٌ بما تقرأُ به ، فأَشفق حُذيفة مما رآى منهم ، فلمّا قَدِمَ حذيفة المدينة فيما ذكر البخاريُّ وغيرُه ، دخل إلى عثمان بن عفان قبل أَن يدخل بيته فقال : أَدرِكْ هذه الأُمَّةَ قبل أَن تهلِك ، قال فيما ذا ؟ قال في كتاب الله ، إني حضرت هذه الغزوة ، وجمعت ناساً من العراق ، ومن الشام ، ومن الحجاز ، فوصف له ما تقدم ، وقال : إني أَخشى عليهم أَن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى . قال عثمان رضي الله عنه : أَفْعَلُ . فتجرَّدَ للأَمر ، واستناب الكُفاة العلماء الفصحاء في أَن يكتبوا القرآن ، ويجعلوا ما اختلفتِ القراءَة فيه على أَشهر الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَفْصَح اللغات ، وقال إذا اختلفتم

(١) قال أبو عبد الله البخاري في جامعه الصحيح : حدثنا موسى بن إسماعيل ، قال : حدثنا إبراهيم ،قال :حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضي الله عنهما ،وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ،فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ،فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين. أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف النصارى واليهود ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف فننسخها ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، قال ابن شهاب : وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنَّه سمع زيد بن ثابت قال : فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري [مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ] فألحقناها في سورتها في المصحف . انتهى .

وحذيفة بن اليمان هو . أبو عبد الله العَبسي — توفي سنة ٣٦ هـ .

في شيءٍ فاكتبوه بلغة قريش[1] ، فمعنى هذا إذا اختلفتم فيما رُوِيَ ، وإلا فمحالٌ أَن يُحيلهم على اختلاف مَنْ قبْلَهم ، لأَنه وَضْعُ قُرآن . فكتبوا في القرآن مِن كلِّ اللغات السبع ، مرَّةًمن هذه ،ومرَّةً من هذه ، وذلك مقيد بأَن الجميع مما رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم وقُرِىءَ عليه ، واستمر الناس على هذا المصحف المتخيَّر ، وتَرْك ماخرج عنه مما كان كُتِبَ [2] سَدًّا للذريعة ، وتغليباً لمصلحة الأُلفة ، وهي المصاحف التي أَمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أَن تُحْرَقَ أَو تُخْرَقَ ، فأَما ابن مسعود فأَبى أَن يُزَال مصحفه فَتُرِك ، ولكن أَبى العلماءُ قراءته سداً للذريعة ، ولأَنه رُوِيَ أَنه كتبَ فيه أَشياءَ على جهة التفسير ، فظنها قومٌ من التّلاوة فتخلط[3] الأَمر فيها ، ولم يسقط فيما تُرك معنى من معاني القرآن لأَن المعنى جزءٌ من الشريعة ، وإنما تُركت أَلفاظٌ معانيها موجودة في الذي أُثبت .

ثم إن القُرَّاءَ في الأَمصار تتبعوا ما رُوِيَ لهم من اختلافات ، لاسيما فيما[4] وافق خطَّ المصحف ، فقرؤوا بذلك حسب اجتهاداتهم ، فلذلك

(١) لأن القرآن نزل بها ، قال أبو عمر بن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي في الأغلب ،لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات ، كتحقيق الهمز ، وقريش لا تهمز . وتقدم قول ابن عطية في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) أي فيه عبارة سبع قبائل بلغةِ جُمْلَتِها نزل القرآن .

(٢) وفي بعض النسخ الخاصة هنا زيادة «كقراءة عمر بن الخطاب (فامْضُوا إلى ذِكْرِ الله) ونحوها » وهى من الآية رقم (٩) من سورة الجمعة .

(٣) لعله (فاختلط) ، وفي بعض النسخ الخاصة (فتخلف) ، ولا يظهر له معنى صحيح .

(٤) اعلم أن القراءات الموجودة في العرضة الأخيرة ، هي أبعاض القرآن ، فماأمكن جمعه منها بالخط جمعوه بالخط في المصاحف المكتوبة ، حيث لم يكن في خط الصحابة شكل ولا نقط ، ولذلك تمكنوا من الجمع بالخط بين (فتبينوا) و (فتثبتوا) وبين (ينشركم) و (يسيركم) وبين=

تَرَتَّب أَمْرُ القرَّاءِ السبعة وغيرهم ، رحمهم الله ، ومضت الأَعصار والأَمصار على قراءة السبعة ، وبها يُصلَّى ، لأَنها ثبتت بالإجماع ، وأَما شاذُّ القراءات فلا يُصَلَّى به ، وذلك لأَنه لم يُجمِع الناسُ عليه . أَما أَنَّ المرويَّ منه عن الصحابة رضي الله عنهم ، وعن علماءِ التابعين لايعتقد[1] فيه إلاّ أَنهم رَوَوْهُ ، وأَما ما يؤْثَرُ عن أَبي السمال[2] ومن قاربه فلا يوثق به ، وإنما أَذكره في هذا الكتاب لئلا يُجهل ،والله المستعان .

وكان المصحف غير مشكول ، ولا منقوط ، وقد وقع لبعض الناس خلاف في بعض ما ذكرتُه في هذا الباب ، ومنازعات ، اختصرت ذلك كراهة التطويل ، وعوَّلْتُ على الأَسلوب الواضح الصحيح ، والله المرشد للصواب برحمته .

=(ننشزها) و (ننشرها)، إلى غير ذلك من القراءات المتواترة ،وأما مالم يمكن جمعه بالخط فوزعوه على المصاحف . انظر كيفية الرسم في تلك المصاحف في الكتب التي عنيت بهذا الشأن ، وأقربها كتاب « المقنع » للداني في رسم القرآن .

(١) والصحيح إجراؤه مجرى خبر الآحاد ، كما في دواوين الأصول ، والفرق بين القراءة والرواية ، واضح عند أرباب الدراية .

(٢) هو قعنب بن أبي قعنب العدوي البصري، له اختيار في القراءة شاذ عن العامة ، توفي في حدود الستين ومائة .

باب
ذِكرُ جَمعِ القُرْآنِ وَشَكْلِه وَنَقْطِهِ وَتَحْزيبِهِ وَتَعْشِيرِه

كان القرآن في مُدَّة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقاً في صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وظُرر[1] ، وفي لِخاف ، وفي خزف ،وغير ذلك ، فلما استحرَّ القتل[2] بالقراء يوم

(١) الظرر بالظاء المشالة : الحجر المدور المحدد ، كاللخاف ، جمعه ظرار .

(٢) أي اشتد وكثر — واعلم أن القرآن العظيم جمع مرتين : مرة على يد أبي بكر الصديق بإشارة من عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما ؛ خشية أن يذهب منه شيء بِمَوْت من تلقاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بسبب حرب اليمامة التي أثارها مسيلمة الكذاب وأصحابه من بني حنيفة ، ومن المرتدين الذين التفوا حوله ، وفي هذه الحرب قُتل من القراء عدد كبير ، وكان هذا الجمع الأول من الصحف ، وعلى يد زيد بن ثابت الأنصاري ، رضي الله عنه ، لنشاطه وحماسه — ولأنه كان يحفظ القرآن كله — ولأنه كان كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم — ولأنه كان يجمع بين اللغة العربية واللغة العبرية — فالشيخان رضي الله عنهما سبقا إلى جمع القرآن كما ذكرنا — والمرة الثانية كانت على يد عثمان بن عفان ، وكانت بإشارة حذيفة ابن اليمان رضي الله عنهما — وكانت في المصحف ، وعلى يد زيد بن ثابت وأصحابه الثلاثة ، فجمع عثمان رضي الله عنه الناس على قراءة واحدة حتى لا يختلفوا في القرآن ، وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله الجمعيْن معاً في جامعه الصحيح — وكان ذلك من مناقب عثمان رضي الله عنه — ومن باب المصالح المرسلة ، وكل ما أحدثه السلف الصالح فهو من هذا القبيل ، لا يتخلف عنه بوجه ، ولا يكون مخالفاً لغرض الشارع ، كيف وهو يقول : — (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن) — و(لا تجتمع أمتي على ضلالة) — وإيضاح هذا أن جمع المصحف لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — للاستغناء عنه بالحفظ في الصدور — ولأنه لم يقع في القرآن اختلاف يُخاف بسببه الاختلافُ في الدين ، وإنما وقعت فيه نازلتان أو ثلاث ، كحديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم ، رضي الله عنهما — وكقصة أبيّ بن كعب مع عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنهما ، وفيه قال عليه الصلاة والسلام : (لا تُماروا في القُرآن ، فإن المِراء فيه كُفْرٌ=

اليمامة(١) ، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن ، مخافة أن يموت أشياخ القراءة ، كأبيٍّ ، وزيد ، وابن مسعود ، فيذهب ، فندبا إلى ذلك زيدَ بنَ ثابت فجَمَعَه غيرَ مرتب السور بعد تعب شديد منه ، رضي الله عنه ، ورُوي أن في هذا الجمع سقطت الآية من آخر براءة (٢) ، حتي وجدها عند خزيمة بن ثابت . وحكى الطبري : أنه إنما سقطت له في الجمع الأخير ، والأول أصح ، وهو الذي حكى البخاري ، إلا أنه قال فيه : مع أبي خُزيمة الأنصاري ، وقال : إن في الجمع الثاني فقد زيد آية من سورة الأحزاب [مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ] فوجدها مع خزيمة بن ثابت ، وبقيت الصحفُ عند أبي بكر ، ثم عند عمر بن الخطاب بعده ، ثم عند حفصة بنته (٣) في خلافة عثمان ، وانتشرت في خلال ذلك صُحُفٌ في الآفاق كُتِبَتْ عن الصحابة ، كمصحف ابن مسعود ، وما كتب عن الصحابة بالشام ، ومصحف أُبَيٍّ ، وغير ذلك ، وكان في ذلك اختلاف

=فحاصل الأمر أن جمع المصحف كان مسكوتاً عنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لما وقع الاختلاف في القرآن ، وكثر حتى كان أحدهم يقول لصاحبه : أنا كافر بما تقرأ به ، والنبي صلى الله عليه وسلم غائب عن المسلمين ، صار جمع المصحف واجباً أكيداً ، ورأياً سديداً ، في واقعة لم يتقدم بها عهد ، ولم يكن فيه مخالفة للشرع ، وإلا لزم أن يكون النظر في كل واقعة لم تحدث في الزمن المتقدم بدعة ، وهو باطل باتفاق ـــ وقد استغرقت مدة نسخ المصاحف العثمانية خمس سنين ، من خمس وعشرين إلى ثلاثين ـــ انظر تفسير (ط) رحمه الله .

(١) هي بلاد بني حنيفة ، وهي من بادية الحجاز .

(٢) هي قوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ . فَانْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

(٣) أي لأنها كانت وصيته من أولاده على أوقافه وتركته ، وظلت عندها حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما سيذكره ابن عطية .

حسب السبعة الأَحرف التي أُنزل القرآن عليها ، فلما قدم حذيفة من غزوة أَرمينية(١) ، حسبما قد ذكرنا(٢) ، انتدب عثمان(٣) لجمع المصحف ، وأَمر زيدَ بن ثابت بجمعه ، وقرن بزيد فيما ذكر البخاري ثلاثةً من قريش : سعيدَ بن العاص ، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن الزبير . وكذلك ذكر الترمذي ، وغيرهما ، وقال الطبري فيما روى : إنه قرن بزيد أَبانَ بنَ سعيد بن العاص وحده ، وهذا ضعيف ، وقال الطبري أَيضاً : إن الصحف التي كانت عند حفصة جُعِلَتْ إماماً في هذا الجمع الأَخير ، ورُوي أَن عثمان رضي الله عنه قال لهم : إذا اختلفتم في شيءٍ فاجعلوه بلغة قريش ، فاختلفوا في التابوه والتابوت ، قرأَه زيد بن ثابت بالهاءِ ، والقرشيون بالتاءِ ، فأَثبته بالتاءِ ، وكُتب المصحف على ماهو عليه غابر الدهر(٤) ، وَنَسَخَ عثمان منه نسخاً(٥) ، ووجه بها إلى الآفاق ، وأَمر بما سواها

(١) هي في شرق الجمهورية التركية ، وقريبة من الحدود العراقية .

(٢) أي في صفحة ٤٧ .

(٣) أي استجاب عثمان لذلك ، وأمر بإحضار الصحف التي كُتبت في عهد أبي بكر رضي الله عنه من عند حفصة ، فجيء بها ، وأحضر أربعة من خيار الأصحاب المهرة في القراءة والكتابة ، وكلهم قرشيون إلا زيد بن ثابت فإنه أنصاري ، وأمرهم بكتابة المصحف من تلك الصحف ، وقد اشترك مع هذه اللجنة جماعة ، منهم : مالكُ بن أبي عامر جد الإمام مالك رضي الله عنه ، وعبدُ الله بن عباس ، وأبيٌّ بن كعب ، وأنسُ بن مالك رضي الله عنهم — فقد كتب المصحف بعلم الصحابة وإجماعهم على ما كتبوه فيه ، وفق الترتيب الذي قرأه النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل في العام الأخير الذي توفي فيه .

(٤) أي إلى آخر الدهر ، وغابر يطلق على الباقي والماضي فهو من الأضداد .

(٥) الذي تميل إليه النفس أنها سبعة ، أرسل إلى مكة واحداً ، وإلى اليمن واحداً ، وإلى البحرين واحداً ، وإلى البصرة واحداً ، وإلى الكوفة واحداً ، وإلى الشام واحداً ، وأمسك بالمدينة واحداً ، وأمر بتحريق ماعداها جمعاً للكلمة ومنعاً للالتباس .

من المصاحف أن تُحرق (١) أو تخرق ، تروى بالحاءِ غير منقوطة ، وتروى بالخاءِ على معنى ثم تدفن ، ورواية الحاءِ غير منقوطة أحسن .

قال القاضي أبو بكر بن الطيب : وترتيب (٢) السور اليوم هو

---

(١) بالتخفيف والتشديد على المبالغة ، والتخريق التمزيق ، وبعد أن تمزق تدفن احتراماً للحروف والكلمات ، ولقد وافق الصحابة رضوا ن الله عليهم على الأمر بالتحريق أو التمزيق بعد جمع المصحف الإمام ، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب رضي لله عنه ؛ بل قال : لو وليت لفعلت في المصاحف الذي فعله عثمان ، كما رواه أبو عبيد في كتاب «فضائل القرآن» ، وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون ،وقد قال صلى لله عليه وسلم : (عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ) ، إلا ما كان من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ،فإنه خالف ذلك ، واحتفظ بمصحفه ، ولعل مرد ذلك إلى التأثر والانفعال الذي أصابه من جراء تنحيته عن لجنة جمع القرآن مع ماله من الأسبقية والأقدمية ، كما يشير إلى ذلك قوله : (وكيف تأمرني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت القرآن من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وسبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان ،والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل ، وما أحد أعلم بكتاب الله مني ، وما أنا بخيركم . ولو أعلم مكاناً تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته) وإلاّ ما كان من الناقمين عليه لغرض في نفوسهم ، ولمرض في قلوبهم ، على أنه لاداعي إلى تأثر ابن مسعود رضي الله عنه ، لأن زيد بن ثابت اختير كذلك حتى في الجمع الأول ، فقد اختاره أبو بكر وعمر من قبل لنشاطه وشبابه ، وأيضاً فإن مثل هذا العمل الشاق فيه إرهاق ، وذلك مما يتحمله الشباب دون الشيوخ .

(٢) الظاهر كما للبيهقي والسيوطي وغيرهما ، أن ترتيب السور توفيقي عن النبي صلى الله عليه وسلم باستثناء الأنفال وبراءة ،استناداً إلى حديث ابن عباس الذي رواه الإمام أحمد ،وأصحاب السنن ، ونصه : قال (أي ابن عباس) : قلت لعثمان : ماحملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ،ولم تكتبوا بينهما (بسم الله الرحمن الرحيم) ،ووضعتموهما في السبع الطول ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعضَ مَنْ كان يكتب فيقول : (ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا) . وكانت الأنفال من أوائل ما أُنزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فلذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما (بسم الله الرحمن الرحيم) فوضعتها في السبع الطول ا هـ . وهذا في المصاحف الرسمية القائمة على العرضة الأخيرة ، لا في المصاحف الشخصية كمصحف ابن مسعود رضي الله عنه . انظر صحيح البخاري في باب تأليف القرآن .

مِن تلقاءِ زيدِ ومَنْ كان معه ، مع مشاركة مِنْ عثمان رضي الله عنه في ذلك ، وقد ذكر ذلك مكي رحمه الله في سورة براءة ، وذكر أن ترتيبَ الآيات في السور ، ووضْعَ البسملة في الأَوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولَـمَّا لم يأْمر بذلك في أَول براءة تُركت بلا بسملة . هذا أَحد ماقيل في براءة ، وذلك مُسْتَقْصى في موضعه مُوَفَّى إن شاءَ الله تعالى .

وظاهر الآثار أَن السبع الطُّوَل[١] ، والحواميم ، والمفَصّل كان مرتباً في زمن النبي صلى الله عليه وسلَّم ، وكان في السور مالم يُرتب ، فذلك هو الذي رُتِّب وقت الكَتْبِ .

وأَما شكل المصحف ونقطه ، فَرُوِيَ أَن عبد الملك بن مروان أَمر به[٢] وعماله ، فتجرد لذلك الحجاج بواسط ، وجدَّ فيه وزاد تحزيبه ، وأَمر وهو والي العراق الحسن[٣] ويحيى بن يَعْمَر[٤] بذلك ، وأَلف إثر

(١) الطُّوَل جمع طُولى كأخر وأخرى ، والسبع الطول هي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والتوبة . والحواميم جمع غير قياسي فالأَوْلَى جمعه على ذوات حاميم .

(٢) هذا طور جديد دخل على المصاحف العثمانية ، ونوع من التحسين والابتكار ، قال الإمام النووي : نقط المصحف وشكله مستحب ، لأنه صيانة له من اللحن والتحريف اهـ ولا ينافي النقط تجريد القرآن كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : جردوا القرآن ، ولا تخلطوه بشيء ، رواه أبو عبيد القاسم بن سلام ، لأنه لاصورة له ، حتى يتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآنا ، وأما كتابة الأعشار والأخماس ، وأسماء السور ، وأعداد الآيات فيه ، فمكروه خشية أن يختلط ما ليس قرآنا بقرآن . وأما إشراف الحجاج بن يوسف الثقفي على نقط المصحف وشكله فيعتبر في حد ذاته عملا عظيماً لاسبيل إلى جحده وإنكاره كيفما كانت نيته وعمله .

(٣) أي البصري .

(٤) هو أبو سعيد يحي بن يعمر القيسي العدواني من التابعين ، وكان عالماً بالقرآن والنحو ، وكان شيعياً يتشيع تشيعاً حسناً ، يقول بتفضيل آل البيت من دون تنقيص لأحد من الصحابة . توفي سنة ١٢٩ هـ ، ويَعْمَر بفتح الياء والميم بينهما عين ساكنة .

ذلك كتاباً فى القراءات ، جمع فيه ما رُوي من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمناً طويلا إلى أن ألف ابن مجاهد(١) كتابه في القراءات .

وأسند الزبيدي (٢) في الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي(٣) ، وذكر أيضاً أن ابن سيرين كان له مصحف نَقَطَهُ له يحيي بن يَعْمَر ، وذكر أبو الفرج (٤) أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود بنقط المصحف .

وذكر الجاحظ (٥) في كتاب الأمصار أن نصر بن عاصم(٦)

---

(١) هو أحمد بن موسى بن العباس ، أبو بكر بن مجاهد البغدادي ، إمام جليل في علم القراءة ، وهو أول من سبع السبعة مات سنة ٣٢٤ هـ .

(٢) هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج أبو بكر الزبيدي الأشبيلي النحوي، صاحب طبقات النحويين ، توفي سنة ٣٧٩ هـ .

(٣) اسمه ظالم بن عمرو الدؤلي البصري، من سادات التابعين، وشهد مع عليّ وقعة صفين، وهو أول من وضع النحو ، وأول من نقط المصاحف ، توفي في طاعون الجارف سنة ٦٩ هـ .

(٤) هوعلي بن الحسين بن محمد الأصبهاني ، صاحب الأغاني، المولود بأصبهان سنة ٢٨٤ هـ . هذا ، ولقد تردد نقط المصحف بين هؤلاء الأفاضل – أبو الأسود الدؤلي – ويحيي بن يعمر – ونصر بن عاصم ، ولا يبعد أن يكون الجميع قد أسهم في هذا العمل المبتكر الجليل ، والله أعلم وعلمه أتم .

(٥) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني ، أصابه الفالج في آخر عمره ، وكان يقول : اصطلحت على جسدي الأضداد ، فإن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي ، وله التصانيف المفيدة ككتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وهو من رؤوس المعتزلة تنسب إليه الطائفة الجاحظية من المعتزلة ، توفي سنة ٢٥٥ هـ بالبصرة .

(٦) هو نصر بن عاصم الليثي النحوي، كان فقيهاً، عالماً بالعربية، من قدماء التابعين ، وكان يسند إلى أبي الأسود الدؤلي في القرآن والنحو ، وقيل : أخذ النحو عن يحيى بن يعمر ، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء ، فهو من أصحاب أبي الأسود ويحيي بن يَعْمَر . توفي سنة ٨٩ هـ .

أول من نقط المصاحف ، وكان يقال له نصر الحروف .

وأما وضع الأعشار فيه فمر بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك ، وقيل : إن الحجاج فعل ذلك ، وذكر أبو عمرو الداني عن قتادة أنه قال: بدؤوا[1] فنقطوا ، ثم خمسوا ، ثم عشروا[2] ، وهذا كالإنكار[3] .

(١) يعني أن أول ما أحدثوا النقط ، ثم أحدثوا غيره ، كالتخميس ، والتعشير ـ قال أبو عمرو الداني : أطبق المسلمون في سائر الآفاق على جواز ذلك ، واستعماله في الأمهات وغيرها ، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

(٢) التعشير وضع علامة بعد كل عشر آيات .

(٣) وفي بعض النسخ الخاصة وهذا كالابتكار وهو أنسب .

باب
في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق

اختلف الناس[1] في هذه المسألة ، فقال أبو عبيدة وغيره : إن في كتاب الله تعالى من كل لغة . وذهب الطبري وغيره إلى أن القرآن ليس فيه لفظة إلاّ وهي عربية صريحة ، وأن الأمثلة والحروف التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغتان ، فتكلمت بها العرب والفرس أو الحبشة بلفظ واحد ، وذلك مثل قوله تعالى : [إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ] ، قال ابن عباس : نشأ بلغة الحبشة : قام من الليل .

ومنه قوله تعالى :[يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ][2] ، قال أبو موسى الأشعري : كفلان : ضعفان من الأجر بلسان الحبشة . وكذلك قال ابن عباس في القسورة : إنه الأسد بلغة الحبشة. إلى غير هذا من الأمثلة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي أقوله : إن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب فلا تفهمها إلاّ من لسان آخر ، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها ، فإنه كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض

(١) اعلم أنه لا خلاف بين الأئمة في أنه ليس في القرآن كلام مركب على أسلوب غير عربي ، ولا خلاف في أنه يوجد في القرآن أعلام أعجمية كإسرائيل ، وجبريل ، وعمران ، ونوح ، ولوط ، وإنما الخلاف : هل يوجد فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب ؟ فمن قائل : نعم ، ومن قائل : لا ، وما يوجد فيه مما ينسب إلى بعض اللغات فهو من توافق اللغات .

(٢) من الآية (٢٨) من سورة الحديد .

مخالطة لسائر الأَلسنة بتجارات وبرحلتي قريش ، كسفر مسافر بن أَبي عمرو بن أُمية بن عبد شمس ، إلى الشام ، وكسفر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكسفر عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأَعشي إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة ، فعلقت(١) العرب بهذا كله أَلفاظاً أَعجمية ، غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العُجْمَة ، واستعملتها في أَشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الصريح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ، فإن جهلها عربي مّا فلجهله الصريح مافي لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر ، إلى غير ذلك. فحقيقه العبارة عن هذه الأَلفاظ ، أَنها في الأَصل أَعجمية ، لكن استعملتها العرب وعربتها ، فهي عربية بهذا الوجه ، وما ذهب إليه الطبري من أَن اللُّغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد ، بل إحداهما أَصل(٢) والأُخرى فرع في الأَكثر ، لأَنا لا ندفع أَيضاً جواز الاتفاق قليلا شاذاً(٣) .

---

(١) أي علمت .

(٢) أي أصل في كلام العجم ، وفرع من كلام العرب ، وقد انتقد بعضهم ذلك قائلا : ليس هذا بأولى من العكس ، وذلك لأن العرب إما أن تكون قد تخاطبت بتلك اللفظة أولا ، فإن كان الأول فهي من كلامهم ، إذ لامعنى للغتهم وكلامهم إلا أنهم يتخاطبون بذلك بينهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وهذا قول أبي عبيدة .

وإن لم تكن العرب تخاطبت بها ، ولا عرفتها ، فقد استحال أن نخاطبهم الله بما لا يعرفون ، وحينئذ لا يكون القرآن عربياً مبيناً ، ولا يكون مخاطباً لقومه بلسانهم ، انظر (ق) .

(٣) يعني أننا لا نمنع التوافق ولكن على جهة القلة والشذوذ ، والأكثر هو أن تكون الكلمة أصيلة في كلام غير العرب ، ودخيلة في كلام العرب ، وقد علمت مناقشة هذا الكلام .

نبذة مما قال العلماء فى إعجاز القرآن

اختلف الناس في إعجاز القرآن ، بم هو؟ فقال قوم : إن التَّحَدِّي وقع بالكلام القديم الذي هو صفاتُ الذات ، وإن العرب كُلِّفت في ذلك ما لايُطاق ، وفيه وقع عجزها . وقال قوم : إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأَنباءِ الصادقة ، والغيوب المسرودة ، وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما مَنْ قد تقررت الشريعةُ ونبوَّةُ محمد صلى الله عليه وسلم في نفسه . وأَما مَنْ هو في ظلمة كفره فإنما يتحدى فيما يَبِينُ له ــ بينه وبين نفسه ــ عجزُه عنه ، وأَن البشر لايأْتي بمثله ، ويتحقق مجيئه من قبل المتحدي .

فكفارُ العرب لم يمكِنْهُمْ قط أَن يُنكروا أَن رصْفَ القرآن ونظمَه وفصاحتَه مُتلَقَّى من قِبَل محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا تُحُدِّيت إلى ذلك وعجَزت فيه ، علم كلُّ فصيح ضرورةَ أَن هذا نبي يأْتي بما ليس في قدرة البشر الإتيانُ به ، إلا أَن يَخُص الله تعالى من يشاءُ من عباده ، وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحُذَّاق ، وهو الصحيح في نفسه[1] ،وإن التحدي إنما وقع بنظمه ،وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة

---

(١) إذ هو الذي يحكم به العقل المجرد ، وهو الذي تقبله طبيعة الكفر المشرد ، فالتحدي واقع ببلاغة القرآن ، وفصاحته، وجزالته ، وبدقة تصويره، وتشخيصه للمعاني ، وتأثيره في النفوس الناطقة ، وواضح أن بلاغة القرآن هي في أعلى درجات الإحسان ، وفي أرفع مراتب الإيجاز والبيان ، لأن مُنَزِّله محيط بجميع جوانب الكلام ومواضعه .

أَلفاظه ، ووجه إِعجازه : أَن الله تعالى قد أَحاط بكل شيءٍ علماً ، وأَحاط بالكلام كلِّه علماً ، فإذا ترتَّبَتِ اللفظةُ من القرآن علم بإِحاطته أَيَّ لفظة تصلح[1] أن تلي الأُولى ، وتبَيَّن المعنى بعد المعنى ،ثم كذلك من أَول القرآن إلى آخره ، والبَشَر معهم الجهلُ والنسيانُ والذُّهول ، ومعلومٌ ضرورةً أَن بشراً لم يكن قطُّ محيطاً . فبهذا جاءَ نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر يبطل قولُ من قال : إِن العرب كان في قدرتها أَن تأْتيَ بمثل القرآن ، فلما جاءَ محمد صلى الله عليه وسلم صُرِفوا[2] عن ذلك ، وعجزوا عنه .

والصحيح أَن الإِتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة واحد من المخلوقين ،ويظْهر لك قصورُ البشر في أَن الفصيح منهم يصنع خطبة أَو قصيدة ، يستفرغ فيها جهده ،ثم لايزال يُنَقِّحها حوْلاً كاملا ، ثم تُعْطَى لآخرَ نظيرَه ،فيأْخذها بقريحة جامة[3] فيبدل فيها وينقح ، ثم لاتزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل . وكتاب الله لو نُزعت

---

(١) إذْ لكل كلمة مع صاحبتها مقام ، ومعلوم أن وضع الشيء في موضعه الخاص ، وفي مكانه الدقيق ،شيء تتفاوت فيه الملكات والقرائح ، والله سبحانه وتعالى مطلع على جميع المقتضيات والخصوصيات التي تتناسب والمقامات ، وجميع ما تؤتيه الكلمات من ألوان الإيقاعات وأفنان التأثيرات ،وهذا شيء موجود في آياته ، وفي كل سورة من سوره ، وللناس أذواق ، منها ما يتلمس الجمال في موضعه ، ويميزه بطبعه ، والله جميل في الذات والصفات ، وفي صنع الكائنات . والقرآن جميل في الكلمات والحركات ، وفي التصوير والتشخيصات .

(٢) معناه : أن الله سبحانه منعهم من معارضته ، وصرَفهم عن المجيء بمثله ، وإذاً فالمعجز لهم شي خارج عن القرآن ، فهم يقدرون أن يأتوا بمثله ، ولكنهم مُنعوا وصُرفوا ، وهذا قول باطل ، فإن الإجماع وقع على أن المعجز هو نفس القرآن وذاتُه ، وليس أمراً آخر ، وإذا كان المعجز هو القرآن ـ فلأنه خارق للعادة بنظْمه ، وأسلوبه ، وبفصاحة ألفاظه ، وبراعة معانيه .

(٣) أي نشيطة ، يقال استجم الرجل استراح و نشط .

منه لفظة ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أَحسن منها لم يوجد ، ونحن تَبِينُ لنا البراعةُ في أكثره ، ويخفى علينا وُجهُهَا في مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ،في سلامة الذوق ،وجوْدَةِ القريحَة ،ومَيْزِ (١) الكلام ، أَلا ترى ميز الجارية نفس الأَعشى(٢) وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة(٣) ، ونظر الأَعرابي في قوله:(عز فحكم فقطع)(٤). إلى كثير من الأَمثلة اكتفيت بالإشارة إليها اختصارا.

فصور قيام الحجة بالقرآن على العرب: أَنه لما جاءَ محمد صلى الله عليه وسلم وقال :[فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ] ، قال كل فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله ؟ فلما تأَمله وتدبره ميَّز منه ما مَيَّز الوليدُ بنُ المغيرة حين قال :« والله ماهو بالشعر ، ولا هو بالكهانة ، ولا بالجنون » . وعرف كلُّ فصيح بينَه وبين نفسه أَنه لايقدر بشر على مثله ، فصحَّ عنده أَنه من عند الله ، فمنهم من آمن وأَذعن ، ومنهم من حسد كأَبي جهل وغيرِه ، ففر إلى القتال ،ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة ، حتى أَظهر الله دينه ، ودخل جميعهم فيه ، ولم يمت

(١) الميْز والتَّمْييزالقدرة على استنباط المعاني ، وتمييز بعضها من بعض .

(٢) كان له أثر كبير في الدعاية لتزويج البنات ، وقد عرف بذلك ، وكان له فضل على الملحق في تزويج بناته أو أخواته .

(٣) من المعروف أن الفرزدق كان يفضل ذا الرمة على جرير في الشعر ، ويأخذمن قصائده ، والفرزدق هو همَّام بن غالب التميمي ، الشاعر المشهور ،والتابعيّ المعروف،توفي سنة ٢٠٧هـ وذو الرمة لقب غيلان بن عقبة صاحب مي والخرقاء ، توفي سنة ١١٧هـ ،وجرير هو عطية بن حذيفة الخطفي، كان ينافسه عدة من الشعراء ولكن لم يثبت أمامه إلا الفرزدق والأخطل ، وفاته كوفاة الفرزدق .

(٤) سمع أعرابي قارئاً يقرأ (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقال : ما هذا ؟ فقيل له : قرآن ، فقال : ماهذا بقرآن ، فتنبه القارئ ، فقال : (وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ، فقال الأعرابي : (عَزَّ فحكم فقطَع) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الأَرض قَبيلٌ من العرب يُعْلن كفره ، وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذْ كانوا أَرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة ، كما قامت الحجة ـ في معجزة عيسى ـ بالأَطباءِ ، وفي معجزة موسى ـ بالسحرة ، فإن الله تعالى إنما جعل معجزاتِ الأَنبياءِ بالوجه (١) الشهير أَبرع ما يكون في زمن النبي الذي أَراد إظهاره ، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطب في زمن عيسى ، والفصاحة في مدة محمد عليهم الصلاة والسلام .

(١) أي بالوجه المشهور في زمانهم ، وقد اشتهر السحر في أيام موسى عليه السلام ـ والطب في أيام عيسى عليه السلام ـ والفصاحة والبلاغة في أيام محمد عليه السلام، فآتاهم الله ما هو أبرع مما هو مشهور في زمانهم حتى تتحقق المعجزة بهم .

باب

في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى

اعلم أن القصد إلى إيجاز العبارة قد يسوق المتكلم في التفسير إلى أن يقول: خَاطَبَ اللهُ بهذه الآية المؤمنين، وشرَّفَ اللهُ بالذكر الرجلَ المؤمنَ من آل فرعون، وحكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت: (قُصِّيهِ)، ووقف الله ذرية آدم على رُبُوبيَّته بقوله: (أَلَستُ بِرَبِّكُمْ)؟ ونحو هذا من إسناد أَفعال إلى الله تعالى لم يأْت إسنادُها بتوقيف من الشرع[1]، وقد استعمل هذه الطريقةَ المفسرون والمُحدِّثون والفقهاءُ، واستعملها أَبو المعالي [2] في الإرشاد، وذكر بعض الأُصوليين أنه لايجوز أن يُقال: «حكى الله» ولا ماجرى مجراه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا على تقرير هذه الصفة له، وثبوتِها مستعمَلَةً كسائر أَوصافه

---

(١) قال العارف بالله أبو عبد الله محمد بن عباد في رسائله الكبرى: «وقد رأيت في مواضع من كتبكم شيئاً أردت أن أنبهكم عليه، وهو أنكم تقولون فيها: حكى الله عن فلان، وحكى عن فلان كذا، وقد يقع مثل هذا في كلام الأئمة، وهذا عندي ليس بصواب من القول، لأن كلام الله تعالى صفة من صفاته، وصفاته تعالى قديمة، فإذا سمعنا الله تعالى يقول كلاماً عن موسى عليه السلام مثلا، وعن فرعون، أو أُمَّة من الأمم، فلا يقال: حكى عنهم كذا، لأن الحكاية تؤذن بتأخرها عن المحكي، وإنما يقال في مثل هذا: أخبر الله تعالى، أو أنبأ، أو كلام معناه هذا مما لا يفهم من مقتضاه تقدم ولا تأخر» اهـ.

(٢) هو إمام الحرمين، عبد الملك بن أبي محمد الجُوَيْني، المتوفي سنة ٤٧٨ هـ.

تبارك وتعالى ، وأما إذا استعمل ذلك في سياق الكلام ، والمراد منه: حكت الآيةُ أو اللَّفْظُ ، فذلك استعمال عربي شائع ، وعليه مشى الناس ، وأنا أتحفَّظُ منه في هذا التعليق جهدي ، لكني قدَّمتُ هذا الباب لِمَا عسى أن أقع فيه نادرا ، واعتذاراً عمَّا وقع فيه المفسرون من ذلك .

وقد استَعْمَلَتِ العربُ أشياءَ في ذكر الله تعالى تُحْمَل على مجاز كلامها ، فمن ذلك قول عامر (١) يرتجز بالنبي صلى الله عليه وسلم :

فاغْفِرْ فِداءً لكَ ما اقْتَفَيْنَا . . . .

وقول أم سلمة : (فعزم الله لى) في الحديث في موت أبي سلمة ، وإبدال الله لها منه رسول الله(٢) ، ومن ذلك قولهم : الله يدري كذا وكذا ، والدراية إنما هي التأتي للعلم بالشيء حتى يتيسر ذلك ، قال أبو علي : واحتج بعض أهل النظر على هذا الإطلاق بقول الشاعر :

(١) الذي في غزوة خيبر من صحيح البخاري، أن عامر بن الأكوع حدا للقوم في مسيرهم ليلاً إلى خيبر بقوله :

اللهُمَّ لوْلاَ أنتَ ما اهْتَدَيْنــا ولا تَصَدَّقْنــا ولا صَلَّيْنَــا
فاغفِرْ فداءً لكَ ما اقْتَفَيْنَـا وألْقِيَنْ سكينةً علينـــا
وثَبِّتِ الأقدام إنْ لاقينـــا إنا إذا صِيحَ بِنَـــا أتَينـــا
وبالصياح عوّلوا علينـــا

ومن الرواة مَن نسب هذه الأبيات إلى عامر بن الأكوع ، ومنهم من نسبها إلى عبد الله ابن رواحة ، كما في طبقات ابن سعد ، والاختلاف الذي يوجد بينها يسير ، والله أعلم .

(٢) أي الذي روته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و هو كما في مسند الإمام أحمد : «ما من عبد تصيبه مصيبه فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي ، وأخلفني خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته ، وخلف له خيراً منها . قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت : مَنْ خيرٌ من أبي سلمة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: ثم عزم الله لي فقلت: اللهم آجرني في مصيبتي ، وأخلفني خيراً منها ، قالت: فتزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم» اهـ . وهذا يوضح كلام ابن عطية رحمه الله . وأمُّ سلمة: هند بنت أبي أمية توفيت سنة ٥٩هـ رضى الله عنها .

لَاهُمَّ لَا أَدرِي وَأَنتَ الدَّارِي(١) . . . .

قال أَبو علي : وهذا لاثبَت(٢) فيه ، لأَنه يجوز أَن يكون من غلط الأَعراب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وكذلك أَقول : إن الطريقة كلَّها عربيةٌ ، لايثْبُتُ للنَّظَر المنخول شيءٌ منها . وقد أَنشد بعض البغداديين :

لَاهُمَّ إِنْ كُنْتَ الَّذِي بِعَهْدِي وَلَمْ تُغَيِّرْكَ ٱلْأُمُورُ بَعْـدِي(٣)

وقد قال العجاج :

فَارْتَاحَ رَبِّي وَأَرادَ رَحَمِتِي(٤) . . . .

وقال الآخر :

. . . . قَدْ يُصْبِـحُ ٱللهُ أَمَامَ ٱلسَّارِي(٥)

---

(١) تمامة كما في « لسان العرب » :

. . . . كلُّ امرئٍ مِنْكَ على مِقْدارِ .

ويقال في الدعاء : اللهم ، ولاَهُم . وفي رواية : يارب . وقائله : العجَّاجُ بنُ رؤبة .

(٢) بفتح الباء، أي لا حُجَّة فيه .

(٣) جعله تعالى ممن يجوز عليه التغيير وتعاقُبُ الأمور ، تعالى الله عن ذلك وتَنَزَّه .

(٤) وتمامة :

. . . . ونِعْمَـــةٍ أَتَمَّهَـــا فتَمَّتِ

أراد نظر إلي ورحمني .

(٥) روى الجاحظ في كتاب « الحيوان » عن الأصمعي أنه قال : هرب بعض البصريين من بعض الطواعين ، فركب ومضى بأهله نحو سفوان،(اسم محلَّة قريبة من البصرة) ، فسمع غلاماً له يحدو خلفه ويقول :

لنْ يُسْبَقَ اللهُ عَلَى حِمَـــار وَلا عَلَى ذِي مَيْعَةٍ طَيَّـــار

أَوْ يَأْتِيَ الحَيْنُ عَلَى مِقْـدَار قَدْ يُصْبِحُ اللهُ أَمَامَ الســاري

فكرَّ راجعاً وقال : إذا كان الله أمام الساري فلات حين مهرب — وفي رواية (الحتف) بدل (الحين) .

وقال الآخر :

يَا فَقْعَسِيُّ لِمْ أَكَلْتَهُ ؟ لِمَهْ ؟ لَوْ خَافَكَ اللهُ عَلَيْهِ حَرَّمَهْ(١)

وقال أوس (٢) :

أَبَنِي لُبَيْنَىَ لاَ أُحِبُّكُمُ وَجَدَ الإِلَهُ بِكمْ كَمَا أَجِدُ

وقال الآخر :

وَإِنَّ اللهَ ذَاقَ عُقُولَ تَيْمٍ فَلَمَّا رَاءَ خِفَّتَهَا قَلاَهَا (٣)

ومن هذا الاستعمال الذي يُبْنَي البابُ عليه قول سعد بن معاذ(٤) :

---

(١) وبعده : (فما أكلتَ لحمَه ولاَ دمه) ، قال العيني في شرح الشواهد الكبرى : لم أقف على اسم هذا الراجز ، وذكروا أن الضمير المنصوب في قوله : (لمْ اكلته) ، يرجع إلى الكلب ، يعني كلباً أكله هذا الإنسان ، فقال : (لوخافك الله) ، فأجاز على الله سبحانه الخوف ، تعالى الله عن ذلك ، وهذا على عادة الجفاة من العرب ممن يجوزون أن يوصف به الله تعالى مما لا يجوز أن يوصف به ، ومنهم من خرّج هذا الرجز تخريجاً حسناً يُسَلِّم هذا الشاعر من هذه الغلطة ، وهو أنه يخاطب الفقعسي ثم عدل عن خطابه إلى خطاب الله تعالى على عادة لهم في ذلك مشهورة ، فقال : (لوخافك الله) وأراد (يا الله) فحذف حرف النداء كما في قوله تعالى : (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) والمعنى : لوخافكَ يا ألله على نفسه مِنْ أن تُعاقبه على جرمه لحرّم هذا المأكول الذي حرمته ولم يقربْه ، وضمير (عليْهِ) يعود إلى الفقعسي ، وضمير حرَّمَه يعود إلى المأكول . والفقعسي المنسوب إلى بني فقعس ، ولمْ أكلته بسكون الميم للضرورة ، ونسب صاحب « لسان العرب » في مادة (روح) هذا الرجز إلى سالم بن دارة .

(٢) هو أوس بن حجر بن مالك بن حزن ، شاعر جاهلي . ولُبَيْنَى : اسم امرأة .

(٣) هو ليزيد بن الصعق كما في «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي .

وبعد البيت :

رَآها لا تُطيعُ لَهَـا أمـيـراً فَخَلاَّها تردد في خَلاَهَـا

زعم الشاعر أن الله عز وجل يذوق ، وللعرب إقدامٌ على الكلام ثقةَ بفهم أصحابهم عنهم . وتلك فضيلة أيضاً لهم .

(٤) سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري الأشهلي ، سيد الأوس ، يكنى أبا عمرو ، أسلم بالمدينة على يد مصعب بن عمير ، وشهد بدراً ، وأُحداً ، والخندق ، ورُمي يوم الخندق بسهم فعاش بعده=

« عَرق اللهُ وجهَكَ في النَّارِ » .

يقول هذا للرامي الذي رماه . وقال: « خذها وأنا ابن العرقة » .

وفي هذه الأَمثلة كفاية فيما نحوناه ، إذِ النَّظِيرُ لذلك كثِيرٌ موجود . وإنْ خرج شيءٌ من هذا على حذف مضاف فذلك مُتَوَجِّهٌ في الاستعمال الذي قصدنا الاعتذار عنه ، والله المستعان .

= شهراً ثم مات ، وقد اهتز عرش الرحمن من أجل موته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول بعض الأنصار :

وَمَا اهْتَزَّ عرْشُ اللهِ مِنْ أَجْلِ هَالِكٍ ... سَمِعْنَا بِهِ إلا لِسَعْدِ أبي عَمْرو

والذى رماه هو حبان بن العرقة كما قال : خذها وأنا ابن العرقة ، فقال سعد ، أو قال النبي صلى الله عليه وسلم : (عرق الله وجهه في النار) ، توفي رضي الله عنه بعد الخندق بشهر سنة خمس من الهجرة النبوية.

باب

في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية

هو القرآن ، وهو الكتاب ، وهو الفرقان ، وهو الذكر(١) .

فالقرآن مصدر من قولك : قرأ الرجل إذا تلا ، يقرأُ قرآنا وقراءة ، وحكى أبو زيد الأنصاري : وقَرْءًا ، وقال قتادة : القرآن معناه التأليف ، قرأ الرجل إذا جَمَعَ وألَّف قولا ، وبهذا فسر قتادة قول الله تعالى : [إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ](٢) أي تأليفه ، وهذا نحو قول الشاعر(٣) :

ذِرَاعِيْ بَكْرَةٍ أدماءَ بِكْـــــرٍ   هِجَانِ اللَّوْنِ لمْ تَقْرأْ جَنِينـــا

(١) هذه الأسماء هي الشائعة المشهورة ، ومنها : التنزيل كما قال تعالى : [وإنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين] الآية ، إلا أن بعضهم قد بالغ في تعداد أسماء القرآن ، وذهب يجمع بين الاسم والوصف .

وفي (الكتاب) إشارة إلى جمعه في السطور ، لأن الكتابة جمعٌ ، وفي القرآن إشارة إلى حفظه في الصدور لأنه تلاوة واستذكار ، وتلك عناية مزدوجة في صيانة نصوصه ومواده ، وفي حفظ تعاليمه وشرائعه ، وَصَدَقَ قوله تعالى : (إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون) .

(٢) الآية (١٧) من سورة القيامة .

(٣) هو عمرو بن كلثوم ، والبيت من معلقته الشهيرة ، وقبله :

تُريك إذا دخلتَ على خَلاء   وقد أمنت عيون الكاشحينا

والبَكْرُ : الفتيُّ من الإبل ، والأنثى بَكْرة – والبِكْرُ : العذراء ، والجمع أبكار . قال الأصمعي : (والأدْمُ من الظباء بِيضٌ تعلوهن جُدَدٌ ، فيهن غُبْرَةٌ ، تسكن الجبال . قال : وهي على ألوان الجبال ، يقال : ظبية أدْماء) .

(والهِجَان من الإبل : البيض – ويستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع . يقال : بعير هِجان، وناقةٌ هِجان ، وإبل هجان .) الصحاح .

وفي القاموس ، الهِجَانُ : البيضاء الكريمة .

وروي (ذراعي عَيْطَلٍ) – والعيْطَل من النساء : الطويلة العنق ، وكذلك من النّوق والفرس . ا هـ . الصحاح .

أَي : لم تجمع في بطنها ولدا ، فهو أَفرَهُ(١) لها ، والقول الأَول أَقوى ، أَي : القرآن مصدر من قرأَ إِذا تلا .

ومنه (٢) قول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه :

ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجود بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحاً وَقُرآنَا

أَي قراءَة .

وأَما الكتاب فهو مصدر من كَتَبَ إِذا جمع ، ومنه قيل : كتيبة لاجتماعها ، ومنه قول الشاعر :

. . . . واكْتُبْهَـا بِأَسْيَـار(٣)

أَي اجمعها .

وأَما الفرقان فهو مصدر ، لأَنه فرَّق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر ، فرقاً وفرْقَاناً .

وأَما الذِّكْر فسمي به لأَنَّه ذَكَّرَ به الناس آخرتَهم ، وإِلهَهُمْ ، وما كانوا في غفلة عنه ، فهو ذِكْرٌ لهم ، وقيل : سمي بذلك لأَن فيه ذِكْرُ الأُمم الماضية ، والأَنبياء ، وقيل : سُمِّي بذلك لأَنه ذِكْرٌ وشرَفُ لمحمد ، وقومه ، وسائر العلماء به .

---

(١) في (المعجم الوسيط) فَرُهَ : خف ونشط .

(٢) ومنه أيضاً قوله تعالى : [إِنَّ قُرآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُودا] أي قراءته .

(٣) الشاعر : هو ابن دارة سالم بن مسافح ، الشاعر الهجاء ، والجملة من قوله :

لا تَأْمَنَنَّ فَزارياً حَلَلْتَ بِهِ عَلى قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بِأَسْيَار

والكُتْبة بضم الكاف والتاء الساكنة ما سدّ به حياء البغلة أو الناقة حتى لا يُنزى عليها ليلا — ويروى على (بعيرك) بدلا من (قلوصك) .

وأما السورة(١) فإن قريشاً كلَّها وَمنْ جاورها من قبائل العرب : كهذيل ، وسعد بن بكر ، وكنانة يقولون : سُورَة بغير همز ، وتميم كلها وغيرهم أيضاً يهمزون ، فيقولون : سُؤْرة .

فأما من همز فهي عنده كالبقية من الشيء ، والقطعة منه التي هي سؤر - وسؤرة من أسأر إذا أبقى ، ومنه سؤر الشراب ، ومنه قول الأعشى وهو ميمون بن قيس :

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ فِي ٱلفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِها مُسْتَطيراً(٢)

أي أبقت فيه ، وأما من لا يهمز ، فمنهم من يراها من المعنى المتقدم إلا أنها سُهّلت همزتها ، ومنهم من يراها مشبهة بسورة البناء ، أي القطعة منه ، لأن كل بناء فإنما يبنى قطعة بعد قطعة ، وكل قطعة منها سورة ، وجمع سورة القرآن سُوَر بفتح الواو ، وجمع سورة البناء سُوْر بسكونها .

قال أبو عبيدة : إنما اختلفا(٣) في هذا ، فكأن سُوَر القرآن هي قطعة بعد قطعة حتى كمل منها القرآن ، ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة

---

(١) سورة القرآن فيها لغتان : مهموزة وغيرمهموزة. والذين لا يهمزون،منهم من يراها بمعنى البقية من الشيء ، وكأن المهموزة على هذا أصل لغيرها ، والذين لا يرون ذلك يقولون : إنها شبيهة بسورة البناء من حيث أن البناء يكون قطعة قطعة حتى يكتمل ، وكذلك القرآن نزل شيئاً فشيئاً حتى اكتمل ، والمشبه غير المشبه به ، أو أنها بمعنى الرتبة الرفيعة ، وكل سورة من القرآن فمنزلتها رفيعة وشريفة .

(٢) قاله الأعشى يصف امرأة فارقته فأبقت في قلبه من وجدها بقية .

(٣) أي لم يختلفا إلا في الجمع . وأبو عبيدة هو عمرو بن المثنى إمام في اللغة والثقافة و له كتاب (مجاز القرآن) وغيره . توفي سنة ٢١٠ هـ.

من المجد والملك سورة ، ومنه قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطاكَ سُورَةً تَرى كُلَّ مَلْك دُونَها يَتَذَبْذَبُ(١)

فكأَن الرتبة انْبَنَتْ حتى كملت .

وأما الآية فهي العلامة(٢) في كلام العــرب ، ومنه قول الأَسير المُوصِي إلى قومه باللغز : (بآيةِ ما أَكلْتُ معكم حَيْساً(٣)).فلما كانت الجملة التامة من القرآن علامةً على صدق الآتي بها ، وعلى عجز المتحدي بها سُمِّيت آية ، هذا قول بعضهم وقيل : سميت آية لما كانت جملة وجماعة كلام ، كما تقول العرب : جئنا بآيتنا ، أي بجماعتنا وقيل : لما كانت علامة للفصل بين ماقبلها وما بعدها(٤) سميت آية ، ووزن آية عند سيبويه(٥) فَعَلة بفتح العين ، أَصلها (أَيَيَة) ، تحركت

---

(١) أي يتردد ، والمعنى أن الله أعطاك منزلة لو رامها غيرك من الملوك وتسامى إليها بقي حائراً مضطرباً لا يستطيع أن يبلغها .

(٢) هذا أظهر الأقوال وأولاها ، ويشهد له قول الله تعالى : [إنَّ آيةَ مُلْكِه] وقوله: [وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ] وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (آيةُ المُنافق ثَلاثٌ) — (وآيَةُ الإيمان حُبُّ الأنْصار) — (وآيَةُ ما بَيْنَنَا وَبَيْنَ المُنَافِقِين شُهُودُ العشاءِ) . انظر (خ) .

(٣) أي : بعلامة ما أكلتُ معكم حيسا — والحيس هو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن — والأقط شيء يتخذ من اللبن المخيض ، يطبخ — قال ابن الأعرابي : هو من ألبان الإبل خاصة — «اللسان» ٧/٣٦١ — ٩/١٢٥ .

(٤) أي بحيث يحسن السكوت عليها .

(٥) قال الفيومي في المصباح : قال سيبويه : العين واو ، واللام ياء ، من باب شوى ولوى ، قال : لأنه أكثر مما عينه ولامه ياءان مثل حييت ، وقد ذكر المؤلف أربعة أقوال في أصلها ، فقيل : على وزن فعَلة بفتح العين ، وقيل : على وزن فاعلة ، وقيل : على وزن فعْلة بسكون العين ، وقيل : على فعِلة بكسر العين من دون ألف ، والذي في القاموس أن وزن آية فعْلة بالسكون ، أو فعَلة بالفتح ، أو فاعلة . انظره ، قلت : وأهل اللغة يذكرونها في مادة (أوى) من باب شوى ولوى ، كما قال سيبويه رحمه الله .

الياء الأُولى وما قبلها مفتوح فجاءت آية ، وقال الكسائي : أَصل آية (آيِيَة) على وزن فاعِلة ، حذفت الياء الأُولى مخافة أَن يلتزم فيها من الإِدغام ما لزم في دابة . وقال مكي في تعليل هذا الوجه : سُكِّنت الأُولى وأُدغمت فجاءت آيّة على وزن دَابة ، ثم سهلت الياء المثقلة ، وقيل : أَصلها (أَيّهْ) على وزن فَعْلة بسكون العين ، أُبدلت الياء الساكنة أَلفاً استثقالا للتضعيف ، قاله الفراء[1] ، وحكاه أَبو علي عن سيبويه في ترجمة [وَكَأيٍّ مِنْ نَبِيٍّ][2] ، وقال بعض الكوفيين : أَصلها (أَيِيَة) على وزن فَعِلَة بكسر العين ، أُبدلت الياءُ الأُولى أَلِفاً لثقل الكسر عليها وانفتاح ما قبلها .

(١) اسمه يحي بن زياد الكوفي أبو زكرياء ، له كتاب في معاني القرآن ، توفي سنة ٢٠٧ ، وفي المصباح : وقال الفراء : الأصل (آيِيَة) على وزن فَاعِلة ، فحذفت اللام تخفيفاً ، وعلى هذا فللفراء قولان : على وزن فَعْلة، وعلى وزن فاعِلة .

(٢) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران) .

باب

القول في الاستعاذة(١)

قال الله عز وجل : [فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ](٢) معناه : إذا أردت أن تقرأ ، وشَرَعت ـ فأَوْقَع الماضي موقع المستقبل لثبوته ، وأجمع العلماء على أن قول القاري (أعوذُ باللهِ من الشَّيطان الرَّجيمِ) ليس بآية من كتاب الله ، وأجمعوا على استحسان ذلك والتزامه في كل قراءة في غير صلاة ، واختلفوا في التعوذ في

---

(١) اعلم أن العدو إما ظاهري وهو شيطان الإنس ، وإما باطني وهو شيطان الجن ، والأول يعالج أمره بالصبر ، والمصانعة ، والمداراة ، والمقابلة بالإحسان ، لعل طبعه يرجع إلى الموالاة والمصافاة ، وبذلك أمرنا الله في ثلاث آيات ، ولا يوجد لهن رابعة كما قال الحافظ ابن كثير ، الأولى قوله تعالى : [خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِض عَنِ الجَاهِلِين] ـ والثانية قوله تعالى : [ادْفَعْ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ السَّيِئَةَ ، نَحْنُ أعْلَمُ بما يَصِفونَ] والثالثة قوله تعالى : [ادْفَعْ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ ، فَإذا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ] .

وأما الثاني فبما أنه لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ، ولا يريد إلا هلاك بني آدم لشدة عداوته ، وشرة طبيعته أمرنا سبحانه بالاستعاذة منه بالله في ثلاث آيات كذلك : الأولى [وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بِالله إنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] والثانية : [وَقُلْ رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ ،وأعُوذُ بِكَ رَبِّ أنْ يَحْضُرُون] والثالثة : [وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالله إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ] . ومَن قتله العدو الظاهري كان شهيداً ، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً ، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً ،ومن غلبه العدو الباطني كان مأزوراً ، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه الإنسان بالذي يرى الشيطان ولا يراه الشيطان ـ ولما كان الشيطان لا يقدر على دفعه وكفه عما أراده استعاذ الإنسان منه بالذي خلقه .

(٢) الآية (٩٨) من سورة النحل .

الصلاة ، فابن سيرين[١] ، وإبراهيم النخعي[٢] ، وقوم : يتعوذون في الصلاة في كل ركعة ، ويمتثلون أمر الله بالاستعاذة على العموم في كل قراءة . وأبو حنيفة[٣] ، والشافعي[٤] ، يتعوذان في الركعة الأُولى من الصلاة ، ويريان أن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة . ومالك[٥] رحمه الله لا يري التعوذ في الصلاة المفروضة ، ويراه في قيام رمضان ، ولم يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تعوَّذ في صلاة .

وحكى الزهراوي[٦] عن الحسن أنه قال : نزلت الآية في الصلاة ، ونُدِبْنَا إلى الاستعاذة في غير الصلاة ، وليس بفرض . قال غيره : كانت فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم تأَسَّيْنَا به .

---

(١) هو (محمد بن سيرين البصري)ـ مولى أنس بن مالك ، روى عنه في حروف القرآن ـ توفي سنة (١١٠) ه .

(٢) إبراهيم النخعي بن يزيد بن قيس بن الأسود . إمام مشهور ، لم يصح سماعه عن الصحابة . توفي سنة (٩٦) ه .

(٣) هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ـ صاحب المذهب المعروف في الفقه ـ وقد قيل : إنه كان يفضل الرأي على الحديث ـ توفي سنة (١٥٠) ه ـ وفيات الأعيان . ٤٨/٥ .

(٤) الإمام محمدبن إدريس الشافعي ـ صاحب مذهب واسع الانتشار في الفقه ، مال فيه إلى الجمع بين مذهب أهل الحديث الذي سار عليه مالك ، ومذهب أهل الرأي الذي أخذ به أبو حنيفة ـ وقد تتلمذ على مالك بن أنس توفي سنة (٢٠٤) ه ـ وفيات الأعيان . ٣٠٥/٣ .

(٥) هو الإمام المشهور أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي ، أخذ عن نافع والزهري ، توفي سنة (١٧٩) ه ـ وفيات الأعيان ٣ / ٢٨٤ .

(٦) هو علي بن سليمان الزهراوي الحاسب ، يكنى أبا الحسن ، كان من أهل العلم بالتفسير والقراءات والفرائض ، وله كتاب كبير في تفسير القرآن . حدث عنه أبو بكر المصحفي وغيره . انظر صلة ابن بشكوال .

وأما لفظ الاستعاذة ؛ فالذي عليه جمهور الناس هو لفظ كتاب الله تعالى : (أَعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطان الرجيم) ، ورُوي عن ابن عباس أَنه قال : (أَول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال له : قل يا محمد : استعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . ثم قال : قل : بسم الله الرحمن الرحيم)[١] . وروى سليمان بن سالم عن ابن[٢] القاسم رحمه الله : أَن الاستعاذة «أَعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم» .

وأما المقرئون فأَكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى ، وفي الجهة الأُخرى[٣] كقول بعضهم : أَعوذ بالله المجيد من الشيطان المَريد ، ونحو هذا مما لا أَقول فيه : نعمت البدعة ، ولا أَقول : إنهلا يجوز .

ومعنى الاستعاذة : الاستجارة والتحَيُّز إلى الشيء ، على معنى الامتناع به من المكروه ، والكلام على المكتوبة[٤] يجيء في (بسم الله) ، فذلك الموضع أَولى به .

---

(١) قال الإمام (ط) : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بشر بن عمارة ، حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال : يا محمد قل: أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال : قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قال : [اقرأ بِاسْمِ ربِّكَ الذي خلَق] ، قال عبد الله: وهي أوَّل سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم بلسان جبريل .

وهذا الأثر غريب ، وإنما ذكرناه ليُعْرف ، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً ا هـ . ، ولذلك ذكره المؤلف رحمه الله بصيغة التضعيف .

(٢) في بعض النسخ عن أَبي القاسم .

(٣) هي صفة الشيطان ، كالمَرِيدِ مكان الرَّجيم .

(٤) هي كلمة (الله) .

وأَما الشيطان: فاختلف الناس في اشتقاقه ، فقال الحُذَّاق : هو فَيْعال من شَطَنَ إذا بَعُدَ ، لأَنه بَعُدَ عن الخير ورحمة الله ، ومن اللفظة قولهم: نَوًى شَطُون ، أَي بعيدة ، قال الأَعشى :

نَأَت بِسُعادٍ عَنْكَ نَوًى شَطُونٌ فَبَانَتْ وَالفُؤَادُ بِهَا رَهِينُ(١)

ومنه قيل للحبل : شَطَنٌ لِبُعد طرفيه وامتدادِه ،وقال قوم : إن (شيطاناً) مأْخوذ من شاط يشيط إذا هاج وأَحْرَقَ ونحوه ، إذ هذه أَفعاله(٢) فهو فَعْلان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وَيَرُدُّعلى هذه الفرقة أَن سيبويه حكى أَن العرب تقول : تَشَيْطَنَ فلان إذا فعل أَفاعيل الشياطين ، فهذا يُبَيِّن أَنه تَفيْعَلَ من شَطَن ، ولو كان من شاط لقالوا : تَشَيَّطَ ، وَيَرُدُّ أَيضاً عليهم بيتُ أُمية ابن أَبي الصلت (٣) :

أَيُّما شَاطِن عَصَاهُ عَكَاهُ ثُم يُلْقَى في السِّجْنِ وَالأَكْبَال

---

(١) يقول : بعدت بها طريق بعيدة ، وكلمة (النوى) مؤنثة ، والبيت نَسَبَهُ في (لسان العرب) إلى النابغة الذبياني ، ونسبه ابن عطية إلى الأعشى ، وهو ميمون بن قيس بن ثعلبة الأعشى من شعراء الجاهلية يعرف بصناجة العرب ، والبيت موجود في ديوان النابغة ، وغير موجود في ديوان الأعشى .

(٢) لأنه مخلوق من النار .

(٣) هو ابن أَبي الصلت بن أَبي ربيعة ، من شعراء الجاهلية ، وكان ممن يَذْكُر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية ، وكان ممن حرَّم الخمر ، ونبذ الأوثان ، والتمس الدين ، وهو القائل :

كلُّ دينٍ يومَ القيامة عِنْدَ الله إلاّ دِينَ الحَنيفيةِ زُورُ

وقوله : (أيّما شاطن) أراد أيما شيطان ، وقوله: عكاه : قيَّده وأوثقه ، والبيت يشير إلى ما أوتي سليمان بن داود عليهما السلام من الملك والقوة .

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه .

وأَما (الرجيم) فهو فَعِيل بمعنى مفعول ، كقتيل ، وجريح ، ونحوه ، ومعناه أَنه رُجِمَ باللعنة والمقت وعدم الرحمة .

قال المهدوي رحمه الله : أَجمع القراءُ على إظهار الاستعاذة في أَول قراءة سورة الحمد ، إلا حمزة فإنه أَسَرَّها ، وروى المُسَيْبِي [1] عن أَهل المدينة أَنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة .

(١) محمد بن إسحق بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبد الله المُسَيْبي المدني : مقرئٌ ، عالم مشهور ، روى عنه مسلم ، وأَبو داود في كتابيهما ، توفي سنة ٢٣٦ هـ .

القـول في تفسـير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رُوي عن جعفر بن محمد الصادق،رضي الله عنه أَنه قال : البَسْمَلَةُ تيجان السور[١] . ورُوي أَن رجلا قال بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم : تعس الشيطان ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (لا تَقُلْ ذلك ، فإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ عنده ، ولَكِنْ قُلْ : بسم الله الرحمن الرحيم ، فإِنَّه يصغُر حتى يصيرَ أَقلَّ مِنْ ذُباب[٢]) .

وقال على بن الحسين رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : [وإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورا][٣] قال معناه : إذا قلت : [بسم الله الرحمن الرحيم] .

ورُوي عن جابر بن عبد الله أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (كيف تفتتح الصلاة يا جابر) ؟ قال : قلت : بالحمد لله رب العالمين. قال : (قل : بسم الله الرحمن الرحيم)[٤] .

(١) في (ق) أن كلام جعفر الصادق دليل على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها .

(٢) قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عاصم قال : « سمعت أبا تميمة يحدّث عن رديف النبي صلى الله عليه وسلم قال: عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم فقلت : تعس الشيطان ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت : تعس الشيطان تعاظم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت : بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب» . وروى النسائي في اليوم والليلة من حديث خالد الحذاء ، عن أبي تميمة ، وهو الهجيمي، عن أبي المليح بن أسامة بن عمير ، عن أبيه قال : « كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم » . فذكره ، وقال : « لا تقل هكذ فإنه يتعاظم حتى يكون كالليث ، ولكن قل : بسم الله ، فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة » .

(٣) الآية (٤٦) من سورة الإسراء .

(٤) رواه الدارقطني ،والبيهقي في « شعب الإيمان» .

وروَى أَبو هريرة أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَتاني جبريل ، فعلمني الصلاة ، فقرأَ : بسم الله الرحمن الرحيم ، – يجهر بها –)[١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذان الحديثان يقتضيان أَنها آية من الحمد ، ويردُّ ذلك حديث أُبيّ بن كعب الصحيح ، إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : (هل لكَ أَلاَّ تخرُجَ من المسْجِدِ حتَّى تعلم سُورَة ، ما أُنزل في التَّوراةِ وَلاَ في الإنجيلِ ولا في الفرقان مثلها) ؟ ، قال : فجعلت أُبطيُّ في المشي رجاء ذلك ، فقال لي : (كيف تقرأُ إذا افتتحت الصلاة) ؟ قال : فقرأْت : [الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ] ،حتى أَتيتُ على آخرها[٢] . ويردُّه الحديث الصحيح : (يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، يقول العبد : [الحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِين] [٣]) . ويردُّه أَنه لم يُحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أَبي بكر ، ولا عن عمر ، ولا عن عثمان ، رضي الله عنهم أَنهم قرؤوا في صلاتهم [بسم الله الرحمن الرحيم][٤] . ويردُّه عددُ آيات السورة ، لأَن الإجماع أَنها سبع آيات إلاَّ ما رُوي عن حسين الجعفي أَنها ست آيات[٥] ،

(١) رواه الدارقطني ، عن خالد بن إلياس ، عن سعد بن أَبي سعيد المقبري ، عن أَبي هريرة .

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ ، والإمام أحمد ، والترمذي .

(٣) رواه الإمام مسلم في مسنده الصحيح ، والنسائي في سننه ، والمراد بالصلاة القراءة لأن الصلاة لا تصح إلا بها .

(٤) أي كما في الصحيحين ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٥) هو ابن علي ، بن الوليد ، الجعفي ، أبو عبد الله الكوفي . أحد الأعلام والزهاد . توفي سنة ٢٠٣ هـ .

وهذا شاذ لا يعول عليه ، وكذلك رُوي عن عمرو بن عبيد[١] أنه جعل [إِيَّاكَ نَعْبُدُ] آية ، فهي على عده ثماني آيات ، وهذا أيضاً شاذ ، وقول الله تعالى : [وَلَقَد آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثَانِي][٢] هو الفصل في ذلك.

والشافعي رحمه الله يَعُدُّ [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ] آية من الحمد[٣] ، وكثيرٌ[٤] من قراء مكة والكوفة ، ولا يَعُدّون [أَنعَمْتَ عَلَيْهِم] . ومالك رحمه الله ، وأبو حنيفة ، وجمهور الفقهاء والقراء لايعدون البسملة آية .

والذي يحتمله عندي حديث جابر ، وأبي هريرة – إذا صحَّا – أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى قراءة جابر وحكايته أَمْرَ الصلاة قراءةً في غير الصلاة على جهة التعلم ، فأَمره بالبسملة لهذا ، لا لأَنها آية ، وكذلك في حديث أَبي هريرة رآها قراءة تعليم ، ولم يفعل ذلك مع أُبيّ لأَنه قصد تخصيص السورة ، وَوَسَمَهَا من الفضل بما لها ، فلم يُدخل معها ماليس منها ، وليس هذا القصد في حديث جابر وأبي هريرة ، والله أعلم .

---

(١) أبو عثمان ، التميمي ، البصري ، كان المنصور يعتقد صلاحه توفي سنة ١٤٤ هـ .

(٢) من الآية (٨٧) من سورة (الحجر) .

(٣) قال ابن العربي : يكفي أنها ليست من القرآن اختلافالناس فيها ، والقرآن لايختلف فيه ، كما أنه لا يثبت بأخبار الآحاد ، وأما كتابتها في المصحف فيحتمل أن يكون ذلك لكونها قرآناً ، أو لكونها تفصل بين السور ، كما روي ذلك عن الصحابة ، أو للتبرك بها ، كما تكتب في أوائل الكتب والرسائل ، أخرج أبو داود بإسناد صحيح ، عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه [بسم الله الرحمن الرحيم] ، وأخرجه الحاكم في المستدرك .

(٤) مربوط بما قبله ، فقولهم كقول الشافعي رضى الله عنه .

وقال ابن المبارك(١) : إن البسملة آية في أَول كل سورة ، وهذا قول شاذ رد الناس عليه .

وروى الشعبي، والأَعمش، أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب: (باسمك اللّهم) حتى أُمر أَن يكتبَ [بسم الله] فكتبها ، فلما نزلت : [قُلِ ادْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَنَ](٢) كتب [بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ] ، فلما نزلت : [إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ](٣) كتبها ، وروى عمرو بن شرحبيل أَن جبريل أَول ما جاء النبي عليه السلام قال له : قـال : [بسم الله الرحمن الرحيم](٤) ، ورُوي عن ابن عباس أَن أَول ما نزل به جبريل : [بسم الله الرحمن الرحيم] ، (٥) وفي بعض طرق حديث خديجة ، وحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ورقة ،

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي . أبو عبد الرحمن المروزي ، أحد شيوخ الإسلام وأئمة الهدى . توفي سنة ١٨١ هـ .

(٢) من الآية (١١٠) من سورة الإسراء .

(٣) الآية (٣٠) من سورة (النمل) ــ هذا ، وفي مصنف أبي داود : قال الشعبي ،وأبو مالك ، وقتادة ، وثابت بن عمارة : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] حتى نزلت سورة النمل قاله : (ق) .

(٤) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، كلاهما في الدلائل ، من حديث عمرو بن شرحبيل : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما شكا إلى خديجة ما يجده عند أوائل الوحي فذهبت به إلى ورقة فأخبره ، فقال له : إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي : يا محمد ، يا محمد ، يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأرض . فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم ائتني فأخبرني ، فلما خلا ناداه : يا محمد ، قل : [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]، [الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] حتى بلغ [ولا الضالين] الحديث» . وعمرو بن شرحبيل هو أبو ميسرة الكوفي أحد فضلاء التابعين ، يروي عن عمر ، وعلي رضي الله عنهما ، وتوفي في أيام عبيد الله بن زياد .

(٥) تقدم أنه حديث غريب وضعيف [انظر ص ٧٥] .

أَن جبريل قال للنبي عليهما السلام : قل : [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] فقالها ، فقال : اقرأْ ، قال : «ما أَنا بقارئٍ» الحديث .

والبسملة تسعة عشر حرفاً[١] ، فقال بعض الناس : إن روايةً بلَغتهم أن ملائكة النار الذين قال الله فيهم : [عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ] إنما ترتب عددهم على حروف [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] ، لكل حرف مَلَك ، وهم يقولون في كل أَفعالهم : [بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] ، فمن هنالك هي قوتهم ، وباسْم الله استضلعوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه من مُلَح التفسير ، وليست من متين العلم[٢] ، وهي نظير قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين ، مراعاة للفظة هي في

(١) في (ق) روى وكيع ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ [بسم الله الرحمن الرحيم] ليجعل الله له بكل حرف منها جُنَّةً من كل واحد ، فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : [عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ] ، وهم يقولون في كل أفعالهم : [بسم الله الرحمن الرحيم] ، فمن هنالك هي قوتهم وببسم الله استضلعوا ، وقوله تعالى : [عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ] هي الآية (٢٩) من سورة (المدثر) .

(٢) من العلم ما هو من صُلب العلم وصميمه ، ومنه ما هو من مُلح العلم ومستحسناته ، ومنهما ليس من صلبه ولا من مُلَحه ـ الأول كل ما تقتضيه الدلائل الشرعية الصحيحة من أحكام وأعمال ـ والثاني كل ما تستملحه النفوس ، وتستحسنه العقول ، من دون أن يكون منفراً ، ولا معادياً للعلوم ـ كطلب مسلسلات الأحاديث التي يؤتى بها على وجوه ملتزمة في الزمان المتقدم على غير قصد . فإن العمل بتلك الأحاديث لا يتوقف على ذلك ، ولكن تلك الصفة مستحسنة في العقول ـ وكالأمثلة التي عرضها المؤلف رحمه الله ـ والثالث كمثل ما انتحله الباطنية في كتاب الله تعالى من إخراجه عن ظاهره ، وأن المقصود وراء هذا الظاهر ، ولا سبيل إلى نيله بعقل ولا نظر ، وإنما يؤخذ من الإمام المعصوم ، تقليداً لذلك الإمام ، واستنادهم في جملة من دعاويهم إلى علم الحروف وعلم النجوم ، فإن هذا ليس من الصميم ولا من المليح .

كلمات سورة «إنا أنزلناه» ، ونظير قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه» ، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً ، قالوا : فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد رأيتُ بضعةً وثلاثين ملَكاً يبْتَدرونها ، أَيهم يكتبها أَول) .

و «الباء» في [بِسْمِ ٱللهِ] متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره : ابتدائي مستقر أَو ثابت [بِسْمِ ٱللهِ] . وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره : ابتدأْت [بسم الله] ، ف [بسم الله] في موضع رفع على مذهب البصريِّين ، وفي موضع نصب على مذهب الكوفيِّين ، كذا أَطلق القول قومٌ ، والظاهر من مذهب سيبويه : أَن الباء متعلقة باسم كما تقدم ، و[بسم الله][1] في موضع نصب متعلقة بثابت أَو مستقر بمنزلة «في الدار» من قولك: «زيد في الدار» ، وكسرت باءُ الجر ليناسب لفظُها عملَها ، أَو لكونها لاتدخل إلا على الأَسماءِ ، فخصت بالخفض الذي لايكون إلا في الأَسماءِ ، وليفرق بينها وبين ماقد يكون من الحروف اسما ، نحو (الكاف) في قول الأَعشي :

أَتَنْتَهون ، ولا يَنْهى ذَوي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيه الزَّيْت والفُتُلُ[2]

وحذفت الأَلف من «بسم الله» في الخط اختصاراً وتخفيفاً لكثرة

---

(١) الخبر هو «مستقر» أو «ثابت» . فإذا أخفيته كان [بِسْمِ اللهِ] في موضع رفع ، وإذا أظهرته كان [بسْمِ الله] في موضع نصب .

(٢) في بعض الروايات «هل تنتهون» ، وفي بعضها «لا تنتهون» ، و «الكاف» في قوله : كالطعن اسم بمعنى «مثل» ، هو فاعل ينهى ، والمعنى لا ينهى ذوي الشطط شيء مثل الطعن الشديد الواسع الذي يغيب في جرحه الزيت والفتائل إذا ضُمِّد .

الاستعمال ، واختلف النحاة إذا كتب «باسم الرحمن ، وباسم القاهر» ، فقال الكسائي ، وسعيد الأَخفش : يُحذف الأَلف ، وقال يحيي بن زياد: لا تحذف إِلاَّ مع [بسم الله] فقط ، لأَن الاستعمال إنما كثر فيه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

أَما في غير اسم الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الأَلف .

و[اسْم] أَصله «سِمو» بكسر السين أَو «سُمو» بضمها ، وهو عند البصريين مشتق من السُمُوِّ ، يقال : سَمَا يسمو ، فعلى هذا تضم السين في قولك : سُمو ، ويقال : سمي يسمي فعلى هذا تكسر ، وحذفت الواو من سمو ، وكسرت السين من «سِم» كما قال الشاعر :

بسْمِ الَّذي في كُلِّ سُورَةٍ سِمُهْ (١) . . . .

وسكنت السين من [بسْمِ] اعتلالا على غير قياس(٢) ، وإنما استدل على هذا الأَصل الذي ذكرناه بقولهم في التصغير : «سُمَيٌّ» ، وفي الجمع «أَسماءٌ» ، وفي جمع الجمع أَسَامِيُّ ، وقال الكوفيون : أَصل اسْمٌ وأُسْمٌ من (السِّمةِ) وهي العلامة ، لأَن الاسم علامة لمن وضع له ، وحذفت فاؤه اعتلالا على غير قياس ، والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب

---

(١) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا :

بِسْمِ الَّذي في كُلِّ سُورة سِمُه قد وَرَدَتْ على طريقٍ تعْلَمُه
أَرْسَل فيها بازلاً يقرمه فهو بها يَنحُو طريقاً يعْلَمُه

وفي لسان العرب في مادة «سما» قال ابن بري : وأنشد أبو زيد لرجل من كلب :

أَرسل فيها بازلاً يقرمه وهو بها ينحو طريقاً يعلمه

باسم الذي في كل سورة سِمُه . . . .

(٢) كأن الأصل (اسم) ، نقلت حركة الهمزة إلى السين ، ثم حذفت الهمزة ، ولما وُصلت بالباء سكنت السين تخفيفاً .

الكوفي ، وأما المعنى فيه فجيد ، لولا ما يلزمهم من أن يقال في التصغير «وُسَيْم» ، وفي الجمع «أَوْسَام» ، لأَن التصغير والجمع يردان الأَشياء إلى أُصولها .

وقد ذكر بعض المفسرين في هذا الموضع «الاسم والمُسَمى» ، هل هما واحد؟ (١) . فقال الطبري رحمه الله : إنه ليس بموضع للمسأَلة ،

(١) يحسن أن ننقل هنا كلام ابن القيم في هذه المسألة التي كثر فيها الخوض ، وقلَّ فيها التحقيق. قال رحمه الله : اللفظ المؤلف من « الزاي ، والياء ، والدال » مثلا — له حقيقة متميزة متحصلة ، فاستحق أن يوضع له لفظ يدل عليه ، لأنه شيء موجود في اللسان ، مسموع بالآذان — فاللفظ المؤلف من « همزة الوصل ، والسين ، والميم » عبارة عن اللفظ المؤلف من « الزاى ، والياء ، والدال » — مثلا — واللفظ المؤلف من « الزاى ، والياء ، والدال » عبارة عن الشخص الموجود في الأعيان والأذهان . وهذا هو المُسَمّى .

واللفظ الدال عليه الذي هو « الزاى ، والياء ، والدال » هو الاسم — وهذا اللفظ أيضاً قد صار مسمى ، من حيث كان لفظ « الهمزة ، والسين ، والميم » عبارة عنه — فقد بان لك أن الاسم في أصل الوضع ، ليس هو المسمى ، ولهذا تقول سميت هذا الشخص بهذا الاسم ، كما تقول حلّيته بهذه الحِلْية . والحِلْية غير المُحلى ، فكذلك الاسم غير المسمى ، وقد صرح بذلك سيبويه ، وأخطأ من نسب إليه غير هذا ، وادّعى أن مذهبه اتحادهما — والذي غرّ من ادعى ذلك قوله : « الأفعال أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء » ، وهذا لا يعارض نصه قبل هذا ، فإنه نص على أن الاسم غير المسمى فقال : «الكلم : اسم ، وفعل ، وحرف» . فقد صرح بأن « الاسم » كلمة ، فكيف تكون الكلمة هى المسمى ، والمسمى شخص ؟ ، ثم قال بعد هذا : تقول : « سميت زيداً بهذا الاسم » ، كما تقول : « علمته بهذه العلامة » . — وفي كتابه قريب من ألف موضع أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى — ومتى ذكر الخفض ، أو النصب ، أو التنوين ، أو اللام ، أو جميع ما يلحق الاسم من زيادة ونقصان ، وتصغير وتكبير ، وإعراب وبناء ، فذلك كله من عوارض الاسم ، ولا تعلق لشيء من ذلك بالمسمى أصلا ، وما قال نحوي قط ، ولاعربي : إن الاسم هو المسمى . ويقولون : أجل مسمى ولا يقولون : أجل اسم . ويقولون : «مسمى هذا الاسم كذا» ، ولا يقول أحد : « اسم هذا الاسم » ويقولون : « هذا مسمى بزيد » ، ولا يقولون : « هذا الرجل اسم زيد » ، ويقولون : «باسم الله» ، ولا يقولون : « بمسمى الله » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لي خمسة أسماء) ، ولا يصح أن يقال : « لي خمس مسميات » . وقال : (تسموا باسمى) . ولا يصح أن يقال : « تسموا بمسمياتي » — وقال : (إن لله تِسْعَة وتِسْعِين اسما) ولا يصح أن يقال : « لله تسعة وتسعون مسمى » . =

. . . .

= وإذا ظهر الفرق بين « الاسم والمسمّى» ، بقي ها هنا « التسمية » ، وهي التي اعتبرها من قال باتحاد الاسم والمسمى — و« التسمية » عبارة عن فعل المسمِّ ، ووضعه الاسم للمسمّى ، كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلّي ووضعه الحِلية على المحلَّى — فها هنا ثلاث حقائق : «اسم، ومسمى، وتسمية» — كحلية، ومحلَّى، وتحلية ، ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد ، لتباين حقائقها ، وإذا جعلت الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاث ولابد .

فإن قيل : فحُلّوا لنا شبهة من قال باتحادهما ليتم الدليل ، فإنكم أقمتم الدليل ، فعليكم الجواب عن المعارض — فمنها : أن الله وحده هو الخالق ، وما سواه مخلوق ، فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة — وللزم ألا يكون له اسم في الأزل ولا صفة ، وهذا هو السؤال الأعظم الذي قاد متكلمي الإثبات إلى أن يقولوا : « الاسم هو المسمى » فما عندكم في دفعه ؟ — والجواب : أن منشأ الغلط في هذا الباب من إطلاق اللفظة مُجمَلَةً لمعنيين : صحيح وباطل ، فلا ينفصل النزاع ، إلا بتفصيل تلك المعاني ، وتنزيل ألفاظها عليها — ولا ريب أن الله تعالى لم يزل — ولا يزال — موصوفاً بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها ، فلم يزل بأسمائه وصفاته رباً واحداً ، وإلها واحدا ، له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، وأسماؤه وصفاته داخلة في مسمى اسمه ، وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله يَخلُق ويَرْزُق ، فليست صفاته وأسماؤه غيرَه ، وليست هي نفسَه — وبلاء القوم من لفظة «الغير» فإنها يراد بها معنيان : أحدهما — « المغاير » لتلك الذات المسماة بالله ، وكل ما غاير الله مغايرَة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقاً — ويراد بها مغايرة الذات إذا خرجت عنها ، فإذا قيل علم الله وكلام الله غيرُه ، وعني أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحاً ، ولكن الإطلاق باطل ، وإذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره ، كان باطلا لفظاً ومعنى — وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن ، وقالوا كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه ، فالله اسم للذات الموصوفة بصفات الكمال ، ومن تلك الصفات صفة الكلام ، كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقة — وإذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته فهو متضمن لأسمائه الحسنى — فإذا كان القرآن غير مخلوق ، ولا يقال إنه غير الله ، فكيف يقال إن بعض ما تضمنه — وهو أسماؤه — مخلوقة وهي غيره ؟ .

فقد حصحص الحق بحمد الله ، وانحسم الإشكال — وبان أن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، ولا يقال فيه هو غيره ولا هو هو — وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون : « أسماؤه تعالى غيره ، وهي مخلوقة » — ولمذهب من ردَّ عليهم ممن يقول : «اسمه نفس ذاته لا غيره» ، وبالتفصيل تزول الشُّبه ، ويتبين الصواب . والحمد لله . انتهـــى . =

وأنحى[1] في خطبته على المتكلمين في هذه المسأَلة ونحوها ، ولكن بحسب ما قد تُدُوول[2] القول فيها ، فلنقل : إن الاسم «كزيد ، وأَسد ، وفرس» قد يرد في الكلام ، يراد به الذات ، كقولك : «زيد قائم» و«الأَسد شجاع» ، وقد يرد ، ويراد به التسمية ذاتها ، كقولك : «أَسد ثلاثة أَحرف» ، ففي الأَول يقال : الاسم هو المسمى ، بمعنى «يراد به المسمى» ، وفي الثاني : لا يراد به المسمى ، ومن وُرُود الأَول قولك : « يا رحمن اغفرلي » وقوله تعالى : [الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ][3] ، ومن الورود الثاني قولك : « الرحمن وصْف الله تعالى » ، وأما «اسم» الذي هو «أَلف ، وسين ، وميم» ، فقد يجري في لغة العرب مجرى الذات ، يقال : «ذات ، ونفس ، واسم ، وعين » ، بمعنى ، وعلى هذا حمل أَكثر أَهل العلم قوله تعالى: [سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى] ، وقوله : [تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي

= وبكلام ابن القيم رحمه الله يظهر لك أن ما أشار إليه المؤلف رحمه الله هو الحق الذي لا محيد عنه ، وأن كلامه موافق لكلام ابن القيم ، وإن اختلف شكل تقريرهما ، وأنهما انفصلا على أن الاسم ليس هو المسمى دائماً ، وليس هو غير المسمى دائماً ، وهذا ما أراده الإمام مالك بقوله :— « ليس به ، ولا هو غيره » ، فللّه درُّ ابن القيم ، وابن عطية ، رحمهما الله تعالى على هذا التحقيق . والله ولي التوفيق .

وقال العلامة الدميري في حياة الحيوان الكبرى ما نصه : قال ابن عطية : من الدليل على أن القرآن غير مخلوق ، أن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعاً . ما فيها موضع صرَّح فيه بلفظ الخلق ، ولا أشار إليه — وذكر الإنسان على الثلث. من ذلك في ثمانية عشر موضعاً ، كلها نصَّت على خلقه ، وقد افترق ذكرهما على هذا النحو في قوله : (الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان) ا هـ .

(١) أي باللائمة . راجع تفسير الطبري — الجزء الأول ص ٤٢ .

(٢) وفي بعض النسخ تردد .

(٣) الآيتان رقم (١) ، (٢) — من سورة (الرحمن) .

ٱلْجَلالِ وَٱلإِكْرَام] ، وقوله : [مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ][1] ، وعضَّدوا ذلك بقول لبيد :

إلى الحَوْلِ ثم اسْمُ السلام عليكُمَا ومَنْ يبْكِ حوْلاً كاملاً فَقَدِ اعْتَذَرْ[2]

وقالوا : إن لبيداً أراد التحية .

وقد يجري «اسم» في اللغة مجرى ذات العبارة ، وهو الأكثر من استعماله ، فمنه قوله تعالى : [وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْمَاءَ كُلَّهَا][3] ، على أشهر التأويلات فيه ، ومنه قول النبي عليه السلام : (إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، مَنْ أَحصاها دخَلَ الجَنَّة[4]) ، وعلى هذا النحو استعمل النحويون الاسم في تصريف أقوالهم [5] ، فالذي يتنخل[6]

(١) الآيات على الترتيب – الآية رقم (١) من سورة (الأعلى) – والآية رقم (٧٨) من سورة (الرحمن) – ومن الآية رقم (٤٠) من سورة (يوسف) .

(٢) قبل البيت :

تمنَّى ابنَتايَ أنْ يعيشَ أبوهُما وهلْ أنا إلا مِنْ ربيعةَ أوْ مُضَرْ
فإن حانَ يوماً أنْ يموتَ أبُوكما فلا تخْمِشَا وجهاً ، ولا تحْلِقَا شَعَرْ
وقولاَ : هُوَ المرءُ الذي ليس جارُهُ مُضَاعاً ، ولا خانَ الصَّديقَ ، ولا غَدَرْ

ولبيد : هو أبو عقيل بن ربيعة العامري . أحد أشراف الشعراء ، وكان جوادا ، شاعراً ، وشجاعاً فاتكاً ، أسلم ، وتنسّك ، وحفظ القرآن الكريم ، ولم يرو له بعد إسلامه إلا بيت واحد :

ما عاتَبَ الحُرَّ الكريمَ كَنَفْسِهِ والمرْءُ يُصْلِحُهُ الجليسُ الصَّالِحُ

وقيل بل هو قوله :

الحمْدُ للهِ إذْ لمْ يأتني أجَلِي حتَّى لبسْتُ من الإسْلام سرْبَالاَ

ومات سنة (٤١) هـ . بعد أن عمر وعاش ١٣٠ سنة .

(٣) من الآية رقم ٣١ من سورة البقرة .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وجاء تعدادها في رواية الترمذي ، وابن ماجه .

(٥) حيث قالوا : الكلمة إما اسم ، وإما فعل ، وإما حرف . فالمراد من قولهم ذلك الكلمة والعبارة .

(٦) أي يتخلص ويتلخص .

من هذا أن الأَسماء قد تجيءُ يراد بها ذوات المسميات ، وفي هذا يقال : الاسم هو المسمى ، وقد تجيءُ يراد بها ذواتها نفسها لا مسمياتها . وَمَرَّ بي أَن مالكاً رحمه الله سئل عن الاسم . أهو المسمى ؟ فقال : « ليس به ، ولا هو غيره » ، يريد دائماً في كل موضع ، وهذا موافق لما قلناه .

والمكتوبة التي لفظها [الله] أَبهر أَسماءِ الله تعالى ، وأَكثرها استعمالا ، وهو المتقدم لسائرها في الأَغلب ، وإِنما تجيءُ الأُخر أَوصافا .

واختلف الناس في اشتقاقه : فقالت فرقة من أَهل العلم : هو اسم مرتجل ، لا اشتقاق له من فِعْل ، وإِنما هو اسم موضوع له تبارك وتعالى ، والأَلف واللام لازمة له ، لا لتعريف ولا لغيره ، بل هكذا وضع الاسم . وذهب كثير من أَهل العلم إِلى أَنه مشتق(١) من أَلَه الرجل(٢) إذا عبد ، وتـأَله إِذا تنسَّك ، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج :

لله دَرُّ الغانيــاتِ المُــدَّه   سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تـأَلهي(٣)

ومن ذلك قوله تعالى : [وَيَذَرَكَ وإِلٰهتَكَ] على هذه القراءة ، فإِن ابن عباس وغيره قال : وعبادتك ، قالوا : فاسم الله مشتق من هذا الفعل ،

(١) المراد بالاشتقاق هنا المجازي ، وهو ملاحظة المعاني وتقاربها ، لا الحقيقي ، لما فيه من الإيهام ، وهو أسبقية المشتق منه على المشتق ، وأسماء الله تعالى كلها قديمة .

(٢) ألِه بكسر اللام وفتحها ، ومعناه عبد ، وتأله تعبد وتنسك ، واستدل المؤلف باستعمال رؤبة للمصدر في قوله تألهي . قال سيبويه : (الله) مشتق ، وأصله (إلاه) فدخلت عليه الألف واللام فبقي (الإله) ، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام ، وسقطت فبقي (أَلِلاله) ، فسكنت اللام الأولى وأدغمت ، وفخم تعظيماً ، لكنه يرقق مع كسر ما قبله ، وما قاله سيبويه هو الصحيح .

(٣) المُدَّه : المادحات ، يقال مَدَه كمدح وزْناً ومعنى ، والمادِه المادح ، والجمع مُدَّه . وتألُّهي : أي تعبدي .

لأَنه الذي يأْلهه كل مخلوق ويعبده ، حكاه النقاش في صدر سورة آل عمران. فإِلٰه فِعال من هذا .

واختُلف ـ كيف تَعلَّل (إلٰه) حتى جاءَ (الله) ؟ ، فقيل : حذفت الهمزة على غير قياس ، ودخلت الأَلف واللام للتعظيم على (لاه) ، وقيل : بل دخلتا على (إلٰه) ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام فجاءَ (أَللِاَه) ، ثم أُدغمت اللام في اللام . وقيل : إن أَصل الكلمة (لاه) ، وعليه دخلت الأَلف واللام ، والأَول أَقوى .

ورُوي عن الخليل[١] أَن أَصل إلٰه (وِلاه) ، وأَن الهمزة مبدلة من واو كما هي في إشاح ووِشاح ، وإسادة ووِسدة[٢] ، وقيل : إن أَصل الكلمة (وِلاه) كما قال الخليل ، إلا أَنها مأْخوذة من (وله) الرجل إذا تحير ، لأَنه تعالى تتحير الأَلباب في حقائق صفاته ، والفكر في المعرفة به ، وحذفت الأَلف الأَخيرة من الله لئلا يشكل بخط اللات ، وقيل : طرحت تخفيفاً ، وقيل : هي لغة ، فاستعملت في الخط ، ومنها قول الشاعر :

أَقبل سَيْلٌ جاءَ من أَمْرِ الله يحْرِدُ حَرْدَ الجنة المُغلَّة[٣]

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري ، إمام النحويين ، وشيخ سيبويه ، وصاحب كتاب (العين) .

(٢) الاشتقاق الأول من أله إلاهة ، بمعنى عبد عبادة ، والاشتقاق الثاني من وَله يوله ولهاً إذا تحير .

(٣) وفي رواية كما للإمام (ط) وغيره :

وجاء سيلٌ كان من أمر الله يحْرِدُ حردَ الجنة المغلة

ويحرد حرد : أي يقصد قصدها ، والبيت من مشطور الرجز ، ولم ينسب لقائل معروف ، وفي تحقيق كتاب البيان في غريب إعراب القرآن ، لابن الأنباري أنه نسب إلى قطرب بن المستنير .

[والرَّحْمَنُ] صفة مبالغة من الرحمة(١) ،ومعناها أَنه انتهى إلى الرحمة ، كما يدل على الانتهاء سكران وغضبان(٢) ، وهي صفة تختص بالله ، ولا تطلق على البشر(٣). وهي أَبلغ من فعيل ، وفعيل أَبلغ من فاعل ، لأَن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة ، ورحيماً يقال لمن كثر منه ذلك . والرحمٰن النهاية في الرحمة ، وقال بعض الناس : الرحمن والرحيم بمعنى واحد ، كالندمان والنديم ، نعم(٤) إنهما من فعل واحد ، ولكن أَحدهما أَبلغ من الآخر .

وأَما المفسرون فعبروا عن [الرَّحْمن الرَّحِيم] بعبارات ، فمنها : أَن العَرْزَميّ(٥) قال : معناه الرحمن بجميع خلقه في الأَمطار ،ونعم الحواس ، والنعم العامة ، الرحيم بالمؤمنين ، بالهداية لهم ، واللطف بهم ، ومنها : أَن أَبا سعيد الخدري ، وابن مسعود رويا أَن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) قال الإمام (ق) : الدليل على أنه مشتق ماخرّجه الترمذي ، وصحّحه عن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : (أنا الرحمن ، خلقت الرَّحِم ، وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته)، وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للخلاف والشقاق . وقوله : انتهى إلى الرحمة ، أي بلغ نهاية الرحمة .

(٢) (فَعْلان) في أسماء الفاعلين يقتضي الامتلاء مما اشتق منه ، فغضبان إنما يستعمل في الممتلئ غضباً ، وريّان في الممتلئ ريّا ، وعطشان في الممتلئ عطشاً ، ولا يستعمل في مطلق ما اشتق ، وفَعْلان موجود في الأوصاف ، مفقود في الأسماء كما هو معروف .

(٣) إلا على سبيل التعنت والتعصب .

(٤) (نعم) قد تأتي صدر الكلام لتأكيده ، فهي بمعنى حقاً .

(٥) عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي بتقديم الراء على الزاي — أبو محمد بن ميسرة الكوفي ، أحد الأئمة . مات سنة ١٤٥ هـ .

وسلم قال : (الرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة)(١). وقال أَبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أَنواع الرحمة يختص به الله ، والرحيم : إنما هو من جهة المؤمنين كما قال : [وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيما] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه كلها أَقوال تتعاضد ،وقال عطاءُ الخراساني(٢): كان الرحمن ، فلما اختزل ، وسُمِّي به مسيلمة الكذاب قال الله لنفسه : [الرحمن الرحيم] ، فهذا الاقتران بين الصفتين ليس لأَحد إلا لله تعالى ، وهذا قول ضعيف، لأَن [بسْم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم] كان قبل أَن ينجم أَمر مسيلمة ، وأَيضاً فَتَسَمِّي مسيلمة بهــذا لم يكن ممــا تـأَصَّل وثبت . وقال قوم : إن العرب كانت لا تعرف لفظة الرحمن ، ولا كانت في لغتها ، واستدلوا على ذلك بقول العرب : [وَمَا الرَّحمن ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَـأْمُرُنَا ؟](٣) ، وهذا القــول ضعيف ، وإنما وقفت العرب على تعيين الإِلٰه الذي أُمروا بالسجود له لا على نفس اللفظ .

---

(١) رواه الحافظ بن مردويه من طريقين ، عن إسماعيل بن عياش ، عن إسماعيل بن يحيى ، عن مسعر ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب فقال له المعلم : اكتب ، فقال ما اكتب ؟ قال : بسم الله ، قال له عيسى : وما بسم الله ؟ قال المعلم : ما أدري .قال له عيسى : الباء بهاء الله ، والسين سناؤه، والميم مملكته ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة ، رواه ابن جرير من طريق آخر ، وهو حديث غريب .

(٢) رواه عنه الإمام(ط) رحمه الله ، وعطاء هو ابن أبي مسلم أبو أيوب الخراساني، كان من خيار عباد الله ، وقيل له الخراساني لأنه دخلها وأقام بها ، وإلا فهو بصري . توفي سنة ١٣٥ هـ. يروي عن أبي الدرداء وابن عباس ، وقد ردّه ابن عبد البر — وأدخله البخاري في الضعفاء .

(٣) من الآية (٦٠) من سورة الفرقان .

واختلف في وصل الرحيم بالحمد ، فروي عن أُم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم (الرَّحِيمْ أَلْحَمْدُ) تُسكن الميم ، ويوقف عليها ، ويبتدأ بالف مقطوعة ، وقرأ به قوم من الكوفيين ، وقرأ جمهور الناس (الرَّحيمِ ٱلْحَمْد) يعرب الرحيم بالخفض ، وتوصل الألف من الحمد ، ومن يشأ أَن يقدر أَنه أَسكن الميم ، ثم لما وصل الألف حركتها للاتقاء ، ولم يعتد بالف الوصل فذلك سائغ ، والأول أَخصر ، وحكى الكسائي عن بعض العرب أَنها تَقْرأ (الرحيمَ ٱلحمد) بفتح الميم وصلة الألف ، كأَنها سكنت الميم وقطعت الألف ، ثم أُلقيت حركتها على الميم وحذفت ، ولم ترو هذه قراءَةً عن أَحد فيما علمت ، وهذا هو نظر يحي بن زياد في قول الله تعالى : [أَلٓـــم الله] .

فاتحة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

تفسير فاتحة الكتاب
بحول الله تعالى

قال ابن عباس ، وموسى بن جعفر ، عن أبيه ، وعلي بن الحسين ، وقتادة ، وأبو العالية ، ومحمدبن يحي بن حبان(١) : إنها مكية ، ويؤيد هذا أن فيسورة الحِجر : [وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَاني] والحِجْر مكية بإجماع(٢).

وفي حديث أُبيّ بن كعب : (إنها السَّبْعُ المَثاني ، والسَّبع الطّول)(٣) نزلت بعد الحجر بمدة ، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة ، وما حفظ أنه كانت قط في الإسلام صلاة بغير [ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ] ، ورُوي عن عطاء بن يسار ، وسوادة بن زياد ، والزهري محمد بن مسلم ، وعبيد بن عمير (٤) أن سورة الحمد مدنية .

وأما أَسماؤُها ـ فلا خلاف أنها يقال لها : فاتحة الكتاب ، لأَن موضعها يعطي ذلك ، واختلف ـ هل يقال لها : أُم الكتاب ؟ فكره الحسن ابن أَبي الحسن ذلك ، فقال : أُم الكتاب الحلال والحرام . قال الله

(١) بالباء هو ابن منقذ بن عمرو الأنصاري المازني ،أبو عبد الله المدني توفي سنة ١٢١ هـ .

(٢) ولم يكن الله ليمتّن على رسوله بإيتائه فاتحة الكتاب وهو بمكة ، ثم ينزلها بالمدينة ، ولا يسعنا القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بضع عشرة سنة يصلي بلا فاتحة الكتاب ، هذا مالا تقبله العقول ، قاله الواحدي . وقوله تعالى :(ولقد آتيناك ...) هو من الآية رقم (٨٧) من سورة الحجر .

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ المشهور بلفظ : (السَّبْعُ الْمَثَانِي والقرآنُ العَظِيم الذي أُعْطِيتُهُ) والترمذي وغيرهما ،وخرج ذلك أيضاً الإمام البخاري وغيره ، عن أبي سعيد ابن المعلى في أول كتاب التفسير ، وفي أول كتاب الفضائل بلفظ : (السَّبْعُ المَثَانِي والقرآنُ العَظِيمُ الذي أوتيتُه) . والسبع الطول هي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، فقوله: والسبع الطول إلخ . رد على من يقول : إنها السبع المثاني.

(٤) هو أبو هاشم المكي الليثي ،وردت الرواية عنه في حروف القرآن ،يَرْوي عن أبيه وابن عمر .

تعالى : [آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ][١] وقال ابن عباس وغيره : يقال لها : أم الكتاب . وقال البخاري : سميت أم الكتاب لأنه يُبدأُ بكتابتها في المصحف ، وبقراءتها في الصلاة . وفي تسميتها بأم الكتاب حديث رواه أبو هريرة[٢] ؛ واختلف ـ هل يقال لها أم القرآن ؟ فكره ذلك ابن سيرين ، وجوَّزه جمهور العلماء ، قال يحيى بن يعمر : أم القرى مكة ، وأم خراسان مرو ، وأم القرآن سورة الحمد ، وقال الحسن بن أبي الحسن : اسمها أم القرآن ، وأما المثاني فقيل : سميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة ، وقيل : سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخراً لها .

وأما فضل هذه السورة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أُبي بن كعب : (إنها لم يَنْزِلْ في التوراة ،ولا في الإنجيل ، ولا في الفرقان مثلها) [٣] ويروى أنها تعدل ثلثي القرآن[٤] ، وهذا

(١) من الآية رقم (٧) من سورة آل عمران .

(٢) رواه الترمذي وصححه ، والإمام أحمد ولفظه : (الحمْدُ لله أمُّ القرآنِ ، وأمُّ الكِتَابِ ، والسَّبعُ المَثَانِي) ، وهذا الحديث يرد على القولين معا .

(٣) رواه الإمام أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، ونص الترمذي : (والذي نَفْسِي بِيَدِه ما انزلَتْ فِي التوراة ، ولا في الانْجِيلِ ، ولا في الزَّبور ، ولا في القرآن مِثْلُهَا . وإنَّها السّبعُ مِنَ المَثَانِي ،والْقُرْآنُ العَظِيمُ الذِي أعطِيته) ،وقد يكون هذا الحديث سنداً لما اعتاده الناس من قراءة الفاتحة ، وقد أخرج أبو الشيخ في الثواب عن عطاء قال : إذا أردت حاجة فاقرأ فاتحة الكتاب حتى تختمها تقض إن شاء الله تعالى ، نقله الجلال السيوطي . وللغزالي في الانتصار ما نصه : فاستنزل ما عند ربك وخالقك من خير ،واستجلب ما تؤمله من هداية وبر ، بقراءة السبع المثاني المأمور بقراءتها في كل صلاة ، وتكرارها في كل ركعة ، وأخبر الصادق المصدوق أن ليس في التوراة ولا في الإنجيل والفرقان مثلها ، قال الشيخ زروق : وفيه تنبيه بل تصريح أنْ يُكْثَر منها لما فيها من الفوائد والذخائر . انتهى .

(٤) رواه عبد بن حميد في مسنده ، والفريابي في تفسيره عن ابن عباس بسند ضعيف .

العدل إما أن يكون في المعاني ، وإما أن يكون تفضيلا من الله تعالى لا يُعلل ، وكذلك يجيءُ عدل [قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ] ، وعدل [إِذَا زُلْزِلتِ] وغيرها (١) . وروى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (للحَمد لله رب العالمين فضلُ ثلاثين حسنةً ، على سائر الكلام) ، وورد حديثٌ آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ قَالَ : لا إلٰه إلا الله كُتبت له عشرون حسنة ، ومن قال : الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين كُتبت له ثلاثون حسنة)(٢) وهذا الحديث هو في الذي يقولها من المؤمنين مؤتجراً طالب ثواب ، لأَن قوله : [الحمد لله] في ضمنها التوحيد الذي هو معنى لا إلٰه إلا الله ، ففي قوله توحيد وحمد ، وفي قول : [لا إلٰه إلا الله] توحيد فقط ، فأَما إذا أُخذ بموضعهما من شرع الملة ، ومحلهما من دَفْع(٣) الكفر والإشراك ، فـ(لاإلٰه إلا الله) أَفضل ، والحاكم بذلك

(١) من الناس من يذهب إلى أن هذا من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ، ومنهم الإمام أحمد ، وإسحق بن راهويه ، قال ابن عبد البر : السكوت في هذه المسألة أفضل من الكلام وأسلم. وحديث : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن) رواه الإمام مالك في الموطأ ، والبخاري ، والترمذي ، وروى الترمذي عن أنس وابن عباس قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلِ نِصْفَ القرآن ، وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن ، وَقُلْ يَاأَيُّهَا الكَافِرون تَعْدِلِ رُبْعَ القرآن) . ومن الناس من يؤول ذلك باعتبار المعاني التي تشتمل عليها ، وقد أشار المؤلف رحمه الله إلى هذين القولين ، ويشير بذلك إلى أنه لا تفاضل بين كلام الله لأنه صفة ذاتية ، وإنما التفاضل في المعاني باعتبار الأجر والثواب . والله أعلم.

(٢) رواه الإمام أحمد ، والحاكم ، عن أبي سعيد ، وأبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله اصْطَفَى مِنَ الكَلام أربَعاً : سُبْحَانَ الله ، والحَمْدُ لله ، وَلا إلَه إلا الله ، والله أكبر . فَمَنْ قَال : سُبْحَانَ الله كُتِبَتْ لَهُ عِشْرونَ حَسَنَةً ، وَحُطَتْ عَنْهُ عِشْرونَ سَيِّئة ،ومَنْ قال : الله أكبر مِثْلُ ذلك . ومَنْ قال : لا إله إلا الله مِثْلُ ذلك ، ومن قال : الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين كُتِبَتْ له ثلاثون حَسَنَةً) ومن تمام الحديث كما في الجامع الصغير : (وحُطَّ عنه ثلاثون خَطِيئةً) .

(٣) في بعض النسخ (رفْع) بالراء .

قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَفضَلُ ما قلتُه أَنا والنبيُّون من قبلي: لا إلٰه إلا الله)(١) .

[الحَمْدُ] معناه : الثناءُ الكامل ، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد ، وهو أَعم من الشكر ، لأَن الشكر إنما يكون على فعل جميل يُسدى إلى الشاكر ، وشكره حمد ما ، والحمد المجرد(٢) هو ثناء بصفة المحمود من غير أَن يسدي شيئاً ، فالحامد من الناس قسمان : الشاكر والمثني بالصفات ، وذهب الطبري إلى أَن الشكر والحمد بمعنى واحد ، وذلك غير مرضي(٣). وحَكي عن بعض الناس أَنه قال : الشكر ثناءٌ على الله بأَفضاله وإنعامه ، والحمد ثناءٌ بأَوصافه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا أَصح معنى من أَنهما بمعنى واحد ، واستدل الطبري على أَنهما بمعنى ، بصحة قولك : الحمد لله شكراً ، وهو في الحقيقة دليل على خلاف ماذهب إليه ، لأَن قولك : شكراً ؛ إنما خصصت به الحمدَ أَنه على نعمة من النعم .

وأَجمع السبعة ، وجمهور الناس على رفع الدال من [ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ] ، ورُوي عن سفيان بن عُيَيْنة ، ورؤبة بن العجاج : [ٱلْحَمْدَ لِلَّهِ] بفتح

---

(١) رواه أصحاب الكتب الستة ، وفيه زيادة : (وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ، وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، والحاكم أيضاً حديث الترمذي : (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِين) . فجنس الذِّكْر أفضل من جنس الدعاء .

(٢) أي في غير مقابلة النعمة .

(٣) أي لأن الدليل الذي استدل به لا يشهد له ، كما قال المؤلف بعد : « وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه » . إلخ .

الدال ، وهذا على إضمار فعل ، وروي عن الحسن بن أبي الحسن ، وزيد بن علي [الحَمْدِ لله] بكسر الدال على إتباع الأول الثاني ، وروي عن ابن أبي عبلة[1] [الحَمْدُ لُله] بضم الدال واللام على إتباع الثاني الأول . قال الطبري : [الحَمْدُ لله] ثناءٌ أثنى به على نفسه ، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا به عليه ، فكأنه قال : قولوا الحمد لله ، وعلى هذا يجيءُ قولوا إياك . قال : وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه ، كما قال الشاعر :

وأعلمُ أنني سأكونُ رَمْساً إذا سار النَّواعِجُ لايسيرُ
فقال السائلون : لِمَنْ حفرتُمْ ؟ فقال المخبِرون لهم : وَزيرُ[2]

المعنى : « المحفور له وزير » ، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه ، وهذا كثير .

وقرأت طائفةٌ (رَبَّ) بالنصب ، فقال بعضهم : هو نصبٌ على المدح ، وقال بعضهم : هو على النداء ، وعليه يجيء إياك .

---

(١) هو إبراهيم بن أبي عبلة ، بن يقظان ، بن المرتحل ، أبو إسماعيل المقدسي ، تابعي، له حروف في القراءات ، واختيار خالف فيه العامة ، أخذ القراءة عن أم الدرداء الصغرى هجيمة ، قال : قرأت القرآن عليها سبع مرات . ويقال : إنه قرأ على الزهري ، وروى عنه وعن أبي أمامة ، وروى عنه مالك بن أنس ، وابن المبارك . توفي سنة ١٥٣ هـ .

(٢) جاء في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ الجزء الثالث صفحة ١٦٦ ما نصه : وقال الوزيري :

وأعلم أنني سأصيرُ مَيْتاً إذا سار النّواعِجُ لا أسيرُ
وقال السّائلون : مَنِ المُسَجّى ؟ فقال المخبرون لهم : وزيرُ

والمُسَجّى المُلْتَف في أكفانه ، والنواعِجُ الإبلُ السراع، جمع ناعجة ، والبيتان في (الجامع لأحكام القرآن) ١/١١٨ بلفظ : فقال (القائلون) ، بدلا من (المخبرون) .

و (الرَّبُّ) في اللغة المعبود ، والسيد المالك ، والقائم بالأُمور ،المصلح لما يفسد منها ، والملك – تأتي اللفظة لهذه المعاني .

فمما جاءَ بمعنى «المعبود» قول الشاعر :

أَرَبٌّ يَبُول الثَّعْلَبانِ بِرَأْسِهِ لَقد هان مَنْ بالَتْ عليه الثَعالبُ(١)

ومما جاءَ بمعنى «السيد المالك» قولهم : رب العبيد والمماليك.

ومما جاءَ بمعنى « القائم بالأُمور الرئيس فيها » قول لبيد :

وأَهلكْنَ يوماً ربَّ كِندةَ وابْنَه وربَّ معدٍّ بين خَبْتٍ وَعَرْعَر(٢)

ومما جاءَ بمعنى «الملك» قول النابغة :

تَخُبُّ إلى النُّعمان حتى تنالَه فدًى لك من ربٍّ طريفي وتَالِدي(٣)

ومن معنى « الإصلاح » قولُهم : أَديمٌ مربوبٌ . أَي مُصْلَح . قال الشاعر (٤) :

كانوا كَسالئَةٍ حمقاءَ إذْ حقَنتْ سِلاءَها في أَديم غيرِ مرْبُوب

(١) قال في القاموس : كان غاوي بن عبد العزى سادنا لصنم لبني سليم ، فبينا هو عنده إذ أقبل ثَعْلَبان يشْتَدان حتى تسنّماه ، فبالا عليه ، فقال البيت ، ثم قال : يا معشر سليم ، لا والله لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطي ولا يمنع ، فكسره ، ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما اسمك ؟ فقال : غاوي بن عبد العزى ، فقال : بل أنت راشد بن عبد ربه .

وبان من هذا أن قائل البيت غاوي بن عبد العزي ، وأن كلمة (الثَّعْلَبَان) هي تثنية (ثَعْلَب) وفي حياة الحيوان للدَّميري إثبات أنه ليس بتثنية ، وإنما هو ذكر الثعالب فتكون بضم الثاء واللام.

(٢) الخبت : المطمئن من الأرض فيه رمل ، والخبت والعرعر هنا مكانان معينان .

(٣) بعده : وكنتُ امرءاً لا أمدحُ الدهر سوقةً فلستُ على خير أتاك بحاسد

امتن عليه بمدحه ،وجعله خيراً سيق إليه لا يحسده عليه ،وهذا مما أخذ عليه والخَبَبُ ضرب من السير .

(٤) هو الفرزدق – من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ، وهو في البيت يذم قوماً ، ويشبّهُهُم ببدوية حمقاء، وضعت سمنها في زق غير صالح ففسد . وسلأت : معناها طبخت . يقال : سلأت السمن واستلأته، وذلك إذا طبخ وعولج . وحقنت معناه : صبّت : منْ حقن اللبن في السقاء يحقنه حقناً : صبّه فيه ليخرج زبده « والسِلاء بالكسر ممدود» : هو السمن .

ومن معنى «الملك» قول صفوان بنُ أُمية لأَخيه يوم حنين : «لأَن يَرُبَّنِي رجل من قريش خير من أَن يَرُبَّنِي رجل من هوازن»(١) ، ومنه قول ابن عباس في شأْن عبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان : «وإن كان لابد ، لأَن يرُبَّنِي رجل من بني عمي أَحبُّ إلي من أَن يَرُبَّنِي غيرهم»(٢) . ذكره البخاري في سورة براءة . ومن ذلك قول الشاعر :

وكنتُ امرءًا أَفْضَتْ إليكَ رِبابتِي وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي فضعت رَبُوبُ(٣)

وهذه الاستعمالات قد تتداخل ، فالرَّبُّ على الإِطلاق الذي هو ربُّ الأَرباب على كل جهة هو الله تعالى .

و[العَالَمِينَ] جمع عالَم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، يقال لجملته : عالَم ، ولأَجزائه من الإنس والجن وغير ذلك : عالَم عالَم ، وبحسب ذلك يجمع على العالمين ، ومن حيث عالم الزمان متبدل في زمان آخر حسن جمعها(٤) . ولفظة (العالَم) جمع لا واحد له من لفظه ،

(١) لما بلغ خبر هزيمة حنين إلى مكة سُرَّ بذلك قوم ، وأظهروا الشماتة ، وقال قائل منهم : ترجع العرب إلى دين آبائها . وقال آخر وهو أخ صفوان لأمه : «ألا قد بطل السحر اليوم» ، فقال له صفوان وهو يومئذ مشرك : «اسكت ، فضَّ الله فاك ، والله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن» . انظر السيرة الحلبية .

(٢) بنو عمه هم «بنو أمية» ، وغيرهم هم «بنو أسد» . فبنو أمية أقرب إلى ابن عباس نسباً من بني أسد ، وإنما قال هذا لما كان بينه وبين ابن الزبير من سوء التفاهم .

(٣) قائله علقمة بن عبدة ، ويعني بقوله أفضت إلياك ، وصلت إليك ربابتي بكسر الراء، فصرت أنت الذي تَرُبُّ أمري وتصلحه ، لما خرجت من ربابة غيرك من الملوك الذين كانوا قبلك ، فضيعوا أمري ، وهم الرَّبوب جمع ربٍّ ، وفي رواية : «ومن قبل» وستأتي عند المؤلف ، وفي اللسان : ربّه يربّه ربًّا : ملكه .

(٤) فكل قرن وجيل منها يسمى عالما أيضا ، ومن ثم حسن جمع الأجيال والقرون من كل شيء في العالمين .

وهو مأْخوذ من العلم والعلامة لأَنه يدل على مُوجِدِه . كذا قال الزَّجَّاج .

وقد تقدم القول في [الرَّحمنِ الرَّحِيم] .

واختلف القراءُ في قوله تعالى [مٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ][1] فقرأ عاصم ، والكسائي :[مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ]. قال الفارسي : وكذلك قرأها قتادة ، والأَعمش . قال مكي : ورَوى الزهري أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأَها كذلك بالأَلف ، وكذلك قرأَها أَبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وأُبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وطلحة ، والزبير رضي الله عنهم[2] .

وقرأَ بقيةُ السبعة [مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ] و أَبو عمرو منهم يُسَكِّن اللام فيقرأُ :[ملْك يوْم ٱلدِّينِ]، هذه رواية عبد الوارث عنه[3] . ورُوي عن نافع إِشْباع الكسرة من الكاف في (ملك) فيقرأُ : مَلِكِي ، وهي لغة

(١) (مالك) اسم فاعل ، و (مَلِك) صفة مشبهة أو مخَفَّف من (مالك) .

و (مالك يوم الدين) هو للاستمرار الثُّبوتي ، كما أن قوله تعالى (وَجَاعِلُ اللَّيلِ سَكَناً) هو للاستمرار التجَدُّدِي ، فالاستمرار عندهم قسمان تجدُّدي وثُبوتي .

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو ، أحد الذين حفظوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، توفي سنة (١٨) هـ .

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان ، أسلم على يد أبي بكر ، وكان واحدا من الستة أصحاب الشورى ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وقى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في غزوة أُحد . وقد قتله مروان بن الحكم سنة (٣٦) هـ .

والزبير بن العوام — أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، قتله عمرو بن جرموز غدراً سنة (٣٦) هـ .

(٣) هو عبد الوارث بن سعيد . أبو عبيدة العنبري مولاهم البصري المتوفي سنة ١٨٠ هـ ؛ قرأ القرآن وجوده على أبي عمرو بن العلاء .

للعرب ذكرها المهدوي ، وقرأ أبو حَيْوَةَ (١) (ملِكَ) بفتح الكاف وكسر اللام ، وقرأ ابن السَّمَيْفَع (٢) ، وعمر بن عبد العزيز ، والأعمش ، وأبو صالح السمان ، وأبو عبد المالك الشامي (مالِكَ) بفتح الكاف . وهذان على النداء ليكون ذلك توطئة لقوله : (إيَّاك)، ورد الطبري على هذا وقال : إن معنى السورة قولوا : الحمدُ لله ،وعلى ذلك يجيءُ (إياك) ، و (اهدنا)، وذكر أيضاً أن من فصيح كلام العرب الخروج من الغيبة إلى الخطاب ، وبالعكس ، كقول أبي كبير الهذلي (٣) :

ياوَيْح نفسي كان جدَّةُ خالد وبياضُ وَجْهكَ للتُّراب الأَعفَرِ

وكما قال لبيد :

قامتْ تشكي إلىَّ النفسُ مُجْهِشَةً وقدْ حَمَلْتُكِ سبعاً بعْدَ سَبْعينا(٤)

(١) حَيْوَة بنُ شُريح بن يزيد الحضرمي ، روى القراءة عن أبيه شريح ، وروى عنه البخاري توفي سنة (٢٢٠) هـ .

(٢) بالفاء وفتح السين محمد بن عبد الرحمن بن السميفع ، أبو عبد الله اليماني ، له اختيار في القراءة شاذ .

(٣) شاعر صحابي اشتهر بكنيته، واسمه «عامر بن الحُليس»، أورده الحافظ بن حجر في القسم الأول من الإصابة ، ولم يذكر اسمه،وإنما ذكر كُنيته ، قاله صاحب «خزانة الأدب» ، والشاهد في البيت وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب واضح بقوله : «وبياض وجهك» بعد قوله : «جدة خالد» وروي «جلدة خالد» .

(٤) قال لبيد بن ربيعة حين بلغ سبعاً وسبعين سنة :

قامت تشكّي إلي النفس مجهشةً وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فإن تُزادي ثلاثاً تبلغي أملا وفي الثّلاث وفاءٌ للثمانينـــا

فلما بلغ مائة وعشراً قال :

أليس في مائة قد عاشها رجل وفي تكامُلِ عَشْرٍ بعدَها عُمُرُ ؟

فلما جاوزها قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟

والشاهد في قوله : «وقد حملتك» بعد ضمير الغيبة في «مجهشة» .

وكقول الله تعالى : [حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ][١] وقرأ يحيى بن يعمر ، والحسنُ بن أبي الحسن ، وعليُّ بن أبي طالب : [مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ] على أنه فعل ماض ، وقرأ أبو هريرة (مليك) بالياء وكسر الكاف[٢] ، وقال أبو علي : «ولَمْ يُمِلْ أحدٌ من القراء ألف (مالك) ، وذلك جائز إلا أنه لا يقرأ بما يجوز إلا أن يأتي بذلك أثر مستفيض»[٣].

و(المُلك والمِلك) بضم الميم وكسرها ، وما تصرف منهما راجعٌ كله إلى (ملَك) بمعنى شَدَّ وضبط ، ثم يختص كل تصريف من اللفظة بنوع من المعنى . يدلك على الأصل في (ملك) قولُ الشاعر :

مَلَكْتُ بها كفِّي فأنْهَرْتُ فَتْقَها[٤] . . . .

وهذا يصف طعنةً فأراد (شَدَدْتُ) . ومن ذلك قولُ أوس بن حجر :

فَمَلَّكَ باللِّيْطِ الذي تحتَ قِشْرِها كَغِرْقيءِ بَيْضٍ كَنَّهُ القَيْضُ مِنْ عَلِ[٥]

أراد (شَدَّدَ) ، وهذا يصف صانع قوس ترك مِنْ قشرها ما يحفظ قلب

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (يونس) — والآية خروج من الخطاب إلى الغيبة على عكس ما في البيتين السابقين .

(٢) يتحصل مما ذكره : أن القراءات ثمان (مالك) بالألف مع كسر الكاف ونصبها و(ملك) بحذف الألف وكسر الكاف أو نصبها ، وبتسكين اللام ، وبإشباع الحركة لنافع ، وقرأ أبو هريرة : (مليك) ، وقرأ علي بن أبي طالب والحسن البصري : (مَلَكَ) على أنه فعل ماض .

(٣) قال (ح) : وقرأ (مالك) بالإمالة البليغة يحيى بنُ يعمر ، وأيوب السختياني ، وقرأ بينَ بَيْنَ قتيبة بن مهران عن الكسائي . وجهل النقلَ في قراءة الإمالة أبو علي الفارسي فقال : لم يُمل أحد من القراء ألف (مالك) . انتهى .

(٤) هو لقيس بن الخطيم وتمام البيت : يُرى قائمٌ مِنْ دونها ما وراءها .

(٥) اللِّيْطُ : قِشْرُ كل شيء فيه صلابة ومتانة ، والغرقيء : القشرةُ الملتصقة ببياض البيض . والقَيْضُ : القشرة العليا اليابسة على البيضة . (كنَّه) ستره ، أو حفظه وحماه .

القوس ، و «الذّي» مفعولٌ ، وليس بصفة لِلَّيْطِ . ومن ذلك قولهم: «إملاكُ المرأة وإملاك فلان» إنما هو ربط النكاح ، كما قالوا : عُقْدَةُ النكاح ، إذ النكاح موضع شدٍّ وَرَبْطٍ ، فالمالك للشيء شادٌّ عليه ، ضابط له ، وكذلك الملك .

واحتج من قرأ (مِلِك) بأن لفظة (مِلِك) أعمُّ من لفظة (مالك) ، إذ كل مِلِكٍ مالكٌ ، وليس كل مالكٍ ملكًا ، والملك الذي يدبِّر المالك في ملكه حتى لايتصرف إلا عن تدبير الملك ، وتتابع المفسرون على سرد هذه الحجة ، وهي عندي غيرُ لازمة ، لأنهم أخذوا اللفظتين مطلقتين ، لا بنسبة إلى ماهو المملوك وفيه الملك ، فأما إذا كانت نسبة الملك هي نسبة المالك فالمالك أبلغ — مثال ذلك أن نقدر مدينة آهلة عظيمة ، ثم نقدر لها رجلا يمْلكها أجمع ، أو رجلا هو ملكها فقط ، إنما يملك التدبير والأحكام ، فلا شك أن المالك أبلغ تصرُّفاً وأعظم ، إذ إليه إجراءُ قوانين الشرع فيها ، كما لكُلِّ أحد في ملكه ، ثم عنده زيادة التملك ، وملك الله تعالى ليوم الدين هو على هذا الحد ، فهو مالكه وَمَلِكُه ، والقراءتان حسنتان .

وحكى أبو علي في حجة من قرأ : [مالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ] أن أول من قرأ [ملِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ] مروان بن الحكم ، وأنه قد يدخل في المُلْك مالا يدخل في المِلْك ، فيقال : مالك الدنانير والدراهم والطير والبهائم ، ولا يقال : مَلِكُها ، و (مالك) في صفة الله تعالى يعم ملك أعيان الأشياء ، وملك الحكم فيها . وقد قال الله تعالى : [قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ][١].

(١) من الآية (٢٦) من سورة (آل عمران) .

قال أَبو بكر : الأَخبار الواردة تبطل أَن أَول من قرأَ : [مَلِكِ يَوْم الدِّين] مروان بن الحكم ، بل القراءَة بذلك أَوسع ، ولعل قائل ذلك أَراد أَنه أَول من قرأَ في ذلك العصر ، أَو البلد ونحوه(١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي الترمذي أَن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأَبا بكر ، وعمر ، رضي الله عنهما قَرَؤوا : [مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ] بغير أَلف ، وفيه أَيضاً أَنهم قَرَؤوا [مَالِكِ يَوْمِ الدِّين] بـأَلف .

قال أَبو بكر : والاختيار عندي [مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ] . لأَن المِلْك والمُلْك يجمعهما ، معنى واحد ، وهو الشدُّ والربط ، كما قالوا ملكت(٢) العجين أَي شددته ، إلى غير ذلك من الأَمثلة ، والمُلك أَفخم وأَدخل في المدح ، والآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله سبحانه ، فالمعنى أَنه ملكُ الملوك في ذلك اليوم ، لامُلك لغيره ، قال : والوجه لمن قرأَ مالك أَن يقول : إن المعنى أَن الله تعالى يملك ذلك اليوم أَن يأْتي به ، كما يملك سائر الأَيام ، لكن خصصه بالذكر لعظَمِه في جمعه وحوادثه . قال أَبو الحسن الأَخفش(٣) : «يقال مَلِكٌ بيّن المُلْك بضم الميم ،

(١) إشارة إلى الرد على ابن شهاب الزهري القائل بذلك كما في ابن (ك) ، والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وسلم ومتواترتان ، والله سبحانه وتعالى مَلِكٌ ، ومَالِكٌ [قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ – قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ إلَهِ النَّاسِ – إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ – إنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ – لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ؟ لله الوَاحِدِ القَهَّار – قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَة رَبِّي إذا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاقِ – هُوَ الله الَّذي لا إلَهَ إلا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ] ، فكل منهما راجح في المعنى وفي اللفظ ، والله أعلم .

(٢) بالتخفيف والتشديد ومعناه : أنعمت عجنه ، ويقال : أملكته أيضاً .

(٣) هو سعيد بن مسعدة البصري .

ومالك بيّن المَلك والمِلك بفتح الميم وكسرها »(١) ، وزعموا أن ضم الميم لغةٌ في هذا المعنى . وروى بعض البغداديين : « لي في هذا الوادي مِلْك ومَلْك ومُلْك» بمعنى واحد .

قال أَبو علي : حكي أَبو بكر بن السراج ، عن بعض من اختار القراءة بمَلك ، أَن الله سبحانه قد وصف نفسه بأَنه مالك كل شيءٍ بقوله : [رَبِّ الْعالَمينَ] ، فلا فائدة في قراءة من قرأَ (مالك) لأَنها تكرير. قال أَبو علي : ولا حجة في هذا ، لأَن في التنزيل أَشياءَ على هذه الصورة ، تقدَّم العامُّ ثم ذُكر الخاصُّ كقوله تعالى : [هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ](٢) . فالخالق يعُمُّ ، وذكر المصوّر لما في ذلك من التنبيه على الصنعة ووجوه الحكمة .وكما قال تعالى : [وَبالآخرَة هُمْ يُوقنُونَ] بعد قوله : [الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بالْغَيْب](٣) والغيبُ يعُمّ الآخرة وغيرها . ولكن ذكرها لعظمها ، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والردِّ على الكفرة الجاحدين لها . وكما قال الله تعالى : [الرحْمٰن الرحيم] فذكر الرحمن الذي هو عامٌّ ، وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى : [وكانَ بالمُؤْمنينَ رحيماً](٤) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَيضاً فإن الربَّ يتصرف في كلام العرب بمعنى المَلك كقوله :

---

(١) قرئ قوله تعالى : [قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمُلْكِنَا] بالفتح والكسر والضم .

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (الحشر) .

(٣) (الذين يؤمنون بالغيب) : من الآية (٣) — و (بالآخرة هم يوقنون): من الآية (٤) من سورة البقرة .

(٤) من الآية (٤٣) من سورة (الأحزاب) .

(ومِنْ قبلُ ربَّتْني فَضعْتُ رَبُوبُ)(١) . وغير ذلك من الشواهد ، فتنعكس الحجة على من قرأ (مالك يوم الدين) .

والجر في (ملكِ) أو (مالكِ) على كلتا القراءتين هو على الصفة للاسم المجرور قبله ، والصفاتُ تجري على موصوفيها إذا لم تقطع عنهم لذمٍّ أو مدح ، والإضافة إلى (يوم الدين) في كلتا القراءتين من (ياسارق الليلة أهل الدار) ، اتسع في الظرف فنصب نصب المفعول به ، ثم وقعت الإضافة إليه على هذا الحد ، وليس هذا كإضافة قوله تعالى : [وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ](٢) ، لأن الساعة مفعول بها على الحقيقة ، أي أنه يعلم الساعةَ وحقيقتها ، فليس أمرها على ما الكفار عليه من إنكارها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأما على المعنى الذي قاله ابن السراج ، من أن معنى [مالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ] أنه يملك مجيئه ووقوعه ، فإن الإضافة إلى اليوم كإضافة المصدر إلى الساعة ، لأن اليوم على قوله مفعول به على الحقيقة ، وليس ظرفاً اتسع فيه .

قال أبو علي : ومن قرأ [مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ] ، فأضاف اسم الفاعل إلى الظرف المتسع فيه ، فإنه حذف المفعول من الكلام للدلالة عليه تقديره: مالك يوم الدين الأحكامَ . ومثل هذه الآية في حذف المفعول به مع

---

(١) تقدم الكلام على هذا البيت ، والرواية السابقة : (وَقَبْلَكَ ربَّتْني فضعتُ رَبُوب) انظر ص ١٠٢ .

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (الزخرف) .

الظرف قوله تعالى : [فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ](١) فنصب الشهر على أنه ظرف ، والتقدير فمن شهد منكم المصر في الشهر ، ولو كان الشهر مفعولا للزم الصوم للمسافر ، لأن شهادته للشهر كشهادة المقيم ، وشهد يتعدى إلى مفعول ، يدلك على ذلك قولُ الشاعر :

وَيَوْماً شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِراً . . . .(٢)

و(الدِّين) لفظ يجيءُ في كلام العرب على أنحاءٍ : منها «الملة» . قال الله تعالى : [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ](٣) إلى كثير من الشواهد في هذا المعنى . وسمي حظ الرجل منها في أقواله وأعماله واعتقاداته « ديناً » فيقال : «فلانٌ حسن الدين» . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه في قميص عمر الذي رآه يجره ، (قيل : فما أوَّلْتَهُ يا رَسول الله؟ قال : الدينُ)(٤) . وقال علي بن أبي طالب : «مَحَبَّةُ العلماءِ دينٌ يُدان به» . ومن أنحاءِ اللفظة الدِّينُ بمعنى : «العادة» .

فمنه قول العرب في الريح : «عَادَتْ هَيْفُ لأَدْيَانِهَا »(٥) .

(١) من الآية (١٨٥) من سورة (البقرة). وشهد لها ثلاثة معان : الإخبار ، نحو شهد فلان عند الحاكم بكذا ، أي أخبره به — والعلم، نحو : [وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد] — والحضور، نحو : [فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ] ، والمراد به الاحتراز من المسافر ، فإنه لا يجب عليه الصوم ، فهي هنا بمعنى حضر لا بمعنى شاهد ورأى ، إذ لا دلالة للآية على اعتبار الرؤية في الصوم ، وإنما الذي يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (صوموا لرؤيته) الخ .

(٢) تمامة : (قليلاً سوى الطَّعْن النهال نَوَافِلُه)، ذكر الأمير على المغني أنه لرجل من بني عامر ، ولم يقف على قائله ، والنهال صفة تطلق على الرماح . والنوافل الغنائم ، وهي مرفوعة بقليلا . وقوله :شهدناه: أي شهدنا فيه . ويرى المرصفي في شرح « الكامل » للمبرد : أن صواب الرواية (سوى طعن النهال) بحذف الألف واللام .

(٣) من الآية (١٩) من سورة (آل عمران) .

(٤) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري في مبحث الرؤيا .

(٥) ريح حارة تيبّس النبات ، وتعطش الحيوان ، وتنشف المياه ، وما ذكره المؤلف هو مثل من أمثال العرب .

ومنه قول امرئ القيس :

كدِينِكِ منْ أُمِّ ٱلْحُويْرث قبْلَهَا . . . .(١)

ومنه قول الشاعر :

. . . . أَهَذَا دِينُهُ أَبَداً وديني ؟(٢)

إلى غير ذلك من الشواهد ، يقال : دين ودينه أي عادة .

ومن أنحاءِ اللفظة الدين «سيرة الملك وملكته»(٣) ومنه قول زهير :

لئنْ حَلَلْتَ بجَوٍّ في بني أَسَد في دين عَمْرو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ(٤)

أَراد في موضع طاعة عمرو وسيرته ، وهذه الأَنحاءُ الثلاثة لا يفسر بها قوله : [مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ] .

ومن أنحاءِ اللفظة الدِّين : «الجزاءُ» ، فمن ذلك قول الفند الزماني(٥):

وَلَمْ يَبْقَ سوى ٱلْعُــدْوَا ن دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُــوا

أَي جازيناهم .

---

(١) هذا من معلقة امرئ القيس ، وتمامه : وَجَارَتِهَا أم الرَّبَابِ بِمَأسل

(٢) أوله : تقول إذا دَرَأْتُ لَها وَضِيني . والوَضِينُ : بطانٌ عريض منسوج يشد به الرجل على البعير . وقائل البيت المثقب العبدي يذكر ناقته ، وبعد البيت :

أَكُلَّ الدَّهْر حِلٌّ وارتِحَالُ ؟ أمَا يُبْقي عَليَّ وَمَا يَقِينِي؟

(٣) يريد مملكته .

(٤) قائله زهير بن أبي سُلمى المزني ، من جملة قصيدة طويلة قالها لما استاق بعض بني أسد إبله وراعيه يسارا . و (فدك) قرية بخيبر ، وقيل : بل قرية بناحية الحجاز فيها عين ونخيل .

(٥) اسمه أشهل بن شيبان بن ربيعة ، وهو شاعر جاهلي ، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين وقبل البيت :

فَلَمَّا صرَّح الشَّــرُّ فأمسى وهــو عُرْيانُ

ولمْ يبْقَ سِوى العُدْوَا نِ دِنَّاهُمْ كما دَانُوا

قال ذلك في حرب البسوس .

ومنه قول كعب ابن جعيل[1] :

إِذَا مَارَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ ودِنَّاهُمْ مِثْلَ مَا يَقْرِضُونَا

ومنه قول الآخر[2] :

واعْلَمْ يَقيناً أَنَّ مُلْكَكَ زَائلٌ وَاعْلَمْ بِأَنَّ كَمَا تَدينُ تُدَانُ

وهذا النحو من المعنى هو الذي يصلح لتفسير قوله تعالى : [مَلِكِ يوْم ٱلدِّينِ] ، أي يوم الجزاءِ على الأَعمال والحساب بها ، كذلك قال ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن جريج ، وقتادة ، وغيرهم ؛ قال أبو علي : ويدل على ذلك قوله تعالى : [الْيوم تُجْزَى كُلُّ نفْس بمَا كَسَبتْ][3] ، [الْيَوْم تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ][4] .

وحكى أَهل اللغة : «دِنْتُه بفعله دَيْناً » بفتح الدال ، و «دِيناً» بكسرها : جزيته ، وقيل : الدَّيْنُ : المصدر ، والدِينُ بكسر الدال : الاسم . وقال مجاهد: [ملِكِ يوْمِ ٱلدِّينِ] أي يوم الحساب مدينين محاسبين ، وهذا عندي يرجع إلى معنى الجزاء .

ومن أَنحاءِ اللفظة الدين : «الذل» ، والمدين : العبد ، والمدِينة : الأَمَةُ ، ومنه قول الأَخطل : [5]

ربَتْ ورَبا في حجْرها ابنُ مدِينَة تَراهُ علَي مِسْحاتِهِ يَتَركَّلُ

---

(١) هو ابن قُمَيْر (تصغير قَمَرْ) بن ثعلبة . شاعر إسلامي ، كان في زمان معاوية رضي الله عنه.

(٢) في مجاز القرآن لأبي عبيدة منسوب إلى ابن نفيل ، وفي لسان العرب : — قال خويلد ابن نفيل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغساني ، وكان قد اغتصب ابنته :

ياحَارُ أيقِنْ أنّ ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تدان

(٣) من الآية (١٧) من سورة (غافر) .

(٤) من الآية (٢٨) من سورة (الجاثية) .

(٥) هو غياث بن غوث التغلبي النصراني ، أبو مالك ، كان شاعراً موالياً لبني أمية ، والمسحاة المجرفة . والجمع المساحي .

أَي ابن أَمَة ، وقيل : بل أَراد ابن مدينةٍ من المُدُن ، الميم أَصلية ، ونسبه إليها ، كما يقال : ابنُ ماءٍ وغيره ، وهذا البيت في صفة كرمة ، فأَراد أَنَّ أَهل المدن أَعلم بفلاحة الكرم من أَهل بادية العرب .

ومن أَنحاءِ اللفظة ، الدين : «السِّياسة» ، والديَّانُ «السَّائس» ، ومنه قول ذي الإصبع(١) :

لاهِ ابنُ عَمِّك لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ يوْماً ، ولا أَنْت دَيَّاني فَتَخْزُوني

ومن أَنحاءِ اللفظة الدين : «الحال» ، قال النضر بن شميل(٢) : سأَلت أَعرابياً عن شيءٍ فقال لى : و «لو لقيتني على دِين غير هذه لأَخبرتلك» . ومن أَنحاءِ اللفظة ، الدين : «الداءُ» عن اللحياني(٣) وأَنشد :

يَادِينَ قَلْبِكَ مِنْ سَلْمَى وَقَدْ دِينَا(٤)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

أَما هذا الشاهد فقد يُتَأَول على غير هذا النحو ، فلم يبق إلا قول اللحياني .

وقوله تعالى : [إِيَّاكَ نَعْبُدُ] نطق المؤْمن به إقرار بالرُّبوبية ، وتذَلُّل ،

---

(١) هو ذو الإصبع العدواني — وديّاني : سائسي — فتخزوني : فتسوسني .

(٢) هو أبو الحسن محب الخليل ، وأُخذ عنه ، عُرف بالحفظ ، ونقد الرواة وأرباب السير وله كتاب : « الصفات » ، كان ثقة ، صاحب فقه وشعر ورواية للحديث ، ومعرفة بأيام العرب . توفي سنة (٢٠٤) هـ .

(٣) هو أبو الحسن علي بن مبارك ، كان من أكابر أهل اللغة ، أخذ عنه القاسم بن سلام ، ولقب باللحياني لعظم لحيته وكبرها ، وأخذ عن الكسائي ، وأبي زيد ، وأبي عمرو الشيباني ، وله النوادر المشهورة .

(٤) لم نقف على قائله ، ويشبهه قول الأشهب بن رميلة يمدح اسحق بن البراء الأنصاري :

ألا يا دينَ قَلْبِكَ من سُلَيْمى كما كنت قد تلقى من سُعادا

إلى آخر القصيدة . ومعنى : (يادين قلبك) ياداء قلبك ، أو ياعادة قلبك . ومعنى (وقد دينا) : أي « حمل على ما يكره » .

وتحقيق لعبادة الله ، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك ، وقدم المفعول على الفعل اهتماماً(١) ، وشأن العرب تقديم الأهم . ويذكر أن أعرابياً سبَّ آخر ، فأعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعني ، فقال الآخر : وعنك أُعْرِض ، فقدَّمَا الأَهم ، وقرأ الفضل الرقاشي (٢) (أَياك) بفتح الهمزة ، وهي لغة مشهورة . وقرأ عمرو بن فائد : (إِيَاكَ) بكسر الهمزة وتخفيف الياء ، وذلك أنَّه كره تضعيف الياء لِثِقَلِهَا ، وكون الكسرة قبلها وهذا كتخفيف (رب) و (إن)(٣) . وقرأ أبو السَوَّار الغنوي(٤) (هَياكَ نَعْبُدُ ، وَهياكَ نَسْتَعِينُ) بالهاءِ وهي لغة(٥) .

واختلف النحويون في (إِيَّاكَ) ، قال الخليل : (إِيَّا) اسم مضمر ، أُضيف إلى ما بعده للبيان لا للتعريف ، وحكى عن العرب : «إذا بلغ الرجل الستين فإِيَّاه وإيا الشَّواب»(٦) ، وقال المبرد : (إيا) اسم مبهم ، أُضيف للتخصيص لا للتعريف . وحكى ابن كيسان عن بعض الكوفيين : أَن (إِيَّاكَ) بكماله اسم مضمر ، ولا يعرف اسم مضمر يتغير آخره

---

(١) وللاختصاص أيضاً ، إذ العلل والمقتضيات لا تتزاحم ولا تتخاصم .

(٢) هو ابن عبد الصمد بن الفضل أبو العباس الرقاشي البصري الشاعر المتوفي تقريباً سنة (٢٠٠) هـ . كان هو وأبو نواس يتهاجيان .

(٣) لا عبرة بذلك فهي قراءة شاذة مردودة .

(٤) بفتح السين وتشديد الواو ، عربي فصيح ، أخذ عنه أبو عبيدة فمن دونه ، كما في بغية الوعاة .

(٥) استدل كل من القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١/ ١٢٧ ، وابن كثير في تفسيره ١/ ٤٧ — وصاحب الكشاف في تفسيره ١/ ٨ — استدل كل منهم بقول الطفيل الغنوي :

فهيَّاك والأمر الذي إنْ تراحبَتْ مواردُه ضاقَتْ عليكَ مصادِرُه

(٦) إضافة (إيَّا) إلى الظاهر نحو (وإيا الشواب) ونحو(دعني وإيا خالد) —نادر أو ضرورة.

غيره . وحكي عن بعضهم أنه قال : الكاف والهاءُ والياءُ هي الاسم المضمر ، لكنها لا تقوم بأَنفسها ، ولا تكون إلا متصلات ، فإذا تقدمت الأَفعال جعل (إيا) عماداً لها ، فيقال : (إياك ، وإياه ، وإياي) . وإذا تأَخرت اتصلت بالأَفعال واستغني عن (إيا) . وحكي عن بعضهم : أن (إيا) اسم مبهم يكنى به عن المنصوب ، وزيدت الكاف والهاءُ تفرقة بين المخاطب والغائب والمتكلم ، ولا موضع لها من الإعراب ، فهي كالكاف في ذلك ، وفي أَرأَيتك زيداً ما فعل .

و(نعبد) معناه : نُقيم الشرع والأَوامر مع تذلُّل واستكانة ، والطريق المذَلَّلُ يقال له مُعَبّد ، وكذلك البعير ، وقال طرفة :

تُبَاري عِتَاقاً نَاجِيات وأَتْبعتْ وَظِيفاً وَظِيفاً فَوْقَ مَوْر مُعبَّد[(١)]

وتكررت (إياك) بحسب اختلاف الفعلين ، فاحتاج كل واحد منهما إلى تأْكيد واهتمام .

و(نستعين) ، معناه نطلب العون منك في جميع أُمورنا ، وهذا كله تبرؤ[(٢)] من الأَصنام ، وقرأَ الأَعمش ، وابن وثّاب ، والنخْعي : (نِسْتَعين) بكسر النون ، وهي لغة لبعض قريش في النون والتاءِ والهمزة ، ولا يقولونها في ياءِ الغائب ، وإنما ذلك في كل فعل سمي فاعله فيه زوائد ، أَو فيما يأْتي من الثلاثي على فَعِل يَفْعَل بكسر العين في الماضي وفتحها في المستقبل ، نحو علِم وشرِب ، وكذلك فيما جاءَ معتل العين نحو خال يخال ، فإنهم يقولون : تِخال وإخال . و (نستعين) أَصله نَسْتَعْوِنُ . نقلت حركةُ الواو إلى العين ، وقلبت ياءً لانكسار ما قبلها .

(١) المَوْرُ : الطريق ، والناجيات : السراع ، وطرفة هو ابن العبد الشاعر المشهور .
(٢) وفي بعض النسخ : تبرٍّ .

والمصدر : (استعانة) ، أَصله (استعوان) ، نُقلت حركة الواو إلى العين ، فلما انفتح ما قبلها وهي في نية الحركة انقلبت أَلفاً ، فوجب حذف أَحد الأَلفين الساكنين ،فقيل : حذفت الأُولى لأَن الثانية مجلوبة لمعنى فهي أَولى بالبقاءِ ، وقيل : حذفت الثانية لأَن الأُولى أَصلية فهي أَولى بالبقاءِ ، ثم لزمت الهاءُ عوضاً من المحذوف .

وقوله تعالى (اهْدِنَا) رغبة ، لأَنها من المربوب إلى الرب ، وهكذا صيغة الأَمر كلها ، فإذا كانت من الأَعلى فهي أَمر .

والهداية في اللغة الإرشاد[1] ، لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد ، وكلها إذا تأَملت رجعت إلى الإرشاد .

فالهُدى يجيءُ بمعنى: «خلق الإيمان في القلب» ، ومنه قوله تعالى : [أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ][2] وقوله تعالى : [وَاللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلَامِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ][3] . وقوله تعالى : [إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ][4] . وقوله تعالى : [فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ][5] . قال أَبو المعالي: فهذه آيات لايتجه حملها إلا على خلق الإيمان في القلب ، وهو محض الإرشاد .

(١) الهداية تارة تنسب إلى الله تعالى ، وتارة إلى رسوله ، وتارة إلى القرآن الكريم ، ثم هي تارة تثبت ، وتارة تنفى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا أُثبتت فهي بمعنى الدلالة والإرشاد، وإذا نفيت فهي بمعنى التوفيق والإيصال ، لأن ذلك من شأن الله تبارك وتعالى وحده ، وهي في المعنى راجعة إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت في الكلام .

(٢) من الآية (٥) من سورة (البقرة) .

(٣) الآية (٢٥) من سورة (يونس) .

(٤) من الآية (٥٦) من سورة (القصص) .

(٥) من الآية (٢٥) من سورة (الأنعام) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد جاء الهدى بمعنى «الدعاء» . ومن ذلك قوله تعالى: [وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ][١] ، أي داع ، وقوله تعالى: [وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ][٢] وهذا يبين فيه الإرشاد ، لأنه ابتداءُ إرشادٍ ، أجاب المدعو أو لم يُجب .

وقد جاء الهدى بمعنى «الإلهام» ، من ذلك قوله تعالى : [أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى][٣] ، قال المفسرون : معناه : ألهم الحيوانات كلَّها إلى منافعها . وهذا أيضاً يبين فيه معنى الإرشاد .

وقد جاء الهدى بمعنى «البيان» . من ذلك قوله تعالى : [وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ][٤] ، قال المفسرون : معناه : بيَّنَّا لهم ، قال أبو المعالي : معناه : دعوناهم . ومن ذلك قوله تعالى : [إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى][٥] أي علينا أن نبين ، وفي هذا كله معنى الإرشاد ، قال أبو المعالي : وقد ترد الهداية والمراد بها «إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان ، والطرق المفضية إليها» . من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين : [فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۔ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ][٦] ، ومنه قوله تعالى : [فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ][٧] ، معناه : فاسلكوهم إليها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

(١) من الآية (٧) من سورة (الرعد) .
(٢) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى) .
(٣) من الآية (٥٠) من سورة (طه) .
(٤) من الآية (١٧) من سورة (فصلت) .
(٥) الآية (١٢) من سورة (الليل) .
(٦) من الآية (٤) والآية (٥) من سورة (محمد) .
(٧) الآية (٢٣) من سورة الصافات ، والكلمة مستعملة على سبيل التهكم والاستهزاء .

وهذه الهداية بعينها هي التي تقال في طرق الدنيا ، وهي ضد الضلال ، وهي الواقعة في قوله تعالى :[اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ]. على صحيح التأويلات ، وذلك يبين من لفظ الصراط ، و(الهدى) لفظ مؤنث ، وقال اللحياني : هو مذكر ، قال ابن سيده[١] : و (الهدى) اسم من أسماء النهار[٢] ، قال ابن مقبل :

حَتَّى استَبَنْتُ الهُدى والبِيدُ هَاجِمَةٌ يَخْشَعْنَ في الآل غُلْفاً أَوْ يُصَلِّينَا[٣]

و (الصِّرَاطُ) في اللغة الطريق الواضح ، فمن ذلك قول جرير :

أَميرُ المُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاط ـ إِذَا ٱعْوَجَّ ٱلْمَوَارِدُ ـ مُسْتَقِيمِ[٤]

ومنه قول الآخر :

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الصِّراطِ ٱلْوَاضِحِ[٥]

وحكى النقاش : الصراط : الطريق بلغة الروم ، وهذا ضعيف جداً .

واختلف القراءُ في الصِّراط . . .

فقرأ ابن كثير ، وجماعةمن العلماءِ : (السراط) بالسين ، وهذا هو أَصل اللفظة . قال الفارسي : ورُويت عن ابن كثير بالصاد ، وقرأ باقي السبعة ـ غيرحمزة ـ بصاد خالصة ، وهذا بدل للسين بالصاد لتناسبها

(١) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي ، كان إماما في اللغة ، وجمع في ذلك « المحكم » و « المخصص » توفي سنة (٤٥٨) هـ .

(٢) لأن الناس يهتدون فيه لمعا شهم وجميع مآربهم .

(٣) هو لتميم بن أبيّ بن مقبل ، من بني العجلان ، وكان جاهلياً إسلامياً ، رثى عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٤) جمع (مورد) أو (موردة) وهي مواضع الورود ، والطرق الجادة ، والمؤدية إلى الماء .

(٥) البيت غير منسوب ، وقد ذكرة القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » ١٢٨/١ والطبري في تفسيره ٥٧/١ .

مع الطاءِ في الإِطباق فيحسنان في السمع(١) ، وحكاها سيبويه لغة . قال أَبو علي : رُوي عن أَبي عمرو «السين والصاد» ، «والمضارعة بين الصاد والزاي» ، رواه عنه العريان بن أبي سفيان ، وروى الأَصمعي عن أَبي عمرو أَنه قرأَها بزاي خالصة . قال بعض اللغويين : ما حكاه الأَصمعي في هذه القراءة خطأٌ منه ، إنما سمع أَبا عمرو يقرأُ بالمضارَعَة فتوهمها زاياً ، ولم يكن الأَصمعي نحوياً فيُؤْمَنُ على هذا ، وحكى هذا الكلامَ أَبو علي عن أَبي بكر بن مجاهد ، وقرأَ حمزة بين «الصاد والزاي» ، وروي أَيضاً عنه أَنه إنما يلتزم ذلك في المعرفة دون النكرة . قال ابن مجاهد : وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين ، وذلك أَصعب على اللسان ، وليس بحرف يبنى عليه الكلام ، ولا هو من حروف المعجم ، ولست أَدفع أَنه كلام فصحاء العرب ، إلا أَن الصاد أَفصح وأَوسع .

وقرأَ الحسن والضحاك (اهْدِنَا صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) دون تعريف ، وقرأَ جعفر بن محمد الصادق : (اهْدِنَا صراطَ المسْتَقِيم)(٢) بالإِضافة ، وقرأَ ثابت البناني (بصِّرنا الصراط) .

واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له الصراط في هذا الموضع ،

---

(١) (الصراط) بالصاد هي لغة قريش ، وبها كتبت في المصحف الإمام — وعامة العرب يجعلونها سيناً ، والزاي لغة حكاها الأصمعي ، وهي لغة عذرة وكعب ، وبالإشمام قرأ حمزة وهي لغة قيس ، قال ابن مجاهد : وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين ، وليس بحرف يبنى عليه الكلام ، ولا هو من حروف المعجم ، ولست أدفع أنه من كلام فصحاء العرب إلا أن الصاد أفصح ، واعلم أن إبدال الصاد سيناً ليس على إطلاقه ،وإنما يكون مع حروف معلومة وهي : « الحاء ، والطاء ، والعين ، والقاف »،بشرط أن يكون أحد هذه الحروف متأخراً ، والصاد أو السين متقدماً ، نص على ذلك بعض المحققين .

(٢) أي صراط الدِّين المستقيم .

وما المراد به ؟ فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : الصراط المستقيم هنا القرآن . وقال جابر : هو الإسلام ، يعني الحنيفية [١] ، وقال : سعته ما بين السماء والأَرض . وقال محمد بن الحنفية : هو دين الله الذي لايُقْبل من العباد غيره . وقال أَبو العالية [٢] : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحباه أَبو بكر وعمر [٣] ، وذُكِر ذلك للحسن بن أَبي الحسن فقال : صدق أَبو العالية ونصح .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويجتمع من هذه الأَقوال كلها أَن الدعوة إنما هي في أَن يكون الداعي على سَنَن المُنْعَم عليهم من النبيئين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، في معتقداته ، وفي التزامه لأَحكام شرعه ، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام ، وهو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه [٤] . وهذا الدعاء إنما أُمر به المؤْمنون وعندهم المعتقدات ، وعند كل واحد بعض الأَعمال ، فمعنى قولهم : «اهدنا» فيما هو حاصل عندهم : طلب التثبيت والدوام . وفيما ليس بحاصل إما من جهة الجهل به ، أَو التقصير في المحافظة عليه : طلب الإرشاد إليه . وأَقول : إن كل داع به فإنما يريد الصراط بكماله في أَقواله ، وأَفعاله ،ومعتقداته ، فيحسن على هذا أَن يدعو في الصراط على الكمال مَنْ عنده بعضُه ،

(١) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم ، وصحّحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : هو دين الإسلام ، وهو أوسع مما بين السماء والأرض .

(٢) أبو العالية اثنان ، والمراد به في هذا المقام رفيع الرياحي .

(٣) يعني أن الصراط المستقيم هو طريق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر ، وهذا قوي في المعنى ، إلا أن تسمية أشخاصهم طريقاً فيه تجوز .

(٤) يعني أن من قال هذه الأقوال واحدٌ ، وليس بينها منافاة ولا مخالفة .

ولا يتجه أن يراد باهدنا في هذه الآية : اخلق الإيمان في قلوبنا . لأنها هداية مقيدة إلى صراط . ولا أن يراد بها ادعنا . وسائر وجوه الهداية يتجه . و (الصراط) نصب على المفعول الثاني ، و (المستقيم) : الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، والمراد أنه استقام على الحق ، وإلى غاية الفلاح ودخول الجنة ، وإعلال (مستقيم) أن أصله (مُسْتَقْوِم) . نقلت الحركة إلى القاف ، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

و [صِرَاطَ الَّذِينَ] بدلٌ من الأول . وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن الزبير : (صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) ، و(الذين) جمع الذي ، وأصله (لذِ) ، حذفت منه الياء للتنوين ، كما تحذف من عمٍ وقاضٍ ، فلما دخلته الألف واللام ثبتت الياء ، والذي اسم مبهم ناقص محتاج إلى صلة وعائد ، وهو مبني في إفراده وجمْعِه ، معرب في تثنيته ، ومن العرب[١] من يُعرب جَمْعَهُ فيقول في الرفع : (اللذون) ، وكتب الذي بلام واحدة في الإفراد والجمع تخفيفاً لكثرة الاستعمال .

واختلف الناس في المشار إليهم بأنه أنعم عليهم ، فقال ابن عباس ، وجمهور المفسرين : إنه أراد صراط النبيئين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين . وانتزعوا ذلك من قوله تعالى : [وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ، وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ، وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ،

(١) هم بنو هذيل ، فيقولون في الرفع : (اللذون) ، وفي النصب والجر : (الذين) : ومنه قول بعضهم :

نَحْنُ اللذون صبَّحُوا الصَّبَاحَا يومَ النخيل غارَةً مِلْحَاحَا

وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا](١) فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم ، وهو المطلوب في آية الحمد . وقال ابن عباس أيضاً : المُنْعَم عليهم هم المؤمنون . وقال الحسن بن أبي الحسن : المُنْعَم عليهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وحكى مكي وغيره عن فرقة من المفسرين : أن المُنْعَم عليهم مؤمنو بني إسرائيل ، بدليل قوله تعالى : [يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ](٢) وقال ابن عباس: المُنْعَم عليهم أصحاب موسى قبل أن يبدّلوا ، وهذا والذي قبله سواء ، وقال قتادة ابن دعامة : المُنْعَم عليهم الأنبياءُ خاصة . وحكى مكي عن أبي العالية أنه قال : المنعم عليهم : محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ،

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تقدم ما حكاه عنه الطبري من أنه فسر الصراط المستقيم بذلك ، وعلى ما حكى مكي ينتقض الأول ، ويكون الصراط المستقيم طريقَ محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، وهذا أقوى في المعنى ، لأن تسمية أشخاصهم طريقاً تجوُّزٌ (٣) .

واختلف القراءُ في (الهَاء) منْ (عَليهم) فقرأ حمزة (عليهُمْ) بضم الهاء وإسْكان الميم ، وكذلك (لديهُمْ) و (إِلَيْهُمْ) ، وقرأ الباقون في

(١) الآيات (٦٦–٦٧–٦٨–٦٩) من سورة (النساء) .

(٢) من الآية (٤٠) من سورة (البقرة) .

(٣) يعني أن الطبري رحمه الله حكى عن أبي العالية : أن الصراط المستقيم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأن مكي بن أبي طالب حكى عن أبي العالية أيضاً أن المنعَم عليهم محمد صلى الله عليه وسلم وصاحباه أبو بكر وعمر ، وعلى ما حكاه مكي يبطل القول الأول الذي رواه عن فرقة المفسرين ، ويكون الصراط المستقيم هو طريق محمد عليه الصلاة والسلام ، وأبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، وكون الصراط المستقيم يراد منه طريق محمد عليه السلام وصاحبيه أقوى في المعنى ، لأن تسمية أشخاصهم طريقاً تجوُّزٌ ، وإذاً فالصراط المستقيم هو طريقهم لا أشخاصهم .

جميعها بكسر الهاء . واختلفوا في (الميم) ، فروي عن نافع : التخيير بين ضمها وسكونها . وروي عنه أنه كان لايعيب ضم الميم ، فدل ذلك على أن قراءته كانت بالإسكان ، وكان عبد الله بن كثير يصل الميم بواو انضمت الهاء قبلها أو انكسرت فيقرأ : (عليهمو وقلوبهُمو ، وسمعهُمو ، وأبصارهُمو) . وقرأ ورْشٌ الهاء مكسورة والميم موقوفة ، إلا أن تلقى الميم ألفاً أصلية فيُلحق في اللفظ واواً مثل قوله : [سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ](١) ، وكان أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، والكسائي ، يكسرون ويسكنون (الميم) ، فإذا لقي الميم حرف ساكن اختلفوا ، فكان عاصم ، وابن كثير ، ونافع يَمْضون على كسر الهاء وضم الميم [عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ](٢) وَ[مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ](٣) وما أشبه ذلك ، وكان أبو عمرو يكسر الهاء والميم فيقول : [عليهِمِ الذِّلَّةَ] و[إليهِمِ اثْنَيْن] ، وما أشبه ذلك ، وكان الكسائي يضم الهاء والميم معاً [عليهُمُ الذلة] ، و[من دونهُمُ امرأتين] قال أبو بكر أحمد بن موسى : وكل هذا الاختلاف في كسر الهاء وضمها إنما هو في الهاءِ التي قبلها كسرة أو ياءٌ ساكنة ، فإذا جاوزت هذين لم يكن في الهاءِ إلا الضم ، فإذا لم يكن قبل الميم هاءٌ قبلها كسرة أو ياءٌ ساكنة لم يجز في الميم إلا الضم أو التسكين في مثل قوله : منكم وأنتم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحكى صاحب الدلائل قال : قرأ بعضهم (عَلَيْهُمُو) بواو وضمتين ، وبعضهم بضمتين وألقى(٤) الواو ، وبعضهم بكسرتين وألحق الياء ،

---

(١) من الآية (٦) من سورة البقرة .
(٢) من الآية (١١٢) من سورة آل عمران .
(٣) من الآية (٢٣) من سورة القصص .
(٤) أسقط وطرح .

وبعضهم بكسرتين وألقى الياء ، وبعضهم بكسر الهاء وضم الميم ، قال : وذلك مروي عن الأئمة وروًساء اللغة . قال ابن جني[١] : حكى أحمد بن موسى (عليهُمُو وعليهُمْ) بضم الميم من غير إشباع إلى الواو ، (وعليهمْ) بسكون الميم ، وقرأ الحسن ، وعمرو بن فائد (عليهُمي) ، وقُرئ (عليهُم) بكسر الميم دون إشباع إلى الياء، وقرأ الأعرج (عليهِمُ) بكسر الهاء وضم الميم من غير إشباع . وهذه القراءات كلها بضم الهاء إلا الأخيرة ، وبإزاء كل واحـدة منهـا قراءة بكسر الهاء فيجيءُ في الجميع عشر قراءات[٢] .

وقوله تعالى :[غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ] . اختلف القراء في الراء من (غير) ، فقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بخفض الراء . وقرأ ابن كثير (غيرَ)[٣] بالنصب ، ورُوي عنه الخفض .

---

(١) عثمان بن جني أبو الفتح النحويُّ من أحذق أهل الأدب ، وأعلمهم بالنحو والتصريف ، له عدة تآليف منها : « الخصائص » ، و « سر الصناعة » ، توفي سنة ٣٩٢ هـ .

(٢) خمسة مع ضم الهاء ، وخمسة مع كسر الهاء ، فخمسة ضم الهاء : عليهُمْ بسكون الميم عليهُمُ بضم الميم ، عليهُمُو بإشباع الميم مضمومة ، عليهُم بكسر الميم ، عليهُمِي بإشباع الميم المكسورة-وخمسة كسْر الهاء : عليهِمْ بسكون الميم، عليهِمُ بضم الميم ، عليهِمُو بإشباع الميم المضمومة ، عليهِمِ بكسر الميم ، عليهِمِي بإشباع الميم المكسورة، إلا أن ستة من هذه الحروف العشرة منقولة عن أئمة القراء.وهي: عليهِمْ بكسر فسكون،وعليهُمْ بضم فسكون، وعليهِمُو بكسر الهاء والإشباع ، وعليهُمُو بضم الهاء والإشباع، وعليهُمُ بضم الهاء والميم من دون إشباع، وعليهِمِي بكسر الهاء والإشباع ، والباقي منقول عن العرب ، وليس مأثوراً عن القراء.

(٣) عبارة أبي (ح): « والجر في «غير» قراءة الجمهور ،وروَى الخليلُ عن ابن كثير النصبَ ، وهي قراءة عمر ، وابن مسعود ، وعلي ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم». انتهى . وبه تعلم أن ابن كثير قرأ بالجر ، ورُوي عنه النصب عكس ما قاله المؤلف رحمه الله .

قال أبو علي: والخفض[١] على ضربين: على البدل من (الذين)، أو على الصفة للنكرة، كما تقول: مررت برجل غيرِك، وإنما وقع هنا صفة للذين لأن الذين هنا ليس بمقصود قصدَهم[٢]. فالكلام بمنزلة قولك: إني لأمر بالرجل مِثْلِكَ فأُكرِمُهُ، قال: والنصب في الراءِ على ضربين: على الحال كأنك قلت: أنعمت عليهم لامغضوباً عليهم، أو على الاستثناءِ كأنك قلت: إلا المغضوب عليهم، ويجوز النصب على: أعني، وحكي نحو هذا عن الخليل.

ومما يحتج به لمن ينصب ـ أَنَّ (غير) نكرة، فكره أن يوصف بها المعرفة. والاختيار الذي لاخفاءَ به الكسر، وقد روي عن ابن كثير[٣]، فأولى القراءتين ما لم يخرج عن إجماع قراءِ الأمصار. قال أبو بكر بن السَّرّاج[٤]: «والذي عندي أن (غير) في هذا الموضع مع ما أُضيف إليه معرفة». وهذا شيءٌ فيه نظر ولَبس، فليفهم عني ما أقول: اعلم أن حكم كل مضاف إلى معرفة أن يكون معرفة، وإنما تنكرت (غير) و(مثل) مع إضافتهما إلى المعارف من أجل معناهما، وذلك إذا قلت: «رأيتُ غيرك»، فكل شيءٍ سوى المخاطب فهو غيره، وكذلك إذا

---

(١) على قراءة الخفض تكون بدلا أو صفة ـ وعلى قراءة النصب تكون حالا أو استثناء أو مفعولا.

(٢) أي قصد اهتمام، والاهتمام إنما يكون في الشيء المعين، والحاصل أن من نظر إلى تنكير (غير) من دون تفصيل جعل (الذين) اسما عاما لتكون (غير) وصفاً لها. ومن نظر إلى أن (غير) هنا معرفة بمقتضى التفصيل الذي بينه أبو بكر بن السراج رحمه الله أبقى (الذين) على تعريفه، وما حققه ابن السراج هو الصواب الذي لا محيد عنه إن شاء الله، والله أعلم.

(٣) تقدم أنه قراءة ابن كثير وأن النصب رُوي عنه.

(٤) هو محمد بن السري البغدادي النحوي، كان من أصحاب المبرد، وفيه ذكاء وفطنة، وقرأ عليه كتاب سيبويه، وبلغ الغاية في النحو، أخذ عنه أبو القاسم الزجاجي، والسيرافي، والفارسي، ولم تطل مدته فمات شاباً سنة ٣١٦ هـ.

قلت : « رأيتُ مثلك » فما هو مثله لايحصى ، لكثرة وجوه المماثلة ، فإنما صارا نكرتين من أجل المعنى ، فأما إذا كان شيءٌ معرفة له ضد واحد وأردتَ إثباته ، ونفي ضده ، وعلم ذلك السامع فوصفته بغير وأضفت (غير) إلى ضده فهو معرفة . كقولك : «عليك بالحركة غير السكون» ، وكذلك قوله : (غير المغضوب) ، لأن من أنعم عليه لايعاقبه إلا من غضب عليه ، ومن لم يغضب عليه فهو الذي أنعم عليه ، فمتى كانت (غير) على هذه الصفة وقصد بها هذا المقصد فهي معرفة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أبقى أبو بكر (الذين) على حد التعريف ، وجوّز نعتها بغير لما بينه من تعرّف (غير) في هذا الموضع ، وغيرُ أبي بكر وقف مع تنكر (غير) ، وذهب إلى تقريب (الذين) من النكرة ، إذ هو اسم شائع لايختص به معين ، وعلى هذا جوّز نعتها بالنكرة .

و(المغضوب عليهم) : اليهود ، و(الضالون) النصارى ، هكذا قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والسّدي ، وابن زيد ، وروى ذلك عدي بن حاتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) ، وذلك بيّنٌ من كتاب الله تعالى ، لأن ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه كقوله : [وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ](٢) وكقوله تعالى : [قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ](٣) فهؤلاء في اليهود بدلالة قوله تعالى : [وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ

(١) رواه الترمذي في جامعه ، وأبو داود الطيالسي في مسنده ، ويشهد لهذا التفسير آيات في كتاب الله تعالى تعبر بالضلال في حق النصارى ، وبالغضب في حق اليهود .

(٢) من الآية (٦١) من سورة (البقرة) .

(٣) من الآية (٦٠) من سورة (المائدة) .

اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ](١) ، والغضب عليهم هو من الله تعالى ، وغضب الله تعالى عبارةٌ عن إظهاره(٢) عليهم محناً ، وعقوبات ، وذلةً ، ونحو ذلك. مما يدل على أنه قد أبعدهم عن رحمته بعداً مؤكداً مبالغاً فيه . والنصارى كان محققوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما ورد ضلوا ، وأما غير محققيهم فضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام ، وقد قال الله تعالى فيهم : [وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ](٣) قال مكي رحمه الله حكاية(٤) : دخلت (لا) في قوله : (ولا الضَّالين) لئلا يتوهم أَن الضالين عطف على الذين ، قال : وقيل :هي مؤكدة بمعنى غير . وحكى الطبري أن (لا) زائدة ، وقال : هي هنا على نحو ما هي عليه في قول الراجز(٥) :

فَمَا أَلُومُ ٱلبِيضَ أَلا تَسْخَرا . . . .

أَراد : أَن تَسْخَرَ . وفي قول الأَحوص(٦) :

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (البقرة) .

(٢) فالغضب صفة فعل ، ويجوز أن يكون صفة ذات بمعنى إرادة ذلك .

(٣) من الآية (٧٧) من سورة (المائدة) .

(٤) عن غيره ، وليس ذلك من بنات فكره .

(٥) تمامه ... لَمَّا رأيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرا . وقائله أبو النجم العجلي ، والقفندر القبيح الفاحش . قاله أبو عبيدة ، وفي مجالس ثعلب ، الشيبُ في القفا .

(٦) عبد الله بن محمد بن عاصم بن ثابت ، ولقب بالأحوص لِحَوَصٍ كان في عينه ، وكان جده عاصم بن ثابت الأنصاري يقال له حمي الدَّبْر ، وذلك أن المشركين لما قتلوه أرادوا أن يمثلوا به فحماه الله تعالى بالدَّبْر فارتدعوا عنه حتى أخذه المسلمون فدفنوه ، وكان رضي الله عنه قد عاهد الله تعالى أَلا يمس مشركاً ، ولا يمسه مشرك ، فحماه الله تعالى منهم بعد وفاته .
والدَّبْرُ : جماعة النحل ، وقبل البيت :

أَلا يَالَقَومي قد أَشَطَّتْ عَواذِلي ... وَيَزْعُمْنَ أَنْ أَوْدى بِحَقّي بَاطِلي

ويَلْحَيْنني في اللَّهْو أَلاَّ أُحِبَّه ولِلَّهْو دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلِ

قال الطبري : يريد ويلحينني في اللهو أن أُحبه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبيت الأَحوص إنما معناه : إرادة أَلا أُحبه فـ(لا) فيه متمكنة[١] .

قال الطبري : ومنه قوله تعالى :[مَامَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ][٢] ، وإنما جاز أَن تكون (لا) بمعنى الحذف ، لأَنها تقدمها الجَحْدُ[٣] في صدر الكلام ، فسيق الكلام الأَخير مناسباً للأَول ، كما قال الشاعر [٤] :

مَاكَانَ يَرْضَي رَسُولُ اللهِ فِعْلَهُمُ وَالطَّيِّبَانِ أَبو بَكْرٍ وَلا عُمَرُ

وقرأَ عمر بن الخطاب ، وأُبيٌّ بن كعب : [غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وغَيْرِ ٱلضَّالِّينَ] ، ورُوي عنهما في(الراءِ) النصبُ والخفضُ في الحرفين.

قال الطبري : فإن قال قائل : أَليس الضَّلال من صفة اليهود كما أَن النصارى عليهم غضب ؟ فَلِمَ خُصَّ كلٌّ فريقٍ بذكر شيءٍ مفرد ؟ قيل : هم كذلك ، ولكن وَسَمَ الله لعباده كلَّ فريق بما قد تكررت العبارة عنه ، وفُهِمَ به أَمره .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

---

(١) أي نافية ، لا زائدة .

(٢) من الآية (١٢) من سورة (الأعراف) .

(٣) الجحد : النفي ، وكل ما سبق من الشواهد يتحقق فيه النفي إلا بيت الأحوص ، فلذلك ناقشه المؤلف رحمه الله . ومحصل الكلام في (لا) أنها زائدة كما قاله الطبري ، وقيل : إنها مؤكدة لئلا يُتَوَهَّم أن (الضالين) معطوف على (الذين)، كما قاله مكي بن أبي طالب ، وقيل : إنها بمعنى (غير) وهي قراءة عمر ، وأُبيّ رضي الله عنهما .

(٤) هو جرير بن عطية يهجو الأخطل وتغلب ، وقبل البيت :

فَمَا لِتَغْلِبَ انْ عُدَّتْ مَكَارِمُهُمْ نَجْمٌ يضيء ، ولا شَمْسٌ ولا قَمَرُ

وهذا غير شاف ، والقول في ذلك أَن أَفاعيل اليهود من اعتدائهم ، وتعنتهم ، وكفرهم ، مع رؤيتهم الآيات ، وقتلهم الأَنبياءَ ـ أُمورٌ توجب الغضب في عرفنا ، فسمَّى تعالى ما أَحاط بهم غضباً ، والنصارى لم يقع لهم شيءٌ من ذلك ، إنما ضلوا من أَول كفرهم ، دون أَن يقع منهم ما يُوجب غضباً خاصاً بأَفاعيلهم ، بل هو الذي يعم كلَّ كافر وإن اجتهد ، فلهذا تقررت العبارة على الطائفتين بما ذكر .

وليس في العبارة بالضَّالِّين تعلق(١) للقدرية في أَنهم أَضلوا أَنفسهم ، لأَن هذا إنما هو كقولهم : تهدَّم الجدار ، وتحركت الشجرة ، والهادم والمُحرِّك غيرهما ، وكذلك النصارى ، خلق الله الضَّلال فيهم فضلُّوا بتكسُّبهم .

وقرأَ أَيوب السختياني(٢) : (الضأْلين) بهمزة غير ممدودة ، كأَنه فرَّ من التقاءِ الساكنين ، وهي لغة . وحكى أَبو زيد(٣) قال :

---

(١) القدرية والمعتزلة يعتقدون أن قدرة الإنسان كافية في صدور الأفعال طاعةً أو معصية ، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه ، ولذلك اشتهر عنهم أن العبد يخلق أفعاله ، واعلم أن أشكل ما في علم الكلام ثلاث مسائل : مسألة كلام الله ، ومسألة القدرة الاكتسابية . ومسألة الرؤية ، فعليك باعتقاد الحق وترك الباطل .

(٢) هو ابن تميمة السختياني ، أبو بكر البصري أحد الأئمة الأعلام ، وكان يقول : من أحب أبا بكر فقد أقام الدين . ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل . ومن أحب عثمان فقد استغنى بنور الله ، ومن أحب علياً فقد أخذ بالعروة الوثقى . ومن أحب الثناء على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقد برئ من النفاق ، ومن انتقص أحداً منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح ، وأخاف ألا يصعد له عمل إلى السماء ، توفي سنة ١٣١ هـ .

(٣) هو سعيد بن أوس بن ثابت بن النعمان بن مالك بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري ، كان إماماً في النحو واللغة والأدب ، روى عن أبي عمرو بن العلاء ، وعمرو بن عبيد ، وأبي عبيد القاسم ابن سلام ، وكان الأصمعي يحضر حلقته ، ويقبل رأسه ، وله عدة تآليف أشهرها (النوادر) ، توفي بالبصرة سنة ٢١٥ هـ ، وإذا أطلق (أبو زيد) في هذا التفسير فهو الأنصاري .

سمعت عمرو بن عبيد يقرأ [فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَأن]، فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبة وشأبة. قال أبو الفتح: وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر:

. . . . إِذَا مَا ٱلْعَوَالِي بِالْعَبِيط احْمَأَرَّت(١)

وقول الآخر:(٢)

وللأَرضِ أَمَّا سُودها فَتَجَلَّلَت بياضاً، وأَما بِيضُها فَادْهَأَمَّت

وأَجمع الناس على أَن عدد آي سورة الحمد سبعُ آيات: العالمين: آية – الرحيم: آية – الدين: آية – نستعين: آية – المستقيم: آية – أَنعمت عليهم: آية – ولا الضالين: آية.

وقد ذكرنا في تفسير [بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ] ما وَرَدَ من خلاف ضعيف في ذلك.

(١) هكذا يوجد في جميع النسخ، والذي في ديوان (كُثَيِّر) المطبوع:
وأنتَ ابنُ ليلى خيرُ قَوْمِكَ مَشْهَداً إذا ما احْمَأَرَّتْ بِالعَبِيطِ العَوامِلُ
من جملة قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان، فانظر ذلك. وعوالى الرماح أسنتها. وعوامل الرماح صدورها. وكُثَيِّر هو ابن عبد الرحمن الخزاعي، صاحب عزة المتوفى سنة ١٠٥هـ

(٢) هذا البيت من جملة قصيدة في رثاء عبد العزيز بن مروان.

القــول في آمــين

رَوَى أبو هريرة وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا قال الإمام : ولا الضَّالينَ ، فَقُولُوا : آمينَ ، فَإنَ المَلائكَةَ فِي السَّماءِ تَقُول : آمين ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُه قَوْلَ الْمَلائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[١] . ورُوي (أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَا عَلَّمَ النَّبِيَّ عَلَيهِ السَلامُ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقْتَ نُزُولِهَا فقَرَأَهَا قَالَ لَهُ : قُلْ آمِينَ)[٢] . وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : (آمين) خاتم رب العالمين ، يختم به دعاء عبده المؤمن[٣] . ورُوي (أن النبي صلى الله عليه وسلم سَمعَ رَجُلا يَدْعُو فَقَالَ : أَوْجَبَ إنْ خَتَمَ ، فَقَالَ له رَجُل : بِايِّ شَيءٍ يَخْتِمُ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ : بِآمينَ)[٤] .

ومعنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب ، أَوْ أجب يارب . ونحو هذا ، قاله الحسن بن أبي الحسن وغيره ، ونَصَّ عليه أحمد ابن يحيى ثعلب وغيره ، وقال قوم : هو اسم من أسماء الله تعالى . رُويَ ذلك عن جعفر بن محمد[٥] ، ومجاهد ، وهلال بن يَساف[٦] . وقد روي

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي ميسرة .

(٣) روى الطبراني في المعجم الكبير ، وابن عدي في الكامل ، عن ابن عباس أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (آمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين) .

(٤) أخرجه أبو داود .

(٥) رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح كما قاله أبو بكر بن العربي .

(٦) بفتح الياء أبو الحسن الكوفي الأشجعي ، قاله في الخلاصة ، وراجع المادة في القاموس .

أن آمين اسم خاتم يطبع به كتب أهل الجنة التي تؤخذ بالأيمان (١) .

فمقتضى هذه الآثار أن كلَّ داعٍ ينبغي له في آخر دعائه أن يقول : آمين . وكذلك كل قارئٍ للحمد في غير صلاة ، لكن ليس بِجَهْر التَّنْزيل (٢) ، وأما في الصلاة فقال بعض العلماء : يقولها كلُّ مصلٍّ من إمام وَفَذٍّ (٣) ومأموم قرأها أو سمعها ، وقال مالك في المُدَوَّنَة: لا يقول الإمام آمين ، ولكن يقولها مَنْ خَلفه ويخفون ، ويقولها الفَذُّ . وقد رُوي عن مالك رضي الله عنه : أن الإمام يقولها أَسَرَّ أَمْ جَهَرَ ، ورُوي عنه أن الإمام لا يُؤَمِّن في الجهر ، وقال ابن حبيب : يُؤَمِّن ، وقال ابن بكير : هو مخيَّرٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا الخلاف إنما هو في الإمام ، ولم يُخْتلف في الفذ ، ولا في المأموم .

إلا أن ابن نافع قال في كتاب ابن حارث : لا يقولها المأموم إلا إنْ سمع الإمام يقول : « ولا الضالين » ، وإذا كان ببعد لا يسمعه فلا يقول ، وقال ابن عبدوس : يتحرى قدر القراءة ويقول : آمين .

وهي لفظةٌ مبنية على الفتح لالتقاء الساكنين ، وكان الفتح مع الياءِ أخفَّ من سائر الحركات . ومن العرب من يقول : آمين فيمُدُّ ، ومنه قول الشاعر (٤) :

آمينَ آمينَ لا أَرضَى بِواحِدَة حتى أُبَلغهـا أَلْفَيْنِ آمينـا

---

(١) روى ابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين) .

(٢) لأنها ليست من القرآن ، فينبغي ألا يقرأ بصفة القرآن ، كما ينبغي أن تكون بعد سكتة خفيفة فرقاً بينها وبينه ، و (آمين) تمد لتطويل الصوت ، وتقصر لكثرة الاستعمال .

(٣) أي : الفرد .

(٤) قيس بن معاذ ، مجنون ليلى العامرية . وفي رواية : (حتى أضيف إليها ألف آمينا)

ومن العرب من يقول بالقصر ، ومنه قول الشاعر :

تَبَاعَدَ مِنِّي فُطْحُلٌ إِذْ سَأَلْتُهُ أَمِينَ فَزَادَ اللهُ مَا بَيْنَنَا بُعْداً (١)

واختلف الناس في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (فَمَنْ وَافَقَ تـأْمينهُ تـأْمينَ الملائكة) فقيل : في الإجابة ، وقيل : في خلوص النِّيَّةِ ، وقيل : في الوقت(٢) ، والذي يَتَرجَّح أَن المعنى فمن وافق في الوقت مع خلوص النية والإقبال على الرغبة إلى الله بقلب سليم ، والإجابة تتبع حينئذ لأَن مَنْ هذه حالُه فهو على الصرط المستقيم .

(١) هو لجبير بن الأضبط ، كان قد سأل فُطْحُلا الأسدي فأعرض عنه، فدعا عليه . وفي رواية : (تباعد مني فطحل وابنُ امّه) : أي أخوه ، وفُطْحُلٌ ضُبِطَ بضمتين كهدهُدٍ ، وبفتحتين كجعفر .

(٢) الحق كما قال المؤلف رحمه الله : أن الموافقة تُعتبر في الزمن ، وفي الإخلاص بحيث يكون القلب سالماً وجازماً ، والإجابة تابعة لذلك إن شاء الله .

تفسير سورة البقرة

بحول الله تعالى ومعونته

تفسير سورة البقرة

بحول الله تعالى ومعونته

هذه السورةُ مدنيةٌ ، نَزَلَتْ في مُدَد شتى ، وفيها آخر آية[1] نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : [واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيه إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْس مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ] ، ويقال لسورة البقرة : (فُسطاطُ القرآن) لعظمها وبهائها ، وما تضمنت من الأَحكام والمواعظِ ، وتَعلَّمها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بفقهها وجميع ما تحتوي عليه من العلوم في ثمانية أعوام[2] ، وفيها خمسمائة حكم[3] ، وخمسة عشر مثلا ، وروى الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أَيُّ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ ؟ ، قَالوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : سُورَةُ البَقَرَة) ، ثم قال : (وأَيُّها أَفْضَلُ ؟ ، قَالوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : آيَةُ الْكُرْسِي)[4] ، ويقال : إن آيات الرحمة والرجاءِ والعذاب تنتهي فيها معانيها إلى ثلاثمائة وستين معنى . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أُعْطِيتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الأَول ، وأُعْطِيتُ طَه والطَّوَاسين[5] مِنْ أَلْوَاح مُوسى ، وأُعْطِيتُ فَاتِحَةَ

---

(١) نزلت يوم النحر في حجة الوداع كما قاله (ق) .

(٢) تعلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة البقرة في اثني عشرة سنة ، ولما ختمها نحر جزوراً شكراً لله تعالى ، وفي الموطأ أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها ا هـ .

(٣) قال ابن العربي : سمعت بعض أشياخي يقول : فيها ألف أمر ، وألف نهي ، وألف حكم ، وألف خبَر .

(٤) رواه البغوي .

(٥) قال أهل اللغة : تجمع الطواسين ، والطواسيم ، والحواميم بذوات مضافاً إلى واحد، فيقال : ذوات طسم ، وذوات طس ، وذوات حم .

الْكِتَاب وَخَوَاتِمَ سُورَةِ الْبَقَرَة مِنْ تَحت الْعَرْش)(١) .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (تجيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَان بَيْنَهُمَا شَرْق . أَوْ غَمَامَتَانِ سَوْدَوَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا ظُلَّةٌ مِنْ طَيْر صَوَافَّ تُجَادِلانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا)(٢) وفي البخاري أنه عليه السلام قال : (مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَة كَفتَاهُ)(٣) .

وروى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الْبَيْتُ الَّذي تُقْرَأُ فيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لا يَدْخُلُه الشَّيْطَانُ)(٤) ، وروي عنه عليه السلام أنه قال : (لِكُل شَيْءٍ سَنَامٌ ، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، فِيهَا آيَةٌ هِي سَيِّدَةُ آي ٱلْقُرْآنِ ، وَهِيَ آيةُ الْكُرْسِي)(٥) .

---

(١) رواه أبو عبد الله الحاكم في المستدرك ، عن معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي أُمامة الباهلي في كتاب صلاة المسافرين وقصرها. والشرق : هو الضوء الذي يدخل من شق الباب .

(٣) هما : [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزلَ إِلَيْهِ مِن ربِّه والمُؤْمِنُون] إلى آخر السورة .

(٤) رواه الإمام مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وغيرهم ، من حديث سُهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) رواه الترمذي ، عن أبي هريرة من حديث حكيم بن جُبَير ، وفيه ضعف ، وفي «الأحكام» لابن العربي المعافري ما نصه : وليس في فضلها (أي سورة البقرة) حديث صحيح إلا من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِر ، وإنَّ البَيْتَ الّذي تقْرَأُ فيه سُورَةُ البَقَرَةِ لايَدْخُلُهُ شَيْطَانٌ) ، خرجه الترمذي . انتهى .

وفيه نظر : ففي صحيح الإمام مسلم من حديث أبي لُبابة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اقْرَءُوا سُورَةَ البَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَة، وتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، ولا تَسْتَطِيعُهَاالبَطَلَةُ)اهـ.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ قَرَأَ الآيتين مِنْ آخر سُورة البَقَرة في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ) رواه أصحاب الكتب الستة من حديث ابن مسعود ، ولفظ الشيخين (في كلّ ليلة) بزيادة (كل) ، قاله بعض شيوخنا .

وعدد آي سورة البقرة مائتان وخمس وثمانون آية ، وقيل : وست وثمانون آية ، وقيل : وسبع وثمانون .

قوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾

اختلف في الحروف التي في أوائل السور على قولين : قال الشعبي عامر بن شراحيل ، وسفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين : هي : سرّ الله في القرآن ، وهي من المتشابه[(١)] الذي انفرد الله بعلمه ، ولا يجب أن يُتكلَّم فيها ، ولكن نؤْمنُ بها وتَمُرُّ كما جاءت .

وقال الجمهور من العلماء : بل يجب أن يُتكلم فيها ، وتُلْتَمَس الفوائد التي تحتها ، والمعاني التي تتخرج عليها ، واختلفوا في ذلك على اثني عشر قولا [(٢)] .

فقال علي بن أَبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهما : الحروف المقطعة في القرآن هي اسم الله الأَعظم ، إلا أَنا لانعرف تأْليفه منها .

وقال ابن عباس أَيضاً : هي أَسماءُ الله أَقْسَمَ بها .

وقال زيد بن أَسلم : هي أَسماءٌ للسور .

---

(١) الذي نعتقده وندين لله به ، هو السكوت عن الكلام في مثل فواتح السور ، مع الإيمان بأن لها حكمة تغيب عن عقانا ، وتبعد عن فهمنا — ولنا في ذلك سعة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُبَيّن معنى هذه الفواتح لأصحابه ، وإن ما نقل عن الصحابة في ذلك قد لا يكون له سند صحيح — وإن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لم يتكلموا بشيء من ذلك ، ولا ينافي هذا أنهم قد يقتصرون على حرف ، أو حرفين من الكلمة التي يريدون النطق بها فإنهم لم يعرفوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ، ويفيد معناه ، وأين فواتح السور من هذا ؟ فلم يبق إلا التفسير بالرأي المنهي عنه،وهذا ما ارتضاه كثير من الأئمة، كأبي إسحق الشاطبي ، رحمه الله .

(٢) سرد المؤلف رحمه الله هذه الأقوال كلها ، ويوجد من بينها لابن عباس رضي الله عنهما ثلاثة أقوال .

وقال قتادة : هي أسماء للقرآن كالفرقان ، والذكر .

وقال مجاهد : هي فواتح للسور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كما يقولون في أول الإنشاد لشهير القصائد: «بل ولا بل» ، نحا هذا النحو أبو عبيدة والأخفش .

وقال قوم : هي حساب «أبي جاد» ، لتدل على مدة ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما ورد في حديث حُيَيّ بن أَخْطَب(١) ، وهو قول أبي العالية رُفَيْع وغيره .

وقال قطرب وغيره : هي إشارة إلى حروف المعجم ، كأنه يقول للعرب : إنما تحديتكم بِنَظْم من هذه الحروف التي عرفتم ، فقوله : [الـــمٓ] بمنزلة قولك : (ا ـ ب ـ ت ـ ث) لتدل بها على التسعة والعشرين حرفـا .

وقال قوم : هي أمارة قد كان الله جعلها لأهل الكتاب أنه سَيُنَزِّلُ على محمد كتابا في أول سور منه حروف مقطعة .

وقال ابن عباس : هي حروف تدل على «أنا الله أعلم» ، «أنا الله أرى» ، «أنا الله أُفَصِّل»(٢)

وقال ابن جبير ، عن ابن عباس : هي حروف كل واحد منها :

---

(١) رواه محمد بن اسحق بن يسار صاحب المغازي ، عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله ، من طريق محمد بن السائب الكلبي ،وهو ضعيف لا يُحْتَجُّ بما انفرد به — على أن الحديث نفسه يشهد بفساد هذا المعنى ، انظر تفسير الشوكاني وابن (ك) .

(٢) روى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله : (الـمٓ) أنا الله أعلم — (الـرٓ) أنا الله أرى. (الـمٓصٓ) أنا الله أُفصّل — فالألف تؤدي معنى أنا . واللام يؤدى معنى الله ، والميم تؤدي معنى أعلم ، وهكذا .

إما أن يكون من اسم من أسماء الله ، وإما من نعمة من نعمه ، وإما من اسم مَلَك من ملائكته ، أو نبي من أنبيائه .

وقال قوم : هي تنبيه كيا في النداء .

وقال قوم : رُوي أن المشركين لما أعرضوا[1] عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحوا لها أسماعهم ، فيسمعون القرآن بعدها ، فتجب عليهم الحجة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب ما قاله الجمهور – أن تُفَسَّر هذه الحروف ، وَيُلْتَمَس لها التأويل ، لأنَّا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطَّعة نظماً لها ووضعاً ، بدل الكلمات التي الحروف منها ، كقول الشاعر :

قُلْنَا لَهَا قِفي فَقَالَتْ : قَاف . . . .[2]

أراد – قالت : وَقَفْتُ . وكقول القائل[3] :

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتٍ وإِنْ شَرًّا فَا ... وَلا أُرِيدُ الشَّر إلا أَنْ تَا

أراد : وإن شراً فشر ، وأراد : إلا أن تشاء ، والشواهد في هذا

---

(١) كما قال الله تعالى : (وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذا الْقُرْآنِ والْغَوْا فِيه لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) .

(٢) تمامة : (لا تَحْسَبِينَا قَدْ نَسِينا الإيجَاف) وهو غيرمنسوب .

وبعده : والنَّشْوات مِن مُعَتقٍ صاف ... وعزْفُ قَيْناتٍ علينا عزاف

قائله : الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان عاملا لعثمان على الكوفة فاتهم بشرب الخمر فأمر الخليفة بشخوصه إلى المدينة ، وخرج في ركب ، فنزل الوليد يسوق بهم ، فقال : قلنا لها قفي الخ البيتين . انظر شواهد الشافية والأغاني .

(٣) هو زهير كما في (ق) . وقوله بالخير متعلق بمحذوف ، أي أجزي بالخير خيرات . ونسبه ابن رشيق في العمدة إلى « نعيم بن أوس» يخاطب امرأته ، ونسبه في (اللسان) لحكيم بن معيَّة التميمي ، وللقمان بن أوس بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن غنم .

كثيرة ، فليس كونها في القرآن مما تنكره العرب في لغتها ، فينبغي إذا كان من معهود كلام العرب أَن يُطلب تأويله ويُلْتَمَس وجْهُهُ .

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها ، إلا إذا أَخْبَرْتَ عنها ، أَو عَطَفْتَهَا فإنَّك تُعربها . وموضع (الٓمٓ) من الإعراب : رفعٌ على أَنه خبر ابتداءٍ مُضْمَر ، أَو على أَنه ابتداءٌ ، أَو نصبٌ بإضمار فعل ، أَو خفضٌ بالقسم ، وهذا الإعراب[1] يتجه الرفع منه في بعض الأَقوال المتقدمة في الحروف ، والنصبُ في بعض ، والخفضُ في قول ابن عباس رضي الله عنهما : إنها أَسماءُ لله أَقسم بها .

قوله عز وجل :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾

الاسم من [ذلك] الذال والأَلف ، وقيل : الذال وحدها ، والأَلف تقوية ، واللام لبعد المشار إليه ، وللتأْكيد ، والكاف للخطاب . وموضع (ذلك) رفعٌ كأَنه خبر ابتداءٍ[2] ، أَو ابتداءٌ وخبره بعده .

واختلف في (ذلِكَ) هنا ، فقيل : هو بمعنى هذا ، وتكون الإشارة إلى هذه الحروف من القرآن ، وذلك أَنه قد يشار بذلك إلى حاضر تعلق به بعض الغيبة ، وبهذا إلى غائب هو من الثبوت والحضور بمنزلة وقرب[3] .

---

(١) يعني أن مَن قال إنها أسماء للسور فمحلها عنده رفع على أنها خبر لمحذوف ، أي : هذه (الٓمٓ) كما تقول : هذه سورة البقرة ، أو على أنها مبتدأ والخبر بعده ، كما تقول : زيد ذلك الرجل ، أو محلها نصب ، كما تقول اقرأ (الٓمٓ) .

ومن قال إنها أسماء لله أقسم بها فموضعها عنده خفض ، والله أعلم .

(٢) أي : هو ذلك الكتاب .

(٣) قال بعضهم : الإشارة للبعيد بذلك من باب العرف لا من باب الوضع ، ولذلك ترى العرب تستعمل كُلاًّ من اسمي الإشارة مكان الآخر ، وذلك موجود في كلامهم ومتداول بينهم .=

وقيل: هو على بابه إشارة إلى غائب(١) ، واختلف في ذلك الغائب فقيل : ما قد كان نزل من القرآن ، وقيل: التوراة والإنجيل ، وقيل: اللوحُ المحفوظ ، أي الكتاب الذي هو القدر ، وقيل : إن الله قد كان وعد نبيه أن ينزل عليه كتابا بالايمحوه الماءُ ، فأشار إلى ذلك الوعد(٢) . وقال الكسائي : (ذلك) إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعد ، وقيل : إن الله قد كان وعَدَ أهل الكتاب أن ينزل على محمد كتاباً ، فالإشارة إلى ذلك الوعد ، وقيل: إن الإشارة إلى حروف المعجم في قول من قال [الٓمٓ] حروف المعجم التي تحديتكم بالنظم منها (٣) .

ولفظ (الكتاب) مأخوذ من كتبتُ الشيءَ إذا جمعته وضممتُ بعضَه إلى بعض ككُتَب(٤) الخُرْز ـ بضم الكاف وفتح التاء ـ وكُتَب الناقة .

= قال أبو (ح) : سمعت شيخنا أبا جعفر بن إبراهيم يقول : ذلك إشارة إلى الصراط في قوله تعالى: [اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ]، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيلهم : ذلك الصراط الذي سألتموه هو الكتاب . قال أبو (ح) : وبهذا الذي ذكره الأستاذ يتبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد ، وهذا القول أولى ، لأنه إشارة إلى شيء سبق ذكره ، لا إلى شيء لم يجر له ذكر ا.هـ.

(١) ضعَّف هذا المذهب كثير من العلماء كما قاله ابن (ك) .

(٢) في صحيح الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ الله نَظَرَ إلى أهْلِ الأرْضِ فَمَقَتَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُمْ ، إلا بَقَايَا مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ ، وقال : إنَّمَا بَعَثْتُكَ لابْتَلِيَكَ وأبْتَلِيَ بِكَ ، وأنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَاباً لا يَغْسِلُهُ المَاء ، تَقْرَؤه نَائِماً ويَقْظَانَ) .

(٣) هو قطرب وغيره كما سبق آنفاً ، ويقال لحروف المعجم : حروف الهجاء ، كما روي أنه قيل لأعرابي : أتقرأ القرآن ؟ قال : والله ما هجوت منه حرفاً .

(٤) كتب السقاء كتباً خرزه بسيرين ــ وكتب الناقة ظأرها فخزم منخريها بشيء لئلا تشم البَو ، والكُتْبَة بالضم السير يخرز به ــ أوالخرزة التي ضم السير وجهيها ، الجمع كُتَب .

وَرفْعُ (الكتَاب) يتوجه على البدل ، أو على خبر الابتداء ، أو على عطف البيا ن .

ولا [رَيْبَ فِيه] معناه : لا شك فيه ، ولا ارتياب به ، والمعنى : أنه في ذاته لا ريب فيه ، وإن وَقَعَ ريبٌ للكفار(١) .

وقال قوم : لفظُ قوله :[لا رَيْبَ فيه] لفظُ الخبر ، ومعناه النهي ، وقال قوم : هو عموم يُراد به الخصوص ، أي عند المؤمنين ، وهذا ضعيف(٢) ، وقرأ الزهري ، وابن محيصن ، ومسلم بن جندب ، وعُبَيْدُ ابن عمير : (فيهُ) بضم الهاءِ ، وكذلك إليهُ وعليهُ ، وبهُ ، ونصلهُ ، ونولهُ . وما أشبه ذلك حيث وقع على الأَصل ، وقرأ ابن اسحٰق: (فيهُو) بضم الهاءِ ووصلها بواو(٣) .

و[هُدًى] معناه : رشادٌ وبيانٌ ، وموضعه من الإعراب : رفْعٌ على أنه خبر (ذلك) ، أو خبر ابتداءٍ مضمر ، أو ابتداءٌ وخبره في المجرور قبله(٤) ، ويصح أن يكون موضعه نصباً على الحال من (ذلك) ، أوْ

---

(١) معنى نفي الريب عن الكتاب أنه ليس مظنة للريب في ذاته لعلو منزلته ، وظهور معجزته ، وليس معناه أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا .

(٢) أي لأن النفي عام ، ولذلك كان (لاريبَ) منصوباً على التبرئة .

(٣) وقرأ ابن كثير (فيهي) بكسر الهاء ووصلها بالياء، وقرأ أبو عمرو والبصري (فيهدّى) بالإدغام.

(٤) من القراء من يقف على قوله تعالى : [لارَيْبَ] ، ويبتدىء بقوله تعالى: (فِيهِ هدًى لِلمُتَّقِين)، كأن المعنى : ذلك الكتاب حقاً ــ والوقف على قوله تعالى: [لارَيْبَ فِيهِ] أولى لقوله تعالى في سورة السجدة [الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين]. قال أبو (ح): والأولى جعل كل جملة مستقلة ، فذلك الكتاب جملة ، ولا ريب جملة ، وفيه هدى للمتقين جملة ، ولم تحتج إلى حرف عطف لأن بعضها آخذ بعنق بعض ، فالأولى أخبرت بكمال الكتاب ، والثانية أخبرت بنفي الريب عن الكتاب ، والثالثة أثبتت هداية الكتاب للمتقين . وعلى ماذكره المؤلف فَجَعْلُ (هدى) خبر (ذلك) ، أو خبر ابتداءٍ مُضْمَر أوْلَى، لأن كون الكتاب هدًى أبلغ من كونه فيه هدى ، ويكون (فيه) من تمام ما قبله .

مِنَ (الكتاب) ، ويكون العامل فيه معنى الإشارة ، أَو من (الضمير) في (فيه) ، والعامل فيه معنى الاستقرار ، وفي هذا القول ضعف.

وقوله [لِلْمُتَّقِينَ] : اللَّفظ مأْخوذٌ من وَقَى ، وفعله اتَّقى على وزن افتعل ، وأَصله «لِلمُوتَقَيِين»[١] ، استثقلت الكسرة على الياءِ فسكنت وحذفت للالتقاءِ ، وأُبدلت الواو تاءً على أَصلهم في اجتماع الواو والتاءِ ، وأُدغمت التاءُ في التاءِ فصار «للمتقين» ، والمعنى للذين يتقون الله تعالى[٢] بامتثال أَوامره ، واجتناب معاصيه ، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذاب الله [٣] .

قوله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

[يُؤْمِنُونَ] معناه : يُصَدِّقون ، ويتعدى بالباءِ ، وقد يتعدى باللام كما قال تعالى : [وَلا تُؤْمِنوا إلا لِمَنْ تبع دِينَكُمْ][٤] وكما قال: [فَمَا آمَنَ

(١) بياءين مخففتين ، حُذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ، ثم حذفت الياءُ للالتقاء فقوله : وسكنت أي الياء .

(٢) إنما خص الله هدايته بالمتقين– مع أن هداية الكتاب عامة – إظهاراً لكرامتهم، وإبرازاً لعبوديتهم ، لأنهم هم الذين انتفعوا بمواهب الكتاب ومعارفه .

(٣) روى معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعا (يأيُّها النَّاسُ ، اتَّخِذُوا تَقْوَى اللهِ تِجَارَةً يَأْتِيكُم الرِّبْحُ بِلا بِضَاعَةٍ)، ثم قرأ : [وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً] الآية ، وعن ابن عباس مرفوعاً (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ الله) [إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ اتْقَاكُمْ] .

وفي التنزيل [وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً،وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ]، [وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً] ، [وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً] ، وقدفسرت التقوى بأنواع من التفسير ، وذلك كله مقبول كما للإمام (ط) رحمه الله .

(٤) من الآية ٧٣ من سورة آل عمران .

لِمُوسي][(١)] ، وبين التَّعْدِيَتَيْنِ فرْقٌ ، وذلك أن التعدية باللام في ضمنها تعد بالباء يفهم من المعنى[(٢)] .

واختلف القراءُ في همز (يؤْمنون) : فكان ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي يهمزون (يؤْمنون) وما أشبهه مثل : يأْكلون ، ويأْمرون ، ويؤْتون ، وكذلك مع تحرك الهمزة مثل : يؤَخركم ، ويؤَدّه ، إلا أن حمزة كان يستحب ترك الهمز إذا وقف ، والباقون يقفون بالهمز ، وروى وَرْش عن نافع تركَ الهمز في جميع ذلك . وقد رُوِيَ عن عاصم أنه لم يكن يهمز الهمزة الساكنة ، وكان أبو عمرو إذا أَدْرَج القراءة ، أو قرأ في الصلاة لم يهمز كل همزة ساكنة ، إلا أنه كان يهمز حروفاً من السواكن بأعيانها ستُذْكَرُ في مواضعها إن شاء الله .

وإذا كان سكون الهمزة علامة للجزم لم يترك همزُها مثل : (نَنْسَأْها) ، و (هَيِّئْ لَنَا) وما أشبهه .

وقوله [بِٱلْغَيْبِ] ـ قالت طائفة : معناه يصدقون إذا غابوا وخَلَوْا ، لا كالمنافقين الذين يُؤْمِنون إذا حضروا ، ويكفرون إذا غابوا ، وقال آخرون : يُصدِّقُونَ[(٣)] بما غاب عنهم مما أخبرت به الشرائع . واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك فقالت فرقة : الغيب في هذه الآية الله

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة يونس .

(٢) أي دون العكس ، فالتعدية بالباء لا تتضمن التعدية باللام .

(٣) يصدقون قولا وفعلا وعقداً بما غاب عنهم من الأخبار الشرعية .

والإيمان كلمة جامعة لكل ما يجب الإيمان به من المغيَّبات ، وللذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من دون أن يروه فضلٌ على غيرهم ، كما جاء بذلك جملة من الأحاديث .

عز وجل ، وقال آخرون : القضاءُ والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الحشر والصراط والميزان والجنة والنار . وهذه الأَقوال لا تتعارض ، بل يقع الغيب على جميعها (١) .

والغيب في اللغة : ما غاب عنك من أَمر ، ومن مطمئن الأَرض الذي يغيب فيه داخله .

وقوله : [يُقِيمُونَ] معناه : يظهرونها ويثبتونها(٢) كما يقال : أُقيمت السوق . وهذا تشبيه بالقيام من حالة خفاءِ قعودٍ أَو غيره ، ومنه قول الشاعر(٣) :

وإذا يُقالُ : أَتَيْتُمُ لَمْ يَبْرَحُوا حتَّى تُقِيمَ الخَيْلُ سُوقَ طِعَانِ

ومنه قول الشاعر :(٤)

أَقمنا لأَهْلِ العراقيْنِ سُوق الـضِّرَاب فخَاسُوا وَولَّوْا جميعًا

وأَصل (يُقِيمُون) يقْوِمون ، نقلت حركة الواو إلى القاف فانقلبت

(١) فهي من قبيل اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، كما قاله الشيخ ابن تيمية رحمه الله .

(٢) أي : يذيعونها ، ويحافظون على شروطها وفروضها الظاهرة والباطنة ، فهي من قولهم : قام الحق أي ظهر وثبت . ومنه قول الشاعر :

وإذا يقـال أتيتمُ لم يبرحـوا حتى تقيـم الخيل سوق طعـان

وقد جرت عادة الله في كتابه أنه لا يأمر بالصلاة ولا يمدح عليها إلا بلفظ الإقامة ، ولم يذكر لفظ المصلي إلا في مقام المنافقين ، إشارة إلى أن المصلّين كثير ، والمقيمين قليل ، كما قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه (الحاج قليل والركب كثير) .

(٣) هو مرار بن سعيد الفقعسي ، كما في (خزانة الأدب) الجزء ٣ صفحة ٢٣٣ ط بيروت .

(٤) هو أيمن بن خريم ، من بني أسد ، والبيت جاء في تفسير (ط) رحمه الله كذلك — وفي لسان العرب ، وتفسير الزمخشري :

أقامتْ غزَالةُ ســوقَ الضِّراب لأهْلِ العِرَاقَيْنِ حَــوْلا قَميطا

وغزالة : امرأة شبيب الخارجي الذي قتله الحجاج فحاربته سنة كاملة ، وسوق الضراب ، كناية عن ميدان القتال ، وخاسوا : ذلُّوا — ويروى (فخاموا) ومعناها : جبنوا . وقميطاً : تامّاً .

ياءً لكون الكسرة قبلها . و (ٱلصَّلاة) مأْخوذة منْ صلَّى يُصلي [١] إذا دَعا . كما قال الشاعر : [٢]

عليكِ مثلُ الذي صليْت فاغْتمِضي نوماً ، فإنَّ لِجنْبِ المرْءِ مُضْطَجَعا

ومنه قول الآخر :[٣]

لهَا حارسٌ لا يَبْرحُ الدَّهْر بيْتهَا وإنْ ذُبحَتْ صلَّى عليها وزَمْزَما

فلما كانت الصلاةُ في الشرع دعاءً انضاف إليه هيآت وقراءة سُمّي جميعُ ذلك باسم الدعاءِ . وقال قوم : هي مأْخوذة من الصَّلا وهو عرق في وسط الظهر ، ويفترق عند العجْب فيكتنفه ، ومنه أُخذ المُصلي في سبق الخيل لأَنه يأْتي مع صَلَوى السابق ، فاشْتُقَّتِ الصلاة منه ، إما لأَنها جاءَت ثانية للإيمان فشُبهت بالمُصلي من الخيل ، وإما لأَن الراكع والساجد ينْثَني صلَواه [٤] .

والقول إنها من الدعاءِ أَحسن .

وقوله تعالى : [ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] كُتبت (مِما) متصلة ، و (ما) بمعنى الذي فحقُّها أَن تكون منفصلة ، إلا أَن الجار والمجرور كشيءٍ واحد ، وأَيضاً فلما خفيت نون (مِنْ) في اللفظ حذفت في الخط ، و (الرِّزْقُ) عند أَهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أَو حراماً ،

(١) صلاة ، ولا يقال صلى تصلية كما في كتب اللغة .

(٢) هو الأعشى المعروف يخاطب بنته — وقبله :

تقول بنْتِي وقد قربْتُ مُرْتحلا يارب جَنِّب أبي الأوصاب والْوجَعَا

(٣) هو الأعشى أيضاً . وذبحت : أي شُق إناؤها أو ثقب — وزمزم : صوّت من بعيد تصويتاً له دوي غير واضح ، ويقال ، زمزم الأعجمي عند الأكل والشرب : رطن وهو مطبق فاه ، وصوَّتَ بصوت مبهم يديره في خيشومة وحلقه ، لايحرك فيه لساناً ولا شفة .

(٤) (الصَّلا) : جانب الذَّنَبِ عن يمينه وشماله ، وهما صَلَوان ، ووسط الظهر من الإنسان والدواب ، والجمع أَصْلاءٌ . والمصَلّي من خيل السباق : الذي يتلو السّابق .

بخلاف قول المعتزلة : إن الحرام ليس برزق[١] . و (يُنْفِقُونَ) معناه هنا : يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة ، وما ندبهم إليه من غير ذلك.

قال ابن عباس : ينفقون : يؤتون الزكاة احتساباً لها . قال غيره : الآية في النفقة في الجهاد .

قال الضحاك : هي نفقةٌ كانوا يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر يُسْرِهِمْ . قال ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً : هي نفقةُ الرَجُل على أهله . والآية تعم الجميع ، وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف [٢] .

قوله عز وجل :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

اختلف المتأولون [٣] فيمن المراد [٤] بهذه الآية ، وبالتي قبلها ، فقال قوم : الآيتان جميعاً في جميع المؤمنين ، وقال آخرون : هما في

---

(١) أي بناء على أن الرزق ما يُمْلَك لا ما يصح الانتفاع به ، ومِنْ ثَمَّ كان الحرامُ عندهم ليس برزق ، وعليه فَمَنْ عاش في الحرام فليس لله عليه رزق ، والنصوص تأبى ذلك وتمنعه .

(٢) فإطلاق النفقة يدل على العموم ، فلا فرق بين نفقة الفرض ونفقة النفل ، ولا بين النفقة على الأقارب والنفقة على الأجانب ، وكذلك الصلاة تشمل الفرائض والنوافل ، فإن المتقين يفعلون ذلك جميعاً ، و(مِنْ) في قوله تعالى:[ومِمَّا رزَقْنَاهُمْ] تبعيضية ، إشارة إلى أنه ينفق من ماله ويترك لنفسه ، ولعياله ، وهذا هو العدل .

(٣) أي المفسرون ، فإن التأويل والتفسير شيءٌ واحد عند المحققين ، ومِن ثَمَّ يقول أكثر علماء التفسير : القول في تأويل قوله تعالى كذا ، وعلى رأسهم الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى ، والمؤلف رحمه الله كثيراً ما يطلق التأويل على التفسير .

(٤) أي فيمن نزلت ، أفي المؤمنين جميعاً أم في مؤمني أهل الكتاب ؟

مؤمني أهل الكتاب ، وقال آخرون : الآية الأُولى في مؤمني العرب ، والثانية في مؤمني أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الأقوال لا تتعارض ، فمنْ جعل الآيتين في صنف واحد ، فإعراب (الذين) خَفْضٌ على العطفِ ، ويصحُّ أن يكون رفعاً على الاستئناف أي (وَهمُ الَّذِين) ، ومنْ جعل الآيتين في صنفين فإعراب (الذين) رفعٌ عَلَى الابتداءِ ، وخبره [أُولَٰئِك علي هُدًي] .

وقوله : [بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ] يعني القرآن ، [وَما أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ] يعني الكتب السالفة ، وقرأ أبو حيوة ، ويَزيد بنُ قطيب (بِما أَنْزَلَ) و(ما أَنْزلَ) بفتح الهمزة فيهما خاصة ، والفعل على هذا يحتمل أن يسند إلى الله تعالى ، ويحتمل إلى جبريل ، والأول أظهر وألزم .

و [بِالاخِرَةِ][(١)] قيل : معناه : بالدار الآخرة ، وقيل : بالنشأة الآخرة .

و [يُوقِنُونَ] معناه : يعلمون علماً متمكناً في نفوسهم ، واليقين أعلى درجات العلم ، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك بوجه .

وقول مالك رحمه الله : «فيحلف على يقينه ثم يخرج الأمر على خلاف ذلك» ، تجوُّزٌ في العبارة على عُرف تجوّز العرب ، ولم يقصد[(٢)] تحرير الكلام في اليقين .

---

(١) ذكر الآخرة بعد قوله : [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ] مع أن الغيب يشمل الآخرة وغيرها ــ كان لعظمها ، وللتنبيه على وجوب اعتقادها ، وللرد على الكفرة الجاحدين لها .

(٢) أي لأن اليقين وهو أعلى درجات العلم لا يمكن أن يخرج على خلاف المتيقن ، وإنما المراد به في عبارات الفقهاء الظن ، وكما يعبر عن الظن باليقين ، كذلك يعبر عن اليقين بالظن ، وذلك على سبيل المجاز . قال أبو القاسم الجنيد : اليقين هو استقرار العلم ، وقال أيضاً : اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب .

وقوله تعالى : [أُولَٰئِكَ] إشارة إلى المذكورين و (أُولاءِ) جمع (ذا) ، وهو مبني على الكسر ، لأَنه ضعف لإبهامه على قوة الأَسماءِ ، وكان أَصل البناءِ السكون ، فحرك [١] لالتقاءِ الساكنين ، و (الكاف) للخطاب ، و(الهُدى) هنا [٢] الإرشاد ، و[أُولَٰئِكَ] الثاني ابتداءٌ ، و [المُفْلِحُونَ] خبره ، و (هم) فصْل ، لأَنه وقع بين معرفتين ، ويصح أَن يكون (هُمُ) ابتداءً و (المفلحون) خبره ، والجملة خبر (أُولَٰئِكَ) .

والْفَلَحُ[٣] : الظفر بالبغية ، وإدراك الأَمل ، ومنه قول لبيد[٤] :

واعقلي ــ إن كُنْتِ لَمَّا تعْقلي ــ ولقَدْ أَفْلَحَ من كَانَ عقَلْ

وقد وَرَدَتْ للعرب أَشعارٌ فيها الفلاح بمعنى البقاءِ كقوله :

. . . . ونَرْجُو الفَلاحَ بَعْدَ عادٍ وحِمْيَر[٥]

وكقول الأَضبط :

لكلِّ همٍّ من الهُموم سَعَهْ والصُّبْحُ والمُسْيُ لا فَلاحَ معَهْ[٦]

(١) أي وكانت الحركة كسرة لما ذكره المؤلف رحمه الله .

(٢) سبق له في شرح [اهْدِنَا الصِرَاطَ المُسْتَقِيمَ] أن الهُدَى في هذه الآية معناها خلق الإيمان في القلب ، إلا أنه قال هناكَ : الهدى تتصرف في الكلام على وجوه وكلها ترجع إلى معنى الإرشاد ، فقوله : [على هُدى] أي على نور وبصيرة ، بإرشاده تعالى وتوفيقه ، وفي قوله تعالى : [مِنْ رَبِّهِم] ، دون أن يقال من أنفسهم رد على القدرية والمعتزلة .

(٣) الفَلَح : لغة في الفلاح .

(٤) راجع ديوانه .

(٥) هو للبيد بن ربيعة ــ وصدر البيت : نَحِلُّ بلاداً كلُّها حُلَّ قبلنا ....

(٦) هو الأضبط بن قريع السعدي وبعد البيت المذكور :

فَصِلْ حِبَالَ البعيد إن وصل الحبْلَ وأقْصِ القريب إنْ قَطَعَهْ

لا تحقِرَنَّ الفَقِير علَّكَ أن تركعَ يوماً والدهرُ قدْ رَفعَهْ

وارْضَ من الدهر ما أتاك به من يَرْضَ يوماً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ

قد يجمع المالَ غيرُ آكله ويأكل المَالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ

ومعنى البيت الأول : إنه ليس مع كرِّ الليل والنهار بقاء .

والبقاءُ يعقبه إدراك الأَمل والظفر بالبغية ، إذ هو رأْس ذلك وملاكه ، وحكى الخليل الفلاح على المعنيين .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

معنى الكفر(١) مأْخوذ من قولهم : كفر إذا غطى وستر ، ومنه قول الشاعر :

. . . . في ليلةٍ كَفَر النُّجُوم غمامُها(٢)

أَي سترها ، ومنه سُمِي الليل كافراً لأَنه يغطي كل شيءٍ بسواده ، قال الشاعر :

فتَذَكَّرا ثقَلاً رثيدًا بعْدما أَلْقتْ ذُكاءُ يمينَها في كافِر(٣)

ومنه قيل للزراع : كُفَّار ، لأَنهم يغطون الحَب .

فكفر في الدين معناه : غطى على قلبه(٤) بالرين عن الإِيمان ، أَو غطى الحق بأَقواله وأَفعاله .

---

(١) الكفر في الدين : كفرالتوحيد والإيمان ، وكفر النعمة والإحسان ، والمراد هنا الأول .

(٢) البيت من معلقة لبيد بن ربيعة وصدره :

يعلو طريقة متْنِها متواترا . . . .

(٣) هو لثعلبة بن صعيرة المازني يصف النعامة والظليم ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس ، والثِقَلُ هنا : البيض المَصون ، والرَّثيد المُنَسَّقُ بعضُه إلى بعض ، وذُكاء اسم للشمس ، وألقت يمينها في كافر : عبارة عن كونها بدأت في المغيب .

(٤) في هذه الفقرة قلق فقوله (على قلبه) مربوط بالرين ، وقوله (عن الإيمان) معلق بغطى والمعنى أنه غطى قلبه عن الايمان بما كسبه من الرين .

واختُلِف فيمن نزلت هذه الآية بعد الاتفاق على أنها غير عامة ، لوجود الكفار قد أسلموا بعدها ، فقال قوم : هي فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن ، أراد الله تعالى أن يُعْلِمَ أنَّ في الناس من هذه حاله دون أن يُعيَّنَ أحدٌ[١] . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية في حُيَيِّ ابن أخطب ، وأبي ياسر بن أخطب ، وكعب بن الأشرف ونظرائهم ، وقال الربيع بن أنس : نزلت في قادة الأحزاب[٢] وهم أهل القليب ببدر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هكذا حُكي هذا القول ، وهو خطأٌ ، لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم ، وإنما ترتبت الآية في أصحاب القليب ، والقول الأول مما حكيناه هو المعتمد عليه ، وكل من عيَّن أحدا فإنما مثَّل بمن كشف الغيبُ ـ بموته على الكفر ـ أنه في ضمن الآية .

وقوله : [سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ] ، معناه : معتدل عندهم[٣] ، ومنه قول الشاعر : [٤]

ولَيْلٍ يقولُ مِنْ ظُلماتِهِ سواءٌ صحيحاتُ العُيون وعُورُها

---

(١) في بعض النسخ : دون أن يعيِّنَ أحداً .

(٢) أي أحزاب الكفر ، روى ابن جرير ، وابن المنذر ، عن أبي العالية في قوله تعالى : [إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا] قال : نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب ، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية [أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا] قال : فهم الذين قتلوا يوم بدر ، ولم يدخل من القادة في الإسلام إلا رجلان : أبو سفيان ، والحكم بن العاص .

(٣) اعتدل الشيء توسط بين حالين ، وتناسب ، واستوى ، فسواء بمعنى مُسْتَوٍ .

(٤) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

قال أَبو علي : في اللفظة أربع لغات : سِوى [(١)] « بكسر السين» ، وسواءٌ «بفتحها والمد » ، وهاتان لغتان معروفتان ، ومن العرب من يكسر السين ويمُدُّ ، ومنهم من يضم أَوله ويقصره ، وهاتان اللغتان أَقل من تينك ، ويقال : سِيِي بمعني سواء كما قالوا : قِيِي [(٢)] وقواء .

و (سواءٌ) رُفع على خبر إن ، أَو رفع على الابتداءِ [(٣)] وخبره فيما بعده ، والجملة خبر إن ، ويصح أَن يكون خبر إن (لا يؤمنون) ، وقرأَ أَبو عمرو ، وابن كثير ، ونافع : (آنذَرْتهُمْ) بهمزة مطولة [(٤)] ، وكذلك ما أَشبه ذلك في جميع القرآن ، وكذلك كانت قراءة الكسائي إذا خفف ، غير أَن مَدَّ أَبي عمرو أَطول من مدِّ ابن كثير لأَنه يدخل بين الهمزتين أَلفاً ، وابن كثير لا يفعل ذلك ، وروى قالون ،

---

(١) منه قوله تعالى : [فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوى] قرئ في السَّبْع «بالكسر والضم» .

(٢) القِيِي والقواء قفر الأرض .

(٣) الكلام محمول على المعنى ، فسواء وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو خبر في المعنى ، أي « الإنذار أو عدمه سواء عليهم» . كقولك : سواء عليّ أقمتَ أم قعدتَ — أي « قعودك أو قيامك سواء علي » .

(٤) اعلم أن القراء اختلفوا في الهمزة الثانية التي هي فاء الكلمة من قوله تعالى: [أأنذرْتَهُمْ] فقالون والبصري يسهلانها ويدخلان بين الهمزتين ألفاً . وورش وابن كثير يسهلانها من غير إدخال ، ولورش أيضاً إبدالها ألفاً فيلتقي مع سكون النون إلا أن المدّ لازم في هذه الحالة — والباقون يحققون من غير إدخال إلا هشاماً فله التحقيق والتسهيل مع الإدخال . ولقد طعن الزمخشري في قراءة ورش من حيث أنها تؤدي إلى الجمع بين الساكنين على غير حدّه ، ولا شاهد له على ذلك.

والحق أن هذه القراءة صحيحة ومتواترة ، وهذا أقوى شاهد على ذلك — وأيضاً فقد أجاز الكوفيون ذلك ، ويكفي مذهبهم في ذلك ، ومن هنا أُنَبِّه إلى أن الزمخشري سامحه الله كثير الطعن في القراءات ، فلا تحفل بكلامه في هذا المقام ، ولا تخدعنك شقشقة الكلام ، والتوفيق بيد الله تعالى .

وإسماعيل ابن جعفر ، عن نافع إدخال الألف بين الهمزتين مع تخفيف الثانية ، وروى عنه ورش تخفيف الثانية بين بين دون إدخال ألف بين الهمزتين ، فأما عاصم وحمزة والكسائي – إذا حقق – وابن عامر ، فبالهمزتين (أَأَنْذَرْتَهُمْ) ، وما كان مثله في كل القرآن ، وقرأ ابن عباس ، وابن أبي اسحق بتحقيق الهمزتين ، وإدخال ألف بينهما . وقرأ الزهري ، وابن محيصن (أَنْذَرْتهُمْ) بحذف الهمزة الأولى ، وتدل (أَمْ) على الألف المحذوفة .

وكثر مكي في هذه الآية بذكر جائزات لم يُقْرأ بها ، وحكاية مثل ذلك في كتب التفسير عناءٌ .

والإنذار إعلامٌ بتخويف ، هذا حدُّه ، وأنذرت فعل يتعدى إلى مفعولين ، قال الله عز وجل [فقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ](١) وقال : [إنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قريباً](٢) وأحد المفعولين في هذه الآية محذوف لدلالة المعنى عليه . وقوله تعالى : [أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ] لفظه لفظُ الاستفهام ، ومعناه الخبر ، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام ، ألا ترى أنك إذا قلت مخبراً : سواءٌ عليّ أقعدت أم ذهبت ، وإذا قلت مستفهماً : أخرج زيد أم قام ؟ فقد استوى الأمران عندك ، هذان في الخبر ، وهذان في الاستفهام ، وعدم علم أحدهما بعينه ، فلما عمتهما التسوية جرى على هذا الخبر

(١) من الآية (١٣) من سورة (فصلت) .

(٢) من الآية (٤٠) من سورة (النبأ) .

لفظ الاستفهام لمشاركته إياه في الإبهام ، وكل استفهام تسوية ، وإن لم تكن كل تسوية استفهاماً [١] .

وقوله تعالى : [خَتَمَ اللهُ] مأْخوذٌ من الختْم وهو الطبع ، والخاتم الطابع ، وذهبت طائفة من المتأَولين إلى أَن ذلك على الحقيقة ، وأَن القلب على هيئة الكف ينقبض مع زيادة الضلال والإعراض إصْبعاً إصْبعاً [٢] ، وقال آخرون : ذلك على المجاز ، وأَن ما اخترع [٣] الله في قلوبهم من الكفر والضلال والإعراض عن الإيمان سماه ختماً . وقال آخرون ممن حمله على المجاز [٤] : الخَتْمُ هنا أُسْند إلى الله تعالى لـمَّا كفر الكافرون به ، وأَعرضوا عن عبادته وتوحيده ، كما يقال : أَهلك المال فلاناً ، وإنما أَهلكه سوءُ تصرفه فيه [٥] ، وقرأَ الجمهور (وعلَى

(١) قال أبو عبيدة في كتاب « مجاز القرآن » في هذه الآية الكريمة – هذا كلام هو إخبار خرج مخرج الاستفهام ، وليس هذا إلا في ثلاثة مواضع هذا أحدها والثاني : « ما أبالي أقْبَلْتَ أم أدْبَرْتَ » . والثالث : « ما أدري أوَلّيْتَ أم جاء فلان » . انتهى ، وقد أثنى أبو (ح) رحمه الله على ما قاله ابن عطية إلا أنه ناقشه في قوله : ومعناه الخبر ، انظره وتأمله . وكما يجيء الاستفهام بمعنى الخبر يأتي الخبر بمعنى الاستفهام كقوله تعالى: [وتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أنْ عَبَّدْتَ بَنِي إسْرَائِيلَ] .

(٢) إسناد الختم إلى الله تعالى جار على أن جميع الحوادث تستند إليه تعالى من حيث الخلق والإيجاد ، وورود الآية الكريمة ناعية على الكفرة سوء تصرفهم وقُبْحَ سلوكهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم ، والمعتزلة تكلفوا مسلك التأويل في هذا المقام ، وأكثروا من القول والكلام جرياً وراء مذهبهم من أن المنع من الإيمان قبيح لا يليق به تعالى . وأهل الحق يقولون : الله خلق كل شيء ، كما نطق بذلك القرآن ، فهو خالق الخير والشر .

(٣) أي خلق ، يقال : اخترع الله الكائنات ابتدعها من العدم ، وتلك من عبارة ابن عطية رحمه الله في هذا التفسير .

(٤) المجاز الأول مجاز الاستعارة ، والمجاز الثاني مجاز الإرسال ، تأمل .

(٥) بمعنى أن الذي ختم على قلوبهم وعلى سمعهم هو سوء كسبهم ، وفساد عقلهم .

سَمْعِهِمْ) ، وقرأَ ابن أَبي عبلة (وعلى أَسْماعِهِمْ) ، وهو في قراءَة الجمهور مصدر يقع للقليل والكثير ، وأَيضاً فلما أُضيف إلى ضمير جماعة دلَّ المضاف إليه على المراد ، ويحتمل أَن يريد على مواضع سمعهم فحذف المضاف ، وأُقيم المضاف إليه مقامه . و (الغشاوةُ) : الغطاءُ المُغشِّي الساتر ، ومنه قول النابغة :

هلا سأَلت بني ذبيانَ ما حسبي إذا الدُّخانُ تَغَشَّى الأَشْمط البَرما[1]

وقال الآخر : [2]

تَبعْتك إِذْ عَيْني عليها غِشَاوةٌ فلمَّا انْجَلتْ قطعْتُ نفسي أَلُومُها

ورفع (غِشاوَةٌ) على الابتداءِ ، وما قبله خبر ، وقرأَ عاصم فيما روى المفضل الضبي عنه (غشَاوةً) بالنصب على تقدير : وجعل على أَبصارهم غشاوةً ، والختمُ – على هذا التقدير – في القلوب والأَسماع ، والغِشاوة على الأَبصار ، والوقف على قوله : [وَعلَى سمْعِهِمْ] ،وقرأَ الباقون (غشاوةٌ) بالرفع ، قال أَبو علي : وقراءَة الرفع أَولى ، لأَن النصب : إما أَن تحمله[3] على ختم الظاهر فيعترض في ذلك أَنك حلت بين حرف العطف والمعطوف به ، وهذا عندنا إنما يجوز في الشعر ، وإما أَن تحمله

(١) الأشمط الذي خالطه الشيب ، والبرم بالتحريك الذي لا يدخل مع القوم في الميسر ، والنابغة اسمه زياد بن معاوية .

(٢) هو الحارث بن خالد المخزومي كما في لسان العرب – وفي رواية صحبتك بدل تبعتك .

(٣) بحيث تقول : ختَم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم ، على أن غشاوة مصدر نائب عن الفعل ، وهذا إنما يكون في الدعاء لا في الخبر ، وذلك ما يناسب المذهب الاعتزالي لأبي علي الفارسي الذي كان متهماً به .

على فعل يدل عليه خَتَم تقديره : وجعل على أَبصارهم ، فيجيءُ الكلام من باب :

. . . . متقلداً سيفــاً ورمحاً (١)

وقول الآخر :

. . . . عَلَفْتُهَـا تبْناً وماءً بارداً (٢)

ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حالِ سعةٍ واختيار ، فقراءَة الرفع أَحسن ، وتكون الواو عاطفةً جملةً على جملة ، قال : ولم أَسمع من الغشاوة فعلا مصرفاً بالواو ، فإِذا لم يوجد ذلك وكان معناها معنى ما اللام منه الياءُ من غشي يغشى بدلالة قولهم : الغشيان ، فالغشاوة من غشى كالجباوة(٣) من جبيت في أَن الواو كأَنها بدل من الياءِ إِذ لم يصرف منه فعل كما لم يصرف من الجباوة .

وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأَسماع والأَبصار – والوقف في قوله :[عَلَى قُلوبِهِمْ] ، وقال آخرون : الختم في الجميع ، والغشاوة هي الخاتم (٤) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد ذكرنا(٥) اعتراض أَبي علي على هذا القول .

---

(١) قائله عبد الله بن الزبعرى كما في الكامل للمبرد ،وأوله .

يا ليت زوجك قد غــــدا . . . .

أي وحاملا رمحاً ، وفي رواية : ورأيت زوجك في الوغى .

(٢) صدره : لمَّا حَطَطْتُ الرَّحْل عنهَا واردا . . . .

وقد قيل : إنه لذي الرمة .

(٣) بالجيم والباءمن قولهم : جبى الخَراج كرمى وسَعَى ،جِباية وجِباوة بكسر الجيم فيهما .

(٤) في بعض النسخ هي الختم .

(٥) أي في مبحث قراءة من نصب غشاوة .

وقرأ أَبو حَيْوة (غَشْوةٌ) بفتح الغين والرفع ، وهي قراءة الأَعمش ، وقال الثوري : كان أَصحاب عبد الله يقروونها (غَشْيَةً) بفتح الغين والياءِ والرفع ، وقرأ الحسن (غُشاوة) بضم الغين ، وقُرئتْ (غَشاوة) بفتح الغين ، وأَصوب هذه القراءَات المقروءِ بها ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن (عِمامة) ، والأَشياءُ التي هي أَبداً مشتملة هكذا يجيءُ وزنها كالضمامة والعمامة والكتابة والعصابة والربابة وغير ذلك[١] .

وقوله تعالى : [ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] معناه : بمخالفتك يا محمد ، وكفرهم بالله ، استوْجبوا ذلك ، و(عظِيمٌ) معناه بالإِضافة إلى عذاب دونه يتخلله فتور ، وبهذا التخلل المتصور يصح أَن يتفاضل العرضان كسوادين : أَحدهما أَشبع من الآخر إذ قد تخلل الآخر ماليس بسواد .

قوله عز وجل :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

كان أَصل النون أَن تكسر للالتقاءِ ، لكنها تفتح مع الأَلف واللام ، ومَنْ قال استثقلت كسرتان تتوالى في كلمة على حرفين فمعترض بقولهم : من ابنك ومن اسمك وما أَشبهه ، واختلف النحويون في لفظة (النَّاسِ) ، فقال قوم : هي من نَسِي ، فأَصل ناس نَسِي قُلِبَ فجاءَ نَيَس ، تحركت الياءُ وانفتح ما قبلها فانقلبت أَلفاً فقيل : ناس ، ثم دخلت الأَلف واللام ، وقال آخرون : ناس اسم من أَسماءِ الجموع دون هذا التعليل

(١) تعليل لأرجحية الكسر ، يعني أن العرب تستعمل مثل هذا الوزن في كل ما كان مشتملا على شيء كالعِمامة والقِلادة والكِتابة وما شابه ذلك .

دخلت عليه الأَلف واللام. وقال آخرون: أَصل ناس أُناس، دخلت الأَلف واللام في الأُناس حذفت الهمزة فجاءَ الناس، أُدغمت اللام في النون لقرب المخارج.

وهذه الآية نزلت في المنافقين (١).

وقوله تعالى: [مَنْ يَقُولُ آمنَّا بِٱللَّهِ] رجع من لفظ الواحد إلى لفظ الجمع بحسب لفظ (من) ومعناها، وحسن ذلك، لأَن الواحد قبل الجمع في الرتبة، ولا يجوز أَن يرجع متكلم من لفظ جمع إلى توحيد، لو قلت: «ومن الناس من يقومون ويتكلم» لم يجز. وسمى الله تعالى يوم القيامة اليوم الآخر لأَنه لا ليل بعده، ولا يقال يوم إلا لما تَقَدَّمَهُ ليل، ثم نفى تعالى الإيمان عن المنافقين، وفي ذلك رد على الكَرَّامية (٢) في قولهم: «إن الإيمان قول باللسان وإن لم يُعْتَقَدْ بالقلب».

واختلف المتأَولون في قوله تعالى: [يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ]، فقال الحسن ابن أَبي الحسن: المَعْنى يخادعون رسول الله، فأَضاف الأَمر إلى الله

---

(١) بدأ سبحانه سورة البقرة بذكر المؤمنين، وبيان صفاتهم لفضلهم وشرفهم، ثم أتبعهم بذكر الكافرين لأن الكفر ضد الإيمان، وضد الشيء أقرب خُطوراً بالبال، وأخَّر ذكر المنافقين لأنهم جمعوا بين الإيمان ظاهراً والكفر باطناً، ولما كان المنافقون يشتبهون على الناس في أمرهم، لتلونهم، وكثرة صفات نفاقهم، أطنب سبحانه في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل فيهم سورة (براءة) وسورة (المنافقون)، وذكر منهم في سورة (النور)، والغرض من ذلك تنبيه المؤمنين ليحترزوا من مكايدهم، وليتجنبوا صفاتهم — والنفاق وهو من الألفاظ الإسلامية نفاق اعتقادي، ونفاق عملي، والمراد هنا الأول.

(٢) بفتح الكاف وتشديد الراء نسبة إلى أبي عبد الله محمد بن كرّام السجستاني — وقولهم هذا استندوا فيه إلى قوله تعالى: [فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا] وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتَ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إله إلا الله) وهذا منهم جمود، وترك للنظر فيما نطق به الكتاب والسنة، من اعتبار العمل مع القول والاعتقاد، وما أكثر ذلك، نسأل الله الهداية والتوفيق.

تجوّزاً[1] لتعلق رسوله به ، ومخادعتهم هي تحيُّلهم في أن يُفشي رسولُ الله والمؤمنون لهم أَسرارهم فيتحفظون بما يكرهونه ، ويتنبهون من ضرر المؤمنين على ما يحبونه . وقال جماعة من المتأَولين : بل يخادعون الله والمؤمنين ، وذلك بأَن يظهروا من الإيمان خلاف ما أَبطنوا من الكفر ، ليحقنوا دماءَهم ، ويحرزوا أَموالهم ، ويظنون أَنهم قد نجوا وخَدعوا وفازوا ، وإنما خَدَعوا أَنفسهم ، لحصولهم في العذاب ، وما شعروا لذلك.

واختلف القراءُ في (يَخْدَعُونَ) الثاني ، فقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو (يُخَادعون) ، وقرأَ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي (وما يخْدعُونَ) ، وقرأَ أَبو طالوت عبد السلام بن شداد ، والجارود ابن أَبي سبرة (يُخْدَعُونَ) بضم الياءِ[2] ، وقرأَ قتادة ، ومُورِق العجلي[3] (يُخَدِّعون) بضم الياءِ وفتح الخاءِ وكسر الدال وشدّها ، فوجه قراءَة ابن كثير ومن ذكر إحراز تَنَاسُب اللفظ ، وأَن يُسمَّى الفعل الثاني باسم الفعل الأَول المسبِّبِ له ، ويجيءُ ذلك كما قال الشاعر : [4] .

أَلا لا يَجْهلَنْ أَحدٌ علينا فَنَجْهل فَوْقَ جَهْل الجَاهلينَا

فجعل انتصاره جهْلا ، ويؤيد هذا المنزع في هذه الآية أَن (فَاعل) قد تجيءُ من واحد ، كعاقَبْتُ اللص وطَارَقْتُ النعل[5] . وتتجه أَيضاً

(١) من حيث أن مخادعة الرسول مخادعة لله ـــ ومطاوعة الرسول مطاوعة لله سبحانه وتعالى .

(٢) أي وفتح الدال على معنى وما (يُخْدَعُونَ) إلا عن أنفسهم .

(٣) بضم أوله وكسر المهملة هو ابن مشمرخ كمدحرج ، يَروي عن عمر وأبي ذر وأبي الدرداء ، ويروي عنه مجاهد وقتادة ، مات في ولاية عمر بن هبيرة .

(٤) هو عمرو بن كلثوم ، والبيت من معلقته ، وقوله : فنجهل المراد أننا ننتصر على كل من جهل علينا ، وعبر عن ذلك بالجهل لمجانسة ما قبله وإلا فلا يفخر عاقل بالجهل .

(٥) المطارقة : النعل المخصوفة ، والخصف في النعل كالرقع للثوب.

هذه القراءة بأن يُنَزَّل ما يخطر ببالهم ، ويهجس في خواطرهم ، من الدخول في الدين ، والنفاق فيه ، والفكر في الأَمر وضده في هذا المعنى – بمنزلة محاورة أَجنبيَّيْن ، فيكون الفعل كأَنه من اثنين ، وقد قال الشاعر (١) :

تَذَكَّرَ مِنْ أَنَّى ومِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ يُؤَامِرُ نَفْسَيْهِ كَذي الهَجْمَةِ الآبِلُ

وأَنشد ابن الأَعرابي (٢) :

لَمْ تَدْر ما . لا . وَلَسْتَ قَائِلَها عُمْرَكَ ما عِشْتَ آخر الأَبَدِ
وَلَمْ تُؤامِرْ نَفْسَيْكَ مُمْتَرياً فيها وفي أُخْتِهـا ولمْ تكَدِ

وقال الآخر (٣) :

يُؤامِرُ نَفْسَيْهِ وفي العيْش فُسْحَةٌ أَيَسْتَرْجِعُ الذُّوبَانَ أَمْ لا يَطُورُها؟

وأَنشد ثعلب عن ابن الأَعرابي :

وَكُنْت كَذَاتِ الضِنْئِ لَمْ تَدْرِ إِذْ بغَتْ تُؤامِرُ نَفْسيْهَا أَتسْرقُ أَمْ تزْنِي ؟(٤)

---

(١) هو الكميت كما في لسان العرب ، والآبِلُ اسم فاعلٍ من أَبِلَ كفرح إذا أحْسَن رعية الإبِلِ وقام بأمرها .

(٢) في « لسان العرب » : وأنشد الطوسي : (لَمْ تدْر مَا . لا . ولسْتَ قائِلَها) الخ ، وابن الأعرابي هو محمد بن زياد أبو عبد الله ، توفي بسامرا سنة ٢٣١ هـ ، وكان إليه المنتهى في معرفة لسان العرب . والطوسي ممن أخذ عنه .

(٣) ذكر ابن دُرَيْدٍ ، عن أبي عثمان صاحب معاني الشعر ، أنه لرجل من بني فزارة ، وقوله : يؤامر نفسيه إلخ ... فيه جعل النفس المميزة نفسين ، وذلك أن النفس قد تأمر بالشيء وتنهى عنه ، وهذا عند الإقدام على أمر مكروه ، فجعلوا التي تأمر نفساً ، وجعلوا التي تنهى كأنها نفس أخرى وعلى هذا جاء قول الشاعر ، ويقال : فلان يؤامر نفسيه إذا اتجه له رأيان . والذوبان جمع ذئب يقال لصعاليك العرب ولصوصها ، لأنهم كالذئبان ، وأصل الذوبان بالهمز فخفف فانقلبت واوا .

(٤) يقال ضنأت المرأة تَضْنَأ ضَنْئاً كثر ولدها ، فهي ضانئة أي كثيرة الأولاد وهو لعبد الله بن الزبير الأسدي .

ووجه قراءة عاصم ومن ذكر أن ذلك الفعل هو خدعٌ لأَنفسهم يمضي عليها تقول : خادعت الرجل بمعنى أَعملت التحيُّل عليه فخدَعْتُه بمعنى : تمت عليه الحيلة ، ونفذ فيه المراد ، والمصدر خِدْع بكسر الخاءِ وخديعة ، حكى ذلك أَبو زيد ، فمعنى الآية : وما ينفذون السوءَ إلا على أَنفسهم وفيها.

ووجه قراءة أَبي طالوت أَحد أَمرين : إما أَن يُقَدَّر الكلامُ وما يُخْدَعُون إلا عن أَنفسهم ، فحذف حرف الجر ووصل الفعل. كما قال تعالى : [واخْتار مُوسى قَوْمَه](١) أَي من قومه ، وإما أَن يكون (يُخْدَعُونَ) أُعمل عمل ينتقضون لما كان المعنى : وما ينتقضون ويستلبون إلا أَنفسهم(٢) ، ونحوه قول الله تعالى : [لَيْلَةَ الصِّيَام الرَّفَثُ إلى نَسائِكُمْ](٣) ولا تقول : رفَثْتُ إلى المرأَة ، ولكن لمَّا كان بمعنى الإِفضاءِ ساغ ذلك . ومنه قوله تعالى : [هل لَّكَ إِلَى أَنْ تزكَّي](٤) وإنما يقال : هل لك في كذا ، ولكن لمَّا كان المعنى : أَجذبك إلى أَن تزكى ساغ ذلك وحَسُن ، وهو باب سنيٌّ من فصاحة الكلام . ومنه قول الفرزدق :

كَيْفَ تَرَانِي قَالِبــاً مجنِّي قَدْ قَتَــلَ اللهُ زياداً عَنِّي (٥)

(١) من الآية (١٥٥) من سورة (الأعراف) .

(٢) والقاعدة المتعارفة أن الفعل إذا تضمن معنى فعل جاز أن يعمل عمله كما تقول طرحت بالرداء إذا ضمنته رميت به ، وإلا فـ(طَرحَ) يتعدى بنفسه . والوجه الأول أحسن .

(٣) من الآية (١٨٧) من سورة (البقرة) .

(٤) من الآية (١٨) من سورة (النازعات) .

(٥) في بعض الروايات : كيف تراني قالِباً مِجَنِّي أَضْربُ أَمْري ظَهْرَهُ لِبَطْني .
قد قتل الله زياداً عنّي

والمراد زياد بن أبيه ، وهذه الزيادة منقولة من كتاب النقائض والشاهد أنه عدّى الفعل (قتل) بـ (عن) .

لما كانت قَتَلَ قد دخلها معنى صرفَ ، ومنه قول الآخر : (١)

إذا رَضِيَتْ عليَّ بَنُو قُشَيْــــــر لعمر الله أَعجبَني رِضَاهَــــــا

لما كانت رضيت قد تضمنت معنى أقبلت علي(٢) . وأما الكسائي فقال في هذا البيت : وَصَـلَ رَضِي بِوَصْل نقيضه وهو سَخِط ، وقد تجري أمور في اللسان مجري نقائضها(٣) .

ووجه قراءة قتادة المبالغة في الخدع ، إذ هو مصير إلى عذاب الله .

قال الخليل : يُقال : خَادَع من واحد لأَن في المخادعة مهلة ، كما يقال : عالجت المريض لمكان المهلة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا من دقيق نظره ، وكأَنه يرد فَاعَلَ(٤) إلى اثنين ولابد من حيث ما فيه مهلة ومدافعة ومماطلة ، فكأَنه يقاوم في المعنى الذي تجيءُ فيه فاعل .

وقوله تعالى :[وما يَشْعُرُونَ] معناه : وما يعلمون علم تفطُّن وتهدٍّ ،

(١) قائله قحيف بن خمير شاعر إسلامي مقل ، تشبب بخرقاء التي تشبب بها ذو الرمة .

وبعد البيت : ولا تنبُو سيوفُ بني قشير ولا تمضي الأسنَّة في صفاها .

(٢) لعلّ الصواب أن يقول : لما كان (رضي) قد تضمن معنى (أقبل) .

(٣) بمعنى أنه يتعدى بما يتعدى به نقيضه . والقاعدة أنّ الشيء يحمل على النقيض كما يحمل على النظير ، ومن ذلك قوله تعالى : [تُسِرونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ] فهو محمول على نقيضه وهو الجهر أو على نظيره وهو المخافتة ، فيوصل بما يوصلان به ، وقد قال الله تعالى : [وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا] ولولا ذلك لما جاز وصل تُسِرونَ بالباء لأنها تتعدى بنفسها فيقال : (أسررت الحديث إسراراً) أخفيته .

(٤) بابها الغالب أن تكون من اثنين بحيث يفعل كل منهما بصاحبه ما يفعله صاحبه به ، مثل خاصمته ، وحاربته ، وقد تكون المفاعلة من واحد لكن بينه وبين غيره نحو عاقبت اللص ، فهي محمولة على الفعل الثلاثي ، وبذلك يعلم أن المفاعلة إن كانت من اثنين كانت من كل واحد . وإن كانت بينهما كانت من أحدهما .

وهي لفظة مأْخوذة من الشِّعار كأَن الشيءَ المُتَفَطَّن له شعار للنفس ، والشعار : الثوب الذي يلي جسد الإنسان ، وهو مأْخوذ من الشعر ، والشاعر المتفطن لغريب المعاني ، وقولهم ليت شعري معناه : ليت فطْنَتِي تُدْرك ، ومن هذا المعنى ، قول الشاعر :

عَقُّوا بسهْم فلمْ يشعُرْ بِهِ أَحَـدٌ ثُمَّ اسْتَفاءُوا وقالُوا : حَبَّذَا الوَضَحُ (١)

واختُلفَ : ما الذي نفى الله عنهم أَن يشعروا له(٢) ؟ فقالت طائفة : وما يشعرون أَن ضرر تلك المخادعة راجع عليهم لخلودهم في النار ، وقال آخرون : وما يشعرون أَن الله يكشف لك سرَّهم ومخادعتهم في قولهم : آمنا .

قوله عز وجل :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

المرضُ عبارة مُسْتَعَارَةٌ للفساد الذي في عقائد هؤلاءِ المنافقين ، وذلك إما أَن يكون شكاً ، وإما جحْداً بسبب حسدهم ، مع علمهم بصحة ما يجْحدون ، وبنحو هذا فسَّر المتاوِّلُون . وقال قوم : المرض غمُّهم بظهور أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأَ الأَصمعي على أَبي عمرو : (مَرْضٌ) بسكون الراءِ ، وهي لغة في المصدر . قال أَبو الفتح : وليس

(١) هو للمتنخل الهذلي ، وهو مالك ، بن عمرو ، بن سويد ، اللحياني ، ومعنى عقُّوا : رموا بسهم نحو الهواء إشعاراً منهم أنهم قد قبلوا الدية ، ورضوا بها عوضاً عن الدم ، والوَضَحُ اللبن ، أي قالوا : حبذا الإبلُ التي نأخذها بدلا من دم قتيلنا فنشرب لبنها .

(٢) أي يتفطنوا له .

بتخفيف ، واختلف المتأولون في معني قوله : [فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً] فقيل : هو دعاءٌ عليهم[١] ، وقيل : هو خبر أن الله قد فعل بهم ذلك ، وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي ، ويظهر من البراهين ، فهي على هؤلاءِ المنافقين عمًى ، وكلما كذبوا زاد المرض ، وقرأ حمزة (فزِادهُمْ) بكسر الزاي[٢] وكذلك ابن عامر ، وكان نافع يشم الزاي إلى الكسر ، وفَتح الباقون . و [أَلِيمٌ] معنـاه مُؤْلِمٌ ، كما قال الشاعر وهو عمرو ابن معدي كرب :

أَمِنْ ريْحانةِ الدَّاعِي السَّميع . . . .

بمعنى مُسْمع[٣] .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر [يُكذِّبون] بضم الياءِ وتشديد الذال ، وقرأ الباقون بفتح الياءِ وتخفيف الذال ، فالقراءة بالتثقيل يؤيدها قوله تعالى قبل: [وما هُمْ بِمُؤْمنينَ] فهذا إخبار بأَنهم يُكِّذبون ، والقراءة بالتخفيف يؤيدها أن سياق الآيات إنما هي إخْبَارٌ

---

(١) قال في (خ) : لما تكلم ابن عطية رحمه الله على تفسير قوله تعالى: [عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَوْءِ] قال : كل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله تعالى فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء لأن الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته ، ومن هذا [وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَة] [وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ] وهي كلها أحكام تامة تضمنهـا خبره تعالى ، فكون الآية خبرية أحْسَنُ من أن تكون دعائية .

(٢) هذا هو ما يسمى بالإمالة المحْضَة .

(٣) التشبيه في كون فَعِيل بمعنى مُفْعِل . فأليم في الآية معناه مؤلم وموجع ، وسميع في كلام الشاعر معناه مسمع وتمام البيت : يؤرِّقُني وأصحابي هجوع .
والشاعر صاحب ريحانة أخت دريد بن الصمة .

بكذبهم[١] ، والتوعد بالعذاب الأَليم متوجه على التكذيب ، وعلى الكذب في مثل هذه النازلة إذ هُو مُنْطَو على الكفر ، وقراءة التثقيل أَرجح .

و[إذا] ظرف زمان . وحكي عن المبرد أَنها في قولك في المفاجأَة : «خرجت فإذا زيد» ظرف مكان لأَنها تضمنت جثة ، وهذا مردود ، لأَن المعنى : خرجت فإذا حضور زيد ، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان ، ومنه قولهم : «اليَومَ خَمْرٌ ، وَغَداً أَمرٌ» فمعناه وجود خمر ، ووقوع أَمر ، والعامل في [إِذَا] في هذه الآية : قالوا. وأَصْل [قِيلَ] قُوِلَ ، نُقِلَتْ حركة الواو إلى القاف فقلبت ياءً لانكسار ما قبلها ، وقرأ الكسائي : قُيل وغُيض وسُيءَ وسُيئت وحُيل وسُيق وجُيءَ بضم أوائل ذلك كله ، وروى ذلك عن ابن عامر ، وروى عنه أَنه كسر غِيض وقِيل وجِيءَ ، الغين والقاف والجيم ، حيث وقع من القرآن ، وضمَّ نافع من ذلك كله حرفين سُيءَ وسُيِئَتْ ، وكسَر ما بقي . وكان ابن كثير ،وعاصم ، وأَبو عمرو ،وحمزة ، يكسرون أَوائل هذه الحروف كلها .

والضمير في [لَهُمْ] عائد إلى المنافقين المشار إليهم قبل . وقال بعض الناس : الإشارة هنا هي إلى منافقي اليهود . وقال سلمان الفارسي رضي

(١) أي في قولهم : [آمَنَّا] فقولهم ذلك كذب وزور ، كما قال تعالى : [إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] وهم في واقع الأمر كانوا كذبة ومُكَذِّبِين . فالتثقيل أرجح لأن من كَذَّبَ فقد كَذَبَ .

الله عنه في تفسير هذه الآية : لم يجئ[1] هؤلاءِ بعد ، ومعنى قوله : لم ينقرضوا ، بل هم يجيئون في كل زمان .

و [لاَ تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ] معناه : بالكفر وموالاة الكفرة ، و [نَحْنُ] اسم من ضمائر الرفع مبني على الضم إذ كان اسماً قوياً يقع للواحد المعظم ، والاثنين ، والجماعة ، فأُعطي أسني الحركات ، وأيضاً فلما كان في الأَغلب ضمير جماعة ، وضمير الجماعة في الأَسماءِ الظاهرة الواو أُعْطِي الضمة إذ هي أُخت الواو .

ولقول المنافقين [إنما نحْنُ مُصْلحُون] ثلاث تأْويلات : أَحدها : جحد أَنهم يفسدون ، وهذا استمرار منهم على النفاق . والثاني : أَن يُقرُّوا بموالاة الكفار ، ويدَّعون أَنها صلاح من حيث أَنهم قرابة توصل ، والثالث : أَنهم مصلحون بين الكفار والمؤمنين ، فلذلك يداخلون الكفار .

و [أَلا] استفتاح كلام ، و [إن] بكسر الأَلف استئناف ، و[هُمُ] الثاني رفع بالابتداءِ ، و [المفسدون] خبره ، والجملة خبر إن ، ويحتمل أَن يكون فصلا ، ويسميه الكوفيون العماد ، ويكون المفسدون خبر

---

(١) رواه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه ابن جرير الطبري بسنده في تفسير هذه الآية الكريمة وقال : يحتمل أن سلمان رضي الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أنه عني أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد — قال ابن جرير : فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم ، وتضييعهم فرائضه ، وشكهم في دينه الذي لايُقْبَلُ عملٌ من أحد الا بالتصديق به ، وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله ورسله وكتبه على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فذلك إفساد المنافقين في الأرض وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها ، قال ابن (ك) رحمه الله : وكذا الذي قاله حسَنٌ ، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء ، انتهى . فهذه الآية تخاطب أهل كل زمان يصورون الإفساد بصورة الإصلاح .

إن . فعلى هذا لا موضع لِـ[هُمْ] من الإعراب ، ويحتمل أن يكون تأْكيداً للضمير في (إنهم)، فموضعه نصب .

ودخلت الأَلف واللام في قوله : [الْمُفسِدُونَ] لما تقدم ذكر اللفظة في قوله : [لاَ تُفْسِدُوا] فكأَنه ضرب من العهد ، ولو جاءَ الخبر عنهم ولم يتقدم من اللفظة ذكر لكان [أَلاَ إِنَّهُمْ مُفْسِدُون] قاله الجرجاني .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الأَلف واللام تتضمن المبـالغة(١) كما تقول : «زيد هو الرجل» ، أَي حق الرجل ، فقد تستغني عن مقدمة تقتضي عهداً .

و [لَكِنْ] بجملته حرف استدراك ، ويحتمل أَن يراد هنا : لايَشْعُرُون أَنهم مفسدون ، ويحتمل أَن يراد : لايشعرون أَن الله يفضحهم ، وهذا مع أَن يكون قولهم إنما نحن مصلحون جحداً محضاً للإفساد ، والاحتمال الأَول هو بأَن يكون قولهم : [إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحونَ] اعتقاداً منهم أَنه صلاح في صلة القرابة ، أَو إصلاح بين المؤمنين والكافرين .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المعنى : صدِّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، مثل ما صدق المهاجرون والمحققون من أَهل يثرب ، قالوا : أَنكون كالذين خفَّت عقولهم؟ و [السَّفَهُ] : الخفة والرقة الداعية إلى الخفة ، يقـال : « ثوب

(١) أي : حصْرُ السفه والفساد في المنافقين .

سفيه » إذا كان رقيقاً هلْهَل النسج ، ومنه قول ذي الرمة :

مَشَيْن كما اهتَزَّت رماحٌ تَسَفَّهتْ أَعاليها مَرُّ الرِّياح النَّواسم(١)

وهذا القول إنما كانوا يقولونه في الخفاءِ ، فأَطلع الله عليه نبيَّه والمؤمنين ، وقرر أَن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم ، وأَخبر أَنهم لا يعلمون أَنهم هم السفهاءُ للرَّيْن الذي على قلوبهم .

وقال قوم : الآية نزلت في منافقي اليهود ، والمراد بالناس : عبد الله ابن سلام ومن أَسلم من بني إسرائيل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تخصيص لا دليل عليه . و [لَقُوا] أَصله لقيُوا استثقلت الضمة على الياءِ فسكنت ، فاجتمع الساكنان فحذفت الياءُ .

وقرأَ ابن السميْفَع : (لاقُوا الَّذِين) .

وهذه كانت حال المنافقين : إظهار الإيمان للمؤمنين ، وإظهار الكفر في خلواتهم بعضهم مع بعض(٢) ، وكان المؤمنون يلبسونهم على

---

(١) يصف نساء ، ويقال : « تسفهت الريح الأشجار» أمالتها ، والرياح النواسم هي الرياح الضعيفة ، فشبه مشيهن باهتزاز الرماح التي تميلها نواسم الرياح .

(٢) قال أبو محمد بن قتيبة : النفاق في اللغة مأخوذ من « نافقاء اليربوع » وهو جحر من جحرته يخرج منه إذا أخذ عليه الجحر الذي دخل فيه ، فيقال : قد نفَق ونافق . شبه بفعل اليربوع ، فإنه يدخل من باب ويخرج من باب ، وكذلك المنافق يدخل في الإسلام ، باللفظ ، ويخرج منه بالعقد، والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه، أي بالمعنى المخصوص وهوستر الكفر وإظهار الإيمان ، وإن كان أصله معروفاً عندهم ، واعلم أن أبا محمد بن عطية رحمه الله تعرض في هذا المكان لعدد من المسائل المتعلقة بالنفاق والزندقة :

المسألة الأولى : أن المؤمنين كانوا يتعاملون مع المنافقين برغم نفاقهم لموضع القرابة ، فلم تلتمس عليهم الشهادات ، ولم يقرر نفاقهم تقريرا يوجب الحكمبقتلهم، وكان ما يظهرونه =

. . . .

= من الإيمان كافياً لحقن دمائهم وعدم التعرض لأموالهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عنهم ويدعهم في حالة الاشتباه .

المسألة الثانية : اختلاف أئمة الإسلام في معنى إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم . فقال مالك وأصحابه : كان ذلك لمصلحة تأليف القلوب كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي)وقد كان صلى الله عليه وسلم يعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألُّفاً ، قال المؤلف رحمه الله : نص على هذا محمد بن الجهم ، والقاضي إسماعيل ، والأبهري ، وابن الماجشون ، واستدل بقوله تعالى : [لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إلا قَلِيلا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا] قال قتادة : معناه : إذا هم أعلنوا النفاق .

المسألة الثالثة : قال الإمام مالك رحمه الله : النفاق في عهد النبي صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم ، فيقتل الزنديق إذا شُهد عليه بها دون استتابة لأنه لا يظهر ما يُستتاب عليه ، قال مالك رحمه الله : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليَسُنَّ لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يُشْهد على المنافقين — ولم يَشْهَد على عبد الله بن أبي إلا زيد ابن أرقم وحده ، ولا على الجُلاسِ بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه ، ولو شهد رجلان بنفاقه وكفره لقتل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : أقوى من انفراد زيد وغيره بالشهادة أن اللفظ ليس بصريح في الكفر .

وقال الشافعي رحمه الله : السنة فيمن شهد عليه بالزندقه فجحد وأعلن الإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من قتله ، وبه قال أصحاب الرأي ، والإمام أحمد ، والطبري وغيرهم — قال الشافعي وأصحابه : وإنما منع رسول الله من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ، لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله . وقال الإمام الطبري : جعل الله الأحكام بين عباده على الظاهر ، وتولى الحكم في سرائرهم ، دون أحد من خلقه ، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا ، ووكل سرائرهم إلى الله،وقد كَذَّبَ اللهُ ظاهرهم بقوله : [وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] .

قال أبو محمد بن عطيه رحمه الله : ينفصل المالكية عما ألزموه من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم ، وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق ، وبقي لكل واحد منهم أن يقول : لم أُرِدْ بها وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيِّنَ أحدٌ لَمَا جَبَّ كذبُه شيئاً . انظر « الموطأ » في «كتاب الأقضية » في باب (القضاء فيمن ارتد عن الإسلام) .

ذلك لموضع القرابة ، فلم تُلتمس عليهم الشهادات ، ولا تقرَّر تعيُّنُهم في النفاق تَقَرُّراً يوجب لوضوحه الحكم بقتلهم ، وكان ما يظهرونه من الإيمان يحقن دماءهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنهم ، ويدعهم في غمرة الاشتباه ، مخافة أَن يُتَحدَّث عنه أَنه يقتل أَصحابه ، فينفر الناس ، حسب ما قاله عليه السلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين قال له في وقت قول عبد الله بن أَبي بن ساول : [لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعزُّ منْها ٱلأَذَل] القصة ، دعني يا رسول الله أَضرب عنق هذا المنافق ، فقال : (دعه ، لا يتحدث الناس أَن محمدا يقتل أَصحابه)(١) فهذه طريقة أَصحاب مالك رضي الله عنه في معنى كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين ، مع علمه بكفرهم في الجملة ، نص على هذا محمد بن الجهم ، وإسماعيل القاضي ، والأَبهري ، وابن الماجشون ، واحتج بقوله تعالى :[لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مرضٌ وَالْمُرْجِفُون في الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فيهَا إلا قَليلا ، ملْعُونِين أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تقْتيلاً](٢) قال قتادة ، معناه : إِذا هم أَعلنوا النفاق .

وقال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو : الزندقة فينا اليوم ، فيقتل الزنديق إذا شُهد عليه بها دون استتابة ، لأَنه لا يظهر ما يُستتاب منه ، وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليسُنَّ لأُمته أَن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يُشهد على

(١) أخرج هذا الحديث الشيخان : البخاري ومسلم .

(٢) الآيتان (٦٠ ، ٦١) من سورة (الأحزاب) .

المنافقين . قال القاضي إسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أُبي(١) إلا زيد بن أَرقم وحده ، ولا على الجُلاس(٢) بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه وحده ، ولو شهد على أَحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

أَقوى من انفراد زيد وغيره أَن اللفظ ليس بصريحِ كُفْر ، وإنما يفهم من قُوَّتِهِ الكُفر . قال الشافعي رحمه الله : السنة فيمن شُهِدَ عليه بالزندقة ، فجحد وأَعلن الإيمان ، وتبرأَ من كل دين سوي الإسلام ، أَن ذلك يمنع من إراقة دمه ، وبه قال أَصحاب الرأْي والطبري وغيرهم . قال الشافعي وأَصحابه : وانما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ، ما كانوا يُظهرونه من الإسلام بأَلسنتهم مع العلم بنفاقهم ، لأَن ما يُظهرونه يجُبُّ ما قبله ، فمن قال : إن عقوبة الزندقة أَشد من عقوبة الكفار فقد خالف معني الكتاب والسنة ، وجعل شهادة الشهود على الزنديق فوق شهادة الله على المنافقين ، قال الله تعالى : [إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُون . قَالوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لرَسُولُ اللهِ واللهُ يعْلَمُ إِنَّكَ لَرسُولُهُ . واللهُ يَشْهدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لكاذِبُونَ](٣) قال الشافعي ، وأَبو حنيفة ، وابن حنبل ، وأَهل الحديث : فالمعنى الموجب لكف رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر التفسير لدى قوله تعالى : [ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلّ] في سورة (المنافقون) .

(٢) بالتخفيف ، انظر التفسير لدى قوله تعالى : [يَحْلِفُون باللهِ ما قَالُوا ، ولَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ] الآية .

(٣) الآية (١) من سورة (المنافقون) .

وسلم عن قتل المنافقين مع العلم بهم أن الله تعالى نهاه عن قتلهم إذا أظهروا الإيمان ، وصلُّوا ، فكذلك هو الزنديق . واحتج ابن حنبل بحديث عبيد الله بن عدي بن الخيار عن رجل من الأَنصار في الذي شهد عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفاق [١] فقال : (أليس يشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأني رسول الله ؟) قالوا : بلى ، ولا شهادة له . قال : (أليس يصلي) ؟ قالوا : بلى ولا صلاة لَه . قال : (أُولٰئك الذين نهاني الله عنهم) ، وذكر أيضاً أهل الحديث ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيهم : (لَعَلَّ اللهَ سَيُخْرِجُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ باللهِ ، ويُصدِّقُ الْمُرْسَلِينَ ، ويُخْلِصُ الْعبادات لربِّ الْعَالَمِينَ)[٢] قال أبو جعفر الطبري في كتاب «اللطيف» في باب «المرتد» : إن الله قد جعل الأَحكام بين عباده على الظاهر ، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس لأَحد أن يحكم بخلاف ما ظهر ، لأَنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأَحد كان أَولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين ، بما أَظهروا ، ووكل سرائرهم إلى الله ، وقد كذب الله ظاهرهم في قوله تعالى : [واللهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

---

(١) رواه في مسنده . كما رواه الإمام مالك في موطئه . وعبيد الله بن عدي ــ كان من فقهاء قريش وعلمائها ــ توفي بالمدينة سنة ٩٥ هـ .

(٢) رواه الإمام مسلم في مسنده الصحيح ، فيما لقي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ، بلفظ : (أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) .

ينفصل المـالكيون(١) عما أُلزِمُوه من هذه الآية(٢) بـأنها لم تعين أشخاصهم ، وإنما جاءَ فيها توبيخ لكل مغموص(٣) عليه بالنفاق ، وبقي لكل واحد منهم أن يقول : لم أُرَدْ بها ، وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيِّنَ أحدٌ لما جَبَّ كذبه شيئاً.

وقوله تعالى : [وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ] وصلت (خلوا) بإلى وعرفها أن توصل بالباءِ(٤) فتقول : خلوْتُ بفلان ، من حيث نُزِّلت خلوا في هذا الموضع منزلة ذهبوا وانصرفوا(٥) ، إذ هو فعل معادلٌ لقوله : (لَقُوا) .

(١) أي يتخلصون من هذا الإلزام بأن الآية لم يكن فيها تعيين لأشخاصهم ، ولاشهادة على أعيانهم ، وإنما هي توبيخ لجملة المنافقين ، وقد بحث الإمام (ق) رحمه الله فيما قاله ابن عطية ، وقال : «هذا الانفصال فيه نظر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم ، أو كثيراً منهم بإعلام الله تعالى إياه ، وكان حذيفة بن اليمان يعلم ذلك ، بإخبار النبي عليه السلام إياه» . وفي نظره نظر ، فإن الانفصال مرده إلى الآية الكريمة التي شهد الله فيها أن المنافقين كاذبون من دون أن يبينهم ، ولا أن يعيِّنهم – وقد مضى قول الإمام مالك رحمه الله : إنما كف النبي صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليسُنَّ لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يشهد على المنافقين . وقيامُ الشهادة على المنافقين من باب الحكم بالظاهر ، ومن شأن الشهادة التعيين للمشهود عليه ، على أن العلم بهم إنما كان مستنده حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في تسمية أُولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلماء الليل عند عقبة هناك ، عزموا على أن يُنَفِّروا به الناقة ليسقط عنها ، فأوحى الله إليه أمرهم فأطْلَع صلى الله عليه وسلم على ذلك حذيفة . فأما غير هؤلاء الأربعة عشر فقد قال الله تعالى : [وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ . وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ] الآية وقال تعالى : [لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ] الآية ففيها دليل أنه لم يغْرَ بهم ولم يدل على أعيانهم ، وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى : [وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ] الآية ، وفي كلام ابن (ك) رحمه الله ما يشير إلى الاعتراض على (ق). انظره .

(٢) أي قوله تعالى : [واللهُ يشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] .

(٣) يقال : رجل مغموص عليه أي مطعون في دينه ومُتَّهم بنفاقه .

(٤) يقال : خلا بفلان وإليه : اجتمع به في خلوة . وتعديةخلا بالباء في هذا المعنى أكثر استعمالا.

(٥) إزالة للاشتراك كما يأتي ، ومعلوم أن تضمين الأفعال أولى من تضمين الحروف .

وهذا مثلُ ما تقدم من قول الفرزدق :

قد قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّي .

لما أنزلها منزلة صَرَفَ وردَّ ، وقال مكي : يقال : خلوت بفلان ، بمعنى سخرت به ، فجاءت إلى في الآية زوالا عن الاشتراك في الباء[١] ، وقال قومٌ : [إلى] بمعنى (مع) وفي هذا ضعف ، ويأتي بيانه إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : [مَنْ أَنْصَاري إِلَى اللهِ][٢] وقال قوم : (إلى) بمعنى (الباء) ، إذ حروف المعاني يبدل بعضها من بعض ، وهذا ضعيف يأباه الخليل ، وسيبويه ، وغيرهما .

واختلف المفسرون في المراد بالشياطين[٣] . فقال ابن عباس رضي الله عنه : هم رؤساءُ الكفر ، وقال ابن الكلبي وغيره : هم شياطين الجن ، وهذا في هذا الموضع بعيد ، وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ «الشَّيْطَنة» الذي معناه : البعد عن الإيمان والخير ، يعم جميع

---

(١) حيث يقال : خلوت بفلان : انفردت به ، وخلوت به : سخرت به. فالباء تدل على واحد من المعنيين ، بخلاف إلى .

(٢) أي الواردة في سورة آل عمران من الآية (٥٢) ، ونصه هناك : «وقد عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها بمعنى (مع) . ونعم : إن (مع) تسد في هذا المعنى مسد (إلى) ، لكن ليس يباح من هذا أن (إلى) بمعنى (مع)، حتى غلط في ذلك بعض الفقهاء في تأويل قوله تعالى : [وَأَيْدِيَكُمْ إلى الْمَرَافِقِ] فقال : (إلى) بمعنى (مع) وهذه عجمة بل (إلى) في هذه الآية غاية مجردة، وينظر : هل يدخل ما بعد إلى فيما قبلها من طريق آخر ؟ ا هـ .

وقوله : و (نعم) جاءت في صدر الكلام للتأكيد ، فهي بمعنى و (حقا) . ولعله يقرب من هذا قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني : ليس كل ما فيه معنى الشيء حكمه حكم ذلك الشيء، بمعنى أنه فرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء وأن يكون الشيء الشيء على الإطلاق .

(٣) في مسند الإمام أحمد رحمه الله ، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن) ، فقلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين قال : (نعم) .

من ذكر والمنافقين ، حتى يقدر كل واحد شيطان غيره ، فمنهم الخالون ومنهم الشياطين . و[مُسْتَهْزِئُون] معناه نتخذ هؤلاءِ الذين نصانعهم[١] بإظهار الإيمان هُزُؤًا ، ونستخف بهم ، ومذهب سيبويه رحمه الله : أَن تكون الهمزة مضمومة على الواو في [مُسْتَهْزِئُونَ] ، وحكى عنه أَبو علي أَنها تخفف بين بين ، ومذهب أَبي الحسن الأَخفش أَن تُقْلَب الهمزةُ ياءً قلباً صحيحاً ، فيقرأَ [مُسْتَهْزِيُون] . قال ابن جني : حمل الياءِ الضمة تذكراً لحال الهمزة مضمومة ، والعرب تعاف ياءً مضمومة قبلها كسرة ، وأَكثر القراءِ على ماذهب إِليه سيبويه ، ويقال : هزئَ واستهزأَ بمعنى ، فهو كعجب واستعجب ، ومنه قول الشاعر [٢] :

وَمُسْتَعْجِبٍ ممَّا يرى مِنْ أَناتنَا ... ولَوْ زَبَنَتْهُ الحربُ لم يَتَرَمْرَمِ

قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾

اختلف المفسرون في هذا الاستهزاءِ : فقال جمهور العلماءِ : هي تسمية العقوبة باسم الذنب[٣] ، والعرب تستعمل ذلك كثيراً ، ومنه قول الشاعر :

أَلا لا يجْهلَنْ أَحدٌ عَلَيْنَا ... فَنجْهلَ فوق جَهْلِ الجَاهِلِينَا

(١) ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مِنْ شَرِّ النَّاس ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذي يأْتِي هَؤلاء بِوَجْهٍ ، وهَؤلاءِ بِوجهٍ) وقال : (مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ في الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَار) ، رواهما أبو داود في سننه .

(٢) أوس بن حجر : وقوله : زبنته الحرب دفعته ، وقوله : لم يترمرم أي لم يتحرك .

(٣) أي يجازيهم جزاء الاستهزاء .

وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هي في تأمل البشر هزؤ[١] ، حسب ما يُروى: «إن النار تجمد كما تجمد الإهالة [٢] فيمشون عليها ، ويظنونها منجاة فتخسف بهم». وما يروى: «إن أبواب النار تُفتح لهم فيذهبون إلى الخروج» [٣] ، نحا هذا المنحى[٤] ابن عباس ، والحسن .

وقال قوم : استهزاؤه بهم ، هو استدراجهم من حيث لا يعلمون[٥] ، وذلك أنهم ، بدُرُور نعَم الله الدنيوية عليهم يظنون أنه راض عنهم ، وهو تعالى قد حتَّم عذابهم ، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاءٌ .

و [يَمُدُّهُمْ] معناه : يزيدهم في الطغيان ، وقال مجاهد : «معناه : يُمْلِي لَهُمْ» . قال يونس بن حبيب : يقال « مدَّ في الشر ، وأمدَّ في الخير»[٦] . وقال غيره : «مدَّ الشيء . ومده ما كان مثله ومن جنسه [٧] ،

---

(١) أي يوم القيامة .

(٢) الإهالة : ما أذيب من الشحم ، أو هي الدسم الجامد .

(٣) أي فتسد الأبواب في وجوههم ، وقد روي هذا عن ابن عباس من طريق أبي صالح .

(٤) وقوله تعالى : [قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورا] يقوي هذا المنحى كما نص عليه صاحب اختصار الطبري رحمه الله .

(٥) يدل لهذا التأويل حديث : (إِذَا رَأَيْتُمُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ) .

(٦) الأقوال ثلاثة : الأول : قول يونس بن حبيب : مدَّ في الشر ، وأمدَّ في الخير ، والثاني قول غيره : مدّ فيما كانت الزيادة من مثل جنسه ، وأمدّ فيما كانت الزيادة من غير جنسه ، ومثال هذين القولين قوله تعالى: [وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ] فإنه في الشر وفي مثل جنسه ، وقوله تعالى: [يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ من الملائكة] فإنه في الخير ، ومن غير جنسه ، والثالث قول ابن قتيبة : إنهما بمعنى واحد ، وقد تكون (مدّ) لازمة ومتعدية .

(٧) (ما كان...) في محل رفع فاعل للفعل (مدّ) الثانية .

وهذا مفهوم من قوله في المثال : (مدّ النهر ـ ومدّه نهر آخر) ف (نهر) فاعل مدّ في (مدّه).=

وأمدَّه ما كان مغايراً له» ، تقول : مَدَّ النهر ، ومدَّهُ نهر آخر ، ويقال : أَمدَّه ، قال اللحياني : يقال لكل شيءٍ دخل فيه مثله فكثَّره : «مدَّهُ يمُدُّهُ مَدًّا» ، وفي التنزيل : [وَالْبحْرُ يمُدُّهُ منْ بعْده سَبْعةُ أَبْحُر](١) . ومادة الشيءِ ما يمده ، دخلت فيه الهاءُ للمبالغة . قال ابن قتيبة وغيره : مدَدْتُ الدواة وأمددتها بمعنى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يشبه أن يكون مدَدْتُها جعلت إلى مدادها آخر ، وأمددتها جعلتها ذات مدَادٍ ، مثل قَبَرَ وأَقْبَرَ ، وحصر وأَحْصَرَ ، ومددنا القوم : صرنا لهم أنصارا ، وأمددناهم بغيرنا ، وحكي اللحياني أيضاً : أمد الأمير جنده بالخيل ، وفي التنزيل : [وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَال وَبَنين](٢) .

قال بعض اللغويين : (ويمدُّهم في طُغْيانِهِم) أي يمهلهم ويُلِجُّهم(٣) ، فتحتمل اللفظة أن تكون من المد الذي هو المطل والتطويل(٤) ، كما فسر في (عَمَد مُمَدَّدَة) ، ويحتمل أن تكون هي معنى الزيادة في نفس الطغيان . و [الطُّغْيَانُ] : الغلو وتعدي الحد ، كما يقال : طغي الماءُ ، وطغت النار ، وروي عن الكسائي إمالة طغيانهم ، و [يعْمَهُونَ] : يترددون

= وهو مثل النهر الذي وقع عليه المدّ ، ومن جنسه . فأما إن كان الفاعل من غير جنسه قلت : (أمدّه) بالهمزة . وهذا واضح أيضاً من كلام اللحياني بعده . والآية الكريمة بعد ذلك (والبحر يَمُدُّهُ) خير مثال .

(١) من الآية (٢٨) من سورة (لقمان) .

(٢) من الآية (٦) من سورة (الإسراء) .

(٣) أي يزيدهم في اللجاج والعناد .

(٤) وفي بعض النسخ : المهل والتطويل .

حيرة . والعمَهُ الحيرة من جهة النظر ، والعَامهُ الذي كأنه لايبصر من التحير في ظلام ، أو فلاة ، أو هَمٍّ .

وقوله : [أُولَٰئِكَ] إشارة إلى المتقدم ذكرهم[١] ، وهو رفع بالابتداء ، و[الذين] خبره ، و [اشْتَرَوا] صلة للذين ، وأصله اشتريوا ، تحركت الياءُ وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً ، فحذفت لالتقاءِ الساكنين ، وقيل : استثقلت الضمة على الياءِ فسكنت ، وحذفت للالتقاءِ ، وحركت الواو بعد ذلك للالتقاءِ بالساكن بعدها ، وخصت بالضم لوجوه ، منها : أن الضمة أُخت الواو وأخف الحركات عليها . ومنها : أنه لما كانت واو جماعة ضمت كما فعل بالنون في نحن . ومنها : أنها ضمت إتباعاً لحركة الياءِ المحذوفة قبلها . قال أبو علي : صار الضم فيها أولى ، ليفصل بينها وبين واو أو ، ولو ، إذ هذان يحركان بالكسر[٢] . وقرأ أبو السمال ، قعنب العدوي[٣] ، بفتح الواو في : [اشْتَرَوَا الضَّلاَلَةَ] ، وقرأها يحي بن يعمر بكسر الواو ، و(الضلالة) والضلال : التلف ، نقيض الهدي ، الذي هو الرشاد إلى المقصد .

واختلفت عبارة المفسرين عن معنى قوله: [اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى] .

---

(١) بعد أن ذكر الله سبحانه مالهم من صفات شنيعة ، ونعوت فظيعة ، جاءت الإشارة لتعلن عن سوء حالهم ، وبعد منزلتهم في الشر ، فهي مسوقة لتقرير ما قبلها ، وتبيين ما هم عليه من الجهالة والسفاهة ، في أقوالهم ، وأفعالهم ، بإظهار سماجتها ، وتصويرها بصورة لا يكاد يتعاطاها مَن له أدنى تمييز ، فضلا عمن له عقل وبَصَرٌ ــ فأولئك تأتي بعد صفات المدح للمدح ــ وبعد صفات الذم للذم .

(٢) نحو قوله تعالى : [وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا] وقوله تعالى : [أَوِ ائتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] .

(٣) جاء في طبقات القراء أن اسمه قعنب بن أبي قعنب أبو السمال العدوي البصري ٢ــ٢٧.

فقال قوم : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى[١] ، وقال آخرون : استحبوا الضلالة وتجنبوا الهدى[٢] ، كما قال تعالى : [فاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهدى]. وقال آخرون: الشراءُ هنا استعارة وتشبيه ، لما تركوا الهدى وهو معرض[٣] ، ووقعوا بدله في الضلالة ، واختاروها ، شُبِّهُوا بمن اشتروا فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم ، إذ كان لهم أخذه [٤] ، وبهذا المعنى تعلق مالك رحمه الله في منع أن يشتري الرجل على أن يتخير في كل ما تختلف آحاد جنسه ، ولا يجوز فيه التفاضل [٥] .

وقال قوم : الآية فيمن كان آمن من المنافقين ، ثم ارتد في باطنه وعقده ، ويقرب الشراءُ من الحقيقة على هذا[٦] .

(١) اعلم أن الباء تدخل في العوض المأخوذ في جانب البيع — وعلى العوض المأخوذ في الشراء.فتقول : بعت الثوب بدرهم ، فالدرهم حاصل ،ومأخوذ ، وتقول :اشتريت الثوب بدرهم ، فالدرهم متروك وغير حاصل ،ومن هذا قوله تعالى :[أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى] وقوله تعالى : [أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدنْيَا بِالآخِرَةِ] .

(٢) هذه العبارة أخص من العبارة قبلها ، فاستحباب الضلالة أخص من أخذ الضلالة — وتجنب الهُدَى أخص كذلك من ترك الهُدَى ، فإنّ تجنب الهُدَى عن قصد ، وترك الهدى يكون عن قصد وعن غير قصد .

(٣) أي ظاهر لهم .

(٤) جواب عن سؤال وهو : كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى ؟ فأجاب بأنهم جُعلوا مشترين للضلالة بالهدى لتمكنهم منه بتيسير أسبابه ، فكان لهم أخذه ، وكان كأنه في أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به فاستعير ثبوته لتمكنهم منه ، والتمكن حاصل بما شاهدوه من الآيات والمعجزات .

(٥) لما في ذلك من الضلالة والجهالة ،ويعني أنه لا يجوز في فقه البيوع الشراء على أن يختار المشتري في كل ما تختلف صفة آحاده ولا يجوز فيه التفاضل — كاللحوم .

(٦) حاصله أن الشراء إما أن يكون حقيقة ، وإما أن يكون مجازاً ، فالقول الأول جار على من كان آمن ثم ارتد في قلبه ، وإنما كان الشراء حقيقياً لأنه دفع ثمناً كان عنده ، والقريب من الشيء كهو في حكمه ، والقول الثاني جار على أنه لم يؤمن من أول مرة إلا أنه كان متمكناً منه لتيسر أسبابه ، والمتمكن من الشيء كأنه في يده .

وقوله تعالى : [فَمَا رَبِحَتْ تجارَتُهُمْ] ختم للمثل بما يشبه مبدأه في لفظة الشراء[١] ، وأسند الربح إلى التجارة كما قالوا : «ليل قائم ، ونهار صائم» ، والمعنى : فما ربحوا في تجارتهم . وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة : (فَمَا رَبِحَتْ تجارَاتُهُمْ) بالجمع .

وقوله تعالى : [ومَا كَانُوا مُهْتَدِينَ] ، قيل : المعنى في شرائهم هذا ، وقيل : على الإطلاق ، وقيل : في سابق علم الله ، وكل هذا يحتمله اللفظ .

قوله عز وجل :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المَثَلُ والمِثْلُ والمثيلُ واحد ، معناه : الشبه[٢] هكذا نص أهل اللغة ، والمتماثلان المتشابهان ، وقد يكون مثل الشيء جرماً مثله ، وقد[٣]

---

(١) أي فهو ترشيح للمجاز لأنه يناسب الشراء المستعار ، ويعني أن أعمالهم سميت تجارة لمناسبة الشراء تأليفاً لجواهر النظام ، والتحاماً بين أجزاء الكلام . والمثل بمعنى التشبيه .

(٢) الشِّبْه والشَّبَه والشَّبِيه كالمِثْل والمَثَل والمَثِيل ، قال أبو عبيدة : لم يسمع في فعل وفعل غير هذه الأربعة : مثل ومثل ، وشبه وشبه ، ونكل ونكل ، وبدل وبدل ، قاله صاحب لسان العرب ونقله الإمام (ق) لدى قوله تعالى : [فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ] الآية ،والغرض من ضرب الأمثال تشبيه الخفي بالجليّ ، والغائب بالشاهد، وذلك لمزيد الكشف والإيضاح ،ألا ترى أن الترغيب والترهيب إذا وقع كل منهما مجرداً من ضرب مثل لم يتأثر القلب به كتأثره مع ضرب المثل ، ولهذا المعنى أكثر الله الأمثال في كتابه المبين كما قال : [وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] .

(٣) يعني أن مثل الشيء قد يكون حسياً ، وقد يكون عقلياً أي حاصلا في العقل ، وبهذا يقع التفصي من الإشكال الذي يرد في بعض المواد والأمثلة حسبما أشار إليه المؤلف رحمه الله .

يكون ما تَعْقلُ النفس وتتوهمه من الشيءِ مثلا له ، فقوله تعالى : [مَثَلُهم كَمثَل] ، معناه : أَن الذي يتحصل في نفس الناظر في أمرهم كمثل الذي يتحصل في نفس الناظر في أَمر المستوقد ، وبهذا يزول الإِشكال الذي في تفسير قوله تعالى: [مثَلُ ٱلْجَنَّة][١] ، وفي تفسير قوله تعالى : [ليسَ كَمِثْله شيءٌ] [٢] ، لأَن ما يتحصل للعقل من وحدانية وأَزلية ، ونفي مالا يجوز عليه ليس يماثله في شيءٍ ، وذلك المتحصل هو المثل الأَعلى الذي في قوله عز وجل : [ولله الْمثَلُ الأَعْلَى] [٣] وقد جاءَ في تفسيره : (أَنه لا إِلٰه إِلا الله) ، ففسر بجهة الوحدانية .

وقوله : [مثَلُهُمْ] رفع بالابتداءِ ، والخبر في الكاف ، وهي على هذا اسم ، كما هي في قول الأَعشى :

أَتنْتَهُونَ ولَنْ يَنْهى ذَوي شَطَط كالطَّعْن يذهبُ فيه الزيْتُ والفُتُلُ

ويجوز أَن يكون الخبر محذوفاً[٤] ، تقديره : مثلهم مستقر كمثل ، فالكاف على هذا حرف ، ولا يجوز ذلك في بيت الأَعشى ، لأَن المحذوف فاعل تقديره شيءٌ كالطعن ، والفاعل لا يجوز حذفه عند جمهور البصريين ، ويجوز حذف خبر الابتداءِ إِذا كان الكلام دالا عليه ، وجوز أَبو الحسن الأَخفش حذف الفاعل وأَن تكون الكاف في بيت الأَعشى حرفاً .

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الجنة شيء مما في الدنيا ، سوى الأسماء ، وأما الذوات فمتباينة . وهى من الآية (١٥) من سورة (محمد) .

(٢) من الآية (١١) من سورة (الشورى) .

(٣) من الآية (٦٠) من سورة (النحل) .

(٤) عبارة أبي (ح) أوضح ، ونصه : ومثلهم مبتدأ والخبر في الجار والمجرور بعده ، والتقدير كائن كمثل ، كما يقدر ذلك في سائر حروف الجر ا هـ . وقد بحث مع ابن عطية في الوجه الأول ، انظره .

ووحَّد [الَّذي][١] لأنه لم يقصد تشبيه الجماعة بالجماعة ، وإنما المقصد أَن كل واحد من المنافقين فعله كفعل المستوقد ، و(الذي) أيضاً ليس بإشارة إلى واحد ولابد ، بل إلى هذا الفعل : وقع من واحد ، أَو من جماعة ، وقال النحويون : الذي اسم مبهم يقع للواحد والجميع [٢] . و [اسْتوْقَدَ] قيل : معناه أَوقد ، فذلك بمنزلة عجِب واستَعْجَب بمعنى . قال أَبو علي : وبمنزلة هزئَ واستهزأَ ، وسَخر واستسخر ، وقرَّ واستقر ، وعلا قرنه واستعلاه ، وقد جاءَ استفعل بمعنى أَفعل : أَجاب واستجاب ، ومنه قول الشاعر[٣] :

وداعٍ دعَا يا مَنْ يجيب إلى النَّدى ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مجيب

وأَخلف لأَهله واستخلف إذا جلب لهم الماءَ[٤] ، ومنه قول الشاعر :

ومُسْتَخْلفاتٍ من بِلاد تَنُوفَة ... لِمُصْفَرَّةِ الأَشداقِ حُمْرِ الحواصل[٥]

---

(١) للتوحيد دليلان الأول من ناحية المعنى ، والثاني من ناحية الاستعمال : وذلك أن القصد تشبيه حال المنافق بحال المستوقد ، لا تشبيه الجماعة بالجماعة. فالذي كما يستعمل للواحد يستعمل للجمع كما قال الشاعر :

وإن الذي حانت بِفَلْجٍ دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أُمَّ خـالد

(٢) وفي بعض النسخ والجمع .

(٣) هو كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار — وبعد البيت :

فقلت ادْعُ أُخرى ، وارفع الصوت رفعة ... لعل أبا المِغْوار منكَ قَريبُ

(٤) يقال : أخلف لأهله : استقى لهم ماء ، وأخلف القوم : حمل إليهم الماء العذب ، وهم ليس معهم ماء عذب أو يكونون على ماء مِلْح — واستخلف الرجل لأهله : استقى لهم ماء ، واستخلف : استعذب الماء .

(٥) التنوفة : المفازة ، والأرض الواسعة البعيدة الأطراف ، أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس ، وإن كانت مُعْشبة ، جمعها تنائف ، والبيت أنشده الأصمعي لذي الرّمة ، كما في أمالي القالي، ويعني أن القطا يحملن الماء في حواصلهن .

ومنه قول الآخر :

. . . . سقَاهَا فروَّاها مِنَ الماءِ مُخْلِفُ(١)

ومنه : أَوقد واستوقد ، قاله أَبو زيد ، وقيل : استوقد : يراد به طلب من غيره أَن يوقد له على المشهور من باب استفعل ، وذلك يقتضي حاجته إلى النار ، فانطفاؤها مع حاجته إِليها أَنكى له ، واخْتُلِفَ في [أَضَاءَتْ] فقيل : يتعدى ، لأَنه نُقِلَ بالهمزة من ضاءَ ، ومنه(٢) قول العباس بن عبد المطلب في النبي صلى الله عليه وسلم :

وأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الأَرْ ضُ وَضَاءَتْ بنورِكَ الأُفُق

وعلى هذا فما في قوله [مَا حوْلَه] مفعولة ، وقيل : أَضاءَت لا تتعدى ، لأَنه يقال : ضاءَ وأَضاءَ بمعنى ، فما زائدة ، وحوله ظرف.

واختلف المتأَولون في فعل المنافقين الذي يشبه فعل الذي استوقد ناراً ، فقالت طائفة : هي فيمن كان آمن ثم كفر بالنفاق ، فإِيمانه بمنزلة النار أَضاءَت وكفره بعد بمنزلة انطفائها وذهاب النور(٣). وقال

(١) هو للحطيئة وصدر البيت :

كأن دموعي سَحُّ واهيـــةِ الكـــلى سقاها فرواهـــا من الماء مُخْلِـــفُ

وبعده :

تشد العرى منهـــا على ظهر جُونـــة عسيرِ القياد ما تكـــاد تصـــرف

المخلف : المستقي ، والواهية : صفة لمحذوف أي مزادة واهية الكلى ، يقول : كأن دموعي تسيل من كلى مزادة ضعيفة محمولة على ناقة عسير ، فكلما هزتها كثر سيلانها ، والعسير التي لا تنقاد ، والكلية من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، يقال : شرب الماء من كلية المزادة . وفي بعض النسخ من العين بدلاً من الماء .

(٢) أي من ضاء المنقول منه . وقيل : إنها تكون لازمة ومتعدية .

(٣) قال ابن (ك) بعد أن قرر تشبيه المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى — بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ، وانتفع بها انطفأت ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر شيئاً ، وهو مع هذا أصم ،لا يسمع ، أبكم لاينطق ، أعمى لايبصر لو كان ضياء ، فلهذا لا يرجع =

الحسن بن أبي الحسن وغيره : إن ما يظهر المنافق في الدنيا من الإيمان فيحقن به دمه ويحرز ماله ، ويناكح ويخالط ، كالنار التي أضاءت ما حوله ، فإذا مات صار إلى العذاب الأليم ، فذلك بمنزلة انطفائها وبقائه في الظلمات . وقالت فرقة : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار ، وانصرافهم إلى مردتهم ، وارتكاسهم عندهم كذهابها . وقالت فرقة : إن المنافقين كانوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في منزلة بما أظهروه ، فلما فضحهم الله ، وأعلم بنفاقهم ، سقطت المنزلة ، فكان ذلك كله بمنزلة النار وانطفائها . وقالت فرقة منهم قتادة : نُطْقُهُمْ بلا إله إلا الله والقرآن كإضاءة النار ، واعتقادُهم الكفرَ بقلوبهم كانطفائها ، قال جمهور النحاة : جواب (لما) ذهب ، ويعود الضمير من نورهم في هذا القول على (الذي)[١] ، ويصح شبه الآية بقول الشاعر[٢] :

وإن الذي حَانَتْ بِفَلْجٍ دماؤُهم   همُ القومُ كُلُّ القوم يا أُمَّ خالد

=إلى ما كان عليه قبل ذلك — فكذلك هؤلاء المنافقون ، في استبدالهم الضلالة بالهدى ،واستحبابهم الغي على الرشد — ما نصه :

« وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ، ثم كفروا ، كما أخبر الله عنهم في غير هذا الموضع » .
— قال : « وقد حكى هذا الذي قلناه الرازي في تفسيره عن السدي ، ثم قال (أي الرازي) : والتشبيه ها هنا في غاية الصحة ، لأنهم بإيمانهم أولا اكتسبوا نوراً ، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك ، فوقعوا في حيرة عظيمة ،ولا حيرة أعظم من حيرة الدين ، ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى : [ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ] فهذا القول الذي صدر به ابن عطية رحمه الله هو الظاهر ، وللإمام (ط) رحمه الله نظر آخر .

(١) أي على المستوقدين .

(٢) هو الأشهب بن رميلة ، والبيت يستشهد به على حذف النون من الذين ، وهو رثاء للقوم الذين قتلوا بفلج وهو اسم موضع .

وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد ، لأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر ، كبقاءِ المنافق ، على الاختلاف المتقدم . وقال قوم : جواب (لمّا) مضمر ، وهو : طفئت ، والضمير في نورهم على هذا للمنافق[١] ، والإخبار بهذا[٢] هو عن حال تكون في الآخرة ،وهو قوله تعالى : [فضُربَ بَيْنهُمْ بسُورٍ لَهُ بَابٌ][٣] وهذا القول غير قوي.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وأبو السمال : (في ظُلْماتٍ) بسكون اللام ، وقرأ قوم : (ظُلَمات) بفتح اللام[٤] .

قال أبو الفتح : في ظلمات وكسرات ثلاث لغات : إتباع الضم الضم ، والكسر الكسر ، أو التخفيف بأن يعدل إلى الفتح في الثاني ، أو التخفيف بأن يسكن الثاني ، وكل ذلك جائز حسن ، فأما فعلة بالفتح فلابد فيه من التثقيل إتباعاً ، فتقول تمرة وتمرات . وذهب قوم في (ظلَمات) بفتح اللام إلى أنه جمع ظلم فهو جمع جمع[٥] .

---

(١) فعلى أن جواب (لما) هو ذهب ، وهو المرتضى والمعتمد يعود ضمير نورهم على المستوقدين ويكون تمثيل المنافق بالمستوقد تاماً غير ناقص ، وعلى أن جوابها مضمر تقديره طفئت — يعود ضمير نورهم على المنافقين لأن الكلام على المستوقدين تم عند قوله : [فلمَّا أضاءتْ ما حَوْلَه] ، وكان التمثيل ناقصاً .

(٢) أي بقوله تعالى : [ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ] لأنه على إضمار الجواب يكون خاصاً بالمنافقين .

(٣) من الآية (١٣) من سورة (الحديد) .

(٤) اعلم أن فُعلة بضم الفاء كظُلْمة ، وفِعلة بكسر الفاء ككِسرة ، يجوز في كل منهما ثلاث لغات :لغة الإتباع ، ولغة فتح الثاني ، ولغة إسكان الثاني ، وأن فَعلة بفتح الفاء يجب فيها الإتباع نحو : تمرة وتمرات ، وَجَفْنَة وجَفَنَات .

(٥) العدول إلى الفتح تخفيفاً أسهل من ادعاء جمع الجمع لأن العدول إليه قد جاء في كسرات جمع كِسرة ، وفُعلة وفِعلة أخوان ، ولأن جمع الجمع غير قياسي فلا ينبغي أن يصار إليه إلا بدليل واضح .

و(الأَصَمُّ) : الذي لايسمع ، والأَبكم : الذي لاينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأَخرس ، وقيل : الأَبكم والأَخرس واحد ، ووصَفَهُم بهذه الصفات إذ أَعمالهم من الخطأً وقلة الإجابة كأَعمال مَن هذه صفته ، و[صُمٌّ] رفع على خبر الابتداء ، فإما أَن يكون ذلك على تقدير تكرار أُولٰئك ، وإما على إضمار (هم) . وقرأَ عبد الله بن مسعود ، وحفصة أُم المؤمنين رضي الله عنهما : (صمًّا ، بكمًا ، عميًا) بالنصب ، ونصبه على الحال من الضمير في (مهتدين) ، وقيل : هو نصب على الذم ، وفيه ضعف[١] ، وأَما من جعل الضمير في (نورهم) للمنافقين لا للمستوقدين ، فنصب هذه الصفات على الحال من الضمير في (تركهم) . قال بعض المفسرين : قوله تعالى :[فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ] إخبار منه تعالى أَنهم لا يؤمنون بوجه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإنما كان يصح هذا أَن لو كانت الآية في مُعيَّنين . وقال غيره : معناه فهم لايرجعون ماداموا على الحال التي وصفهم بها ، وهذا هو الصحيح ، لأَن الآية لم تعين ، وكلهم معرض للرجوع ، مدعو إليه .

---

(١) وجهه : أن النصب على الذم إنما يكون حيث يذكر الاسم السابق فتعدل عن المطابقة في الإعراب إلى القطع ، وها هنا لم يتقدم اسم سابق تكون هذه الأوصاف موافقة له في الإعراب فتقطع ، فمن أجل هذا ضعُفَ النصب على الذم . قاله أبو (ح) .

قوله عز وجل(١) :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) هذا مثل آخر ، ضربه الله تعالى لنوع آخر من المنافقين ، وهم قوم يترددون بين الحق والباطل ، تارة يظهر لهم الحق ، وتارة يشكون فيه ، فمثلهم في حال الشك والكفر والتردد كمثل صيب من السماء ، والصيب المطر على المشهور — وذلك أن الناس أقسام — مؤمنون خلَّص ، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة — وكفار خلص ، وهم المذكورون في الآيتين بعد الآيات الأربع — ومنافقون ، وهم قسمان : مصرون،وهم أصحاب المثل الناري — ومترددون تارة يظهر لهم الإيمان وتارة يخبو عنهم ، وهم أصحاب المثل المائي وهم أخس حالا من الذين قبلهم ، وهذا المقام يشبه في الجملة ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن ، وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور — بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري ، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان المستمد من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط ، ثم ضرب مثل الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء ، وهم أصحاب الجهل المركب،في قوله تعالى : [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً] الآية ، ثم ضرب مثل الكفار الذين يجهلون جهلا بسيطاً،وهم الذين قال الله فيهم : [أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ] الآية ، فقسَّم الكفار إلى قسمين : داعية ومقلدة ، وقد قسم الله المؤمنين أيضاً كما في سورة الواقعة وسورة الإنسان إلى قسمين : سابقين وهم المقربون — وأصحاب يمين وهم الأبرار . ويتلخص من مجموع الآيات الكريمات أن المؤمنين : مقربون وأبرار ،وأن الكافرين دعاة ومقلدون — وأن المنافقين صنفان : منافق خالص ، ومنافق فيه شعبة من النفاق ، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ). واستدلوا بهذا على أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من الإيمان،وشعبة من نفاق ، إما عملي كهذا الحديث وإما اعتقادي كما تدل عليه آيات سورة البقرة وغيرها . والله أعلم .

[أو] ، للتخيير(١) ، معناه : مثّلوهُم بهذا ، أَو بهذا ، لا على الاقتصار(٢) على أَحد الأَمرين . وقوله : [أَوْ كَصَيِّبٍ] معطوف على (كَمَثَلِ ٱلَّذِي) وقال الطبري : (أَو) بمعنى (٣) (الواو) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه عُجْمَة . و(الصَّيِّب) المطر ، من صاب يصوب إذا انحط من عُلُوٍّ إلى سفل ، ومنه قول علقمة بن عبدة(٤) :

كأَنهم صابَتْ عليهم سَحابةٌ صَواعِقُها لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

وقول الآخر(٥) :

فَلَسْتَ لإنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلْأَكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جوِّ السماءِ يَصُوبُ(٦)

---

(١) قال أبو (ح) رحمه الله : المعنى الظاهر هنا لـ (أو)ـ هو التفصيل نظراً لأحوال المنافقين ، فمنهم من يشبه بحال المستوقد ، ومنهم من يشبه بحال الصيِّب ـ ولا ضرورة تدعو إلى كون أو للتخيير ، وإن المعنى أيهما شئتَ مثّلهم به ـ ولا إلى كونها بمعنى الواو كما ذهب إليه الكوفيون هنا ـ لأن التخيير إنما يكون في الأمر أو ما في معناه ، والجملة هنا خبرية صرفة ـ ولأن (أو) بمعنى الواو لم يثبت عند البصريين ، وما استدل به مثبت ذلك مؤول .

(٢) ومعناه أن المَثَلَين سواء في استقلال كل واحد منهما بوجه التمثيل ، فبأيهما مثلث فأنت مصيب ، وإن مثلت بهما جميعاً فكذلك .

(٣) ذهب ابن جرير رحمه الله إلى أن المثل الناري والمثل المائي كلاهما مضروب لصنف واحد من المنافقين ، ولذلك جعل (أو) بمعنى (الواو) مع أن المنافقين أصناف ، ولهم أحوال كما ذكر الله ذلك في سورة براءة : ومنهم ، ومنهم ، ومنهم ، يذكر أحوالهم وأوصافهم فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم ، ولذلك وصف ابن عطية رحمه الله كلام (ط) بالعجمة وعدم الظهور .

(٤) علقمة بن عبدة : هو المعروف بالفحل ، وبعد البيت :

فلا تَعْدلي بَيْني وبين مُغمـــر سَقَتْكِ رَوَايَا المُزْنِ حَيْثُ تصوبُ

(٥) اختلفوا في نسبة هذا البيت ، فمنهم من نسبه إلى علقمة بن عبدة ، ومنهم من نسبه إلى رجل من عبد القيس يمدح به النعمان بن الحرث بن المنذر ، وقيل: هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير ، وقبل البيت :

تَعَالَيْتَ أن تُعْزَى إلى الإنس جِلَّةً ولِلأنسِ مَنْ يَعْزُوكَ فَهْوَ كَذُوبْ

(٦) أي يقصد إلى الأرض ، هذا هو الصواب في تفسيره كما لابن هشام في شرح بانت سعاد .

وأصل (صَيِّبٍ) صَيْوِب ، اجتمعت الواو والياءُ ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأُدغمت كما فُعِل في سيّد وميّت . وقال بعض الكوفيين : أَصل (صيِّبٍ) صُوَيب على مثال فُعَيْل ، وكان يلزمه ألا يُعَلّ كما لم يُعل طويل(١) ، فبهذا يضعف هذا القول . وقوله تعالى : [ظُلُمَاتٌ] بالجمع إشارة إلى ظُلْمَة الليل ، وظُلْمَة الدَّجْنِ(٢) ، ومن حيث تتراكب وتتزايد جُمِعَتْ ، وكَوْنُ الدجن مظلما هول وغم للنفس ، بخلاف السحاب والمطر إذا انجلى دجنه فإنه سارٌّ جميل . ومنه قول قيس بن الخطيم :

فَمَا روْضَةٌ مِنْ رياضِ القَطَا كأَنَّ المصابيحَ حَوْذَانُهَـــــا
بأَحْسَنَ مِنْهَا ، ولا مُزْنَــــةٌ دَلُوحٌ تَكَشَّف أَدْجَانُهَـــا(٣)

واختلف العلماءُ في (الرَّعْدِ) ، فقال ابن عباس ، ومجاهد ، وشهر بن حوشب ، وغيرهم : هو مَلَكٌ يَزْجُر السحاب بهذا الصوت المسموع ،

(١) مع أنه قد أعل ودخله الإدغام ، وهذا هو وجه ضعف هذا القول .

(٢) يقال: دجن اليوم يدجن دجنا ودجونا كان فيه دجن . والدَّجْنُ السحاب والغيم والمطر الكثير والدائم ، جمعه أدجان كما في البيت الثاني من بيتي قيس بن الخطيم .

(٣) وقبل البيتين :

أجَــدَّ بِعَمْرَةَ غنيـــانُهـــا فتَهْجُرَ أمْ شَأنُنَـــا شَأنُهَـــا ؟
فإنْ تمس شَطَّتْ بهـــا دارُهـــا وباحَ لكَ اليومَ هجْرَانُهَـــــا

وبعدهما :

وَعَمْرَةُ من سَرَوات النِّســـــا ء ، تَنْفَحُ بالمِسْكِ أردَانُهَـــا

أجد : استمر ، وغنيانها استغناؤها ، أم شأننا شأنها : أي أم هي على ما نحب ؟ وشطتْ بعدت ، ورياض القطا اسم موضع فيه نبت وماء مستدير ، وقوله : كأن المصابيح إلخ ... فيه قلب . والأصل : كأن حوذانها المصابيح ، والعرب تفعل ذلك ، والحوذان نبت طيب يرتفع قدر الذراع وله زهرة حمراء في أصلها صفرة ، والدَّلُوح : السحابة الكثيرة الماء ، والأردان ما يلي الذراعين من الكمين .

كلما خالفت سحابة صاح بها ، فإذا اشتد غضبه طارت النار مِنْ فِيهِ فهي الصواعق ، واسم هذا المَلَك : الرعد ، وقيل : الرعد مَلَكٌ وهذا الصوت تسبيحه ، وقيل : الرعد اسم الصوت المسموع ، قاله علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وهذا هو المعلوم في لغة العرب ، وقد قال لبيد في جاهليته :

فَجَّعَني الرعدُ والصواعق بِالْفَـــارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجُدِ(١)

وَرُوِيَ عن ابن عباس أنه قال : الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوت ذلك الصوت ، وقيل : الرعد اصطكاك أجرام السحاب(٢) ، وأكثر العلماءِ على أن الرعد مَلَك ، وذلك صوته يسبح ويزجر السحاب(٣).

واختلفوا في (البرق) ، فقال على بن أبي طالب رضي الله عنه : هو مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب . وقال ابن عباس : هو سوط نور بيد الملك يزجي به السحاب . وروي عن ابن عباس رضي الله عنه : أن البرق مَلَك يتراءى وقال قوم : البرق ماءٌ ، وهذا قول ضعيف .

والصاعقة : قال الخليل : هي الوقعة الشديدة من صوت الرعد ،

---

(١) قال لبيد هذا البيت وهو يرثي أخاه (إربد) — وكان قد احترق بصاعقة .

(٢) هو التحاكك والاصطدام فيتولد عنه ذلك الصوت القوي المزعج ، وهذا من رأي الفلاسفة .

(٣) يشهد له حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي خرجه الترمذي في جامعه قال : (أقبلت يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال : ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله . قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال زجرة بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره . قالوا : صدقت) »

يكون معها أحياناً قطعة نار، يقال : إنها من المخراق الذي بيد الملَك، وقيل في قطعة النار : إنها ما يخرج من فم الملك عند غضبه .

وحكى الخليل عن قوم من العرب : الساعقة بالسين . وقال النقاش : يقال: صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنى واحد ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : (من الصواقع) بتقديم القاف . قال أبو عمرو : وهي لغة تميم . وقرأ الضحاك بن مزاحم : (حِذارَ المَوْتِ) بكسر الحاء وبألف .

واختلف المتأولون في المقصد بهذا المثل ، وكيف تترتب أحوال المنافقين الموازنة لِمَا في المثل من الظلمات ، والرعد، والبرق، والصواعق. فقال جمهور المفسرين : مثل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لما فيه من الإشكال عليهم، والعَمى : هو الظلمات وما فيه من الوعيد ، والزجر : هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم هو البرق ، وتخوُّفهم وروعهم وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم ، وفضح نفاقهم واشتهار كفرهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله صحيح بيِّنٌ . وروي عن ابن مسعود أنه قال : إن رجلين من المنافقين هربا من النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله ، وأيقنا بالهلك فقالا : ليتنا أصبحنا فنأْتي محمداً ، ونضع أيدينا في يده ، فأصبحا وأتياه وحَسُنَ إسلامهما ، فضرب الله ما نزل بهما مثلا للمنافقين(١) . وقال أيضاً ابن مسعود :

(١) رواه ابن جرير في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه .

إن المنافقين في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن ، فضرب الله المثل لهم ، وهذا وفاق لقول الجمهور الذي ذكرناه .

وقال قوم : الرعد والبرق هما بمثابة زجر القرآن ووعيده .

و[مُحيطٌ بالْكَافِرين] معناه : بعقابه وأَخْذه [١] ، يقال : أَحاط السلطان بفلان إذا أَخذه أخذاً حاصراً من كل جهة . ومنه قوله تعالى : [وأُحيطَ بِثَمَرِهِ][٢] ، ففي الكلام حذف مضاف ، و[يَكَادُ] فِعْلٌ ينفي المعنى مع إيجابه ، ويوجبُه مع النفي ، فهنا لم يخطف البرق الأَبصار ، والخطف الانتزاع بسرعة ، واختلفت القراءة في هذه اللفظة [٣] ، فقرأ جمهور الناس : [يَخْطَفُ أَبْصَارهُمْ] بفتح الياء والطاء وسكون الخاء على قولهم في الماضي خَطِفَ بكسر الطاء ، وهي أَفصح لغات العرب ، وهي قرشية . وقرأ علي بن الحسين ، ويحيى بن وثاب :[يَخْطِفُ] بفتح الياء وسكون الخاء وكسر الطاء على قول بعض العرب في الماضي خَطَف بفتح الطاء . ونسب المهدوي هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء ، وذلك وهم . وقرأ الحسن ، وأبو رجاءٍ ، وعاصم الجحدري ، وقتادة : (يَخِطِّفُ) بفتح الياء وكسر الخاء والطاء وتشديد الطاء ، وهذه أَصلها يختطف أُدغمت التاءُ في الطاء وكسرت الخاءُ لالتقاء الساكنين . وحكى ابن

(١) الأولى : بعقابهم وأخذهم . وهو ما في (خ) .

(٢) من الآية (٤١) من سورة (الكهف) .

(٣) جملة القراءات التي أشار إليها المؤلف رحمه الله : تسع ، أفصحها وأصحها ما عليه السبعة ،والقراءة التي حكاها الفراء عن بعض أهل المدينة لا تجوز ، كما قاله أبو الفتح بن جنّي ، والباقي شذوذ تجري عليه أحكامه .

مجاهد قراءة لم ينسبها إلى أحد (يَخَطِّفُ) بفتح الياءِ والخاءِ وتشديد الطاءِ المكسورة ، قال أبو الفتح : أصلها يختطف، نقلت حركة التاءِ إلى الخاءِ ، وأُدغمت التاءُ في الطاءِ . وحكي أبو عمر الداني عن الحسن أيضاً أنه قرأ : (يَخَطَّف) بفتح الياءِ والخاءِ والطاءِ وشدها ، وروي أيضاً عن الحسن والأعمش بكسر الثلاثة وشد الطاءِ منها ، وهذه أيضاً أصلها يختطف . أُدغم وكسرت الخاءِ للالتقاءِ ، وكسرت الياءُ إتْبَاعاً . وقال عبد الوارث : رأيتها في مصحف أُبي بن كعب : (يَتَخَطف) بالتاءِ بين الياءِ والخاءِ ، وقال الفراءُ : قرأ بعض أهل المدينة بفتح الياءِ وسكون الخاءِ وشد الطاءِ مكسورة ، قال أبو الفتح : إنما هو اختلاس وإخفاءٌ فيلطف عندهم فيرون أنه إدغام ، وذلك لايجوز لأنه جمع بين ساكنين دون عذر ، وحكى الفراءُ قراءة عن بعض الناس بضم الياءِ وفتح الخاءِ وشد الطاءِ مكسورة كأنه تشديد مبالغة لا تشديد تعدية . ومعنى [يَكَادُ البَرْقُ يَخْطفُ أَبْصَارَهُمْ] : تكاد حجج القرآن وبراهينه وآياته الساطعة تبهرهم . ومن جعل البرق في المثل الزجر والوعيد ، قال: يكاد ذلك يصيبهم ، و[كُلَّمَا] ظَرْفٌ[1] والعامل فيه [مَشَوْا] ، وهو أيضاً جواب [كُلَّما] ، و[أَضَاءَ] صِلَةُ (ما) ، ومَنْ جعل (أَضاءَ) يتعدى قدر له مفعولا ، ومن جعله بمنزلة (ضاءَ) استغنى عن ذلك ، وقرأ ابن أبي عبلة : أَضا لهم بغير همز ، وهي لغة . وفي مصحف أُبي بن كعب : (مرّوا فيه) ، وفي قراءة ابن مسعود : (مضوا فيه) ، وقرأ

(١) أصلها (كل) ثم دخلت (ما) المصدرية الظرفية فأصبحت (كلما) . كلمة تؤدي معنى الظرفية وتفيد التكرار في المعنى .

الضحاك : (وإِذَا أُظْلِم) بضم الهمز وكسر اللام ، و [قَامُوا] معناه : ثبتوا لأَنهم كانوا قياماً ، ومنه قول الأَعرابي :

وقد أَقامَ الدَّهْرُ صَعري بعد أَن أَقَمْتُ صعرَه (١)

يريد أَثبت الدهر .

ومعنى الآية فيما روي عن ابن عباس وغيره : كلما سمع المنافقون القرآن ، وظهرت لهم الحجج ، أَنِسُوا ومشَوْا معه ، فإذا نَزَل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أَو يكلفونه ، قاموا أَي ثبتوا على نفاقهم . وروي عن ابن مسعود أَن معنى الآية : كلما صلحت أَحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا : دين محمد دين مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة أَو أَصابتهم شدة سخطوا وثبتوا في نفاقهم(٢) .

وقال قوم : معنى الآية : كلما خفي عليكم نفاقهم ، وظهر لكم منهم الإِيمان مشوا فيه ، فإذا افتضحوا عندكم قاموا . ووحد السمع لأَنه مصدر ، يقع للواحد والجمع . وحكى النقاش أَن من العلماءِ من قرأَ : (بأَسماعهم) . وقرأَ ابراهيم بن أَبي عبلة : ولو شاءَ الله لأَذهب أَسماعهم وأَبصارهم ، وخص الأَسماع والأَبصار لتقدم ذكرها في الآية ، ويشبه هذا المعنى في حال المنافقين أَن الله لو شاءَ لأَوقع بهم ما يتخوفونه من الزجر والوعيد ، أَو لَفَضَحَهُمْ عند المؤمنين ، وسلَّطَ المؤمنين عليهم ، وبكل مذهب من هذين قال قوم . وقوله تعالى : [عَلَى

(١) في الصحاح : الصعر : الميل في الخد خاصة ، وقد صعّر خده وصاعره : أماله من الكبر — وفي اللسان : ولأقيمن صعرك : أي ميلك على المثل — وفي حديث توبة كعب : فأنا إليه أصعر : أي أميل .

(٢) يشهد له قوله تعالى : [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْف فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ] .

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] لفظه العموم ، ومعناه عند المتكلمين : على كل شيءٍ يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه [١] ، و [قَدِيرٌ] بمعنى قادر ، وفيه مبالغة ، وخص هنا صفته التي هي القدرة بالذكر لأنه قد تقدم ذكر فعل مضمنه الوعيد والإخافة ، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك .

قوله عز وجل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[يا] حرف نداءٍ ، وفيه تنبيه ، و [أي] هو المنادى ، قال أبو علي : اجتلبت (أيْ) بعد حرف النداءِ فيما فيه الألف واللام لأن في حرف النداءِ تعريفاً ، فكان يجتمع تعريفان ، و [ها] تنبيه وإشارة إلى المقصود ، وهي بمنزلة ذا في الواحد . و [الناس] نعت لازم لأيٍ . وقال مجاهد : [يَا أَيُّها النَّاسُ] حيث وقع في القرآن مكي ، و [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] مدني .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قد تقدم في أول السورة أنها كلها مدنية ، وقد يجيءُ في المدني [يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ] ، وأما قوله في [يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا) فصحيح .

---

(١) فيخرج المستحيل ، على أن لفظ شيء محرز ، لأنه بمعنى الموجود عند أهل السنة ، والمستحيل غير موجود .

وقوله تعالى : [اعْبُدُوا ربَّكُمْ] [١] معناه : وَحِّدُوه وَخُصُّوه بالعبادة ، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته ، إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها ، فذكر ذلك حجة عليهم[٢] . و (لَعَلَّ) في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين : هي بمعنى إيجاب التقوى[٣] ، وليست من الله تعالى بمعنى تَرَجٍّ وتوقع . وقال سيبويه ، ورؤساءُ اللسان : هي على بابها ، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر ، أي إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم رجوتم لأنفسكم التقوى . و [لَعَلَّكُمْ] متعلقة بقوله : [اعْبُدُوا رَبَّكُمْ] ، ويتجه تعلقها بخلقكم ، أي لما ولِدَ كل مولود على الفطرة فهو إن تأمله متأمل توقع له ورجا أن يكون متقيا . و [تَتَّقُونَ] مأخوذ من الوقاية ، وأصله تُوتَقَيُون ، نقلت حركة الياء إلى القاف وحذفت للالتقاء مع الواو الساكنة ، وأُدغمت الواو الأُولى في التاء .

وقوله تعالى : [الَّذي جَعَلَ] نصب على إتباع[٤] (الَّذي) المتقدم ، ويصح أن يكون مرفوعاً على القطع ، وما ذكر مكي : من إضمار أعني ، أو مفعول بتتقون فضعيف. و (جعَلَ) بمعنى صيَّر في هذه الآية ، لتعدّيها

---

(١) بعد أن ذكر سبحانه علو كتابه ، ونفى الريب عن كلامه ، وقسّم الخلق إلى أقسام بالإضافة إلى طاعته ، أقبل سبحانه على خلقه بخطابه ، والتفت إلى أمرهم بعبادته ، وجعل من موجبات التعلق بذاته والشكر لنعمائه : أن خلقهم أحياء قادرين ، وجعل لهم الأرض فراشاً ، والسماء بناءً ، وأنزل لهم من السماء ماءً ، فأخرج به من أنواع الثمرات ، وأصناف النباتات رزقاً ينتفعون به في حياتهم ، وليكون ذلك مجازاً إلى النظر الموصّل إلى توحيده ، والاعتراف بعظمته .

(٢) كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله : [وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ] .

(٣) والمعنى : لتَتَّقوا .

(٤) الأوضح أنه نعت للرب .

إلى مفعولين ، و [فِرَاشاً] معناه : تفترشونها[١] ، وتستقرون عليها ، وما في الأَرض مما ليس بفراش كالجبال والبحار فهو من مصالح ما يفترش منها ، لأَن الجبال كالأَوتاد ، والبحار يركب فيها إلى سائر منافعها .

و[السَّماءَ] قيل : هو اسم مفرد ، جمعه سماوات ، وقيل : هو جمعٌ واحده سماوة . وكل ما ارتفع عليك في الهواءِ فهو سماءٌ ، والهواءُ نفسه عُلُوًّا يقال له : سماءٌ ، ومنه الحديث (خَلَقَ اللهُ آدَمَ طُولُهُ في السَّماءِ سِتُّونَ ذِرَاعاً[٢]) . واللفظ من السُّمُو وتصاريفه .

وقوله تعالى : [بِنَاءً] تشبيه بما يفهم[٣] ، كما قال تعالى : [والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ)[٤] ، وقال بعض الصحابة : بناها على الأَرض كالقبة . وقوله : [وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ] يريد السحاب ، سمي بذلك تجوزاً

---

(١) قال جار الله الزمخشري : « إن قلتَ : هل في قوله تعالى : [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً] دليلٌ على أن الأرض مسطحة ، وليست كروية ؟ قلت : ليس فيه إلا أن الناس يفترشونها ، وسواء كانت على شكل السطح ، أو شكل الكرة ، فالافتراش غير مستنكر ، ولا مدفوع ، لعظم حجمها ، واتساع جرمها ، وتباعد أطرافها ، والمراد أن كروية الشكل لا تمنع أن تكون فراشاً لبني آدم ، لأن ذلك باعتبار مجموعها ، وهي في حد ذاتها واسعة الأطراف ، وبعيدة الأكناف حتى كأنها مسطحة » .

(٢) زيادة (في السماء) لا توجد في الروايات المشهورة ، والحديث رواه الشيخان ، والإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أي كالبناء المرتبط بعضه ببعض من كل جهة ، المتماسك بالجاذبية التي تحفظ نظامها في مداراتها ، فهي كالقبة المضروبة على الأرض . وقد جعل الله بين المقلة والمظلّة علاقة ورابطة كرابطة النكاح ، بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل من ألوان الثمار وأصناف النبات ، رزقاً لبني آدم .

(٤) من الآية (٤٧) من سورة (الذاريات) .

لما كان يلي السماءَ ويقاربها ، وقد سموا المطر سماءً للمجاورة ، ومنه قول الشاعر :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وإِنْ كانوا غِضَاباً(١)

فتجوز أَيضاً في رعيناه ، فبتوسط المطر جعل السماءَ عشباً . وأَصل (ماء) موه يدل على ذلك قولهم في الجمع : مياه وأَمواه ، وفي التصغير : مُوَيْهٌ ، وانطلق اسم الرزق على ما يخرجُ من الثمرات قبل التملك أَي هي مُعَدَّةٌ أَن يصح الانتفاع بها فهي رزق (٢) ، وَرَدَّ بهذه الآية بعض الناسِ قول المعتزلة: إن الرزق ما يصح تملكه، وليس الحرام برزق .

وواحد الأَنداد: نِدٌّ(٣) . وهو المقاوم والمضاهي كان مثلا أَو خلافاً أَو ضدًّا ، ومن حيث قاوم وضاهى فقد حصلت مماثلة ما ، وقال أَبوعبيدة معمر ، والمفضل : الضد : الند ، وهذا التخصيص منهما تمثيل لا حصر .

---

(١) هذا البيت مشهور ، يمثل به علماء البيان للاستخدام حيث أطلق السماء على المطر بقرينة النزول ، ثم أعيد الضمير على السماء بمعنى العشب والنبات. والبيت لمعاوية بن مالك الملقب (بمعود الحكماء) بقوله في هذه القصيدة : أعوِّدُ مثلها الحكماء بعدي إذا ما الحق في الحدثان نابا .

ومعنى البيت الذي ذكره ابن عطية : إذا نزل المطر بأرض قوم فأخصبت وبقيت أرضنا جدباء ، ذهبنا فرعينا أرضهم ، وإن غضب أهلها لم نهتم بغضبهم لأننا أعزة وأقوياء .

(٢) سبق أن قلنا إنّ الخلاف القائم بين أهل السنة والمعتزلة منشؤه : هل الرزق ما يصح الانتفاع به أو ما يصح تملكه ؟ وهذه الآية ترد على المعتزلة من حيث أنّ الله سبحانه أطلق الرزق على ما ينتفع به في المستقبل قبل تملكه .

(٣) روى ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى : (فلا تجعلوا لله أنداداً) قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفوة سوداء في ظلمة الليل — ومن الشرك أن تقول : لولا الله وفلان لوقع كذا — أو ما شاء الله وشاء فلان — أو والله وحياتك يا فلان ، أخرج البخاري في الأدب المفرد ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: مَاشَاءَ اللهُ وشِئْتَ ، قَالَ :(جَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا ، مَاشَاءَ اللهُ وَحْدَهُ). وأخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : (أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ ؟ قَالَ : أنْ تَجْعَلَ للهِ نِداً وَهُوَ خَلَقَكَ) .

واختلف المتأولون : مَن المخاطبُ بهذه الآية ؟ فقالت جماعة من المفسرين : المخاطب جميع المشركين ، فقوله على هذا [وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ](١) يريد العلم الخاص بأنه تعالى خلق وأنزل الماء ، وأخرج الرزق ، ولم تَنْفِ الآية الجهالة عن الكفار(٢). وقيل : المراد كفار بني إسرائيل ، فالمعنى : تعلمون من الكتب التي عندكم ، أن الله لا ندَّ له . وقال ابن فورك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ، فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أنداداً بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد (٣)

وهذه الآية تعطي (٤) أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق ، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل

(١) وفي قوله تعالى : [وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] دليل على اعتبار العلم . واستعمال العقل ، واجتناب التقليد والتبعية .

(٢) لأنها إنما أثبتت شيئاً خاصاً من العلم ، وهو إنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، فلا ينافي قوله تعالى سابقاً ، (ولكن لا يعلمون) — (ولكن لا يشعرون) .

(٣) هذا أولى الأقوال وأحسنها ، فالمراد بالناس في الآية كافة المكلفين من مؤمنين وكافرين ، وطلب العبادة من المؤمنين طلب إدامتها والثبات عليها . وطلبها من الكافرين طلب إيجادها وابتدائها .

(٤) قال الإمام (ق) : ولهذا قال عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى هذا المعنى : (والله لأنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِه خَيْرٌ لَه مِنْ أنْ يَسْأَلَ أَحَداً أعْطَاهُ أوْ مَنَعَهُ)، أخرجه الإمام مسلم ، ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها — فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا ، فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً — وقال علماء الصوفية : بيَّن الله في هذه الآية سبيل الفقر ، وهو أن تجعل الأرض وطاءً ، والسماء غطاءً ، والماء طيباً ، والكلأ طعاماً ، ولا تعبد أحداً في الدنيا من الخلق بسبب الدنيا ، فإن الله عزوجل قد أتاح لك ما لابد لك منه من غير منة فيه لأحد عليك اهـ ، وليس المراد من قول الصوفية أن تترك العمل، بل أن تترك التعلق والتملق ، ولو أدى بك الحال إلى أن تفترش الأرض ، وتتغطى بالسماء .

والرغبة في زخرف الدنيا ، فقد أَخذ بطرف من جعل لله نداً . عصمنا الله تعالى بفضله ، وقَصَر آمالنا عليه بِمَنِّه وَطَوْلِهِ ، لارب غيره .

قوله عز وجل[1] :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

[الرَّيبُ] الشك ، وهذه الآية تقضي أَن الخطاب[2] المتقدم إنما هو لجماعة المشركين الذين تُحُدُّوا ، وتقدم تفسير لفظ [سُورَة] في صدر هذا التعليق .

وقرأَ يزيد بن قطيب : (أَنْزَلْنَا) بأَلف ، واختلف المتأَوِّلون على من يعود الضمير في قوله : [مِنْ مِثْلِهِ] ، فقال جمهور العلماء : هو عائد على القرآن ، ثم اختلفوا ، فقال الأَكثر : من مثلِ نظْمه ورصْفِه وفصاحة

(١) [وإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِه] لما ذكر سبحانه الأدلة على وحدانيته وربوبيته ، ورسم الطريق إلى إثباتها ، وإقامة الحجة عليها ، عطف على ذلك الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، وأراهم كيف يتعرفون قضية الوحي أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه كما يدعون – بإرشادهم إلى معارضته ، والإتيان بسورة من مثله .

ويعم ذلك كلَّ سورة في القرآن ، طويلة كانت أم قصيرة ، لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم ، كما هو مقرر في محله . فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، فكل (سورة) معجزة لا يستطيع البشر معارضتها . قال الإمام الشافعي رحمه الله : « لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم [وَالْعَصْرِ إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ] .

(٢) أي قوله تعالى : [يَاأَيُّهَا النَّاس اعْبُدُوا رَبَّكُمْ] الآية ، وسبق أنها دعوة عامة .

معانيه التي يعرفونها ، ولا يُعجزُهم إلا التأْليف الذي خُصَّ به القرآن ، وبه وقع الإعجاز على قول حُذَّاق أَهل النظر(١) ، وقال بعضهم : [من مِّثْلِه] في غيوبه ، وصدقه ، وقِدَمِه ، فالتحدي عند هؤُلاءِ وقع بالقِدَم(٢) ، والأَول أَبيَن ، و [مِنْ] على هذا القول زائدة ، أَو لبيان الجنس ، وعلى القول الأَول هي للتَبْعِيض ، أَو لبيان الجنس . وقالت فرقة : الضمير في قوله :[مِنْ مِّثْلِهِ] عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلفوا . فقالت طائفة : من أُمِّيٍّ صادق مِثْلِه ، وقالت طائفة : من ساحِر ، أَو كاهن ، أَو شاعر مثْلِه على زعمكم أَيها المشركون . وقالت طائفة الضمير في مثلِه عائد على الكتب القديمة : التوراة ، والإِنجيل ، والزبور(٣) .

وقوله تعالى : [وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ] معناه : دعاءَ استصراخ ، والشهداءُ من شهدهم وحضرهم من عون ونصير ، قاله ابن عباس . وقيل عن مجاهد :

---

(١) وهذا الوجه أَعني بلوغَ القرآن في الفصاحة والبلاغة إلى حدٍّ خرج عن طوق البشر كافٍ وحده في الإعجاز ، وقد انضم إلى ذلك وجوه أخرى ، كإخباره عن الأمور الغائبة التي ظهرتْ كما أخبر — وككونه لا يملُّه السمع ، لحلاوته وإن تكرر — وكجمعه لعلومٍ لم تكن معهودة لا عند العرب ، ولا عند العجم — وكإنبائه عن الوقائع الخالية ، وأحوال الأمم الماضية ، والحال أن الذي أُنزل عليه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، لاستغنائه عن ذلك بالوحي ، ومن الوجوه المعجزة كما قاله بعض علماء الشيعة : كونُه قاهراً لِمَن يُقاومه ، وغالباً على من يغالبه ، ونافذاً في إزهاق من يخالفه — وكونُه مؤثراً في إيجاد الأمة ، وبناء الشريعة، ونفوذ الحكم ، وثبوت الكلمة ، لِمَا جعل الله فيه من النور والهداية والرحمة — ومَنْ تدبر القرآن ، وجد فيه من وجوه الإعجاز ، فنوناً ظاهرة ، وخفية ، من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى — وبذلك يُعلم أن القرآن أعظم المعجزات ، فإنه آية باقية مدى الدهر ، يشاهدها بعين الفكر كلُّ ذي حجر ، وسواه من المعجزات انقضى بانقضاء وقته ، فلم يبق منه إلا الخبر .

(٢) أي : وما ذكر معه .

(٣) يعني فأتوا بسورة من كتابٍ مثله فإنها تُصَدِّقُ ما فيه .

إن المعنى دعاءُ استحضار . والشهداءُ جمع شاهد ، أي من يشهد لكم أنكم عارضتم ، وهذا قول ضعيف . وقال الفراءُ : شُهَداؤهُمْ ، يراد بهم آلهتهم .

وقوله تعالى : [إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين] ، أي فيما قلتم من الريب . هذا قول بعض المفسرين ، وقال غيره : فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ، ويؤيد هذا القول أنه قد حُكي عنهم في آية أخرى [لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هَذَا] (١) .

وقوله تعالى : [فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا] دخلت (إن) على (لَمْ) لأَن (لَمْ تَفْعَلُوا) معناه تركتم الفعل ، فإنْ لا تؤثر ، كما لا تؤثر في الماضي من الأَفعال ، و (تَفْعَلُوا) جزم بلم ، وجزمت (لَمْ) لأَنها أَشبهت (لا) في التبرئة في أَنهما ينفيان ، فكما تَحْذِفُ (لا) تنوين الاسم ، كذلك تحذف (لَمْ) الحركة أَو العلامة من الفعل(٢) .

وقوله : [ولَنْ تَفْعَلُوا] نُصبتْ بـ(لن) ، ومن العرب من يجزم بها ذكره أَبو عبيدة .

ومنه بيت النابغة على بعض الروايات :

فَلَنْ أُعَرِّضْ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ بالصَّفَدِ(٣) .

(١) من الآية (٣١) من سورة (الأنفال) .

(٢) أي : والعامل لا يدخل في العامل ، ولكن لما كانت (إن) لا تؤثر كما لا تؤثر في الماضي من الأفعال سهُل دخولها على (لم) ، والمعنى فإن تركتم الفعل الخ . وقد جاء في (البحر المحيط) (١-١٠٦) : « وفي كتاب ابن عطية تعليل غريب لعمل (لم) الجزم : قال : وجزمت (لم) ... » الخ كلام ابن عطية هنا .

(٣) وفي بعض الروايات الأخرى : (فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد) وأول البيت : هَذَا الثَّناءُ فإن تَسْمَعْ بِهِ حَسَناً .

و (أبيت اللعن) نوع من التحية ـ فكأنه قال: أبيت أن تفعل ما تلعن عليه من الأمور ، و (الصفد) : العطاء . والنابغة هو زياد بن معاوية .

وفي الحديث في منامة عبد الله بن عمر (فقيل لي : لَنْ تُرَعْ) [١] هذا على تلك اللغة ، وفي قوله: [وَلَنْ تَفْعَلُوا] إثارةٌ لِهِمَمِهِمْ ، وتحريكٌ لنفوسهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهو أيضاً من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها .

وقوله تعالى : [فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ] أمر بالإيمان وطاعة الله ، خرج في هذه الألفاظ المحذرة [٢] . وقرأ الجمهور (وَقُودُهَا) بفتح الواو[٣] . وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، ومجاهد ، وطلحة بن مصرف ، وأبو حيوة : (وُقُودُهَا) بضم الواو في كل القرآن ، إلا أن طلحة استثنى الحرف الذي في البروج . و «بفتح الواو» هو الحطب ، و «بضمها» هو المصدر ، وقد حكيا جميعاً في الحطب ، وقد حكيا في المصدر . قال ابن جني : من قرأ بضم الواو ، فهو على حذف مضاف ، تقديره : ذُو وُقُودُها ، لأَن الوُقُود بالضم مصدر وليس بالناس . وقد جاء عنهم (الوَقُودَ) بالفتح في المصدر ، ومثله : «وَلعت به وَلوعاً» بفتح الواو ، وكله شاذ ، والباب هو الضم .

وقوله : [النَّاسُ] عمومٌ معناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاءُ

(١) أخرجه الإمام البخاري في باب « فضل قيام الليل » — وفي مناقب ابن عمر — وأخرجه الإمام مسلم كذلك في فضائل ابن عمر ، ورُويَ الحديث بلم وبلن مجزوماً على لغة قليلة حكاها الكسائي .

(٢) اتقاءُ النار : كنايةٌ عن ترك العناد ، وترك العناد قد يؤدي إلى الإيمان بالله والرسول ، والطاعة لله والرسول ، أي إذا استبنتم العجز فآمنوا وأطيعوا اتقاءً للنار التي وقودهاالناس والحجارة ، والكناية باب من أبواب البلاغة ، وفائدتها الإيجاز الذي هو حلية القرآن .

(٣) أي : (الواو) الأولى في (وقود) .

بدخولها . ورُوي عن ابن مسعود في الحجارة ، أنها حجارة الكبريت (١) ، وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الاتقاد ، ونَتَن الرائحة ، وكثرة الدخان ، وشدة الالتصاق بالأبدان ، وقوة حرها إذا حميَتْ .

وفي قوله تعالى : [أُعِدَّت] (٢) رد على من قال : إن النار لم تخلق حتى الآن وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد (٣) .

وذهب بعض المتأولين : إلى أن هذه النار المخصصة بالحجارة

---

(١) أخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الكبير ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود قال : إن الحجارة التي ذكرها الله في القرآن في قوله [وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ] حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله . وأخرج ابن جرير أيضاً عن عمرو ابن ميمون مثله . وأخرج الإمام أحمد والإمام مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم) . قالوا : يارسول الله إن كانت لكافية ، قال : (فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها) ، انتهى .

(٢) أي : هُيِّئَتْ ، فهي مخلوقة من الآن ، وكذلك الجنة ، وهذا هو رأي أهل السنة والجماعة . لأن الإعداد لا يكون إلا للموجود .

(٣) هو منذر بن سعيد القاضي الأندلسي المعروف بالبلوطي من موضع يعرف بفحص البلوط من نواحي قرطبة ، يكنى أبا الحَكَم . كان عالماً بالقرآن ، وحافظاً لما قالت العلماء في تفسيره ، وأحكامه ، ووجوه حلاله وحرامه ، كثير التلاوة له ، حاضر الشاهد لآياته ، وله فيه كتب منها كتاب « الأحكام » ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ » ، قال عنه أبو حيان التوحيدي في تفسيره : « البحر المحيط » ١٠٨/١ ، ١٠٩ — : « وكان معتزلياً في أكثر الأصول ، ظاهرياً في الفروع ، وسرى إليه ذلك القول من قول كثير من المعتزلة — ، وليَ قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٣٨ هـ وتوفي سنة ٣٥٥ هـ . وكان خطيباً بليغاً ، وشاعراً محسناً . انظر ترجمته في « نفح الطيب » .

هي نار الكافرين خاصة ، وأن غيرها هي للعصاة (١) . وقال الجمهور : بل الإشارة إلى جميع النار ، لا إلى نار مخصوصة ، وإنما ذَكَرَ الكافرين ليحصل المخاطبون في الوعيد ، إذ فعلُهم كفرٌ ، فكأنَّه قال : أُعدت لمن فعل فِعلكم ، وليس يقتضي ذلك أنه لا يدخلها غيرهم (٢) ، وقرأ ابن أبي عَبْلَةَ (أَعَدَّها الله لِلْكَافِرِينَ).

قوله عز وجل :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥) ﴾

[بَشِّرْ] مأْخوذ من البَشَرَة ، لأَن ما يُبَشَّرُ به الإنسان من خير أَو شرٍّ يظهر عليه أَثرُه في بَشَرَةِ الوجه ، والأَغلب استعمال البشارة في الخير ، وقد تستعمل في الشر مقيدةً به ، منصوصاً على الشر المبشر به ، كما قال تعالى : [فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم] ، ومتى أُطلق لفظ البشارة فإنما يُحمل على الخير(٣) .

---

(١) قال جار الله الزمخشري : فإن قلت : أنار الجحيم كلُّها موقدة بالناس والحجارة ، أم هي نيران شتى ، منها نار بهذه الصفة ؟ قلت : بل هي نيران شتى : منها نار توقد بالناس والحجارة يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى : [قُوا أنفسكم وأَهليكم نَاراً] ، [فَأَنذرْتُكُمْ نَاراً تَلَظّى] ، ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين ، كما أن لكفرة الإنس ناراً وقودها هم ، جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب .

(٢) من ذلك قوله تعالى : [وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً] .

(٣) نقل أبو حيان في تفسيره هذا الكلام عن ابن عطية ، ثم قال : « وتقدم لنا ما يخالف كلامه من قول سيبويه وغيره ، وأن البشارة أول خبر يردعلى الإنسان=

وفي قوله تعالى : [وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ] ردٌّ على من يقول إن لفظة الإيمان بمجردها تقتضي الطاعات(١) ، لأنه لو كان ذلك ما أعادها . [أَنَّ] في موضع نصب ببشِّرْ ، وقيل : في موضع خفض على تقدير باءِ الجر . و [جنَّاتٍ] جمع جَنَّة ، وهي بستان الشجر والنخيل ، وبستان الكرم يقال له : الفردوس ، وسميت جنة لأنها تجن من دخلها أي تستره ، ومنه المِجَن والجَنَن(٢) وجَنَّ الليل .

و[مِنْ تَحْتِهَا] معناه : من تحت الأشجار التي يتضمنها ذكر الجنة ، وقيل: قوله [مِنْ تَحْتِهَا] معناه : بإزائها كما تقول : داري تحت دار فلان . وهذا ضعيف ، و [الأنهار] المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة ، لأنها لفظة مأخوذة من أنْهَرْتُ أيْ وسَّعْتُ ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ما أنهرَ الدم ، وذُكر اسم الله عليه فكلوه) . معناه : ما وسَّع الذبح حتى جرى الدم كالنهر ،

= من خير كان أو شرّ – قالوا : وسمّي بذلك لتأثيره في البشرة ، فإن كان خيراً أثّر المسرّة والانبساط ، وإن كان شراً أثر القبض والانكماش ، قال تعالى : [يُبَشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورِضْوان] وقال تعالى : [فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليم] ا هـ . البحر المحيط ١/١١١ .

(١) أي : تكفي من دون عمل ، وقد اشتهرت فرقة المُرجِئة بهذا الرأي ، والحق أن الجنة تُنال بالإيمان والعمل الصالح ، كما صرحت بذلك الآيات ، ورأي ابن عطية أن الإيمان وحده لا يقتضي فعل الطاعة كما هو واضح . راجع (البحر المحيط ١/١١١) .

(٢) الجَنَن : القبر ، والمِجَنُّ : التُّرْس .

ونسب الجري إلى النهر وإنما يجري الماءُ وحده تجوُّزاً(١) ، كما قال : « واسأَل القرية » ، وكما قال الشاعر :

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ وَٱسْتَبَّ بَعْدَكَ يَاكُلَيْبُ المَجْلِسُ(٢)

ورُوِيَ أَن أَنهار الجنة ليست في أَخاديد ، إِنما تجري على سطح أَرض الجنة منضبطة .

وقوله [كُلَّمَا] : ظرف يقتضي الحصر .

وفي هذه الآية رد على من يقول : إن الرزق من شروطه التملك ، ذَكَر هذا بعض الأُصوليين ، وليس عندي بِبَيِّن(٣) .

وقولهم [هَذَا] إشارة إلى الجنس ، أَي هذا مِن الجنس الذي رزقنا منه من قبل(٤) ، والكلام يحتمل أَن يكون تعجباً ، وهو قول ابن عباس .

---

(١) فسّر ابن عطية الأنهار بأنها « المياه في مجاريها » — ثم قال بعد ذلك : « ونسب الجري إلى النهر ، وإنما يجري الماء وحده تجوزاً » .

وجاء أبو حيان فنسب هذا الكلام لابن عطية ، ثم علق عليه ناقداً له في تفسيره « البحر المحيط ١/١١٣ » . فقال : « وناقض قوله هذا ما شرح به الأنهار قبله بنحو خمسة أسطر » . ا هـ . والذي يبدو لنا أن كلام أبي حيان في تعليقه يكون صحيحاً ، ويكون نظراً دقيقاً لو أن ابن عطية فسّر الأنهار بأنها (المياه وحدها) — لكن الحقيقة أن ابن عطية فسر الأنهار (بأنها المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة) ثم قال : إن الذي يجري هو الماء (وحده) — فلا تناقض إذاً .

(٢) هو لمهلهل قاله يرثي أخاه كليبا—وقوله : «المجلس» أي « أهل المجلس».وفي رواية :

ذهب الخيارُ من المعاشر كلِّهِمْ واسْتَبَّ بعدك يا كليب المجلس

وتقاولوا في أمر كل عظيمة لو كنت حاضرَ أمْرِهِمْ لم ينبسوا

(٣) لأن هذا الرزق في الحياة الآخرة ، وكذلك القول هو في الآخرة ، فلا يظهر فيه الاستدلال

(٤) لأبي حيان في « البحر المحيط ١/١١٥ » تعليق لطيف قال فيه : « وليس [هذا] إشارة إلى الجنس ، بل [هذا] إشارة إلى الرزق ، وكيف يكون إشارة إلى الجنس وقد فسر قوله بعد : من الجنس الذي زقناه من قبل ، فكأنه قال : هذا الجنس من الجنس الذي زقنا من قبل » ؟ ثم قال أبو حيان : « ولعلّ الناقل صحف مثل بمن » . يعني لعلها كانت في الأصل (مثل) فنقلها الناقل (من) — ويكون أصل الكلام : « هذا مثل الجنس الذي رزقنا من قبل » ا هـ .

ويحتمل أن يكون خبراً من بعضهم لبعض ، قاله جماعة من المفسرين . وقال الحسن ، ومجاهد : يرزقون الثمرة ، ثم يرزقون بعدها مثل صورتها. والطعم مختلف ، فهم يتعجبون لذلك ، ويخبر بعضهم بعضاً . وقال ابن عباس : ليس في الجنة شيءٌ مما في الدنيا سوى الأسماءِ ، وأما الذوات فمتباينة ، وقال بعض المتأولين : المعنى أنهم يرون الثمر فيُميِّزون أجناسه ، حين أشبه منظره ما كان في الدنيا ، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقول ابن عباس الذي قبل هذا يرد على هذا القول بعض الرد . وقال بعض المفسرين : المعنى هذا الذي وُعِدْنَا به في الدنيا ، فكأنهم قد رُزقُوه في الدنيا إذْ وَعْدُ الله منتجز . وقال قوم : إنَّ ثمر الجنة إذا قُطِفَ منه شيءٌ خرج في الحين في موضعه مثله ، فهذا إشارة إلى الخارج في موضع المجني ، وقرأ جمهور الناس [وَأُتُوا] بضم الهمز ، وضم التاء ، وقرأ هارون الأعور : [وأَتَوْا] بفتح الهمزة والتاءِ ، والفاعل على هذه القراءة الولدان والخدام ، [وأُتُوا] على قراءة الجماعة أصله أُتِيُوا ــ نقلت حركة الياءِ إلى التاءِ ، ثم حذفت الياءُ للالتقاءِ .

وقوله تعالى : [مُتَشَابِهاً] قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغيرهم ، معناه : يشبه بعضه بعضاً في المنظر ، ويختلف في الطعم ، وقال عكرمة : معناه يشبه ثمر الدنيا في المنظر ، ويُبَاينه في جلِّ الصفات ،

وقال قتادة : متشابهاً : معناه خياراً لا رذل [(١)] فيه ، كقوله تعالى: [كتاباً متَشَابهاً] [(٢)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنه يريد متناسباً في أن كل صنف هو أعلى جنسه ، فهذا تشابه ما ، وقيل [مُتَشَابِهاً] أي مع ثمر الدنيا في الأسماءِ ، لا في غير ذلك من هيئة وطعم ، و[أَزْوَاجٌ] جمع زَوْج ، والمرأة زوجُ الرجل ، والرجل زوجُ المرأة ، ويقال في المرأة : زوجةٌ ، ومنه قول الفرزدق :

وإنَّ الَّذي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي كَسَاعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يَسْتَبِيلُهَا[(٣)]

وقال عمار بن ياسر في شأن عائشة رضي الله عنها : (والله إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم) . ذكر البخاري وغيره الحديث بطوله[(٤)] . و [مُطَهَّرَةٌ] أبلغ من طاهرة، ومعنى هذه : الطهارة من الحيض والبزاق[(٥)] ، وسائر أقذار الآدميات ، وقيل : من الآثام ، و (الْخُلُود) : الدوام في الحياة ، أو الملك ونحوه ، وخلد بالمكان إذا استمرت إقامته فيه ، وقد يستعمل الخلود مجازا فيما يطول ، وأما هذا الذي في الآية فهو أَبَدِيٌّ حقيقة .

---

(١) الرّذْلُ : الدنيء الخسيس . وضد الجيد ، جمعه رذول ، وأرذال ، ورذلاء .

(٢) من الآية (٢٣) من سورة (الزمر) .

(٣) الشرى : مأسدة إلى جانب الفرات يضرب بها المثل ، وقوله يستبيلهابالباء : أي يأخذ بولها في يده .

(٤) ذكره في باب « فضل عائشة » من كتاب المناقب ، وفي كتاب « الفتن » .

(٥) البزاق هو البصاق ـــ والبزق والبصق لغتان في البزاق والبصاق .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ذكر المفسرون أنه لما ضَرَبَ الله تعالى الْمَثَلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ في هذه السورة قال الكفار : ماهذه الأَمثال ؟ الله أَجَلُّ مِنْ أَن يَضربَ هذه أمثالا ، فنزلت الآية .

وقال ابن قتيبة : إنما نزلت لأَن الكفار أَنكروا ضرب المثل في غير هذه السورة بالذباب والعنكبوت(١) ، وقال قوم هذه الآية مَثَلٌ للدنيا(٢) .

(١) إنما أنكروا ذلك لأنهم أخذوا بمجرد الظاهر ، ولم ينظروا في المراد من الخطاب ، وهذا عدم فقه منهم للغرض المقصود ، ولذلك كان إذا نفي الفقه أو العلم عن قوم فذلك لوقوفهم مع ظاهر الخطاب ، وعدم اعتبارهم للمراد منه ، كما قال تعالى: [ذلِكَ بأَنَّهُمْ قومٌ لا يَفْقَهُونَ] وإذا أثبت ذلك فهو لفهمهم مراد الله من خطابه وهو باطنه ، كما قال تعالى : [فأَمَّا الَّذِين آمنوا فيعلمونَ أنه الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ] فما استنكره اليهود أو المنافقون من ضرب المثل بالمُحَقَّرات من الأشياء ليس موضعاً للاستنكار ، من حيث أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به عظيماً ، وإن كان المتمثل له حقيراً كان المتمثل به كذلك ، فعظم المثل وحقارته شيء يستدعيه حال المتمثل له ، كما أشار إليه الزمخشري ، ولذلك رد الله عليهم بقوله : [إن الله لا يستحي] الآية .

(٢) صاحب هذا القول يقول : إنه مثل ضربه الله للدنيا وأهلها ، فإن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا سمنت ماتت ، كذلك هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل إذا امتلؤوا من الدنيا رِيّاً أخذهم الله عند ذلك ثم تلا : [فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شيْءٍ] هكذا رواه ابن جرير ، وضعف ابن عطية هذا القول ، وهو كذلك ، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم جناح البعوضة مثلا للدنيا في حديث سهل بن سعد (لَوْ كانت الدُّنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعُوضةٍ ما سَقَى كافراً مِنْها شَرْبَةَ ماءٍ) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيفٌ يـأْباه رصف الكلام واتساق المعنى .

و [يَسْتَحْيِي] أَصله يَسْتَحْيِيُ . عينهُ ولامهُ حرفا علة ، أُعِلَّت اللام منه بـأَن استثقلت الضمة على الياءِ فسكنت . وقرأَ ابن كثير في بعض الطرق عنه ، وابنُ مُحَيْصِنٍ ، وغيرهُما : [يَسْتَحِي] بكسر الحاءِ ، وهي لغةُ لتميم ، نقلت فيها حركة الياءِ الأُولى إلى الحاءِ فسكنت ، ثم استثقلت الضمة على الياءِ الثانية فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاءِ[1] .

واختلف المتأَولون في معنى [يَسْتَحْيِي] في هذه الآية : فرجَّح الطبري أَن معناه : يَخْشَى ، وقال غيره : معناه يترك ، وهذا هو الأَولى ، ومن قال يمتنع أَو يمنعه الحياءُ فهو يترك ، أَو قريب منه .

ولما كان الجليل القدر في الشاهد لا يمنعه من الخوض في نازل القول إلا الحياءُ من ذلك ، رد الله بقوله : [إنَّ الله لا يسْتَحيي] على القائلين : كيف يضرب الله مثلا بالذباب ونحوه ؟ أَي أَن هذه الأَشياءَ ليست من نازل القول ، إذْ هِيَ من الفصيح في المعنى المبلِّغ أَغراض المتكلم إلى نفس السامع ، فليست مما يستحى منه . حكى المهدوي أَن الاستحياءَ في هذه الآية راجع إلى الناس ، وهذا غير مُرضي .

وقوله تعالى : [أَن يَّضْربَ] : (أَنْ) مع الفعل في موضع نصب كأَنها مصدر في موضع المفعول ، ومعنى [يَضْربَ مَثَلاً] : يبين ضرباً من الأَمثال ، أَي نوعاً ، كما تقول هذا من ضرب هذا ، والضريب المثيل ، ويحتمل

---

(١) قيل : المحذوف الأولى ، وهي عين الكلمة ، وقيل : الثانية وهي لام الكلمة ــ خلافٌ مذكور في محله .

أَن يكون مثل ضرب البعث ، وضرب الذلة ، فيجيءُ المعنى[١] أَن يُلْزم الحجة بمثل[٢] .

و [مَثَلاً] مفعول ، فقيل : هو الأَول ، وقيل : هو الثاني قُدِّم وهو في نية التأْخير ، لأَن ضرب في هذا المعنى يتعدى إلى مفعولين[٣] .

واختلفوا في قوله : [مَّابَعُوضَةً] فقال قوم : [ما] صلة زائدة لا تفيد إلا شيئاً من تأْكيد ، وقيل : [ما] نكرة في موضع نصب على البدل لإبهامها . حكى المهدوي هذا القول عن الفراءِ ، والزجاج ، وثعلب ، وقيل غير هذا مما هو تخليط دعا إليه الظن أَنَّ [يضرب] إنما يتعدى إلى مفعول واحد ، وقال بعض الكوفيين : نصب [بعوضة] على تقدير إسقاط حرف الجر ، والمعنى : أَن يضرب مثلا ما بين بعوضة . وحُكِيَ عن العرب (له عشرون ما ناقة فجملا) ، وأَنكر أَبو العباس هذا الوجه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

(١) أي معنى الآية ، فمعنى (أن يضرب مثلا) أن يُلزمَ الحجة بمثل .

(٢) الحياء بمعناه في اللغة لا يصح نسبته إلى الله تعالى . وكل مالا يصح نسبته إلى الله تعالى فمختلف في تأويله ، منهم من قال نؤْمن به إجمالا ونَكِلُ علمه إلى الله تعالى ، وأهل التأويل اختلفوا في تفسير الاستحياء في الآية ، والأقوال المذكورة كلها تتقارب في المعنى ، وكلها من ثمرات الحياء ، ثم إنه ليس انتفاء الشيء عن الله تعالى مما يدل على صحة نسبته إليه كما ذهب إليه القاضي أبو بكر الطيب رحمه الله ، بل الحق أن كل أمر مستحيل على الله تعالى يصح أن ينفى عنه ، وبذلك نزل القرآن وجاءت السنة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : [لا تَأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ] [لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ] [مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ] [وَهُو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ] فالإخبار بانتفاء هذه الأشياء هو الصدق المحض ، وهو الحق المبين .

(٣) ضرب ، يمكن أن تفسر بذَكَر أو بَيَّن ، ويمكن أن تفسر بجَعَل ، فالمعنى الأول يتعدى إلى واحد ، والثاني إلى اثنين .

والذي يترجح أَن [ما] صفة مُخَصِّصَةٌ ، كما تقول : جئتك في أمر ما فتفيد النكرة تخصيصاً وتقريباً(١) ، ومنه قول أُمية بن أَبي الصلت:

سَلَعٌ مَا وَمِثْلُهُ عُشَرٌ مـا عَائِلٌ ما وعَالَت البَيْقُورا(٢)

و [بَعُوضَةً] على هذا مفعول ثان ، وقال قوم : [ما] نكرة ، كأَنه قال: شيئاً ، والآية في هذا يشبهها قول حسان بن ثابت :

فَكَفَى بِنَا فَضْلا عَلَى مَنْ غَيْرُنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّد إِيَّانَا(٣)

وقد تقدم نظير هذا القول(٤) ، والشبه بالبيت غير صحيح عندي .

(١) قال أبو (ح) : والذي نختاره من هذه الأعاريب : أن [ضرب] يتعدى إلى واحد ، وذلك الواحد هو [مثلا] ، لقوله تعالى : [ضُرِبَ مَثَلٌ] ولأنه مقدم في التركيب ، وصالح لأن ينتصب بيضرب ، و [ما] صفة تزيد النكرة شيوعاً ، لأن زيادتها في هذا الموضع لا تنقاس ، و[بعوضة] بدل لأن عطف البيان ، مذهب الجمهور فيه أنه لا يكون في النكرات ، ولأن الصفة بأسماء الأجناس لا تنقاس اهـ .

(٢) كانت العرب إذا أرادت الاستسقاء في السنة الآزمة جعلت النيران في أذناب البقر وأطلقوها فتمطر السماء ، لأن الله تعالى يرحمها بسبب ذلك بزعمهم . وقد قال أميه بن أبي الصلت الثقفي في ذلك:

سنة ازْمة تخَيَّـل للنـــاس ترى للعضاة فيهـا صريرا
لا على كوكب بنوء ولا ريـــح جنوب ولا ترى طخـرورا
ويسوقون باقر السهل للطـــود مهازيل خشية أن تبـورا
عاقدين النـيران في هـلب الأذ ناب منها لكي تهيـج البحورا
ســلع ما ومثله عشر مـا عائل ما وعالت البيقـورا

ومعنى «عالت البيقورا» أن البقر عالت ، وأن سنة الجدب أثقلتها بسبب ما حملته من الأشجار والنيران في هذه السنة – قال عيسى بن عمر : هذا البيت لا أدرى ما معناه ، ولا رأيت أحداً يعرفه .

(٣) قيل : هذا البيت لكعب بن مالك ، وقيل : لعبد الله بن رواحة . وقد أدخل الشاعر الباء على المفعول به ، وهي لا تدخل إلا على الفاعل كقوله تعالى : [وكفى بالله حسيباً] ، وغيرُنا مرفوع على تقدير مَنْ هو غيرُنا بحذف صدر الصلة على حد قوله تعالى :[على الذي أحسنُ] ومخفوض على أن مَنْ نكرة موصوفة أي على إنسان أو قوم غيرنا .

(٤) يعني في قوله تعالى : [فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ] .

والبعوضة فَعُولة ، من بعَّض إذا قطَّع اللحم ، يقال بضَّع وبعَّض بمعنى ، وعلى هذا حملوا قول الشاعر [١] :

لَنِعْمَ الْبَيْتُ بَيْتُ أَبي دِثَار   إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضا

وقرأ الضحاك ، وإبراهيم بن أبي عبلة ، ورؤبة بن العجاج [بَعُوضَةٌ] بالرفع . قال أبو الفتح : وجه ذلك أن [ما] اسم بمنزلة الذي ، أي لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلا . فحذف العائد على الموصول ، وهو مبتدأ ، ومثله قراءة بعضهم : [تَمَاماً على الَّذي أَحسنُ] ، أي على الذي هو أَحسَنُ . وحكى سيبويه : ما أَنا بالذي قائلٌ لك شيئاً [٢] ، أي هو قائل .

وقوله تعالى [فَمَا فَوْقَهَا] مَنْ جعل [ما] الأُولى صلة زائدة ، فما الثانية عطف على [بعوضة] ، ومن جعل [ما] إسما فما الثانية عطف عليها .

وقال الكسائي ، وأبو عبيدة ، وغيرهما : المعنى فما فوقها في الصغر . وقال قتادة ، وابن جريج ، وغيرهما : المعنى في الكبر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والكل مُحْتَمَل ، والضمير في [أَنَّهُ] عائد على المثل .

واختلف النحويون في [مَاذَا] [٣] فقيل : هي بمنزلة اسم واحد

---

(١) هو أبو دثار الكلبي كما في «كنايات الجرجاني» ، وأبو دثار في البيت يعني به الظلة والكلة التي يُتَّقى بها ، وقوله (بعضاً) أيْ عَضّاً ولَسْعا ، يقال يقال : بعضه البعوض يبعضه بعضاً : عضه وأذاه ، ولا يقال في غير البعوض .

(٢) المشهور : ما أنا بالذي قائل لك سوءاً .

(٣) (ماذا)تستعمل في العربية على أوجه ، منها : أن (ماذا) بِرُمَّتِها استفهام ، كقولك : لماذا جئت ؟ — ومنها : أن (ما) استفهام و (ذا) موصول نحو (ماذا تفعل) ؟ ومنها : غير ذلك . وهي في الآية الكريمة استفهام انكاري ، وانظر لذا قول ابن مالك :

ومثل مَاذا بعد مَا استفهـــام   أو من إذا لم تُلْغ في الكـــلام   =

بمعنى أي شيءٍ أراد الله ؟ وقيل : [ما] اسمٌ و [ذَا] اسم آخر بمعنى الذي ، فما في موضع رفع بالابتداء ، وذا خبره ، ومعنى كلا مهم هذا : الإنكار بلفظ الإستفهام ، وقوله: [مثلا] نصب على التمييز ، وقيل : على الحال من [ذَا] في [بِهَذَا] والعامل فيه الإشارة والتنبيه .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : [يُضلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً] (١) فقيل : هو من قول الكافر(٢) — أي ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة ، وإلى هدى ؟ وقيل : بل هو خبر من الله تعالى (٣) أنه يُضل بالمثل الكفار الذين يعمون به ، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق ، وفي هذا رد على المعتزلة في قولهم : إن الله لا يخلق الضلال .

=وفي تفسير الإمام (ط) رحمه‌الله ما نصه: «وتأويل قوله: [ماذَا أَرادَ اللهُ بهذَا مَثَلاً] الذي أراد الله بهذا المثل مثلا فذا مع ما في معنى الذي وأراد صلته ، وهذا إشارة إلى المثل».انتهى منه بلفظه . وما سلكه رحمه الله في هذه الآية . من جَعْلِ (ماذا) فيها اسما موصولا على جهة التركيب مسلك فاسد ، لأنه يؤدي إلى أن المقول في الآية المذكورة ليس جملة ولا مفردا في معناها ، والصواب كما في أبي (ح) وغيره أنَّ [ماذا] كلها استفهام على جهة التركيب مفعول مقدم بأراد . ويجوز أن تكون [ما] وحدها استفهاماً ، و [ذا] موصولا بمعنى الذي خبره،وجملة (أراد) صلة ، فمنصوب القول على الأول جملة(أراد الله بهذا مثلا) مع ضميمة المفعول المقدم—والمنصوب على الوجه الثاني جملة (ماذا أراد الله) الخ . هكذا قرره بعض الشيوخ .

(١) جملتان جاريتان مجرى البيان والتفسير للجملتين السابقتين ، المصدرتين بأمّا ، والكثرة والقلة نسبية ، فأهل الهداية بالقياس إلى أهل الضلال قلّة ، وبالقياس إلى ذاتهم وحقيقتهم كثرة ، وبهذا يجمع بين النصوص التي وصفتهم بالقلة في موضع ، وبالكثرة في موضع آخر .

(٢) هذا تخليط وإلباسٌ ، وذلك أن الكلام إما أن يجري على أنه من كلام الكفار ، أو من كلام الله ، وأمّا أن يجري بعضه على أنه من كلام الكفار ، وبعضه من كلام الله تعالى من غير دليل فإنه يكون إلباساً في التركيب ، وكلام الله أعلى من ذلك ، قاله أبو (ح) .

(٣) هذا أشبه بنظم القرآن وأنسب ، والمعنى : قل يُضل به كثيراً ، ويَهدى به كثيراً ، يوفق به ، ويخذل به .

ولا خلاف أن قوله تعالى : [ومَا يُضِلُّ بِهِ إلا ٱلْفَاسِقِين](١) من قول الله تعالى ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى : [وَيَهْدي بِهِ كَثيراً] إلى آخر الآية ردًّا من الله تعالى على قول الكفار : [يُضلُّ بِهِ كَثيراً] .

والفِسْقُ : الخروج عن الشيء ، يقال : فَسَقَت الفأْرَةُ إذا خرجت من جحرها ، والرُّطَبَةُ إذا خرجت من قشرها ، والفِسْقُ في عرف الاستعمال الشرعي : الخروج من طاعة الله عز وجل ، فقد يقع على من خرج بكفر ، وعلى من خرج بعصيان ، وقراءة جمهور الأُمة في هذه الآية [يُضِلُّ] بضم الياء فيهما ، وروي عن إبراهيم بن أبي عبلة أنَّه قرأ [يَضِلُّ] بفتح الياء [كَثِيرٌ] بالرفع [وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرٌ ، وَمَايَضِلُّ بِهِ إلا ٱلْفَاسِقُون] بالرفع (٢) .

قال أبو عمرو الداني : هذه قراءة القدرية ، وابن أبي عبلة مِن ثِقات الشامِيِّين ، ومِنْ أَهْلِ السنة ، ولا تصح هذه القراءة عنه مع أنَّها مخالفة خط المصحف . وروي عن ابن مسعود أنه قرأ في الأُولى [يُضِلُّ] بضم الياء ، وفي الثانية وما[يَضِلُّ] بفتح الياء [به إلا ٱلْفَاسِقُونَ] ، وهذه قراءة متجهة لولا مخالفتها خط المصحف المجمع عليه .

---

(١) نفي لتوهم من يتوهم أنه أُنزل بقصد الإضلال لقوم ، والهداية لقوم ، أي هو هدى كما قال أولا للمتقين ، لكن الفاسقين يضلون بنظرهم إلى غير المقصود من إنزال القرآن ، كما هو هدى للمتقين الذين ينظرون إلى صوب الحقيقة فيه ، وهو الذي أُنزل من أجله .

(٢) أي في الثلاثة ــ ويقال : هداه يَهْديه هُدى وهَدْياً وهِداية ، فهَدَى هُوَ : أي أرشده فاسترشد . لازم ومتعد .

قوله عز وجل :

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

النَّقض : ردُّ ما أُبرم على أَوله غير مُبْرَم . والعَهْدُ في هذه الآية : التقدم في الشيء والوصَاةُ بِهِ .

واخْتُلِف في تفسير هذا العهد ، فقال بعض المتأولين: هو الذي أَخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أَبيهم آدم كالذَّرِّ ، وقال آخرون : بل : نصب الأَدلة على وحدانية الله بالسموات والأَرض وسائر الصنعة ــ هو بمنزلة العهد [١] . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أَخذه الله على عباده بوساطة رسله : أَن يوحدوه ، وأَلا يعبدوا غيره . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أَخذه الله تعالى على أَتباع الرسل والكتب المنزَّلة : أَن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأَلا يكتموا أمره .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فالآية على هذا [٢] في أَهل الكتاب ، وظاهر ما قبل وبعد أَنها

(١) ونقض العهود عبارة عن الإعراض عنها ، وعدم النظر فيها .

(٢) أي على القول الأخير .

في جميع الكفار [(١)] . وقال قتادة : هذه الآية هي فيمن كان آمن بالنبي عليه السلام ثم كفر به فنقض العهد ،

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لم ينسب الطبري شيئاً من هذه الأقوال .

وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يحِلُّ بهذه الآية . والضمير في [مِيثَاقِهِ] يحتمل العودة على (العهد) ، أو على (اسم الله تعالى) ، و (ميثاق) مفْعَال من الوثاقة ، وهي الشدُّ في العقد والرَّبط ونحوه ، وهو في هذه الآية اسم في موضع المصدر [(٢)] ، كما قال عمرو بن شبيم :

أَكُفْراً بَعْدَ رَدِّ الْمَوْت عَنِّي وبَعْدَ عَطَائِكَ المائةَ الرِّتَاعَا؟ [(٣)]

أراد بعد إعطائِك

وقوله تعالى : [مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ] . [مَا] في موضع نصب بيقطعون ، واختلف ما الشيءُ الذي أمر بوصله ، فقال قتادة : الأَرحام عامة في الناس ، وقال غيره : خاصَّةً فيمن آمن بمحمد ، كأَن الكفار يقطعون أَرحامهم . وقال جمهور أَهل العلم : الإشارة في هذه الآية إلى دين الله وعبادته في الأَرض ، وإقامة شرائعه ، وحفظ حدوده .

---

(١) في هذا المقام أقوال : منها ما يدل على العموم ، ومنها ما يدل على الخصوص ، وهذا الإختلاف ناشئٌ عن الاختلاف في سبب النزول ، والذي يظهر هو التعميم كما قاله أبو (ح) ، فكل من نقض عهد الله تناوله هذا الذم .

(٢) الذي يظهر من كلام الزمخشري وأبي البقاء أنه مصدر لا إسم ، وقال أبو (ح) ولم أجد بعد البحث والمطالعة هذا الوزن في أبنية المصادر .

(٣) الرِّتَاع : جمع راتعة : أي : وبعد أن أعطاه مائة من الإبل الرَّاتعة . انظر ترجمة عمرو ابن شبيم في طبقات ابن سلام .

وهذا هو الحق ، والرحم جزءٌ من هذا [١] ، و[أَن] في موضع نصب بدل من [مَا] ، أَو مفعول من أَجله ، وقيل : [أَنْ] في موضع خفض بدل من الضمير في (بِهِ) [٢] ، وهذا مُتَّجِهٌ .

و [يُفْسِدُونَ في الأَرضِ] يعبدون غير الله ، ويجورون في الأَفعال إِذْ هي بحسب شهواتهم ، و (الخَاسِرُ) : الذي نقص نفسه حظَّها من الفلاح والفوز . والخُسْرَانُ : النقص كان في ميزان أَو غيره .

وقوله تعالى : [كَيْفَ تَكْفُرُونَ] لفظُه الإستفهامُ ، وليس به ، بل هو تقريرٌ وتوبيخ . أَيْ : كيف تكفرون و نِعَمُهُ عليكم وَقُدْرَتُه هذه؟ و (كَيْفَ) في موضع نصب على الحال ، والعامل فيها [تكفرون] ، وتقديرها : أَجاحدين تكفرون ؟ أَمنكرين تكفرون ؟ و [كَيْفَ] مبنية ، و خُصَّت بالفتح لخفته . ومن قال : إن [كَيْفَ] تقرير وتعجب ، فمعناه : أَن هذا الأَمر إنْ عَنَّ فحقه أَن يُتَعَجَّبَ منه لغرابته وبُعْدِهِ عن المأْلوف من شكر المنعم ، و (الوَاوُ) في قوله : [وَكُنْتُمْ] واو الحال [٣] .

واختلف في ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، فقال ابن عباس ، وابن مسعود ، ومجاهد : فالمعنى كنتم أَمواتاً معدومين قبل أَن تُخْلَقُوا دارسين ، كما يُقال للشيءِ الدارس : ميِّت . ثم خُلِقْتُمْ وأُخْرِجْتُمْ إلى

(١) أي حمل الآية على العموم في كل ما أمر الله به ، إذ لا دليل واضح على الخصوص ، وهو رأى ابن عطية .

(٢) أي : (ما أمرهم الله بوصله) ، وهذا الإعراب أولى ما يحمل عليه كلام الله تعالى — وتقدير بدليته من ما : (ويقطعون وَصْلَ ما أمرهم الله به) ، وتقدير كونه منصوباً على أنه مفعول لأجله : (ويقطعون ما أمر الله به كراهية أن يوصل) .

(٣) على تقدير (قد) كما هو واضح ، يعني : (وقد كنتم أمواتا) .

الدنيا فأَحياكم ، ثم أَماتكم الموت المعهود ، ثم يُحييكم للبعث يوم القيامة [١] .

وقال آخرون : كنتم أَمواتا بكون آدم من طين ميتا قبل أَن يُحيا ، ثم نُفخ فيه الروح فأَحياكم بحياة آدم ، ثم يُميتكم ، ثم يُحييكم على ما تقدم . وقال قتادة : كنتم أَمواتاً في أَصلاب آبائكم ، فأُخرجتم إِلى الدنيا ، فأَحياكم ، ثم كما تقدم . وقال غيره : كنتم أَمواتاً في الأَرحام قبل نفخ الأَرواح ، ثم أَحياكم بالخروج إِلى الدنيا ، ثم كما تقدم .

وقال ابن زيد : إِن الله تعالى أَخرج نسم بني آدم أَمثال الذَّرّ ، ثم أَماتهم بعد ذلك فهو قوله : [وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً] . ثم أَحياهم بالإِخراج إِلى الدنيا ، ثم كما تقدم . وقال ابن عباس ، وأَبو صالح : كنتم أَمواتاً بالموت المعهود ، ثم أَحياكم للسؤال في القبور ، ثم أَماتكم فيها ، ثم أَحياكم للبعث ، وروي عن ابن عباس أَيضاً أَنه قال : وكنتم أَمواتاً بالخمول ، فأَحياكم بأَن ذكرتم وشُرِّفْتمْ بهذا الدين والنبي الذي جاءكم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والقول الأَول هو أَولى هذه الأَقوال ، لأَنه الذي لا محيد للكفار عن الإِقرار به في أَول ترتيبه . ثم إِن قولَه أَولا : [كُنْتُمْ أَمْوَاتاً] وإسناده آخراً الإِماتة إِليه تبارك و تعالى مما يقوي ذلك القول ،

(١) مثلُ هذا قولهُ تعالى : [رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ] وهذا هو المراد بالآية الكريمة وهو أعدل الأقوال وأوْلاها للزومه للكفار ، فإنهم إذا اعترفوا بالإحياء الأول لزمهم الإعتراف بالإحياء الأخير وهو البعث ، ويؤيد ذلك إسناد الإماتة إلى الله آخراً

وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها قَوِيَ عليهم لزوم الإحياء الآخر ، وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها .

والضمير في [إليْهِ] عائد على الله تعالى ، أي إلى ثوابه أو عقابه ، وقيل : هو عائد على الإحياء ، والأول أظهر .

وقرأ جمهور الناس : [تُرْجَعُونَ] بضم التاء وفتح الجيم ، وقرأ ابن أبي اسحاق ، وابن محيصن وابن يعمُر ، وسلام ، والفَيَّاض بن غَزوان[1] ، ويعقوب الحضرمي : (يَرجعون ، وتَرجعون) بفتح الياء والتاء حيث وقع [2] .

و [خَلَقَ] معناه : اخترع وأوجد بعد العدم ، وقد يقال في الإنسان خلق بعد إنشائه شيئاً ، ومنه قول الشاعر :

وَلأَنْتَ تَفْري مَا خَلَقْتَ وبَعْـــضُ القوم يَخْلُقُ ثُم لا يَفْري[3]

ومنه قول الآخر :

مَنْ كان يَخْلُقُ مَا يَقُـــو لُ فَحِيلَتِي فيهِ قَلِيـــلة [4]

(١) سلام بن سليمان الطويل البصري ، مقرىء كبير مات سنة ١٧١ هـ والفياض بالفاء هو ابن غزوان الضبي الكوفي ، مقرئ قال فيه الإمام أحمد : شيخ ثقة .

(٢) أي : لأنَّ (رَجَعَ) يكون متعدياً ولازماً ، كما تقدم في (هَدَى) وأنه يكون لازماً ومتعدياً ، ومن المتعدي قوله تعالى : (فَإِنْ رَجَعَكَ الله إلى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ) أيْ : رَدَّك .

(٣) هو لزهير بن أبي سُلمى المزني ، يمدح هرم بن سنان ، ويقول : إنه إذا قدر شيئاً قطعه وأمضاه ، لمضاء عزمه وقوة إرادته .

(٤) أنشده المبرد في (الكامل) الجزء الثاني ، ونَسَبَه إلى بعض المحدثين ، وقبْل البيت :

لِـــيَ حيلة فيمن يَـــنُـــــمُّ وليس لي في الكذّاب حيلـــة
مَن كان يخــــلق ما يقـــو ل فحيلتي فيه قليـــــلة

ونسبهما في (معجم الأدباء) إلى منصور بن إسماعيل الشافعي أبي الحسن التميمي الفقيه الشاعر الضرير المصري . يقال : نمّ الحديث ينُمُّه نَمّاً ، أي : قَتَّه ، والإسم : النميمة — والرجلُ نَمٌّ ونَمّامٌ أي : قتّات — الصحاح .

و [لَكُمْ] معناه : للإعتبار ، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من نصب . العبر : الإحياء ، والإماتة والخلق ، والاستواء إلى السماء ، وتسويتها [(١)] . وقال قوم : بل معنى [لَكُمْ] إباحة الأشياء وتمليكها ، وهذا قول من يقول : إن الأشياء قبل ورود السمع على الإباحة بَيَّنَتْهُ هذه الآية[(٢)] .وخالفهم في هذا التأويل القائلون بالحظر ، والقائلون بالوقف . وأكثر القائلين بالحظر استثنوا أشياءَ اقتضت حالُها مع وجود الإنسان الإباحةَ كالتنفس ، والحركة ، ويَرِدُ على القائلين بالحظر : كل حظر في القرآن ، وعلى القائلين بالإباحة : كل تحليل في القرآن وإباحة . ويترجح الوقف إذا قدرنا نازلة لا يوجد فيها سمع ، ولا تتعلق به ، ومعنى الوقف : أنه استنفاد جهد الناظر فيما يحزب من النوازل . وحكى ابن فورك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل قط من السمع[(٣)] ، ولا نازلة إلا وفيها سمع ، أَوْ لَهَا به تعلق ، أَوْ لها حال تستصحب ، قال : فينبغي أن يعتمد على هذا ، ويغني عن النظر في حظر وإباحة ووقف . و [جَمِيعاً] نصب على الحال .

وقوله تعالى : [ثُمَّ ٱسْتَوى] ثم هنا : هي لترتيب الأخبار ، لا لترتيب الأمر في نفسه ، و [اسْتَوى] : قال قوم معناه : علا دون تكييف ولا

(١) نعمة خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى ، ونعمة خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ويتم به معاشهم ، فيمكن أن يكون معنى [لكم] : (لاعتباركم) بهذه النعمة ، فتوحدونه وتطيعونه، وأن يكون معناه (لأجلكم) و (لانتفاعكم) فواجب أن تشكروه وتحمدوه وحده دون غيره ، وأن تتقَوّوا بذلك على طاعته ، وإصلاح أرضه ، وواجب أن تعتبروا كذلك بالخلق والإماتة ، وبالإستواء إلى السماء وتسويتها [ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، لا إِلَـٰهَ إلا هُو] .

(٢) قال ابن العربي : ليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظراً ولا إباحة ، ولا وقفاً ، وإنما جاء ذكر هذه الآية في معرض الدلالة على الوحدانية .

(٣) من السمع الإجماع .

تحديد ، هذا اختيار الطبري ، والتقدير : علا أَمرُه وقدرتُه وسلطانُه ، وقال ابن كيسان : معناه قصد إلى السماءِ ، أي بخلقه واختراعه ، وقيل : معناه كَمُل صنعه فيها ، كما تقول استوى الأَمر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قلق (١) .

وحكى الطبريُّ عن قوم أَنَّ المعنى أَقبل، وضعَّفه (٢) .

وحُكِيَ عن قوم أَن المستوي هو الدخان ، وهذا أَيضاً يأْباه رصف الكلام (٣) . وقيل المعني : استولى ، كما قال الشاعر (٤) :

قدِ اسْتَوى بِشرٌ على ٱلْعِرَاقِ   مِنْ غير سيْفٍ وَدَم مُهراق

وهذا إنما (٥) يجيءُ في قوله تعالى : [عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوى] (٦) والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة (٧) وحلول الحوادث ، ويبقى استواءُ القدرة والسلطان .

و [سَوَّاهُنَّ]، قيل: المعنى جعلهن سواءً ، وقيل : سَوَّى سطوحها

(١) لأن اللفظ ينبو عن الدلالة عليه .

(٢) الإقبال : هو القصد إلى خلق السماء ، والقصد هو الإرادة ، وذلك جائز في صفات الله تعالى ، فهو كقول ابن كيسان ، ومن ذلك قول الحريري : فاستوى الغلام إليه ، وقد استولى الخجل عليه :أيْ قصد .

(٣) بعيد جداً لاختلاف الضمائر ، وعزده على غير مذكور ، ولا يقتضيه البيان ، ولقوله تعالى : [ثم استوى إلى السماء وهي دخان] .

(٤) هو الأخطل النصراني .

(٥) قال الفراء: تقول العرب: كان فلان مقبلا على فلان ثم استوى إلي وعليَّ يشاتمني . فعليَّ وإليَّ سواءٌ . نقله عنه الإمام (ق) رحمه الله .

(٦) من الآية (٥) من سورة (طه) .

(٧) أي : منع الحركة وحلول الحوادث ، ويعني أن هذه التأويلات إنما جاءت فراراً ممّا تقرر في العقول من أنّ الله تعالى يستحيل أن يتصف بالانتقال المعهود في غيره تعالى ، وأن يحل فيه حادث ، أو يحل هو سبحانه في حادث .

بالإملاس و [سَبْعَ] نُصِبَ على البدل من الضمير ، أو على المفعول بسَوَّى بتقدير حذف الجار من الضمير ، كأنه قال : فسوى منهن سبعاً . وقيل : نصب على الحال ، وقال : [سَوَّاهُنَّ] إمَّا على أن السماء جمع ، وإمَّا على أنه مفرد اسم جنس ، فهو دال على الجمع .

وقوله تعالى : [وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] معناه : بالموجودات ، وتحقق علمه بالمعدومات من آيات أُخر .

وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلق قبل السماء ، وذلك صحيح (١) ، ثم دُحِيَتِ الأرض بعد خلق السماء ، وبهذا تتفق معاني الآيات . هذه والتي في سورة (المُؤْمِن) وفي (النَّازعَات) .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾

قال معمر بن المثنى : [إِذْ] زائدة ، والتقدير : وقال ربك . قال أبو إسحق الزجاج : هذا اجتراءٌ من أبي عبيدة ، وكذلك رد عليه جميع المفسرين(٢) ، وقال الجمهور : ليست زائدة وإنما هي معلقة بفعل

(١) ذلك أن (ثُمَّ) للترتيب، وهي تدل بحكم اللغة على أن الأرض خُلِقَتْ قبل السماء إلا أن خلق السماء اكتنفه خلْق الأرض أولا، وبسْطها ثانياً بإخراج الماء والمرعى وبإرساء الجبال عليها.

(٢) قالوا : كان أبو عبيدة ضعيفاً في الصناعة النحوية ، وكان فيه جرأة .

مُقَدَّر ، تقديره : واذكر إذ قال [١] . وأيضاً فقوله : [خَلَقَ لكُمْ مَا في الأَرض جَمِيعاً] الآية يقتضي أن يكون التقدير : وابتداءُ خلقكم إذ قال ربك للملائكة ، وإضافة [رَبٌّ] إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ومخاطبتُه بالكاف تشريف منه له ، وإظهار لاختصاصه به . والْمَلائكَةُ واحدها مَلَكٌ ، أَصلُه : مَلْأَك على وزن مَفْعَل ، من لأَك إذا أَرسل ، وجمعه ملائكة على وزن مَفَاعِلَة . وقال قوم : أَصل مَلَكٌ مأْلَك من أَلَكَ إذا أُرسل ومنه قول عدي بن زيد :

أَبْلغ النَّعمانَ عني مأْلُكــاً أَنَّهُ قَدْ طَال حَبْسِي وَانْتِظَاري

واللغتان مسموعتان ، لأَكَ ، وأَلَكَ ، قُلِبَتْ فيه [٢] الهمزة بعد اللام فجاءَ وزنه مَعْفَل وجمعه ملائكة ، وزنه مَعَافلة . وقال ابن كيسان [٣] هو من مَلَك يملك والهمزة فيه زائدة كما زيدت في شَمْأَل من شَمَل فوزنه فَعْأَل ، ووزن جمْعِه فَعَائلة ، وقد يأْتي في الشعر على أَصله كما قال:

فَلَسْتُ لإِنْسِيٍّ ولكن لِمَلْأَكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّماءِ يَصُوبُ

وأَما في الكلام فسهلت الهمزة [٤] وأُلقيت حركتها على اللام أَو على العين — في قول ابن كيسان — فقيل : ملك ، والهاءُ في (ملائكة) لتأْنيث الجموع [٥] غير حقيقي ، وقيل : هي للمبالغة كعلامة ونسَّابة ،

---

(١) الأحسن أن تكون معلقة بقوله بعد : [قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا] الآية — لأن (إذْ) إذا وقعت ظرفاً لا تكون إلا للزمان .

(٢) أي قلبت الهمزة فيه بعد اللام قلباً مكانياً ، والضمير في (فيه) لمألك .

(٣) أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان — أخذ عن المبرد وعن ثعلب ، توفي (٢٩٩) هـ — معجم الأدباء ١٣٧/٣٧ .

(٤) أي لكثرة الإستعمال ، والمراد بالكلام ما سوى الشعر .

(٥) أي لتأكيد تأنيث الجمع .

والأَول أَبين ، وقال أَبو عبيدة : أَلهمزة في (ملائكة) مجتلبة [١] لأَن واحدها ملك .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا الذي نحا إليه ابن كيسان .

و[جَاعِلٌ] في هذه الآية بمعنى خالق ، ذكره الطبري عن أَبي رَوْق[٢] ، ويقضي بذلك تعديها إلى مفعول واحد . وقال الحسن وقتادة : [جَاعِلٌ] بمعنى فاعل . وقال ابن سابط [٣] عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : إن [ٱلْأَرْض] هنا يعني بها مكة ، لأَن الأَرض دحيت من تحتها ، ولأَنها مقر من هلك قومه من الأَنبياء ، وأَن قبر نوح وهود وصالح بين المقام والركن .

و [خَلِيفَةَ] معناه : من يخلف ، قال ابن عباس : كانت الجن قبل بني آدم في الأَرض فأَفسدوا ، وسفكوا الدماءَ ، فبعث الله إليهم قبيلا من الملائكة قتلهم ، وأَلْحَقَ فَلَّهُمْ بجزائر البحار ، ورؤوس الجبال ، وجعل آدم وذريته خليفة [٤] . وقال الحسن : إنما سمى الله بني آدم خليفة لأَن كل قرن منهم يخلف الذي قبله ، الجيل بعد الجيل .

---

(١) أي زائدة لا أصلية .

(٢) بفتح الرّاء وسكون الواو ، عطية بن الحارث الكوفي صاحب (التفسير) روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٣) هو عبد الرحمن بن سابط – تابعي – قال الحافظ بن حجر : يقال : إن عبد الرحمن ابن سابط هذا هو ابن عبد الله بن سابط ، وإن الصحبة والرواية لأبيه عبد الله بن سابط ، وبذلك جزم البغوي .

(٤) وعلى هذا فليس المراد بالخليفة آدم عليه الصلاة والسلام ، بل هو وذريته ، وعلى ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه : فالمراد آدم ، ومن يقوم مقامه في الحكم بين العباد بأوامر الله وأحكامه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ففي هذا القول يحتمل أن تكون بمعنى خالفة وبمعنى مخلوفة[١] .

وقال ابن مسعود : إنما معناه : خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري ، يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته ، وقرأ زيد بن علي (خَلِيقَةً) بالقاف .

وقوله تعالى : [قَالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا] الآية ، قد علمنا قَطْعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب ، ولا تسبق بالقول ، وذلك عام في جميع الملائكة ، لأن قوله : [لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ] خرج على جهة المدح لهم [٢] . قال

(١) أي يخلف من كان قبله من الملائكة أو الجن في الأرض على ما روي فهو خالف ، وعلى أنها بمعنى مفعول فهو مخلف أي جعله الله خليفة ، وجاء به بعد غيره كما قال : [هُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ] والتاء في خليفة للمبالغة .

(٢) يظهر من هذا القول الاعتراض ، وبما أن الملائكة معصومون من المعصية والاعتراض على الله تأول العلماء الآية الكريمة كما بينه الإمام ابن عطية رحمه الله ؛ ومن أظرف وأغرب ما قيل في تأويلها : أن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب مجملين ، وكان إبليس مندرجاً في جملتهم ، فورد منهم الجواب مجمَلا ، فلما انفصل إبليس عن جملتهم بإبائه واستكباره ، انفصل الجواب إلى نوعين ، فنوع : الاعتراضُ منه كان عن إبليس . وأنواعُ الطاعة والتسبيح والتقديس كان عن الملائكة ، فانقسم الجواب إلى قسمين ، كانقسام الجنس إلى جنسين ، وناسب كلٌّ جواب من ظهر عنه . قال أبو (ح) : وهذا تأويلٌ حَسَنٌ ، وصار شبيهاً بقوله تعالى : [وقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا] لأن الجُمْلَةَ كلَّها مقولة ، والقائل نوعان ، فرد كل قول لمن ناسبه والله أعلم .

وترك الاعتراض على الكبراء والعظماء محمود سواء كان المعترض فيه مما يفهم أولا يفهم ، والدليل على ذلك أُمور ــ أحدها : ماجاء في القرآن الكريم ، كقصة موسى مع الخضر ، واشتراطه عليه ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا ، فكان ما قصه الله من قوله : [هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ] وقول النبي صلى الله عليه وسلم : [يرحم الله موسى لو صبر حتى يقص علينا من أخبارهما] ــ وما رُوِيَ في الأخبار أن الملائكة لما قالوا : [أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ] الآية ، فرد الله عليهم بقوله : [إِنِّي أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ] أرسل=

القاضي أبو بكر بن الطيب : «فهذه قرينة العموم ، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليقة في الأرض نبأٌ ومقدمة» ، قال ابن زيد وغيره : « إن الله تعالى أَعْلَمَهُمْ أَن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا إمَّا على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه ، أَوْ مِنْ عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك ، وإمَّا على طريق الإستعظام والإكبار للفصلين جميعاً : الاستخلاف والعصيان (١) وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره : إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض ، فجاء قولهم [أَتَجْعَلُ فيها] الآية على جهة الاستفهام المحض ، هل هذا الخليفة على طريقة

= الله عليهم ناراً فأحرقتهم، وهذا مما يشم ولا يفرك . وجاء في أشد من هذا اعتراض إبليس بقوله : [أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ] فهو الذي كتب له به الشقاء إلى يوم الدين .

والثاني : ماجاء في الأخبار كحديث : (تعالوا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده) . فاعترض في ذلك عمر رضي الله عنه حتى أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكتب لهم شيئاً .

والثالث : ما عُهد بالتجربة من أن الاعتراض على الأكابر — كما يزعم الصوفية — قاضٍ بحرمان الفائدة ، وفاصل بين الشيخ والتلميذ ، فإنّه عندهم الداء الأكبر كما يدعون .

وقد قال الإمام مالك رحمه الله لأسد بن الفرات حين تابع سؤاله له : « هذه سليسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق » ، فهدده بحرمان الفائدة منه بسبب كثرة السؤال وتتابعه .

وبالجملة فالسلامة في حسن الظن والاعتقاد ، وترك النقد والاعتراض ، وهذا في شأن أهل العلم والفضل القائمين على صراط الدين ، وسنّة سيد المرسلين .

(١) هذا والذي قبله متقاربان في المعنى .

مَنْ تقدم من الجن أَم لا ؟ وقال آخرون : كان الله تعالى قد أَعلم الملائكة أَنه يخلق في الأَرض خلقاً يُفسدون ، ويسفكون الدماءَ ، فلما قال لهم بعد ذلك : [إِنِّي جَاعِلٌ] [قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا] الآية على جهة الاسترشاد والاستعلام . هل هذا الخليفة هو الذي كان أَعلمهم به قبل أَو غيره ؟

و (السَّفْكُ) صبُّ الدَّم ، هذا عرفه ، وقد يقال : سَفَكَ كلامه في كذا إذا سَرَدَهُ ، وقراءَة الجمهور بكسر الفاءِ[(١)] ، وقرأَ أَبو حَيْوَة وابن أَبي عبلة و[يَسَفُكُ] بضم الفاءِ ، وقرأَ ابن هرمز [وَيَسَفَكُ] بالنصب بواو الصرف [(٢)] ، كأَنه قال : من يجمع أَنْ يفسد وأَن يسفك . وقال المهدوي : هو نصب في جواب الإِستفهام . والأَول أَحسن [(٣)] .

وقولهم : [وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ] قال بعض المتأَولين : هو على جهة الإِستفهام كأَنهم أَرادوا : ونحن نسبح بحمدك الآية أَم نتغير عن هذه الحال؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم : [أَتَجْعَل] .

---

(١) أي : في قوله تعالى (ويسفِك) .

(٢) أي : واو المعية . ومعنى واو الصرف أن الفعل كان يستحق وجها من الإعراب غير النصب فيصرف بدخول الواو عليه عن ذلك الإعراب إلى النصب ، كقوله تعالى [وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُون] في قراءة مَنْ نصب ، فقياسه الرفعُ ولكن صرفت الواو الفعل إلى النصب فَسُمِّيَتْ واو الصرف .

(٣) يعني وتخريج المهدوي حسن . فالنصب بواو الصرف أَحْسن ، والنصب بأَنْ بعد الواو في جواب الاستفهام حسن ، لأن المعنى على الجمع ولذلك تقدر الواو بمعنى مع . فإذا قلت : أتأتينا وتحدثنا ، بالنصب ، كان المعنى على الجمع بين الإتيان والحديث ، وكذلك الآية ، هذا ما عند ابن عطية رحمه الله ، وناقشه أبو (ح) قائلا : « وكيف يكون أحسن وهو شيء لا يقول به البصريون ، وفساده مذكور في علم النحو؟» فالنصب بأن بعد الواو في جواب الاستفهام عند أبي حيان أحسن لأنه مذهب البصريين — .

وقال آخرون : معناه التمدح ووَصْف حالهم [١] ، وذلك جائز لهم ، كما قال يوسف عليه السلام : [إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ] ، وهذا يحسن مع التعجب والإستعظام لأن يستخلف اللهُ مَن يعصيه في قولهم : [أتَجْعَلُ] ؟

وعلى هذا أَدَّبَهُمْ بقوله تعالى : [إنِّي أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُون] .

وقال قوم : معنى الآية : ونحن لو جعلْتَنَا في الأَرض واستخلفتنا نسبح بحمدك ، وهذا أيضاً حسن مع التعجب والإستعظام في قولهم: [أتَجْعَلُ] ؟ ومعنى [نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ] : ننزهك عما لا يليق بك وبصفاتك . وقال ابن عباس ، وابن مسعود : تسبيح الملائكة صلاتهم لله ، وقال قتادة : تسبيح الملائكة قولهم : سبحان الله ، على عرفه في اللغة .

و [بِحَمْدِكَ] معناه : نَخْلِط التسبيح بالحمد ، ونصِلُه به [٢] ، ويحتمل أَن يكون قوله [بِحَمْدِكَ] اعتراضاً بين الكلامين ، كأَنهم قالوا : (ونحن نسبح ونُقدس) ، ثم اعترضوا على جهة التسليم ، أَي : وأَنت المحمود في الهداية إلى ذلك .

و [نُقَدِّسُ لَكَ] ، قال الضحاك ، وغيره : معناه : نطهر أَنفسنا لك ابتغاء مرضاتك ، والتقديس التطهير بلا خلاف ، ومنه الأَرض المقدسة أي المطهرة ، ومنه بيت المقْدِس ، ومنه القَدَس [٣] الذي يُتطهر به . وقال آخرون : [وَنُقَدِّس لَكَ] معناه : ونقدسك [٤] أَي : نعظمك ،

(١) أي ليس معناه الإستفهام بل التمدح ووصف حالهم ، وذلك شيء جائز .

(٢) أي نقول : (سبحان الله وبحمده) ، وروى أبو ذر ، كما في صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أي الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته : سبحان الله وبحمده » .

(٣) بفتحتين : أي السطل الذي يتوضأ فيه ، ويتطهر به ،

(٤) أي : واللام صلة .

ونطهر ذكرك عما لا يليق به . قاله مجاهد ، وأبو صالح ، وغيرهما ، وقال قوم : [نُقَدِّس لَكَ] معناه : نصلى لك ، وهذا ضعيف(١) .

وقوله تعالى : [إِنِّي أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ] ، الأَظْهَرُ أَن [أَعْلَم] فعل مستقبل ، و[مَا] في موضع نصب به ، وقيل : [أَعْلَمُ] اسم ، و [مَا] في موضع خفض بالإضافة ، ولا يصح الصرف فيه بإجماع من النحاة ، وإنما الخلاف في أفعل إذا سمي به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يصرفانه ، والأَخفش يصرفه .

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله تعالى [مَا لاَ تَعْلَمُونَ] فقال ابن عباس : كان إبليس – لعنه الله – قد أُعجب ، ودخله الكبر لما جعله الله خازن السماء الدنيا ، وشرفه وقيل : بل لما بعثه الله إلى قتل الجن الذين كانوا أفسدوا في الأَرض فهزمهم وقتلهم بجنده ، قال ابن عباس أيضاً : واعتقد (٢) أَنَّ ذلك لمزية له ، واستخف(٣) الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام ، قال : فلما قالت الملائكة [وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ] ، وهي لا تعلم أَن في نفس إبليس خلاف ذلك ، قال الله لهم : [إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ] ، يعني ما في نفس إبليس(٤) ، وقال قتادة :

(١) بل معناه صحيح كما قال الإمام (ق) فإن الصلاة تشتمل على التعظيم ، والتقديس ، والتسبيح، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : (سُبُّوحٌ قُدّوس ربُّ الملائكة والروح) ، روته عائشة رضي الله عنها كما في صحيح الإمام مسلم . وقدنسب ابن (ك) هذا الرأي إلى ابن عباس ، وابن مسعود .

(٢) أي إبليس لعنه الله .

(٣) وفي بعض النسخ : «واستحقب الكفر والمعصية» .

(٤) علم الله من كُفر إبليس وكبره وحسده مالم تعلمه الملائكة ، فلما أمر الله بالسجود ظهرت طاعة الملائكة ، وظهر كفر إبليس وحسدُه ، فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

لما قالت الملائكة : [أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا] ، وقد علم الله تعالى أَن فيمن يستخلف في الأَرض أَنبياءَ وفضلاءَ وأَهل طاعة قال لهم : [إِنِّي أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ] ، يعني : أَفعال الفضلاءِ من بني آدم [1] .

وقوله تعالى : [وَعَلَّمَ] معناه : عرف ، وتعليم آدم هنا عند قوم إلهام علمه ضرورة ، وقال قوم : بل تعْليم بقَوْلٍ ، فإِما بواسطة ملك[2] ، أَو بتكليم قبْل هبوطه الأَرض ، فلا يشارك موسى عليه السلام في خاصته ، وقرأَ اليماني [وَعُلِّمَ] بضم العين على بناءِ الفعل للمفعول [آدَمُ] مرفوعاً . وقال أَبو الفتح : وهي قراءَة يزيد البربري ، و(آدَمَ) أَفعل مشتق من الأُدمة وهي حُمرة تميل إلى السواد ، وجمعه أُدم ، وأَوادم ، كحمر وأَحامر ، ولا ينصرف بوجه ، وقيل : آدم وزنه فاعل مشتق من أَديم الأَرض[3] كأَن الملك آدمها وجمعه آدمون وأَوادم ، ويلزم قائل هذه المقالة صرفه ، وقال الطبري : (آدَم) فعل رباعي سُمِّيَ به .

وَرُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (خلق الله آدم من أَديم الأَرض كلها ، فخرجت ذريته على نحوها ، منهم الأَبيض والأَسود والأَسمر ، والسهل والحزن ، والطيب والخبيث[4]) .

(١) يعني فمي ذرية آدم الأنبياء والعلماء والأصفياء ، والخير يغلب الشر ، والنور يطفيء الظلام ، وفي أُمة محمد صلى الله عليه وسلم وهي من ذرية آدم يقول الله تعالى : [كُنْتُم خيرَ أُمةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ] الآية . وفي حذف المتعلق قصد إلى العموم ، والمعنى : إني أعلم مالا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن .

(٢) هو جبريل ، وكذا هو المراد في قوله بعد ذلك : كأن الملَك آدمها .

(٣) هذا هو الصحيح في اشتقاقه ، قال سعيد بن جبير : إنما سمى آدم لأنه خُلق من أديم الأرض أي وجهها . وإنّما سمى إنساناً لأنه نسي ، هكذا ذكره ابن سعد في الطبقات .

(٤) روى الترمذي عن أبي موسى الأشعريّ ، رضي الله عنه ، قال : سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم=

واختلف المتأَولون في قوله : [ٱلْأَسْمَاءَ] ، فقال جمهور الأُمة : علَّمه التسميات ، وقال قوم : عرض عليه الأَشخاص . والأَول أَبْيَن ، ولفظة [عَلَّم] تعطي ذلك .

ثم اختلف الجمهور في أَي الأَسماءِ علمه ، فقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : علَّمه اسم كل شيءٍ من جميع المخلوقات ، دقيقها وجليلها[(١)] ، وقال حميد الشامي[(٢)] : علمه أَسماءَ النجوم فقط ، وقال الربيع بن خثيم[(٣)] : علمه أَسماءَ الملائكة فقط ، وقال عبد الرحمن بن زيد : علمه أَسماءَ ذريته فقط ، وقال الطبري : علمه أَسماءَ ذريته والملائكة ، واختار هذا ورجحه بقوله تعالى : [ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَي ٱلْمَلاَئِكَةِ[(٤)]] وحكى النقاش ، عن ابن عباس : أَنه تعالى علَّمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأَسماءِ ، وقال آخرون : علمه أَسماءَ الأَجناس كالجبال ، والخيل ، والأَودية ، ونحو ذلك ، دون أَن يعين ما سمته ذريته منها . وقال ابن قتيبة : علَّمه أَسماءَ ما خلق في الأَرض ، وقال قوم : علمه الأَسماءَ بلغة

=على قدر الأرض ، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك . والسهل والحزن ، والخبيث والطيب » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ومعنى قوله من قبضة قبضها : أن الله أمر الموكل بالأرض فتناول ذلك من بقاعها على النحو المذكور ، وجاء بها فكان الخلق منها .

(١) هذا القول أرجح الأقوال ، وسنده التأكيد في قوله تعالى : «الأسماء كلَّها» ، والتعميم في قول النبي صلى الله عليه وسلم « وعلمك أسماء كل شيء » كما في صحيح البخاري .

(٢) هو ابن أبي حميد الشَّامي بمعجمة ، وهناك حميد بن مسعدة البصري السامي بمهملة .

(٣) هو أبو يزيد الكوفي ، تابعي جليل ، أخذ القراءة عن ابن مسعود ، ووردت عنه الرواية في حروف القرآن . توفي سنة (٩٠) هـ . طبقات في القراء ٢٨٣/١ .

(٤) استدل على هذا الترجيح بقوله تعالى: [ثُمَّ عَرَضَهُمْ] وهو عبارة عمَّن يعقل، وهذا الذي رجَّحَ به لا يلزم ، فإنه لا ينتني أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة مَنْ يعقل للتغليب .

واحدة ، ثم وقع الإصطلاح من ذريته فيما سواها ، وقال بعضهم : بل علمه الأَسماءَ بكل لغة تكلمت بها ذريته . وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جني عن أَبي على الفارسي أَنه قال : علم الله تعالى آدم كل شيءٍ حتى أنه كان يحسن من النحو مثل ما أَحسن سيبويه ، ونحو هذا من القول الذي هو بَيِّنُ الخطأ من جهات (١) .

وقال أَكثر العلماءِ : علمه تعالى منافع كل شيءٍ ولِمَا يصلح (٢) . وقال قوم : عرض عليه الأَشخاص عند التعليم ، وقال قوم : بل وصفها له دون عرض أَشخاص .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه كلها احتمالات . قال الناس بها .

وقرأ أُبَيٌّ بن كعب : [ثُمَّ عَرَضَهَا] ،وقرأ ابن مسعود : [ثُمَّ عَرَضَهُن] .

واختلف المتأَولون : هل عرض على الملائكة أَشخاص الأَسماءِ أَو الأَسماءَ دون الأَشخاص ؟ فقال ابن مسعود ، وغيره : عرض الأَشخاص ، وقال ابن عباس ، وغيره : عرض الأَسماءَ ، فمن قال في الأَسماءِ بعموم كل شيءٍ قال: عرضهم أُمة أُمة ، ونوعاً نوعاً ، ومن قال في الأَسماءِ إنها التسميات (٣) استقام على قراءَة أُبي : [عَرَضَهَا] ، ونقول في قراءَة

---

(١) لعله من جهة تشبيه آدم بسيبويه ، مع أن مقام آدم غير مقام سيبويه ، وطبيعة التعليم في آدم غيرها في سيبويه فتعليمه كَسْبِيٌّ ، وتعليم آدم وَهْبِيٌّ ، ومن جهة الاختلاف في القصد والغاية أيضاً .

(٢) عطف مرادف ، أي علمه منفعة كل شيء وما يصلح له .

(٣) التسمية غير الاسم ــ ومعناها : العلم بأن يسمي الأشياء .

من قرأ [عَرَضَهُمْ] إنَّ لفظ الأَسماءِ يدل على الأَشخاص [١] ، فلذلك ساغ أَن يقول للأَسماءِ [عَرَضَهُمْ] .

و [أَنْبِئُوني] معناه : أَخبروني ، والنبأُ : الخبر ، ومنه النبيءُ ، وقال قوم : يخرج من هذا الأَمر بالإنباءِ تكليف ما لا يطاق ، ويتقرر جوازه ، لأَنه تعالى علِمَ أَنهم لا يعلمون ، وقال المحققون مِنْ أَهل التأْويل : ليس هذا على جهة التكليف ، وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف [٢] .

وقوله تعالى : [هَؤُلاءِ] ظاهره حضور أَشخاص ، وذلك عند العرض على الملائكة ، وليس في هذه الآية ما يوجب أَن الاسم أُريد به المسمى ، كما ذهب إليه مكي والمهدوي ، فمن قال إنه تعالى عرض على الملائكة أَشخاصا استقام له مع لفظ [هؤلاءِ] ، ومَن قال إنه إنما عرض أَسماءً فقط جعل الإشارة بهؤلاءِ إلى أَشخاص الأَسماءِ وهي غائبة ، إذ قد حضر ما هو منها بسبب ، وذلك أَسماؤُها ، وكأَنه قال لهم في كل اسم لأَي شخص هذا ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر أَن الله تعالى علَّم آدم الأَسماءَ ، وعرض مع ذلك عليه الأَجناس أَشخاصاً ، ثم عرض تلك على الملائكة ، وسأَلهم عن تسمياتها التي قد تعلمها آدم . ثم إن آدم قال لهم : هذا اسمه كذا ، وهذا

---

(١) أي : لأن كل اسم له مسمى فهو يتضمنه .

(٢) الأولى : التبكيت والتعنيف .

اسمه كذا ، و [هؤلاءِ] لفظٌ مبني على الكسر ، والقصر فيه لغة تميم وبعض قيس وأَسد ، قال الأَعشي :

هؤلا ثم هؤلا كُلاًّ اعْطيـــــــــــت نِعَالا محذوة بنعالِ (١)

و [كُنْتُمْ] في موضع الجزم بالشرط ، والجواب عند سيبويه فيما قبله ، وعند المبرد محذوف (٢) والتقدير : إنْ كنتم صادقين فأَنبئوني . وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وناس من أَصحاب النبي عليه السلام : معنى الآية : إن كنتم صادقين في أَن الخليفة يفسد ويَسْفِك (٣) . وقال آخرون : صادقين في أَني إن اسْتَخْلَفْتُكم سبَّحْتُمْ بحمدي ، وقدَّسْتُمْ لي ، وقال الحسن ، وقتادة : رُويَ أَن الملائكة قالت حين خلق الله آدم :ليخلقْ ربنا ما شاءَ ، فلن يخلق خلقاً أَعلم منا ، ولا أَكرم عليه ، فأَراد الله تعالى أَن يُريهم من علم آدم وكرامته خلاف ما ظنوا . فالمعنى : إن كنتم صادقين في دعوا كم العلم ، وقال قوم : معنى الآية : إن كنتم صادقين في جواب السؤال ، عالمين

(١) أيْ : أوقعت بهم جميعاً ، ويريد بذلك بني محارب حيث مشاهم الأسود على الجمر فتساقط لحم أقدامهم ، وفي رواية (بمثال) بدل بنعالِ .

(٢) فيه أن مذهب سيبويه المعروف هو أن الجواب محذوف ، ويدل عليه ما قبله ، وليس ما قبله هو الجواب ، كما أن مذهب الكوفيين أن الجواب هو ما قبله ، وقد عكس ابن عطية ذلك كما عكسه المهدوي — فتأمل .

(٣) قال في (خ) : وفي النفس من هذا القول شيء ، والملائكة منزهون معصومون كما تقدم ، والصواب ما تقدم من التفسير عند قوله تعالى : « أتجعل فيها » الآية ، وقال أبو (ح) : الصدق هنا هو الصواب ، كما أن الكذب يراد به الخطأ ، أي إن كنتم مصيبين . وفي متعلق الصدق أقوال : — وأَبْعَدَ مَن ذهب إلى أن الصدقَ هنا ضدُّ الكذب المعروف لعصمة الملائكة ، كما أَبْعَدَ مَن جعل (إنْ) بمعنى (إذْ) فأخرجها عن الشرطية إلى الظرفية .

بالأسماءِ . قالوا : ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد ، وقالوا : سبحانك . حكاه النقاش ، قال : ولو لم يشترط عليهم الصدق في الإنباءِ لجاز لهم الاجتهاد ، كما جاز لِلَّذي أماته الله مائة عام ، حين قال له : [كَمْ لَبِثْتَ] ، ولم يشترط عليه الإِصابة ، فقال ولم يصب ، فلم يُعَنَّفْ ، وهذا كله محتمل ، وحكى الطبري أن بعض المفسرين قال : معنى [إنْ كُنْتُمْ] : إذْ كنتم ، قال الطبري : وهذا خطأٌ .

وإن قال قائل : ما الحكمة في قول الله تعالى للملائكة : [إني جَاعِلٌ] الآية ؟ ، قيل : هذا امتحان لهم واختبار ، لِيَقَعَ منهم ما وقع ، ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه بما أَدَّبَ(١) . و [سُبْحَانَكَ] نصب على المصدر ، قال الكسائي : نصبه على أنه منادى مضاف (٢) .

قال الزهراوي : موضع [مَا] مِن قولهم : [مَا عَلَّمْتَنَا] نصب بعلَّمتنا(٣) ، وخبر التبرئة في [لنا] . ويحتمل أن يكون موضع [مَا] رفعاً على أنه بدل من خبر التبرئة ، كما تقول : لا إله إلا الله ، أي لا إله في الوجود إلا الله . و[أَنْتَ] في موضع نصب تأْكيد للضمير في [إنَّكَ] أو في موضع رفع على الابتداء ، و [الْعَلِيمُ] خبره ، والجملة خبر [إن] ، أو فاصلة ،

(١) يعني أن الحكمة في ذلك هو امتحانهم واختبارهم — بأن يسألوا ذلك السؤال — ويجابوا بما أجيبوا به ، من قوله تعالى : [إنّي أعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ] ويؤدبوا بما أدبهم الله تعالى به — من تعليم آدم وتكريمه ، وقوله لهم [أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] وهذا كله نتيجة الدعوى والتزكية للنفس والله أعلم .

(٢) لا يحفظ دخول حرف النداء عليه ، ولو كان منادى لجاز دخول حرف النداء عليه ونقل لنا . قاله أبو (ح) في تفسيره « البحر المحيط » ١٤٧/١ .

(٣) فيه أن [ما] موصولة ، وأن الصلة علّمتنا ، والصلة لا تعمل في الموصول . إلا أن نجعل [إلا] من باب الاستثناء المنقطع ، و[ما] شرطية ، جوابها محذوف ، والتقدير . لكن أي شيء علمتنا في المستقبل علمناه — وهذا فيه تكلف . قاله أبو (ح) في « البحر المحيط » ١٤٨/١ .

لا موضع لها من الإعراب ، و [الْعَلِيمُ] معناه العالم ، ويزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير من المعلومات في حق الله عز وجل ، و[الْحَكِيمُ] معناه : الحاكم وبينهما مزية المبالغة ، وقيل : معناه المحْكِم ، كما قال عمرو بن معدي كرب :

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعي السميع .

أي : المُسْمِع ، ويجيءُ الكلام على هذا من صفات الفعل ، وقال قوم : الحكيم المانع من الفساد ، ومنه : حَكَمَةُ الفرس مانعته(١) : ومنه قول جرير :

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ   إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قوله عز وجل :

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

[أَنبِئْهُمْ] معناه : أَخبرهم ، وهو فعل يتعدى إلى مفعولين ، أَحدهما

(١) على وزن قَصَبَة — وفي اللسان : حكمة الفرس : ما أحاط بحنكي الدابة — وسميت حَكَمَةُ الدابة بذلك لأنها تُذَلِّلها لراكبها ، حتى تمنعها الجماح ونحوه ، ومنه اشتقاق الحِكْمَة لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال .

والحِكْمَةُ ناشئة عن العلم ، ومن آثاره ، ولذلك تذكر بعد العلم في أكثر ما جاء في القرآن كقوله : [إِنَّكَ أنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ].

بحرف جر ، وقد يحذف حرف الجر أَحياناً ، تقول : نُبِّئت زيداً ، قال سيبويه : معناه نُبِّئت عن زيد ، والضمير في [أَنْبِئْهُمْ] عائد على الملائكة بإجماع ، والضمير في [أَسْمَائِهِمْ] مُخْتَلَفٌ فيه ، حسب الاختلاف في الأَسماءِ التي عُلِّمها آدم ، قال أَبو علي : كلهم قرأَ [أَنبِئْهُم] بالهمز وضمِّ الهاءِ إلا ما رُوي عن ابن عامر [أَنبئهِم] بالهمز وكسر الهاءِ ، وكذلك روى بعض المكِّيين عن ابن كثير ، وذلك على إتباع كسرة الهاءِ لكسرة الباءِ ، وإِن حجَز الساكن فحجزه لا يعتد به . قال أَبو عمرو الداني : وقرأَ الحسنُ ، والأَعرج : [أَنبِيهم] بغير همز ، قال ابن جني: وقرأَ الحسن [أَنْبِهم] على وزن أَعطِهِم ، وقد رُويَ عنه [أَنْبِيهِمْ] بغير همز . قال أَبو عمرو : وقد رُوي مثل ذلك عن ابن كثير من طريق القواس [(١)] .

قال أَبو الفتح : أَما قراءَة الحسن [أَنبِهِمْ] كأَعْطِهِمْ فعلى إبدال الهمزة ياءً ، على أَنك تقول أَنْبَيْتُ كأَعْطَيْتُ ، وهذا ضعيف في اللغة ، لأَنه بدل لا تخفيف ، والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة شعر [(٢)] . قال بعض العلماءِ : إن في قوله تعالى : [فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ] نبوّة لآدم عليه السلام إذ أَمره الله أَن ينبئَ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله عز وجل .

---

(١) أحمد بن محمد أبو الحسن المعروف بالقواس إمام مكة في القراءة .

(٢) في هذا مناقشة ، قال أبو (ح) : وما ذكر من أنّه لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ليس بصحيح ثم قال : « حكى الأخفش في الأوسط أن العرب تحول من الهمزة موضع اللام ياء فيقولون : قريت ، وأخطيت ، وتوضيت » وعلّق أبو (ح) على كلام الأخفش فقال : « ودل ذلك على أنه ليس من ضرائر الشعر كما ذكر أبو الفتح » . البحر المحيط ١٤٩/١ .

ويجوز فتح الياء من [إِنِّي] وتسكينها[١] ، وقال الكسائي : رأيت العرب إذا لقيت عندهم الياءُ همزة فتحوها . قال أبو علي : كان أبو عمرو يفتح ياءَ الإضافة المكسور ما قبلها عند الهمزة المفتوحة والمكسورة إذا كانت متصلة باسم أو بفعل ، مالم يطل الحرف ، فإنه يثقل فتحها ، نحو قوله تعالى : [وَلا تَفْتِنِّي أَلا] ، وقوله تعالى : [فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ] . والذي يخف : [إني أرى] ، و [أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ] ونحوه .

وقوله تعالى : [أَعْلَمُ غَيْبَ السَّموات وَٱلأَرْضِ] معناه ما غاب عنكم ، لأن الله تعالى لا يغيب عنه شيءٌ ، الكلُّ معلوم له [٢] ، و [ما] في موضع نصب بأعلم . قال المهدوي : ويجوز أن يكون قوله [أَعْلَمُ] اسماً بمعنى التفضيل في العلم فتكون [ما] في موضع خفض بالإضافة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فإذا قدر الأول اسماً فلابد بعده من إضمار فعل ينصب [غَيْبَ] تقديره : إني أعلم من كل أعلم غيب ، وكونها في الموضعين فعلا مضارعاً أخصر وأبلغ[٣] .

---

(١) هذا ثاني موضع ذكرت فيه ياء من ياءات الإضافة المختلف فيها في القرآن ، وهي ياء المتكلم ، فقرأ نافع ، وابن كثير ، والبصري هنا بفتح الياء ، والباقون بتسكينها ، واتفق السبعة على السكون في قوله تعالى : [وَلا تَفْتِنِّي أَلا]، [أرنِي أَنْظُرْ] ، [فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ]، [وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ] ، ولا تظهر علة لاختلافهم واتفاقهم إلا اتباع الرواية ، وتلك سنة متبعة في القرآن .

(٢) فيه أن أحداً لا يعلم من العلم إلا ما علمه الله ، ولا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله به ، كالأنبياء فإنهم يعلمونه تفصيلا ، والأولياء فإنهم يعلمونه إجمالا ، وكل من حاول ادعاء علم الغيب مِنْ كاهنٍ أَوْ عرّاف أَوْ مُنَجم أَوْ مُشَعوذٍ فهو كاذبٌ .

(٣) نقل أبو (ح) في تفسيره كلام ابن عطية عن المهدوي ، ثم قال : «وما نقله ابن عطية عن المهدوي وهم ، والذي ذكره المهدوي في تفسيره ما نصه — : [وأعلم ما تبدون] يجوز=

واختلف المفسرون في قوله تعالى : [مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ] . فقالت طائفة : ذلك على معنى العموم [(١)] في معرفة أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم أجمع .

وحكى مكي أن المراد بقوله : [مَاتُبْدُونَ] قولهم : [أَتَجْعَلُ فِيهَا] الآية . وحكى المهدوي أن [مَا تُبْدُونَ] قولهم : «ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق أعلم منا ولا أكرم عليه» ، فجعل هذا مما أبدوه لما قالوه . وقال الزهراوي : ما أبدوه هو بِدارهم بالسجود لآدم .

واختلف في المكتوم ، فقال ابن عباس ، وابن مسعود : المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والكفر ، ويتوجه قوله : [تَكْتُمُون] للجماعة والكاتم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها ، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم : أنتم فعلتم كذا ، أي منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ، ومنه قوله تعالى : [إِنَّ ٱلذينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ][(٢)] . وإنما ناداه منهم عُيَيْنَةُ ، وقيل الأقرع ، وقال قتادة : المكتوم هو ما أسره بعضهم إلى بعض من قولهم: «ليخلق ربنا

=أن ينتصب [ما] بأعلم على أنه فعل ، ويجوز أن يكون بمعنى عالم ، أو يكون [ما] جراً بالإضافة ، ويجوز أن يقدر التنوين في [أعلم] إذا قدرته بمعنى عالم ، وتنصب [ما] به فيكون بمعنى حواج بيت الله – انتهى – ثم علق أبو (ح) فقال : «فأنت ترى أنه لم يذهب إلى أن (أفعل) للتفضيل ، وأنه لم يُجز الجرّ في [ما] والنصب وتكون أفعل اسماً إلا إذا كان بمعنى فاعل لا أفعل تفضيل . ولا يمكن أن يقال ما نقله ابن عطية عن المهدوي من جواز أن يكون أعلم أفعل بمعنى التفضيل وخفض (ما) بالاضافة البتة» . البحر المحيط ١/١٥٠ .

(١) هذا أولى الأقوال وأفضلها ، وقوله تعالى : [وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ] نَسَق على جملة [ألم أقلْ لكم] الخ ، وليس نسقاً على [أعلم] ، إذ هو ليس داخلا تحت القول .

(٢) الآية (٤) من سورة (الحجرات) .

ماشاء» ، فجعل هذا مما كتموه لمَّا أَسره ، و [إِذْ] من قوله : [وإِذْ قُلْنَا] معطوف على [إِذْ] المتقدمة .

وقول الله تعالى ، وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأَزل بشرط وجودهم وفهمهم(١) ، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيه

(١) نقل (ق) رحمه الله هذه العبارة بالنص عند قوله تعالى : [وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً] إذ قول الله هناك كقوله هنا ، وفي (خ) ما ذكره (أي ابن عطية) هو عقيدة أهل السنة . ونحن ننقل هنا من كلام الأئمة إن شاء الله ما يتبين به كلامه ويزداد وضوحاً . قال ابن رشد : قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » لا يفهم منه أن لله عز وجل كلمات غير تامات ، لأن كلماته هي قوله ، وكلامه هو صفة من صفات ذاته يستحيل عليها النقص .

وفي الحديث دليل واضح على أن كلماته عز وجل غير مخلوقة ، إذ لا يستعاذ بمخلوق ، وهذا هو قول أهل السنة .

والحق أن كلام الله عز وجل صفة من صفات ذاته قديم غير مخلوق لأن الكلام هو المعنى القائم في النفس ، والنطق به عبارة عنه ، قال الله عز وجل : [وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ] فأخبر أن القول معنى يقوم في النفس — وتقول : في نفسي كلام أريد أن أعلمك به ، فحقيقة كلام الرجل هو المفهوم من كلامه ، وأما الذي تسمعه منه فهو عبارة عنه — وكذلك كلام الله عز وجل القديم الذي هو صفة من صفات ذاته هو المفهوم من قراءة القارىء لا نفس قراءته التي تسمعها ، لأن نفس قراءته التي تسمعها مُحْدَثَةٌ لم تكن حتى قرأ بها فكانت ، وهذا كله بيِّنٌ إلا لمن أعمى الله بصيرته . انتهى بلفظه من البيان .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله بعد كلام له نحو ما تقدم لابن رشد :

« وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد قبل أن يخلق ولده ، حتى إذا خلق ولده وعقل ، وخلق الله سبحانه علما بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ، ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده — فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل : [فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ] — بذات الله تعالى ومصير موسى عليه السلام ، سامعاً لذلك الكلام ، مخاطباً به بعد وجوده ، إذ خُلقت له معرفة بذلك الطلب ، ومعرفة بذلك الكلام القديم » انتهى من الإحياء . « وتلخيص المعتقد : أن الله عز وجل لم يزل آمراً للمعدومات بشرط وجودها ، قادراً مع تأخر المقدورات ، عالماً مع تأخر المعلومات . فكل ما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات إذ المُحْدَثات تجيء بعد أن لم تكن . وكل ما يُسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل » انتهى كلامه رحمه الله .

وهذه المسألة من جملة المسائل الثلاث التي تعتبر من أصعب ما في علم الكلام .

ومخاطباته ، و [قُلْنَا] كناية العظيم عن نفسه بلفظ الجمع .

وقوله : [لِلْمَلَائِكَةِ] عمومٌ فيهم ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع[1] [لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدَوا] ، برفع التاء العلامة إتباعاً لضمة ثالث المستقبل. قال أبو علي : وهذا خطأٌ ، وقال الزجاج : أبو جعفر من رؤساء القراءة ، ولكنه غلط في هذا ، قال أبو الفتح : لأن [الملائكة] في موضع جر فالتاءُ مكسورة كسرة إعراب ، وهذا الذي ذهب إليه أبو جعفر إنما يجوز إذا كان ما قبل الهمزة حرفاً ساكناً صحيحاً ، نحو قوله تعالى :[وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ] [2] والسجود في كلام العرب الخشوع والتذلل ، ومنه قول الشاعر :

. . . . تَرَي الأُكْمَ فيه سُجَّداً لِلحوافِرِ[3]

وغايته وضع الوجه بالأرض .

والجمهور على أن سجود الملائكة لآدم إيماءٌ وخضوع . ذكره النقاش وغيره ، ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود ، وقوله تعالى : [فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين] لا دليل فيه [4] لأن الجاثي على ركبتيه واقع.

---

(١) أبو جعفر بن القعقاع : من مشاهير القراء ، ومن مشيخة نافع بن أبي نعيم ، أحد القراء السبعة ، أخذ القرآن عن عبد الله بن عباس وغيره ، وقرأ بضم التاء ، وقال : إنها لغة أزْد شنوءة ، وعلل قراءته — بأن العرب تستثقل الضمة بعد الكسرة — وبأن هذه التاء كهمزة الوصل . فكما أن الهمزة تسقط في الدرج لأنها ليست أصيلة كذلك التاء في الملائكة تسقط لكونها ليست أصيلة ، فقالوا (الملائك) كما قال الأعشى في البيت الآتي ، ومع ذلك تألبوا عليه وخطؤوه .

(٢) من الآية (٣١) من سورة (يوسف) .

(٣) صدره : بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حجراته . . . .
وقائله زيد الخيل

(٤) أي : للقول ببلوغهم غاية السجود وهو وضع الجبهة على الأرض .

واختلف في حال السجود لآدم ، فقال ابن عباس : تعبَّدهم الله بالسجود لآدم ، والعبادة في ذلك لله . وقال علي بن أَبي طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس : إنما كان سجود تحية ، كسجود أَبَوَيْ يوسف عليه السلام ، لا سجود عبادة . وقال الشعبي : إنما كان آدم كالقبلة[١] . ومعنى [لآدم] : إلى آدم[٢] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذه الوجوه كلها كرامة آدم عليه السلام ، وحكى النقاش عن مقاتل أَن الله إنما أَمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أَن يخلقه ، قال : والقرآن يرد على هذا القول ، وقال قوم : سجود الملائكة كان مرتين ، والإجماع يرد هذا .

وقوله تعالى : [إلاَّ إِبْلِيسَ] ، نصب على الاستثناء المتصل ، لأَنه من الملائكة على قول الجمهور ، وهو ظاهر الآية ، وكان خازناً وملكاً على سماءِ الدنيا والأَرض ، واسمه عزازيل قاله ابن عباس . وقال ابن زيد ، والحسن ، هو أَبو الجن ، كما أَن آدم أَبو البشر ، ولم يكن قط ملَكاً ، وقد روي نحوه عن ابن عباس أَيضاً ، قال : واسمه الحارث [٣] . وقال شهر بن حوشب : كان من الجن الذين كانوا في الأَرض وقاتلتهم الملائكة ، فَسَبَوْه صغيراً ، وتَعبَّد وخُوطب معها [٤]

(١) ما قاله الشعبي تفسير لقول ابن عباس ، فكما أن الصلاة إلى الكعبة هي عبادة لله ، فكذلك الصلاة إلى آدم هي عبادة لله وآدم قبلة .

(٢) هناك فرق بين قولك : (سجدله) و(سجد إليه) ، والسجود لله طاعة وإيمان ، والسجود لغيره كفر وعصيان ، ويقال سجد إلى العنزة كما يقال صلى إلى الكعبة .

(٣) اسمه عزازيل بالسريانية ، والحارث بالعربية .

(٤) مربوط بالفعلين قبله ، فكان يتعبد معهم ، وخوطب معهم في قوله تعالى : [اسجدوا لآدم] .

حكاه الطبري عن ابن مسعود ، والاستثناءُ على هذه الأَقوال منقطع ، واحتج بعض أَصحاب هذا القول بأَن الله تعالى قال صفة للملائكة : [لا يَعْصُونَ ٱللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ] [١] ورجَّح الطبري قولَ من قال : إن إبليس كان من الملائكة ، وقال : ليس في خلقه من نار ، ولا في تركيب الشهوة والنسل فيه حين غُضب عليه ، ما يدفع أنه كان من الملائكة . وقوله عز وجل : [كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ] [٢] يتخرج على أنه عمِل عملهم فكان منهم في هذا ، أَو على أَن الملائكة قد تسمى جِنًّا لاستتارها . قال الله تعالى : [وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً] [٣] وقال الأَعشى [٤] في ذكر سليمان عليه السلام :

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ المَلائِكِ تِسْعَةً قِيَاماً لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلا أَجْرِ

أَو على أَن يكون نسبه إلى الجنَّةِ كما ينسب إلى البصرة بصري ، لما كان خازناً عليها .

وإبليس لا ينصرف ، لأَنه اسم أَعجمي معرف [٥] . قال الزجاج : وزنه فِعْليل ، وقال ابن عباس ، والسدي ، وأَبو عبيدة ، وغيرهم : هو مشتق من أَبلس إذا أَبعد عن الخير ، ووزنه على هذا إفعيل ، ولم تصرفه

---

(١) من الآية (٦) من سورة (التحريم) .
(٢) من الآية (٥٠) من سورة (الكهف) .
(٣) من الآية (١٥٨) من سورة (الصافات) .
(٤) هو أعشى قيس .
(٥) أي : لا اشتقاق له ، وقيل : إنَّه مشتق من الإبلاس ، وهو اليأس ، يقال : أبلس من رحمة الله إذا يئس ، ولما كان عربيا وجب أن ينصرف إلا أن علة عدم صرفه هي شذوذه ، وقلة نظائره ، فكأنه بذلك أشبه الإسم الأعجمي .

هذه الفرقة لشذوذه ، وأجروه مجرى إسحق من أَسحقه الله ، وأيُّوب من آب يئوب ، مثل قيُّوم ، من قام يقوم ، ولما لم تصرف هذه ولها وزن من الاشتقاق ، كذلك لم يصرف هذا وإن توجه اشتقاقه ، لقلَّته وشذوذه ، ومن هذا المعنى قول الشاعر العجاج :

يَاصَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسَا ؟ قَالَ : نَعَمْ أَعْرِفُه وَأَبْلَسَا (١)

أَيْ : تَغَيَّر وبعُد عن العمارة والأُنس به ، ومثله قول الآخر :

. . . . وفي الوُجُوهِ صُفْرَةٌ وإِبْلاسُ(٢)

ومنه قوله تعالى : [فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ] (٣) ، أَي يائِسون من الخير ، مُبْعَدون منه فيما يَرَوْنَ .

و [أَبَى] معناه : امتنع من فعل ما أَمر به ، و[اسْتَكْبَرَ] دخل في الكبرياء . والإِباية مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه ، والاستكبار والأَنفة مقدمة في معتقده (٤) . وروي ابن القاسم ، عن مالك أَنه قال : بلغني أَن أَول معصية كانت الحسد والكبر والشح (٥) . حسد إبليس آدم ، وتكبر ، وشح آدم في أَكله من شجرة قد نُهِيَ عن قربها .

---

(١) الرسم : الأثر – ورسم الدار : ما كان من آثارها لا صقاً بالأرض – والكِرْسُ بالكسر : الأبوال والأبعار يتلبدّ بعضها على بعض . (الصحاح) .

(٢) صدْرُهُ : وَحَضَرْتَ يَوْمَ خَمِيسِ الأخماس . . . .
وهو لرؤبة بن العجاج . والإبلاس هو : الحزن والانكسار ، وقد يحمل معنى اليأس والقنوط وقطع الرجاء .

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (الأنعام) .

(٤) يعني أن الإباية مقدمة على الاستكبار في الظاهر ، والاستكبار مقدم على الإباية في الباطن .

(٥) الشح هنا : هو الحرص على الشيء والرغبة فيه .

حكي المهدوي عن فرقة أن معنى [وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ] وصار [١] مِنَ الكافرين ، وقال ابن فورك : وهذا خطأٌ ترده الأُصول ، وقالت فرقة : قد كان تقدم قبل من الجن مَنْ كفر فشبهه الله بهم ، وجعله منهم لَمَّا فعل من الكفر فعلهم . وذكر الطبريُّ عن أَبي العالية أَنه كان يقول : [وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ] معناه : من العاصين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتلك معصية كُفْر ، لأَنها عن معتقد فاسد صدرت .

وروي أَن الله تعالى خلق خلقاً ، وأَمرهم بالسجود لآدم فعصوا ، فأَحرقهم بالنار ، ثم خلق آخرين ، وأَمرهم بذلك فعصوا فأَحرقهم ، ثم خلق الملائكة فأَمرهم بذلك فسجدوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والإِسناد في مثل هذا غير وثيق . وقال جمهور المتأَولين : معنى [وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ] أَي في علم الله أَنه سيكفر ، لأَن الكافر حقيقة ، والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة [٢] .

وذهب الطبري إلى أَن الله أَراد بقصة إِبليس تقريع أَشباهه من بني آدم ، وهم اليهود الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، مع علمهم بنبوته ، ومع تقدم نعم الله عليهم وعلى أَسلافهم ،

---

(١) من المعروف أن كان هي أُم الأفعال ، لأن كل شيء داخل تحت الكون . فتأتي بمعنى صار وبمعنى غيره ، وقد فسر الآية بـ(صار) علماءُ اللغة . كالفيروزبادي في القاموس، والفيومي في المصباح ، وابن منظور في اللسان ، وغيرهم ، والمعنى : أنه آل أمره إلى الكفر ــ أوْ يقال : إنّ كان على بابها ، ولكن بالقياس إلى مافي علم الله تعالى .

(٢) أي موافاة الإيمان أو الكفر ، وهذا صحيح للحديث الصحيح (وإنمّاالأعمالُ بالخَواتيم).

واختلف هل كفَر إبليس جهلا أَو عناداً ؟ على قولين بين أَهل السنة ، ولا خلاف أَنه كان عالماً بالله قبل كفره ، فمَنْ قال إِنه كفر جهلا قال : إِنه سُلب العلم عند كفره . ومَنْ قال كفَر عناداً قال : كفر ومعه علمه ، والكفر عناداً مع بقاءِ العلم مستبعد ، إلا أَنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاءَ (١) .

ولا خلاف أَن الله تعالى أَخرج إبليس عند كفره ، وأَبعده عن الجنة ، وبعد إِخراجه قال لآدم [اسْكُنْ] .

قوله عز وجل :

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

[اسْكُنْ] معناه : لازم الإِقامة ، ولفظه لفظ الأَمر ، ومعناه الإِذن ، و [أَنْتَ] تأْكيد(٢) للضمير الذي في [اسكن] ، و [زَوْجُكَ] عطف عليه ، والزوج امرأَة الرجل ، وهذا أَشهر من زوجة ، وقد تقدم . و [الْجَنَّة] البستان عليه حظيرةٌ .

واختلف في الجنة التي أُسكنها آدم : هل هي جنة الخلد أَو جنة أُعدت لهما ؟ ، وذهب مَنْ لم يجعلها جنة الخلد إلى أَن مَن دخل جنة الخلد لا يخرج منها . وهذا لا يمتنع . إلا أَن السمع ورد أَن مَن دخلها

(١) أي وواقع — كفرعون فإنه ادّعى الربوبية مع علمه بوحدانية الله وربوبيته ، — وكأبي جهل فإنه أقام على كفره مع تحققه من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعلمه أن ماجاء به حق .
(٢) أي ليصح العطف عليه ، ومثله قوله تعالى : [فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ] .

مُثاباً لا يخرج منها (١) وأما من دخلها ابتداءً كآدم فغير مستحيل ، ولا ورد سمع بأنه لا يخرج منها .

واختلف متى خلقت حواءُ من ضلع آدم عليه السلام ؟ فقال ابن عباس : حين أنبأَ الملائكة بالأسماءِ وأُسجِدوا له أُلقِيَت عليه السِّنَةُ وخُلقت حواءُ ، فاستيقظ وهي إلى جانبه ، فقال ــ فيما يزعمون ــ : لحمي ودمي ، وسكن إليها ، فذهبت الملائكة لتجرب علمَه ، فقالوا له : يا آدم ما اسمها ؟ قال : حواءُ ، قالوا : ولم ؟ قال : لأَنها خلقت من شيءٍ حي ، ثم قال الله له : [اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ] .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً : لما أُسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً ، فلما نام خلقت حواءُ من ضلعه القصيري (٢) ليسكن إليها ، ويتأَنَّس بها ، فلما انتبه رآها فقال : من أَنت ؟ قالت : امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي .

وحذفت النون من [كُلا] للأَمر(٣) ، والأَلف الأُولى لحركة الكاف(٤) ، حين حذفت الثانية لاجتماع المثلين ، وهو حذف شاذ . ولفظ هذا الأَمر بـ[كُلاَ] معناه الإباحة ، بقرينة قوله : [حَيْثُ شِئْتُمَا] ، والضمير

(١) لقوله تعالى : [ومَاهُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ] .

(٢) بالتصغير هي أسفل الأضلاع ، وقيل آخر ضلع من الجنب وقال أبو الهيثم : القصري أسفل الأضلاع ، والقصيري أعلى الأضلاع ــ ثم قال : وفي كتاب أبو عبيد : القصيري هي التي تلي الشاكلة وهي ضلع الخلف .

(٣) هذا جار على مذهب الكوفيين القائلين إن الأمر معرب ، ومذهب البصريين هو البناء .

(٤) أي : وحذفت الألف الأولى لحركة الكاف ، واعلم أن أصل (كُلْ) أُؤْكل : اجتلبت الهمزة الأولى للوصل ــ والثانية فاء الكلمة ، ثم حذفت الثانية لاجتماع المثلين فوليت همزة الوصل الكاف وهي متحركة ، ولما زال موجب اجتلابها زالت هي بنفسها .

في [مِنْهَا] عائد على الجَنَّة ، وقرأ ابن وثاب والنخعي [رغْداً] بسكون الغين ، والجمهور على فتحها ، و [الرَّغَد] العيش الدارُّ الهَنِيُّ الذي لا عناءَ فيه ، ومنه قول امرئ القيس :

بَيْنَمَا الْمَرءُ تَرَاهُ نَاعِما   يَأْمَن الأَحداث في عيش رَغد

و [رَغَدًا] منصوب على الصفة لمصدر محذوف ، وقيل : هو نصب على المصدر في موضع الحال ، و [حيثُ] مبنية على الضم ، ومن العرب من يبنيها على الفتح ، ومن العرب من يُعْربها حسب موضعها بالرفع والنصب والخفض ، كقوله : [سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ] (١) ومن العرب من يقول : (حوث) ،

و [شِئْتُمَا] أَصله شَيَأْتما حول إلى فِعلتما ، تحركت ياؤه وانفتح ما قبلها جاءَ (شَأْتُمَا) حذفت الأَلف الساكنة الممدودة للالتقاء ، وكسرت الشين لتدل على الياءِ ، فجاءَ (شِئْتُمَا) ، هذا تعليل المبرد ، فأَما سيبويه فالأَصل عنده (شيِئتما) بكسر الياءِ ، نقلت حركة الياءِ إلى الشين ، وحذفت الياءُ بعد .

وقوله تعالى : [وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ ٱلشَّجَرَةَ] معناه : لا تقرباها بأَكل ، لأَن الإِباحة فيه وقعت . قال بعض الحذاق : إن الله لمَّا أَراد النهي عن أَكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضي الأَكل وما يدعو إليه ، وهو القرب (٢) .

---

(١) من الآية (١٨٢) من سورة الأعراف ، أو — من الآية (٤٤) من سورة (القلم) .

(٢) فيه أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل ، إذ قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا حمل إليه ذلك ، فالأولى أن يُقال : المنع من الأكل مستفاد من المقام ، أي ولا تقرباها بالأكل ، إذ الإباحة إنما وقعت فيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مثال بيّن في سد الذرائع ، وقرأ ابن محيصن : [هَذي] على الأَصل ، والهاءُ في هذه بدل من الياءِ . وليس في الكلام هاءُ تأْنيث مكسور ما قبلها غير هذه ، وتحتمل هذه الإِشارة أَن تكون إِلى شجرة معينة واحدة ، أَو إِلى جنس . وحكى هارون الأَعور عن بعض العلماءِ قراءَة [الشِّجرة] بكسر الشين . والشَّجر كل ما قام من النبات على ساق .

واختلف في هذه الشجرة التي نهي عنها ما هي ؟ فقال ابن مسعود ، وابن عباس : هي الكرم ، ولذلك حُرِّمت علينا الخمر ، وقال ابن جريج عن بعض الصحابة : هي شجرة التين ، وقال ابن عباس أَيضاً ، وأَبو مالك ، وعطية ، وقتادة : هي السنبلة ، وحبها ككلى البقر ، أَحلى من العسل ، وأَلين من الزبد . ورُوي عن ابن عباس أَيضاً أَنها شجرة العلم فيها ثمر كل شيءٍ ، وهذا ضعيف لا يصح عن ابن عباس . وحكى الطبري عن يعقوب بن عتبة أَنها الشجرة التي كانت الملائكة تحنك[1] بها للخلد ، وهذا أَيضاً ضعيف ، قال : واليهود تزعم أَنها الحنظلة ، وتقول : كانت حلوة ومرت [2] من حينئذ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس في شيءٍ من هذا التعيين ما يعضده خبر ، وإِنما الصواب أَن يُعتقد أَن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إِليها وعصى في الأَكل منها .

---

(١) أي تأكل منها لخلدهم . يقال : احتنك الجراد الأرض أي أكل ما عليها .

(٢) يقال : مرَّ الشيء مرارة صار مُراً ، ضد حلا .

وفي حظره تعالى على آدم الشجرة ما يدل على أن سكناه في الجنة لا يدوم لأن المخلد لا يُحظر عليه شيءٌ ، ولا يؤمر ولا يُنهى ، وقيل : إن هذه الشجرة كانت خصت بأن تُحْوجَ آكلها إلى التبرز ، فلذلك نُهي عنها ، فلمَّا أكلها ولم تكن الجنة موضع تبرز أُهبط إلى الأَرض .

وقوله : [فَتَكُونَا] في موضع جزم على العطف على [لاتَقْرَبَا] ، ويجوز فيه النصب على الجواب ، والناصب عند الخليل وسيبويه (أَن) المضمرة ، وعند الجَرميِّ [1] الفاءُ .

والظالم في اللغة الذي يضع الشيءَ غير موضعه ، ومنه قولهم : (مَن أَشبه أَباه فما ظلم [2]) . ومنه المظلومة الجلد [3] لأَن المطر لم يأْتها في وقته ، ومنه قول عمرو بن قميئة :

ظَلَمَ البِطَاح بها انْهلالُ حَريصةٍ فَصَفَا النِّطَافُ له بُعَيْدَ ٱلْمُقْلَعِ [4]

والظلم في أَحكام الشرع على مراتب : أَعلاها الشرك ، ثم ظلم المعاصي وهي مراتب .

---

(١) بفتح الجيم : أبو عمر صالح بن اسحق ، لغوي نحوي مشهور ، انظر بغية الوعاة للسيوطي .

(٢) أي ما وَضَعَ الشيء في غير موضعه ، لأن من شأن الولد أن يشبه أباه في دينه ونسبا وفي حياته وسببه .

(٣) المظلومة : هي الأرض التي حفر فيها بئر أو حوض ولم تحفر قط ــ والجلد هي الأرض الصلبة المستوية .

(٤) الحريصة : هي السحابة التي تقشر وجه الأرض وتؤثر فيه بمطرها من شدة وقعه ، ويقال : انهل المطر أي انصب بشدة . والنطاف : جمع نطفة وهي الماء الصافي قلّ أو كثر ــ والمقلع : مصدر بمعنى الإقلاع وهو انقطاع المطر ــ والبيت في وصف المطر وأثره في الأرض ــ وظلمه للبطاح أنه جاء في غير أوانه ، وانصب في غير مصبه .

وهو في هذه الآية يدل على أن قوله : [وَلَا تَقْرَبَا] على جهة الوجوب لا على الندب ، لأن من ترك المندوب لا يُسمى ظالما ، فاقتضت لفظة الظلم قوة النهي (١) .

و [أَزَلَّهُمَا] مأخوذ من الزَّلل ، وهو في الآية مجاز ، لأنه في الرأي والنظر ، وإنما حقيقة الزلل في القَدَم . قال أبو علي : [فَأَزَلَّهُمَا] يحتمل تأويلين ـ أحدهما : كسَبُهما الزَّلَّة (٢) ـ والآخر أن يكون من زَلَّ إذا عثر (٣) ، وقرأ حمزة : (فَأَزَالَهُمَا) مأخوذ من الزَّوال ، كأنه المزيل لمَّا كان إغواؤه مؤدياً إلى الزَّوال ، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء .

ولا خلاف بين العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء آدم .

واختلف في الكيفية : فقال ابن عباس ، وابن مسعود ، وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ، ودليل ذلك قوله تعالى : [وَقَاسَمَهُمَا] ، والمُقاسمة ظاهرها المشافهة ، وقال بعضهم : إن إبليس لمَّا دخل إلى آدم كلَّمه في حاله ، فقال : يا آدم ـ ما أحسن هذا لو أن خلدا كان ، فوجد إبليس السبيل إلى إغوائه . فقال : هل أدلك على شجرة الخلد ، وقال

---

(١) إنما قال ذلك لأن كل نهي يتضمن أمراً ، كما أن كل أمر يتضمن نهياً ، فقوله :[لا تَقْرَبَا] في ضمنه [اتركا] هذه الشجرة .

(٢) أي جعلهما يكسبان الزلة والخطيئة ، وكسب يتعدى إلى واحد وإلى اثنين ، وأزل واستزَلَّ بمعنى واحد .

(٣) أي سقط من منزلة إلى أخرى ، يقال زَلَّ الرجل ، والفرس كبا ، وزَلَّ به فرسه فسقط .

بعضهم : دخل الجنة في فم الحية ، وهي ذات أَربع كالبختية (١) بعد أَن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم تدخله إلا الحية ، فخرج إلى حواءَ وأَخذ شيئاً من الشجرة ، وقال : انظري — ما أَحسن هذا ، فأَغواها حتى أَكلت ، ثم أَغوى آدم ، وقالت له حواءُ : كل ، فإني قد أَكلت فلم يضرني ، فأَكل فبدت لهما سوءاتُهما ، وحصلا في حكم الذنب ، ولعنت الحية ، ورُدت قوائمها في جوفها ، وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم (٢) .

وقيل لحواءَ : كما أَدميت الشجرة ، فكذلك يصيبك الدم في كل شهر ، (٣) وكذلك تحملين كرهاً ، وتضعين كرهاً ، تشرفين به على الموت مراراً ، زاد الطبري والنقاش : وتكونين سفيهة ، وقد كنت حليمة .

وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد أَن أُخرج

---

(١) البخت نوع من الإبل ، وهي الإبل الخراسانية .

(٢) ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الحيات ، وروى البخاري ، ومسلم ، والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه . قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى . وقد أُنزلت عليه : [وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا] فنحن نأخذها من فيه رطبة إذ خرجت علينا حيّة . فقال : « اقتلوها » ، فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وقاها الله شركم كما وقاكم شرها » — وفي مسند الإمام أحمد ، عن ابن مسعود ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل حية فكأنما قتل رجلا مشركاً بالله ، ومن ترك حية مخافة عاقبتها فليس منا » —

(٣) قيل : إن أزواج الآخرة طاهرات من الحيض والنفاس ، والبول والغائط ، ومن كل أذى يكون في نساء الدنيا ، كما قال تعالى : [وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ] وكذلك خلقت حواء حتى عصت بالأكل من الشجرة ، فلما عصت قال الله لها : إني خلقتك وسأدميك كما كما أدميت هذه الشجرة .

منها ، وإنما أغوى آدم بشيطانه وسلطانه ووساوسه التي أعطاه الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم (١)) ، والضمير في [عَنْهَا] عائد على الشجرة في قراءة من قرأ [أَزَلَّهُمَا] ، ويحتمل أن يعود على الجنة ، فأما من قرأ [أَزَالَهُمَا] ، فإنه يعود على الجنة فقط ، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره «فأَكلا من الشجرة»، وقال قوم : أكلا من غير التي أُشير إليها فلم يتأَولا النهي واقعاً على جميع جنسها ، وقال آخرون : تأَولا النهي على الندب .

وقال ابن المسيب : إنما أكل آدم بعد أن سقته حواءُ الخمر ، فكان في غير عقله (٢) .

وقوله تعالى : [فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيه] يحتمل وجوهاً ، فقيل : أخرجهما من الطاعة إلى المعصية ، وقيل : مِنْ نعمة الجنة إلى شقاءِ الدنيا ، وقيل : من رفعة المنزلة إلى سفل مكانة الذنب (٣) ، وهذا كله

---

(١) هذا حديث صحيح – ومن ابتلي بوسوسة الشيطان في أي عمل من أعماله فالدواء هو الإعراض عنه ، وعدم الالتفات إليه ، والثقة بالله ، والتعوذ به .

(٢) كيف يكون هذا وخمر الآخرة لا يغتال العقول ، كما قال تعالى : [لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنها ينْزِفُون] ، ونقل (ق) عن ابن العربي فساد هذا القول عقلا ونقلا ، والعجب من سكوت ابن عطية رحمه الله على نسبة هذا إلى سعيد بن المسيب التابعي الجليل . والحق أنه أكل ناسياً كما قال تعالى : [وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً] ، ومن الملاحظ أن أبا محمد بن عطية رحمه الله جرى هنا وراء القصص الذي لا يتوقف عليه فهم الآية الكريمة . والعصمة من الله وحده .

(٣) والصواب أن إخراج آدم لم يكن إهانة له ، بل لِمَا سبق في علمه سبحانه من إكرامه وجعْله(هو وأخيار ذريته) خليفة في الأرض ، لعِمارتها وإصلاحها بوحدانية الله وعبادته، وإقامة أحكامه بين عباده .

يتقارب . وقرأ أبو حيوة [اهبُطوا] بضم الباء ، ويفعُل كثير في غير المتعدي وهبط غير متعد ، والهبوط النزول من علو إلى أسفل .

واختلف : من المخاطب بالهبوط ؟ فقال السدي وغيره : آدم وحواءُ وإبليس والحية (١) . وقال الحسن : آدم وحواءُ والوسوسة . وقال غيره : والحية ، لأن إبليس قد كان أُهبط قبل عند معصيته .

و [بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ] جملة في موضع الحال ، وأُفرد لفظ عدو من حيث لفظة بعض ، وبعض وكل تجرى مجرى الواحد ، ومن

(١) يرى الزمخشري أن قوله تعالى : (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً) خطابٌ لآدم وحواء خاصة ، قال : وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما، والدليل على ذلك قوله تعالى : (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) قال : ويدل على ذلك قوله : (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُون) .

وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم ، ومعنى قوله تعالى : (بعضكم لبعض عدو) ما عليه الناس من التعادي والتباغي ، وتضليل بعضهم بعضاً — وهذا ظاهر من حيث أن المودة والرحمة التي جعلها الله بين كل زوجين قد تتعرض لوسوسة الشيطان ، فإن أصغيا له ، وخُدعا بوسوسته انقلب ذلك عداوة وحرباً وقد قال الله تعالى : (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأولادِكُمْ عَدُواً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) .

وهناك رأي آخر ، ولعله أظهر : وهو أن يعود الضمير إلى آدم وزوجه وإبليس ، وهم ثلاثة قد تقدم ذكرهم ، فلماذا يعود الضمير على بعضهم دون الجميع مع أن اللفظ والمعنى يقتضي ذلك؟

وأما قوله تعالى في سورة طه : (قال اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) فهذا خطاب لاثنين ، فإمَّا أن يرجع ذلك إلى آدم وزوجه ، وإمَّا أنْ يرجع إلى آدم وإبليس . ولم تذكر الزوجة لأنها تبع لآدم ، وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالهبوط هي بين آدم وإبليس والأمر ظاهر ، وأمَّا على رجوعه إلى آدم وزوجته فتكون الآية قد اشتملت على أمرين . أحدهما : أمره تعالى لآدم وزوجته بالهبوط ، والثاني : إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه وبين إبليس ، ولذا أتى بضمير الجمع في الثاني دون الأول ، ولابد أن يكون إبليس داخلا في حكم هذه العداوة قطعاً لقوله تعالى : (إنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) ولقوله تعالى : (إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوه عَدُوّاً) . =

حيث لفظة عدو تقع للواحد والجميع . قال الله تعالى : [هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ] (١) .

و [لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ] أي موضع استقرار ، قاله أبو العالية ، وابن زيد ، وقال السدي : المراد الاستقرار في القبور .

والمتاع : ما يُستمتع به : من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس ، وغير ذلك ، وأنشد سليمان (٢) بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه :

= وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية ، وأما الهبوط فتارة يذكر بلفظ الإفراد ، وتارة بالتثنية ، وتارة بالجمع ، فحيث ورد بالإفراد كما في سورة (الأعراف) فهو لإبليس وحده . وحيث ورد بصيغة الجمع كما في سورة (البقرة) فهو لآدم وزوجه وإبليس . وحيث ورد بصيغة التثنية كما في سورة (طه) فإما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل ، وأقدما على المعصية ، وإما أن يكون لآدم وإبليس إذ هما أبوا الثقلين وأصلا ذريتيهما والزوجة تبع لزوجها ، فذكر حالهما ومآلهما ليكون ذلك عظة وعبرة لأولادهما ، والذي يوضح أن الضمير في قوله تعالى : [اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً] لآدم وإبليس أن الله سبحانه لمَّا ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه ، فقال : [وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ، قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً] وهذا يدل على المخاطبيْن : آدم الذي عصى ، وإبليس الذي زيَّن المعصية ، ودخلت الزوجة بحكم التبعية ، فإن المقصود من هذه القصة : إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر ، فما رآه الزمخشري أحد قولين ، والذي يقويه النظر والدليل : هو ما تقدم من البيان والتفصيل ، كما أشار إليه ابن القيم رحمه الله .

(١) من الآية (٤) من سورة (المنافقون) .

(٢) أحد خلفاء بني أُمية ، كان يميل إلى العدل ، ويحسن إلى العلماء ، ويرجع إلى الدين والقرآن، افتتح ولايته بخير ، واختتمها بخير ، افتتحها برد الصلاة إلى ميقاتها الأول ، وقد كان من قبله يؤخرون الصلاة عن وقتها — واختتمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز . مات بالتخمة رحمه الله سنة ٩٨هـ ، وعمره تسع وثلاثون سنة . انظر التفسير عند قوله تعالى : [فأمَتِّعه قليلا ثُمَّ أضْطَرُّه إلى عَذَابِ النَّار]

وَقَفْتُ عَلَى قَبْرٍ غَرِيبٍ بِعَفْرَةٍ   متاعٌ قليلٌ مِنْ حَبيب مُفَارِقِ[1]

واختلف المتأولون في الحين ها هنا ، فقالت فرقة : إلى الموت ، وهذا قول من يقول : المُسْتَقَرُّ هو المقام في الدنيا ، وقالت فرقة : إلى حين : إلى يوم القيامة ، وهذا قول من يقول : المسْتَقَرُّ هو في القبور ، ويترتب أيضاً على أن المُسْتَقَر في الدنيا أن يراد بقوله [وَلَكُمْ] أي لأنواعكم في الدنيا استقرار ومتاع قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة ، والحين : المدّة الطويلة من الدهر أقصرها في الأيمان والالتزامات سنة ، قال الله تعالى : [تُؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا [2]] ، وقد قيل : أقصرها ستة أشهر ، لأن من النخل ما يثمر في كل ستة أشهر ، وقد يستعمل الحين في المحاورات في القليل من الزمن . وفي قوله تعالى : [إلى حِينٍ] فائدة لآدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ، ومنتقل إلى الجنة التي وُعِد بالرجوع إليها ، وهي لغير آدم دالة على المعاد .

ورُوي أن آدم نزل على جبل من جبال سرنديب [3] وأن حواء

(١) روى الدارقطني ، عن سويد بن غفلة ، قال : كانت عائشة الخثعمية عند الحسن بن علي ابن أبي طالب ، فلما أُصيب عليٌّ وبويع الحسن بالخلافة ، قالت لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين ، فقال : يقتل علي وتظهرين الشماتة اذهبي فأنت طالق ثلاثاً . قال : فتلفعت بساجها ، وقعدت حتّى انقضت عدّتها ، فبعث إليها بعشرة آلاف متعة ، وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت : (متاعٌ قليلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِق) فلما بلغه قولها بكى وقال : لولا أني أبَنْتُ طلاقها لراجعتها ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أيُّما رجل طلق امرأته ثلاثاً عند كل طهر تطليقة أو عند رأس كل شهر تطليقة أو طلقها ثلاثا جميعاً لم تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره . نقله (ق) عند قوله تعالى : [وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قدرُه وَعَلَى المُقْتِرِ قدرُه مَتَاعاً بالمَعْرُوف] والعفرة اسم قرية، وقد أطال النفس في هذه القضية صاحب وفيات الأعيان وفيه: (على قبر مقيم بقفرة) بالقاف انظره في ترجمة أبي المقدام رجاء بن حيوة الكندي .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (ابرهيم) .

(٣) هي سيلان (واسمها الآن سيرى لانكا) وميسان: سجستان ، والأُبلة : موضع بالعراق والله أعلم . ، وطبعاً هي أقوال لا سند لها .

نزلت بجدة ، وأن الحية نزلت بأصبهان ، وقيل بميسان ، وأن إبليس نزل على الأُبلَّة .

قوله عز وجل :

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

المعنى : فقال الكلمات ، فتاب الله عليه عند ذلك ، و[آدم] رفع بـ[تَلقَّى] [كَلمَات] نصب بها ، والتلقي من آدم هو الإقبال عليها ، والقبول لها ، والفهم ، وحكي مكي قولا أنه أُلهمها فانتفع بها ، وقرأ ابن كثير : [آدَمَ] بالنصب (مِنْ رَبِّه كَلِمَاتٌ) بالرفع ، فالتلقي من الكلمات هو نيل آدم بسببها رحمه الله وتوبته .

واختلف المتأولون في الكلمات ، فقال الحسن بن أَبي الحسن : هي قوله تعالى : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) الآية (١) ، وقال مجاهد : هي أَن آدم ، قال : «سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ، ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم» .

وقال ابن عباس : هي أَنَّ آدم قال : أَيْ ربِّ . أَلم تخلقني بيدك؟ قال : بلى . قال : أَيْ ربِّ . أَلم تنفخ فيَّ من روحك ؟ قال : بلى ،

---

(١) هذا أولى وأحسن ما تُفسر به الكلمات لقوله تعالى : (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ، قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

قال : أَيْ ربِّ ، أَلم تُسْكِنِي جنتك ؟ قال : بلى ، قال : أَرأَيت إن تُبت وأَطعت أَراجعي أَنت إلى الجنة ؟ قال : نعم [١] . وقال عبيد ابن عُميـر : إن آدم قال : أَيْ ربِّ ، أَرأَيت ماعصيتك فيه أَشيءٌ كتبته عليَّ أَم شيءٌ ابتدعته ؟ قال : بل شيءٌ كتبته عليك ، قال : أَيْ رب . كما كتبتَه عليَّ فاغفر لي . وقـال قتـادة : الكلمات هي أَن آدم قال : أَيْ رب . أَرأَيت إن أَنا تُبْت وأَصلحت ؟ قال : إذاً أُدخلك الجنة . وقالت طائفة : إن آدم رأَي مكتوباً على ساق العرش «محمد رسول الله» ، فتشفع بذلك فهي الكلمات . وقالت طائفة : إن المراد بالكلمات ندمه واستغفاره [٢] وحزنه ، وسماها كلمات مجازاً لما هي في خلقها ، صادرة عن كلمات ، وهي كن في كل واحدة منهن ، وهذا قول يقتضي أَنَّ آدم لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود .

وسئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أَن يقوله المذنب فقال : يقول ماقال أَبواه : [رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا] وما قال موسى : [رَبِّ إِنِي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِر لِي] [٣] ، وما قال يونس : [لا إِله إلا أَنْتَ سُبْحَانَك إِنِي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين] [٤] .

و [تَابَ عَلَيْهِ] معناه : رجع به [٥] ، والتوبة من الله تعالى : الرجوعُ

---

(١) رواه أبو عبد الله الحاكم في «فضائل الأنبياء» موقوفاً .

(٢) الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع بالفعل ، والعزم على عدم العود وتلك شروط التوبة عند أهل السنة .

(٣) من الآية (١٦) من سورة (القصص) .

(٤) من الآية (٨٧) من سورة (الأنبياء) .

(٥) يقال : تاب إلى الله : رجع عن المعصية فهو تائب وتواب وتاب الله عليه : غفر له ، ورجع عليه بفضله ، فهو تواب على عباده ، فمعنى قوله تعالى : (وتاب عليه) : تفضل عليه بالتوبة والقبول.

على عبده بالرحمة والتوفيق ، والتوبة من العبد : الرجوعُ عن المعصية ، والندم على الذنب مع تركه فيما يستأْنف [١] وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر هنا في التلقي والتوبة ، وحواءُ مشاركة له في ذلك بإجماع لأَنه المخاطب في أَول القصة بقوله : [اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ] ، فلذلك كملت القصة بذكره وحده ، وأَيضاً فلأَن المرأَة حرمة ومستورة ، فأَراد الله الستر لها ، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله : [وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى] [٢] . وروي أَن الله تعالى تاب على آدم في يوم عاشوراءَ .

وكنية آدم أَبو محمد ، وقيل : أَبو البشر ، وقرأَ الجمهور [إِنَّه] بكسر الأَلف على القطع ، وقرأَ ابن أَبي عقرب [٣] [أَنه] بفتح الهمزة على معنى لأَنه . وبنية [التواب] للمبالغة والتكثير .

وفي قوله تعالى : [إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ] ، تأْكيد ـ فائدته أَن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله لا من العبد وحده ، لئلا يعجب التائب ، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه .

وكرر الأَمر بالهبوط لما علق بكل أَمر منهما حكماً غير حكم الآخر ، فعلق بالأَول العداوة ، وعلق بالثاني إتيان الهدى ، وقيل : كرر الأَمر بالهبوط على جهة تغليظ الأَمر وتأْكيده ، كما تقول لرجل : قم قم .

وحكى النقاش أَن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلى السماءِ ،

---

(١) أي مع العزم على الترك فيما يستقبل .

(٢) وقد طوي ذكر النساء المؤمنات في أكثر القرآن والسنة لأنهن تبع للرجال في الأحكام المشتركة .

(٣) هو أبو نوفل العَرَنْجِي بفتح المهملتين وسكون النون ، واسمه عمرو بن مسلم من التابعين .

والأَول في ترتيب الآية إنما هو إلى الأَرض وهو الآخر في الوقوع ، فليس في الأَمر تكرار على هذا .

و [جَمِيعاً] حال من الضمير في [اهْبِطُوا] ، وليس بمصدر ، ولا إسم فاعل ، ولكنه عوض منهما ، دالٌّ عليهما ، كأَنه قال : هبوطاً جميعاً ، أَوْ هابطين جميعاً [١] .

واختلاف في المقصود بهذا الخطاب ، فقيل : آدم وحواءُ وإبليس وذريتهم ، وقيل : ظاهره العموم ، ومعناه الخصوص في آدم وحواءَ [٢] ، لأَن إبليس لا يأْتيه هدى ، وخُوطبا بلفظ الجمع تشريفاً لهما ، والأَول أَصح لأَن إبليس مخاطب بالإِيمان بإجماع . وإن في قوله : [فإِمَّا] هي للشرط ، دخلت (مَا) عليها مؤكدة ليصح دخول النون المشددة ، فهي بمثابة لام القسم التي تجي لتجيءَ النون [٣] ،وفي قوله تعالى : [مِنِّي] إشارة إلى أَن أَفعال العباد خلق لله تعالى ، واختلف في معنى قوله [هدى] فقيل : بيان وإرشاد

---

(١) هذا التقدير الذي قدّره مخالف للحكم الذي أصدره ، لأنه قال أولا : وجميعاً حال من الضمير في اهبطوا ، فكيف يقول ثانياً : كأنه قال : هبوطا جميعاً ، أو هابطين جميعاً ؟ فآخر كلامه يعارض أوله — وكونه ليس مصدرا ، ولا اسم فاعل ، لا يمنع أن يكون حالا حتى يضطر إلى هذا التقدير الذي قدره ، وعليه فالعبرة بأول كلامه لا بآخره وهذه الحال من الأحوال اللازمة .

(٢) وإذا كان الخطاب لآدم وحواء ، فالمراد ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض — والبعضية موجودة في ذريتهما ، لأنه ليس كلهم يعادي كلهم ، بل بعضهم يعادي بعضهم ، وإن كان الخطاب لهما مع إبليس والحية فكلهم أعداء لكل بني آدم .

(٣) لا يصح توكيد إن الشرطية إلا إذا دخلت ما عليها وهو كثير في القرآن [إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ] [وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ] [فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ] [فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً] [فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والصواب أَن يقال : بيان ودعاء[١] ، وقالت فرقة : الهدي الرسل ، وهي إلى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر هو فمَنْ بعده .

وقوله تعالى : [فَمَنْ تبع هُدَاي] ، شرط جوابه [فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ][٢] قال سيبويه : الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأَول في قوله : [فَإِمَّا يَأْتِينكُمْ] وَحُكي عن الكسائي أَن قوله : [فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ] ، جواب الشرطين جميعاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

حُكي هذا ، وفيه نظر ، ولا يتوجه أَن يخالف سيبويه هنا ، وإنما الخلاف في نحو قوله تعالى:[فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ،فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ] [٣] ، فيقول سيبويه : جواب الشرطين محذوف لدلالة قوله : (فَرَوْحٌ) عليه . ويقول الكوفيون : (فَرَوْحٌ) جواب الشرطين . وأَما في هذه الآية فالمعنى يمنع أَن يكون [فَلا خَوْفٌ] جواباً للشَّرطين ، وقرأَ الجحدري ، وابن أَبي إسحق [هُدَيَّ] ، وهي لغة هذيل ، قال أَبو ذؤَيب يرثي بنيه :

سَبَقُوا هَوِيَّ واعنَقُوا لِهَوَاهُمُ فَتُخِرِّمُوا ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ [٤]

وكذلك يقولون : عَصَيَّ وما أَشبهه ، وعلة هذه اللغة أَن ياءَ الإِضافة

---

(١) لقوله تعالى : (هذا بيَانٌ لِلنَّاس) ولقوله تعالى : (والله يَدْعُو إلى دَارِ السَّلام) .

(٢) يصح أن تكون [مَنْ] موصولة ، ويترجح ذلك بقوله تعالى في قسيمة (والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا) فأتى به موصولا ، ويكون قوله تعالى : (فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) جملة هي الخبر ، والشروط المبيحة لدخول الفاء في الجملة قائمة هنا .

(٣) الآيتان (٨٨، ٨٩) من سورة (الواقعة) .

(٤) يقول أبو ذؤيب الهزلي في رثاء بنيه : إنهم ماتوا قبلي ، وأسرعوا لِهَوَاهم ، وكنت أُحب أن أموت قبلهم ، ويقال : أعنق الفرس : أسرع ، وتُخُرِّمُوا : أُخِذوا واحداً بعد واحد .

من شأنها أَن يُكسر ما قبلها ، فلما لم يصح في هذا الوزن كَسْرَ الأَلف الساكنة أُبدلت ياءً وأُدغمت ، وقرأَ الزهري ، ويعقوب ، وعيسى الثقفيُّ : [فَلا خَوْفَ عَلَيْهِمُ] نصب بالتبرئة [١] . ووجهه أَنه أَعم وأَبلغ في رفع الخوف ، ووجه الرفع أَنه أَعدل في اللفظ لينعطف المرفوع من قوله : [هُمْ يَحْزَنُونَ] على مرفوع . و (لا) في قراءة الرفع عاملة عمل ليس ، وقرأَ ابن مُحَيصن باختلاف عنه : (فَلا خَوْفُ) بالرفع وترك التنوين ، وهي على أَنْ تعمل (لا) عمل ليس ، لكنه حذف التنوين تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، ويحتمل قوله تعالى : [لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ] ، أَي فيما بين أَيديهم من الدنيا [وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ] على ما فاتهم منها ، ويحتمل أَن لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون فيه ، ويحتمل أَن يريد : أَنه يُدخلهم الجنة حيث لا خوف ولا حزن .

وقوله تعالى : [وَالَّذين كَفَرُوا] الآية ، عطف جملة مرفوعة على جملة مرفوعة ، وقال : [وَكَذَّبُوا] وكان في الكفر كفاية ، لأَن لفظة [كَفَرُوا] يشترك فيها كفر النعم ، وكفر المعاصي ، ولا يجب بهذا خلود ، فبيَّن أَن الكفر هنا هو الشرك بقوله : [وكَذَّبُوا بآياتِنَا] ، والآية هنا يحتمل أَن يريد المتلُوَّة ، ويحتمل أَن يريد العلامة المنصوبة ، وقد تقدم في صدر هذا الكتاب القول على لفظ آية ، و [أُولَئك] رفع

---

(١) قراءة النصب أبلغ في المعنى ، وقراءة الرفع أعدل في اللفظ . والآية تحتمل أن يكون نفي الخوف والحزن في الدنيا ، وأن يكون في الآخرة ، وهذا الثاني أولى وأرجح ، لأن تعلق المؤمن العاقل بالآخرة أهم من تعلقه بالدنيا ، والمنفي هو استيلاء الخوف عليهم ، وأما أصل الخوف فحاصل ، ولكنهم إذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا .

بالإبتداءِ ، و [أَصْحابُ] خبره ، والصحبة الإقتران (١) بالشيء في حالة مَّا في زمن مَّا ، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو كمال الصُّحبة ، وهكذا هي صحبة أَهل النار لها ، وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم ، لأَن مراتبهم متباينة ، أَقلها الإقتران في الإِسلام والزمن ، وأَكثرها الخُلطة والملازمة ، [وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون] ابتداءٌ وخبر في موضع الحال .

قوله عز وجل :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

[يَا] حرف نداءِ مضمن معنى التنبيه ، قال الخليل : والعامل في المنادى فعل مضمر كأَنه يقول : أُريد أَو أَدعو ، وقال أَبو على الفارسي : العامل حرف نداءٍ عصب به (٢) معنى الفعل المضمر ، فقوي فعمل ،

(١) والصحبة أدناها الاقتران بالشيء في زمن ما ، وأعلاها المخالطة والملازمة ، فالصحابة الذين خالطوا الإسلام ولازموه ليسوا كالصحابة الذين اقترنوا بالإسلام في زمن من الأزمنة ، وفي حال من الأحوال ، والكفار الذين خالطوا النار ولازموها ليسوا كالعصاة الذين اقترنوا بها في زمن معين محدود . عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيَوْن ، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في «الشفاعة» .

(٢) أحاط به ذلك فقوّاه فعَمِلَ .

ويدل على ذلك أنه ليس في حروف المعاني ما يلتئم بانفراده مع الأسماء غير حرف النداء ، و [بَنِي] منادى مضاف ، و [إِسْرَائِيل] هو : يعقوب ابن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، وهو اسم أعجمي ، يقال فيه : إسرائل ، وإسرائيل ، وتميم تقول : اسرائين ، و [إسرا] هو بالعبرانية عبد ، و [إيل] اسم الله تعالى ، فمعناه : عبد الله . وحكى المهدوي أن (إسرا) مأخوذ من الشد [١] في الأسر ، كأنه الذي شدَّ اللهُ أسره ، وقوَّى خلقه ، ورُوي عن نافع ، والحسن ، والزهري ، وابن أبي إسحق ، ترك همز (إسراييل) .

والذكر في كلام العرب على أنحاءٍ ، وهذا منها ، ذكر القلب الذي هو ضد النسيان [٢] . والنعمة هنا اسم الجنس ، فهي مفردة بمعنى الجمع ، وتحركت الياءُ من [نعْمَتِيَ] لأنها لقيت الألف واللام ، ويجوز تسكينها ، وإذا سكنت حذفت للالتقاء ، وفتحها أحسن لزيادة حرف في كتاب الله تعالى [٣] ، وخصص بعض العلماء النعمة في هذه الآية ، فقال الطبريُّ : بعثة الرسل منهم ، وإنزال المن والسلوى ، وإنقاذهم من تعذيب آل فرعون ، وتفجير الحجر . وقال غيره : النعمة هنا ، أن أدركهم مدةَ محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آخرون : هي أن منحهم علم التوراة ، وجعلهم أهله وحملته ، وهذه أقوال على جهة المثال ، والعموم في اللفظة هو الحسن . وحكى مكي أن المخاطب من

---

(١) لو قال : « من الأسر بمعنى الشد » كان إسرائيل شد الله أسره ، وقوى خلقه ، ومنه قوله تعالى : [نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ] .

(٢) الذكر بالقلب : ضد النسيان ، وباللسان : ضد الصمت ، وفيه لغتان : الكسر والضم ويقال : الذكر بمعنى الشرف ، كقوله تعالى : [وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ] .

(٣) وزيادة الحرف يترتب عليه زيادة الأجر — إذ كل حرف بعشر حسنات كما في الحديث .

بني إسرائيل بهذا الخطاب هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن الكافر لا نعمة لله عليه (١) .

وقال ابن عباس ، وجمهور العلماء : الخطاب لجميع بني إسرائيل في مدة النبي عليه السلام ، مؤمنِهم وكافرِهم .

والضمير في [عَلَيْكُمْ] يراد به على آبائكم ، كما تقول العرب : ألم نهزمكم يوم كذا ، لوقعة كانت بين الآباء والأجداد ؟ ومن قال : إنما خوطب المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم استقام الضمير في عليكم ، ويجيءُ كلُّ ما توالى من الأوامر على جهة الاستدامة .

وقوله تعالى : [وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم] . أَمر وجوابه ، فقال الخليل : جزَم الجواب ما في الأَمر من معنى الشرط ، والوفاءُ بالعهد هو التزام ما تضمن من فعل . وقرأَ الزهري : (أُوَفِّ) بفتح الواو وشد الفاء للتكثير .

واختلف المتأَولون في هذا العهد اليهم ، فقال الجمهور : ذلك عامٌّ في جميع أَوامره ونواهيه ووصاياه ، فيدخل في ذلك ذكر محمد صلى

(١) النعمة نعمتان : نعمة مطلقة ، ونعمة مقيدة — فالنعمة المطلقة هي المتصلة بسعادة الأبد ، وهي نعمة الإيمان والإسلام ، وهي التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراطَ أهلِها ، ومَنْ خصهم بها ، وجعلهم أهل الرفيق الأعلى حيث يقول : (ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فَأولئك مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ وَحَسُنَ أولئِكَ رَفيقاً) . فهذه الأصناف الأربعة هم أهل النعمة المطلقة ، وإذا قيل ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح — والنعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى ، وعافية الجسد ، وبسطة الجاه ، وكثرة الولد ، وأمثال هذه ، فهذه النعمة مشتركة بين البَرّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، وإذا قيل لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو حق ، فهذا فصل النزاع في هذه المسألة باختصار ، واكثر اختلاف الناس يأتي من جهتين — أحدهما : اشتراك الألفاظ وإجمالها . والثانية : من جهة الإطلاق والتفصيل ، والله أعلم .

الله عليه وسلم الذي في التوراة ، وقيل : العهد قوله تعالى : [خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّة] (١) . الآية : وقال ابن جُرَيج : العهد قوله تعالى : [وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ] (٢) الآية ، وَعَهْدُهُمْ : هو أَن يُدْخِلهم الجنة . ووفاؤُهم بعهد الله أَمارة لوفاءِ الله تعالى لهم بعهدهم ، لا عِلَّة له ، لأَن العِلَّة لا تتقدم المعلول (٣) .

وقوله : [وَإِيَّاي فَارْهَبُونِ] الإِسم (إِيا) ، والياءُ ضمير ككاف المخاطب ، وقيل : [إِيَّاي] بجملته هو الإِسم ، وهو منصوب بإِضمار فعل مؤخر تقديره : وإِياي ارهبوا فارهبون ، وامتنع أَن يُقَدَّر مقدماً لأَن الفعل إِذا تقدم لم يحسن أَن يتصل به إِلا ضمير خفيففكان يجيءُ ، وارهبون.

والرهبة يتضمن الأَمر بها معنى التهديد ، وسقطت الياءُ بعد النون لأَنها رأْس آية . وقرأَ ابن أَبي إِسحق بالياءِ .

و[آمِنُو] معناه : صدقوا ، و [مُصَدِّقاً] نصب على الحال من الضمير في (أَنْزَلْتُ) (٤) وقيل : من (مَا) ، والعامل فيه (آمِنُوا) ، وما أَنزلتُ كناية عن القرآن ، و [لِمَا مَعَكُمْ] يعني من التوراة .

وقوله : [وَلا تَكُونوا أَوَّلَ كَافِر بِهِ] هذا من مفهوم الخطاب الذي المذكور فيه والمسكوت عنه حكمهما واحد ، فالأَول والثاني وغيرهما

---

(١) من الآية (٦٣) من سورة (البقرة) .

(٢) من الآية (١٢) من سورة (المائدة) .

(٣) بل هي مقارنة له ، ولا تكون سابقة عليه ، كما يقال : يجب الجلد بالزنا ، والظهر بالزوال ، وتحرم الخمر بالإسكار ، فذلك علة للوجوب ، وللحرمة ، لأن الأحكام تضاف إليها ، ومِن ثَمَّ كانت لا تفارق المعلول .

(٤) والتقدير : « بما أنزلته مصدقاً لما معكم » ، والعامل : أنزلت ، ويجوز أن يكون من (ما) ، والعامل (آمنو) ، والتقدير : «آمنوا بالقرآن مصدقاً لما معكم » .

داخل في النهي (١) ، ولكن حُذِّروا البدار إلى الكفر به ، إذ على الأَول كِفْلٌ مِنْ فعْلِ المقْتَدِي به (٢) ، ونصب [أَوَّلَ] على خبر كان .

قال سيبويه : أَول [أَفْعَل] لا فعل له لاعتلال فائه وعينه . قال غير سيبويه : هو أَوْأَل من وأَل إذا نَجَا (٣) خُففت الهمزة وأُبدلت واوا وأُدغمت ، وقيل : إنه من آل فهو [أَأْوَل] قُلب فجاء وزنه [أَعْفَل] وَسُهِّل وأُبدل وأُدغم .

ووحد [كَافِر] وهو بِنِيَّة الجمع ، لأَن أَفعل إذا أُضيف إلى اسم متصرف من فعل جاز إفراد الإسم ، والمراد به الجماعة (٤) ، قال الشاعر :

وإذَا هُمُ طَعِمُوا فَأَلأَمُ طَاعِمٍ وإذَا هُمُ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعِ(٥)

---

(١) يعني أن القصد ألا يكونوا أول كافر ، ولا ثاني كافر ، ولا آخر كافر ، لأن النهي عن الشيء لا يكون دليلا على إباحة ضده وإنما حُذِّروا البدار إلى الكفر لما قرره المؤلف رحمه الله ، وقد احتج بعض الناس بهذه الآية على أن دليل الخطاب ليس بحجة .

(٢) قال الإمام القشيري رحمه الله : «لا تسنوا الكفر سنة ، فإنّ وزْرَ المبتدئين فيما يَسُنُّون أعظم من وزر المقتدين فيما يتبعون» .

والكفل في اللغة : يكون بمعنى النصيب — وبهذا يكون معنى العبادة : إذ على أوّل من كفر نصيب من إثم المقتدي به — لقوله صلى الله عليه وسلم : «ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها ... الخ الحديث» .

(٣) أي : طلب النجاة لأن وأل معناها : لجأ طلباً للنجاة .

(٤) أفعل التفضيل إذا أُضيف إلى نكرة غير صفة فإنه يبقى مفرداً مذكراً ، والنكرة تطابق ما قبلها — وإذا أضيف إلى صفة وقد تقدم أفعل التفضيل جمع جازت المطابقة ، وجاز الإفراد كما قال الشاعر :

وإذا هُمُ طعِموا فألأم طاعم وإذا هُمُ جاعُوا فشَرُّ جِياع

فأفرد أولا في (طاعم) وجمع ثانياً في (جياع) . وإذا أفردت النكرة الصفة أولت على معنى الفعل نحو : (ولا تَكُونُوا أول من كفر به) أو على حذف موصوف يدل على الجمع نحو : (ولا تكونوا أول حزب كافر به) . راجع «البحر المحيط» ١/١٧٧ .

(٥) البيت في «البحر المحيط» ١/١٧٧ — وفي تفسير الطبري ١/١٩٩ — ولم ينسب لقائل .

وسيبويه يرى أنها نكرة مختصرة من معرفة كأنه قال : (ولا تكونوا أول كافرين به)(١) . وقيل : معناه « ولا تكونوا أو فريق كافر » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد كان كفر قبلهم كفار قريش فإنما معناه : من أهل الكتاب ، إذ هم منظور إليهم في مثل هذا ، لأنهم حجة مظنون بهم علم .

واختلف في الضمير في [به] على من يعود ؟ فقيل : على محمد عليه السلام ، وقيل : على التوراة إذا تضمنها قوله : [لِمَا مَعَكُمْ] ، وعلى هذا القول (٢) يجيء [أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ] مستقيماً على ظاهره في الأولية ، وقيل : الضمير في [به] عائد على القرآن ، إذ تضمنه قوله : [بِمَا أَنْزَلْتُ] .

واختلف المتأولون في الثمن الذي نُهوا أن يشتروه بالآيات ، فقالت طائفة : إن الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنُهوا عن ذلك ، وفي كتبهم : «علم مجاناً كما علمت مجاناً ، أي باطلا بغير أجرة» . وقال قوم : كانت للأحبار مأكلة يأكلونها على العلم كالراتب ، فنُهوا عن ذلك ، وقال قوم : إن الأحبار أخذوا رشاً على تغيير قصة محمد عليه السلام في التوراة ، ففي ذلك قال تعالى : [وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً] (٣) وقال قوم : معنى الآية : ولا تشتروا بأوامري ونواهي

(١) مثل هذه النكرة عند سيبويه أصلها التعريف والجمع نحو : « ولا تكونوا أول الكافرين به » فوقع اختصار حرف التعريف ، فكأنه قيل : « ولا تكونوا أول كافرين به » ، ثم : « ولا تكونوا أول كافر به » بحذف بناء الجمع

(٢) أي الذي يقول : إن الضمير عائد على التوراة ، وأما القولان الآخران فمتلازمان .

(٣) يدخل في حكم الآية من أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به ، أو اثبات باطل نهى الله عنه ، أو امتنع من تعليم ما علمه الله ، وكتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به .=

وآياتي ثمناً قليلا ، يعني الدنيا ومدتها ، والعيش الذي هو نزر لا خطر له ، وقد تقدم نظير قوله : (وإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) (١) وبين (اتَّقُون) (٢) و (ارْهَبُونِ) فرق أن الرهبة مقرون بها وعيد بالغ .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المعنى : ولا تخلطوا ، يقال : لبست الأمر – بفتح الباء – ألبسه إذا خلطته ، ومزجت بَيِّنَهُ بِمُشْكِلِه وحقَّه بباطِله ، وأما قول الشاعر : (٣)

وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ . . . .

=فكل من فعل شيئاً من ذلك فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلا ، والله يقول : (وأوفُوا بِعَهْدِ الله إذا عَاهَدْتُمْ) وأجاز مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله أخذ الأجرة على تعليم القرآن للحديث الصحيح : (إن أحق ما أخَذْتُمْ عليه أجراً كتاب الله) أخرجه البخاري . وهو نص يرفع الخلاف فينبغي أن يعول عليه ، والمراد بالآية علماء بني إسرائيل ، وشرعُ مَنْ قبلنا أهو شرع لنا أم لا ؟ : فيه خلاف .

(١) هو قوله تعالى : (وإيَّايَ فَارْهَبُونِ) .

(٢) الأحسن ألا يقيد (ارهبون واتقون) بشيء بل ذلك أمر بخوف الله واتقائه ، فيكون المعنى (ارهبون) إن لم تذكروا نعمتي ولم توفوا بعهدي ، و (اتقون) إن لم تؤمنوا بما أنزلتُ ، وإن اشتريتم بآياتي ثمناً قليلا ، ويتعلق كل بما سبق قبله ، والله أعلم .

(٣) هو عنترة العبسي . بطل مشهور ، وشاعر معروف ، وعجز البيت :

. . . . حتَّى إذا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يدي

فالظَّاهر أنه من هذا المعنى ، ويحتمل أن يكون من اللباس .

واختلف أهل التأْويل في المراد بقوله : [الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ] ، فقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد نبي مبعوث ، ولكن إلى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حقٌّ ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال الطبري : كان من اليهود منافقون ، فما أَظهروا من الإيمان حق ، وما أَبطنوا من الكفر باطل . وقال مجاهد : معناه لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام . و [تَلْبِسُوا] جزم بالنهي ، و [تَكْتُمُوا] عطف عليه في موضع جزم (١) ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار أَن ، وإذا قدرت أَن كانت مع تكتموا بتأْويل المصدر ، وكانت الواو عاطفة على مصدر مقدر من تلبسوا ، كأَن الكلام : «ولا يكن لبسكم الحق بالباطل ، وكتمانكم الحق» ، وقال الكوفيون : تكتموا نصب بواو الصرف . و [الْحَق] يعني به أَمر محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : [وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] ، جملة في موضع الحال ، ولم يشهد لهم تعالى بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا ، ويحتمل أَن تكون شهادة عليهم بعلم حق مخصوص ، في أَمر محمد عليه السلام ، ولم يشهد لهم بالعلم على الإطلاق ، ولا تكون الجملة على هذا في موضع

---

(١) هذا أرجح الأعاريب في هذه الكلمة لأن ذلك يقتضي النهي عن كلٍّ بانفراده ، وأما النصب بأن ، أو بالصرف فإنه يجعل المنع منسحباً على الجمع بين الفعلين ويكون دالا بالمفهوم على جواز التلبس بأحدهما وذلك غير مراد .

الحال [١] ، وفي هذه الأَلفاظ دليل على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأَنه أَعصى من الجاهل [٢] .

و [أَقِيمُوا الصَّلاَةَ] معناه : أَظهروا هيئتها وأَديموها بشروطها ، وذلك تشبيه بإقامة القاعد إلى حال ظهور ، ومنه قول الشاعر :

وإذا يُقَال أَتَيْتُمُ لَمْ يبرحوا حتى تُقِيمَ الخيلُ سوقَ طِعان

وقد تقدم القول في (الصَّلاةِ) .

و [الزَّكَاةُ] في هذه الآية هي المفروضة ، بقرينة إجماع الأُمة على وجوب الأَمر بها ، والزكاة مأَخوذة من زكا الشيءُ إذا نما وزاد ، وسمي الإخراج من المال زكاة [٣] وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة ، أَو بالأَجر الذي يثيب الله به المُزكِّي . وقيل : الزكاة مأْخوذة من التطهير ، كما يقال : زكا فلان أَي طهر من دنس الجرحة والإغفال ، فكأَن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين ، أَلا ترى النبي عليه الصلاة والسلام سمى ما يخرج في الزكاة أَوساخ الناس [٤] .

وقوله تعـالى : [وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ] قال قوم : جعل الركوع ـ لمَّا كان من أَركان الصلاةـ عبارة عن الصلاة كلِّها ، وقال قوم : إنما خص الركوع بالذكر ، لأَن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم

(١) يعني أن الجملة الثبوتية تكون معطوفة على جملة النهي ، ولا تكون حالا على هذا القول .

(٢) أي الجاهل العاصي إذ لا يستوي العالم والجاهل أبداً في حياتهما .

(٣) أي نماء وزيادة .

(٤) رواه الإمام مسلم ، ونصه : «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس .وإنها لا تحل لمحمد ولا آل محمد» .

ركوع (١) ، وقالت فرقة : إنما قال [مَعَ] لأَن الأَمر بالصلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة ، فأَمرهم بقوله [مَعَ] بشهود الجماعة والركوع في اللغة : الإنحناءُ بالشخص . قال لبيد :

أُخَبِّرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدبُّ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

ويستعار أَيضاً في الانحطاط في المنزلة ، قال الأَضبط بن قريع :

ولا تُعَاد الضَّعِيف عَلَّكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْماً والدهر قَدْ رَفَعَهْ

وقوله تعالى : [أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ] خرج مخرج الاستفهام ، ومعناه التوبيخ(٢) ، والبر يجمع وجوه الخير والطاعات ، ويقع على كل واحد منها اسم بر ، و[تَنْسَوْنَ] ، معناه : تتركون كما قال الله تعالى : [نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ] (٣) .

واختلف المتأَولون في المقصود بهذه الآية ، فقال ابن عباس : كان الأَحبار يأْمرون أَتباعهم ، ومقلديهم باتباع التوراة ، وكانوا هم يخالفونها في جحدهم منها صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقالت

---

(١) هذا القول لا يصح ، لقوله تعالى : [يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي، وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ] وهو ما ارتضاه الإمام ابن عطية .

(٢) هذا تنديد بالعلماء والرؤساء الذين يأمرون غيرهم وينسون أنفسهم ، والقدوة الصالحة هي التي تجمع بين القول والعمل ، وهي التي تبدأ بنفسها وتنهاها عن غيها ، ثم تقصد غيرها فتؤدي إليها أمر ربها ، وتهي خالقها بحكمة وإخلاص ، ومن شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه إذا تأثر به الآمر تأثر به المأمور ، وإذا خرج من ظاهره لم يتجاوز ظاهر غيره ، فالسبب إذا استمر واستقام كان له تأثير بإذن الله تعالى في النفوس ، ومن هنا يدرك أن انحراف الناس في حياتهم ناتج عن عدم وجود القدوة الصالحة في الدين والدنيا ، وهذا بحسب الأغلب وإلا فقد يكون ذلك ناشئاً عن عناد .

(٣) من الآية (٦٧) من سورة (التوبة) .

فرقة : كان الأَحبار إذا استرشدهم أَحد من العرب في اتباع محمد دلُّوه على ذلك ، وهم لا يفعلونه . وقال ابنُ جُريج : كان الأَحبار يحضُّون الناس على طاعة الله ، وكانوا هم يواقعون المعاصي ، وقالت فرقة : كانوا يحضُّون على الصدقة ويبخلون .

وقوله : [وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ] معناه : تدرسون وتقرءُون ، ويحتمل أَن يكون المعنى تتبعون أَي في الاقتداءِ به [والْكِتَابُ] : التوراة ، وهي تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة .

وقوله : [أَفَلا تَعْقِلُونَ] معناه : أَفلا تمنَعُون أَنفسكم[1] من مواقعة هذه الحال المُرْدية لكم ؟ ، والعقل : الإِدراك المانع من الخطإِ ، مأْخوذ منه عقال البعير الذي يمنعه من التصرف ، ومنه : المعقل أَي موضع الامتناع .

وقوله : [وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبر [2] والصَّلاةِ]

قال مقاتل معناه : على طلب الآخرة . وقال غيره : المعنى استعينوا بالصبر على الطاعات وعن الشهوات على نَيْل رضوان الله ، وبالصلاة على نيل الرضوان وحط الذنوب ، وعلى مصائب الدهر أَيضاً [3] ، ومنه الحديث ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كَرَبَه أَمر فزع

---

(١) إشارة إلى تعديته ، ويمكن أن ينزل منزلة اللازم ، وكيفما كان فهو غاية في الشناعة والقبح .

(٢) قال الإمام أحمد رحمه الله : ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً ، أو بضعاً وتسعين ، وهو واجب باتفاق الأمة ، وقد يكون من الكمال المستحب ، وذلك أن النجاح والنصر لا يأتيان إلا على أساس الصبر والالتجاء إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء .

(٣) الآية الكريمة تقبل كل هذه المعاني . فالألف واللام الداخلة على الصبر هي للشمول والعموم ، كما أن الصلاة يراد بها ما يعم الفريضة والنافلة .

إلى الصلاة [١] ، ومنه ما روي أَن عبد الله بن عباس نُعي إليه أَخوه (قثم) وهو في سفر ، فاسترجع ، وتنحى عن الطريق ، وصلى ، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأُ[٢] : [واسْتَعِينُوا بِالصبْر والصَّلاة] .

وقال مجاهد : الصبر في هذه الآية : الصوم ، ومنه قيل لرمضان ، شهر الصبر ، وخص الصوم والصلاة على هذا القول بالذكر لتناسبهما في أَن الصيام يمنع الشهوات ، ويزهد في الدنيا . والصلاة تنهى عن الفحشاءِ والمنكر وتخشع ، ويُقرأُ فيها القرآن الذي يُذكِّر بالآخرة . وقال قوم : الصبر على بابه [٣] ، والصلاة الدعاءُ ، وتجيءُ هذه الآية على هذا القول مشبهة لقوله تعالى : [إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا ٱللَّهَ][٤] لأَن الثبات هو الصبر ، وذكر الله هو الدعاءُ .

واختلف المتأَولون في قوله : [وَإِنَّها لَكَبِيرةٌ] على أَي شيءٍ يعود الضمير ، فقيل : على الصلاة [٥] وقيل : على الإستعانة التي يقتضيها

(١) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود بلفظ : «كان إذا حزبه أمر صلى» ، ورواه (ط) بلفظ : «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» ، وذكره المؤلف بلفظ : «إذا كربه أمر فزع إلى الصلاة» وكربه بمعنى حزبه ، أي أهَمَّه وأقلقه . وانظر دعاء الكرب من كتاب الدعوات . وروى الترمذي في جامعه عن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال : يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتك أستغيثُ» .

(٢) رواه (ط) في تفسيره ، والبيهقي في شعب الإيمان .

(٣) وليس بمعنى الصوم ، كما قاله مجاهد ، وترجمة ما أشار إليه أن الصبر يفسر بتفسيرين بمعناه المتعارف ، وبمعنى الصوم ، ومن ثم قيل لشهر الصوم : شهر الصبر ، والصلاة كذلك فقيل الشرعية ، وقيل اللغوية . والكلمة صالحة للجميع .

(٤) من الآية (٤٥) من سورة (الأنفال) .

(٥) هذا أقوى وأولى ، لأن ضمير الغيبة يعود إلى أقرب مذكور . ولأن الصلاة عبادة ، ومن أكبر العون على الثبات في الأمر . ولأنها تكبر وتصعب على النفوس ، ومن أجل هذا اختاره الإمام ابن جرير رحمه الله .

قوله : [اسْتَعِينُوا] ، وقيل : على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكرُ الصبر والصلاة . وقالت فرقة : على إجابة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا ضعف لأنه لا دليل له من الآية عليه ، وقيل : يعود الضمير على الكعبة ، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها ، وهذا أضعف من الذي قبله . وكبيرة معناه : ثقيلة شاقة (١) .

والخاشعون : المتواضعون المخْبِتُون ، والخشوع : هيئة في النفس ، يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع .

و [يَظُنُّونَ] في هذه الآية ، قال الجمهور : معناه يوقنون (٢) ، وحكى المهدوي ، وغيره : أن الظن هنا يصح أن يكون على بابه ، ويضمر في الكلام بذنوبهم ، فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تعسُّف ، (٣) والظن في كلام العرب قاعدته الشك مع ميل إلى

---

(١) جعلها كبيرة حتى قرن بها الأمر بالصبر ، واستثنى الخاشعين فلم تكن عليهم كبيرة لأجل ما وصفهم به من الخوف والرجاء ، وذلك ما تضمنه قوله تعالى : [الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ] فإن الخوف والرجاء يسهلان كل صعب . والمشقة في الصلاة تدخل على المكلف من جهة شدة التكليف في حدّ ذاته ، ومن جهة المداومة عليه ، وإن كان خفيفاً في نفسه ، وفي مقدمة الخاشعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كانت قرة عينه في الصلاة ، حتى يستريح إليها من تعب الدنيا ، حتى قال : (أرحنا بها يابلال) ، كما رواه الدارقطني في العلل .

(٢) العلم والمعرفة واليقين : مترادفة على معنى واحد ،وهو الإعتقاد الجازم المطابق عن دليل ، وقد يطلق الظن على العلم كما يطلق العلم على الظن ،وهذا الإستعمال متعارف عند أهل اللغة والشرع ، وعن مجاهد : كل ظن في القرآن فهو يقين ، ولعله يريد الظن المتعلق بالآخرة كما قالوا .

(٣) أي تكلف بحمل الكلام على معنى لا دلالة عليه في الظاهر ، والأصل عدم الإضمار في الكلام إلا إذا توقف صدقه أو صحته على ذلك .

أَحد معتقديه ، وقد يوقع الظن موقع اليقين في الأُمور المتحققة (١) ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس ، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر : أَظن هذا انساناً ، وإنما تجد الإستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد كهذه الآية ، وكقوله تعالى : [فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوهَا](٢) ، وكقول دريد بن الصمة :

فَقُلْتُ لهم : ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّج سَرَاتُهُمُ بالفارسِي الْمُسَرَّدِ (٣)

وقوله تعالى : [أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ] أَنَّ وجملتها تسد مسد مفعولي الظن ، والملاقاة هي للعقاب أَو الثواب . ففي الكلام حذف المضاف . ويصح أَن تكون الملاقاة هنا (٤) بالرؤية التي عليها أَهل السنة ، وورد بها متواتر الحديث . وحكى المهدوي أَن الملاقاة هنا مفاعلة من واحد مثلُ : عافاك الله ، وهذا ضعيف ، لأَن لقي يتضمن معنى لاقى وليست

---

(١) أي الثابتة عقلا وشرعاً .

(٢) من الآية (٥٣) من سورة (الكهف) .

(٣) دريد : هو ابن عبد الله بن الطفيلي ، شاعر إسلامي مُقِل من شعراء الدولة الأموية ، وقوله : ظنوا بألفي مدجج ، أي تيقنوا بإتيان ألفي مدجج ، والمدجَّج اللابس للسلاح المغطى به . وبعده :

فلمَّا عَصَوْني كنتُ منهم وقدْ أرى غوايتهم وأنني غيرُ مُهتَـــــــد

أي حيث تابعتهم ووافقتهم .

(٤) لا يلزم من اللقاء الرؤية . ألا ترى إلى الأعمى اذا حضر جمعاً ساغ له أن يقول : لقيت فلاناً ، مع فقده للرؤية ، والآية هنا كما تدل لأهل السنة يمكن أن تدل للمعتزلة الذين لا يعترفون برؤية الله في الآخرة ، لكن ابن عطية رحمه الله ذكر رأى أهل السنة ، وسكت عن رأي المعتزلة –فتأمل قوله بعد ذلك : « وورد بها متواتر الحديث » مما يدل على تأييده أو اختياره لهذا القول .

كذلك الأَفعال كلها ، بل فَعَل[(١)] خلاف فَاعَلَ في المعنى ، وملاقوا أَصله ملاقون لأَنه بمعنى الإستقبال ، فحذفت النون تخفيفاً ، فلما حذفت تمكنت الإِضافة بمناسبتها للأَسماءِ ، وهي إِضافة غير محضة لأَنها لا تُعَرِّف.

وقال الكوفيون : ما في اسم الفاعل الذي هو بمعنى المجيءِ من معنى الفعل يقتضي إثبات النون وإعماله ، وكونه وما بعده اسمين يقتضي حذف النون والإِضافة .

و [رَاجِعُونَ] قيل : معناه بالموت ، وقيل : بالحشر والخروج إلى الحساب والعرض ويُقَوِّي هذا القول الآية المتقدمة .

قوله تعالى :[ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] والضمير في [إِلَيْهِ] عائد على الرب تعالى ، وقيل : على اللقاءِ الذي يتضمنه [مُلاقُوا].

قوله عز وجل :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) (فعل) تدل على الانفراد ، و (فاعل) تدل على الاشتراك ، وقد تكون (فَعَل) بمعنى (فاعل) في الدلالة على الاشتراك ، ومن ذلك (لقي) فإنها تدل على الاشتراك بوضعها وخصوص مادتها ، لأن كل من لقيته فقد لقيك وعلى ذلك فإننا لو جعلنا (فاعل) في الآية بمعنى (فعل) لكانت تدل على الاشتراك أيضاً . ووجه التضعيف لكلام المهدوي أن مادة لقي مجردة كانت أو غير مجردةيستحيل فيها أن تكون لواحد . فكون (فاعل) من اللقاء من باب عاقبت اللص ضعيف ، حيث أن هذه المادة تقتضي الاشتراك كيفما استعملت ومن أي باب كانت .

قد تكرر هذا النداءُ ، والتذكير بالنعمة ، وفائدة ذلك أن الخطاب الأَول يصح أَن يكون للمؤمنين ، ويصح أَن يكون للكافرين منهم . وهذا المتكرر إنما هو للكافرين بدلالة ما بعده ، وأَيضاً فإن فيه تقوية التوقيف ، وتأكيد الحض على ذكر أَيادي الله ، وحسن خطابهم بقوله : [فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ] ، لأَن تفضيل آبائهم وأَسلافهم تفضيل لهم ، وفي الكلام اتساع ، قال قتادة ، وابن زيد ، وابن جريج ، وغيرهم : المعنى على عالَم زمانهم (١) الذي كانت فيه النبوة المتكررة والمُلْك(٢) ، لأَن الله تعالى يقول لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَاس) (٣) .

وقوله عز وجل : [وَاتَّقُوا يَوْماً] نصب (يوما) باتقوا على السعة والتقدير : «عذاب يوم» أَو : «هول يوم» ثم حذف ذلك ، وأَقام اليوم مقامه ، ويصح أَن يكون نصبه على الظرف لا للتقوى لأَن يوم القيامة ليس بيوم عمل ، ولكن معناه : « جيئوا متقين يوماً » . و [لاتَجْزي] معناه لا تُغْني . وقال السدي : معناه لا تقضي . ويُقَوِّيه قوله [شَيْئاً] (٤) ، وقيل : المعنى لا تكافئُ ، ويقال جزى وأَجزأَ بمعنى واحد (٥) .

(١) هذا هو الحق والانصاف ، فإن ابراهيم الخليل عليه السلام قبلهم وهو أفضل من أنبيائهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم دنيا وأخرى ، وأمته أفضل الأمم كما صرح بذلك القرآن ، فذلك التفضيل يختص بعالم زمانهم ، ولكل زمان عالم فهو من العامّ الذي أريد به الخصوص .

(٢) كما يدل على ذلك قوله تعالى :[وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً] .

(٣) من الآية (١١٠) من سورة (آل عمران) .

(٤) أي شيئاً من الحقوق .

(٥) قال الفيومي في المصباح : جزى الأمر يجزي جزاء مثل قضى يقضي قضاء وزْناً ومعنى . وفي الدعاء جزاه الله خيراً :أي قضاه له وأثابه عليه،وقديستعمل أجزا بالألف والهمز=

وقد فرق بينهما قوم فقالوا : جزى بمعنى قضى وكافأ . وأجزأ بمعنى أغنى وكفى . وقرأ أبو السمال [تُجْزِئُ] بضم التاء والهمز ، وفي الكلام حذف(١) قال البصريون: التقدير : «لاتجزي فيه» ،ثم حذف «فيه» ، وقال غيرهم : حذف ضمير متصل بتجزي تقديره : « لا تجزيه » ، على أنه يقبح حذف هذا الضمير في الخبر ، وإنما يحسن في الصلة . وقال بعض البصريين : التقدير : «لا تجزي فيه» ، فحذف حرف الجر واتصل الضمير ، ثم حذف الضمير بتدريج .

وقوله تعالى : [وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ] قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بالتاء ، وقرأ الباقون بالياء من تحت على المعنى ، إذ تأنيث الشفاعة

= بمعنى جزى ونقلهما الأخفش بمعنى واحد قال : الثلاثي من غير همز لغة الحجاز والرباعي المهموز لغة تميم ، وجازيته بذنبه عاقبته عليه ، وجزيت الدين قضيته ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لأبي بردة بن نيار لمّا أمره أن يضحي بجدعة من المعز : « تجزي عنك ولن تجزي عن أحد بعدك » قال الأصمعي : أي ولن تقضي ، وأجزأت الشاة بالهمز بمعنى قضت لغة حكاها ابن القطاع ، واما أجزأ بالألف والهمز فبمعنى أغنى ، قال الأزهري : والفقهاء يقولون أجزى من غير همز ولم أجده لأحد من أئمة اللغة ولكن إن هُمز أجزأ فهو بمعنى كفي هذا لفظه ، وفيه نظر ، لأنه إن أراد امتناع التسهيل فقد توقف في غير موضع التوقف ، فإن تسهيل همزة الطرف وتسهيل الهمزة الساكنة قياس ، فيقال أرجأت الأمر وأرجيته ، وأنسأت وأنسيْت وأخطأت وأخطيْت فالفقهاء جرى على ألسنتهم التخفيف ، وإن أراد الامتناع من وقوع أجزأ موقع جزى فقد نقلهما الأخفش لغتين ، كيف وقد نص النحاة على أن الفعلين إذا تقارب معناهما جاز وضع أحدهما موضع الآخر ، وفي هذا مقنع لو لم يوجد نقل ، وأجزأ الشيء مَجْزَأً غيره كفى وأغنى عنه ، واجتزأت بالشيء اكتفيت انتهى باختصار . وقال الشيخ حلولو في شرح جمع الجوامع جزى الثلاثي – إن كان بلا همز فمعناه القضاء نحو (لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نفْسٍ شَيْئاً) أي لا تقضي ، وإن كان آخره مهموزاً فمعناه الكفاية والله أعلم .

(١) المراد أن جملة « لاتجزى» صفة لما قبلها ، والرابط بين الصفة والموصوف محذوف ، واختلفوا في هذا المحذوف ، وكيفما كان تقديره فالحذف في هذا المقام جائز ومقبول .

ليس بحقيقي ، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الإثنان ، لأن الشافع والمشفوع له شفع ، وكذلك الشفيع فيما لم يقسم .

وسبب هذه الآية : أن بني إسرائيل قالوا : نحن أبناءُ الله وأبناءُ أنبيائه ، وسيشفع لنا آباؤنا ، فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعة ، ولا تجزي نفس عن نفس ، وهذا إنما هو في الكافرين – للإجماع – وتواتر الحديث بالشفاعة في المؤمنين (١) .

وقوله تعالى : [وَلا يُؤخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ] قال أبو العالية : العدل الفدية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وَعَدْلُ الشيءِ هو الذي يساويه قيمة وقدراً ، وإن لم يكن في جنسه والعِدل بكسر العين هو الذي يساوي الشيءَ من جنسه وفي جرمه . وحكى الطبري أَنَّ مِنَ العرب مَنْ يكسر العين مِن معنى الفدية ، فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

والضمير في قوله : [وَلاَهُمْ] ، عائد على الكافرين الذين اقتضتهم الآية ، ويحتمل أن يعود على النفْسَيْن المتقدم ذكرهما ، لأن اثنين جمع(٢) ، أو النفس للجنس ، وهو جمع .

وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا ، فإن الواقع في شدة مع آدمي لا يتخلص إلا بأن يشفع له ، أو ينصر ، أو يفتدي .

---

(١) أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : [وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نفسٌ عنْ نفسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ منها شَفَاعَةٌ] النفس الكافرة لا كل نفس .

(٢) لحديث : (اثنان فما فوق جماعة) وفي « الكوكب الساطع» : وفي أقل الجمع مذهبان : أصحهما ثلاثة لا اثنان » .

وقوله تعالى : [وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آل فِرْعَوْنَ] أي خَلَّصْنَاكُمْ ، (وآل) أَصله أَهل ، قلبت الهاءُ أَلفاً كما عمل في ماءٍ ، ولذلك ردها التصغير إلى الأَصل فقيل : أُهَيْلٌ وَمُوَيْهٌ ، وقد قيل في (آل) : إنه اسم غير أَهل ، أَصله أَول ، وتصغيره أُوَيْل ، وإنما نسب الفعل إلى آل فرعون وهم إنما كانوا يفعلونه بأَمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأَنفسهم ، وقال الطبري رحمه الله : ويقتضي هذا أَنَّ مَنْ أَمَرَهُ ظَالِمٌ بقتل أَحد فقتله المأْمور فهو المأْخوذ به [١] .

وآل الرجل : قرابته وشيعته وأَتباعه ، ومنه قول أَراكه الثقفي[٢] :

فَلا تَبْكِ مَيْتاً بعْدَ مَيْت أَجَنَّهُ عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وآل أَبي بَكْرِ

يعني المؤمنين الذين قبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأَشهر في (آل) أَن يضاف إلى الأَسماءِ ، لا إلى البقاع والبلاد ، وقد يقال : آل مكة ، وآل المدينة ، (وفرعون) اسم لكل من مَلَكَ مِنَ العمالقة مصر ، وفرعون [٣] موسى قيل : اسمه مصعب بن الريان ، وقال ابن اسحق : اسمه الوليد بن مصعب ، ورُوي أنه كان من أَهل اصطخر ، ورد مصر فاتفق له فيها الملك ، وكان أَصل كون بني إسرائيل بمصر نزولُ إسرائيل بها زمن ابنه يوسف عليهما السلام .

(١) أي يقتضي نسبة الله الفعل إلى آل فرعون — وهم إنما كانوا يفعلون بأمره — أنَّ مَنْ أَمَرَهُ ظالمٌ بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به ، أي لأنه مباشر ، والآمر متسبب ، ولذلك أغرق الله فرعون ومن معه ، أي أغرق الآمر والمباشر ، وقد اختلف الفكر الإسلامي في هذه المسألة على تفصيل معروف في موضعه ، وفقه المالكية لخَّصه صاحب « المختصر » بقوله : « والمتسبب مع المباشر كمُكْرِه ومُكْرَه » .

(٢) عندهم أراكة ، وابن أراكة ، أمَّا أراكة : فهو ابن عبد الله بن سفيان . شاعر مُحْسِنٌ وأما ابن أراكة : فهو يزيد بن عمر الأشجعي — شاعر خبيث . وأجنه : ستره وأخفاه في التراب .

(٣) أي المذكور هنا .

و [يَسُومُونَكُمْ] معناه : يأْخذونكم به ، ويُلزِمونكم إياه ، ومنه المساومة بالسلعة ، وسَامه خِطَّةَ خَسْف ، ويسومونكم إعرابه رفع على الإستئناف . والجملة في موضع نصب على الحال ، أي سائمين لكم سوءَ العذاب (١) ، ويجوز ألا تقدر فيه الحال ، ويكون وصف حال ماضية ، وسوءَ العذاب أشده ، وأصعبه قال السدي كان يصرفهم في الأَعمال القذرة ، ويذبح الأَبناءَ ، ويستحي النساءَ . وقال غيره : صرفهم على الأَعمال : الحرث ، والزراعة ، والبناءِ ، وغير ذلك ، وكان قومه جنداً ملوكاً .

وقرأَ الجمهور : [يُذَبِّحُونَ] بشد الباءِ المكسورة على المبالغة ، وقرأَ ابنُ محيصن [يذْبَحُونَ] بالتخفيف ، والأَول أَرجح ، إذ الذبح متكرر .

وكان فرعون على ما رُوي قد رأَى في منامه ناراً خرجت من بيت المقدس فأَحرقت بيوت مصر ، فأُولت له رؤياه : أَنَّ مولوداً من بني إسرائيل ينشأُ فيخرب ملك فرعون على يديه (٢) ، وقال ابن اسحق ، وابن عباس ، وغيرهما : إن الكهنة والمنجمين قالوا لفرعون : قد أَظالك زمن مولود من بني إسرائيل يخرب ملكك ، وقال ابن عباس أَيضاً : إن فرعون وقومه تذاكروا وعد الله لإبراهيم أَن يجعل في ذريته أَنبياءَ

(١) عبارة أبي (ح) : « يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة ، وهي حكاية حال ماضية . ويحتمل أن تكون في موضع الحال ، أي سائميكم ، وهي حال من آل فرعون وهي أوضح وأفصح » .

(٢) وقيل : إن سبب سومه بني إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم على ما روي في التوراة خوفه من نموهم وكثرتهم ، وكانت أرض مصر قد امتلأت منهم بسبب انفساح المجال أمامهم أيام يوسف عليه السلام ، ونزولهم في أفضل الأراضي ، فتكاثروا ، وتناسلوا ، حتى خاف منهم المصريون فلما اعتلى الفراعنة ملك مصر ساموهم سوء العذاب ، وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قصه الله علينا ، وعلى ما في التوراة يكون هذا من الأنظمة الشاذة الجائرة في تحديد النسل وتنفيذه في نوع خاص .

وملوكاً ، فأمر عند ذلك بذبح الذكور من المولودين في بني اسرائيل ، ووكل بكل عشر نساءٍ رجلا يحفظ من يحمل منهن ، وقيل : وكل بذلك القوابل .

وقالت طائفة : معنى يذبحون أبناءكم : يذبحون الرجال ، ويسمون أبناءً لمَّا كانوا كذلك (١) ، واستدل هذا القائل بقوله تعالى : [نِسَاءَكُمْ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصحيح من التأْويل أن الأَبناءَ هم : الأَطفال الذكور ، والنساءُ هم : الأَطفال الإناث . وعبر عنهن باسم النساءِ بالمآل (٢) وليَذْكُرَهُنَّ بالإسم الذي في وقته ، يُسْتَخْدَمْنَ وَيُمْتَهَنَّ ، ونفس الاستحياءِ ليس بعذاب ، ولكن العذاب بسببه وقع الاستحياءُ ، و [يُذَبِّحُونَ] بدل من [يَسُومُونَ] .

وقوله تعالى : [وَفِي ذَلِكُمْ] إشارة إلى جملة الأَمر ، إذ هو خبر ، فهو كمفرد حاضر ، و (بلاءٌ) معناه : امتحان واختبار ، ويكون البلاءُ في الخير والشر ، وقال قوم : الإشارة بـ [ذلكم] إلى التنجية ، فيكون البلاءُ على هذا في الخير ، أَي وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم ، وقال جمهور الناس : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبلاءُ هنا في الشر ، والمعنى : وفي الذبح مكروه وامتحان .

وحكى الطبري وغيره في كيفية نجاتهم : أَن موسى عليه السلام أُوحي إليه أَن يسري من مصر ببني إسرائيل ، فأَمرهم موسى أَن يستعيروا

(١) أي أن التسمية مجازية باعتبار ما كان .

(٢) أي باعتبار ما يؤول إليه أمرهن ، ولأن استخدامهن وامتهانهن إنما يكون عندما يكن نساء ، فعبر عن البنات بالنساء لما ذكر ، واستحياؤهن ليس بعذاب ، ولكنه يؤول إلى العذاب ، أي إلى إرهاقهن في أعمال شاقة .

الحلي والمتاع من القبط ، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل ، فسرى بهم موسى من أول الليل ، فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الديكة ، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك حتى أصبح ، وأمات الله – تلك الليلة – كثيراً من أبناءِ القبط ، فاشتغلوا في الدفن ، وخرجوا في الإتباع مُشَرِّقين ، وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه ، وكانت عدة بني إسرائيل نيفاً على ستمائة ألف ، وكانت عدة فرعون (١) ألف ألف ومائتي ألف . وحُكي غير هذا مما اختصرته لقلَّة ثبوته ، فلما لحق فرعون موسى ظن بنو إسرائيل أنهم غير ناجين ، فقال يوشع ابن نون لموسى : أين أُمِرْتَ ؟ فقال : هكذا ، وأشار إلى البحر ، فركض يوشع فرسه فيه حتى بلغ الغمر ثم رجع ، فقال لموسى : أين أُمرت فوالله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ ؟ فأشار إلى البحر ، وأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر ، وأوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك ، فبات البحر تلك الليلة يضطرب ، فحين أصبح ضرب موسى البحر وكناه أبا خالد ، فانفرق ، وكان ذلك في يوم عاشوراءَ (٢).

---

(١) أي عدة أتباع فرعون .

(٢) ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فرآى اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا اليوم ؟ قالوا : هذا يوم صالح ، نجّى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم . فصامه موسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن أحقُّ بموسى منكم ، فصامه ، وأمر بصومه » ا هـ . ففي يوم عاشوراء وقع إنجاء بني اسرائيل وإغراق فرعون وأتباعه .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

[فَرَقْنَا] معناه : جعلناه(١) فِرَقاً ، وقرأ الزهري : [فَرَّقْنا] بتشديد الراء ، ومعنى [بِكُمْ] بسببكم ، وقيل : لمَّا كانوا بين الفِرَقِ وقت جوازهم فكأنه بهم فُرِق ، وقيل : معناه لكم ، والباءُ عوض اللام ، وهذا ضعيف .

و [ٱلْبَحْرَ] هو بحر القُلْزُم ، ولم يفرق البحر عرضاً جَزْعاً(٢) من ضفة إلى ضفة ، وإنما فرق من موضع إلى موضع آخر في ضفة واحدة ، وكان ذلك الفرق بقرب موضع النجاة ، ولا يلحق في البر إلا في أيام

---

(١) أي : فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه طرق ومسالك على عدد الأسباط الإسرائيلية . وكان ذلك بعصا [موسى] كما يشهد بذلك قوله تعالى: [أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فانْفَلَقَ فكانَ كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العَظِيم] وهذا أصح وأقوى مما بعده . وقال في المصباح : « فرقتْ بين الشيء فرقاً من باب قَتَل فصلت أبعاضه ، وفرقت بين الحق والباطل فصلت أيضاً ، هذه هي اللغة العالية وبها قرأ السبعة قوله تعالى: [فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِين] ، وفي لغة من باب ضرب ، وقرأ بها بعض التابعين وقال ابن الأعرابي : فَرَقْتُ بين الكلامين فافترقا مخفف ، وفَرَّقْتُ بين العبدين فتفرقا مثقل ، فجعل المخفف في المعاني والمثقل في الأعيان ، والذي حكاه غيره أنهما بمعنى واحد ، والتثقيل مبالغة » . ثم قال : « والفِرقة بالكسر من الناس وغيرهم ، والجمع فِرَقٌ مثل سِدرة وسِدر ، والفرق بحذف الهاء مثل الفِرْقَة ، وفي التنزيل : (فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيم) والجمع أفراق مثل حِمْل وأحْمَال ، والفريق كذلك .

(٢) يقال : جَزَعْتُ الوادي جَزْعاً من باب نَفَع : قطعته إلى الجانب الآخر ، والمراد أن الفرق كان طولا لا عرضاً .

كثيرة بسبب جبال وأوعار حائلة . وذكر العامري أن موضع خروجهم من البحر كان قريباً من برية فلسطين وهي كانت طريقهم .

وقيل : انفلق البحر عرضاً ،وانفرق البحر على اثني عشر طريقاً ، طريق لكل سبط ، فلما دخلوها قالت كل طائفة : غرق أصحابنا ، وجزعوا ، فقال موسى : اللهم أعني على أخلاقهم السيئة ، فأوحى الله إليه أن أدر عصاك على البحر ، فأدارها فصار في الماء فتوح كالطاق يرى بعضهم بعضاً وجازوا ، وجبريل صلى الله عليه وسلم في ساقتهم على ماذيانَة [1] يحث بني إسرائيل ويقول لآل فرعون : مهلا حتى يلحق آخركم أولكم ، فلما وصل فرعون إلى البحر أراد الدخول فنفر فرسه ، فتعرض له جبريل بالرَّمكَة[2] فاتبعها الفرس ، ودخل آل فرعون وميكائيل يحثهم ، فلما لم يبق إلا ميكائيل في ساقتهم على الضفة وحده انطبق البحر عليهم فغرقوا .

و [تَنْظُرونَ] قيل : معناه بأبصاركم لِقُرْب بعضهم من بعض ، وقيل : معناه ببصائركم للاعتبار ، لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار ، وقيل : إن آل فرعون طَفَوا على الماء فنظروا إليهم ، وقيل : المعنى وأنتم بِحَالِ مَنْ ينظر لو نظر ، كما تقول : هذا الأمر منك بمرْأى ومَسْمَع ، أيْ بحال تراه وتسمعه إن شئت .

قال الطبري رحمه الله : وفي إخبار القرآن على لسان محمد صلى

(١) لعلها الرَّمَكَةُ المذكورة بعد . وفي القاموس : والماذيانات — وتفتح ذالها — : مسايل الماء ، أو ما ينبت على حافتي مسيل الماء ، أو ما ينبت حول السواقي — ويقال : أمذى الفرسَ : أرسله يرعى في الماذيانات .

(٢) الرَّمَكَة : الأنثى من البراذين ، والجمع رِمَاك ورَمَكات وأرْماك أيضاً .

الله عليه وسلم بهذه المغيَّبات التي لم تكن مِنْ عِلم العرب ، ولا وقعت إلا في خَفِي (١) على بني إسرائيل دليلٌ واضح عند بني إسرائيل ، وقائمٌ عليهم بِنُبُوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ الجمهور : [وَاعَدْنَا] ، وقرأ أبو عمرو [وَعَدْنَا] ،ورجحه أبوعبيد ، وقال : إنَّ المواعدة لا تكون إلا من البشر (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس هذا بصحيح لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة(٣) .

و [مُوسَى] اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف، والقِبْطُ على ما يُرْوى يقولون للماءِ : مُو ، وللشجر : سَا ، فلما وُجد (موسى) في التابوت عند ماءٍ وشجر سُمِي موسى .

قال ابن اسحق : هو موسى ، بن عمران ، بن يصهر ، بن قاهت ، ابن لاوي ، بن يعقوب ، بن إسحق ، بن إبراهيم الخليل .

(١) وفي بعض النسخ : إلا في حقّ بني إسرائيل .

(٢) وأما من الله فإنما هو التفرد بالوعد ، وعلى هذا جاء سياق القرآن ، كقوله تعالى : [وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ] . وكقوله تعالى : [وإذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ]، وقد وافق أبا عبيد على هذا أبو حاتم ومكي ، وإنما اتفقوا على ذلك نظراً إلى أصل المُفَاعلة وأنها تفيد الاشتراك في الفعل ، وتكون من كل واحد من المُتَوَاعِدَيْنِ ونحوهما .

(٣) ردّ لما قاله أبو عبيد ، وحاصله : أن المفاعلة قد تأتي لواحد وهو كثير في كلام العرب كقولهم : داويت العليل ، وعاقبت اللص ، وطارقت النعل ، وقد تكون هنا من اثنين بمعنى أن الله وعد موسى الوحي ، وموسى وعد الله المجيء للميقات — أو يكون الوعد من الله — وقبوله كان من موسى . والقبول يشبه الوعد — وقراءة الألف هي قراءة الأكثر ، ولا وجه لترجيح قراءة البصري على غيرها لأن كلا منهما متواتر ، فهما في الصحة سواء ، وقد سبق تخريجها على وجه صحيح مقبول ، ولا غضاضة في كون الآدمي يعد الله تعالى بمعنى أنه يعاهده ويلتزم أمره .

ونصب [أَرْبَعِينَ] على المفعول الثاني ، ولا يجوز نصبها على الظرف في هذا الموضع ، وهي فيما رُوي ذو القعدة وعشر ذي الحجة . وخصَّ اللَّيالي بالذكر دون الأَيام إذا الليلة أَقدم من اليوم ، وقبله فى الرتبة ولذلك وقع بها التاريخ(١) .

قال النقاش : وفي ذلك إشارة إلى صلة الصوم ، لأَنه لو ذكر الأَيام لأَمكن أَن يُعتقد أَنه كان يفطر بالليل ، فلما نص على الليالى اقتضت قوة الكلام أَنه عليه السلام واصل أَربعين ليلة بأَيامها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

حدثني أَبي رضي الله عنه ، قال : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أَبا الفضل الجوهري رحمه الله يعظ الناس بهذا المعنى في الخلوة بالله ، والدنو منه في الصلاة ونحوه ، وأَن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقول : أَين حال موسى في القرب من الله ، ووصال ثمانين من الدهر من قوله –حين سار إلى الخضر– لفتاه في بعض يوم : [آتِنَا غَدَاءَنَا] ؟ (٢) .

---

(١) قال في الكافية :

وراع في تاريخك الليالي لسبقها بليلة الهلال .

(٢) معناه أن موسى عليه السلام مشى أربعين يوماً لمناجاة ربه ، ولم يحتج فيها إلى طعام ، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع . فقال : [آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لقينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا]، والإشارة في ذلك أنه كان طالب علم ، وطالبُ العلم من شأنه أن يحتمل كل مشقة ، ولا يبالي بصيف ولا شتاء ، ولا ذل ولا جوع ، ومن هذه القضية أخذ علماء الصوفية الوصال ، وأن أفضله أربعون يوماً ، قلنا : ويأتي عند ابن عطية في سورة الكهف أن والده حدثه عن أبي الفضل الجوهري الواعظ بمصر أنه قال في مجلس وعظه : من صحب أهل الخير عادت عليه بركتهم ، هذا كلبٌ صحب قوماً صالحين فكان من بركتهم عليه أن ذكره الله في القرآن ولا يزال يتلى على الألسنة أبداً ، ولذلك قيل : من جالس الذاكرين انتبه من غفلته ، ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته .

وكلُّ المفسرين على أَن الأَربعين كلَّها ميعاد . وقال بعض البصريين : وعده رأْس الأَربعين ليلة ، وهذا ضعيف . وقوله : [ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ] ، قرأ أَكثر السبعة بالإدغام ، وقرأَ ابن كثير ، وعاصم في رواية حفص عنه بإظهار الذال . وثُمَّ للمهلة ، ولتدل على أَن الاتخاذ بعد المواعدة . واتَّخَذَ وزنُه افتعل من الأَخْذ ، قال أَبو علي : هو من [تَخِذَ] لا من [أَخَذَ](١) ، وأَنشد المزق :

وَقَدْ تَخذَتْ رِجْلي لَدَى جَنْبِ غَرْزِهَا نَسِيفاً كأُفْحُوص القَطَاة المُطَرِّق(٢)

ونُصب [ٱلْعِجْلَ] باتخذتم ، والمفعول الثاني محذوف : اتخذتم العجل إلٰهاً ، واتخذ قد يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : [يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا](٣) ، وقد يتعدى إلى مفعولين أَحدهما هو الآخر في المعنى ، كقوله تعالى : [اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً](٤) ، وكهذه الآية وغيرها ، والضمير في [بَعْدِه] يعود على موسى ، وقيل : على انطلاقه للتكليم ، إذ المواعدة تقتضيه ، وقيل : على الوعد .

وقصص هذه الآية : أَن موسى صلى الله عليه وسلم لما خرج ببني إسرائيل من مصر قال لهم : إن الله تعالى سيُنْجِيكُمْ من آل فرعون ، ويُنيلكم حليهم ومتاعهم الذي كان أَمرهم باستعارته ، ورُوي أَنهم

(١) مسألة (اتَّخذ) عند أبي علي الفارسي مُخَرَّجَة على أن التاء الاولى أصلية إذ قالت العرب (تَخِذَ) بمعنى (أَخَذَ) ، كما في بيت المُمَزّق العبدي ، وقد حصّل أبو (ح) في المسألة أقوالا أربعة . انظره في البحر المحيط .

(٢) النسيف : أثر الكدْم وأثر ركض الرجل بجنبي البعير — والأفحوص : مجثم القطاة لأنها تفحصه قبل أن تبيض فيه . ويقال : طرّقت القطاة إذا حان خروج بيضها .

(٣) من الآية (٢٧) من سورة (الفرقان) .

(٤) من الآية (١٦) من سورة (المجادلة) .

استعاروه برأيهم[١] ، فنفلهم الله ذلك بعد خروجهم ، وقال لهم موسى عن الله تعالى : إنه ينزل عليَّ كتاباً فيه التحيل والتحريم والهدى لكم ، فلما جازوا البحر طالبوا موسى بما قال لهم من أمر الكتاب ، فخرج لميعاد ربه وحده ، وقد أعلمهم بالأربعين ليلة ، فعدوا عشرين يوماً بعشرين ليلة ، ثم قالوا : هذه أربعون من الدهر ، وقد أخلفنا الموعد ، وبدأ تعنتهم وخلافهم ، وكان السامري رجلا من بني إسرائيل يُسَمَّى موسى بن ظفر ، وقيل : لم يكن من بني إسرائيل ، كان غريباً فيهم ، وكان قد عرف جبريل عليه السلام وقت عبْرهم البحر ، فقالت طائفة : أنكر هيئته فعرف أنه مَلَك . وقالت طائفة : كانت أُم السامري ولدته عام الذبح [١] فجعلته في غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل صلى الله عليه وسلم يغذوه بأصابع نفسه ، فيجد في إصبع لبنا ، وفي إصبع عسلا ، وفي إصبع سمناً ، فلما رآه وقت جواز البحر عرفه فأخذ من تحت حافر فرسه قبضة تراب وأُلقِيَ في روعه أنه لن يُلْقِيها على شيء ويقول له : كُنْ إلا كان ، فلما خرج موسى لميعاده ، قال هارون لبني إسرائيل : إن ذلك الحَلي والمتاع الذي استعرتم من القبط لا يحل لكم ، فجيئوا به حتى تأكله النار التي كانت العادة أن تنزل على القرابين ، وقيل : بل أَوْقد لهم ناراً ، وأمرهم بطرح جميع ذلك فيها ، فجعلوا يطرحون ، وقيل : بل أمرهم أن يضعوه في حفرة دون نار

(١) هذا هو الأشبه بموسى عليه السلام ، ويعضده ما جاء في سورة (طه) ، حين قالوا : [وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوزاراً مِن زينَة القَوْم] فظاهره أنهم أعلموه بما لم يتقدم له به علم ، أشار إليه (خ) .

(٢) أي العام الذي أمر فيه فرعون بذبح أبناء بني إسرائيل .

حتى يجيء موسى ،وجاء السامري فطرح القبضة وقال : [١] كن عجلا .

وقيل : إن السامري كان في أصله من قوم يعبدون البقر ، وكان يعجبه ذلك [٢] ، وقيل : بل كانت بنو إسرائيل قد مرت مع موسى على قوم يعبدون البقر ، فقالوا يا موسى : اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة ، فوعاها السامري ، وعلم أَن مِنْ تلك الجهة يُفتنون ، ففتنت بنو إسرائيل بالعجل ، وظلت منهم طائفة يعبدونه ، فاعتزلهم هارون بمن تبعه ، فجاء موسى من ميعاده فغضب حسبما يأتي قصصه في موضعه من القرآن إن شاء الله ، ثم أَوحى الله إليه أَنه لن يتوب على بني إسرائيل حتى يقتلوا أَنفسهم ، ففعلت بنو إسرائيل ذلك .

فَرُوي أَنهم لبسوا السلاح ،من عَبَدَ منهم ومن لم يَعْبُدْ [٣] ، وأَلقى الله عليهم الظلام فَقَتَلَ بعضهم بعضاً ، يقتل الأَب ابنه والأَخ أَخاه ، فلما استحر فيهم القتل وبلغ سبعين أَلفاً عفا الله عنهم ، وجعل من مات منهم شهيداً ، وتاب على البقية ، فذلك قوله [ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ] .

وقال بعض المفسرين : وقف الذين عبدوا العجل صفاً ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقالت طائفة : جلس الذين عبدوا بالأَفنية ، وخرج يوشع بن نون ينادي : ملعون من حل حبوته وجعل الذين لم يعبدوا يقتلونهم ، وموسى في خلال ذلك يدعو لقومه ، ويرغب في العفو عنهم ، وإنما عوقب الذين لم يعبدوا بقتل أَنفسهم

(١) أي للحلي الذي أُلقي في الحفرة ، كن عجلا فكان عجلا من ذهب .

(٢) إشارة إلى بيان وجه اختيار العجل دون غيره من الحيوانات .

(٣) أي : من عبد العجل ، ومن لم يعبده .

على أَحد الأَقوال ، أَو بقتل قرابتهم على الأَقوال الأُخر لأَنهم لم يغيروا المنكر حين عُبِدَ العجل ، وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أَن يقاتلوا من عَبَدَه .

[وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ] ، مبتدأٌ وخبر في موضع الحال ، وقد تقدم تفسير الظلم (١) .

والعفْو تغطية الأَثر ، وإذهاب الحال الأُولى من الذنب أَو غيره ، ولا يستعمل العفو بمعنى الصفح إلافي الذنب ، وعفَا عنهم عزَّ وجل ، أَي عمَّنْ بقي منهم لم يقتل . و [لَعَلَّكُمْ] ، تَرَجٍّ لهم في حقهم ، وتوقُّع منهم ، لا في حق الله عز وجل ، لأَنه كان يعلم ما يكون منهم .

وقوله تعالى : [وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى] الآية ، [إِذ] عطف على ما ذكر من النعم ، و [الكِتَابَ] هو التوراة بإجماع من المتأَولين ، واختلف في [الفُرقَان] هنا – فقال الزجاج وغيره : هو التوراة كرر المعنى لاختلاف اللفظ ، ولأَنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل ، ولفظة الكتاب لاتعطي ذلك (٢) . وقال آخرون : الكتاب التوراة ، والفرقان سائر الآيات التي أُوتي موسى صلى الله عليه وسلم ، لأَنها فرقت بين الحق والباطل. وقال آخرون : الفرقان النصر الذي فرق بين حالهم وحال آل فرعون بالنجاة والغرق ، وقال ابن زيد : الفرقان انفراق البحر له ، حتى صار

---

(١) في تفسير قوله تعالى : [فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ] .

(٢) هذا هو الحق الظاهر لقوله تعالى : [وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهَارُون الفُرقان وضياءً وذِكْراً للمُتَّقِين] . وما قاله ابن زيد ضعيف لأن فرْق البحر سبق في قوله تعالى : [وإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ] الآية .

فرقاً ، وقال الفراءُ وقطرب : معنى هذه الآية آتينا موسى الكتاب ، ومحمداً الفرقان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف (١) .

و [لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] تَرَجٍّ وَتَوَقُّعٌ مثل الأول (٢)

قوله عز وجل :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

هَذَا الْقَوْلُ مِنْ موسى صلى الله عليه وسلم كان بأمر من الله تعالى ، وحُذف الياءُ في (يا قومي) لأن النداء موضع حذف وتخفيف ، والضمير في [اتِّخَاذِكُم] في موضع خفض على اللفظ ، وفي موضع رفع بالمعنى ، و [الْعِجْلَ] لفظة عربية اسم لولد البقرة ، وقال قوم : سمي عجلا لأنه استعجل قبل مجيء موسى عليه السلام ، وليس هذا القول بشيءٍ (٣) ،

(١) أي لأنه لادليل على المحذوف ، ولأن الأصل في العطف المشاركة في الحكم إذا كان العطف بالحروف المشاركة ، ولأن الفرقان لا يختص بالقرآن .

(٢) المقرر عند النحاة أنه إن كان متعلق لعل محبوباً كانت للترجي ، وإن كان مكروها كانت للتوقع ، والشكر والهداية هنا من الأمور المحبوبة ، فينبغي أن يعبر هنا بالترجي . قاله أبو (ح). « البحر المحيط » ١/٢٠٣ .

(٣) لأن العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر .

واختلف هل بقي العجل من ذهب ؟ ، فقال ذلك الجمهور : وقال الحسن ابن أَبي الحسن : صار لحْماً ودماً ، والأَول أَصح . وتوبوا : معناه : ارجعوا عن المعصية إلى الطاعة . وقرأَ الجمهور [بَارِئكُمْ] باظهار الهمزة وكسرها ، وقرأَ أَبو عمرو [بَارِئْكُمْ] بإسكان الهمزة . ورُوي عن سيبويه اختلاس الحركة وهو أَحسن ، وهذا التسكين يحسن في توالي الحركات ، وقال المبرد : لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب ، وقراءَة أَبي عمرو (بارئْكم) لحن [١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد رُوي عن العرب التسكينُ في حرف الإعراب ، قال الشاعر :

إذا اعْوجَجْنَ قُلْتَ صَاحِبْ قُوِّم[٢] . . . .

وقال امرؤُ القيس :

فاليَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْماً مِنَ اللهِ وَلا وَاغِلِ[٣]

وقال آخر :

قالت سليمى : اشْترْ لَنَا سَويقَا [٤] . . . .

(١) تلحين أبي العباس لأبي عمرو البصري لا يلتفت إليه ، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأن لغة العرب توافقه ، وقد جلب ابن عطية رحمه الله ما يكفي من الشواهد ، فإنكار المبرد لها هو المُنْكر ، لا أن الذين اعترضوا على المبرد خلطوا ما حركته إعراب بما حركته بناء .

(٢) تمامه : بالدَّوِّ أمثال السَّفين العُوَّم

والدو : الصحراء ، والبيت منسوب إلى أبي نخيلة الراجز .

(٣) كان قد حرم على نفسه شرب الخمر حتى يأخذ الثأر ، وبعد أن أخذه أصبح الخمر مباحاً في زعمه فقال : فاليوم أشْرب الخ . وأشرب فعل معرب ، وقد سكّن آخِرَه . وقد جاء في اللسان : واحتقب فلان الاثم كأنه جمعه واحتقبه من خلفه ، واحتقبه واستحقبه بمعنى ، أي احتمله ، والواغل هنا هو الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه .

(٤) تمامه : وَهَاتِ خُبْزَ البُرِّ أو دقيقا – ينسب هذا البيت للعذامر الكندي ، وهو من=

وقال الآخر :

. . . . وَقَدْ بَدَا هَنُكِ مِنَ المِئْزَرِ(١)

وقال جرير :

. . . . وَنَهْرُ تِيرَى ومَا تَعْرِفْكُمُ العربُ(٢)

وقال وضاح اليمن (٣) :

إِنَّمَا شِعْرِي شَهْدٌ قد خُلِطَ بِجُلْجُلان .

ومن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحُجته أَن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب . قال أَبو علي : وأَما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات .

وقرأَ الزهري : بارِيكم بكسر الياءِ من غير همز (٤) ورُوِيَتْ عن نافع ، وقرأَ قتادة : (فأَقيلوا أَنفسكم) ، وقال : هي من الاستقالة . قال أَبو الفتح : اقتال هذه افتعل ، يحتمل أَن يكون عينها واوا كاقتاد ، ويحتمل أَن يكون ياءً كاقتاس(٥) .

=مشطور الرَّجَز . انظر شرح الشافية لابن الحاجب. وفي رواية (وَهَاتِ بُرَّ البَخْسِ أو دَقِيقَا) والبَخْس الذي يزرع بماء السماء .

(١) أوله : (رُحْتِ وفي رجليكِ ما فيهما) ، وهو للأقيشر الأسدي كما في خزانة الأدب .

(٢) أوله : سيروا بني العَمِّ فالأهوازُ مَنزِلُكُمْ . . . .

قال في القاموس : ونهر تيرى كضيزى بالأهواز .

(٣) من مشاهير شعراء الغزل ، تشبب بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك فأمر الوليد بدفنه حياً . واسمه عبد الرحمن بن إسماعيل ، سمي بالوضاح لجماله .

(٤) هذه القراءة لها تخريجان وكلاهما شاذ ، انظر أبا (ح) . «البحر المحيط» ٢٠٧/١ .

(٥) عبارة أبي (ح) : «وقرأ قتادة فيما نقل المهدوي وابن عطية والتبريزي وغيرهم : «فأقيلوا أنفسكم» ، وقال الثعلبي : قرأ قتادة : «فاقتَالوا أنفسكم» ، فأما فأقيلوا فهو أمر من الإقالة ، وكأن المعنى إن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه=

والتصريف يضعف أن يكون من الاستقالة ، ولكن قتادة رحمه الله ينبغي أن يُحسن الظن به في أنه لم يُورد ذلك إلا بحجة عنده .

وقوله تعالى : [فَتَابَ عَلَيْكُمْ] ، قبله محذوف تقديره : ففعلتم ، وقوله : [عَلَيْكُمْ] ، معناه : على الباقين ، وجعل الله تعالى القتل لمن قُتل شهادة ، وتاب على الباقين ، وعفا عنهم . قال بعض الناس [فاقْتُلُوا] في هذه الآية معناه بالتوبة ، وإماتة عوارض النفوس من شهوة وتعنّت وغضب(١) ، واحتج بقوله عليه السلام في الثوم والبصل : « فَلْتُمِتْهُمَا طَبْخاً » .

وبقول حسان :

. . . . قُتِلَتْ قُتِلْتَ فَهَاتِهَا لَمْ تُقْتَلِ(٢)

وقوله تعالى : [وإذْ قُلْتُمْ يا مُوسى] ، يريد السبعين الذين اختارهم موسى ، واختُلف في وقت اختيارهم ، فحكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل ، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل . وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر ، وطلب بالميعاد ، والأول أصح.

وقصة السبعين أن موسى صلى الله عليه وسلم لمّا رجع من تكليم

=من عبادة العجل ، وقد هلكت ، فأقيلوها بالتوبة، والتزام الطاعة ، وأزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهار الطاعات ، وأما فاقْتالوا أنفسكم فقالوا : هو افتعل بمعنى استفعل ، أي فاستقيلوها ، والمشهور استقال لا اقتال ، قال ابن جني : يحتمل أن يكون عينها واواً كاقتاد ، ويحتمل أن يكون ياء كاقتاس » ا هـ .

(١) في القول الأول : القتل حقيقيٌّ بمعنى إزهاق الروح ، وفي القول الثاني : القتل معنوي بمعنى إماتة الأهواء والشهوات ، والأول هو الظاهر ، وقال به أكثر الناس ، وهناك من يقول : فاقتلوا أنفسكم أي استسلموا لمن يقتلكم ، وقد حكي أنّ الذين لم يعبدوا العجل قتَلوا الذين عبدوه صبراً واستسلاماً . فتكون الآراء في القتل ثلاثة ، والأول هو الظاهر .

(٢) نص البيت كله : إن التي ناولتني فرددْتُها قُتِلت قُتِلْتَ فهاتِها لمْ تُقْتَلِ .

الله ، ووجد العجل قد عُبد ، قالت له طائفة ممن لم يعبد العجل : نحن لم نكفر ، ونحن أصحابك ، ولكن أَسْمِعْنَا كلام ربك ، فأَوحى الله إليه أَن اختر منهم سبعين شيخاً ، فلم يجد إلا ستين ، فأَوحى الله إليه أَن اختر من الشباب عشرة ، ففعل ، فأَصبحوا شيوخاً ، وكان قد اختار ستة من كل سبط ، فزادوا اثنين على السبعين ، فتشاحوا فيمن يتأَخر ، فأَوحى الله إليه أَن من تأَخر له أَجر مثل من مضى ، فتأَخر يوشع بن نون ، وطالوت بن يوفنا ، وذهب موسى عليه السلام بالسبعين بعد أَن أَمرهم أَن يتجنبوا النساءَ ثلاثاً ويغتسلوا في اليوم الثالث ، واستخلف هارون على قومه ، ومضى حتى أَتى الجبل فأُلقي عليهم الغمام . قال النقاش وغيره : غشيتهم سحابة ، وحيل بينهم وبين موسى بالنور فوقعوا سجوداً . قال السدي وغيره : وسمعوا كلام الله يأْمر وينهى فلم يطيقوا سماعه ، واختلطت أَذهانهم ، ورغبوا أَن يكون موسى يسمع ويعبر لهم ففعل ، فلما فرغ وخرجوا بدَّلَتْ منهم طائفةٌ ما سمعتْ من كلام الله ، فذلك قوله تعالى : [وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَه](١) .

واضطرب إيمانُهم ، وامتحنهم الله بذلك ، فقالوا : [لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً](٢) ولم يطلبوا من الرؤية محالا ، أَما إنه عند

---

(١) من الآية (٧٥) من سورة (البقرة) .

(٢) من الآية (٥٥) من سورة البقرة. ومعنى «لن نؤمن لك» أي فيما جئت به من التوراة ، وإلا فهم مؤمنون بموسى ، يقال : آمن به وآمن له ، أيْ أقرّ واعترف بما جاء به من أمر خاص.

وقد اختلف الناس في جواز رؤْية الله تعالى ، فمنهم من أنكر ذلك في الدنيا والآخرة ، ومنهم من أجازها فيهما معاً ، إلا أنها لا تقع في الدنيا وتقع في الآخرة ، ودليل جوازها طلب=

أهل السنة ممتنع في الدنيا من طريق السمع ـ فأخذتهم حينئذ الصاعقة فاحترقوا وماتوا موت هُمُود يَعْتَبِرُ به الغير . وقال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ، ثم رُدُّوا لاستيفاء آجالهم ، فحين حصلوا في ذلك الهُمُود جعل موسى يناشد ربه فيهم ، ويقول : أَيْ ربِّ . كيف أرجع إلى بني إسرائيل دونهم فيهلكون ولا يؤمنون بي أبداً ، وقد خرجوا معي وهم الأخيار ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يعني : وهم بحال الخير وقتَ الخروج (١) وقال قوم : بل ظن موسى عليه السلام أن السبعين إنما عوقبوا بسبب عبادة العجل ، فذلك قوله: [أَتُهْلِكُنَا] ، يعني السبعين [بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَّا] ؟ يعني عبدة العجل وقال ابن فورك : يحتمل أن تكون معاقبة السبعين لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : أرنا ، وليس ذلك من مقدور موسى صلى الله عليه وسلم .

و [جَهْرَةً] مصدر في موضع الحال ، والأظهر أنها من الضمير في [نرى] ، وقيل : من الضمير في (نؤمن) ، وقيل : من الضمير في [قُلْتُمْ](٢) . والجهرة : العلانية ومنه : الجهر ضد السر ، وجَهَرَ الرجل الأمر كَشَفَهُ .

وقرأ سهل بن شعيب ، وحميد بن قيس : [جَهَرة] بفتح الهاء ،

=موسى عليه السلام لها ، وهو لا يطالب المحال ، ودليل عدم وقوعها منعها وعدم الإجابة إليها ، ودليل وقوعها في الآخرة قوله تعالى : [وجُوهٌ يومَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ] وقد تكلف المعتزلة فأولوا المعنى إلى النعمة ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

(١) وأما بعده فقد اضطرب إيمانهم ، وذهب خيرهم ، ولذلك أخذتهم الصاعقة .

(٢) وعليه فالتقدير : وإذ قلتم جهرة ياموسى ، فيكون في الكلام تقديم وتأخير .

وهي لغة مسموعة عند البصريين فيما فيه حرف الحلق ساكنا قد انفتح ما قبله ، والكوفيون يجيزون فيه الفتح ، وإن لم يسمعوه ، ويحتمل أن يكون [جهرة] جمع جاهر ، أيْ حتى نرى الله كاشفين هذا الأَمر(١) ، وقرأ عمر ، وعلي رضي الله عنهما : [فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعْقَة] ، ومضى في صدر السورة معنى الصاعقة ، والصعْقَة ما يحدث بالإنسان عنِ الصاعقة . و [تَنْظُرُونَ] معناه : إلى حالكم (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

حتى أحالهم العذاب وأزال نظرهم .

قوله عز وجل :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

أَجاب الله تعالى فيهم رغبة موسى عليه السلام ، وأَحياهم من ذلك الهمود(٣) أَو الموت ليستوفوا آجالهم ، وتاب عليهم ، والبعث هنا

(١) أي غير مستتر بشيء ، ليقع الفرق بين الرؤية البصرية ، والرؤيا المنامية ، والعلم القلبي ،

(٢) أي إلى ما حل بكم من الموت ، وآثار الصعقة . ومدة الموت أو الصعقة كانت يوماً وليلة كما قيل .

(٣) الصاعقة التي أخذتهم إمَّا أنَّهم ماتوا بسببها ، وإمَّا أنَّهم أُصيبوا بغشية من شدة وقعها ، والذي يظهر من قوله تعالى : [ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُم] هو الأول ، وعليه فإن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمت ، وإنما غشي عليه بدليل قوله تعالى: [فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ]، ولا يقال :يُبْعِد ذلك قولُه تعالى : [وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ] لأن المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت .

الإثارة ، كما قال : [مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا] [(١)] وقال قوم : إنهم لمَّا أُحْيُوا وأُنْعِمَ عليهم بالتوبة سأَلوا موسى عليه السلام أَن يجعلهم الله أَنبياءَ ، فذلك قوله : [ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ] ، أَي أَنبياءَ[(٢)] [لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] ، أَي على هذه النعمة . والترجِّي إنما هو في حق البشر . ونزلت الأَلواح بالتوراة على موسى في تلك المدة ، وهذا قول جماعة . وقال آخرون : إنَّ الأَلواح نزلت في ذهابه الأَول وحده .

وذكر المفسرون في تظليل الغمام ، أَن بني إسرائيل لما كان من أَمرهم ما كان من القتل ، وبقي منهم من بقي حصلوا في فحص التيه [(٣)] بين مصر والشام ، فأُمروا بقتال الجبارين فعصَوا ، وقالوا : [إذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا] [(٤)] فدعا موسى عليهم فعوقبوا بالبقاءِ في ذلك الفحص أَربعين سنة يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أَو ستة . رُوي أَنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس ، فندم موسى عليه السلام على دعائه عليهم ، فقيل له : [لا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ] [(٥)] وروي أَنهم ماتوا بأَجمعهم في فحص التيه ، ونشأَ بنوهم على خير طاعة ، فهم الذين خرجوا من فحص التيه ، وقاتلوا الجبارين . وإذ كان جميعهم في التيه قالوا لموسى : من لنا بالطعام ؟

---

(١) من الآية (٥٢) من سورة (يس) .

(٢) هذا بعيد أولا إذ لا دليل عليه – وغريبٌ ثانياً إذ لا يعرف في زمان موسى نبيٌّ سوى هارون ويوشع بن نون .

(٣) الفحص : كل موضع في الأرض يُسكن ، الجمع فحوص – والتيه بالفتح والكسر جمعه أتياه ، والتيه بالكسر لاغير : الصلف والتكبر .

(٤) من الآية (٢٤) من سورة (المائدة) .

(٥) من الآية (٢٦) من سورة (المائدة) .

قال : الله . فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلْوَى ، قالوا : من لنا من حر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام . قالوا : بم نستصبح بالليل ؟ ، فضُرب لهم عمود نور في وسط محلتهم . وذكر مكي عمود نار . قالوا : من لنا بالماء ؟ ، فأُمر موسى بضرب الحجر ، قالوا : من لنا باللباس ؟ فأُعطوا ألا يبلى لهم ثوب ، ولا يخلق ولا يدرن ، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان .

ومعنى [ظَلَّلْنَا] جعلناه ظللا . و [ٱلْغَمَامَ] السحاب ، لأنه يغم وجه السماء أي يستره . وقال مجاهد : هو أبرد من السحاب وأرق وأصفى ، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يأتي أمره وسلطانه وقضاؤه ، وقيل: الغمام ما ابيَض من السحاب ، والمَنُّ صمغة حُلوة ، هذا قول فرقة ، وقيل : هو : عسل . وقيل : شراب حلو ، وقيل : الذي ينزل اليوم على الشجر [1].

وقيل : المَنُّ خبز الرقاق مثل النَّقِيِّ[2] ، وقيل: هو الزَّنْجَبين[3] ، وقيل : الزَّنْجبيل ، وفي بعض هذه الأقوال بُعْدٌ . وقيل : المَنُّ مصدر يعنى به جميع مَا مَنَّ الله به مُجْمَلا . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب مسلم: «الكمأة» ممّا منّ الله به على بني إسرائيل ، وماؤها شفاءٌ للعين» ، فقيل : أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها ممّا أُنزل

(١) لا يخرج المن عن كونه طعاماً أو شراباً ، وهو ما من الله به عليهم من النعمة التي ليس لهم فيها عمل ولا كسب لا بالتفصيل ولا بالجملة .

(٢) أي : الخبز الرقيق من النقي كالحواري وهو الدقيق الأبيض أي : لباب الدقيق . ومنه الحديث : «ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النقي من حين ابتعثه الله حتى قبضه» .

(٣) مادة شبيهة بالعسل الأبيض – ويقال الترَّنجبين أيضاً . في مفردات ابن البيطار : طلٌّ يقع من السماء ، وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب .

نوعها على بني إسرائيل ، وقيل : أراد أنه لا تعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد فهي منَّة دون تكلف مِنْ جنس مَنِّ بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف (١)

وُروِيَ أن المَنَّ كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثَّلْج (٢) فيأخذ منه الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن ادخر فسد عليه (٣) إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ، لأن يوم السبت يوم عبادة . والمَنُّ هنا اسم جمع لا واحد له من لفظه .

والسلوى طير بإجماع(٤) من المفسرين قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وغيرهم ، قيل : هو السماني بعينه ، وقيل : طائر يميل إلى الحُمْرة مثل السماني ، وقيل : طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب . قال الأخفش : السلوى جمْعُهُ وَوَاحِدُهُ بلَفْظٍ

---

(١) استدل لهذا القول العام بحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه ، والبخاري أيضاً بلفظ : «الكمأة مِنَ المَنّ ، وماؤها شفاءٌ للعين » ، وفي رواية ابن عُيَيْنة عن عبد الملك بن عمير : «الكمأة من المَنّ الذي أُنزل على بني إسرائيل » ، راجع شراح الحديث ، والحديث يحتمل احتمالين كما أشار إليهما ابن عطية رحمه الله .

(٢) أي في البياض والصفاء .

(٣) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لولا بنوإسرائيل لم يَخْنُزْ اللحم ، ولولا حواءلم تخن أنثى زوجها الدهر أبداً » قال العلماء معناه أن بني إسرائيل لما أنزل الله عليهم المن والسلوى نهوا عن ادخارهما فادخروا ففسد وأنتن واستمر من ذلك الوقت ، يقال : خنز اللحم يخنز خنزا : أنتن .

(٤) قال الإمام (ق) دعوى الإجماع لا تصح ــ لأن المؤرج وهو أحد علماء اللغة والتفسير قال : إنه العسل ، واستدل ببيت الهذلي الذي سيأتي بعد ، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة لأنه يسلى به ، ومنه عين سلوان . وقال الجوهري : السلوى العسل ، واستشهد ببيت الهذلي أيضاً ونقل هذا كثير من الأئمة وسلموه ، وإذاً فلا وجه لتخطئة الهذلي وتغليطه ، لأن إجماع المفسرين هنا لا يمنع إطلاق اللغويين له بمعنى آخر .

وَاحِدٍ ، قال الخليل : جمعٌ واحدته سلواة قال الكسائي : السلوى واحدة جمعها سلاوي ، والسلوى اسم مقصور لا يظهر فيه الإعراب لأن آخره ألف ، والألف حرف هوائي أشبه الحركة فاستحالت حركته ، ولوحُرِّكَ لرجع حرفاً آخر ، وقد غلط الهذلي فقال :

وقَاسَمَهَا باللهِ عَهْداً لأَنْتُمْ أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا ما نَشُورُهَا[(١)]

ظن السلوى العسل .

وقوله تعالى : [كُلُوا] الآية معناه : وقلنا : كلوا ، فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه ، و (الطَّيِّبَاتُ) هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

وقوله تعالى : [وَمَا ظَلَمُونَا] يُقَدَّر قبله فَعَصَوْا ، ولمْ يقابلوا النعم بالشكر ، والمعنى : وما وضعوا فِعْلهم ، في موضع مضرة لنا ، ولكن وضعوه في موضع مضرة لهم حيث لا يجب . وقال بعض المفسرين : ما ظلمونا ما نقصونا ، والمعنى يرجع إلى ما لخصناه .

و (الْقَرْيَةَ) المدينة ، تُسمى بذلك لأنها تقرت ، أي اجتمعت ، ومنه قريت الماءَ في الحوض : أي جمعته[(٢)] ، والإشارة بهذه إلى بيت المقدس في قول الجمهور ، وقيل : إلى أريحا ، وهي قريب من بيت المقدس . قال عمر بن شبة [(٣)] : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ولما خرج ذرية بني إسرائيل من التيه أمروا بدخول القرية المشار إليها وأما الشيوخ

---

(١) الهذلي : هو خالد بن زهير الهذلي ، وقوله : إذا ما نَشُورُها : أيْ نجتنيها ونستخرجها من خَلِيَّتِها ؛من شار العسل يقال : اجتناها ، ويقال : اشتارها، وأشارها لغة ، وهذه الكلمة هي التي دلت على أن المراد بالسلوى في بيت الهذلي العسل .

(٢) لأن كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً يسمى قرية ، وتقع على المدن وغيرها .

(٣) أبو زيد عمر بن شبه ، عرف برواية النوادر والأخبار ، وصنف تاريخ البصرة ، وروى القراءة عن عاصم ، وعن جبلة بن مالك ــ توفي سنة ٢٦٣ هـ . وفيات الأعيان ١١٤/٣ .

فماتوا فيه . ورُوي أن موسى صلى الله عليه وسلم مات في التيه ، وكذلك هارون عليه السلام ، وحكى الزجاج عن بعضهم أن موسى وهارون ، لم يكونا في التيه[١] لأنه عذاب ، والأول أكثر . و[كُلُوا] إباحة ، وقد تقدم معنى الرَّغد ـ وهي [٢] أرض مباركة عظيمة الغَلَّة ، فلذلك قال : رغَداً .

و[الْبَابَ] قال مجاهد : هو باب في مدينة بيت المقدس يعرف إلى اليوم بباب حطة ، وقيل : هو باب القبة التي كان يصلى إليها موسى صلى الله عليه وسلم ، ورُوي عن مجاهد أيضاً أنه باب في الجبل الذي كلم عليه موسى كالفرضة . [٣] و[سُجَّداً] قال ابن عباس رضي الله عنه معناه : ركوعاً [٤] وقيل متواضعين خضوعاً لاعلى هيئة معينة ، ـوالسجود يعم هذا كله لأنه التواضع ، ومنه قول الشاعر :

تَرَى الأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[٥] .

ورُوي أن الباب خفض لهم ليقصر ويدخلوا عليه متواضعين .

و[حِطَّةٌ] فِعْلَةٌ من حَطَّ يحُط ورفعه على خبر ابتداءٍ كأنهم قالوا : سؤالنا حطة لذنوبنا ، هذا تقدير الحسن بن أبي الحسن . وقال الطبري : التقدير دخولنا الباب كما أُمرنا حطة ، وقيل : أُمروا أن يقولوها

---

(١) قال في (خ) ظاهر قوله تعالى [فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ] يُقَوِّي ما قاله الزجاج رحمه الله ، وهكذا قال الإمام الفخر رحمه الله .

(٢) أي : القرية : أو أرض كنعان .

(٣) فرضة الجبل ما انحدر في وسطه وجانبه .

(٤) السجود إما أن يراد به الصلاة فيكون السجود كناية عنها ـ وإما أن يراد به الخضوع والتواضع شكراً لله تعالى .

(٥) تقدم هذا البيت عن قوله تعالى : [وإذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ] الآية ، والأُكْمُ الجبال الصغار ، جعلها تسجد للحوافر لقهر الحوافر إياها ، ولكونها لا تمتنع عليها .

مرفوعة على هذا اللفظ . وقال عكرمة وغيره : أُمروا أَن يقولوا : لا إِلٰه إِلا الله لتحط بها ذنوبهم . وقال ابن عباس : قيل لهم : استغفروا ، وقولوا : ما يحط ذنوبكم . وقال آخرون : قيل لهم أَن يقولوا هذا الأَمر حق ، كما أُعلمنا ، وهذه الأَقوال الثلاثة تقتضي النصب ، وقرأَ إِبراهيم بن أَبي عبلة (حِطَّةً) بالنصب [1] .

وحُكي عن ابن مسعود وغيره أَنهم أُمِرُوا بالسجود وأَنْ يقولوا حِطَّةٌ ، فدخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهِمْ[2] ويقولون : حنطة حبة حمراءُ في شعرة ، ويروى غير هذا من الأَلفاظ . وقرأَ نافع [يُغْفَر] بالياءِ من تحت مضمومة ، وقرأَ ابن عامر [تُغْفَر] بالتاءِ من فوق مضمومة ، وقرأَ أَبو بكر عن عاصم : [ويَغْفر] بفتح الياءِ على معنى يغفر الله ، وقرأَ الباقون [نَغْفر] بالنون ، وقرأَت طائفة [تغفر] كأَن الحطة [3] تكون سبب الغفران .

والقراءُ السبعة على [خَطَايَاكُمْ] ، غير أَن الكسائي كَانَ يُميلها . وقرأَ الجحدري : (تغفر لكم خطيئتُكم) بضم التاءِ من فوق وبرفع الخطيئة وقرأَ الأَعمش (يَغْفِر) بالياءِ من أَسفل مفتوحة (خطيئَتَكم)

---

(١) قال جار الله الزمخشري : الأَصل في هذه الكلمة : النصب ، بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطَّةً ، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات ، قال أبو (ح) : وهو حسن ، ويؤكده قراءة إبراهيم بن أبي عبلة بالنصب كما روي — ثم إن أولى تقدير هو الأول لأن الذي يناسب تعليق الغفران عليه هو سؤال حط الذنوب لا غير ذلك من التقديرات .

(٢) ثبت في صحيح البخاري ومسلم أنهم دخلوا الباب يزحفون على أستاههم ، وأنهم قالوا : حبة في شعرة ، فوجب المصير إلى تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ، واطراح ما سواه من الأقوال .

(٣) أي مقالتها لا لفظها ، ومن المعلوم أن المقالة المذكورة سبب في الغفران .

نصباً ، وقرأ قتادة مثل الجحدري ، وروي عنه أنه قرأ بالياءِ من أسفل مضمومة (خطيئَتُكم) رفعاً ، وقرأ الحسن البصري : [يَغْفر لكم خطيئاتِكم] أي يغفر الله ، وقرأ أبو حيْوة : (تُغفر) بالتاءِ من فوق مرفوعة [خطيئاتُكم] بالجمع ورفع التاءِ ، وحكي الأَهوازي (١) أَنه قرئ [خَطَأْيَاكُمْ] بهمز الأَلف الأُولى وسكون الآخرة ، وحكى أَيضاً أَنه قرئ بسكون الأُولى وهمز الآخرة . قال الفراءُ : خطايا جمع خطية ، بلا همز كهدِيَّة وهدايا ، وركية وركايا .

وقال الخليل : (٢) هو جمع خطيئة بالهمز ، وأَصله [خطايِئ] قدمت الهمزةُ على الياءِ فجاءَ (خطائِي) ، أُبدلت الياءُ أَلفاً بدلا لا زماً فانفتحت الهمزة التي قبلها فجاءَ (خطاءَا) همزة بين أَلفين ، وهي من قبيلهما فكأَنها ثلاث أَلفات فقلبت الهمزة ياءً فجاءَ خطايا . قال سيبويه : أَصله [خطايِئ] همزت الياءُ كما فعل في مدائن وكتائب فاجتمعت همزتان فقلبت الثانية ياءً ثم أُعلت على ما تقدم .

وقوله تعالى : [وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ] عدة المعنى إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم : زيد بعد ذلك لمن أَحسن ، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أُمر وقال : لا إِله إلا الله ، فقيل : هم المراد بالمحسنين هُنَا :

(١) أبو علي الحسن بن علي بن ابراهيم الأهوازي ، إمام ، محدث . توفي سنة (٤٤٦) هـ .

(٢) هذا يتطلب أربعة أعمال على رأي الخليل : خطايىء — ثم خطائِي — ثم خطاءا — ثم خطايا — وعلى ما لسيبويه خمسة أعمال : خطايئ — ثم خطائِيْ بهمز الياء — ثم خطائي — ثم خطاءا — ثم خطايا — والحاصل أنهما متفقان أصلا ومختلفان عملا .

قوله عز وجل (١) :

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

رُوِي أَنهم لما جاءُوا الباب دخلوا من قبل أَدبارهم القهقرى وفي الحديث (٢) أَنهم دخلوا يزحفون على أَستاهِهِمْ ، وبدلوا فقالوا حبة في شعرة ، وقيل : قالوا : حنطة حبة حمراءُ فيها شعرة ، وقيل : شعيرة ، وحكى الطبري أنهم قالوا : « هطي شمقاثا أزبة » (٣) ، وتفسيره ما تقدم .
والرِّجز : العذاب .

وقال ابن زيد ، ومقاتل ، وغيرهما : إن الله تعالى بعث على الذين بدلوا ودخلوا على غير ما أُمروا الطاعونَ فأَذهب منهم سبعين أَلفاً . وقال ابن عباس : أَمات الله منهم في ساعة واحدة نيفاً على عشرين أَلفاً ،

(١) استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها ، فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها لذم الله تعالى مَنْ بدّل ما أمره به ، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه . وربما يدخل فيها مسألة نقل الحديث بالمعنى ، والمراد أن الظالمين بدلوا قولا غير الذي قيل لهم — قولوا حطة فقالوا حنطة ، وقيل لهم : ادخلوا الباب سجداً فدخلوا على أستاههم ، فلقوا من البلاء ما لقوا .

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم ، وقالوا حبة في شعرة » ، وأخرجه البخاري وقال : « فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة » . وفي غير الصحيحين : « حنطة في شعر » .

(٣) هي كلمة عبرانية ، وتفسيرها ما تقدم أي « حنطة حمراء » .

وقرأ ابن محيصن (رُجزا) بضم الراءِ وهي لغة في العذاب والرجز أَيضاً اسم صنم مشهور ، والباءُ في قوله [بمَا] متعلقة بأَنزلنا ، وهي باءُ السبب.

و[يَفْسُقُونَ] معناه يخرجون عن طاعة الله ، وقرأَ النخعي ، وابن وثَّاب ، (يفْسِقُون) بكسر السين ، يقال : فسَق يفسُق ويفسِق بضم السين وكسرها ، وَ[إِذْ] متعلقة بفعل مضمر تقديره : « اذكر » ، و[اسْتَسْقَي] معناه : طلب السقيا ، وعرف استفعل طلب الشيءِ ، وقد جاءَ في غير ذلك كقوله تعالى :(واسْتَغْنَيَ اللهُ)(١) ، بمعنى غَنِيَ ، وقولهم : استعجب بمعنى عجب ، وَمثَّل بعضُ الناس في هذا بقولهم : « اسْتَنْسَرَ البُغَاث (٢) » ، و « اسْتَنْوَقَ الجَمَلُ » إِذْ هي بمعنى انتقل من حال إلى حال(٣) . وكان هذا الاستسقاءُ في فحص التيه فأَمره الله تعالى بضرب الحجر آيةً منه ، وكان الحَجَر من جبل الطور على قدر رأَس الشاة يُلْقى في كسر جُوَالِق(٤) ويُرْحل به ، فإِذا نزلوا وُضع في وسط محِلتهم ، وضربه موسى .

وذُكر أَنهم لم يكونوا يحملون الحجَر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأُولى ، وهذا أَعظم في الآية .

---

(١) أي في سورة التغابن من قوله تعالى في الآية رقم (٦) : «فكَفَروا وتَوَلَّوا ، واسْتَغْنَى الله ، والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ »

(٢) يقال : استنسر الطائر صار كالنَّسرِ في القوة،وفي المثل : إن البُغَاثَ بأَرْضنا يستنسر ، أي إن الضعيف يصير قوياً بأرضنا ، يضرب للَّئيم يرتفع أمره ، أو معناه : من جاورنا عزَّ بنا .

(٣) وكذلك الاستسقاء ، فإنه : انتقال من حال إلى حال ، وفي الشرع : طلبُ الغيث من الله تعالى على وجهٍ مخصوص . وعصا موسى هى مجمع الأسرار والغرائب – فبها وقع انفجار الحجر – وبها وقع انفلاق البحر – وبها كان قهر السحرة حتى وقعوا لها ساجدين .

(٤) أي في جانب جُوَالِق ، وهو الغِرارة بالكسر ، والجمع غرائر ، قال الجوهري : « وأظنه مُعَرَّبا » .

ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربَّعاً تطرد (١) من كل جهة ثلاثُ عيون إذا ضربه موسى صلى الله عليه وسلم ، وإذا استَغْنَوْا عن الماءِ ورحلوا جفت العيون .

وفي الكلام حذف تقديره : فضربه فانفجرت ، والانفجار : انْصِدَاعُ شيءٍ عن شيءٍ ، ومنه الفجْرُ ، والانبجاس في الماءِ أقل من الانفجار (٢) .

و [اثْنَتَا] مُعْربةٌ (٣) دون اخواتها لصحة معنى التثنية ، وإنما يبنى واحد مع واحد ، وهذه إنما هي اثنان مع واحد ، فلو بُنِيت لرد ثلاثة واحداً (٤) ، وجاز اجتماع علامتي التأنيث في قوله : [اثْنَتَا عَشْرَةَ] لبعد العلامة من العلامة ، ولأَنهما في شيئين ، وإنما مُنع ذلك في شيءٍ واحد نحو مسلمتات (٥) وغيره . وقرأ ابن وثاب ، وابن أبي

(١) أي تجري في كل جهة من جهاته الأربع ثلاث عيون على عدد أسباط بني إسرائيل ويقال : اطَّرد الماء إذا تتابع سيلانه .

(٢) أي دونه في خروج الماء ، وقيل : إن الانفجار والانبجاس بمعنى واحد ، وهو ما تدل عليه اللغة .

(٣) من المعروف أن الأعداد المركبة كلها مبنيةصدْراً وعَجُزاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا اثنا عشر واثنتا عشرة ، فإن الصدر فيهما معرب . وإنما لم يجعلا كنظائرهما في البناء لأن عشراً فيهما قائم مقام نون التثنية ، ولو ذُكِرت لزم الإعراب فكذا مايقوم مقامهما ، والقول بإعرابهما هو الصحيح ، ومن قال ببنائهما يرد عليه أنهما يختلفان باختلاف العوامل ، وتأمل كلام ابن عطية هنا لتفهمه على ضوء هذه الحقيقة .

(٤) قوله : يبنى واحد مع واحد أي : مما لا يصح فيه معنى التثنية ، ويخرج من هذا أن ما يصح فيه معنى التثنية كاثنين واثنتين يعرب ، وما لا يصح فيه ذلك يبنى ، وقوله : لرد ثلاثة واحدا ، لعله «لرد اثنان واحدا» . لأن الكلام في اثنتا وتأمل ، والله اعلم .

(٥) وفي نسخة : « مسلمات» .

ليلى ، وغيرهما : [عشِرة] بكسر الشين ، روُي ذلك عن أَبي عمرو ، والأَشهر عنه الإِسكان ، وهي لغة تميم ، وهو نادر لأَنهم يُخَفِّفون كثيراً وثَقَّلوا في هذه . وقرأَ الأَعمش (عشَرة) بفتح الشين ، وهي لغة ضعيفة ، وروي عنه كسرها وتسكينها ، والإِسكان لغة الحجاز . و[عَيْناً] نصب على التمييز ، والعين اسم مشترك ، وهي هنا منبع الماءِ ، و [أُنَاسٍ] اسم جمع لاواحد له من لفظه ، ومعناه هنا : كل سبط لأَن الأَسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ، وهم ذرية الإِثنا عشر أَولاد يعقوب عليه السلام ، والمَشْرب المَفْعل موضع الشرب ، كالمَشْرع موضع الشُّروع في الماءِ ، وكان لكل سِبط عينٌ من تلك العيون لا يتعداها .

وفي الكلام محذوف تقديره : وقلنا لهم : كلوا المن والسلوى واشربوا الماءَ المنفجر من الحجر المنفصل ، وبهذه الأَحوال [١] حسنت إضافة الرزق إلى الله وإلا فالجميع رزقه ، وإن كان فيه تَكَسُّبٌ للعـبد .

[وَلاَ تَعْثَوْا] معناه : ولا تُفْرطُوا في الفساد ، يقال : عثِيَ الرجلُ يَعْثَى عُثُوًّا وعَثِيَ يَعْثَى عُثِيًّا إذا أَفسد أَشَدَّ فسادٍ ، والأُولى هي لغة القرآن ، والثانية شاذَّة .

وتقول العرب: عَثَا يعثُو عُثُوًّا ، ولم يُقْرأْ بهذه اللغة لأَنها تُوجب ضم الثَّاءِ من تَعْثُوا ، وتقول العرب : عاث يعيث إذا أَفسد ، وعثَّ يعُثُّ كذلك ، ومنه عُثَّةُ [٢] الصوف وهي السوسة الّتي تلحسه ، و [مُفْسِدِينَ] حال . وتكرر المعنى لاختلاف اللفظ .

---

(١) أي المقدَّرة ، وهي حال المن والسلوى ، وحال شرب الماء المنفجر من الحجر المنفصل .

(٢) لأنها تفسد الصوف والثياب ، وكل ما يفسد ذلك فهو عُثَّة وسوسة ــ والعثة بالضم جمعها عثث .

وفي هذه الكلمات (١) إباحة النعم ، وتعدادها ، والتقدم في المعاصي ، والنهي عنها .

قوله عز وجل :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

كان هذا القول منهم في التيّه ، حين ملُّوا المن والسلوى ، وتذكروا عيشهم الأَول بمصر ، وكنى عن المن والسلوى بطعام واحد ، وهما طعامان لأَنهما كانا يُؤْكلان في وقت واحد ، ولتكرارهما سواءٌ أبداً (٢) ، قيل لهما طعام واحد ، ولغة (٣) بني عامر (فَادْعِ) بكسر العين ، و[يُخْرِجْ] جزم بما تضمنه الأَمر من معنى الجزاءِ (٤) ، وبنفس الأَمر على مذهب أَبي عمر الجرميّ . والمفعول على مذهب سيبويه مُضْمر تقديره : مأْكولا مما تنبت الأَرض ، وقال الأَخفش (مِنْ) في قوله:[مِمَّا] زائدة و(ما) مفعولة ، وأَبى سيبويه أَن تكون (مِنْ) ملغاة في غير النفي ، كقولهم : «ما رأَيتُ من أَحد» . ومِنْ في قوله : [مِنْ بَقْلِهَا] ، لبيان الجنس ، وبقلها

(١) أي : الآيات الواردة في قصة بني إسرائيل .

(٢) أي إنما سُمِّي المن والسلوى وهما اثنان طعاما واحداً لتكرار الغذاء بهما كل يوم بحيث لا يتبدل ولا يتغير ، على السواء لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ، فهو لذلك مأكل واحد .

(٣) فهي من ذوات الياء عندهم ، ويجرون المعتل مجرى الصحيح .

(٤) أي سل ربك وقل له أخرِج – يُخرِج .

بدل بإعادة الحرف . والبقل كل ما تنبته الأَرض من النَّجْم (١) ، والقِثَّاءُ جمع قِثَّاءَة(٢) . وقرأ طلحةُ بن مصرِّف ، ويحيي بن وثّاب (قُثَّائِها) بضم القاف . وقال ابن عباس ، وأَكثرُ المفسرين : الفوم الحنطة ، وقال مجاهد : الفوم الخُبز ، وقال عطاءٌ وقتادة ، الفوم جميع الحبوب التي يمكن أَن تخبز كالحنطة والفول والعدس ونحوه ، وقال الضحاك : الفوم الثوم ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود بالثاءِ ، وروي ذلك عن ابن عباس (٣) ، والثاءُ تبدل من الفاءِ كما قالوا : مغاثِير ومغافِير (٤) وجدَثٌ وجدَفٌ ، ووقعوا في عاثور شر وعافور شر على أَن البدل لا يقاس عليه ، والأَول أَصح لأَنها الحنطة ، وأَنشد ابن عباس قول أُحيحة بن الجلاح :

قَدْ كُنْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْصاً واحِداً وَرَدَ الْمَدِينَة عَنْ زِرَاعَةِ فُوْمِ

(١) أي ما نجم من النبات على غير ساق وتسطح فلم ينهض ، أمَّا الشجر فهو كل ما له ساق .

(٢) القِيثاء : الخيار .

(٣) منهم من قال : الفوم هو الثوم لأن الفاء تبدل ثاء ، والثاء تبدل فاء لتقارب مخرجيهما ويؤيد هذا ما روي في الشواذ عن ابن مسعود وابن عباس وثُومها بالثاء ، كما يؤيده أنه أشبه بما بعده ، فإن الثوم تشاكل البصل ، ومنهم من قال : الفوم هو الحنطة والبر وجميع الحبوب التي تختبز ، ورجح ابن عطية أنها الحنطة مستدلا بقول أُحيحة بن الجلاح ، وبما قاله ابن دريد ، وقال : إن الابدال لا يقاس عليه ، وزاد بعضهم قائلا : كيف يطلبون الثوم ولا يطلبون الخبز الذي هو الأصل ؟ والله أعلم .

(٤) المغافير والمغاثير صمغ حلو كالعسل يسيل من شجر العرفط ، وله رائحة كريهة ، والجدث والجدَفُ عبارة عن القبر ، وفي المثل : «شر الأحداث ، نزول الأجداث» وعاثور وعافور بإضافتهما إلى شرٍّ عبارة عن الشدة والأزمة ، ويقال للرجل إذا تورط : وقع في عاثور شر وعافور شر ، أي في شدة ومحنة ، وقد قيل :

عاثور شر أيُّما عاثور دَبْدَبَةُ الخيلِ على الجُسُور

يعني حنطة ، قال ابن دريد[١] : الفوم الزرع أو الحنطة . وأزد السراة[٢] يسمون السنبل فوما .

والاستبدال طلب وضع الشيء موضع الآخر[٣] وأدنى مأخوذ عن أبي اسحق الزجاج من الدنو أي القرب[٤] في القيمة ، وقال عليُّ ابنُ سُليمان : هو مهموزٌ من الدنيءِ البيِّن الدناءة ، بمعنى الأخس إلا أنه خُففت همزته ، وقال غيره : هو مأخوذ من الدُّون أي الأحط ،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي – إمام عصره في اللغة والأدب والشعر ، أخذ عن أبي حاتم السجستاني ، وكان حافظاً ، واسع الرواية ، ألف الجمهرة والاشتقاق ، وتوفي سنة (٣٢١ هـ) .

(٢) يقال أزْدشنوءة ، وأزدعمان ، وأزد السراة ، والأسْد : لغة في الأزد .

(٣) استبدل ، وتبدل : تدخل الباء فيهما على المتروك دائماً دون المأخوذ – مثال ذلك قوله تعالى هنا : [أَتَسْتَبْدِلُون الَّذِي هُوَ أدنى بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ] أي أتتركون الذي هو خير وتأخذون ما هو أدنى ؟ – وقوله تعالى : [ولا تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّب] أي لا تتركوا الطيب وتأخذوا الخبيث–وقوله تعالى : [وَمَنْ يَتَبَدَّل الكُفْرَ بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيل] أي ومن يترك الإيمان ويأخذ الكفر فقد ضل سواء السبيل ، وأما بدَّل وأبدل فإن الباء تدخل على المأخوذ دون المتروك ، وتتعدى لواحد نحو : (فَمَنْ بَدَّلَهُ) أيْ غيره (بَعْدَمَا سمِعَهُ) – وإلى مفعولين بنفسه نحو (يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات) وبالباء نحو : بُدلت العصيان بالتوبة ، وإلى ثالث نحو : (وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ) فالباء في الثاني داخلة على المأخوذ والثالث هو المتروك : هكذا حققه سعد الدين التفتزاني في حاشية الكشاف ، ونقله بعض الأئمة .

(٤) في أدنى آراء : قيل : إنه مأخوذ من الدُّنُوِّ بمعنى القرب ، وقيل : من الدُّون بمعنى الأحَطِّ ، وقيل : من الدَّناءة بمعنى الخسة ، فالأول من دنا يدنو دُنُوًّا ،والثالث من دَنُؤَ يدْنُؤ دَنَاءَةً ، وأما الثاني فلا فعل له كما في المصباح ، وكيفما كان الأخذ فوجوه التفاضل بين ما هو أدنى وما هو خير على ما أشار إليه ابن عطية رحمه الله ستة – إمَّا في القيمة ، وإمَّا في اللذة ، وإمَّا في الكلفة ، وإمَّا في الحلية ، وإمَّا في جنس التغذية ، وإمَّا في امتثال الأمر والدعوة ، وكل هذه الوجوه يحصل بها الفضل للمَنِّ والسلوى . والقرب : يستعمل في الزمان والمكان، وهما معنيان أصليان له ، كما يستعمل في النسبة والحظوة والرعاية والقدرة .

فأَصله أَدْوَن أَفعل ، قُلب[(١)] فجاءَ أَفلع ، وقلبت الواو أَلفاً لتطرفها . وقرأَ زهير الكسائي [(٢)] [أَدْنَأَ] .

ومعنى الآية : أَتستبدلون البَقل والقثاءَ والفُوم والعَدس والبَصل التي هي أَدنى بالمن والسلوى الذي هو خيرٌ . ؟

والوجه الذي يوجب فضل المن والسلوى على الشيءِ الذي طلبوه يحتمل أَن يكون تفاضلها في القيمة ، لأَن هذه البقول لا خطر لها ، وهذا قول الزجاج ، ويحتمل أَن يفضل المن والسلوى لأَنه الطعام الذي منَّ الله به ، وأَمرهم بأَكله ، وفي استدامة أَمر الله تعالى وشكر نعمته أَجر وذخر في الآخرة ، والذي طلبوا عارٍ من هذه الخصال ، فكان أَدنى في هذا الوجه ، ويحتمل أَن يفضل في الطيب واللذة به ، فالبقول لا محالة أَدنى من هذا الوجه ، ويحتمل أَن يفضل في حسن الغذاءِ ونفعه ، فالمَنُّ والسلوى خيرٌ لا محالة في هذا الوجه ، ويحتمل أَن يفضل من جهة أَنه لا كلفة فيه ولا تعب ، والذي طلبوا لا يجيءُ إلا بالحرث والزراعة والتعب ، فهو أَدنى في هذا الوجه ، ويحتمل أَن يفضل في أَنه لا مِرْية في حِلِّه وخُلُوصه ، لنزوله من عند الله ، والحبوب والأَرض يتخللها البيوع [(٣)] والغصوب ، وتدخلها الشُّبَهُ فهي أَدنى في هذا الوجه .

---

(١) أي قلباً مكانياً ، وبذلك تطرفت الواو وقلبت ألفاً .

(٢) زهير الكسائي هو الفرقبي النحوي له اختيار في القراءة ، وكان في زمن عاصم ، وليس هو الكسائي الكبير أحَد القراء السبعة خلافاً لمن وهِمَ ، وقراءته تشبه ما قاله الأخفش ، إلا أن الهمزة خُففت على قوله .

(٣) وفي بعض النسخ العيوب .

قال القـاضي أبو محمد رحمه :

ويترتب الفضل للمَنِّ والسلوى بهذه الوجوه كلها .

وفي الكلام حذف تقديره : فدعا موسى ربه فأجابه (١) فقال لهم: [اهْبِطُوا] وقد تقدم ذكر معنى (٢) الهبوط ، وكأن القادم على قُطْرٍ مُنْصَبٍّ (٣) عليه ، فهو من نحو الهبوط .

وجمهور الناس يقرءُون (مصراً) بالتنوين ، وهو خط المصحف إلاَّ ما حُكي عن بعض مصاحف عثمان رضي الله عنه (٤) . وقال مجاهد وغيره : مَنْ صَرَفَهَا(٥) أَراد مصراً من الأَمصار غيرَ مُعَيَّن ، واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أَمرهم بدخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أَنهم سكنوا الشام بعد التيه . وقالت طائفة : من صرفها أَراد مصرَ فرعون بعينها ، واستدلوا بما في القرآن مِن أَن الله أَورث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارَهم ، وأَجازوا صرفها ، قال الأَخفش : لخفتها وشبهها بهندٍ ودعدٍ ، وسيبويه لا يجيز هذا (٦) ، وقال غير الأَخفش : أَراد المكان فصرف .

(١) هذا يجري على أن الأمر من الله لا من موسى عليه السلام .

(٢) هو النزول والانحدار ، « اهبطوا مصراً » انزلوه .

(٣) أي منحدر ، وفي معناه قولهم في صفة النبي صلى الله عليه وسلم : « كأنما ينحط من صبب » .

(٤) قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله : « ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك » أي من الأمصار .

(٥) في صرفها رأيان : قال بعضهم : المراد مصرٌ من الأمصار وهو الحق لأنه خط المصحف ، وقال آخرون المراد مِصرُ فرعون ، وعلى عدم الصرف كما في مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه : هي مصر المعروفة قولاً واحداً .

(٦) لأنك لو سميت امرأة بزيد لمنعته من الصرف .

وفي الألفية : (أو زيد اسم امرأة لا اسم ذكر) .

وقرأ الحسن ، وأبان بن تغلب ، وغيرهما : (اهْبِطُوا مِصْرَ) بترك الصرف ، وكذلك هي في مصحف أُبي بن كعب ، وقالوا : هي مصرُ فرعون . قال الأعمش : هي مصر التي عليها صالح بن علي ، وقال أشهب: قال لي مالك : هي عندي مصر ، قريتُك ، مسكنُ فرعون .

وقوله تعالى : [فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ] يقتضي أنه وكلهم إلى أنفسهم . وقرأ النخعي ، وابن وثَّاب : (سِأَلتم) بكسر السين (١) وهي لغة ، [وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ] معناه : أُلْزِمُوها ، وقُضِيَ عليهم بها ، كما يُقال : ضرب الأمير البعث (٢) ، وكما قالت العرب : ضَربةُ لازبٍ ، أي إلزام مُلزم ولازم ، فينضاف المصدر إلى المفعول بالمعنى ، وكما يقال : ضرب الحاكم على اليد ، أي حجر وألزم ، ومنه : ضربَ الدهرُ ضَرَبَاته ، أي ألزم إلزاماته .

و [الذِّلَّةُ] فِعْلة من الذُّل ، كأنها الهيئة والحال . [والْمَسْكَنَةُ] من المسكين ، قال الزجاج : هي مأخوذةٌ من السكون ، وهي هنا زِيُّ الفقر وخضوعه (٣) ، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زِيِّ الفقر ومهانته . قال الحسن وقتادة : المسكنة الخَرَاج ، أي الجزية ، وقال أبو العالية : المسكنة الفاقة والحاجة .

---

(١) أي مع كون العين همزة لتوهم الفتح .

(٢) البعث : هو الجيش ، وجمعه بعوث ، والمعنى : ضرب الأمير البعث على الجند ، وأجرى عليهم أي بعثوا على العدو .

(٣) فلا يوجد يهوديٌّ وإن كان غنياً ـ خالياً من هيئة الفقر ومهانته ، فذلك لازم له . والذِّلَّة الهوان ، والمَسكنة الخضوع ، والزِّيُّ بالكسر .

[وَبـاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ] معناه : مَرُّوا متحملين له (١) ، تقول : بُؤْتُ بكذا أَيْ تحملته ، ومنه قول مهلهل لبجير بن الحارث بن عباد : «بُؤْ (٢) بِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيْبٍ» .

والغضب بمعنى الإرادة صفة ذات ، وبمعنى إظهاره على العبد بالمعاقبة صفة فعل ، والإشارة بذلك إلى ضرب الذِّلة وما بعده .

والباءُ في [بِـأَنَّهُمْ] باءُ السبب ، وقال المهدوي : إن الباءَ بمعنى اللام ، والمعنى : لأنهم . والآيات هنا تحتمل أن يراد بها التسع (٣) وغيرها مما يخرق العادة ، وهي علامةٌ لصدق الآتي بها ، ويحتمل أن يراد آيات التوراة التي هي كآيات القرآن.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [وتَقْتُلُون] بالتاءِ على الرجوع إلى خطابهم (٤) ورُوي عنه أيضاً بالياءِ ، وقرأ نافع بهمز (النبيئِين) وكذلك

(١) يعني أنهم استحقوا الغضب من الله فتحملوه وذهبوا به فلهم البلاء في الدنيا والعذاب في الأخرى .

(٢) يقال : بُؤْ به أي كن ممن يقتل به ، ومنه قول مهلهل لبجير هذا . والشِّسْعُ قبال النعل أي زمامها بين الإصبع الوسطى والتي تليها ــ وكان بُجَيْر قد قتله مُهلهل أخ كليب المقتول ، فقال أبوه الحارث بن عباد عند ذلك : نعم الغلام أصلح بين ابني وائل وفاءً بكليب ، فقيل له : إن المهلهل لمّا قتله قال : « بُؤْ بشسْعِ نعْلِ كُلَيب » فركب فرسه (النعامة) وتولى أمر بكر ، واشتعلت الحرب من جديد بين قبائل بكر وتغلب وانهزمت تغلب ، وأسر المهلهل في هذه الموقعة المعروفة : بتحلاق اللِّمَم .

(٣) يعني المعجزات التسع التي جاء بها موسى عليه السلام .

(٤) وقرىء (يُقَتِّلُون) بالتشديد ، وهي قراءة علي رضي الله عنه ، وهذه القراءة تدل على المبالغة في القتل ــ ويشهد لها ما رواه أبو داود الطيالسي وابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «كانت بنو إسرائيل يقتلون في اليوم سبعين نبيّاً ، وفي رواية ثلاثمائة نبي في أول النهار ، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار » انتهى ، والمراد أنهم لا يعبئون بذلك العدد المقتول ، ولذلك يقيمون سوق البقول والخضراوات آخر النهار .

حيث وقع في القرآن إلا في موضعين[١]: في سورة الأحزاب (إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ) بلاَ مدٍّ ولا همْزٍ ، و (لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) وإنما تَرَكَ همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين من جنس واحد . وترك الهمز في جميع ذلك الباقون ، فأما من همَزَ فهو عنده من أنبأَ إذا أَخْبر ، واسم فاعله مُنبِئٌ فقيل : نبيءٌ بمعنى مُنْبِئٌ كما قيل : سَمِيع بمعنى مُسْمع ، واستدلوا بما جاءَ من جمعه على نُبَآءَ قال الشاعر : [٢]

يَاخَاتِمَ النُّبآءِ إنَّكَ مُرْسَلٌ بالحَقِّ ، كُلُّ هُدَى الإِلٰهِ هُدَاكَا

فهذا كما يجمع فعيل في الصحيح كظريف وظرفاءَ وشبهه . قال أَبو علي : زعم سيبويه أَنهم يقولون في تحقير النبوة : «كان مُسَيلمة نُبُوَّتُهُ نُبَيِّئَةَ[٣] سُوءٍ». وكلهم يقولون : تَنَبَّأَ مسيلمة . فاتفاقهم على ذلك دليل على أَن اللام همزة .

واختلف القائلون بترك الهمز في نبيءٍ ، فمنهم من اشتق اشتقاق مَنْ هَمَزَ ، ثم سهَّل الْهَمْزَ ، ومنهم من قال : هو مشتق من نَبَا ينبُو

(١) المعروف أن (نافعاً) يهمز الكل وأنَّ قالون تلميذه هو الذي أبدل الهمز بالياء في الموضعين من سورة الأحزاب — وفي حرز الأماني :

وجمعـا وفردا في النبيء وفي النبـو ءة الهمـز كل غير نافع أبـدلا
وقالون في الأحزاب في للنبيء مـع بيوت النبيء اليـاء شدد مبـدلا

(٢) هو العباس بن مرداس السلمي يمدح النبيَّ صلى الله عليه وسلم .

(٣) بتشديد الياء ، والتصغير للتحقير .

إذا ظهر ، فالنبيُّ الطريق الظاهر ، وكأَن النبي مِنْ عند الله طريق الهدى والنجاة ، وقال الشاعر (١) :

لَمَّا وَرَدْنَ نُبَيًّا واسْتَتَبَّ بِنَا مُسْحَنْفِرٌ كخُطُوطِ السَّيح مُنْسَحِلُ(٢)

واستدلوا بأَن الأَغلب في جمعه أَنبياءَ ، كفعيل في المعتل نحو وَليٌّ وأَولياءَ وَصفِيٌّ وأَصفياءَ ، وحكى الزهراويُّ أَنه يُقال : نَبُؤَ إذا ظهر فهو نَبِيءٌ ، والطريق الظاهر نبيءٌ بالهمز ، ورُوي أَنَّ رجلا قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبيءَ الله ، وَهَمَزَ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «لست بِنَبِيءِ الله – وَهَمَزَ – ، ولكنِّي نَبي الله» – ولم يهمز – : قال أَبو علي : ضُعِّفَ سندُ هذا الحديث . ومما يُقَوِّي ضعفه أَنه صلى الله عليه وسلم قد أَنشده المادح :

يَاخَاتِمَ النُبَآءِ .

وَلَمْ يُؤْثَرْ في ذلك إنكار ، والجمع كالواحد .

وقوله تعالى : [بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ] تعظيم (٣) للشُّنْعَة والذنب الذي أَتوه ، ومعلوم أَنه لا يقتل نبي بحق ، ولكن من حيث قد يتخيل مُتَخَيِّل لذلك وجهاً ، فصرح قوله (بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) عن شُنْعة الذنب ووضوحه ، ولم يَجْتَرِم (١) قطُّ نبيٌّ ما يُوجب قتله . وإنما أَباح الله تعالى من أَباح منهم ، وسلَّط عليهم ، كرامَةً لهم ، وزيادة في منازلهم ، كمثل مَنْ

---

(١) هو القطامي . واسمه : عمير بن شبيم التغلبي .

(٢) المُسْحَنْفِر : الطريق المستقيم ، والبلد الواسع والمطر الكثير ، ونبي اسم موضع بالشام . وفي بعض النُّسخ – النَّسْج بدلا من السَّيْح .

(٣) يعني أن قوله تعالى : (بِغَيْرِ الْحَقِّ) ، وهو قيد لازم لقتل الأنبياء ، لأن النبيَّ لا يُقتل بالحق ، وإنما يقتل على الحق – فالتصريح بهللتشنيع عليهم ، ولتقبيح فعلهم ، والشُّنْعَة بالضم : القُبْح .

(٤) أي لم يرتكب قط ذنباً يوجب قتله .

يُقتل في سبيل الله من المؤْمنين [١] » قال ابن عباس وغيره : « لم يقتل قط من الأَنبياءِ إلا من لم يُؤْمر بقتال ، وكلٌّ من أُمر بقتال نُصر [٢]» ، وقوله تعالى : [ذَٰلِكَ] ردٌّ على الأَول وتأْكيد للإشارة إليه [٣] والباءُ في (بِمَا) باءُ السبب ، و (يَعْتَدُونَ) معناه يتجاوزون الحدود ، والاعتداءُ : تجاوُزُ الحَدّ في كل شيءٍ ، وعرفه في الظلم والمعاصي .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) هذه العبارة فيها قلق ، ولذلك تجنبها الإمام القرطبي رحمه الله مع أن عادته غالباً نقل عبارة ابن عطية ، ونص عبارة القرطبي : « فإن قيل : كيف جاز أن يُخلّي بين الكافرين وقتل الأنبياء ؟ ، قيل : ذلك كرامة لهم ، وزيادة في منازلهم ، كمثل من يُقتل في سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم » انتهى .

(٢) أشار به إلى أن قوله تعالى : [وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ] ، مخرج للمرسلين ، فإن الرسول لا يقتل، لقوله تعالى : [إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا] ولقوله تعالى : [وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرْسَلِينَ] الآية .

(٣) هذه علة بعد علة ، وتأكيد لمجازاتهم بما جُوزوا به من ضرب الذلة والمسكنة والمباءة بالغضب ، وأنهم كانوا يعصون ويعتدون ، فالعصيان فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في الحد المأذون فيه ، قال أبو حيان : « الظاهر أن قوله : [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ] الخ . علة لضرب الذلة والمسكنة والرجوع بالغضب ، وقوله : [ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا] الخ علة للكفر والقتل ، فيكون العصيان للكفر والاعتداء ، فيكون قد ذكر شيئين وقابلهما بشيئين ، كما ذكر أولا شيئين وهما الضرب والمباءة وقابلهما بشيئين ، وهما الكفر والقتل ، فجاء ذلك لفّا ونشراً في الموضعين وذلك من محاسن الكلام وجودة التركيب ، ويخرج بذلك عن التأكيد الذي لا يُصار إليه إلاّ عند الحاجة . وقوله (رَدٌّ) أي مردودٌ وراجع إليه .

اختلف المتأولون في المراد بالّذين آمنوا في هذه الآية ، فقال سفيان الثوري : هم المنافقون في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال : إن الذين آمنوا في ظاهر أمرهم ، وقرنهم (١) باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم ، فمعنى قوله : [مَنْ آمَنَ] ـ في المؤْمنين المذكورين ـ مَنْ حَقَّقَ وأَخلص ، وفي سائر الفرق المذكورة ـ مَنْ دَخَل في الإيمان . وقالت فرقة : الذين آمنوا هم المؤْمنون حقًّا (٢) بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : [مَنَ آمَنَ بِاللهِ] يكون فيهم ، بمعنى : مَنْ ثبت ودام ، وفي سائر الفرق بمعنى مَنْ دَخَل فيه . وقال السدي : هم أَهل الحنيفية مِمَّنْ لم يَلْحق محمدا صلى الله عليه وسلم كزيد بن عمرو بن نُفيل(٣) ، وقُس بن

(١) يريد أن القرينة على أن المراد بالذين آمنوا المنافقون هي قَرْنُهُم باليهود والنصارى والصابئين في الآية ـ ومُحصّلُ ما ذكره من الأقوال خمسة ، قول سفيان الثوري ،وقول الفرقة ، وقول السدي ، وقول سلمان الفارسي رضي الله عنه وقول ابن عباس رضي الله عنهما .

ثم إن باب الإيمان والتوبة مفتوح على مصراعيه أمام اليهود وغيرهم ، وكلٌّ من ارتكب الكبائر والقبائح إذا آمن وتاب فله ما للمؤْمنين من الأجر ، وعدم الخوف والحزن ، وكأن الله عز وجل أراد أن يقرر بهذه الآية أن حال هذه الملةالإسلامية ،وحال مَنْ قَبْلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد ، وهو أنَّ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، استحق ما ذكره الله من العناية والأجر ، ومَنْ فاته ذلك فاته خيرٌ كثير ، وهذا الإيمان لا يتحقق إلا بالدخول في الملة الإسلامية ، فمَنْ لم يُؤْمن بمحمدصلىالله عليه وسلم ، ولا بالقرآن فليس بمؤْمن ، ومن آمن بهما صار مؤمناً مسلماً ، ولم يكن يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولا مجوسياً . وكل مَن تعاطى ديناً من الأديان السماوية في وقت شرعه وقبل نسخه ، وآمن بما جاء به ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .

(٢) أي : ظاهراً وباطناً .

(٣) قال لما فارق دين قومه :

أرَبّا واحداً أمْ ألفُ رَبٍّ أدين إذا تقسَّمَت الأمور ؟
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يَفْعَلُ الرجُلُ البَصيرُ

ساعدة (١) وورقة بنِ نوفل (٢) ، والذين هادوا كذلك مِمَنْ لمْ يَلْحق محمداً صلى الله عليه وسلم ، إلاَّ مَن كفر بعيسى عليه السلام ، والنصارى كذلك مِمَّن لم يَلْحق محمدا صلى الله عليه وسلم ، والصابئين كذلك ، وقيل : إنها نزلت في أَصحاب سلمان الفارسي ، وذكر له الطبري قصة طويلة ، وحكاها أَيضاً ابن اسحق ، مقتضاها : أَنه صحب عباداً من النصارى فقال له آخرهم (٣) : إن زمان نبي قد أظل ، فإنْ لحقته فآمن به ، ورأى منهم عبادة عظيمة ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأَسلم ، ذكر له خبرَهم ، وسأَله عنهم ، فنزلت هذه الآية .

ورُوي عن ابن عبّاس أَن هذه الآية نزلت في أَول الإِسلام ، وقرر

(١) هو مِمَّنْ ضُربت بحكمتهم وعقولهم الأمثال ــ قدِمَ وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عنه، فقالوا : هلك، فقال : «كأني أنظر إليه على جمل أحمر بسوق عكاظ يقول : أيُّها الناس ، اسمعوا وعوا ، مَن عاش مات ، ومَنْ مات فات ، وكلٌ ماهو آت آت ، إنَّ في الأرض لعبرا ، وإن في السماء لخبرا ، أنجُمٌ تدور ، وبحار لا تغور ، سقْفٌ مرفوع ، ومهادٌ موضوع ، أُقْسِم بالله قسم حق ،إن لله ديناً أرضى مما أنتم عليه ، ما للناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟أم تُركوا فناموا ؟ سبيلٌ مُؤْتلف، وعملٌ مختلف ، وقال أبياتاً لا أحفظها » . فقال أبو بكر رضي الله عنه : أنا أحفظها ، فقال : هاتِها . فقال :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت مواردا للموتِ ليسَ لها مَصَادرْ
ورأيتُ قومي نحوَهَا يمضي الأكابر والأصاغرْ
لا يَرْجع الماضي ولا يَبْقَى من الباقين غابرْ
أيقنْتُ أني لامحالةَ حيثُ صار القوم صائرْ

فقال : «رحم الله قُساً إني لأرجوا أن يبعث أمة وحده » .

(٢) ورقة بن نوفل هو ابن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد استحكم في النصرانية ، وكان من أمره ما ذكره البخاري وغيره في حديث بدء الوحي ــ وأنه أدرك البعثة ، ولم يدرك الرسالة،وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن يُدركني يومُك أنْصُركَ نصراً مُؤَزَّراً .

(٣) وفي بعض النسخ : فقال أحدهم .

الله بها أَنَّ مَنْ آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومَنْ بقِي على يهوديته ونصرانيته وصابئيَّتِهِ ، وهو يؤْمن بالله واليوم الآخر فله أَجره ، ثم نسخ [١] ما قرر من ذلك بقوله تعالى : [وَمَنْ يَبْتَغ غَيْرَ الإسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ] [٢] ، وردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

[وَالَّذِينَ هَادُوا] هم اليهود ، وسُمُّوا بذلك لقولهم : (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) أَي : تبنا ، فاسْمُهم على هذا مِنْ هَادَ ، يَهُودُ .

وقال الشاعر :

إِنِّي امرؤٌ مِنْ مَدْحِهِ هَائِدُ

أَي تائِبٌ ، وقيل : نُسبوا إلى يهودا بن يعقوب ، فلما عُرب الإسم لحقه التغيير كما تُغَيِّر العرب في بعض ما عربت من لغة غيرها ، وحكي الزهراوي : أَن التهويد النطق في سكون ووقار ولين ، وأَنشد :

وَخُودٌ مِنَ اللائِي تَسَمَّعْنَ بالضُّحى قَرِيضَ الرُّدافَى بالغِنَاءِ المُهَوَّدِ [٣]

قال : ومِنْ هذا سميت اليهود ، وقرأَ أَبو السمال (هَادَوْا) بفتح الدال [٤] .

(١) ليس المراد نسخ ما وعدهم به سبحانه من الثواب والأجر على إيمانهم وعملهم الصالح ، بل المراد أن جميع الأديان منسوخة بالاسلام ، وقال بعضهم هذا القول لا يصح عن ابن عباس لأن النسخ لا يجوز أن يدخل الخبر الذي يتضمن الوعد ، وإنما يجوز دخوله في الأحكام الشرعية التي تتبدل وتتغير بتغير المصلحة .

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (آل عمران) .

(٣) قائله الراعي النميري يصف ناقة ــ وخود : الواو فيه أصلية ، وليست للعطف من (وَخَد) إذا أسرع ، والقريض : الشعر ــ والرُّدافي : الحداة والأعوان لأنه إذا أعيا أحدهم خلَفَه الآخر ، ويقال : هَوَّد الرجل إذا سكن ، وَهَوَّدَ إذا غنَّى وأطرب . ويقال : غناء مهوَّدٌ .

(٤) من المُهاداة ، أي : مال بعضهم إلى بعض ، أو تكون فاعل بمعنى فَعَل من الهداية ، ومادة القراءة الأولى : (هاء ، وواو ، ودال) ، ومادة القراءة الثانية : (هاء ، ودال ، وياء) .

[والنَّصَارَى] [١] لفظة مشتقة من النَّصْرِ ، إمَّا لأَن قريتهم تسمى ناصرة ، ويقال : نصرياً ، ويقال : نصرتا [٢] ،وإمَّا لأَنهم تناصروا ، وإمَّا لقول عيسى عليه السلام : (مَنْ أَنْصاري إلى الله) : ؟ قال سيبويه : واحدُهُ نَصْرَانٌ وَنَصْرَانة كَنَدْمان ونَدْمَانة وندامى ، وأنشد :

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كما سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ [٣]

وأنشد الطبري :

يَظَلُّ إِذَا دَارَ العَشِيَّ مُحَنَّفاً وَيُضْحِي لَدَيْهِ وَهْوَ نَصْرَانُ شَامِسُ [٤]

قال سيبويه : إلا أنه لا يستعمل في الكلام إلا بياء نسب [٥] ، قال الخليل : واحد النصارى نصري كمهري ومهارى .

والصابئ في اللغة : مَنْ خَرج من دين إلى دين ، ولهذا كانت

---

(١) النصارى واحده نصراني نسبة إلى الناصرة على غير قياس ، وقيل : جمع نَصْرَان كَنَدْمَان ونَدامى ، وقيل : جمع نَصْري كمهري ومهارى ، نسبة إلى قرية اسمها نصرة . قال الفيومي في المصباح : ورجل نَصْراني بفتح النون ، وامرأة نصْرانية ، وربما قيل نَصران ونَصرانة ، ويقال : هو نسبة إلى قرية اسمها نَصْرة ، قاله الواحدي ، ولهذا قيل في الواحد : نَصْريٌّ على القياس ، والنصارى جمعه مثل مَهْري ومهارى ، ثم اطلق النصرانيُّ على كل من تعبد بهذا الدين .

(٢) الذي في «لسان العرب» أنه يقال : نَصْرَى ونصري وناصرة ونصورية ، اسم قرية بالشام .

(٣) قائله أبو الأخزر الحماني يصف ناقتين طأطأتا رأسيهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة برأس النصرانيه إذا طأطأته في صلاتها ، ويقال : سجد الرجل وأسجد ، كما يقال : سجد البعير وأسجد إذا طأطأ رأسه .

(٤) كأنه يشير إلى نفاقه ، وأن له ديناً بالليل وديناً بالنهار . وفي تفسير الطبرى : «تراه إذا زار» .

(٥) يعني أن قولهم : النصارى جمع نصران ونصرانة إنما هو بحسب الأصل ، وأما بحسب الاستعمال فلا يكون إلا بياء النسب ، وجاءت نصرانة ونصران في الشعر للضرورة .

العرب (١) تقول لمن أسلم : قد صبأ ، وقيل : إنما سمتهم بذلك لمَّا أنكروا الآلهة ، تشبيهاً بالصابئين في المُوصل الذين لم يكن لهم بِرٌّ إلاَّ قولهم : «لا إلٰه إلا الله» . وطائفةٌ هَمَزَتْهُ وجعلته من صَبَأَت النجوم إذا طلعتُ وصَبَأَت ثَنِيَّةُ الغلام إذا خرجت ، قال أَبو علي : يقال : صبأْت على القوم بمعنى طرأْتُ ، فالصابىءُ التارك لدينه الذي شُرِع له ، إلى دين غيره ، كما أن الصابىءَ على القوم تارك لأَرضه ومنتقل إلى سواها ، وبالهمز قرأ القراءُ غير نافع ، فإنه لم يهمزه ، ومن لم يهمز جعله من صَبَا يصبُو إذا مال ، أَو يجعله على قلب الهمزة ياءً ، وسيبويه لا يجيزه إلاَّ في الشعر .

وأما المشار إليهم في قوله تعالى : [والصَابِئِين] فقال السدي : هم فرقة من أَهل الكتاب ، وقال مجاهد : هم قوم لا دين لهم ، ليسوا بيهود ولا نصارى (٢) ، وقال ابن أَبي نجيح (٣) : هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤْكل ذبائحهم ، وقال ابن زيد : هم قوم يقولون : «لا إلٰه إلا الله» ، وليس لهم عمل ولا كتاب ، كانوا بجزيرة الموصل ، وقال الحسن بن أَبي الحسن ، وقتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، ويصلون الخمس ، ويقرؤُون الزبور ، رآهم زياد بن أَبي سفيان فأَراد وضع الجزية عنهم حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة .

---

(١) وفي بعض النسخ : «قريش» بدلا من «العرب» .

(٢) أظهر الأقوال ما قاله مجاهد رحمه الله : وأنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه ، انظر تفسير الحافظ ابن كثير .

(٣) عبد الله بن أبي نجيح – من موالى بنى مخزوم – توفي سنة (١٣٢) هـ .

و[مَنْ] في قوله : [مَنْ آمَنَ بِاللهِ] ، في موضع نصب بدل من [الَّذِينَ](١) والفاءُ في قوله : [فَلَهُمْ] داخلة بسبب الإبهام الذي في (مَنْ) ، و [لَهُمْ أَجْرُهُمْ] ابتداءٌ وخبر ، في موضع خبر (إِنَّ) ، ويحتمل ويحسن أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالإبتداء ، ومعناها الشرط ، والفاءُ في قوله (فَلَهُمْ) مُوَطِّئة أن تكون الجملة جوابها ، و (لَهُمْ أَجْرُهُمْ) خبر (مَنْ) ، والجملة كلها خبر (إِنَّ) ، والعائد على (الَّذِينَ) محذوف لابد من تقديره(٢) وتقديره : (مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله) . وفي الإيمان باليوم الآخر اندرج الإيمان بالرسل والكتب ، ومنه ينفهم (٣) ـ لأن البعث لم يعلم إلا بإخبار رسل الله عنه تبارك وتعالى . وجمع الضمير في قوله تعالى : [لَهُمْ أَجْرُهُمْ] ، بعد أن وحد في (مَنْ آمَنَ) لأن (مَنْ) تقع على الواحد والتثنية والجمع ، فجائز أن يخرج ما بعدها مفرداً على لفظها ، أو مثنى أو مجموعاً على معناه ، كما قال عز وجل : [وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ] (٤) ، فجمع على المعنى ، وكقوله : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ)(٥) ثم قال : (خَالِدِينَ فِيهَا) ، فجمع على المعنى . وقال الفرزدق :

تَعَالَ فَإِنْ عاهَدْتَني لا تَخُونُني نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِيبُ يَصْطَحِبَانِ

فثَنَّى على المعنى . وإذا جرى ما بعد من على اللفظ فجائز أن يخالف

(١) بحث أبو (ح) رحمه الله في اعرابها بدلا من الذين آمنوا — في إعرابها خبراً عن (إن) على أنها مبتدأ وما بعدها خبر — قال : لا يتم ذلك إلا بتغاير الإيمانين . واختار أن تُعرب بدلا من المعاطف التي بعد اسم إن ، انظره في «البحر المحيط» ٢٤١/١ ، ٢٤٢ .

(٢) أي لدلالة الكلام عليه ، وإلا فالحذف بدون دلالة ممنوع .

(٣) أنكر أهل اللغة هذه المادة ، وقالوا : لا يقال انفهم الأمر ، وفي القاموس أنها لحن .

(٤) من الآية (٤٢) من سورة (يونس) .

(٥) من الآية (١٣) من سورة (النساء) .

به بعد على المعنى ، وإذا جرى ما بعدها على المعنى فلم يستعمل أن يخالف به بعد على اللفظ ، لأن الإلباس يدخل في الكلام [١] . وقرأ الحسن : (وَلاَ خَوْفَ) نصب على التبرئة ، وأما الرفع فعلى الابتداء ، وقد تقدم القول في مثل هذه الآية [٢] .

وقوله تعالى : [وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ] ، (إذْ) معطوفة على التي قبلها ، والميثاق مِفْعَال من وَثَقَ يثِق مثل ميزَان من وزَن يزِن ، و [الطُّور] اسم الجبل الذي نوجي موسى عليه ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم : الطور اسم لكل جبل ، ويستدل على ذلك بقول العجاج :

دَانَى جَنَاحَيْهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرّ تَقَضِّي البَازِي إِذَا البَازِي كَسَرْ [٣]

وقال ابن عباس أيضاً : الطور كل جبل ينبت ، وكلُّ جبل لا ينبت فليس بطور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا [٤] كله على أن اللفظة عربية ، وقال أبو العالية ، ومجاهد : هي سريانية ، اسم لكل جبل .

---

(١) انظر أبا (ح) في «البحر المحيط» ٢٤٢/١ فقد بحثه ورده ، قال : «وليس كما ذكر ، بل يجوز إذا راعيت المعنى أن تراعي اللفظ بعد ذلك ، لكن الكوفيين يشترطون الفصل في الجمع بين هذين الحملين ، والبصريون لا يشترطون ذلك .

(٢) عند تفسير قوله تعالى : (فمَنْ تَبِعَ هُدايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

(٣) يقال : تقضى البازي : انْقَضَّ — وكسر الطائر يكسر كسورا : ضم جناحيه حتى ينقض ، يريد الوقوع . فإذا ذكرت الجناحين قلت : كسر جناحيه كسراً .

(٤) أي : كون الطور اسما لجبل معين ، أو لكل جبل ينبت ، أو لكل جبل أنبت أو لم ينبت — على أن اللفظة عربية .

وقصص هذه الآية : أن موسى عليه السلام لمَّا جاءَ إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها ، فقالوا : لا ، إلا أن يُكَلِّمَنَا الله بها كما كلمك ، فصعقوا ، ثم أُحيوا ، فقال لهم : خذوها ، فقالوا : لا ، فأَمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأَخرج الله تعالى البحر من ورائهم وأَضرم ناراً بين أَيديهم ، فأَحاط بهم غضبه ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق أَلا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل ، وغرقكم البحر ، وأَحرقتكم النار ، فسجدوا توبةً لله ، وأَخذوا التوراة بالميثاق . وقال الطبري رحمه الله عن بعض العلماءِ : لو أَخذوها أَول مرة لم يكن عليهم ميثاق ، وكانت سجدتهم على شق لأَنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً ، فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أَفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها ، فأَمَرُّوا (١) سجودهم على شق واحد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والذي لايصح سواه ، أَن الله تعالى اخترع ـ وقت سجودهم ـ الإيمان في قلوبهم لاأَنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة (٢) ، وقد

---

(١) بالميم أي : سلكوا فيه هذا المسلك دائماً ، وفي بعض النسخ : فأقروا بالقاف .

(٢) في هذا تكلف ، والحق أنهم مكرهون على هذا الإيمان ، ومضطرون ، كما هو ظاهر النص الكريم ، وهم وإن كانوا مضطرين فاستحقاقهم للثواب بعد إنما يكون على عملهم ، لا على التزامهم ، وقد ثبت في شرعنا كما في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن قتل من أسلم بعد أن رأى السيف مصلتاً عليه ، واعتذر عن قتله بقوله : إنما قالها خوفاً ، ولم تكن عن قصد صحيح ـ قال له : « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها صدقاً أم لا » ؟ وقال : « إني لم أومر أن أنقّب عن قلوب الناس » .

اختصرت ما سرد في قصص هذه الآية ، وقصدت أَصَحَّه الذي تقتضيه أَلفاظ الآية ، وخلط بعضُ الناس صَعْقَةَ هذه القصة بِصَعْقَةِ السبعين .

وقوله تعالى : [خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ] في الكلام حذف تقديره : وقلنا : خذوا . وَ (آتَيْنَاكُمْ) معناه : أَعطيناكم ، و (بِقُوَّةٍ) ، قال ابن عباس معناه : بجد واجتهاد ، وقيل : بكثرة درس ، وقال ابنُ زيد : معناه بتصديق وتحقيق ، وقال الربيع : معناه بطاعةِ الله ، [واذْكُرُوا مَا فِيهِ] ، أَي تَدَبَّرُوه واحفظوا أَوامره ووعيده ولا تنسَوْه ولا تُضَيعوه (١) . والضمير عائد على (مَا آتَيْنَاكُمْ) ، ويعني التوراة ، وتقدير صلة (مَا) واذكروا ما استقر فيه ، و [لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] ، ترَجٍّ في حق البشر .

وقوله تعالى : [ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ] الآية ، تَوَلَّى تفَعَّل ، وأَصله الإعراض والإدبار عن الشيءِ بالجسم ، ثم استعمل في الإعراض عن الامور والأَديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً .

و [فَضْلُ اللهِ] رفع بالابتداءِ والخبر مضمر عند سيبويه لا يجوز إظهاره للاستغناءِ عنه ، تقديره : فلولا فضل الله عليكم تدارككم ، [وَرَحْمَتُهُ] عطف على (فَضْل) . قال قتادة فضــلُ الله الإسلام ، ورحمته القرآن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا على أَن المخاطب بقوله (عَلَيْكُمْ) لفظاً ومعنى منْ كان في مدة

(١) المقصود من الكتب السماوية هو تدبُّرها ، والعمل بمقتضاها ، لا مجرد تلاوتها وتردادها باللسان فإن ذلك إعراض عنها ، واطراح لها كما سيأتي هذا المعنى في قوله تعالى : (نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) قال الإمام مالك رحمه الله : «قد يقرأ القرآن مَنْ لا خير فيه ، فالمراد بالذكر هنا الذكرُ بالقلب ، وهو التدبُّر أو لازمهُ وهو العمل ، لامجرد الذكر باللسان» .

محمد صلى الله عليه وسلم ، والجمهور على أن المراد بالمعنى مَنْ (١) سلف ، و [لَكُنْتُمْ] جواب (لَوْلاَ) ، و [مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ] خبر كان ، والخُسْرَان ، النُّقْصان .

وتَوَلِّيهم من بعد ذلك إما بالمعاصي ، فكان فضلُ الله بالتوبة والإمهال إليها ، وإمَّا أن يكون توليهم بالكفر ، فكان فضل الله بأن لم يُعَاجِلْهم بالإهلاك ليكون مِنْ ذريتهم مَنْ يؤْمن ، أو يكون المراد مَنْ لحق محمدا صلى الله عليه وسلم ، وقد قال ذلك قوم ، وعليه يتجه قول قتادة : إن الفضلَ الإسلام ، والرحمةَ القرآنُ ، ويتجه أيضاً أن المراد بالفضل والرحمة إدراكُهُمْ مدَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

[عَلِمْتُمْ] معناه : عرفتم ، كما تقول : علمت زيدا بمعنى عرفتُه فلا يتعدى العلمُ (٢) إلا إلى مفعول واحد ، و [اعتدوا] معناه : تجاوزوا

(١) ويأتي له أن قوماً قالوا : إن المراد مَنْ حضر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا القول يصح ما قاله قتادة بن دعامة السدوسي البصري رحمه الله .

(٢) أي الذي معناه المعرفة .

الحد مصرف [١] من الاعتداءِ ، و (في ٱلسَّبْتِ) معناه : في يوم [٢] السبت ، ويحتمل أن يريد في حكم السبت ، و (السَّبْت) [٣] إما مأخوذ من السُّبوت الذي هو الراحة والدَّعَة ، وإما من السَّبْت وهو القطع ، لأَن الأَشياءِ فيه سبتت وتمت [٤] خِلقتها .

وقصة اعتدائهم فيه : أَن الله عز وجل أَمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة ، وعرَّفه فضْلَه ، كما أَمر به سائر الأَنبياءِ ، فذكر موسى ذلك لبني إسرائيل عن الله ، وأَمرهم بالتشرع فيه [٥] ، فأَبوا ، وتعدوه إلى يوم السبت ، فأَوحى الله إلى موسى أَن دعهم وما اختاروا من ذلك ، وامتحنهم فيه بأَن أَمرهم بترك العَمل ، وحرَّم عليهم صيْد الحيتان ، وشدَّد عليهم المِحْنة بأَن كانت الحيتان تأْتي يومَ السبت حتى تخرج إلى الأَفنية . قاله الحسن بن أَبي الحسن ، وقيل : حتى تخرج خراطيمها

---

(١) أي مشتق ، يقال : صُرِّف الكلام اشتقُ بعضُه من بعض .

(٢) ذلك لأنهم وإن كانوا يأخذونها في يوم الأحد فإنهم يحبسونها في يوم السبت ، فقد صادوها يوم حبسوها ، لا يوم أخذوها ، وبذلك يكون اعتداؤهم يوم السبت ، فقد خالفوا حكم الله وانتهكوا حرمة يوم السبت ، وبذلك كانت حيلتهم باطلة ، واستحقوا أن يكونوا قردة وخنازير .

(٣) اسم ليوم من أيام الأسبوع ومن معانيه في اللغة : الراحة — والدهر — وحلق الرأس ، وضرب من سير الابل ، وهو إما مأخوذ من السبوت بمعنى الراحة ، وإمَّا من السبت الذي هو في الأصل مصدر ، ومعناه القطع . كما قال المؤلف رحمه الله .

(٤) المعروف أن الله عز وجل خلق الأشياء في ستة أيام ، وقالوا : إنه سبحانه ابتدأ الخلق يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة ، وفي يوم السبت انقطع العمل وتم خلق الأشياء ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خَلَقَ الله التربَةَ يوْمَ السَبْتِ » ، إلا أن هذا الحديث الذي استوعب الأيام السبعة استنكره بعض الأكابر من الحفاظ ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعاً .

(٥) وفي بعض النسخ : « بالخشوع » وهي أولى وأنسب .

من الماء ، وذلك إما بإلهام[١] من الله تعالى ، أو بأمر لا يعلل ، وإما بأن فهمها معنى الأمنة [٢] التي في اليوم مع تكراره حتى فهمت ذلك ، ألا ترى أن الله تعالى قد ألهَمَ الدوابَّ معنى الخوف الذي في يوم الجمعة من أمر القيامة ؟ يقضي بذلك قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : «وما من دابة إلا وهي مصيخةٌ يوم الجمعة فرَقاً من الساعة» [٣] وحمام مكَّة قد فهم الأمنة اما انها متصلة [٤] فقرب فهمها .

وكان أمر بني إسرائيل بأَيْلَة[٥] على البحر ، فإذا ذهب السبت ذهبت الحيتان فلم تظهر إلى السبت الآخر ، فبقوا على ذلك زماناً حتى اشتهوا الحوت ، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتاً بِخَزَمَةٍ [٦] وضرب له وتداً بالساحل ، فلما ذهب السبت جاء وأخذه فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع ، وقيل : بل حَفَر رجل في غير السبت حفيراً ،

---

(١) أي ألهمها أنها لا تصاد في يوم السبت .

(٢) الأمنة هي سكون القلب واطمئنانه ، والمراد أنها فهمت بالتدريج وبالتكرار .

(٣) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» وأبو داود في كتاب «العلم» والنسائي في « فضائل القرآن » والترمذي في « التفسير » .

(٤) أي دائمة وذلك أن الأمنة في قضية الحيتان كانت مؤقتة بيوم السبت ، وفي حمام مكة كانت دائمة ومستمرة ولذلك كان فهمها سهلا وقريباً . وسياق الكلام يقتضي أن تحذف (اما) وأن تصبح العبارة (وحمام مكة قد فهم الأمنة لأنها متصلة) — تأمل .

(٥) (ايلة) : قرية عند العقبة على شاطىء البحر .

(٦) ما يُفْتَل من شجر الدوم ويخزم به أنف البعير ، وفي القرطبي «زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطاً ويضع فيه (وَهْقَة) ويلقيها في ذنب الحوت — واللفظة بالقاف لا بالفاء كما رواها القرطبي — وهي حبل في طرفه أنشوطة يطرح في عنق الدابة حتى تؤخذ . وفي البحر المحيط : « خزمة» أي : حبلا من لحاء شجر تتخذ من لحائه الحبال — وفي اللسان : حلقة من شعر تجعل في وترة أنفه يشد بها الزمام ا هـ . ولا عبرة بالمادة التي تصنع منها — فهي في كل بيئة تصنع من نوع مناسب — ولكنها توضع في أنف البعير أو كل دابة للسيطرة عليها .

فخرج إليه البحر فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفير ، فإذا جَزَر البحر ذهب الماءُ من طريق الحفير وبقي الحوت ، فجاءَ بعد السبت فأَخذه ، ففعل قومٌ مثل فعله ، وكثُر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية ، وباعوه في الأَسواق ، فكان هذا من أَعظم الاعتداءِ ، وكانت من بني إسرائيل فرقة نَهَتْ عن ذلك ، فنجَت من العقوبة ، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه ، فقيل : نَجَتْ مع الناهين ، وقيل هلكتْ مع العاصين .

و [كُونُوا] لفظة أَمر ، وهو أَمر التكوين ، كقوله تعالى لكل شيءٍ : (كُنْ فَيَكُون) ولم يُؤْمروا في المصير إلى حال المَسْخ بشيءٍ يفعلونه ولا لهم فيه تكسب ، و [خَاسِئِينَ] معناه : مبعدين أَذلاءَ صاغرين كما يقال للكلب وللمطرود : إِخْسَأْ ، تقول : خسأْته فخسأَ ، وموضعه من الإِعراب ، النصب على الحال ، أَو على خبر بعد خبر .

وروي في قصصهم أَن الله تعالى مسخ العاصين قردةً بالليل ، فأَصبح الناجون إلى مساجدهم ومجتمعاتهم ، فلم يروا أَحداً من الهالكين ، فقالوا : إن للناس لشأْناً ، ففتحوا عليهم الأَبواب كما كانت مغلقة بالليل ، فوجدوهم قِرَدَةً ، يعرفون الرجل والمرأَة ، وقيل : إن الناجين كانوا قد قسموا بينهم وبين العاصين القرية بجدار ، تبريا منهم ، فأَصبحوا ولم تفتح مدينة الهالكين ، فتسوروا عليهم الجدار ، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت ، أَن المسوخ (١) لا تنسل ،

---

(١) يقال : مسخ الله فلاناً فهو : مَسْخٌ ومَسِيخٌ والجمع مُسُوخ .

ولا تأْكل ، ولا تشرب ، ولا تعيش أكثر من ثلاثة أيام [(١)] ، ووقع في كتاب[(٢)] مسلم ، عنه عليه السلام : « أَن أُمَّة من الأُمم فقدت وأُراها الفأْر» ، وظاهر هذا أَن المسوخ تنسل ، فإن كان أَراد هذا فهو ظن منه عليه السلام في أَمر لا مدخل له في التبليغ ، ثم أُوحِيَ إليه بعد ذلك أَن المسوخ لا تنسل . ونظير ما قلناه نزوله عليه السلام على مياه بدر ، وأَمره باطراح تذكير النخل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أَخْبَرْتُكُمْ برأْي في أُمور الدنيا فإنما أَنا بشر »[(٣)] . وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أَنه إنما مُسخت قلوبهم فقط ، ورُدَّت

(١) هذا هو قول الجمهور ، ويشهد له ما أخرجه الإمام مسلم في كتاب « القدر » عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم القردة والخنازير أهي مما مُسِخ فقال : « إنّ الله لم يجعل لِمَسْخ نسْلاً ولا عَقِبا ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك» — وأما ما استدل به القاضي أبو بكر بن العربي ، والزجاج ، من حديث أبي هريرة : «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدري ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه ، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته ؟ » . ومن حديث الضب : « أُتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بضب فأبى أن يأكل منه وقال : لا أدرى لعله من القرون التي مُسخت » ، فهذا إنما هو ظن وحدس من النبي صلى الله عليه وسلم كما هو ظاهر من كلامه ، وكان ذلك قبل أن يُوحى إليه ، ولما أوحى إليه قال : « إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلا ، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك » ، فهذا نص صريح في أن الذين مسخهم الله قد هلكوا ، ولم يبق لهم نسل — وأن القردة والخنازير كانوا قبل مسخ بني إسرائيل — وقد ثبت كما في الصحيح أكْل الضب بحضرته صلى الله عليه وسلم ، فلم ينكره . فدلّ ذلك على صحة ما أشرنا إليه .

(٢) أي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) حديث تأبير النخل مروي عن رافع بن خديج ، قال : قدم نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يؤبرون النخل . يقول : يلقحون ، قال : فقال : «ما تصنعون » ؟ فقالوا شيئاً كانوا يصنعونه ، فقال : «لو لم تفعلوا كان خيراً » فتركوها فَنَفَضَتْ ، أو نقصت ، فذكروا ذلك له ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر ، إذا حدثتكم بشيء من دنياكم فإنما أنا بشر» . — انظر صحيح ابن حيان — وفي رواية : «أنتم أعلم بأمر دنياكم» رواه الإمام مسلم في وجوب امتثال قوله صلى الله عليه وسلم إلا ما قاله في الأمور الدنيوية على سبيل الظن . والله أعلم .

أفهامهم كأفهام القردة ، والأول أقوى وأظهر [١] . والضمير في (فَجَعَلْنَاهَا) يحتمل العود على المسخة والعقوبة ، ويحتمل على الأُمة التي مسخت ، ويحتمل على القردة ، ويحتمل على القرية إذ معنى الكلام يقتضيها[٢] وقيل : يعود على الحيتان ، وفي هذا القول بُعْدٌ .

والنَّكالُ : الزَّجْر والعقاب ، والنِّكْلُ والأَنكال قيود الحديد ، فالنَّكال عقاب يُنْكَل بسببه غيرُ المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل ،[٣] قال السدي : ما بين يدي المسخة ما قبلها من ذنوب القوم ، وما خلفها لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب [٤] ، وهذا قول جيد . وقال غيره : ما بين يديها أي من حضرها من الناجين ، وما خلفها لمن يجيءُ بعدها ، وقال ابن عباس : لما بين يديها أي من بعدهم من الناس ليَحْذَرَ ويتقي ، وما خلفها ، لمن بقي منهم عبرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما أَراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنه ، لأَن دلالة ما بين

---

(١) بل قول مجاهد قول غريب وبعيد ، انفرد به رحمه الله عن المفسرين ، بل عن المسلمين ، والحق أن المسخ كان صورياً ومعنوياً ، وهذا المسخ كان في زمن داود عليه السلام .

(٢) الظاهر رجوع الضمير إلى المسخة بمعنى العقوبة ، أو إلى القرية بمعنى الأمة ، إذ المراد بالقرية أهلها ، وأهلها هم الأمة التي مسخت ، وعود الضمير على القردة أو الحيتان بعيد .

(٣) يقال : نَكِلَ عن الأمر (بالفتح والكسر) : جبن وانصرف ، وانكله : دفعه وصرفه — ونكَّل به : عاقبه بما يردعه ويردع غيره — والنكَّال : العقاب أو النازلة والنِّكْلُ : القيد ، وضربٌ من اللجم ، وحديد اللجام أو الزمام — والجمع أنكال ونكول . قال تعالى : (إن لدينا أنكالا) أي قيوداً . والمراد لازم القيود وهو المنع — وعلى هذا يكون المراد : جعلنا العقوبة مانعة لما بين يديها وما خلفها ، والله أعلم .

(٤) قال الفراء : جُعلت المَسخة نكالا لما مضى من الذنوب ، ولما يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم ، والمراد ذنوبٌ تقدمت وأهلها ما زالوا في الحياة إذ ذاك ، فهم يخافون أن يفاجئهم المَسْخُ بسبب ما مضى من ذنوبهم ، والله أعلم .

اليد ليست كما في القول ، قال ابن عباس أيضاً : لما بين يديها وما خلفها أي من القرى (١) ، فهذا ترتيب أجرام لا ترتيب في الزمان (٢) . و [مَوْعِظَةً] مَفْعَلة من الاتِّعاظ والازدجار ، و [لِلمُتَّقِين] معناه : لِلذين نُهُوا ونَجَوْا ، وقالت فرقة : معناه لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، واللفظ يعم كل متَّقٍ من كل أُمَّة .

وقوله تعالى : [وإذ قَالَ موسي] الآية (٣) ، (إذْ) عطف على ما تقدم ، والمراد تذكيرهم بنقض سلفهم للميثاق ، وقرأ أبو عمرو : (يأْمُرْكُمْ) بإسكان الراء ، وروي عنه اختلاس الحركة ، وقد تقدم القول في مثله في (بَارِئِكُمْ) (٤)

وسبب هذه الآية على ما رُوي أنَّ رجلا من بني إسرائيل أَسَنَّ ، وكان له مال ، واستبطأ ابْنُ أخيه موتَه ، وقيل : أخوه ، وقيل : ابنا عمه ، وقيل : ورثةٌ كثيرٌ غيرُ معينين- فقتله ليرثه ، وألقاه

---

(١) أي ما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى ، ونحو ما قاله ابن عباس لسعيد بن جبير حيث قال : من بحَضْرتها من الناس يومئذ ، وقد أثنى على هذا ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن وهذا ترتيب في المكان لافي الزمان .

(٢) أي في «مكان الأجرام» لافي الزمان الماضي ولا في الزمان الآتي ، والله أعلم .

(٣) قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ) الآية ، مُقَدَّمٌ من حيث التلاوة واللفظ ، وقوله تعالى : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادارَأْتُمْ فِيهَا) مقدم من حيث المعنى على جميع ما ابْتُدِىء به في شأن البقرة ــ لأن السبب مقدم على المُسَبَّبِ ــ ولأن المُقَرَّر في علم العربية أن الواو لمجرد الجمع من دون ترتيب وإنما لم تُقَصَّ القِصَّةُ على ترتيبها لمعانٍ أشار إليها الزمخشري فارجع إليه .

(٤) سبق عند قوله تعالى : (فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ) أن أبا العباس المبرد أنكر هذا ، وقال : لا يجوز ، لأن الحرف حرف الإعراب ، وقال : الصحيح عن أبي عمرو أنه كان يختلس الحركة ولا يسكنها . انظر هناك .

في سبط آخر غير سبطه ليأْخذ دِيَتَه ، ويُلَطِّخَهُمْ بدمه ، وقيل : كانت بنو إسرائيل في قريتين متجاورتين فأَلقاه إلى باب أَحد المدينتين ، وهي التي لم يُقتل فيها ، ثم جعل يطلبه هو وسبطه حتى وجده قتيلا ، فتعلق بالسبط أَو بسكان المدينة التي وجد القتيل عندها ، فأَنكروا قتله ، فوقع بين بني إسرائيل في ذلك لحاءٌ [١] حتى دخلوا في السلاح . فقال أَهْلُ النهي منهم : أَنقتتل ورسول الله معنا ؟ ، فذهبوا إلى موسى عليه السلام ، فقصُّوا عليه القصة ، وسأَلوه البيان ، فأَوحى الله إليه أَن يذبحوا بقره فيضرب القتيل ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله ، فقال لهم : [إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً] فكان جوابهم أَن قالوا : (أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً) .

قرأَ الجحدري : (أَيَتَّخِذنَا) بالياءِ على معنى أَيتخذنا الله[٢] ؟ ، وقرأَ حمزة : (هُزْؤْ) بإسكان الزاي والهمز ، وهي لغة ، وقرأَ عاصم (هُزُؤٌ) بضم الزاي والهاءِ والهمز ، وقرأَ أَيضاً دون همز (هُزُواً) حكاه أَبو علي ، وقرأَت طائفة من القراءِ بضم الهاءِ والزاي ، والهمزة بين بين ، وروي عن أَبي جعفر ، وشيبة [٣] ضم الهاءِ وتشديد الزاي (هُزًّا) .

وهذا القول من بني إسرائيل ظاهره فسادُ اعْتِقَادِ مِمَّنْ قاله ، ولا يصح الإيمان ممن يقول لنبي قد ظهرت معجزته ، وقال : إن الله يأْمركم

(١) أي نزاع ومخاصمة ، ومنه : «مَنْ لاحاك فقد عاداك » وفي بعض النسخ « لَجَاج» .

(٢) أي : قال بعضهم لبعض : (أيتخذنا الله هزوا) . والجحدري هو عاصم أحد القراء السبعة.

(٣) هو ابن عمرو بن ميمون المعيصي ، رَوَى القراءة عن حماد بن سلمة عن عاصم ، وروى القراءة عنه عيسى بن مهران القومسي .

أن تذبحوا بقرة ، أتتخذنا هزؤاً ، ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره ، وذهب قوم إلى ذلك منهم على جهة غِلظ الطبع والجفاءِ والمعصية ، على نحو ما قال القائل [١] للنبي صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حنين : «إن هذه لقسمة ما أُريد بها وجه الله» وكما قال له الآخر : «أَعدل يا محمد» ، وكل محتمل [٢] والله أعلم .

وقول موسى عليه السلام : [أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ] ، يحتمل معنيين : أَحدهما الاستعاذة من الجهل في أَن يخبر عن الله تعالى مستهزئاً ، والآخر من الجهل كما جهلوا في قولهم (أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً) لمن يخبرهم عن الله تعالى .

قوله عز وجل :

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

(١) هو معتب بن قشير المنافق ، والآخر هو المعروف بذي الخُوَيْصرة التميمي ، وأخرج حديثيهما البخاري ومسلم .

(٢) أي أن هذا القول من بني إسرائيل يحتمل الكفر ويحتمل المعصية وذلك لبعد ما بين السؤال والجواب ، وفي هذا ما يدل على قبح الجهل ، وأنه مُفسد للدين ، وعلى منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ، وكل من يجب تعظيمه .

والمزاح ليس من الاستهزاء ــ فقد كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا صدقا ، وكذلك الأئمة بعده .

هذا تعنُّتٌ منهم وقِلَّةُ طواعية ، ولو امتثلوا الأَمر فاستعرضوا (١) بقرة فذبحوها لقضوا ما أُمروا به ، ولكن شدَّدُوا فشدد الله عليهم . قاله ابن عباس ، وأَبو العالية وغيرهما .

ولغة بني عامر (ادْعِ) (٢) بكسر العين ، و [ما] استفهام رفع بالابتداءِ و [هي] خبره ، ورفع [فَارِض] على النعت للبقرة على مذهب الأَخفش ، أَو على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره لاهي فارض . والفارض : المُسِنَّة الهَرِمة التي لا تلد ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وغيرهم.

تقول فرضت(٣) تفرض بفتح العين في الماضي فروضاً ، ويقال: فرُضت بضم العين ، ويقال لكل ما قَدُمَ وطال أَمده : فَارِضٌ ، وقال الشاعر(٤) :

يَارُبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِضِ لَهُ قُروءٌ كَقُرُوءِ ٱلْحَائِضِ

والبِكْرُ من البقر التي لم تلد من الصغر ، وحكى ابنُ قتيبة: إنها التي ولدت ولداً واحداً ، والبِكر من النساءِ : التي لم يمسها الرجل ، والبكر من الأَولاد : الأَول ، ومن الحاجيات : الأُولى . والْعَوَان : التي قد ولدت مرة بعد مرة قاله مجاهد ، والأَخفش ، وحكاه أَهل اللغة ، ومنه قول العرب : «العَوَان لا تُعَلَّمُ الخِمْرَةَ»(٥) ، وحرب عوان : قد قوتل فيها مرتين

---

(١) أي من دون بحث ، ومن دون سؤال .

(٢) تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ) الآية .

(٣) يقال : فرضت البقرة إذا أسَنَّت ، والماضي بفتح العين وضمها ، والمضارع بكسرها وضمها .

(٤) أي الراجز وهو العجاج ، والبيت أنشده «الجاحظ» في «الحيوان» ، و «ابن منظور» في «اللسان» عن ابن الأعرابي— وقوله : له قروء ، أي أوقات تهيج فيها عداوته ، ويقال : رجع لِقرئه أي لوقته ، وقوله : فارضٌ أي قديمٌ .

(٥) العَوانُ المرأة التي تزوجت مرة بعد أخرى فهي تعرف كيف تختمر ، وهو مثل يضرب للمجرب العارف .

فما زاد [١] . ورُفِعت عوان على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره هي عوان ، وجمعها عُوْنٌ بسكون الواو ، وسمع عُوُنٌ بتحريكهما بالضم [٢] . و[بَيْنَ] [٣] بابها أن تضاف إلى اثنين وأُضيفت هنا إلى ذلك ، إذ ذلك يشار به إلى المجملات ، فذلك عند سيبويه نازل منزلة ما ذَكَرْتُ [٤] . فهي إشارة إلى مفرد [٥] على بابه ، وقد ذكر اثنان فجاءت أيضاً (بين) على بابها .

وقوله : [فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ] تجديد للأمر ، وتأكيد ، وتنبيه على ترك التعنت فما تركوه ، و (ما) رفع بالابتداء و (لَوْنُهَا) خبره . وقال ابن زيد ، وجمهور الناس في قوله : (صَفْرَاءُ) ، إنها كانت كلها صفراءُ ، قال مكي رحمه الله عن بعضهم : حتى القرن والظلف ، وقال الحسن ابن أبي الحسن ، وسعيد بن جبير : كانت صفراءُ القرن والظلف فقط . وقال الحسن أيضاً : صفراءُ معناه سوداءُ ، وهذا شاذ لا يستعمل

---

(١) كأنهم جعلوا الأولى بكراً ، والحرب العوان هي أشد الحروب ، لأن القتال يتكرر فيها ويشتد ويتصاعد .

(٢) التحريك أصل ، والسكون تخفيف ، وحكى أبو الحسن الأخفش عن عيسى بن عمر : أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم ففيه لغتان : التخفيف ، والتثقيل نحو : العُسر واليُسر والهُزء ، ومما يقوي هذه الحكاية أن ما كان من المجموع على فُعُل نحو كُتُب ورُسُل ففيه الوجهان حتى جاء ذلك في المعتل العين الواوي نحو عون .

(٣) (بَيْنَ) ظرف مبهم لا يتبين معناه إلا بإضافته إلى اثنين فصاعداً ، أو ما يقوم مقام ذلك كقوله تعالى : « عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » .

(٤) وفي بعض النسخ ما ذكر .

(٥) أي : في اللفظ والصورة ، وأما في المعنى فهو عبارة عن المذكور ، والمذكور اثنان فكلمة (بَيْن) لم تخرج عن بابها وهو الإضافة إلى اثنين فأكثر ، و (ذلك) قائم مقام الاثنين هنا .

مجازاً إلا في الإبل (١) ، وبه فسر قول الأَعشى ميمون بن قيس :

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلادُهَا كَالزَّبِيبِ (٢)

والفقوع : نعتٌ مختص بالصفرة ، كما خص أَحمر بقانيءٍ ، وأَسود بحالك ، وأَبيض بناصع ، وأَخضر بناضر . و (لَوْنُهَا) فاعل بـ (فَاقِعٌ) ، و [تَسُرُّ النَّاظِرِينَ] ، قال وهب بن منبه ، كانت كأَن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، فمعناه تُعجب الناظرين ، ولهذا قال ابن عباس وغيره : «الصفرة تسر النفس» ، وحضَّ ابن عباس على لباس النِّعال الصُّفر (٣) ، حكاه عنه النقاش ، وحَكَى نَهْيَ ابن الزبير ، ويحيي ابن أَبي كثير عن لباس النعال السود ، لأَنها تُهِمُّ (٤) ، وقال أَبو العالية ، والسدي : تسر الناظرين معناه في سَمْتِهَا ومنظرها كلِّه ، وسأَلوا بعد هذا كله عما هي سؤال مُتَحيِّرين قد أَحسوا بمقت المعصية . و [البقر]

---

(١) اعلم أن الشاذ في الاصطلاح ثلاثة أقسام — ما شذ في القياس دون الاستعمال ، فهذا قويٌ في نفسه يصح الاستدلال به ، والثاني ما شذ في الاستعمال دون القياس ، فهذا لا يستدل به ، لأنه كالمفروض ، والثالث ما شذ فيهما معاً ، فهذا لا يُعوَّل عليه لفقد أَصْلَيْه . وهذا هو المراد بقول ابن عطية رحمه الله : (شاذ لا يستعمل مجازا) الخ . وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن :الصفراء بمعنى السوداء غلط في نعوت البقر ، وإنما يقال ذلك في ، نعوت الإبل ، وإنما كان هذا التفسير شاذاً وغلطاً للتأكيد بالفقوع ، وذلك نعت مختص بالصفرة ، ولو أريد السواد لما أكده بذلك — وأيضاً كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو أقبح الألوان أنه (يَسُرّ النّاظرين) ؟

(٢) الضمير في (منه) يعود على الممدوح وهو أبو الأشعث قيس بن قيس الكندي ،والركاب: الإبل والواحدة : راحلة ولا واحد لها من لفظها . وقوله كالزبيب أي سود ، ومن ذلك قوله تعالى (جمالتٌ صفر) أى سود — وقوله (هنّ) أي الركاب . ومن الطريف أن صاحب الكشف قال أن تفسير (صفر) بسود في بيت الأعشى غير ظاهر ، إذ الزبيب الغالب عند العرب هو الطائفي ، وهو إلى الصفرة أقرب منه إلى الحمرة .

(٣) وعنه : «من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها» ، وذلك قوله تعالى : (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) .

(٤) يقال : هَمّ الأمرُ فلاناً وأهمه أقلقه وأحزنه .

جمع بقرة ، ويجمع أيضاً على باقر ، وبه قرأ ابن يَعْمُر ، وعِكرمة ، وتجمع على بقير ، وبيقور [(١)] ، ولم يُقْرَأْ بهما فيما علمت .

وقرأ السبعة [تَشَابَهَ] فعل ماض ، وقرأ الحسن والأعرج (تشَّابهُ) بتشديد الشين وضم الهاءِ أصله تَتَشَابَهُ ، وهي قراءة يحي بن يعمر ، فأدغم ، وقرأ أيضاً (تَشَابه) بتخفيف الشين على حذف التاءِ الثانية ، وقرأ ابن مسعود (يشَّابه) بالياءِ وادغام التاءَ ، وحكى المهدوي عن المعيطي[(٢)] (تَشَبَّه) بتشديد الشين والباءِ دون ألف ، وحكى أبو عمرو الداني قراءة (مُتَشَبِّهٌ) اسم فاعل من تَشَبَّهَ ، وحكى أيضاً (يَتَشَابَهُ)[(٣)] .

وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابةٌ ما ، وانقياد ، ودليل ندم ، وحرص على موافقة الأمر ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لَولا ما استثنوا مَا اهْتَدَوْا إليها أبداً»[(٤)] ، والضمير في [إنَّا] هو اسم (إنَّ) ، و(مُهْتَدُونَ) الخبر ، واللام للتأكيد ، والاستثناءُ اعتراض قُدِّم على ذكر الاهتداءِ تَهَمُّماً به .

---

(١) الذي في «لسان العرب» أن هذه الألفاظ المذكورة كلها أسماء للجمع ، والبقر يذكّر ويؤنث .

(٢) هو محمد المعيطي الشامي المعروف بذي الشامة ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن ـ روى هارون بن موسى ، عن أبي نوح ، عنه أنه كان يقرأ : «إن البَاقِرَ يَشَّابهُ علينا» ، بألف بين الباء والقاف ، وتشديد الشين ، ورفع الهاء .

(٣) مجموع ما ذكره من القراءات سبع بقراءة السبعة ، ولاينبغى أن يُقرأ إلا بما وردت به رواية صحيحة ، فان القراءة سُنَّة متبعة .

(٤) رواه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعاً ، وقد روي هذا الحديث بألفاظ والمعنى واحد ، وقوله : « لولا ما استثنوا» أي لو لم يقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم أبداً .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

[ذلُولٌ] مُذَللة بالعمل والرياضة ، تقول بقرة ذلول ، بينة الذِّل ، بكسر الذال ، ورجل ذلول ، بيِّن الذُّل بضم الذال[1] وذلول نعت لبقرة أَو على إضمار هي ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (لاذلولَ) بنصب اللام [2] .

و (تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ) معناه بالحراثة ، وهي عند قوم : جملة في موضع رفع على صفة البقرة أي : لاذلول مثيرة . وقال قوم : تثير فعل مستأْنف ، والمعنى إيجاب الحرث ، وأنها كانت تحرث ولا تسقي [3] ، ولا يجوز

(١) يقال في الدواب : ذَلُول — وفي بني آدم : ذَلِيل — بعير ذَلُولٌ أي بيِّن الذِّل بالكسر ، ورجل ذليلٌ أي بين الذُّل بالضم ، وذلك كله فرق لغوي بينهما ، والذِّل بالكسر معناه السهولة والانقياد والذُّل بالضم معناه الضعف والهوان ، وقد يوصف الإنسان بذلول كالدابة ، وذلك ما صنعه ابن عطية رحمه الله ولكن مراعاة الفرق بينهما أحسن وأفضل .

(٢) أي على أنها نافية والخبر محذوف ، أي لاذلول هناك — وأبو عبد الرحمن هو : عبد الله ابن حبيب بن رُبَيِّعة بضم المهملة وكسر التحتانية بينهما موحدة مفتوحة السلمي المقرئ الكوفي — عن عمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود — وعنه إبراهيم النخعي وسعيد بن جُبير ، أقر القرآن أربعين سنة وإليه انتهت القراءة تجويداً أو ضبطا ومات سنة ٨٥ هـ وقبل سنة ٧٤ هـ .

(٣) رأي غير واضح ، إذ لو كانت تثير الأرض لكانت مذللة ، والله سبحانه قد نفى عنها ذلك بقوله : (لا ذَلُولٌ) .

أَن تكون هذه الجملة في موضع الحال ، لأَنها من نكرة (١) .

و [تَسْقِي ٱلْحَرْثَ] معناه بالسانية (٢) أَو غيرها من الآلات ، والحرث: ما حُرث وزُرع . و (مُسَلَّمَةٌ) بناءُ مبالغة (٣) من السلامة ، قال ابن عباس وقتادة ، وأَبو العالية : معناه من العيوب (٤) وقال مجاهد ، وقتادة : معناه من الشيات والأَلوان ، وقال قوم : معناه من العمل . و [لاشِيَةَ فِيهَا] أَي لاخلاف في لونها ، هي صفراءُ كلها ، لابياض فيها ، ولا حمرة ، ولا سواد . قاله ابن زيد ، وغيره . والموشى المختلط الأَلوان ، ومنه وشي الثوب تزيينه بالأَلوان ، ومنه الواشي لأَنه يزين كذبه بالأَلوان من القول ، والثَّوْرُ الأَشيه الذي فيه بُلْقَةٌ . يُقال : فرَسٌ أَبلق ، وكبْشٌ أَخْرج ، وتَيْسٌ أَبْرَق ، وكَلْبٌ أَبْقَع ، وثَوْرٌ أَشْيَه ، كل ذلك بمعنى البُلْقَة (٥) .

---

(١) إن كان يعني بالنكرة (بقرة) فهي نكرة موصوفة ، والنكرة الموصوفة يجيء منها الحال ، وإن عنى بها (لاذلول) فذلك هو قول الجمهور ولكن في كتاب سيبويه ما يدل على مجيء الحال من النكرة وإن كان الإتباع أفضل ، أنظر تفسير أبي (ح) .

(٢) السانية (بالنون) : وهي الناقة التي يُستقى عليها ، وفي المثل : « سير السواني سَفَرٌ لا ينقطع » ويقال : سنت الناقة تسنو سناوة وسناية إذا سقت الأرض .

(٣) ليس التضعيف هنا من أجل المبالغة ، وإنما هو تضعيف النقل والتعدية كما هو معلوم في علم العربية . تقول : سَلِمَ زيد وإن أردت تعديته تقول سَلَّمته ، وفرح زيد وفرَّحْته ، وهكذا، والله أعلم .

(٤) هذا التفسير أولى وأنسب بالمقام . وأما السلامة في العمل ومن اختلاط الألوان فقد وقع النص عليهما في الآية الكريمة .

(٥) البُلْقَةُ : سواد وبياض يقال : بلق الفرس بَلَقاً وبُلقة : كان فيه سواد وبياض . فهو أبلق ، وهي بلقاء وجمعه بُلق ، قال أبو حيان رحمه الله «وليس الأشْيَهُ مأخوذاً من (الشِّيَةِ) لاختلاف المادتين » — وأقول : إنَّ أهل اللغة ذكروا الأشْيَهَ في مادة (وَشَى) .

وهذه الأَوصاف في البقرة سببها أَنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم ، ودِينُ الله يُسر ، والتعمُّق في سؤال الأَنبياء مذموم (١) .

وقصة (٢) وجود هذه البقرة على ما رُوي أَن رجلا من بني إسرائيل وُلِدَ له ابن ، وكانت له عجلة فأَرسلها في غيضة ، وقال : اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي ، ومات الرجل ، فَلَمَّا كبِر الصبي قالت له أُمه : إن أَباك كان قد استودع الله عجلة لك ، فاذهب فخذها ، فذهب ، فلما رأَته البقرة جاءَت إليه حتى أَخذ بقرنيها ،وكانت مستوحشة فجعل يقودها نحو أُمه ، فلقيه بنو اسرائيل ووجدوا بقرته على الصفة التي أُمروا بها .

ورَوت طائفة أَنه كان رجل من بني إسرائيل براً بأَبيه ، فنام أَبوه يوماً وتحت رأْسه مفاتيح مسكنهما ، فمر به بائع جوهر ، فسامه فيه بستين أَلفاً ، فقال له ابن النائم : اصبر حتى ينتبه أَبي ، وأَنا آخذه منك بسبعين أَلفاً ، فقال صاحب الجوهر : أَنبه أَباك وأَنا أَعطيكه بخمسين أَلفاً ، فدام كذلك حتى بلغه مائة أَلف وانحط صاحب الجوهر إلى ثلاثين أَلفاً ، فقال له ابن النائم : والله لا أَشتريه منك بشيء ، برًّا بأَبيه ، فعوَّضه الله منه أَنْ وجدت البقرة عنده .

وقال قوم : وجدت عند عجوز تعول يتامى كانت البقرة لهم ، إلى غير ذلك من اختلاف في قصتها ، هذا معناه ، فلما وجدت البقرة ساموا

(١) في الحديث الصحيح : « وإنما أهلك مَنْ قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » ، وفي حديث سعد بن أبي وقاص المتفق عليه : « أعظم الناس جُرماً مَنْ سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسألته » .

(٢) ذكر في هذه القصة ثلاث روايات ، والذي يظهر أن ذلك مأخوذ من الإسرائيليات ، وذلك مما يجوز نقله ولكن لا نصدق ولا نكذب ولا نعتمد إلا على ما روي برواية مقبولة وصحيحة .

صاحبها ، فاشتط عليهم ، وكانت قيمتها على ما روي عن عكرمة ثلاثة دنانير ، فأتوا به موسى عليه السلام ، وقالوا : إن هذا اشتط علينا ، فقال لهم : أَرْضُوه في مِلْكِهِ فاشتروها منه بوزنها مرة ، قالَه عُبَيْدَة السلماني (١) ، وقيل : بوزنها مرتين ، وقال السدي : بوزنها عشر مرار . وقال مجاهد : كانت لرجل يبر أمه ، وأُخذت منه بملء جلدها دنانير ، وحكى مكي أن هذه البقرة نزلت من السماء ، ولم تكن من بقر الأرض ، وحكى الطبري عن الحسن أنها كانت وحشية .

و[الآن] مبني على الفتح ، ولم يتعرف بهذه الألف واللام ، ألا ترى أنها لا تفارقه في الاستعمال ؟ وإنما بُني لأنه ضُمِّن معنى حرف التعريف، ولأنه واقع موقع المُبْهَم (٢) ، إذ معناه هذا الوقت ، وهو عبارة عما بين الماضي والمستقبل ، وقرئ : (قالوا الْآن) بسكون اللام و همزة بعدها ، و (قالوا الْآن) بمدة على الواو وفتح اللام دون همز ، و (قالوا الآن) بحذف الواو من اللفظ دون همز ، و (قالوا أَلآن) بقطع الألف الأُولى وإن كانت ألف وصل ، كما تقول : يا أَلله .

و [جِئْتَ بِٱلْحَقِّ] معناه عند من جعلهم عصاة (٣) : بَيَّنْتَ لنا غايةَ البيان ، وجئْتَ بالحق الذي طلبناه ، لا أنه كان يجيءُ قبل ذلك

---

(١) هو عبيدة بن عمرو بالفتح أو ابن قيس السلماني أبو عمرو الكوفي التابعي الكبير ، أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يره ، فهو من المخضرمين ، أخذ القراءة عرضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وعن علي ، توفي سنة ٧٢ هـ .

(٢) أي ولوقوعه موقع اسم الإشارة إذ معناه : هذا الوقت الحاضر .

(٣) سبق عند تفسير قوله تعالى : (قالوا أتتَّخِذُنا هُزُوا) أن مِنَ الناس من حمل قولهم هذا على الكفر ، ومِنَ الناس من حمله على المعصية ، ومراد بن عطية رحمه الله تطبيق هذه الآية على التأويلين السابقين .

بغير حق ، ومعناه عند أبي زيد الذي حمل محاورتهم على الكفر : الآن صدقت ، وأذعنوا في هذه الحال حين بين لهم أنها سليمة ، وقيل : إنهم عيَّنوها مع هذه الأوصاف ، وقالوا هذه بقرة فلان ، وهذه الآية تُعطي أن الذبح أَصل في البقر ، وإن نحرت أَجزت (١) .

وقوله تعالى : [وَمَا كَادُوا (٢) يَفْعَلُونَ] ، عبارة عن تثبطهم في ذبحها ، وقلة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال محمد بن كعب القرظي : كان ذلك منهم لغلاءِ البقرة وكثرة ثمنها ، وقال غيره : كان ذلك خوف الفضيحة في أمر القاتل . وقيل : كان ذلك للمعهود مِن قِلَّة (٣) انقيادهم ، وتعنتهم على الأَنبياءِ ، وقد تقدم قصص القتيل الذي يراد بقوله

---

(١) في مختصر المالكية للشيخ خليل رحمه الله عاطفاً على الوجوب: « ونحر إبل ، وذبح غيره إن قَدَرَ وجازًا للضرورة إلا البقر فيندب الذبح » .

(٢) اختلف في معنى هذه الكلمة فقال بعضهم: (كاد) من أفعال المقاربة ، لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات — وقال بعضهم: (كاد) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال — فإنها إذا أثبتت نفت وإذا نفت أثبتت — وقال بعضهم،ومنهم ابن مالك : إذا استعملت مثبتة اقتضت نفي خبرها وإذا استعملت منفية اقتضت نفيه بطريق الأولى—واعتذر عن مثل قوله تعالى: (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) ،بأن هذا وارد على كلامين متباينين:أي فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له ، بل كان آيساً منه فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان — والصحيح من هذا الخلاف أنها فعل يقتضي المقاربة ولها حكم سائر الأفعال ، ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها فإنها لم توضع لنفيه ، وإنما استفيد من لوازم معناها ، فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً فيكون منفياً باللزوم ، وأما إن استعملت منفية فإن كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة كما إذا قلت : لايكاد البطال ينجح ، وإن كانت في كلامين كما هنا اقتضت وقوع الفعل بعد أنْ لم يكن مقارباً بل كان آيسا منه كما قال ابن مالك رحمه الله . وبعد فسبحان من فاوت بين عباده في الإدراك والفهم ، وفي المعرفة والعلم — قال لابراهيم عليه الصلاة والسلام : اذبح ولدك ، فتله للجبين وقال لبني إسرائيل : اذبحوا بقرة فذبحوها وما كادوا يفعلون .

(٣) هذا القول يقرب من القول الأول وهو الذى يظهر والله أعلم .

تعالى : [وإذ قَتَلْتُمْ نَفْساً] ، والمعنى قلنا لهم اذكروا إذْ قَتَلْتُمْ ، و[أَدَّارَأْتُمْ] أَصله : تدارأتم) . أُدغمت التاءُ في الدال ، فتعذر الابتداءُ بمُدْغَم فجلبت أَلف الوصل ، ومعناه تدافعتم أَي دفع بعضكم قتل القتيل إلى بعض . قال الشاعر :

صَادَفَ دَرْءُ السَّيْلِ دَرْءًا يَدْفَعُهُ . . . . (١)

وقال الآخر :

مِدْرَأُ يَدْرَأُ ٱلخُصُومَ بِقَوْلٍ مِثْلُ حَدِّ الصَّمْصَامَةِ الهُنْدُوَانِي»

والضمير في قوله (فيها) عائد على النفس ، وقيل : على القتلة . وقرأَ أَبو حَيْوَة ، وأَبو السوار الغنوي : [وإذْ قَتَلْتُمْ نَسَمَة (٢) فَادَّرَأْتُمْ] (٣) . وقرأَت فرقة : [فَتَدَارَأْتُمْ] على الأَصل . وموضع (ما) نصب بمُخْرِج

(١) وفي لسان العرب ما نصه : «وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه — صادَفَ دَرْءُ السَّيل دَرْءًا يَدْفَعُهُ — يقال للسيل — إذا أتاك من حيث لا تحتسبه سَيْلُ دَرْءٍ ، أي يدفع هذا ذاك وذاك هذا — ويقال : جاء السيل درءًا إذا جاء من بلد بعيد» — وفي تاج العروس ما نصه : وفي حديث أبي بكر :

صَادَفَ دَرْءُ السَّيْلِ سَيْلا يَدْفَعُه يُمْضِيه طَوْراً وَطَوْراً يَمْنَعُه

وروى عجز البيت بروايات منها :

. . . . يَهِيضُه حيناً وحيناً يَصْدَعُه

. . . . يَرْفَعُه حيناً وحيناً يَضَعُه

وقال ابن الأثير : وفي حديث أبي بكر والقبائل قال له دغفل : صادف ... الخ

وفي المعجم الوسيط (مادة درأ) : «وفي المثل : (صادف درء السيل درءاً يصدعه) . أي : صادف الشُّرشراً يغلبه ، يضرب لمن يجد من هو أقوى منه» ا هـ .

(٢) هكذا في النسخ التي بأيدينا ، ولم يذكر أحد من المفسرين فيما علمنا (نَسَمَةً) بدل (نَفْساً) على أنها قراءة ، ونقل أبو حيان عبارة ابن عطية هكذا : وقرأ أبو حيوة ، وأبو السوار الغنوي (وَإذ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّرَأْتُمْ فِيهَا) فانظره في «البحر المحيط» ١/٢٥٩ وفي الآية نسبة ما فعله بعضهم إلى الكل وهو شائع في كلام العرب .

(٣) أي من دون ألف قبل الراء ، ونقل أبو حيان أن أبا السوار قرأ (فَدَرَأْتُمْ) .

والمكتوم هو أمر المقتول. وقوله : [اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا] ، آية من الله تعالى على يدي موسى عليه السلام ،أن أمرهم أن يضربوا ببعض البقرة القتيل ،فَيَحْيَا ويخبر بقاتله ، فقيل : ضربوه : وقيل: ضربوا قبره لأن ابن عباس ذكر أنَّ أمر القتيل وقع قبل جواز البحر ، وأنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة ، وقال القرظي : لقد أُمروا بطلبها وما هي في صُلب ولا رحم بَعْد . وقال السدي : ضرب باللحمة التي بين الكتفين(١) وقال مجاهد ، وقتادة ، وعبيدة السلماني : ضرب بالفخذ ، وقيل ضرب باللسان ، وقيل : بالذنب ، وقال أبو العالية : بعظم من عظامها .

وقوله تعالى : [كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوتى] الآية ، الإشارة بذلك إلى الإحياء الذي تضمنه قصص الآية ، إذ في الكلام حذف تقديره فضربوه فحيي . وفي هذه الآية حضٌّ على العبرة ، ودلالة على البعث في الآخرة ، وظاهرها أنها خطاب لبني إسرائيل حيئنذ ، حُكي لمحمد صلى الله عليه وسلم ليُعْتَبَر به إلى يوم القيامة ، وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنها مقطوعة من قوله : [اضْرِبُوه بِبَعْضِهَا](٢) ورُوي أن هذا القتيل لما حيي ، وأخبر بقاتله عاد ميتاً كما كان ، واستدل مالك رحمه الله بهذه النازلة على تجويز قول القتيل(٣) ، وأن تقع معه القَسَامة .

(١) لا شيء يسند هذا التعين ، فالأولى أن نبهمه كما أبهمه الله تعالى ، وإذا بان لنا ما يعتمد من السنن فإننا نعتمده .

(٢) أي لا تتصل به ، ولا تخاطب من يخاطبه ، فهي خطاب لبني إسرائيل المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والخطاب في (اضربوه ببعضها) لبني إسرائيل الحاضرين للقصة .

(٣) أي قبول قول الجريح : فلانٌ قتلني ، أوْ دمي عند فلان مع القسامة ، وهي أن يحلف أولياؤه خمسين يميناً ، وإنما يصح هذا الاحتجاج إذا صحت القصة به وإلا فالآية لا تدل على صحة القسامة بقول القتيل قتلني فلان .

قوله عز وجل :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

[قَسَتْ] أي صَلُبَت وجَفَّت ، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . وقال ابن عباس : المرادُ قلوب ورثة القتيل ، لأنهم حين حيِيَ ، وقال إنهم قتلوه ، وعاد إلى حال موته أنكروا قتله ، وقالوا : كذب . بعد ما رأوا هذه الآية العظمى لكن نفذ حكم الله تعالى بقتلهم . قال عبيدة السلماني : ولم يرث قاتل من حينئذ[(١)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبمثله جاءَ شرعنا[(٢)] وحكى ، مالك رحمه الله في الموطأ : أَن قصة أُحيحة بن الجلاح في عمه هي التي كانت سبباً ألا يرث قاتل ثم ثبَّت ذلك الإسلام كما ثبَّت كثيراً من نوازل الجاهلية[(٣)] . وقال أبو العالية ،

(١) أي القاتل عمداً ، والآية لا تدل على حرمان القاتل من الإرث ، وإنما تدل على ذلك القصة التي جاء في آخرها فما ورث قاتل بعدها ممَّنْ قتله ، ولذلك اعتمد الإمام مالك في الموطأ قضية أحيحة بن الجلاح كما قاله القاضي أبو محمد رحمه الله .

(٢) وهذا دليل على أن شرع مَن قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ .

(٣) نص الموطأ : « وحدثني مالك ، عن يحيي بن سعيد ، عن عُروة بن الزبير أن رجلا من الأنصار يقال له أحيحة بن الجلاح ،كان له عم صغير هو أصغر من أحيحة ، وكان عند أخواله ، فأخذه أحيحة فقتله ، فقال أخواله : كنَّا أهل ثُمه ورمه ، حتى إذا استوى على عممه ، غلبنا حق امرئ في عممه . قال عروة فلذلك لا يرث قاتل مَنْ قتل ــ قال مالك: الأمر الذي=

وقتادة ، وغيرهما : إنما أراد الله قلوب بني إسرائيل جميعاً في معاصيهم وما ركبوه بعد ذلك . وقوله تعالى : [فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ] الآية ، الكاف في موضع رفع خبر لهي تقديره فهي مثل الحجارة [أَو أَشَدُّ] مرتفع بالعطف على الكاف ، أو على خبر الابتداءِ بتقدير تكرار هي ، و [قَسْوَةً] نصب على التمييز . والعرف في [أَوْ] ، أنها للشك ، وذلك لا يصح في هذه الآية[1] . واختلف في معنى [أو] ، هنا ، فقالت طائفة : هي بمعنى الواو كما قال تعالى : (آثِماً أَوْ كَفُوراً)[2] ، أي وكفوراً . وكما قال الشاعر[3] :

نَالَ الخِلافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَراً   كَمَا أَتَى رَبَّه مُوسَى عَلَى قَدَر

أي وكانت له . وقالت طائفة : هي بمعنى بل ، كقوله تعالى : (إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)[4] ، المعنى بل يزيدون . وقالت طائفة : معناها التخيير ،أي شبّهوها بالحجارة تصيبوا ، أو بأشد من الحجارة تصيبوا[5] . وقالت فرقة : هي على بابها في الشك ، ومعناه عندكم أيها المخاطبون ، وفي نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهي كالحجارة أو أشد

=لااختلاف فيه عندنا أن قاتل العمد لايرث من دية من قتل شيئاً ، ولا من ماله ، ولا يحجب أحداً وقع له ميراث ، وأن الذي يقتل خطأ لا يرث من الدية شيئاً ، وقد اختلف في أن يرث من ماله لأنه لا يتهم على أنه قتله ليرثه ، وليأخذ ماله ، فأحب إلي أن يرث من ماله ولا يرث من ديته .» انتهى .

(١) أي إجماعاً ، لأن الشك خلاف اليقين ، وهو على الله محال .

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (الإنسان) .

(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز .

(٤) من الآية (١٤٧) من سورة (الصافات) .

(٥) أي من دون جمع بينهما ، بخلاف الإباحة فلك أن تجمع بينهما نحو قم أو اقعد .

من الحجارة ؟ وقالت فرقة : هي على جهة الإبهام[١] على المخاطب ، ومنه قول أَبي الأَسود [٢] الدُّؤلي :

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبًّا شَدِيدًا   وَعَبَّاساً وحَمْزَةَ أَوْ عَلِيّا

ولم يشكَّ أَبو الأَسود ، وإنما قصد الإبهام على السامع ، وقدعورض أَبو الأَسود في هذا واحتج بقول الله تعالى : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ في ضَلالٍ مبين) [٣] ، وهذه الآية مفارقة لبيت أَبي الأَسود ، ولا يتم معنى الآية إلا بأَوْ . وقالت فرقة : إنما أَراد الله تعالى أَنَّ فيهم مَنْ قلبه كالحجر ، وفيهم مَنْ قلبه أَشد من الحجر[٤] ، فالمعنى فهي فرقتان كالحجارة أَو أَشد ، ومثل هذا قولك أَطعمتك الحلو أَو الحامض ، يريد أَنه لم يخرج ما أُطعمته عن هذين . وقالت فرقة : إنما أَراد عز وجل أَنها كانت كالحجارة يُترجى لها الرجوع والإنابة كما تتفجر الأَنهار ويخرج الماءُ من الحجارة ، ثم زادت قلوبهم بعد ذلك قسوة

---

(١) أي التشكيك ، والفرق بين الشك والتشكيك أن المتكلم في الشك لا يعرف التعيين وفي التشكيك يعرفه ، ولكن أبهمه على السامع كقوله تعالى : (وإنَّا أوْ إيَّاكُم لعَلَى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبِين) .

(٢) اسمه ظالم بن عمرو البصري وهو من أعيان التابعين ، ويعتبر من الشعراء والمُحَدِّثين والنَّحْويين ، وهو أول من تكلم في النحو . وبعد البيت المذكور :

فَإنْ يَكُ حبُّهم رشداً أُصِبْه   وليسَ بِمُخْطِئي إنْ كان غيَّا

توفي سنة ٩٦ هـ .

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (سبأ) .

(٤) يعني أن منهم من قلبه كالحجارة، ومنهم من قلبه أقسى من الحجارة.فهي للتفصيل كما كما هي في قوله (أطعمتك الحلو أو الحامض). أي مرة أطعمتك الحلو ومرة الحامض ، بحيث لايخرج الإطعام عنهما ، وما نسبه المؤلف رحمه الله إلى الفرقة بعد يقرب من هذا . والله أعلم .

بأَن صارت في حد من لا تُرجى إنابته ، فصارت أَشد من الحجارة فلم تخل أَن كانت كالحجارة طورا أَو أَشد طورا ، وقرأَ أَبو حيوة (قَسَاوَةً) ، والمعنى واحد .

وقوله تعالى [وإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ] الآية معذرة للحجارة ، وتفضيل لها على قلوبهم في معنى قلة القسوة . وقال قتادة : عَذَرَ الله تعالى الحجارة ولم يعذر شقيَّ بني آدم . وقرأَ قتادة : (وإِنْ) ، مخففة من الثقيلة ، وكذلك في الثانية والثالثة ، وفرق بينها وبين النافية لام التأْكيد في [لَمَا] ، و [ما] في موضع نصب إسم لإِنَّ ، ودخل اللام على اسم (إِنَّ) لما حال بينهما المجرور ، ولو اتصل الإسم بإِنَّ لم يَصِحَّ دخولُ اللام لثقل اجتماع تأْكيدين . وقرأَ مالك بن دينار [(١)] (يَنْفَجِر) بالنون وياءٍ من تحت قبلها وكَسْر الجيم . ووحد الضمير في [مِنْه] حملا على لفظ (ما) . وقرأَ أُبي بن كعب ، والضحاك (مِنْهَا ٱلأَنهارُ) حملا على الحِجَارة . والأَنهار جمع نهر[(٢)] ، وهو ما كثر ماؤُه جرياً من الأَخاديد . وقرأَ طلحة بن مصرف (لَمَّا) بتشديد الميم في الموضعين وهي قراءة غير متجهة . و [يَشَّقَّقُ] أَصلهُ يتَشقَّقُ ، أُدغمت التاءُ في الشين ، وهذه[(٣)] عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أَنهارا ، أَو عن الحجارة التي تَشَّقَّق وإِنْ لم يجر ماءٌ منفسح [(٤)] .

---

(١) أبو مالك يحي بن دينار البصري ، من العلماء الزاهدين ، عرف بالورع ، وكان يكتب المصاحف بالأجر – توفي سنة (١٣١) ه .

(٢) بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح .

(٣) يعني أن قوله تعالى : [وإِنَّ مِنْهَا لمَا يَشَّقَّقُ] ، هي في العيون التي تكون دون الأنهار ، أو في الحجارة التي تشقق عن ماء يسير .

(٤) أي كثير ، يقال انفسح المراح : كثرت إبله ، وفي بعض النسخ منسفح ،والماءالمنسفح هو المراق ولكنه يكون قليلا .

وقرأ ابن مصرف : (ينْشَقِقُ) بالنون . وقيل في هبوط الحجارة(١) : تفيؤ ظلالها ، وقيل : المراد الجبل(٢) الذي جعله الله دكًّا ، وقيل : إن الله تعالى يخلق في بعض الأحجار خشية وحياة يهبط بها من علو تواضعاً .

ونظير هذه الحياة حياة الحجر المسلِّم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وحياة الجزع الذي أَنَّ لفقد النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : لفظة الهبوط مجاز (٣) ، وذلك أن الحجارة ـ لما كانت القلوب تعتبر بخلقها ، وتخشع ببعض مناظرها ـ أضيف تواضع الناظر إليها كما قالت العرب : «ناقة تاجرة» ، أي تبعث من يراها على شرائها (٤) . وقال مجاهد : «ما تردَّى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج ماءٌ منه إلا من خشية الله نزل بذلك القرآن» ، وقال مثله ابن جريج ، وحكى الطبريُّ عن فرقة : أن الخشية للحجارة مستعارة (٥) كما استُعيرت

---

(١) محصل ما أشار إليه رحمه الله في تأويل الهبوط من خشية الله خمسة أقوال : الأول : معنى هبوطها : تفيؤ ظلالها أي تقلبها من مكان إلى مكان ، والثاني : يعني هبوطها : اندكاك الجبل الذي تجلى له ربه في قضية موسى عليه السلام ، والثالث : أن الله سبحانه يخلق في بعض الأحجار حياة وخشية يهبط بها من علو تواضعاً ، كما قال الإمام مجاهد : ما تردى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا نزل ماء منه إلا من خشية الله ، وقد قوّى ابنُ عطية رحمه الله هذا القول ، والرابع : أن الهبوط مجاز عن تواضع الناظر إلى الحجارة ، والخامس : أن خشية الحجارة مستعارة ومتخيلة . والله أعلم .

(٢) الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، إذ جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً .

(٣) أي عن التواضع .

(٤) أي لما فيها من النجابة والفراهة فهي نافقة وداعية إلى الإقبال على شرائها .

(٥) أي متخيلة بمعنى أن من نظر إلى الحجر هابطاً تخيل فيه خشية الله .

الإرادة للجدار في قوله تعالى : (يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ)[١] ، وكما قال زيد الخيل :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حُجُرَاتِهِ تَرَى الأُكمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[٢]

وكما قال جرير :

. . . . الجِبَـالُ الخُشَّـعُ[٣]

أي من رأى الحجر[٤] هابطاً تخيل فيه الخشية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف ، لأن براعة معنى الآية تختل به ، بل القَوِيُّ أن الله تعالى يخلق للحجارة قدراً ما من الإدراك تقَعُ به الخشية والحركة[٥].

و[بغَافِلٍ] في موضع نصب خبر [ما] ، لأنها الحجازية ، يُقَوِّي ذلك دخول الباءِ في الخبر ، وإن كانت الباءُ قد تجيءُ شاذة مع التميمية .

---

(١) أي كأنه يريد ، لأنه ظهر فيه من الميل ما لو ظهر من حيٍّ لدل على إرادته الانقضاض .

(٢) زيد الخيل : هو زيد بن مهلهل الطائي ، يكنى أبا مكنف ، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٩ هـ وأسلم ، وسماه زيد الخير ، جعل ما ظهر من تأثر الأكم بالحوافر سُجُوداً لها ، يعني أنه تخيل ذلك ، والخيال باب واسع ، وقوله : (بِجَمْعٍ) يتعلق بما قبله وهو :

بَنِي عَامِرٍ ، هَلْ تَعْرِفُونَ إذَا غَدَا أَبُو مكنف قَد شَدَّ عقد الدَّوابر

والحُجُرات جمع حُجْرة : النواحي ، ويقال : بَلِقَ الفرس : كان فيه سواد وبياض .

(٣) نص البيت بتمامه :

لمَّا أتى خَبَرُ الزُّبيــر تَواضَعَت سُور المَدينةِ والجِبــالُ الخُشَّعُ

وهو لجرير بن عطية يصف مقتل الزبير بن العوام حين انصرف من وقعة الجمل وقتل في الطريق ، والمدينة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، تواضعت هي وجبالها ، وخشعت حزناً لموته رضي الله عنه ، أي كأنها كذلك ـ وإنَّما أنَّثَ الفعل في البيت لأن المضاف إلى المؤنث مؤنث .

(٤) يعني أن الجدار المائل تخيل فيه الإرادة .

(٥) أي قدراً من الإدراك والمعرفة لائقاً بحالها وطبيعتها ، فإن المعرفة أنواع ، ومعرفة الإنسان غير معرفة الحيوان ، ومعرفة الحيوان غير معرفة الجمادات ، وكل ذلك بخلق الله تعالى فيها قوة تسمى معرفة . والله أعلم .

وقرأ ابن كثير: (يعملون) بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: [أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ] الآية. الخطاب للمؤمنين من أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أَن الأَنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم. ومعنى هذا الخطاب التقرير [(١)] على أَمر فيه بُعْدٌ، إذ قد سلفت لأَسلاف هؤلاء اليهود أَفاعيل سوءٍ، وهؤلاء على ذلك السَّنَن. والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه كالحزب. وقال مجاهد، والسدي: عني بالفريق هنا الأَحبار الذين حرفوا التوراة في صفة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل: المراد كلُّ مَنْ حرَّف في التوراة شيئاً حُكْماً أَو غيره، كفعلهم في آية الرجم ونحوها، وقال ابن اسحق، والربيع: عني السبعون الذين سمعوا مع موسى، ثم بدَّلوا بعد ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول ضعف، ومن قال إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أَخطأَ، وأَذهب فضيلة موسى عليه السلام، واختصاصه بالتكليم. وقرأ الأَعمش (كَلِمَ الله)، وتحريف الشيءِ إمالته مِن حال إلى حال[(٢)]،

---

(١) أي الحمل على الإقرار، والاعتراف بما فيه بعْدٌ وهو إيمان اليهود، والمراد أن الاستفهام فيه معنى الإقرار كأنه قيل: قد طمعتم في إيمان هؤلاء وحالهم بعيد عن الإيمان. وقد تجري الهمزة مجرى الإنكار في كثير من المواضع إذا لم يكن معها نفي، فإذا جاءت مع النفي استدعت الإقرار نحو: (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)؟ فجوابه: بلى. وجواب (أَفَتَطْمَعُونَ): لا، على ما أشرنا إليه.

(٢) التحريف: تغيير الكلام عن مواضعه ومعانيه وإمالته مِن حال إلى حال، فهو مأخوذ من الانحراف بمعنى المَيلان، والتحريف يشمل تحريف المعاني وتحريف الألفاظ، إلا أنه لا ينبغي الإفراط في أنهم قد حرَّفوا الكل أو الجُلَّ، فهناك ما قد بُدِّل، وهناك ما لم يبدل، ولكن التحريف والتبديل طبيعة فيهم، وكل ما يصدر عنهم موضع شك.

وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل ، ولفظُ التوراة باق ، وذهب جماعة من العلماء إلى أنهم بدَّلوا ألفاظاً من تلقائهم ، وأن ذلك ممكن في التوراة لأنهم استُحْفِظوها ، وغير ممكن في القرآن لأن الله تعالى ضَمِن حفظه .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المعنى : وهم أيضاً إذا [لقُوا] يفعلون هذا ، فكيف يُطمع في إيمانهم . ويحتمل [(١)] أنْ يكون هذا الكلام مُسْتَأْنَفاً مقطوعاً مِنْ معنى الطمع ، فيه كشْفُ سرائرهم . وَوَرَدَ في التفسير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا يدخُلَنَّ عَلَيْنَا قَصَبَةَ المدينة إلا مؤمن»[(٢)] . فقال كعب بن الأشرف ووهب بن يهودا ، وأشباههما : اذهبوا وتحسسوا أخبار من آمن بمحمد ، وقولوا لهم آمنا ، واكفروا إذا رجعتم ، فنزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس : نزلت في منافقين من اليهود ، وروي عنه أيضاً أنها نزلت في قوم من اليهود قالوا لبعض المؤمنين : نحن نؤمن أنه نبيٌّ ، ولكن ليس إلينا ، وإنما هو إليكم خاصة ، فلما خلوا قال بعضهم :

(١) هذا الاحتمال أوْجَه ، لأن القصد فضح نفاقهم وكشف سرائرهم ، ويؤيده ما ذكره ابن عطية من الأقوال في سبب نزول الآية الكريمة .

(٢) رواه ابن جرير عن ابن زيد ، والقَصَبَةُ المدينة : والإضافة ، بيانية .

لِمَ تُقِرُّون بِنُبُوَّتِهِ وقد كنا قَبْلُ نستفتح به ؟ فهذا هو الذي فتح الله عليهم من علمه ، وأصل [خَلا] خَلَوَ تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً . وقال أبو العالية وقتادة ، : إن بعض اليهود تكلم بما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم كفرة الأحبار : أَتُحَدِّثُونهم بما فتح الله عليكم – أي عَرَّفَكُمْ من صفة محمد – فيحتجون عليكم إذ تُقِرُّون به ولا تؤمنون به(١) ؟ وقال السدي : إن بعض اليهود حكى لبعض المسلمين ما عُذِّب به أسلافهم ، فقال بعض الأحبار : أَتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ، فيحتجون عليكم ، ويقولون : نحن أكرم على الله حين لم يفعلْ بنا هذا ؟ ، وفَتَحَ – على هذا التأْويل – بمعنى : حَكَمَ .

وقال مجاهد : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبني قريظة : يا إخوة الخنازير والقردة . فقال الأحبار لأتباعهم : ما عرف هذا إلا من عندكم . أَتُحَدثونهم ؟ وقال ابن زيد : كانوا إذا سُئلوا عن شيءٍ قالوا : في التوراة كذا وكذا ، فكرهت الأحبار ذلك ونهوا في الخلوة عنه ، ففيه نزلت الآية . والفتح في اللغة ينقسم أقساماً تجمعها بالمعنى التوسعةُ وإزالة الإبهام ، وإلى هذا يرجع الحكم وغيره (٢) ،

(١) على قول أبي العالية يكون (فَتَح) عليكم معناه : علَّمكم وعرَّفكم ، وعلى قول السدي يكون معناه : بما حكم وقضى مِنْ تعذيبهم ، وعلى قول ابن زيد يكون المعنى : بما بيَّن وأنزل ، وكل هذه المعاني ترجع إلى الحكم والقضاء أو التوسعة وإزالة الإبهام .

(٢) قال الإمام ابن جرير رحمه الله : «أصل الفتح في كلام العرب القضاء والحكم ، ،المعنى أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ؟ ومن حكمه تعالى وقضائه فيهم ما وأخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم » . انتهى.

والفَتَّاح هو القاضي بلغة اليمن ، و[يُحَاجُّوكُمْ] مِنَ الحُجَّة وأصله من حَجَّ إذا قصد ، لأَن المتَحَاجَّيْن كل واحد منهما يقصد غلبة الآخر ، و [عِنْدَ رَبِّكُمْ] معناه في الآخرة (١) ، وقيل (عِنْدَ) بمعنى : في ربكم – أي فيكونون أحق به ، وقيل : المعنى : عند ذكر ربكم . وقوله تعالى : [أَفَلا تَعْقِلُونَ] ، قيل : هو من قول الأَحبار (٢) للأَتباع ، وقيل : هو خطاب من الله للمؤمنين ، أي : أَفلا تعقلون أَنَّ بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأَحوال ؟ . والعقل علوم ضرورية (٣) .

وقرأَ الجمهور : (أَوَلا يَعْلَمُونَ) بالياءِ من أَسفل ، وقرأَ ابن محيصن (أَوَلَا تَعْلَمُونَ) بالتاءِ خطاباً للمؤمنين .

والذي أَسَرُّوه : كفرُهم – والذي أعلنوه : قولُهم : آمنا ، هذا في سائر اليهود ، والذي أَسَرَّهُ الأَحبار : صِفَةُ محمد صلى الله عليه وسلم والمعرفة به ، والذي أَعلنوه : الجَحْدُ به ، ولفظ الآية يعم الجميع . و[أُمِّيُّونَ] هنا عبارة عن جَهَلَةٍ بالتوراة . قال أَبو العالية ، ومجاهد ، وغيرهما : المعنى : ومن هؤلاءِ اليهود المذكورين . فالآية مُنَبِّهَة على عامتهم وأَتباعهم ، أَيْ أَنَّهم ممَّن لايُطمع في إيمانهم ، لِمَا غمرهم من الضلال . وقيل : المراد هنا بالأُمِّيِّين قومٌ ذهب كتابُهم لذنوب ركبوها فبقوا

(١) أي عند اجتماعهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) فهو متعلق بقوله تعالى : (لِيُحَاجُّوكُمْ) .

(٢) أي من تمام كلامهم .

(٣) هذا قول القاضي أَبي بكر الباقِلاَّنِي المالكي ، وتبعه إمام الحرمين في كتابه : «الإرشاد». ومعناه أن العقل هو نفس العلوم الضرورية ، أي الوجوب والاستحالة والجواز – واستدلوا على ذلك بأنه لا يتصف بالعقل من هو عار عن العلوم كالحَجَر – والحق أنَّ العقل نور ، أو قدرة ، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية ، وليس من قبيل العلوم ، والله أعلم .

أُميين . وقال عِكرمة والضَّحَّاك : هم في الآية نصارى العرب ، وقيل : عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال : هم المجوس ، والضمير في [مِنْهُمْ] على هذه الأَقوال هو للكفار أَجمعين ، وقول أَبي العالية ، ومجاهد وَجْهُ(١) هذه الأَقوال ، وقرأَ أَبو حيْوَة ، وابن أَبي عبلة : [أُمِيُّون] بتخفيف الميم ، والأُمِّيُّ في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأُ في كتاب ـ نُسِبَ إلى الأُمِّ ، إما لأَنه بحال أُمه من عدم الكتاب ، لابحال أَبيه ، إذ النساءُ ليس من شغلهن الكتاب ، قاله الطبري ، وإمَّا لأَنه بحالِ ولدته أُمه فيها ، لم ينتقل عنها ، وقيل : نُسب إلى الأُمة وهي القامة والخلقة ، كأَنه ليس له من الآدميين إلا ذلك ، وقيل : نسب إلى الأُمة على سذاجتها قبل أَن تعرف المعارف ، فإنها لا تقرأُ ولا تكتب ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في العرب : «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّية ، لا نحسب ولا نكتب»(٢) الحديث ، والأَلف واللام في [الكتاب] للعهد ، ويعني به التوراة في قول أَبي العالية ، ومجاهد .

والأَماني جمع أُمْنِيَة ، وقرأَ أَبو جعفر ، وشيبة(٣) ، ونافع ،

---

(١) أي أصحُّها وأظهرها ، وذلك لأن الله تعالى لمَّا وصف اليهود بالعناد ، وأزال الطمع عن إيمانهم بَيَّن فِرَقَهم ، فالأولى هي الضالة المضلة ، والثانية فرقةُ المنافقين ، والثالثة فرقة المجادلين للمنافقين ، والرابعة فرقة العامة الأميين .

(٢) هذا الحديث رواه الشيخان ، وأبو داود ، والنسائي ، ويعني بالحساب حساب النجوم وسيرها ، والمراد لا نحتاج في أداء عباداتنا إلى حساب ، ولا إلى كتاب ، وأمية الشريعة مِن كمالاتها ومحاسنها ، إذْ بذلك يتسنى لها أن تكون للناس كافة .

(٣) هو شيبة بن نصاح بن سرجس ـ مولى أم سلمة رضي الله عنها ـ كان مقرئ المدينة مع أبي جعفر وقاضيها ، توفي سنة (١٣٠) هـ .

في بعض ماروي عنه [أَمَانِيَ] بتخفيف الياء(١) ، وأَصل أُمْنِيَة أُمْنُوِيَة على وزن (أُفعولة)(٢) ، ويُجْمَع هذا الوزن على (أَفاعل) ، وعلى هذا يجيءُ تخفيف الياء ، ويجمع على (أَفاعيل) ــ فَعَلَى هذا يجيءُ أَمانيي ، أُدغمت الياءُ في الياء فجاءَ أَمانيّ واختلف في معنى [أَماني] فقالت طائفة : هي هنا من تَمَنَّى الرجل إذا تَرَجى(٣) فمعناه أَنَّ منهم من لا يكتب ولا يقرأُ ، وإِنما يقول بظنه شيئاً سمِعه فتمنى أَنَّه من الكتاب ، وقال آخرون : هي من تمنى إذا تلا ، ومنه قوله تعالى (إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنِيَتِه)(٤) ومنه قول الشاعر :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَولَ لَيْلِهِ وآخِرَهُ لاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ(٥)

فمعنى الآية : أَنهم لا يعلمون الكتاب إلا سماع شيءٍ يُتْلى لاعلم لهم بصحته ، وقال الطبري : هي من تَمَنَّى الرَّجل إذا حدَّث بحديث مختلق كذب ، وذكر أَهل اللغة أَن العرب تقول : تَمَنَّى الرجل إذا

(١) أى من دون اعتداد بحرف المد الموجود في المفرد ، إذ أصل أمنية أمنوية ــ وقد ذكروا أن كل ما هو بزنة جمع الجمع يجوز تخفيف يائه وتشديدها « كالعواري ، والسواري ، والعلالي والأواني ، والأثافي ، والأماني ، والأغاني ، » ــ وممن ذكر هذه القاعدة الجوهري في صحاحه ، وابن السكيت في إصلاحه .

(٢) أي ثم أعلت إعلال سيِّد وميِّت ــ فإذا جمعت على أفاعل كانت الياء مخففة ، وإذا جمعت على أفاعيل كانت مُشددة للإدغام ، وعلى هذا بنيت القاعدة التي أشرنا إليها آنفاً .

(٣) حاصله أقوال ثلاثة : قيل : مِنْ تمنى الرجل شيئاً إذا ترجاه وقدَّر حصوله ، وقيل : مِنْ تمنى الكتابَ قرأه وتلاه ، وقيل : مِنْ تمنى إذا كذب واختلق ، وحمْلُه على الأول وهو تمني القلب أوْلى ، ومنهم من حمله على الثاني وهو تمني اللسان لما فيه من نوع تعلق بما قبله وهو أليق بطريق الاستثناء .

(٤) من الآية (٥٢) من سورة (الحج) .

(٥) البيت لحسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ونسب إلى كعب ابن مالك في رثاء عثمان أيضاً .

كذَب ، واختلق الحديث ، ومنه قول عثمان رضي الله عنه[١] : «ما تَمَنَّيْتُ ولا تَغَنَّيْتُ منذ أَسلمت » . فمعنى الآية أن منهم أُمِّيِّينَ لايعلمون الكتاب إلا أنهم يسمعون من الأَحبار أشياءَ مختلفة يظنونها من الكتاب ، [وإنْ] نافية بمعنى (ما) ، والظنُّ هنا على بابه في الميل[٢] إلى أَحد الجائزين .

قوله عز وجل : [٣]

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[الذين] في الآية يراد بهم الأَحبار والرؤساءُ ، قال الخليل : الويل شدة الشر : وقال الأَصمعي : الويل القبوح ، وهو مصدر لا فعل له ،

---

(١) في لسان العرب – وفي حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه : « ما تغنيتُ ، ولا تمنيتُ ، ولا شربتُ خمراً في جاهلية ولا إسلام» ، وفي رواية : «ما تمنيتُ منذ أسلمتُ أي ما كذبت» ، ولعل المراد بقوله ما تغنيتُ أي بالشعر ، والله أعلم .

(٢) أي أن الظن في الآية مستعمل في بابه وهو ترجيح أحد الطرفين على الآخر إذ لا يمكن حمله على اليقين ، ولا يلزم من كونه راجحاً عندهم أن يكون راجحاً في نفس الأمر . ثم إن الآية دلالة على اكتساب المعارف ، فرارا من التقليد والتخمين واعتماد من لا يؤمن كذبه – وذم الاكتفاء بالظن في أصول الدين إذ الإيمان مؤسس على قواعد اليقين .

(٣) لمَّا بيَّن سبحانه حال من يتمسكون بحبال الأماني والظنون ، بيَّن حال دعاة الضلال الذين يأكلون أموال الناس بالباطل أي بالزور والكذب ، على وجه الدعاء عليهم بالويل .

ويجمع على ويلات ، والأَحسن فيه – إذا انفصل – الرفعُ ، لأَنه يقتضي الوقوع(١) ويصح النصب على معنى الدعاء(٢) ، أَي أَلزمه الله ويلا .

وَوَيْلٌ ، وَوَيْحٌ ، وَوَيْسٌ ، وَوَيْبٌ ، تتقارب في المعنى ، وقد فرق بينها قوم (٣) ، وروى سفيان ، وعطاءُ بن يسار (٤) ، أَن الويل في هذه الآية وادٍ يجري بفنـاءِ جهنم من صديد أَهـل النار ، وروى أَبوسعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه وادٍ في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أَربعين خريفاً(٥) ، وقال أَبو عِيَاض : إِنه صهريج في جهنم . وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه جبل من جبال النار(٦) ، وحكى الزهراوي عن آخرين أَنه باب من أَبواب جهنم . و (الَّذِينَ يَكْتُبُون) هم الأَحبار الذين بدَّلوا التوراة ، وقوله [بِأَيْدِيهِمْ] بيانٌ لجُرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله ،

وفرْقٌ بين من كَتَبَ وبين من أَمر ، إذ المتولي للفعل أَشدُّ مواقعة مِمَّنْ لم يَتَولَّه ، وإن كان رأْياً له ، وقال ابن السراج : هو كناية

(١) وقد تدخل الهاء على ويل فتصير ويلة وهي الفضيحة والبلية كما قال الشاعر :
لأُمِّكَ وَيْلَةٌ وعليْكَ أُخْرى فلا شاة تُنيلُ ولا بَعِير

(٢) يريد أنه إذا لم يضف يصح رفعه على الابتداء لما فيه من معنى الدعاء ، ونصبه على إضمار الفعل ، وأما إذا أضيف فليس إلا النصب لأنه إذا رفع لا يكون له خبر . ويقال في التعجب ويلمّه كما قال علي رضي الله عنه : «ويْلُمّه كيلا بغير ثمن لو أن له وعاء» .

(٣) إلا أنه لم يقرأ بذلك أحد .

(٤) سفيان هو أبو عبد الله الثوريُّ . وعطاء كان فقيهاً قاضياً — وكان والده مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه .

(٦) رواه ابن جرير الطبري .

عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم (١) ، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم .

والذي بدلوا هو صفة النبي صلى الله عليه وسلم ليستديموا رياستهم ومكاسبهم ، وقال ابن اسحق : كانت صفته في التوراة أسمر ربعة فردُّوه آدم طويلا ، وذكر السدي أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبي صلى الله عليه وسلم ويبيعونها من الأعراب ، ويبثونها في أتباعهم ، ويقولون : هي من عند الله . وتناسق (٢) هذه الآية على التي قبلها يُعطي أن هذا الكتْبَ والتبديل إنما هو للأتباع الأُميين الذين لايعلمون إلا ما قرئَ لهم .

والثمن – قيل : عَرَض الدنيا ، وقيل : الرِّشا(٣) والمآكل التي كانت لهم ، ووصفه بالقلة إمَّا لفنائه ، وإمَّا لكونه حراماً . وكرر الويل لتكرار الحالات التي استحقوه بها (٤) ، و[يَكْسِبُونَ] معناه من المعاصي والخطايا ، وقيل : من المال الذي تضمنه ذِكْرُ الثمن .

---

(١) الذي دل على ذلك قوله تعالى : (يكتبُون الكتاب) – فإسناد الكتابة إليهم مفيد لذلك . وقوله تعالى : (بأيْديهم) هو تأكيد بقصد التغليظ والتشنيع ، وأيضاً فمباشرة العمل باليد لا يقتضي الاختلاق ، ثم إن الكتابة تكتسب كما تكتسب المعارف – وكان الكتَّاب في العرب من أهل الطائف اكتسبوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار – وقيل للعرب : أميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة وقليلة – وفي الحديث : «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب» – ومن الآيات المعجزة كونه صلى الله عليه وسلم أمياً لأنه يتلو القرآن بالنظم الذي أنزل عليه من دون زيادة ولا نقصان ، وقد كان الخطيب في العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها أو نقص – فالأمية في النبي صلى الله عليه وسلم مُعْجِزَة ، وفي غيره مَعْجزَة .

(٢) أي مجيئها على سَنَن ونظام ما قبلها يعطي – إلخ .

(٣) الرِّشا بكسر الراء المشددة وبضمها جمع رشوة بالكسر والضم أيضاً .

(٤) يعني الكتابة بأيديهم ، وكسب المال بالباطل ، فالكتابة مقدمة ، وكسب المال نتيجة .

وقوله تعالى [لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّار] الآية ، روى ابن زيد ، وغيره ، أَن سببها أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود : «مَن أهل النار» ؟ فقالوا : نحن ، ثمَّ تخلفوننا أنتم ، فقال لهم : «كذبتم ، لقد علمتم أَنَّا لا نخلفكم» ، فنزلت هذه الآية [١] . ويقال : إن السبب أَنَّ اليهود قالت : إن الله تعالى أَقسم أَنْ يدخلهم النار أَربعين يوماً عدد عبادتهم العجل ، قاله ابن عباس [٢] ، وقتادة ، وعطاءٌ .

وقالت طائفة : قالت اليهود : إن في التوراة أَن طول جهنم مسيرة أَربعين سنة ، وأَنهم يقطعون في كل يوم سنة ، حتى يكملوها وتذهب جهنم . وقال ابن عباس [٣] أَيضاً ، ومجاهد ، وابن جريج ، إنهم قالوا: إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأَن الله تعالى يعذبهم بكل أَلف سنة يوماً . و [اتَّخَذْتُمْ] أَصله : أَئتخذتم ، وزنه أَفتعلْتم من الأَخذ ، سُهِّلت الهمزة الثانية لامتناع جمع همزتين فجاءَ أَيتخذتم ، فاضطربت الياءُ في التصريف جاءت أَلفاً في ياتخذوا ، وواوا في موتخذ ، فبدلت بحرف جلد [٤] ثابت وهو التاءُ وأَدغمت ، فلما دخلت في هذه الآية أَلف التقرير استغني عن أَلف الوصل . ومذهب أَبي علي أَن اتَّخَذْتُمْ من تخِذ لا من أَخَذ ، وقد تقدم ذكر ذلك[٥] .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والبخاري والنسائي ، من حديث أبي هريرة بألفاظ مختلفة . انظر كتاب الجزية من البخاري .

(٢) رواه عنه ابن جرير .

(٣) رواه الطبراني ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه ، فالأيام المعدودة إما سبعة أيام ، وإما أربعون يوماً .

(٤) أي قوي من جنس ما بعدها .

(٥) عند تفسير قوله تعالى : (ثُمَّ اتَّخَذْتُم العِجْلَ مِن بعْدِهِ وأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) .

وقال أَهل التفسير : العهد من الله في هذه الآية الميثاق والموعد ، وقال ابن عباس وغيره : معناه هل قلتم لا إله إلا الله ، وآمنتم ، وأَطعتم ، فتدلون (١) بذلك ، وتعلمون أنكم خارجون من النار ؟ فعلى هذا التأْويل الأَول يجيءُ المعنى : هل عاهدكم الله على الذي تدَّعُون ؟ وعلى التأْويل الثاني يجيءُ : هل أَسلفتم عند الله أَعمالا توجب ما تدَّعُون ؟

وقوله : [فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ عَهْدَهُ] اعتراض أَثناءَ الكلام (٢) .

و [بَلَى] ردٌّ بعد النفي ، بمنزلة نعم بعد الإيجاب ، وقال الكوفيون : أَصلها [بَلْ] التي هي للإضراب عن الأَول ، وزيدت عليها الياءُ ليحسن الوقف عليها ، وضُمِّنت الياءُ معنى الإيجاب والإنعام بما يأْتي بعدها . وقال سيبويه : هي حرف مثل [بَلْ] وغيره ، وهي في هذه الآية ردٌّ لقول بني إسرائيل : [لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ] ، فرَدَّ الله عليهم ، وبيَّن أَن الخلود في النار والجنة بحسب الكفر والإيمان . و[مَنْ] شرط في موضع رفع بالابتداءِ و[أُولَئِكَ] ابتداءٌ ثان و[أَصْحَابُ] خبره ، والجملة خبر الأَول ، و [الفاءُ] مُوَطِّئة أَنْ تكون الجملة جواب الشرط . وقالت طائفة : السَّيِّئة :

---

(١) يحتمل أن يكون من الإدلال بمعنى الثقة ، قال في اللسان : « هو يُدِلُّ بفلان : « أي يثق به » ويحتمل أن يكون من الإدلال بالحجة ، ويحتمل أن يكون من التدلل — والمعنى على كل : يتوسلون بذلك .

(٢) يريد أن قوله تعالى : (أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مالا تعْلمُون) : معادل لقوله (قُلْ أَتخذتُم عِنْدَ الله عَهْداً) فصارت هذه الجملة بينهما اعتراضية لا محل لها من الإعراب ، والمعنى : أيهذين واقع : اتخاذكم العهد عند الله ، أو افتراؤكم على الله؟ وهذا الكلام خرج مخرج التردد وإن كان الله يعلم ما هو واقع ، ونحو الآية قوله تعالى : (وإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَال مُبين)

الشرك ، كقوله [ومَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ في النَّارِ] (١) والخطيئات كبائر الذنوب ، وقرأ قوم [خَطِيئَتُهُ] بالإفراد ، وقال قوم : السيئة الكبائر وأفرادها وهي بمعنى الجمع لما كانت تدل على الجنس ، كقوله تعالى : [وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ](٢) والخطيئة : الكفر ، ولفظة الإحاطة تُقَوِّي هذا القول ، وهي مأخوذة من الحائط المحدق بالشيء . وقال الربيع بن خيثم ، والأعمش ، والسدي ، وغيرهم : معنى الآية : مات بذنوب لم يتب منها ، وقال الربيع أيضاً : مات على كفره ، وقال الحسن بن أبي الحسن ، والسدي : كل ما تَوَعَّد الله عليه بالنار فهي الخطيئة المحيطة .

والخلود في هذه الآية على الإطلاق والتأبيد في المشركين ، ومستعار بمعنى الطول في العصاة ، وإن عُلم انقطاعه كما يقال : ملك خالد ، ويدعى للملك بالخلد .

وقوله تعالى : [والَّذِينَ آمَنُوا] الآية يدل هذا التقسيم على أن قوله : [مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً] الآية ، في الكفار ، لا في العصاة ، ويدل على ذلك أيضاً قوله : [وَأَحَاطَتْ] لأن العاصي مؤمن فلم تُحِط به خطيئته ، ويدل

(١) من الآية (٩٠) من سورة النمل ، وتفسير السيئة بالشرك هو ما يتعين حمل الآية عليه لِمَا ثبت في الأحاديث الصحيحة المتواترة من أن عُصاة المؤمنين لا يُخَلَّدون في النار ، ويؤيد ذلك نزول الآية في اليهود ، كما يؤيد ذلك أن سيئة واحدة لا توجب الخلود في النار إلا إذا كانت أكبر السيئات ، وهي سيئة الكفر والشرك ، ولذلك قال سبحانه (وأحَاطت بِهِ خطِيئَتُهُ) أي غمرته من جميع النواحي فلم تبق له حسنة ، ومن هنا يؤْخذ أن الحكم المترتب على شرطين لا يثبت إلا عند وجودهما معاً ، فالسيئة التي لا تحيط بحسنات الإنسان لا توجب خلوداً في النار ، ويؤيد ذلك أيضاً المقابلة بقوله تعالى (والذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالِحَات) الخ . كما سيجيء عند ابن عطية رحمه الله ، فالقرائن كلها تنبيء أنَّ الآية في الكفار لا في العصاة والله سبحانه يقول (إنَّ الله لا يَغْفِر أنْ يُشْرك به ، ويَغْفِر ما دُون ذلك لِمَنْ يَشَاء) .

(٢) من الآية (٣٤) من سورة (إبراهيم) — أو من الآية (١٨) من سورة (النحل) .

على ذلك أيضاً أن الرد كان على كفار ادعَوْا أنَّ النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة ، فهم المراد بالخلود (١) ، والله أعلم .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المعنى : واذكروا إذْ أخذنا ، وقال مكي رحمه الله : هذا هو الميثاق الذي أُخذ عليهم حين أُخرجوا من صلب آدم كالذَّر ، وهذا ضعيف ، وإنما هو ميثاق أُخذ عليهم وهم عقلاءُ في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام .

وأَخْذُ الميثاق قولٌ ، فالمعنى قلنا لهم : [لاتَعْبُدُونَ] ، وقرأَ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي [لا يَعْبُدُونَ] بالياءِ من أسفل ، وقرأَ الباقون بالتاء

---

(١) أتى رحمه الله بثلاث من الدلائل عل أن المراد بالسيئة في الآية الكفر والشرك لا المعصية الكبيرة ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً . هذا وإن من شأن الإيمان إذا أفرد أن تدخل فيه الأعمال لقول النبي صلى الله عليه وسلم : «الإيمان بضع وستون ــ أو بضع وسبعون ــ شعبة أعْلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» . وأما إذا عُطف العمل على الإيمان كما في هذه الآية فقد يقال : إن ذلك من باب عطف الخاص على العام ، وقد يقال : إنهما شيئان كالفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، وقد بين حديث جبريل كما في مسند الإمام أحمد أن الإيمان في القلب حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : «الإسلام علانية ، والإيمان في القلب» .

من فوق ، حكاية ما قيل لهم ، وقرأ أُبي بن كعب ، وابن مسعود ، [لاتَعْبُدُوا] على النهي . وقال سيبويه : [لاتَعْبُدُونَ] متعلق بقسم ، والمعنى : وإذ استخلفناكم والله لا تعبدون . وقالت طائفة : تقدير الكلام بأَلا تعبدوا إلا الله ، ثم حذفت الباءُ ، ثم حذفت أَن فارتفع الفعل لزوالها ، فلا تعبدون على هذا معمول لحرف النصب [١] ، وحُكي عن قطرب : أَن (لا تعبدون إلا الله) في موضع الحال ، أَيْ أَخذنا ميثاقهم موحدين[٢] ، وهذا إنما يتجه على قراءَة ابن كثير ، ونظام الآية يدفعه مع كل قراءَة[٣] .

وقال قوم : [لا تَعْبُدُونَ إلا اللهَ] نهي في صيغة خبر[٤] ، ويدل على ذلك أَن في قراءَة أُبَي (لاتَعْبُدُوا) ، والباءُ في قوله : [وبِالْوَالِدَيْنِ] قيل : هي متعلقة بالميثاق ، عطفاً على الباءِ المقدرة أَولا على قول من قال : التقدير : بأَن لا تعبدوا . وقيل : تتعلق بقوله [إِحْسَاناً] ، والتقدير :

(١) قال المبرد رحمه الله : « هذا خطأ لأن كل ما أضمر في العربية فهو يعمل عمله مظهراً» ، والحق أنه ليس بخطأ ، فهما وجهان صحيحان في العربية – وعليهما أنشد سيبويه قول طرفة ابن العبد :

ألا أيُّهَذَا الزّاجِري أحْضُرَ الْوَغَى وأنْ أشْهَدَ اللّذّاتِ . هَلْ أنْتَ مُخْلِدِي؟

(٢) أي ملتزمين التوحيد . وقطرب هو محمد بن المستنير أبو على – نحوي لغوي – أخذ عن سيبويه . توفي سنة (٢٠٦) ه .

(٣) هو كذلك ، فإن قوله تعالى : (لا تَعْبُدُونَ إلا الله) بيان للميثاق ، ومثل هذه المعاني إنما يُدرك حسنُها بالذّوق السليم ، لأن مجيء الحال من المضاف إليه لا يجوز على الصحيح .

(٤) هو أبلغ من صريح الأمر والنهي كقوله تعالى : (ولا يُضَارَّ كاتبٌ ولا شَهِيدٌ) وكقولك : « تذهب إلى فلان وتقول له كذا» وكأنه بذلك يخبر عن المسارعة إلى الامتثال والانتهاء . ويتحصل مما ذكره ابن عطية أن قوله تعالى : (لا تَعْبُدُونَ إلا الله) لا يخلو إما أن يكون حالا مقارنة ، وقد تقدم ما فيه ، وإما أن يكون متعلقاً بقسم ، وإما أن يكون لفظه خبر ومعناه الطلب ، وإما أن يكون على تقدير ألا تعبدوا فحذفت أن فارتفع الفعل ، والرأي الثالث أحسن ، ويؤيده قراءة أُبي ، وابن مسعود ، والأوامر التي جاءت بعده .

قلنا لهم : لاتعبدون إلا الله ، وأَحسنوا إحساناً بالوالدين ، ويعترض هذا القول بأَن المصدر قد تقدم عليه ما هو معمول له (١) ، وقيل : تتعلق الباءُ بأَحسنوا ، المقدر ، والمعنى : وأَحسنوا بالوالدين إحساناً ، وهذا قولٌ حسن ، وقدم اللفظ بالوالدين تهمماً فهو نحو قوله تعالى : [إِيَّاكَ نَعْبُدُ] وفي الإِحسان تدخل أَنواع بر الوالدين كلُّها ، [وذِي] عطف على الوالدين و [القُرْبَى] بمعنى القرابة ، وهو مصدر كالرُّجْعَى والعُقْبى ، وهذا يتضمن الأَمر بصلة الرحم ، [والْيَتَامَى](٢) جمع يتيم كنديم وندامى ، واليُتْم في بني آدم فقْدُ الأَب ، وفي البهائم فقد الأُم ، وقال عليه السلام : «لايُتْمَ بَعْدَ بُلُوغ»(٣) . وحكى الماوردي(٤) أَن اليُتْم يقال في بني آدم في فقد الأُم . وهذا يتضمن الرأْفة باليتامى وحيطة أَموالهم ، [والمَسَاكِينِ] جمع مسكين ، وهو الذي لاشيءَ لَه ، لأَنه

---

(١) الصحيح هو جواز تقدم معمول المصدر عليه ، انظر تفسير أبي (ح) فقد نقل كلام ابن عطية ثم قال : «وهذا الاعتراض إنما يتم على مذهب أبي الحسن في منعه تقديم مفعول نحو ضربا زيداً ، وليس بشيء لأنه لا يصح المنع إلا إذا كان المصدر موصولا بأن ينحل لحرف مصدري والفعل ، أما إذاكان غير موصول فلا يمنع تقديمه عليه ، فجائز أن تقول : ضربا زيداً ، وزيداً ضربا ، سواءكان العمل للفعل المحذوف العامل في المصدر ، أو للمصدر النائب عن الفعل — فعلى اختلاف المذهبين في العامل يجوز التقديم .» ا هـ . البحر المحيط ١/٢٨٤ .

ولقد جاء في الآية الكريمة ترتيب الحقوق الواجبة ، فأولها حق الله وهو توحيده وعبادته ، وثانيها حقوق المخلوقين وأولهم حق الوالدين ، ثم القرابة ، واليتامى ، والمساكين .

(٢) قال ابن السِّكِّيت : قالوا : يتامى ، والأصل يتائم ، فقلب ثم فتح للتخفيف .

(٣) رواه أبو داود في كتاب «الوصايا» ، والبيهقي في شعب الإيمان ، ولفظ الجامع الصغير : «لا يُتْمَ بعد احتلام» وهو بضم الياء وفتحها ، والمشهور أن اليتيم في الآدمي من فُقِدَ أبوه ، وفي البهائم من فُقدت أمه ، وإذا فُقد الأبوان يُقال للصغير لَطِيمٌ .

(٤) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري ، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري ، وكان من فقهاء الشافعية المعروفين ، ومن كتبه «الإقناع» في المذهب — توفي (٤٥٠) هـ — وفيات الأعيان ٢—٤٤٤ .

مشتق من السكون ، وقد قيل : إن المسكين هو الذي له بُلْغَةٌ (١) من العيش ، وهو على هذا مشتق من السَّكَن ، وهذا يتضمن الحض على الصدقة والمواساة ، وتفقد أَحوال المساكين .

وقوله تعالى : [وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً] ، أَمر ـ عطف على ما تضمنه : [لا تَعْبُدُونَ إلا الله] ، وما بعده من معنى الأَمر والنهي ، أَو على أَحسنوا المقدر في قوله : [وبِالْوَالِدَيْنِ] . وقرأَ حمزة ، والكسائي (حَسَناً) بفتح الحاءِ والسين ، قال الأَخفش : هما بمعنى واحد كالبُخْل والبَخَل ، قال الزجاج وغيره : بل المعنى في القراءَتين : وقولوا قولا حَسَناً ـ بفتح السين ـ أَو قولا ذا حُسْنٍ ، بضم الحاءِ(٢) . وقرأَ قوم : حُسْنَى مثلُ فُعْلَى ، وردَّه سيبويه لأَن أَفعل وفُعلى لا تجيءُ إلا معرَّفة إلا أَن يزال عنها معنى التفضيل ، وتبقى مصدراً كالعقبى ، فذلك جائز وهو وجه القراءَة بها(٣)

وقرأَ عيسى بن عمر ، وعطاءُ بن أَبي رباح ، [حُسُناً] بضم الحاءِ والسين . وقال ابن عباس : معنى الكلام : قولوا لهم : لا إله إلا الله ، ومروهم بها ، وقال ابن جريج : : قولوا لهم : حسناً في الإِعلام بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال سفيان الثوري : معناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ، وقال أَبو العالية : معناه

---

(١) البُلْغَة بالضم ما يبلغ به العيش ولا يفضل ـ والسكن بالتحريك ما يسكن إليه ويرجع له عند الحاجة .

(٢) و (حَسَناً) بفتحتين وصْفٌ للمصدر بدون وساطة ، و (حُسْناً) وصف بوساطة المضاف المحذوف .

(٣) أي كونها مصدراً فقط لا رائحة فيها لمعنى التفضيل هو وجه القراءة بها في هذه الآية وهذا في حاجة إلى النقل عن العرب أنها تقول : حَسَنَ حُسْنَى كما تقول رجع رجعى .

وقد علق أبو (ح) على ذلك كعادته ليثبت أن كلام ابن عطية خطأ . « البحر المحيط » ١/٢٨٥ .

قولوا لهم الطيب من القول ، وحاوروهم بأَحسن ما تحبون أَن تحاوروا به ، وهذا حض على مكارم الأَخلاق .

وحكى المهدوي عن قتادة أَن قوله تعالى : [وَقُولوا لِلنَّاسِ حُسْناً] ، منسوخ بآية السيف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا على أَن هذه الأُمة خوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإِسلام ، وأَما الخبر عن بني إسرائيل وما أُمروا به فلا نسخ فيه ، وقد تقدم القول في إقامة الصلاة [1] . وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها وتنزل النار على ما تُقُبِّلَ ، ولا تنزل على ما لم يُتَقَبَّل ، ولم تكن كزكاة أُمة محمد صلى الله عليه وسلم [2] .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : الزكاة التي أُمروا بها طاعة الله والإِخلاص .

وقوله تعالى : [ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ][3] الآية ، خطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم ، أَسند إليهم تولي أَسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل ، قال نحوه ابن عباس وغيره . و[ثُمَّ] مبنية على الفتح ولم تجر مجرى رَدَّ وشَدَّ لأَنها لا تتصرف . وضمت التاءُ الأَخيرة من (توليتم) لأَن تاءَ المفرد أَخذت الفتح ، وتاءَ المؤنث أَخذت الكسر ، فلم يبق للتثنية والجمع إلا الضم .

---

(١) في أول سورة البقرة .

(٢) قال (ق) : هذا يحتاج إلى نقل ، كما ثبت ذلك في الغنائم .

(٣) التولّي هو الإعراض ، فقوله تعالى : (وأَنْتُمْ مُعْرِضُون) ، حال مؤكدة ، أي والحال أنّ مِن عادتكم الإعراض عن المواثيق المأخوذة عليكم .

و[قَلِيلا] نصب على الاستثناءِ ، قال سيبويه : والمستثنى منصوب على التشبية بالمفعول به ، قال المبرد : هو مفعول حقيقة لأَن تقديره استثنيت كذا ، والمراد بالقليل جميع مؤمنيهم قديماً من أَسلافهم ، وحديثاً كابن سلام وغيره ، والقلة على هذا هي في عدد الأَشخاص ، ويحتمل (١) أَن تكون القلة في الإِيمان أَيْ لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا إِيمانٌ قليل إِذْ لا ينفعُهُم ، والأَول أَقوى ، وقرأَ قوم (إلا قليلٌ) برفع القليل ، ورويت عن أَبي عمرو . وهذا على بدل قليل من الضمير في (توليتم) ،وجاز ذلك مع أَن الكلام لم يتقدم فيه نفي لأَن توليتم معناه النفي ، كأَنه قال ثم لم تفوا بالميثاق إلا قليل(٢) ، والسفك صبُّ الدم وسرد الكلام ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، وشعيب بن أَبي حمزة (لاتسفُكون) بضم الفاءِ ، وقرأَ أَبو نهيك (لا تُسَفِّكُون) بضم التاءِ وكسر الفاءِ وتضعيفها . وإعراب (لا تسفِكُون) كما تقدم في (لا تَعْبُدُونَ) . و[دِمَاءَكُمْ] جمع دم وهو اسم منقوص ، أَصله دمى وتثنيته دميان وقيل : أَصله دمْي بسكون الميم ، وحركت في التثنية لتدل الحركة على التغيير الذي في الواحد .

---

(١) احتمال بعيد ، إذ المتبادر هو استثناء أشخاص قليلين من الفاعل الذي هو الضمير في (توليتم) راجع أبو (ح) في البحر المحيط . ٢٨٧/١ ، وقد شعر رحمه الله بذلك حيث قال : والأول أقوى ، ووجه الاستثناء في الآية إظهار أن كل أمة من الأمم لا تخلو من أفراد يخلصون للحق ، ويحافظون عليه بحسب معرفتهم وطاقتهم ، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يدفع عنها العقاب الإلهي ، ففي الحديث الصحيح : « أنهلِك وفينا الصالحون ؟ قال : : نعم ، إذا كثُر الخبث » . روته ثلاث من أمهات المؤمنين : عائشة ، وأم سلمة ، وزينب بنت جحش :

(٢) هذا التخريج الذي أشار إليه رحمه الله غير معروف عند النحاة لأنه ما من استثناء موجب إلا ويمكن أن يُؤّل إلى ما أشار إليه فتنتقض القواعد ، وتنخرم الأصول .

وقوله تعالى : [ولا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ] معناه : ولا ينفي بعضكم بعضاً بالفتنة والبغي . ولما كانت ملتهم واحدة ، وأمرهم واحداً ، وكانوا في الأُمم كالشخص الواحد ، جعل قتل بعضهم لبعض ، ونفي بعضهم بعضاً قتلا لأَنفسهم ونفياً لها ، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللف في القول (١) . وقيل : لا تسفكون دماءكم أي لا يَقتل أَحد فيُقتل قصاصاً فكأَنه سفك دم نفسه لَمَّا تسبب في ذلك ، ولا يفسد في الأَرض فيُنفى فيكون قد أَخرج نفسه من دياره ، وهذا تأْويل فيه تكلف ، وإنما كان الأَمر أَن الله تعالى قد أَخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً أَلا يقتل بعضهم بعضا ، ولا ينفيه ، ولا يسترقه ، ولا يدعه يُسْتَرَق إلى غير ذلك من الطاعات .

وقوله تعالى : [ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ] أَي خلفا بعد سلف أَن هذا الميثاق أُخذ عليكم والتزمتموه ، فيتجه في هذه اللفظة أَن تكون من الإقرار الذي هو ضد الجحد ، وتتعدي بالباء ، وأَن تكون من الإقرار الذي هو إبقاءُ الأَمر على حاله ، أَي أقررتم هذا الميثاق ملتزماً ، وقوله [وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ](٢) قيل : الخطاب يراد به من سلف منهم ، والمعنى : وأَنتم شهود ، أَي حضور **أَخذ** الميثاق والإقرار . وقيل إن المراد مَنْ كان في مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : وأَنتم شهداءُ ، أَي بينة أَن هذا الميثاق أُخذ على أَسلافكم فمن بعدهم منكم .

---

(١) أي بهذا القول الملفوف أي المجموع والمخلوط من دون بسط ولا تفصيل .

(٢) تأكيد للإقرار كما تقول : أقر فلانٌ شاهداً على نفسه ، والمعنى : أظهرتم الالتزام بالميثاق ، وشهدتم بذلك على أنفسكم قديماً وحديثاً .

قوله عز وجل :

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾

[هَؤُلاءِ] دالة على أَنَّ المخاطبة للحاضرين لا تحتمل ردّاً إلى الأَسلاف ، قيل : (١) تقدير الكلام : يا هؤلاءِ ، فحذف حرف النداءِ ، ولا يحسن حذفه عند سيبويه مع المُبْهَمَات. ولا تقول : هذا أَقبل . وقيل : تقديره أَعني هؤلاءِ . وقيل : هؤلاءِ بمعنى الذين ، فالتقدير ثم أَنتم الذين تقتلون ، فتقتلون صلة لهؤلاءِ ونحوه ، قال يزيد بن مفرغ الحُمَيري :

عَدَسْ مَا لِعَبَّادِ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ(٢)

---

(١) فيه أربعة أقوال ، قيل : إنه منادى على حذف حرف النداء ، وقيل : إنه منصوب بفعل محذوف وقيل : أنه بمعنى الذين ، وقيل : إن أنتم خبر مقدم ، وهؤلاء مبتدأ ، وتقتلون حال تم بها المعنى ، وأضعف هذه الأقوال الأول ، ومن جعله مبتدأ وأنتم خبر فتقتلون هي محط البيان لأن معنى أنتم هؤلاء – أنهم على حالة أسلافهم من نقض الميثاق – ومن جعل هؤلاء منادى أو منصوباً فتقتلون خبر .

(٢) البيت من شواهد النحو المشهورة ، وعَدَس : اسم صوت لزجر البغل ، وعبّاد : هوابن زيّان بن أبي سفيان ، وإمارة بكسر الهمزة معناها : أمر– وهذا : إسم موصول بمعنى الذي (على رأي الكوفيين) وهو الشاهد هنا ، ويقع مبتدأ خبره طليق ، أما صلة الموصول فهي (تحملين) والعائد محذوف ، وتقديره : (تحملينه) . ويكون تقدير الكلام : (والذي تحملينه طليق) أي مطلق . يقول الشاعر هذا الكلام لبغلته حين ركبها بعد خروجه من السجن فنفرت .

وقال الأُستاذ الأَجل أَبو الحسن [١] بن أَحمد شيخنا رضي الله عنه : [هَؤُلاءِ] رفع بالابتداء و [أَنْتُمْ] خبر مقدم ، وتقتلون حال ، بها تم المعنى ، وهي كانت المقصود ، فهي غير مستغنى عنها ، وإنَّما جاءت بعد أَن تم الكلام في المسند والمسند إليه ، كما تقول : هذا زيد منطلقاً ، وأنت قد قصدت الإِخبار بانطلاقه لا الإِخبار بأَن هذا هو زيد . وهذه الآيةُ خطابٌ لقُريظة ، والنَّضير ، وبني قَيْنُقَاع وذلك أَن النَّضير وقُريظة حالفت الأَوس ، وبني قَيْنُقَاع حالفت الخزرج ، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني قَيْلَة [٢] ذهبت كل طائفة من بني اسرائيل مع أَحلافها ، فقتل بعضهم بعضاً وأَخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهُم أَسرى بعض اتِّباعاً لحكم التوراة ، وهم قد خالفوها بالقتال والإِخراج . وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن (تُقَتِّلون) بضم التاءِ الأُولى ، وكسر الثانية وشدِّها على المبالغة ، والديار : مباني الإقامة ، وقال الخليل : محلة القوم دارُهم ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي [تَظَاهَرُون] بتخفيف الظاءِ ، وهذا على حذف التاءِ الثانية من تَتَظاهرون ، وقرأَ بقية السبعة (تظَّاهرون) بشد الظاءِ على إدغام التاءِ في الظاءِ ، وقرأَ أَبو حيْوة (تُظاهرون) بضم التاءِ وكسر الهاءِ ، وقرأَ

---

(١) انظر ترجمته في تفسير أبي حيان في هذا المكان – ولما نقل أبو حيان رحمه الله ما ذكره ابن عطية عن شيخه أبي الحسن بن البادش مِنْ جَعْلِ هؤلاء مبتدأ وأنتم خبراً قال : «لا أدري ما العلة في ذلك ، وفي عدوله عن جعل أنتم مبتدأ وهؤلاء خبراً إلى عكسه» انتهى. قال مختصِرُه سيدي عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله : قلت : العلة في ذلك دخول هاء التنبيه عليه لاختصاصها بأول الكلام ، ويدل على ذلك قولهم : ها أنا ذا قائماً ، ولم يقولوا : أنا هاذا قائماً ، قال معناه ابن هشام ، فقائماً في المثال المتقدم نصب على الحال . انتهى .

(٢) قيلة : اسم أم لقبيلتي الأوس والخزرج – اسمها : قيلة بنت كاهل .

مجاهد ، وقتادة ، (تَظَّهَّرون) بفتح التاءِ وشد الظاءِ والهاءِ مفتوحة دون أَلف ، ورويت هذه عن أَبي عمرو . ومعنى ذلك [١] على كلِّ قراءَة : تتعاونون ، وهو ماخوذٌ من الظَّهر كأَن المتظاهرين يسْنُد كُلُّ واحد منهما ظهره إلى صاحبه . والإثم العُهَدُ الراتبة على العبد من المعاصي [٢] والمعنى بمكتسبات الإثم ـ والعدوان تجاوز الحدود والظلم . وحسن لفظ الإتيان من حيث هو في مقابلة الإخراج فيظهر التضاد المُقَبِّح لفعلهم في الإخراج [٣] .

وقرأَ حمزة [أَسْرَى تَفْدُوهم] ، وقرأَ نافع وعاصم والكسائي : [أُسَارَى تُفَادُوهُمْ] ، وقرأَ أَبو عمرو ، وابن عامر ، وابن كثير : [أُسَارى تَفْدُوهُمْ] وقرأَ قوم : [أَسْرى تُفَادُوهُم] . وأُسارى : جمع أَسير والأَسير مأْخوذ من الأَسر وهو الشدّ . سُمِّي بذلك لأَنه يؤْسر أَي يُشد

(١) يعني أن هذه القراءات وهي : ظَاهر ، وتَظَاهر ، وأظْهر ـ ترجع إلى معنى التعاون ، وهو المراد في الآية الكريمة .

(٢) يعني ما ترتب على العبد من عهد المعاصي . والعُهَدُ : جمع عُهْدَة .

(٣) فيكون المعنى : أنه لا يُناسب مَن أسأتم إليهم بالإخراج من ديارهم أن تُحسنوا إليهم بالمفاداة .

تنبيه : قال بعض شيوخنا رحمهم الله تعالى : ـ هل الفادي والمفدي في موضوع الآية ـ كانا من جهة واحدة ؟ بمعنى أن قريظة كانت تفدي من أسرته الخزرج من إخوانهم كما أن النضير كانت تفدي من أسرته الأوس من إخوانهم ـ أو من جهتين بمعنى أن قريظة كانت تفدي من يد حلفائها الأوس من أسروه من بني النضير كما أن بني النضير كانت تفدي من حلفائها الخزرج من أسروه من بني قريظة ـ أو ما هو أعم . فروح البيان على الأول وهو المأخوذ من صدر كلام ابن جرير الطبري رحمه الله حين تكلم على قوله تعالى : (ثمَّ أنتم هؤلاء تَقْتُلُون) الآية ـ والصاوي في حاشية الجلالين على الثاني ، ولم نره صريحاً في كلام غيره لكن يشهد له ظاهر الآية ـ وظاهر ما نقلوه من قول العرب لليهود على جهة التعيير لهم : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ انظر عبارته في ابن جرير ـ وكلام السدي بحسب ظاهره على الثالث ـ راجع الكشاف والبحر المحيط .

وثاقاً ، ثم كثُر استعماله حتى لزم ، وإن لم يكن ثَمَّ ربط ولا شدّ ، وأَسير فعيل بمعنى مفعول ولا يجمع بواو ونون وإنما يُكسَّر على أَسرى وأُسارى ، والأَقيس فيه أَسرى ، لأَن فعيلا بمعنى مفعول الأَصل فيه أَن يجمع على فَعْلَى كقتلى وجرحى ، والأَصل في فَعْلان أَن يجمع على فَعالى بفتح الفاء ، وفُعالى بضمها ، كسَكران وكَسْلان وسُكارى وكسالى . قال سيبويه : فقالوا في جمع كسلان : كسلى ، شبَّهوه بأَسرى كما قالوا : أُسارى ، شبهوه بكُسالى ، ووجه الشبه أَن الأَسر يدخل على المرءِ مُكرها كما يدخل الكسل ، وفُعالى إنما يجيءُ فيما كأَن آفة تدخل على المرءِ .

و[تُفَادُوهُمْ] معناه في اللغة تُطلقونهم بعد أَن تأْخذوا عنهم شيئاً ، قاله أَبو علي ، وفاديت نفسي إذا أَطلقتها بعد أَن دفعتَ شيئاً ، فعلى هذا قد تجيءُ بمعنى فَديت أَي دفعت فيه من مال نفسي ، ومنه قول العباس للنبي صلى الله عليه وسلم : «أَعطني فإني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلا» . وهما فعلان يتعديان إلى مفعولين ، الثاني منهما بحرف جر ، تقول : فديت زيدا بمال ، وفاديته بمال ، وقال قوم : هي في قراءة تُفادوهم مُفَاعلة في أَسرى بأَسرى (١) ، وقال أَبو علي : كل واحد من الفريقين فعل : الأَسر دفع الأَسير ، والمأْسور منه دفع أَيضاً إمَّا أَسيراً وإما غيره ، والمفعول الثاني محذوف .

---

(١) أي في مبادلة الأسير بالأسير ، والمراد أن المفاداة هي في مبادلة الأسرى فتدفع أسيراً وتأخذ أسيراً ، والفداء أن تأخذ مالا في مقابلة الأسير .

وقوله تعالى : [وَهُوَ مُحَرَّمٌ](١) ، قيل في [هُو] : إنه ضمير الأَمر ، تقديره : والأَمر محرم عليكم ، و [إِخْرَاجُهُمْ] في هذا القول بدل مِن [هو] ، وقيل : (هو) فاصلة وهذا مذهب الكوفيين وليست ، هنا بالتي هي عماد و [مُحَرَّمٌ] على هذا ابتداءٌ و [إِخْرَاجُهُمْ] خبره ، وقيل : هو الضمير المقدر في محرم قُدِّم وأُظهر ، وقيل : هو ضمير الإخراج تقديره : وإخراجهم محرم عليكم (٢) .

وقوله تعالى : [أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ](٣) يعني التوراة ، والذي آمنوا به فداءُ الأُسارى ، والذي كفروا به قتلُ بعضهم بعضاً وإخراجُهم من ديارهم ــ وهذا توبيخ لهم ، وبيانٌ لقُبْح فعلهم .

ورُوي أن عبد الله بن سَلام (٤) مرَّ على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادي من النساء من لم تقع عليه العرب ، ولا يفادي من وقع عليه ،

---

(١) الجملة حال من الضمير في (تخرجون) أو من فريقاً أو منهما ــ وتخصيص بيان التحريم ها هنا بالإخراج ، مع كونه قريناً للقتل عند أخذ الميثاق عليهم ــ لِما يُظن من التساهل في أمر الإخراج بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل، وقيل : إنما خصه بالذكر لما فيه من معرة الجلاء والنفي الذي لاينقطع شره .

(٢) حاصل ما ذكره أقوال أربعة ، وكلها انتقدت عليه ، وإذا أردت الوقوف على وجوه الإنتقاد فعليك بتفسير أبي (ح) فإنه يتتبع أنفاس «ابن عطية» ولاسيما في النواحي الإعرابية . وفي كلام ابن عطية ما يشم منه رائحة الفرق بين الفصل والعماد ، وانظر التعليق عند قوله تعالى : (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أن يُعَمَّر) .

(٣) قال المفسرون : أخذ الله تعالى على بني إسرائيل أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسراهم ، فأعرضوا عن كل ما أُمروا به ، إلا الفداء ، فوبخهم الله على ذلك بقوله : (أفتُؤْمِنُون بِبَعْضِ الكِتاب وتَكْفُرون ببَعْض) ؟

(٤) هو عبد الله بن سَلام (بالتخفيف) بن الحارث الإسرائيلي ، أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونزل فيه قوله تعالى : (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَاب) وشهد له صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وشهد مع عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجابية ، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين للهجرة .

فقال له ابن سلام : أَمَا إِنَّه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهن كلَّهن . ثمَّ توعدهم عز وجل . والخزيُ : الفضيحة والعقوبة يقال : خزي الرجل يخزى خزيا إذا ذَلَّ من الفضيحة ، وخزي يخزَى خزاية إذا استحيا [١] ...

واختلف ما المراد بالخزي ها هنا ؟ فقيل : القصاص فيمن قتل ، وقيل : ضرب الجزية عليهم غابر الدهر ، وقيل : قتل قريظة وإجلاء النضير [٢] . و (الدُّنيا) مأْخوذة من دنا يدنو ، وأَصل الياء فيها واو ، ولكن أُبدلت فرقاً بين الأَسماء والصفات [٣] .

و [أَشَدِّ ٱلعَذَابِ] الخلود في جهنم ، وقرأَ الحسن ، وابن هرمز (تُرَدُّونَ) بتاءٍ .

وقوله تعالى : [وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ] الآية ، قرأَ نافع ، وابن كثير (يَعْمَلونَ) بياءٍ على ذكر الغائب [٤] ، فالخطاب بالآية لأُمة محمد صلى

(١) كلٌّ من خزي يخزَى خزياً ، وخزي يخزَى خزاية من باب تعب ، والفرق بينهما هو المصدر ، فالخزي معناه الفضيحة ، والخزاية معناها الإستحياء .

(٢) وفي بعض النسخ زيادة (وقيل : الخزي الذي تتوعد به الأمة من الناس هو غلبة العدو)

(٣) يعني أنها بذلك انسلخت عن الوصفية فهي علَم على كل المخلوقات من الجواهر والأعراض الموجودة قبل الدار الآخرة . قال في القاموس : «والدنيا نقيض الآخرة ، وقد تنون ، وجمعها دُنى» ا هـ واستدلوا للتنوين بقول الشاعر :

إنِّي مقَسِّمُ ما ملكْتُ فجاعِلٌ جُزْءًا لآخرتي ودُنياً تَنْفَعُ

فإن ابنَ الأعرابي أنشده ، منوناً وليس بضرورة كما لايخفى .

(٤) في تفسير الإمام (ط) رحمه الله : وأعجب القراءتين إلى قراءة مَنْ قرأ بالياء إتباعاً لقوله (فَما جزاء مَن يفعل ذلك منكم) ولقوله (ويَوْمَ القِيامَة يُرَدُّون) لأن قوله (ومَا اللهُ بغافلٍ عمَّا يَعْمَلُون) إلى ذلك أقرب منه إلى قوله (أفتُؤمنُون ببعضِ الكِتَابِ وتكْفُرُون ببعْضٍ) فإتباعه الأقربَ إليه أولى من إلحاقه بالأبعد منه » ا هـ .

الله عليه وسلم ، والآية واعظة لهم بالمعنى (١) إذ الله تعالى بالمرصاد لكل كافر وعاص(٢) . وقرأ الباقون بتاءٍ على الخطاب المحتمل أن يكون في سرد الآية (٣) وهو الأظهر ، ويحتمل أن يكون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد رُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «إن بني إسرائيل قد مضوا ، وأنتم الذين تُعنون بها يا أُمة محمد» (٤) .

قوله عز وجل :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

جعل الله تركَ الآخرة ، وأخذ الدنيا مع قدرتهم على التمسك بالآخرة بمنزلةِ مَن أخذها ثمَّ باعها بالدنيا ، وهذه النزعة صرفها مالك رحمه الله في فقه البيوع(٥) ، إذ لا يجوز الشراءُ على أن يختار المشتري في كل

---

(١) بل هي أشد واعظ وأقواه ، ونحوها قوله تعالى : (ولا تَحْسَبَنَّ الله غافلا عمَّا يعملُ الظَّالِمُون) والظلم إما ظلم العصيان ، وإما ظلم الكفران .

(٢) إذا كان عالمـاً بأعمـالهم كما تؤكد ذلك الآية ـ وهو الحق الذي لاشك فيه ، فهو بالمرصاد لمجازاتهم .

(٣) أي في سياقها ، وسياق الآية أن الخطاب لبني إسرائيل .

(٤) في بعض النسخ : (تعنون بهذا يا أمة محمد) يريد وبما يجري مجراه .

(٥) أي أنَّ مالكاً رحمه الله استعمل هذه الطريقة فيما لا يجوز من البيوع للغرر والجهل ، إذْ ذلك مذموم وممنوع .

ما تختلف صفة آحاده ، ولا يجوز فيه التفاضل كالحجل المذبوحة (١) وغيرها ، ولا يخفف العذاب في الآخرة ، ولا يُنْصرون لا في الدنيا ولا في الآخرة ،[والْكِتابَ] التوراة ونصبه على المفعول الثاني لآتينا ، و [قَفَّيْنا] مأخوذ من القفا ، تقول : قَفَّيْتُ فلاناً بفلان إذا جئت به من قِبَل قَفاه ، ومنه قَفَا يقفو إذا اتبع ، وهذه الآية مثل قوله تعالى : [ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا](٢) ، وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها إلى عيسى عليه السلام (٣) . وقرأ الحسن ، ويحيى ابن يعمر : [بالرُّسْل] ساكنة السين (٤) ، ووافقهما أبو عمرو إذا انضاف ذلك إلى ضمير نحو : رسْلنا ورسْلهم ، و [البَيِّنَاتِ] الحجج التي أعطاها الله عيسى ، وقيل : هي آياته من إحياء ، وإبراء ، وخلْق طير ، وقيل : هي الإنجيل ، والآية تعم جميع ذلك ، [وَأَيَّدْنَاهُ] معناه قويناه ، والأَيد القوة . وقرأ ابن محيصن ، والأعرج ، وحميد (آيَدْناه)(٥) . وقرأ ابن كثير ، ومجاهد : [روحِ القُدْس] بسكون الدال . وقرأ الجمهور

(١) يطلق على الذكور وعلى الإناث ، وعلى صغار الإبل وأولادها ، وأفاد بالوصف أن القصد هو اللحم الذي لا يجوز فيه التفاضل . والله أعلم .

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (المؤمنون) .

(٣) يعني أن عيسى عليه السلام ختم بني إسرائيل ، وجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام كما قال تعالى إخباراً عنه : (ولأحِلَّ لكُمْ بعضَ الَّذي حُرِّم عليْكُم ، وجِئْتُكم بآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ] فكذبه بنو إسرائيل ، واشتد حسدهم له — ولذلك أيده الله بالآيات التي تدل على صدقه فيما جاء به ، كما قال تعالى : [وأيَّدْنَاهُ بِروحِ القُدُس] .

(٤) التثقيل والتخفيف لغتان : الأولى لغة الحجاز ، والثانية لغة تميم ، وكان أبو عمرو البصري يخفف عند الإضافة إلى حرفين ، ويُثقِّل عند الإضافة إلى حرف واحد .

(٥) يقال : أيَّدناه بالتشديد ، وآيدناه بالمد ، والقراءة الأولى مشهورة ، والثانية شاذة ، وكلاهما من الأيْد ، والآد ، بمعنى القوة ، ونظيرهما في البناء : الذيْم والذام ، والعيْب والعاب .

بضم القاف والدال ، وفيه لغة فتحها[١] ، وقرأ أبو حيْوة [بِرُوحِ الْقُدُّوس] بواو . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : روح القدس : هو الاسم الذي به كان يُحيي الموتى . وقال ابن زيد : هو الإنجيل كما سمى الله تعالى القرآن روحاً . وقال السدي ، والضحاك ، والربيع ، وقتادة : روح القدس جبريل صلى الله عليه وسلم ، وهذا أصح الأقوال [٢] ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : (اهْجُ قريشاً ، ورُوحُ القُدس معك)[٣] ، ومرة قال له : (وجبريل معك) ، وقال الربيع ، ومجاهد : القدس اسم من أسماء الله تعالى كالقُدُّوس[٤] ، والإضافة على هذا إضافة الملك إلى المالك ، وتوجهت لما كان جبريل عليه السلام من عباد الله تعالى ، وقيل : القدس الطهارة ، وقيل : القدس البركة .

و (كُلَّمَا) ظرف ، والعامل فيه [اسْتَكْبَرْتُمْ] ، وظاهر الكلام الاستفهام ومعناه التوبيخ والتقرير [٥] ، ويتضمن أيضاً الخبر عنهم ، والمراد بهذه الآية بنو إسرائيل . ويُروى أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في

---

(١) أي الدال كصُرد ، وعليه فهي لغات ثلاث .

(٢) انظر تفسير ابن (ك)، فقد بسط القول في وجوه ترجيح هذا القول من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح .

(٣) خرجه البخاري ومسلم .

(٤) بضم القاف وشد الدال ، أي : الطاهر المنزّه عن العيوب والنقائص . وكل فَعُّول مفتوح الأول إلا قُدّوس وفُرّوج (فرخ الدجاجة) وذُرّوح (الذباب الهندي) كما قاله بعض أهل اللغة، ولكن جاء في صحاح الجوهري أن سيبويه كان يقول : (قَدُّوس ، وسَبُّوح) بالفتح فيهما — وفي كثير من المعاجم ضبطت (فَروج) ، بفتح الفاء .

(٥) وفي بعض النسخ : «والتقريع» .

اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم تقوم سوقهم آخر النهار [١] ،وروي : سبعين نبياً ثم تقوم سوق بقْلهم آخر النهار[٢] ، وفي [تَهْوَى] ضمير حذف من صلة (ما) لطول اللفظ . والهوى أكثر ما يُستعمل فيما ليس بحق ، وهذه الآية من ذلك ، لأنهم إنما كانوا يهوَوْن الشهوات ، وقد يستعمل في الحق ، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسرى بدر : «فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت»[٣] و [اسْتَكْبَرْتُمْ] من الكبر ، و [فَرِيقاً] مفعول مقدم . وقرأ جمهور القراء : [غُلْفٌ] بإسكان اللام على أنه جمع أغلف مثل حُمْر وصُفْر والمعنى قلوبنا عليها غلف وغشاوة [٤] فهي لا تفقه[٥] . قاله ابن عباس ، وقال قتادة : المعنى عليها طابع . وقالت طائفة : غلْف بسكون اللام جمع غلاف

---

(١) روى ذلك أبو داود الطيالسي ونصه : حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر ، عن عبد الله بن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار. انتهى من (ك) عند تفسير قوله تعالى : [وضُرِبت عليهم الذِّلَّة والمَسْكَنَةُ وباءوا بغَضَبٍ مِن الله] .

(٢) لأنهم كانوا أصحاب بقول وخضراوات حتى قالوا : (لنْ نَصْبِر على طَعامٍ واحد فادْعُ لَنَا ربَّكَ يُخرج لنا مِمَّا تُنْبِت الأرض من بَقْلِهَا) الآية . وإقامتهم للسوق الذي تُباع فيه أرذل الأشياء آخر النهار دلالة على قِلَّة مبالاتهم بما فعلوا من تقتيل الأنبياء ، فكيف بالأسواق التي تباع فيها النفائس ؟

(٣) ومنه كذلك قول عائشة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك» . والحديثان خرجهما الإمام مسلم رحمه الله .

(٤) وفي بعض النسخ وغشاوات .

(٥) أي لا تفهم ما تقول ولا تعيه ، إذ هو مما لا يفهم ، وقيل : عليها طابع ، لقوله تعالى : [طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ] .

أصله غُلُّف (١) بتثقيل اللام فخفِّف ،وهذا(٢) قلَّ ما يستعمل إلا في الشعر . وقرأ الأعمش ، والأعرج ، وابن مُحيصن : (غُلُّف) بتثقيل اللام(٣) جمع غِلاف ، ورويت عن أبي عمرو ، فالمعنى . هي أوعية للعلم والمعارف بزعمهم ، فهي لا تحتاج إلى علم محمد . وقيل : المعنى فكيف يَعْزُب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فرَدَّ الله عليهم بقوله : [بَلْ لَعَنَهُم اللهُ بِكُفْرِهِمْ] ، وبل في هذه الآية نقض للأول ، وإضراب عنه ، ثم بيَّن تعالى أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لُعنوا بما تقدم من كفرهم واجترامهم ، وهذا هو الجزاءُ على الذنب بأعظم منه(٤) ، واللعن الإبعاد والطرد . و[قَليلاً] نعت لمصدر محذوف تقديره : فإيماناً قليلا ما يُؤمِنُون ، والضمير في يؤمنون لحاضري محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتجه قلة هذا الإيمان ، إمَّا لأن مَنْ آمن بمحمد منهم قليل ، فيقل لقلة الرجال ، قال هذا المعنى قتادة ، وإما لأن وقت

---

(١) أي كخِمار وخُمُر فهو على هذا مُخَفَّف من ثقيل .

(٢) المعنى : وهذا التثقيل قلَّ أن يستعمل إلا في الشعر كقول طرفة :

أيُّها الفِتْيان في مجلسنا   جرِّدُوا منْها وراداً وشُقُر

فحركت لضرورة الشعر . وفي بعض النسخ : قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا قل ما يستعمل الخ .

(٣) أي بتحريكها بالضم ،والغرض أن (غلُف)بضم اللام جمع غِلاف ، وكذلك (غلْف) بسكون اللام جمع غِلاف ولكنه مخفف من الأول ، واستعمال المخفف أكثر ، واستعمال المثقل أقل ، هذا وفي بعض النسخ : (وقرأ ابن عباس ، والأعرج ، وابن محيصن ، بدل : « وقرأ الأعمش » الخ . والله أعلم .

(٤) يعني أن الله سبحانه جازاهم بالطرد واللعن المتسبب عن الذنب الذي هو الكفر . والإضراب في الآية هو عن النسبة التي تضمنها قولهم : [قلوبنا غلف] خلقت على الفطرة متمكنة من قبول الحق ، فأخبروا عنها بما لم تُخْلق عليه — والطرد والإبعاد أعظم ما يصيب المرء في حياته .

إيمانهم عندما كانوا يستفتحون به قبل مبعثه قليل ، إذ قد كفروا بعد ذلك ، وإمَّا لأنهم لم يبق لهم بعد كفرهم غير التوحيد على غير وجهه ، إذْ هُمْ مجسمون ، فقد قللوه بجحدهم الرسول ، وتكذيبهم التوراة ، فإنما يقل من حيث لا ينفعهم كذلك ، وعلى هذا التأويل يجيءُ التقدير : فإيماناً قليلا[1] ، وعلى الذي قبله : فوقْتاً قليلا ، وعلى الذي قبله فعدداً من الرجال قليلا ، و (ما) في قوله [مَا يُؤمِنونَ] زائدة مؤكدة ، و (قَلِيلا) نصب بيؤمنون .

قوله عز وجل :

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

الكتاب : القرآن ، و[مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ] يعني التوراة ، ورُوي أن في مصحف أُبي بن كعب (مصدقاً) بالنصب[2] ، و[يَسْتَفْتِحُونَ] معناه أَنَّ بني إسرائيل كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قد علموا خروجه بما عندهم من صفته وذِكْر وقته ، وظنوا أنه منهم ،

(١) هذا أحسن الوجوه ، لأن دلالة الفعل على مصدره أقوى من دلالته على زمانه ومكانه ومفعوله وفاعله ، ولموافقة قوله تعالى : [فَلَا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلا] .

(٢) أي على الحال من [كتاب] لتخصيص النكرة بالصفة .

فكانوا إذا حاربوا الأوس والخـزرج فغلبتهم العـرب قالوا لهم : لو خرج النبي الذي قد أَظَلَّ(١) وقتُه لقتلناكم معه ، واستنصرنا عليكم به ، و[يَسْتَفْتِحُونَ] معناه يستنصرون(٢) ، وفي الحديث : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين(٣)) ، ورُوي أن قُريظة ، والنَّضير ، وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت ، كانوا يستفتحون على سائر العرب ، وبسبب خروج النبي المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به ، فإنهم كانوا علموا صُقْعَ(٤) المبعث ، وما عرفوا أنه محمد عليه السلام وشرعه ، ويظهر من هذه الآيات العنادُ منهم ، وأن كُفرهم كان مع معرفة ومعاندة ، و[لَعْنَةُ اللهُ] معناه : إبعاده لهم وخزيهم لذلك ، واختلف النحاة في جواب [لمَّا](٥) و [لمَّا] الثانية في هذه الآية ، فقال أبو العباس المبرد : جوابهما في قوله : [كَفَرُوا] ، وأُعيدت لمَّا الثانية لطول الكلام ، ويفيد ذلك تقريراً للذنب وتأكيداً له ، وقال الزجاج : لمَّا الأُولى لا جواب لها ، للاستغناء عن ذلك بدلالة الظاهر من الكلام عليه .

---

(١) في بعض النسخ بالطاء المهملة ، وفي بعضها بالظاء المشالة ، وكلاهما صالح . يقال : أطَلَّ الشهر وأظَلَّ بمعنى قَرُب .

(٢) قيل : إنهم كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة ، فعلى ما قاله المؤلف رحمه الله كانوا يستنصرون بمخرجه ومبعثه ، وعلى هذا القول كانوا يستنصرون بحقه وجاهه .

(٣) أي بفقرائهم ، والمراد أنه يَسْتَنْصر بدعائهم وصلاتهم وجهادهم ، وفي النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنما يَنْصُرُ الله هذه الأمة بضعفائها » .

(٤) الصُّقْع : الناحية – يقال : فلان من هذا الصقع ، أي من هذه الناحية .

(٥) أي : الأولى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
فكأنه محذوف .

وقال الفراءُ : جواب لمَّا الأُولى في الفاءِ وما بعدها ، وجواب لمَّا الثانية كفروا ، وبيس[١] أَصله بئس سُهِّلت الهمزة ونقلت إلى الياءِ حركتها ، ويقال في بئس: بيس ، إتباعاً للكسرة وهي مستوفية للذم ، كما أَن نعم مستوفية للمدح [٢] . واختلف النحويون في (بِيسَمَا) في هذا الموضع ، فمذهب سيبويه أَن (ما) فاعلة ببيس ، ودخلت عليها بيس كما تدخل على أَسماءِ الأَجناس والنكرات لمَّا أَشبهتها (ما) في الإِبهام ، فالتقدير على هذا القول : «بيس الذي اشتروا به أَنفسهم أَن يكفروا» ، كقولك: بيس الرجل زيد ، و(ما) في هذا القول موصولة ، وقال الأَخفش : (ما) في موضع نصب على التمييز كقولك : بيس رجلا زيدٌ ، فالتقدير : بيس شيئاً أَن يكفروا ، و[اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ] ، في هذا القول صفة(ما)[٣]. وقال الفراءُ : بيسما بجملته شيءٌ واحد رُكِّب كحبذا ، وفي هذا القول

(١) يلاحظ أَن ابن عطية يختار التسهيل في «بئس . وبئسما» فيقول : « بيس ، وبيسما» ويشرح الكلمة على هذا الوضع ، هذا وفي كل من نِعم وبِئْس أَربع لغات ، نِعْم بكسر النون وفتحها مع سكون العين ، ونَعِم بفتح النون وكسر العين ، ونِعِم بكسرهما ، وكذلك بِئْس وبَئْس وبَئِس وبِئِس .

(٢) (نِعْمَ) : مستوفية لجميع أنواع المدح كما أَن (بئْس) مستوفية لجميع أنواع الذم ، فإذا قلت : نعم الرجل زيد، فمعناه أَن زيداً استحق سائر المدح الذي يكون في سائر جنسه ، كما أَن : بئس الرجل زيد معناه أَنه استوفى الذم الذي يكون في سائر جنسه .

(٣) وأما على القول الأول فهو صلة ، وأبين الأقوال المذكورة قول سيبويه والأخفش ، وما سوى ذلك ضعيف ، وعلى قولهما فأن يكفروا ابتداء ، وخبره فيما قبله .

اعتراض لأنه فعل يبقى بلا فاعل ، و [مَا] إنما تكُفُّ أبداً حروفاً (١) .
وقال الكسائي : ما واشتروا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه ، فالتقدير : بيس اشتراؤُهم أنفسهم أن يكفروا (٢) . وهذا أيضاً مُعترض لأن بيس لا تدخل على اسم معين متعرف بالإضافة إلى الضمير . وقال الكسائي أيضاً : إن (ما) في موضع نصب على التفسير ، ثم (ما) أُخري مضمرة ، فالتقدير : بيس شيئاً ما اشتروا به أَنفسهم ، و [أَنْ يَكْفُرُوا] في هذا القول بدل من (ما) المضمرة ، ويصح في بعض الأَقوال المتقدمة أَن تكون [أَنْ يَكْفُرُوا] في موضع خفض بدلا من الضمير في (به) ، وأَما في القولين الأُولين فأَنْ يَكْفُرُوا ابتداءٌ وخبره فيما قبله .

و [اشْتَرُوا] بمعنى باعوا ، يقال شرى واشترى بمعنى باع وبمعنى ابتاع (٣) ، و[مَا أَنْزَلَ اللهُ] يعني به القرآن ، ويحتمل أَن يراد به التوراة ، لأَنهم إذا كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام فقد كفروا بالتوراة ، ويحتمل أَن يراد به الجميع من توراة وإنجيل وقرآن ، لأَن الكفر بالبعض يلزم الكفر بالكل . و(بغياً) مفعول من أَجله ، وقيل : نصب على المصدر (٤) ، و (أَنْ يُنَزِّل) نصب على المفعول

---

(١) أي ثلاثة ، كما في : «طالما ، وقلما ، وكثرما» ، وقال أبو علي الفارسي : طالما وقلما ونحوهما أفعال لا فاعل لها مضمراً ولا مظهراً ، لأن الكلام لما كان محمولا على النفي سوغ ذلك ألا يحتاج إليه ، و (ما) دخلت عوضاً عن الفاعل .

(٢) وتكون (ما) مصدرية على هذا القول .

(٣) الأكثر أن شرى بمعنى باع ، واشترى بمعنى ابتاع ، وقد يكون العكس .

(٤) إذا أُعرب (بغياً) مفعولا لأجله فالعامل فيه : «كفروا» أو «اشتروا» ، وإذا كان منصوباً على المصدر ، فالتقدير : «بغَوْا بَغْياً» ، وعلى أنه مصدر فقوله تعالى : «أن ينزل الله» مفعول لأجله كما قال المؤلف .

من أَجله ، أَو في موضع خفض بتقدير : بأَن يُنَزِّل[١] ، وقرأَ أَبو عمرو[٢] ، وابن كثير : [أَنْ يُنزِلَ] بالتخفيف في النون والزاي ، و[مِنْ فَضْلِهِ] يعني من النبوة والرسالة ، [مَنْ يَشَاءُ] يعني به محمداً صلى الله عليه وسلم ، لأَنهم حسدوه لمَّا لم يكن منهم ، وكان من العرب ، ويدخل في المعنى عيسى صلى الله عليه وسلم لأَنهم كفروا به بغياً ، والله قد تفضل عليه .

وباءُوا : معناه مضوا متحملين لِمَا يُذْكَر أَنهم باءُوا به ، و [بِغَضَبٍ] معناه من الله تعالى ، لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم [عَلَى غَضَبٍ] متقدم من الله تعالى عليهم ، قيل : لعبادتهم العجل ، وقيل : لقولهم : عُزَيْرٌ ابن الله ، وقيل : لكفرهم بعيسى عليه السلام ، فالمعنى : عَلَى غضبٍ قد باءَ به أَسلافهم ، حظٌّ هؤلاءِ منه وافر بسبب رضاهم بتلك الأَفعال وتصويبهم لها .

وقال قوم : المراد بقوله : [بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ] التأْكيد ، وتشديد الحال عليهم ، لأَنه أَراد غضبين مُعَلَّلَيْن بقصتين[٣] . و [مُهِينٌ] مأْخوذ من الهَوان ، وهو ما اقتضى الخلود في النار ، لأَن من لا يَخُلَّد

(١) الأظهر تقدير حرف الجر (لاماً) أو (على) أي «لتنزيل الله» أو «على تنزيل الله» .

(٢) اعلم أن أبا عمرو وابن كثير قرآ جميع المضارع مخففاً من(أنزل)في غير ما وقع الإجماع على تشديده وهو قوله تعالى : [وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ] في سورة الحجر ، إلا أن أبا عمرو شدد (عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً) . في الأنعام ــ وابن كثير شدد (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (وَحَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ) وشدد الباقون المضارع حيث وقع إلا حمزة بن حبيب الزيات وعليا الكسائي فإنهما خففا (وَيُنْزِلُ الغيث) في آخر سورة لقمان (وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ) في سورة الشورى ــ وكلٌّ من الهمز والتشديد جاء للتعدية ، والله أعلمُ .

(٣) وفي بعض النسخ : معللين «بمعصيتين» .

مِنْ عُصاة المسلمين إنما عذابه كعذاب الذي يقام عليه الحد لا هوان فيه ، بل هو تطهير له [١] . وقوله تعالى : [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ] يعني اليهود أنهم إذا قيل لهم : آمنوا بالقرآن الذي أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : نؤمن بما أُنزل علينا ، يعنون التوراة. [وَمَا وَرَاءَهُ]. قال قتادة : أي ما بعده ، قال الفراءُ : أي ما سواه ويعني به القرآن[٢] . وإذا تكلم رجل ، أو فعــل فعلا فأجاد يقال له : ما وراءَ ما أتيت به شيءٌ ، أي ليس يأْتي بعده[٣] ، ووصف تعالى القرآن بأنه الحق .

و[مُصَدِّقاً] حال مُؤَكَّدَة عند سيبويه[٤] وهي غير متنقلة ، وقد تقدم معناها في الكلام ، ولم يبق لها هي إلاَّ معنى التأْكيد ، وأنشد سيبويه على الحال المؤَكِّدة :

أَنَا ابْنُ دَارَةَ مَعْرُوفاً بِهَا حَسَبِي وهَلْ لِدَارَةَ يالَلنَّاسِ مِنْ عَارِ[٥]؟

و[لِمَا مَعَهُمْ] يريد به التوراة .

---

(١) عذاب الكفر هو العذاب المهين ، وأما عذاب المعصية فليس بعذاب مهين ، وإنما هو عذاب مُطَهِّرٌ .

(٢) ما قاله قتادة والفراء بمعنى واحد .

(٣) أي ليس عندك شيء سوى ذلك .

(٤) زعم سيبويه ، والخليل ، وجميع النحاة الموثوق بهم ، أن قولك : « هو زيد قائماً » غير قولك : هو زيد معروفاً » لأن الحال في الأول يوجب أنه إن كان قائماً فهو زيد ، وإذا ترك القيام فليس بزيد ، فذلك القول خطأ — وأما قولك : «هو زيد معروفاً » فمعناه هو زيد حقاً لأنه إنما يكون زيداً إذا كان يُعرف بزيد ، ومثله قوله تعالى : «هو الحق مصدقاً» — فالقرآن هو الحق إذا كان مصدقاً لما معهم .

(٥) قائله : سالم بن دارة ، ودارة اسم أُمه ، وقيل : اسم أحد أجداده . ومعروفاً حال مؤكدة لجملة: أنا ابن دارة . كقوله تعالى : «مصدقاً» فهو حال مؤكدة لقوله: «وهو الحق» . ويروى : (نسبي) بدلاً من (حسبي) .

وقوله تعالى : [قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ] الآية ردٌّ من الله تعالى عليهم في أنَهُمْ آمنوا بما أُنزلَ عليهِمْ ، وتكذيبٌ منه لهم في ذلك ، واحتجاج عليهم.

ولا يجوز الوقف على [فَلِمَ] لنقصان الحرف الواحد ، إلا أن البَزّيَّ(١) وقف عليه بالهاءِ ، وسائر القراءِ بسكون الميم(٢) . وخاطب الله مَن حضر محمداً صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل بأنهم قتلوا الأنبياءَ لما كان ذلك مِنْ فعل أسلافهم .

وجاءَ [تَقْتُلُونَ] بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله: [مِنْ قَبْلُ] ، وإذا لم يُشْكِلْ فجائز سَوْقُ الماضي بمعنى المستقبل ، وسَوْقُ المستقبل بمعنى الماضي ، قال الحطيئة :

شَهِدَ الحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنَّ الوليد أَحقُّ بالعُذْرِ(٣)

وفائدة سَوْق الماضي في موضع المستقبل الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد وقع(٤) ، وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأَمر مستمر (٥) ألا ترى أَن حاضري محمد صلى الله عليه وسلم لمَّا

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزّة ، محقّق ، مُتْقن للقراءة ، لكنه في الحديث منكر ضعيف الحديث . توفي سنة (٢٥٠) هـ .

(٢) وهذا الموقف لا يجوز إلا لقصد الاختبار أو لانقطاع النفس .

(٣) الحطيئة لقب لجرول العبسي الشاعر المشهور ، وشهد بمعنى يشهد .

(٤) نحو قوله تعالى : (ونُفِخ في الصُّور فصَعِقَ مَنْ في السموات ومن في الأرض إلا مَنْ شاء الله) لما كان ذلك محقق الوقوع في المستقبل عبر عنه بالماضي الذي يدل على الوقوع .

(٥) ولذلك كانوا يحومون حول قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسحروه وسموه حتى قال صلى الله عليه وسلم عند موته : (مازالت أَكلة خيبر تعاودني ، فهذا أوان انقطاع أبهري) — ولقد كان في الإتيان بالفعل مستقبلا ما يهدي إلى أن عادتهم قتل الأنبياء — لأنه إذا كان هذا النبي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل قد أُمروا أن يؤمنوا به وينصروه ، ومع ذلك راموا قتله ، فكيف من لم يتقدم لهم فيه عهد من الله فقتله عندهم أولى ، والحديث المشار إليه أخرجه البزار وغيره من حديث أبي هريرة ، والقضية مذكورة في البخاري ومسلم .

كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأَنبياء جزءٌ ، و[إِنْ كُنْتُمْ] شرطٌ ، والجواب متقدم ، وقالت فرقة : [إن] نافية بمعني (ما) .

قوله عز وجل :

﴿ * وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

[البيِّنات] : التوراة ، والعصا ، وفرق البحر ، وغير ذلك من آيات موسي عليه السلام ، وقوله : [ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ] تدل [ثُمَّ] على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات ، وذلك أعظم في ذنبهم ، وقد تقدمت قصة اتخاذهم العجل ، والضمير في قوله : [مِن بعْدِهِ] عائد على موسى عليه السلام ، أيْ مِن بعده حين غاب عنكم في المناجاة ، ويحتمل أن يعود الضمير في [بعده] على المجيء ، وهذه الآية ترد عليهم في أنَّ مَن آمن بما نزل عليه لا يتخذ العِجْل ، وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق ورفع الطور .

وقوله : [خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بقُوَّة] ، يعني التوراة ، والشرع . و[بِقُوَّةٍ] أَيْ بعزم ، ونشاط ، وجدٍّ ، [واسْمَعُوا] معناه هنا : وأَطيعوا ، وليس معناه الأَمر بإِدراك القول فقط[(١)] . وقالت طائفة من المفسرين :

(١) يعني أن المراد سماع القلب لا سماع الأذن ، وسميت الطاعة سمعاً على جهة المجاز ، لأن طاعة الأمر تتوقف على سماعه ، والمعنى : اعملوا بما سمعتم ، والتزموه في حياتكم .

إنهم [قَالُوا : سَمِعْنَا وعصَيْنَا] ، ونطقوا بهذه الألفاظ مبالغة في التعنت والمعصية[١] ، وقالت طائفة : ذلك مجاز ، ولم ينطقوا بسمعنا وعصينا ولكن فعلهم اقتضاه ، كما قال الشاعر :

امْتَلأَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطني[٢] . . . .

وهذا أيضاً احتاج عليهم في كذب قولهم : [نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا] .

وقوله تعالى : [وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ] ، التقدير : حب العجل ، والمعني : جعلت قلوبهم تشربه ، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم [٣] ، وقال قوم : إن معنى قوله : [وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ] شربهم الماء الذي ألقى فيه موسى بُرادَةَ العجل ، وذلك أنَّه بَرَدَهُ بالمبرد ورماه في الماء ، وقيل لبني إسرائيل : اشربوا من ذلك الماء ، فشرب جميعهم ، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب

---

(١) يعني أن المفسرين اختلفوا في قوله تعالى : [قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا] . أكان ذلك بلسان المقال أم بلسان الحال ؟ كما قال الشاعر :

امْتَلأَ الحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي . . . .

(٢) تمامه : . . . . مَهْلا رُوَيْداً قد مَلأْتَ بَطْنِي .

من كلام بعض الماتحين . رأى حوضه قد امتلأ فقال : امتلأ حوضي ، وقال : يكفيني ، يُعْلِم بذلك الماتح لينصرف إلى دلو غيره ، وهذا ما يسمى عندهم بلسان الحال ، فإن الحوض لا يتكلم .

(٣) أي تغلغله في قلوبهم كما يتغلغل شرب الماء في الأعضاء حتى يصل إلى أعماقها ، ولذلك شبه حبهم للعجل بشرب الماء دون الأكل ، لأن الطعام يجاور الأعضاء ولا يتغلغل فيها كما يتغلغل الشراب ، فالمجاز استعارة ، والاستعارة مبنية على التشبيه ، جعلت قلوبهم — لتمكن حب العجل منها — كأنها تشربه ، ثم استعير لفظ (اشربوا) استعارة تبعية ، ولايدل قوله : [وأشربوا] على أن غيرهم فعل بهم ذلك ، بل هم الذين كسبوا ذلك ، فأشربوا من الشراب كما أن (أنسيت كذا) من النسيان .

على شفتيه . وهذا قول يردُّهُ قولُه تعالى : [في قُلُوبِهِم][١] ، ورُوي أَن الذين تبين فيهم حب العجل أَصابهم من ذلك الماءِ الجن[٢] .

وقوله تعالى : [بِكُفْرِهِمْ] يحتمل أَن تكون باءَ السبب ، ويحتمل أَن تكون بمعنى مع .

وقوله تعالى : [قُلْ بِئْسَمَا] الآية ، أَمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أَن يوبخهم بأَنه بئْس هذه الأَشياءُ التي فعلتم ، وأَمركم بها إِيمانكم الذي زعمتم في قولكم : [نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا] ، و (مَا) : في موضع رفع ، والتقدير : بئْس الشيءُ قتلُ[٣] واتخاذُ عجل ، وقولُ سمعنا وعصينا . ويجوز أَن تكون (ما) في موضع نصب ، [وإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] شرط[٤] ، وقد يأْتي الشرط والشارط يعلم أَن الأَمر على أَحد الجهتين ، كما قال الله عن عيسى عليه السلام : (إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ علِمْتَه)[٥] وقد علم أَن عيسى عليه السلام لم يقله ، كذلك : [إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] ، والقائل يعلم أَنهم غير مؤْمنين ، لكنه إِقامَةُ حُجة بقياس بَيِّن ، وقال قوم : [إِنْ] هنا نافية بمنزلة (ما) كالتي تقدمت . وقرأَ الحسن ، ومسلم بن جندب (بِهُو إِيمَانُكُمْ) برفع الهاءِ[٦] .

(١) وجه الرد أن القصد من هذا السياق أنه ظهر على شفاههم ووجوههم ، والمذكور في الآية أنهم أُشربوا العجل في قلوبهم .

(٢) في تفسير (ق) : ورُوي أنه ما شربه أَحد إلا جن ، حكاه القشيرى ا هـ .

وفي بعض النسخ : (الجبن) .

(٣) أي : قتل الأنبياء .

(٤) والتقدير : بئْس شيئاً يأمركم به إيمانكم قتلُ الأنبياء ، واتخاذ العجل ، وقول : سمعنا وعصينا .

(٥) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

(٦) أي ووصلها بالواو للإشباع ، وهي لغة .

وقوله تعالى : [قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ الاخرَةُ] الآية ، أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أَنْ يُوبخهم ، والمعنى : إن كان لكم نعيمها وحظوتها وخيرها فذلك يقتضي حرصكم على الوصول إليها فتمنوا الموت ، و[الدَّار] : اسم كانت ، و[خالصةً] خبرها ، ويجوز أن يكون نصب [خالصة] على الحال ، و [عِنْدَ ٱللهِ] خبر كان (١) ، و [مِنْ دُونِ النَّاسِ] يحتمل أَن يراد بالناس محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه ، ويحتمل أن يُراد العموم التام (٢) ، وهو قول اليهود فيما حفظ عنهم ، وقرأ ابن أَبي إسحاق بكسر الواو من [تَمَنَّوِا] للالتقاء (٣) ، وحكى الأَهوازي عن أَبي عمرو أنه قرأ [تَمَنَّوَا الموْتَ] بفتح الواو (٤) ، وحُكي عن غيره اختلاس الحركة في الرفع ، وقراءة الجماعة بضم الواو .

وهذه آيةٌ بينة أعطاها الله رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم ، لأَن اليهود قالت : [نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُه] (٥) ، وشِبْهُ ذلك من القول ، فأَمر الله نبيه أَن يدعوهم إلى تمَني الموت ، وأَن يُعلمهم أَنه منْ تمناه منهم مات ، ففعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، فعلم اليهود صدقه فأَحجموا عن تَمَنِّيه فَرَقاً من الله لقبح أَعمالهم ، ومعرفتهم

(١) الظاهر أن الخبر – على نصبها على الحال – (عند) ، والظرف لا يستقل معنى الكلام به وحده .

(٢) ينافيه قولهم في الآية الأخرى : [وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ هُوداً أو نَصَارَى] .

(٣) تشبيهاً لها بواو [لَوِ اسْتَطَعْنَا] .

(٤) تخفيفاً لأن الكسر والضم يثقلان مع الواو .

(٥) من الآية (١٨) من سورة (المائدة) .

لكذبهم في قولهم : [نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ] ، وحرصاً منهم على الحياة[١] ، وقيل : إن الله منعهم من التمني ، وقصرهم على الإمساك عنه ، لتظهر الآية لنبيه صلى الله عليه وسلم[٢] .

والمراد بقوله : (تمنوا) أَريدوه بقلوبكم واسأَلوه ، هذا قول جماعة من المفسرين ، وقال ابن عباس : المراد به السؤال فقط وإن لم يكن بالقلب[٣] ، وقال أَيضاً هو وغيره : إنما أُمروا بالدعاء بالموت على أَردى الحزبين من المؤمنين أَو منهم[٤] .

وذكر المهدوي وغيره أَن هذه الآية كانت مدة حياة النبي صلى الله عليه وسلم وارتفعت بموته[٥] . والصحيح أَن هذه النازلة من

---

(١) أخرج البيهقي في الدلائل ، من رواية الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود : (إن كُنْتُمْ صَادِقِين فَقُولُوا : اللهُمَّ أَمِتْنَا ، فو الذي نَفْسِي بِيَدِه لا يَقُولها رجلٌ مِنْكُمْ إلا غص بريقه ومَاتَ مَكَانَه) ، فأنزل الله قوله : [وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ] .

(٢) هذا هو الوجه الثالث في تركهم للتمني ، والأول أنهم تركوه خوفاً من الموت لأنهم لو تمنوه لماتوا ، كما روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني أَنهم تركوه خوفاً من الله تعالى لكفرهم وقبح أعمالهم ، والأوجه الثلاثة أشار إليها المؤلف رحمه الله .
وهذه الآية التي أُعطيها صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى اليهود مثلُ آية المباهلة التي أعطيها صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى النصارى .

(٣) المراد بالتمنّي هنا : التلفُّظُ بما يدل عليه ، لا مجرد خطوره بالقلب ، وميل النفس إليه ، فإن ذلك لايليق في مقام المحاجة والتحدي ، لأنه من ضمائر القلوب ، فقوله تعالى : [فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ] معناه : فاسألوه بألسنتكم سواء كانت معه قلوبكم أم لا . والمراد بتمنيهم الموت هنا إلزامهم الحجة ، وإقامة البرهان على بطلان أباطيلهم ، فلا منافاة بين ما هنا وبين النهي عن تمني الموت .

(٤) أي على أَيِّ الفريقين أَردى وأكذب ، وهذا أبلغ في إقامة الحجة ، وأسلم من المعارضة .

(٥) أكانت هذه المعجزة — وهي موت من تمنى الموت من اليهود — طيلة حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم ترتفع إلا بعد موته ، أمْ كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية الكريمة ،=

موت مَنْ تمنى الموت إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية ، وهي بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران إلى المباهلة ، وقالت فرقة : إن سبب هذا الدعاء إلى تمني الموت أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أراد به هلاك الفريق المكذب ، أو قطعَ حجتهم ، لا أَنَّ عِلَّتَهُ قولهم : [نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ] (١) .

ثم أخبر تعالى عنهم بعجزهم ، وأنهم لا يتمنَّوْنَه ، و [أَبَداً] ظرف زمان ، وإذا كانت (ما) بمعنى الذي فتحتاج إلى عائد تقديره : قَدَّمَتْهُ ، وإذا كانت مع [قَدَّمَتْ] بمثابة المصدر غنيت عن الضمير ،

=لا طول حياة النبي صلى الله عليه وسلم؟الصحيح القول الثاني كما قال المؤلف . وما قاله المهدوي ، وابن عطية ، رحمهما الله تعالى خلاف ظاهر القرآن ، فإن قوله : (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا) ظاهر في استغراق مدة أعمارهم ، والله أعلم .

(١) هو كذلك ، ويشير ابن عطية رحمه الله — بما نقله عن هذه الفرقة ، وبما نقله عن ابن عباس وغيره في تفسير الآية الكريمة من أنهم إنما أُمروا بالدعاء بالموت على أردى الحزبين من المؤمنين أو منهم ، وبقوله سابقاً : وهي — أي هذه الآية — بمنزلة دعائه النصارى مِنْ أهل نجران إلى المباهلة — يشير بذلك كله إلى ما ترجح عنده في تفسير الآية ، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب—منهم أو من المسلمين—على وجه المباهلة العادلة الفاصلة، وهذا ما حققه الحافظ ابن (ك) رحمه الله في تفسيره . وأما على التأويل الآخر فإنه لايظهر الحجة عليهم إذ لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصدق والصلاح وبين تمني الموت ، وكم من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود أن يعمر ليزداد خيره ، وترتفع درجته ، كما ورد في الحديث : (خيركم من طال عمره وحسن عمله) .

وعلى ما فسر ابن عباس رضي الله عنهما فإنه لا يلزم عليه شيء من ذلك ، بل قيل لهم كلام حق : إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه وأنكم من أهل الجنة ، ومَنْ عَدَاكُمْ مِنْ أهل النار فباهلوا على ذلك ، وادْعُوا على الكاذبين منكم أوْ مِنْ غيركم بالموت ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة ، وسميت مباهلة اليهود بتمني الموت لأن كل محق يتمنى لو أهلك اللهُ المبطل — وكانت بالموت لأن الحياة عزيزة وعظيمة لما يعلمون من سوء المآل بعد الموت ، وفي كلام بعض أئمة التفسير اضطراب وخلط وتلفيق . والله أعلى وأعلم .

هذا قول سيبويه ، والأَخفش يرى الضمير في المصدرية . وأَضاف ذنوبهم واجترامهم إلى الأَيدي ، وأَسند تقديمها إليها ، إذ الأَكثر من كسب العبد الخير والشرّ إنما هو بيديه ، فحمل جميع الأَشياء على ذلك . وقوله تعالى : [واللهُ عليمٌ بِالظَّالِمينَ] ظاهرها الخبر ، ومضمنها الوعيد[١] ، لأَن الله عليم بالظالمين وغيرهم ، ففائدة تخصيصهم حصول الوعيد .

قوله عز وجل :

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(وجد) في هذا المعنى تتعدى إلى مفعولين ، لأَنها مِن أَفعال النفس[٢] ، ولذلك صح تعديها إلى ضمير المتكلم في قول الشاعر :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وجَدْتُني وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وأَخْدعَا[٣]

---

(١) يعني أن المراد بالخبر هو التهديد والوعيد ، لا ثبوت النسبة الخبرية ، إذ لافائدة في ذلك ، فالله عليمٌ بالظالمين وغير الظالمين .

(٢) أي أفعال القلوب ، لا من أفعال الجوارح .

(٣) هو للصمة بن عبد الله القشيري ، شاعر إسلامي ، بدوي ، مُقِلٌ . من شعراء الدولة الأموية وقبله :

ولمَّا رأيتُ البِشْرَ قد حال بيننا وحالَتْ بناتُ الشوقِ في الصَّدر نزعا

والبشر : جبل — واللِّيت بالكسر : صفحة العنق — والأخدع : عرق في العنق .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الضب : (إنه لمْ يكنْ بأَرضِ قومي فَأَجِدني أعافه) (١) .

وحرصهم على الحياة لمعرفتهم بذنوبهم ، وأن لا خير لهم عند الله تعالى .

وقوله تعالى : [وَمِنَ الَّذِينَ أَشرَكُوا] (٢) ، قيل : المعنى وأحرص من الذين أشركوا ، لأن مشركي العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا ، ألا ترى إلى قول امرىء القيس :

تَمَتَّع مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ فَانٍ (٣) . . . .

والضمير في [أَحَدُهُمْ] يعود في هذا القول على اليهود ، وقيل : إن الكلام تم في حياة ثم استُؤْنف الإخبار عن طائفة من المشركين أنهم يود أحدهم ، وهي المجوس ، لأن تشميتهم للعاطس لفظ بلغتهم معناه «عش ألف سنة» (٤) ، فكأن الكلام : ومن المشركين قوم يود

(١) قُدِّم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضبٌّ فامتنع عن أكله ، فقال له خالد بن الوليد : أحرام الضبُّ يارسول الله ؟ فقال : (لا . إنه لم يكن..). قال خالد : فاحتززته فأكلته ورسول الله ينظر إلي .

(٢) أفردوا بالذكر مع اندراجهم في الناس لزيادتهم عليهم بشدة الحرص . والإعراب الأول من باب عطف المفرد على المفرد ، وهو محمول على المعنى ، أي أحرص مِنَ الناس ، ومِنَ الذين اشركوا ، والمراد بهم على هذا مشركو العرب . والإعراب الثاني من عطف الجمل ، قصد به الإخبار عن طائفة من الأعاجم ، وتشبيه اليهود بهم ، والضمير في (أحدهم) على الأول لليهود ، وعلى الثاني للمشركين ، والغرض المبالغة في ذم اليهود ، لحرصهم على الدنيا والبقاء فيها ، مع أنهم يعتقدون ثواب الآخرة وعقابها . والإعراب الأول أليق بالمقام لأن القصة خاصة باليهود .

(٣) تمامة . . . . من النَّشَوَاتِ والنّسأ الحِسَانِ .

وروي : (والنشا) بالشين المفتوحة وفي ديوان امرىء القيس (والنساء الحسان) .

(٤) قال في الكشاف عن ابن عباس رضي الله عنه : هو قول الأعاجم : «زي هزار سال» انتهى . وزي بالفارسية معناه عش ، وهزار معناه ألف ، وسال معناه عام .

أَحدهم ، وفي هذا القول تشبيه بني إسرائيل بهذه الفرقة من المشركين . وقصد الأَلف بالذكر لأَنها نهاية العقد في الحساب .

وقوله تعالى : [وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ] ، اختلف النحاة في (هو) ، فقيل : هو ضمير الأَحد المتقدم ، فالتقدير : (وما أَحدهم بمزحزحه) ، وخبر الابتداءِ في المجرور ، و[أَنْ يُعَمَّرَ] فاعل بمزحزحه(١) ، وقالت فرقة : هو ضمير التعمير ، والتقدير : (وما التعمير بمزحزحه) ، والخبر في المجرور ، وأَن يعمر بدل من التعمير في هذا القول . وقالت فرقة : هو ضمير الأَمر والشأْن ، وقد رُدّ هذا القول بما حفظ عن النحاة من أَن الأَمر والشأْن إنما يفسر بجملة سالمة من حرف جر .

وقد جوز أَبو علي ذلك (٢) في بعض مسائله الحلبيات (٣) .

وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت : هو عماد (٤) ، وقيل : (ما) عاملة حجازية وهو اسمها والخبر في (بمزحزحه) . والزحزحة الإبعاد والتنحية ، وفي قوله : [وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ] وعيدٌ ، والجمهور

(١) هذا الإعراب يُنْبِىءُ أن (ما) تميمية ، ويأْتي أنه يجوز أن تكون عاملة أي حجازية .
(٢) أي ما قالته هذه الفرقة من أن (هو) ضمير الأمر والشأن .
(٣) المسائل الحلبية اسم كتاب لأبي علي الفارسي المتوفى ببغداد سنة ٣٧٧ ، ولم يقل شعراً إلا ثلاثة أبيات وهي :

خضبْتُ الشَّيبَ لمَّا كان عيْباً ... وخَضْبُ الشَّيْبِ أولى أنْ يُعَابا
ولم أخضب مخافةَ هَجْرِ خِلٍّ ... ولا عَتْباً خشيتُ ولا عِتابا
ولكنَّ المَشِيبَ بدا ذَميماً ... فصيَّرْتُ الخِضَابَ لَهُ عِقَابَا

(٤) قال الشيخ أبو (ح) : العماد شرطُهُ عند البصريين أن يكون متوسطا بين المبتدأ والخبر ، وبعض الكوفيين يجيزون أن يتقدم مع الخبر على المبتدأ ، والتقدير : (وما تعميره هو بمزحزحه) ، ثم قدم الخبر مع العماد فجاء : (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر أي تعميرة) ، وقد علمت أن الراجح أنه لا يكون إلا بين شيئين ، ولذلك يسمونه ضمير الفصل .

على قراءة [يَعْمَلُونَ] بالياءِ من أَسفل ، وقرأ قتادة ، والأَعرج ، ويعقوب ، (تَعْمَلُونَ) بالتاءِ من فوق ، وهذا على الرجوع إلى خطاب المتَوَعَّدِين من بني إسرائيل .

وقوله : [قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ] الآية ، نزل على سبب لم يتقدم له ذكر فيما مضى من الآيات ، ولكن أَجمع أَهل التفسير أَن اليهود قالت : جبريل عدونا ، واختلف في كيفية ذلك[1] ، فقيل : إن يهود فدك قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : نسأَلك عن أَربعة أَشياءَ ، فإن عرفتها اتَّبعناك ، فسأَلوه عما حرم إسرائيل على نفسه ، فقال: لحوم الإبل وأَلبانها ، وسأَلوه عن الشبه في الولد فقال : أَيُّ ماءٍ علا كان الشبه له ، وسأَلوه عن نومه فقال : تنام عيني ولا ينام قلبي ، وسأَلوه عمن يجيئه من الملائكة فقال : جبريل ، فلما ذكره قالوا : ذاك عدونا ، لأَنه ملك الحرب والشدائد والجدب ، ولو كان الذي يجيئك ميكائيل ملك الرحمة والخصب والأَمطار لاتبعناك . وقيل : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتكرر على بيت المدراس ، فاستحلفهم يوماً بالذي أَنزل التوراة على موسى بطور سيناءَ ، أَتعلمون أَنَّ محمداً نبيٌّ ؟ قالوا نعم ، قال : فلم تهلكون في تكذيبه[2] ؟ قالوا صاحبه جبريل ، وهو عدونا . وذُكر أَنهم قالوا سبب عداوتهم له :

(١) أي في سبب هذا القول ، فقيل : إن سبب ذلك محاورتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : محاورتهم مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولكلٍّ سند . والظاهر أن أسئلة عبد الله بن سلام لم تكن سبباً لنزول الآية الكريمة ، وإن تُليت الآية عندها ، إذ لا يلزم من تلاوتها نزولها حينئذ ، والله أعلم .

(٢) أي بسبب تكذيبه .

أنه حمى بخت نصر حين بعثوا قبل أن يملك من يقتله ، فنزلت هذه الآية لقولهم .

وفي (جبريل) لغات : (جِبْرِيل) بكسر الجيم والراء من غير همز ، وبها قرأ نافع ، و (جَبْرِيل) بفتح الجيم وكسر الراء من غير همز ، وبها قرأ ابن كثير ، وروي عنه أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقرأ (جَبْرِيل ومِيكَال)(١) ، فلا أزال أقرؤُهما أبداً كذلك(٢) . و(جَبْرَأْل) بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء واللام ، وبها قرأ عاصم ، و(جَبْرَئِيل) بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء وياءٍ بين الهمزة واللام ، وبها قرأ حمزة والكسائي ، وحكاها الكسائي عن عاصم ، و (جَبْرائِل) بألف بعد الراء ثم همزة ، وبها قرأ عكرمة ، و(جَبْرَائيل) بزيادة ياءٍ بعد الهمزة (٣) ، و(جَبْرايِيل) بياءَين ، وبها قرأ الأعمش ، و(جَبرَأَلّ) بفتح الجيم والراء وهمزة ولام مشددة ، وبها قرأ يحيى بن يعْمَر ، و(جَبْرَالُ) لغة فيه . و(جِبْرِينُ) بكسر الجيم والراء وياءٍ ونون ، قال الطبري : هي لغة بني أَسد ، ولم يقرأْ بها .

(١) حاصل قراءة السبعة في (جبريل وميكائيل) أن حمزة والكسائي قرآ بفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة بعدها ياء ، وشعبة مثلهما إلا أنه يقرأ بدون ياءٍ بعد الهمزة ، والباقون يقرؤون (جِبْريل) بكسر الجيم كقنديل ، إلا ابن كثير فإنه يفتح الجيم فقط ، وأما (ميكائيل) فقرأ نافع بالهمز من دون ياءٍ ، والبصريُّ وحفص بحذف الهمز والياء كميزان ، والباقون بإثباتهما ، وروي (مِيكال)عن ابن كثير منذ رآها في النوم . ويأتي عند ابن عطية لدى قوله تعالى: (مَنْ كَانَ عَدُوّاً لله) الآية : أن لابن كثير ثلاث قراءات .

(٢) أي مع اعتماد الرواية في ذلك ، إذ لا يعتمد في مثل هذا على المنام .

(٣) نسب أبو (ح) قراءة (جَبْرائِيل ، وجَبْرايِيل) إلى ابن عباس وعكرمة ، انظره .

وجبريل اسم أَعجمي عرَّبته العربُ فلها فيه هذه اللغات (١) ، فبعضها هي موجودة في أَبنية العرب وتلك أَدخل في التعريب كجبريلٍ الذي هو كقنديل ، وبعضها خارج عن أَبنية الْعرب ، فذلك كمثل ما عربته العرب ولم تُدخله في بناءٍ كإبريسِم وفِرند وآجُرّ ونحوه (٢) . وذكر ابن عباس ، وغيرُه : أَن جَبْرَ ، ومَيْكَ ، وسَرافِ ، هي كلها بالأَعجمية بمعنى عبد ومملوك ، وإيل : اسم الله تعالى (٣) ، ويقال فيه : إل ، ومنه قول أَبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة : «هذا كلام لم يخرج من إل» .

وقوله تعالى : [فإنهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ] (٤) الضمير في (فإِنَّهُ) عائد على الله عز وجل ، والضمير في (نَزَّلَهُ) عائد على جبريل صلى الله عليه

(١) يعني أنها تصرفت فيه هذه التصرفات العشرة . قال ابن جني : العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه ا هـ .

(٢) الإبريسم بكسر السين وفتحها : الحرير معرب ، والفِرند بكسر الفاء : السيف وجوهره ، والورد الأحمر ، معرب . والآجُرّ بشد الراء : الطوب الذي يبنى به ، معرب .

(٣) قال أبو عبد الله البخاري : قال عكرمة : جبرا وميكا وإسراف : عبد ، إيل : الله — وما حكاه البخاري عن عكرمة هو المشهور من قولهم أن إيل هو الله ، وقد رواه سفيان الثوري عن نصيف، عن عكرمة. ورواه عبد بن حميد ، عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عِكرمة ، ورواه ابن جرير بسنده عن عكرمة ، وبذلك قال غير واحد من السلف . قال أبو علي الفارسي : هذا لا يستقيم من وجهين : أحدهما أن إيل لا يعرف من أسماء الله تعالى في اللغة العربية ، والآخر أنه لو كان كذلك لكان آخر الاسم مجرورا أبدا كما تقول عبد الله . ومن الناس من يقول : إيل عبارة عن عبد ، والكلمة الأخرى هي اسم الله ، لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع ، وكلام العجم يقدم المضاف إليه على المضاف .

(٤) هذا القول يقوم مقام الجواب ، والمعنى : من كان عدوا لجبريل فليمُتْ غيظا ، وليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل القرآن على قلبك بإذن الله ، فهو رسول الله ، ومن عادى رسولا فقد عادى الرسل كلهم ، كما أن من كفر برسول فيلزمه الكفر بجميع الرسل ، ومن عادى جبريل فقد عادى الله ، ومن عادى الله هلك . وفي الحديث : (من عادى لي وليا فقد آذنتُه بالحرب) . وفي الحديث أيضاً : (إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب) .

وسلم ، والمعنى بالقرآن وسائر الوحي ، وقيل : الضمير في (إنَّه) عائد على جبريل ، وفي (نَزَّلَهُ) على القرآن ، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف[1] .

وجاءت المخاطبة بالكاف في (قلبك) اتساعاً في العبارة ، إذ ليس ثَمَّ من يخاطبه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكاف ، وإنما يجيءُ قوله : فإنه نزله على قلبي ، لكن حسن هذا إذ يحسن في كلام العرب أن تُحْرز اللفظ الذي يقوله المأْمور بالقول ، ويحسن أَن تقصد المعنى الذي يقوله فتسرده مخاطبة له [2] ، كما تقول لرجل : قل لقومك لا يهينوك ، فكذلك هي الآية ، ونحو من هذا قول الفرزدق :

أَلَمْ تَرَأَنِّي يومَ جَوِّ سُوَيْقَةٍ بَكَيْتُ فنادتني هُنَيْدَةُ مَالِيَا؟[3]

فأَحرز المعنى ونكب عن نداءِ هنيدة : مالك ؟

و[بِإِذْنِ اللهِ] معناه : بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة ، و[مُصَدِّقاً] حال من ضمير القرآن[4] في (نزَّلَه) ، و[مَا بَيْنَ يَدَيْهِ] : ما تقدمه

(١) ولأنه إذا صلح صلح الجسد كله كما في الحديث المشهور .

(٢) يعنى أنه يجوز في كلام العرب للمأمور أن يقصد اللفظ بالقول ، وأن يقصد المعنى فيسرده بالخطاب كما في الآية الكريمة ، وكما في بيت الفرزدق .

(٣) وبعد هذا البيت :

فقلتُ لها : إنَّ البكاءَ لرَاحــةٌ به يشْتفي مَنْ ظنَّ ألا تلاقيـا

قِفي ودعينا يا هُنَيْــدُ فإنَّني أرى الحيَّ قَدْ شَامُوا العَقيقَ اليَمَانِيَا

وهي أول قصيدة هجا بها الفرزدق جريراً والبعيث . و (جوّ سُوَيقة) موضع . وفي بلاد العرب أجوية كثيرة كل جو منها يعرف بما نسب إليه .

(٤) أي على الإعراب الثاني وهو أن ضمير (فإنَّه) عائد على جبريل ، وضمير (نزَّله) عائد على القرآن،وهذا الإعراب أصح من الأول ، والضمير الثاني عائد على القرآن من دون تقدم ذكره إيذاناً بفخامة شأنه ، لكمال شهرته ونباهته ، لا سيما عند ذكر بعض صفاته .

من كتب الله تعالى ، و (هُدًى) : إرشاد ، و (البشرى) : أَكْثَرُ استعمالها في الخير ، ولا تجيءُ في الشر إلا مقيدة به ، ومقصد هذه الآية تشريف جبريل صلى الله عليه وسلم وذم معاديه .

وقوله تعالى : [مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله] الآية ، وعيدٌ وذمٌّ لمُعَادي جبريل عليه السلام ، وإعلام أَن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم . وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته ، ومعاداة أَوليائه (١) . وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أَثر العداوة عليه .

وذكر جبريل وميكائيل وقد كان ذكر الملائكة عمهما تشريفاً لهما (٢). وقيل : خصاً لأَن اليهود ذكروهما ، ونزلت الآية بسببهما ، فذكرهما واجب ، لئلا تقول اليهود : إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته . وقرأَ نافع (مِيكَائِل) بهمزة دون ياءٍ . وقرأَ بها ابن كثير فيما روي عنه . وقرأَ ابن عامر ، وابن كثير أَيضاً ، وحمزة ، والكسائي : (ميكائِيل) بياءٍ بعد الهمزة . وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم (ميكال) ، ورويت عن ابن كثير منذ رآها في النوم كما ذكرنا . وقرأَ ابن محيصن (مِيكَئل) بهمزة دون أَلف ، وقرأَ الأَعمش : (ميكايِيل) بياءَين .

وظهر الاسم في قوله : [فَإِنَّ الله] (٣) ، لئلا يشكل عود الضمير .

(١) لأن إلحاق الضرر بالله مستحيل ، فالمراد بالمعادي لله مَن يفعل فعل المعادي من المخالفة والمعصية .

(٢) يعني أن ذكر جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة هو من باب التخصيص بعد التعميم، وذلك دلالة على فضلهما، ولأن اليهود قد تقول : إنا لم نعاد الله ولا جميع الملائكة ، ولأن النزاع واقع فيهما فذكرهما أهم .

(٣) أي جيء به ظاهراً لا ضميراً .

وجاءت العبارة بعموم الكافرين لأَن عود الضمير على (من) يشكل سواءٌ أَفردته أَو جمعته ، ولو لم نبال بالإِشكال وقلنا : المعنى يدل السامع على المقصدِ للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم ، ويحتمل أَن الله قد علم أَن بعضهم يُؤْمن فلا ينبغي أَن تطلق عليه عداوة الله للمآل (١) .

وروي أَن رجلا من اليهود لقي عمر بن الخطاب ، فقال له : أَرأَيتَ جبريل الذي يزعم صاحبك أَنه يجيئُه ؟ ذلك عدونا . فقال له عمر رضي الله عنه : [مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله] إلى آخر الآية ، فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه(٢) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :
وهذا الخبر ضعيف من جهة معناه (٣) .

وقوله تعالى : [وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ] ، ذكر الطبري أَن ابن صوريا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد . ما جئت بآيةٍ بيِّنة . فنزلت هذه الآية (٤) . و [الْفَاسِقُونَ] هنا : الخارجون

---

(١) أي ينتقل عن العداوة بالإيمان ، أي يؤول به الحال إلى الإيمان ، والله تعالى إنما عاداهم لكفرهم ، وفيه دلالة على أن عداوة الملائكة كفر ، وأن عداوة الأولياء عداوة لله .

(٢) رواه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وسيأتي عن المؤلف التصريح بأنه خبر ضعيف .

(٣) أي الخبر الذي فيه أنّ عمر رضي الله عنه نطق بهذه الآية في جواب من قال له من اليهود : ذلك عدونا فنزلت على لسانه ، ووجهُ ذلك — والله أعلم — أن هناك طرُقاً وردت في سبب نزول الآية من دون أن تتعرض لذلك .

ولم يظهر لنا وجه الضعف من ناحية المعنى ، ولذلك لم يذكره أبو حيان ، والألوسي ، وإنما اقتصر على القول بأن الخبر ضعيف نقلا عن ابن عطية ، وموافقات الوحي لعمر شهيرة والله أعلم .

(٤) روي ذلك عن ابن عباس من طريق ابن اسحق ، كما رواه الواحدي في أسباب النزول .

عن الإيمان ، فهو فِسْق الكفر ، والتقدير: وما يكفر بها أحد إلا الفاسقون ، لأن الإيجاب لا يأتي إلا بعد تمام جملة النفي .

قوله عز وجل :

﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾

قال سيبويه : الواو واو العطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام(١) ، وقال الأخفش : هي زائدة ، وقال الكسائي : هي أَوْ ، وفتحت تسهيلا ، وقرأها قوم : (أَوْ) ساكنة الواو فتجيءُ بمعنى (بَلْ)(٢) كما يقول القائل : لأضربنك ، فيقول المجيب : أَوْ يكفي الله(٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا كله متكلف ، وأو في هذا المثال متمكنة في التقسيم ، والصحيح

---

(١) أي كما دخلت على الفاء في نحو: (أفتطمَعُون أنْ يُؤْمِنوا لَكُمْ)، وعلى ثم في نحو: (أثُمَّ إذا مَاوَقَع) الآية . والتقدير هنا : (أ كفروا بالآيات البينات ، وكلما عاهدوا؟) الخ ، أو (أينكرون فسقهم وكلما عاهدوا عهدا ؟) الخ . والاستفهام إنكاري . وهذا هو الصحيح في مثل هذا التركيب .

(٢) دل على كونها بمعنى (بل) ما بعدها ، وهو قوله تعالى : (بَلْ أكْثَرُهُمْ لايُؤْمِنُونَ) ، ترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ .

(٣) يأتي على الأثر أن أوْ في هذا المثال متمكنة في التقسيم وهو كذلك ، فهي ليست كما في الآية ، والله أعلم .

قول سيبويه ، وقرئ : (عَهِدُوا عَهْداً) ، وقرأ الحسن ، وأبو رجاءٍ : (عُوهِدُوا) ، و(عَهْداً) مصدر ، وقيل : مفعول بمعنى أُعطوا عهداً ، والنَّبْذُ : الطرح والإلقاءُ ، ومنه : النَّبيذ والمَنْبُوذ . والفريق : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ويقع على اليسير والكثير من الجمع ، ولذلك فسرت كثرة النابذين بقوله : [بَلْ أَكْثَرُهُمْ]، لما احتمل الفريق أن يكون الأقل[(١)] ، و[لاَ يُؤْمِنُونَ] في هذا التأويل حال من الضمير في [أَكْثَرهم] ، ويحتمل الضمير العود على الفريق ، ويحتمل العود على جميع بني إسرائيل ، وهو أذم [(٢)] لهم ، والعهد الذي نبذوه هو ما أُخذ عليهم في التوراة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي مصحف ابن مسعود : (نَقَضَهُ فَرِيقٌ)[(٣)] .

وقوله تعالى : [وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ] ، يعني به محمداً صلى الله عليه وسلم ، و[مَا مَعَهُمْ] هو التوراة و[مُصَدِّقٌ] نعت لرسول ، وقرأ ابن أبي عبلة (مصدِّقاً) بالنصب [(٤)] . و [لَمَّـا] يجب بها الشيءُ لوجوب غيره ، وهي ظرف زمان [(٥)] ، وجوابها في [نَبَذَ] الذي يجيءُ ، و[الكِتَابَ] الذي أُوتوه التوراة ، و[كِتَابَ ٱللَّهِ] مفعول بنبذ ، والمراد

(١) يعني أن الفريق يقع على القليل والكثير ، ولما احتمل أن يكون النابذون للعهد أقلية بيّن ذلك بقوله تعالى : [بلْ أكثَرُهُمُ لا يُؤْمِنُون] ، فكان النابذون للعهد هم الأكثر ، وكان النقض لعهد الله كفراً .

(٢) أي أشد وأكثر ذما لهم ، من عوده على الفريق .

(٣) هي قراءة مخالفة لسواد المصحف ، فالأولى حملها على التفسير . قاله أبو (ح) .

(٤) أي على الحال .

(٥) يقال في (لمّا) هذه : حرف وجوب لوجوب ، وحرف وجود لوجود . قاله أهل اللغة ، وذلك لأنها تقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما .

القرآن لأَن التكذيب نبْذٌ . وقيل : المراد التوراة لأَن مخالفتها والكفر بما أُخذ عليهم فيها نبْذٌ .

و[وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ] مَثَل (١) ، لأَن ما يجعل ظهرياً فقد زال النظر إليه جملة ، والعرب تقول : جعل هذا الأَمر وراءَ ظهره ودَبْرَ أُذنه ، وقال الفرزدق :

تَمِيمَ بْنَ زيْدٍ لا تكونَنَّ حاجَتِي   بِظَهْرٍ فلا يَعْيَى عَلَيَّ جَوابُهَا (٢)

و[كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ] تشبيه بمن لا يعلم (٣) ، إذْ فعلوا فعل الجاهل ، فيجيءُ من اللفظ أَنهم كفروا على عِلْم .

وقوله تعالى : [وَاتَّبعُوا مَا تَتْلُوا] الآية ، يعني اليهود ، قال ابن زيد (٤) : المراد مَنْ كان في عهد سليمان ، وقال ابن عباس : المراد مَنْ كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل الجميع (٥) ، و[تَتْلُوا] قال عطاءٌ : معناه تقرأُ من التلاوة (٦) ، وقال ابن عباس: تتلوا : تَتَّبِعُ ،

---

(١) يضرب لمن يستخف بالشيء فلا يعمل به . تقول العرب : اجعل هذا خلْفَ ظهرك ودَبْرَ أذنك ، أي اتركه وأعرض عنه .

(٢) أي لا تنسها وتجعلها وراء ظهرك ، وفي بعض الروايات : فلا يخفى عليَّ جوابُها ، وتميم بن زيد القيني : رجل من قضاعة ، كان والياً على السند . وانظر سبب قول هذا البيت في الجزء الأول من لسان العرب رقم ٣٣٧ ، ويروى : تميم «بن مر» ، وتميم « بن زيد » .

(٣) أي مع كونهم يعلمون من التوراة ما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي الكريم ، ولكنهم لما لم يعملوا بعلمهم نزلوا منزلة من لا يعلم .

(٤) وفي بعض النسخ زيادة و «السدّي» .

(٥) أي جميع اليهود في أي عهد كانوا .

(٦) وقال الراغب الأصبهاني : تتلوا بمعنى تكذب وتختَلق ، يقال : تلا عليه إذا كذب ، وتلا عنه إذا صدق . ومنه : «قال عليه» ، نحو : (وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) ، والآية تنطوي على ذم اليهود في تعاطي السحر ، وإيثاره، وتبرئة سليمان عليه السلام ممانسبوه إليه ، =

كما تقول : جاء القوم يتلو بعضهم بعضاً ، وتتلوا بمعنى تَلَتْ ، فالمستقبل وُضِعَ موضع الماضي ، وقال الكوفيون : المعنى ما كانت تتلوا[١] ، وقرأ الحسن والضحاك : الشياطون بالواو ، وقوله : [عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ] أي على عهد ملك سليمان ، وقيل : المعنى – في ملك سليمان ، بمعنى في قصصه وصفاته وأخباره . وقال الطبري : اتَّبَعوا بمعنى فَضَّلُوا[٢] ، وعلى ملك سليمان أي على شرعه ونبوته وحاله .

والذي تلته الشياطين – قيل : إنهم كانوا يُلْقُون إلى الكهنة الكلمة من الحق معها المائةُ من الباطل حتى صار ذلك علمهم ، فجمعه سليمان ودفنه تحت كرسيه ، فلما مات قالت الشياطين : إن ذلك كان علم سليمان ، وقيل : بل كان الذي تلته الشياطين سحراً وتعليمه ، فجمعه سليمان عليه السلام كما تقدم ، وقيل : إن سليمان عليه السلام كان يملي على كاتبه آصف بن برخيا علمه ويَخْتَزِنُه ، فلما مات أخرجته الجنُّ وكتبت بين كل سطرين سطراً من سحر ، ثم نسبت ذلك إلى سليمان ، وقيل : إن آصف تواطأ مع شياطين على أن يكتبوا سحراً وينسبوه إلى سليمان بعد موته ، وقيل : إن الجن كتبت ذلك

=وفي الآية أنهم اتبعوا ما روته الشياطين على ملك سليمان ، وأخذوا السحر وبرعوا فيه ، وتركوا الحق وراءهم وزعموا أن السحر تُراث عن الملائكة والأنبياء ، والقرآن ينفي تهمة السحر عن الأنبياء والملائكة ، وينسبه إلى الشياطين ، والشياطين تطلق على شياطين الجن وشياطين الإنس .

(١) لا يريدون بذلك أن صلة (ما) محذوفة وتتلوا خبر كانت ، وإنما يريدون أن المضارع وقع موقع الماضي ، كما تقول : كان زيد يقوم ، فإنه إخبار بقيام زيد وهو ماض لدلالة كان عليه .

(٢) لأن مَن اتَّبع شيئاً فقد فضَّله على غيره ، وهذا الاتِّباع نوع من أنواع قبائحهم ومخازيهم التي كانوا عليها ، ولذلك كانت هذه الجملة نسقاً على الجملة قبلها وهي : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله) الخ ...

بعد موت سليمان واختلقته ونسبته إليه ، وقيل : إن الجن والإنس حين زال ملك سليمان عنه اتخذ بعضهم السحر والكهانة علماً ، فلما رجع سليمان إلى ملكه تتبع كتبهم في الآفاق ودفنها ، فلما مات قال شيطان لبني إسرائيل : هل أدلكم على كنز سليمان الذي به سخِّرت له الجن والريح ؟ هو هذا السحر ، فاستخرجته بنو إسرائيل ، وانْبثَّ فيهم ، ونسبوا سليمان إلى السحر ، وكفروا في ذلك حتى برَّأَهُ الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر سليمان في الأَنبياءِ قال بعض اليهود : انظروا إلى محمد ، يذكر سليمان في الأَنبياءِ وما كان إلا ساحراً . وقوله تعالى : [وما كَفَرَ سُلَيْمَانُ] تبرئة من الله تعالى لسليمان ، ولم يتقدم في الآيات أن أحداً نسبه إلى الكفر ولكنها آية نزلت في السبب المتقدم أن اليهود نسبته إلى السحر(١) ، والسحروالعمل به كفر(٢).

---

(١) آنفاً حيث قال اليهود : انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحراً ، أي والساحر كافر ، فَنِسْبَتُه إلى السحر نِسْبَةٌ إلى الكُفر ، فلذلك كان قول الله تعالى : (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) تبرئةٌ له ، ودلالة على أن السحر كفر . والسحر له حقيقة ، وله أثر ، ولا ينكر هذا إلا متعصب ، كيف وهو علم يعلم ويتعلم كما في القرآن ؟ ، وثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحر حتى كان يخيل له أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه ، حتى شفاه الله تبارك وتعالى ، وبعض الناس ينكرون هذا الحديث ولا يلتفتون إليه ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(٢) يؤخذ من القرآن أُمور ثلاثة : أن السحر كفر أو مُؤَدٍّ إلى الكفر ، لقوله تعالى : (ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشَّيَاطِين كَفَرُوا) الآية ، وأن الضرر المراد إلحاقه بالمسحور لا يتحقق إلا إذا كان قدراً مقدورا ، لقوله تعالى : (وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ الله) . وأن بني إسرائيل برعوا في السحر الذي أخذوه من الشياطين ، لقوله تعالى : (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) .

ويُقتل الساحر عند مالك كفراً ، ولا يستتاب كالزنديق ، وقال الشافعي : يُسأَل عن سحره ، فإن كان كفراً استتيب منه ، فإن تاب وإلا قتل . وقال مالك فيمن يعقد الرجال عن النساء : يعاقب ولا يقتل ، واختلف في ساحر الذمة (١) ـ فقيل : يقتل ، وقال مالك : لا يقتل إلا إن قتل بسحره ، ويضمن ما جنى ، ويقتل إن جاءَ منه بما لم يعاهد عليه . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، بتشديد النون من [لٰكِنَّ] ، ونصب الشياطين . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر بتخفيف النون ورَفْع الشياطين . قال بعض الكوفيين : التشديد أَحب إلَيَّ إذا دخلت عليها الواو ، لأَن المخففة بمنزلة (بَلْ) ، و(بَلْ) لا تدخل عليها الواو . قال أَبو علي : ليس دخول الواو عليها معنى يوجب التشديد ، وهي مثقلة ومخففة بمعنى واحد ، إلا أَنها لا تعمل إذا خففت .

وكفر الشياطين إما بتعليمهم السحر ، وإما بعلمهم به ، وإما بتكفيرهم سليمان به ، وكلٌّ ذلك كان . والناس المعلَّمون أَتباع الشياطين من بني إسرائيل ، و[السِّحْرَ] مفعول ثان بِيُعَلِّمُون ، وموضع [يُعَلِّمُون] نصب على الحال ، أَو رفع على خبر ثان .

وقوله تعالى : [وَما أُنْزِل عَلَى ٱلْملَكَيْنِ بِبَابِلَ هارُوتَ وَمَارُوتَ] . (ما) عطف على (السحر) فهي مفعولة (٢) ، وهذا على القول بـأَن الله تعالى أَنزل السحر على الملكيْن فِتنَةً للناس ، ليكفر من اتبعه ، ويؤمن من

---

(١) في بعض النسخ أهل الذمة وهي أوضح .

(٢) فيه أن العطف يقتضي المغايرة .

تركه ، أَو على قول مجاهد وغيره : إن اللّٰه‌تعالى أَنزل على الملكين الشيء الذي يُفرق به بين المرءِ وزوجه دون السحر (١) ، أَو على القول : إنه تعالى أَنزل السحر عليهما ليعلَّم ، على جهة التحذير منه والنهي عنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والتعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه .

وقيل إن (مَا) عطف على (ما) في قوله: [مَا تَتْلُوا] . وقيل : (ما) نافية ، ردٌّ (٢) على قوله : [وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ] ، وذلك أَن اليهود قالوا : إن الله أَنزل جبريل وميكائيل بالسحر فنفى الله ذلك .

وقرأَ ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، وابن أَبْزِي (الملِكَيْنِ) بكسر اللام (٣) . وقال ابن أَبزي : هما داود وسليمان ، وعلى هذا القول أَيضاً فما نافية ، وقال الحسن هما عِلجَانِ (٤) كانا ببابل ملكين ، فما على هذا القول غير نافية ، وقرأَهما كذلك أَبو الأَسود الدُّؤَلي وقال : هما هاروت وماروت فهذا كقول الحسن . وبابل لا ينصرف للتأْنيث والتعريف . وهي قطْرٌ من الأَرض ، واختلف أَين هي ؟ فقال قوم : هي بالعراق (٥) وما والاه ، وقال ابن مسعود لأَهل الكوفة :

---

(١) أي نوعاً خاصاً من السحر وهو الذي يفرق بين المجتمعين والمتحدين كالزوجين ، لا السحر بمعناه العام .

(٢) أي عطف على قوله وما كفر سليمان .

(٣) قراءة شاذة . وابن أبزي هو عبد الرحمن بن أبزي الكوفي – روى عن أُبي ، وعن عمر بن الخطاب .

(٤) العلج : الرجل القوي الضخم ، وعلى هذا فالإنزال ليس معناه الإيحاء ، بل معناه القذف في قلوبهما ،والله أعلم .

(٥) على شاطىء نهر الفرات .

أَنتم بين الحيرة وبابل . وقال قتادة : هي من نصيبين إلى رأْس العين . وقال قوم : هي بالمغرب وهذا ضعيف[١] وقال قوم : هي جبل دماوند[٢].

و [هارُوتَ ومَارُوت] بدل من [الملكَيْنِ] على قول من قال : هما ملكان . ومن قرأ سِلكَيْنِ بكسر اللام وجعلهما داود وسليمان ، أَو جعل المَلَكَيْن جبريل وميكائيل جعل هاروت وماروت بدلا من الشياطين في قوله [ولكنَّ الشَّيَاطِينَ] ، وقال : هما شيطانان .

ويجيءُ [يُعَلِّمُونَ] إما على أَن الاثنين جمع ، وإما على تقدير أَتْباعٍ لهذين الشيطانين اللَّذيْن هما الرأْس . ومن قال : كانا عِلْجَيْنِ قال : [هاروت وماروت] بدل من قوله : [الملكين] .

وقيل : هما بدل من الناس في قوله : (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ) . وقرأ الزهري [هاروتُ وماروتُ] بالرفع ، ووجهه البدل من [الشياطين] في قوله : [تتلوا الشياطين] أَو من الشياطين الثاني على قراءة من خفف (لكنْ) وَرَفَع ، أَو على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : هما هاروت وماروت . وَرَوى مَن قال إنهما مَلَكَان أَن الملائكة مَقَتَتْ حكام بني آدم ، وزعمت أَنها لو كانت بمثابتهم من البعد عن الله[٣] لأَطاعت حق الطاعة ، فقال الله لهم : اختاروا ملكين يحكمان بين الناس ، فاختاروا هاروت وماروت ، فكانا يحكمان ، فاختصمت إليهما امرأَة ، فَفُتِنَا

(١) هو كذلك لأن هذا الاسم مشهور بالمشرق دون المغرب .

(٢) ويقال : دنباوند ، ويقال : دنياوند ، ويقال : نهاوند ، راجع البكري في معجمه ، وابن خلكان في تاريخه .

(٣) لعله تعليل لقوله : (مقتت) ، أي مقتتهم بسبب بعدهم عن الله بارتكاب المعاصي والمآسي في الأرض ، والحقيقة أنه لم يتضح لنا المعنى الذي يقصده المؤلف بقوله : (من البعد عن الله) .

بها ، فراوداها فأبت حتى يشربا الخمر ، ويقتلا ، ففعلا ، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماها إياه ، فتكلمت به فعرجت فمسخت كوكباً فهي الزهرة ، وكان ابن عمر يلعنها[(١)] .

(١) هذه الرواية غريبة وبعيدة وهي من تلفيقات اليهود وخرافاتهم ، وقد أبطلها الإمام الرازي من عدة وجوه . والذي تحرر لنا في هذا المقام بعد أبحاث تناولت عدة مصادر من التفسير وغيره ، هو ما حققه العلامة المرحوم القاسمي في تفسيره متجاوزا التكلفات والتعسفات التي ارتكبها بعض أئمة التفسير ، ونصه : «والذي ذهب إليه المحققون، أن هاروت وماروت كانا رجلين يتظاهران بالتقوى والصلاح في بابل ، وكانا يعلمان الناس السحر ، وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء ، وما يعلمانه للناس هو بوحي من الله ، وبلغ مكر هذين الرجلين ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر ،أي إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك ، أتشكر أم تكفر ؟ ، وننصح لك ألا تكفر ، يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية ، وصناعتهما روحانية ، وأنهما لا يقصدان إلا الخير كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان ، قائلين لمن يعلمهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم : نوصيك ألا تكتب لجلب امرأة متزوجة إلى رجل غير زوجها ، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء ، ولليهود في ذلك خرافات كثيرة ، حتى أنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله ، وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس ، فجاء القرآن مكذباً لهم — في دعواهم نزوله من السماء — وفي ذم السحر ومن يتعلمه أو يُعَلِّمه : فقال : (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) الآية و (مَا) نافية على أصح الأقوال ، ولفظ (الملكين) هنا وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت ، كما يرد ذكر آلهة الخير والشر في كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين ، وكما يرد في كلام المسلم في الرد على المسيحيين ذكر تجسد الإله وصلبه ، وإن كان لايعتقد ذلك . وقوله تعالى :(فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) مِنْ قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر في أقبح صورة، أي بلغ من أمْر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الإفساد أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع كالمرء وزوجه — والخلاصة : أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا : إن اليهود كذبوا القرآن ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه ، وزعموا أنه كَفَرَ ، وهو لم يكفر ، ولكن شياطينهم هم الذين كفروا ، وصاروا يعلمون الناس السحر ، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت اللَّذيْن سموهما ملكين ولم ينزل عليهما شيء ، وإنما كانا رجلين يدّعيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لا يقصدان إلا الخير ، ويحذرانهم من الكفر ، وبلغ من أمر ما يتعلمونه=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ، وبعيد على ابن عمر رضي الله عنهما . وروي أَن الزهرة نزلت إليهما في صورة امرأَة من فارس فجرى لهما ما ذكر ، فأَطْلَعَ الله الملائكة على ما كان من هاروت وماروت فتعجبوا ، وبقيا في الأَرض لأَنهمـا خُيِّرَا بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا فاختارا عذاب الدنيا ، فهما في سرب من الأَرض معلقين يصفقان بأَجنحتهما .

= منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقون به بين المجتمعين ، ويحلون به عقد المتحدين – فأنت ترى من هذا أن المقام كلّه للذم ، فلا يصح أن يرد فيه مدح هاروت وماروت – والذي يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن أنكر نزول أي ملك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عند الله غير الوحي إلى الأنبياء ، ونص نصاً صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بني نوعهم فقال : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إلا رجالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون) وقال منكراً على من طلب إنزال الملك: (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ) » انتهى .

والقصة المذكورة لهاروت وماروت على اختلاف رواياتها غير صحيحة . قال القاضي عياض رحمه الله : «وأما ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت ، وما روي عن علي ، وابن عباس رضي الله عنهما في خبرهما وابتلائهما ، فاعلم أكرمك الله أن هذه الأخبار لم يُرْوَ منهـا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس ، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه ، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثيرٌ من السلف ، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما قصه الله أول الآيات» . انتهى ، وقال أيضاً : «وما يذكر في قصتهما مع الزهرة كله ضعيف» ، وكذلك قال ابن عطية رحمه الله . وقال الحافظ ابن كثير : « وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد ، والسدي ، والحسن البصري ، وقتادة ، وأبي العالية ، والزهري ، والربيع بن أنس ، وغيرهم – وقصها خلقٌ من المفسرين المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى – وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال . » انتهى

من هذه الأقوال تعرف الصواب في هذه القصة وتستطيع أن تعرف رأي ابن عطية في عبارته التالية ، وهي تقطع بضعف هذه الأسطورة .

وروت طائفة أنهما يعلمان السحر في موضعهما ذلك ، وأُخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر . وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض ولا يقطع منه بشيء فلذلك اختصرته.

قوله عز وجل :

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

ذكر ابن الأعرابي[١] في الياقوتة أن [يُعَلِّمَانِ] بمعنى يُعْلِمَانِ وَيُشْعِرَانِ ، كما قال كعب بن زهير :

تَعلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي وأَنَّ وَعِيداً مِنْكَ كالأَخْذِ باليَدِ

وحَمَل[٢] هذه الآية على أن المَلَكَيْنِ إنما نزلا يُعَلِّمَانِ النَّاس بالسحر وينهيان عنه .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن زياد ، إمام من أئمة اللغة ، وراوية ثقة لأشعار القبائل — كان رأساً في الكلام الغريب ، كوفي المذهب — توفي سنة ٢٣١ هـ .

(٢) عطف على قوله : ذكر ابن الأعرابي . بمعنى أنهما يقولان لمن يطلعانه على صفات السحر وكيفياته : لا تكفر باستعماله ، ولا تعدل عن الغرض في إعلامك به ، فإنك إنما أُعلمت به لتجتنبه لا لتفعله — ولا يكون تعلم السحر على هذا التأويل كفراً ومعصية ، بل هو من باب قول أبي نواس :

عَرَفْتُ الشرَّ لا لِلشَّرِّ لكِنْ لِتَوقِّيهِ
فَمَنْ لا يَعْرِفُ الشَّرَّ مِنَ الناسِ يَقَعْ فيهِ

وقال الجمهور : بل التعليم على عرفه . و[لاَ تَكْفُرْ] : قالت فرقة:بتعلم السحر ، وقالت فرقة : باستعماله ، وحكى المهدوي أَن قولهما : [إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ] استهزاءٌ ، لأَنهما إِنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله . و[مِنْ] في قوله : [مِنْ أَحد] زائدة بعد النفي ، وقوله تعالى : [فَيَتَعَلَّمُونَ] ، قال سيبويه : التقدير فَهُمْ يتعلمون ، وقيل : هو معطوف على قوله : [يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ] ومنعه الزجاج [1] ، وقيل : هو معطوف على موضع [ما يُعَلِّمان] لأَن قوله : [وَمَا يُعَلِّمَانِ] وإِن دخلت عليه ما النافية فمضمنه الإِيجاب في التعليم [2] ، وقيل : التقدير فيأْبَوْنَ فيتعلمون [3] ، واختاره الزجاج .

والضمير في [يُعَلِّمَانِ] هو لهاروت وماروت المَلَكَيْنِ أَو المَلِكَيْنِ العِلْجَيْنِ على ما تقدم . والضمير في [مِنْهُمَا] قيل : هو عائد عليهما ، وقيل : على السحر ، وعلى الذي أُنزل على الملكين .

و[يُفَرِّقُونَ] معناه فُرقة العصمة وقيل معناه يُؤَخِّذُونَ [4] الرجل عن المرأَة حتى لا يقدر على وطئها ، فهي أَيضاً فُرقة .

وقرأَ الحسن ، والزهري ، وقتادة [الْمَرِ] براءٍ مكسورة خفيفة ، ورُوي عن الزهري تشديد الراءِ ، وقرأَ ابن أَبي إِسحق [المُرءِ] بضم الميم وهمزة ، وهي لغة هُذيل .

---

(١) سبب المنع هو لفظ الجمع في (يُعَلِّمُون) ، وقد قال (فيتعلمون منهما) بالتثنية .

(٢) لأن معناه أنهما يعلمان السحر إذا قالا للمتعلم : (إنَّما نحْنُ فتنةٌ فلا تكْفُر) .

(٣) إشارة إلى أنه معطوف على ما يوحيه معنى الكلام عند قوله : (فلا تكفر) .

(٤) يقال: أخَّذه تأخيذا بمعنى سحره، والأخذة هي الرقية . ويقال: إن التأخيذ هو حبس الزواجر أزواجهن عن غيرهن من النساء ، وقد روي أن أمرأة قالت للسيدة عائشة : أؤأخذ جملي (تعني زوجها) ؟ فقالت :نعم .

وقرأ الأشهب العقيلي [المِرءِ] بكسر الميم وهمزة ، ورويت عن الحسن . وقرأ جمهور الناس [المَرءِ] بفتح الميم وهمزة .

والزوج هنا امرأة الرجل ، وكل واحد منهما زوج الآخر ، ويقال للمرأة : زوجة ، قال الفرزدق :

وإنَّ الذي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي كَسَاعٍ إلى أُسْدِ الشَّرَىٰ يَسْتَبِيلُهَا

وقرأ الجمهور [بِضَارِّينَ] . وقرأ الأعمش (بِضَارِّي بِهِ مِن أَحَدٍ) فقيل : حذفت النون تخفيفاً ، وقيل : حذفت للإضافة إلى أحد ، وحيل بين المضاف والمضاف إليه بالمجرور[1] .

و[بِإِذْنِ اللهِ][2] معناه : بعلمه وتمكينه ، و[يَضُرُّهُمْ] معناه : في الآخرة ، [وَلا يَنْفَعُهُمْ] فيها أيضاً وإن نفع في الدنيا بالمكاسب ، فالمُرَاعَى إنما هو أمر الآخرة . والضمير في [عَلِمُوا] عائد على بني إسرائيل حسب الضمائر المتقدمة ، وقيل : على الشياطين ، وقيل : على المَلَكَيْنِ وهما جمع[3] ، وقال : [اشْتَرَاه] لأنهم كانوا يعطون الأُجرة على أن يعلموا ، والخَلَاق : النصيب والحظ ، وهو هنا بمعنى الجاه والقدر ،

(١) هذا ما اختاره جار الله الزمخشري ، ثم استشكله بقوله : كيف الإضافة إلى (أحد) وهو مجرور بمن ؟ وأجاب بأن الجار جزءٌ من المجرور — وناقشه أبو (ح) بأن الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف من ضرورات الشعر ، وبأنه ليس هناك مضاف إليه ، فإن (أحد) مشغول بمن فهو المؤثر فيه — وبأن جزء الشيء لا يؤثر في الشيء ، و(من) مُؤثر في (أحد) وعامل فيه فالأولى أنّ حذف النون للتخفيف ، راجع «البحر المحيط» ١/٣٣٢ .

(٢) الإذن في الشيء من الله ضربان : أحدهما الإذن لقاصد الفعل في مباشرته ، والثاني الإذن في تسخير الشيء على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله ، فإذن الله تعالى في وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثاني ، وذلك هو المشار إليه بالقضاء — وعلى هذا يقال : الأشياء كلها بإذن الله وقضائه ، ، ولا يقال : الأشياءُ كلها بأمره ورضاه ، قاله الراغب الأصبهاني .

(٣) أي والتثنية جمع .

واللام في قوله [لَمَنِ] المتقدمة للقسم ، المؤْذنة بأَن الكلام قسم لا شرط .

وتقدم القول في بئسما(١) ، و [شَرَوا] معناه : باعوا ، وقد تقدم مثله ، والضمير في [يَعْلَمُونَ] عائد على بني إسرائيل باتفاق ، ومن قال : إن الضمير في [عَلِمُوا] عائد عليهم خرج هذا الثاني على المجاز(٢) ، أَي لما عملوا عمل مَنْ لا يعلم كانوا كأَنهم لا يعلمون ، ومن قال : إن الضمير في [عَلِمُوا] عائد على الشياطين أَو المَلَكَين قال : إن أُولَـئك علموا أَلا خلاق لمن اشتراه ، وهؤلاءِ لم يعلموا ، فهو على الحقيقة . وقال مكي : الضمير في [عَلِمُوا] لعلماءِ أَهل الكتاب(٣) ، وفي قوله : [لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] للمتعلمين منهم .

وقوله تعالى : [وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا] موضع أَن رفعٌ ، المعنى : ولو وقع إيمانهم ، ويعني الذين اشتروا السحر ، و[لَوْ] تقتضي جواباً ، فقالت فرقة : جوابها [لَمَثُوبَةٌ] لأَنها مصدر يقع للمضي والاستقبال ، وجواب (لو)لا يكون إلا ماضياً أَو بمعناه، وقال الأَخفش : لا جواب لِلَوْ في هذه الآية مُظهراً ولكنه مقدر ، أَي : لو آمنوا لأُثيبوا . وقرأَ قتادة ، وأَبو السمال ، وابن بريدة [لَمثْوَبَةٌ] بسكون الثاءِ ، وفتح الواو ، وهو مصدر أَيضاً كمشورة ومَشْوَرة . و[مثوبة] رفع بالابتداءِ و [خَيْرٌ]

---

(١) أي لدى قوله تعالى : [بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ] الآية .

(٢) والمعنى : ولقد علم اليهود من التوراة أن من اشترى السحر لانصيب له في الآخرة ولبئس ما باعوا به أنفسهم السحرَ لو كانوا يعقلون ، أو لو كانوا يعملون بعلمهم ، وإذا انتفى العقل انتفى العلم ، لأنه من ثمرته ، كما أنه إذا انتفى العمل الذي هو ثمرة العلم انتفى العلم ، ونزّل صاحبه منزلة الجاهل — والحاصل أن الضمير في (علموا) مُخْتَلَفٌ فيه ، والضمير في (يعلمون) مُتَّفَق عليه .

(٣) أي الذين علموا السحر .

خبره ، والجملة خبر [أَنَّ] . والمثوبة عند جمهور الناس بمعنى الثواب والأَجر ، وهذا هو الصحيح ، وقال قوم : معناه : الرجعة إلى الله ، من ثاب يثوب إذا رجع ، واللام فيها لام القسم [(١)] ، لأَن لام الابتداء مستغنى عنها ، وهذه لا غنى عنها . وقوله : [لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] يحتمل نفي العلم عنهم ، ويحتمل أَن يُراد لو كانوا يعلمون علماً ينفع . وقرأَ جمهور الناس [رَاعِنَا] من المُراعاة بمعنى فاعلنا [(٢)] ، أَي ارعنا نرعك ، وفي هذا جفاءٌ أَن يخاطب به أَحد نبيه ، وقد حض الله تعالى على خفض الصوت عنده ، وتعزيره ، وتوقيره . فقال من ذهب إلى هذا المعنى : إن الله تعالى نهى المؤْمنين عنه لهذه العلة ، ولا مدخل لليهود في الآية على هذا التأْويل ، بل هو نهيٌ عن كل مخاطبة فيها استواءٌ مع النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة : هي لغةٌ كانت الأَنصار تقولها ، فقالها رفاعة [(٣)] بن زيد بن التابوت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ليًّا بلسانه وطعناً ، كما كان يقال : اسمع غَيْرَ مسمع ، فنهى الله المؤْمنين أَن تقال هذه اللفظة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ووقْفُ هذه اللغة على الأَنصار تقصير ، بل هي لغة جميع العرب ، فاعل من المراعاة ، فكانت اليهود تصرفها إلى الرعونة ، يظهرون أَنهم يريدون المراعاة ، ويبطنون أَنهم يريدون الرعونة التي هي الجهل .

---

(١) أي : وليست ابتدائية ، والتقدير : ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا ، والله (لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ) ، الآية .

(٢) اللام الساكنة عبارة عن الياء المحذوفة للأمر .

(٣) أحد اليهود .

وحكى المهدوي عن قوم أن هذه الآية على هذا التأويل ناسخةٌ لفعل قد كان مباحاً ، وليس في هذه الآية شروط النسخ ، لأن الأول لم يكن شرعاً متقرراً (١) .

وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وابن أبي ليلى ، وابن مُحيصن ، وأبو حيْوَةَ : [رَاعِناً] بالتنوين(٢) وهذه من معنى الجهل ، وهذا محمول على أن اليهود كانت تقوله ، فنهْيُ الله تعالى المؤْمنين عن القول المباح سد ذريعة(٣) لئلا يتطرق منه اليهود إلى المحظور ، إذ المؤْمنون إنما كانوا يقولون : (راعنا) دون تنوين . وفي مصحف ابن مسعود (راعوناً) ، وهي شاذة ، ووجهها أنهم كانوا يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم كما تخاطب الجماعة ، يظهرون بذلك إكباره ، وهم يريدون في الباطن فاعولا من الرعونة ، و[انْظُرْنَا] مضمومة الألف والظَّاءِ معناها : انتظرنا وأمهل علينا ، ويحتمل أن يكون المعنى تفقدنا ، من النَّظَر ، وهذه لفظة مخلصة لتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم على المعنيين .

---

(١) ذلك لأن تحريم ما هو مباح بحكم الأصل ليس بنسخ عند الأصوليين ، ولذلك عرّفوا النسخ بقولهم : رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر ، والمباح بحكم الأصل والعادة الجارية قبل الشرع لا يعتبر حكماً شرعياً .

(٢) هي قراءة شاذة لا يؤخذ بها ، وكذلك قراءة (راعوناً) بالتنوين ، وإذا نُهينا عن راعنا بدون تنوين فكيف براعناً وراعوناً بالتنوين .

(٣) سدُّ الذريعة باب من أبواب الشريعة ، فكلمة (راعِنَا) كان المسلمون يقولونها للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي من المراعاة مِن دون أن يُقصد بها المساواة ، فأخذها اليهود كرفاعة ابن زيد وخاطبوا بها النبي صلى الله عليه وسلم بقصد النقيصة ، فنهى الله المؤمنين عن هذا القول وإن كان مباحاً سداً للباب على الملاعين في الألفاظ التي تحتمل السب والنقص ، فالقضية من باب سد الذريعة لا من باب نسخ فعل سابق .

والظاهر عندي استدعاءُ نَظَرِ العين المقترن بتدبير الحال [١] ، وهذا هو معنى راعنا فبُدِّلَت للمؤمنين اللفظةُ ليزول تعلق اليهود . وقرأَ الأَعمش ، وغيره [أَنظِرنا] بقطع الأَلف وكسر الظاء ، بمعنى أَخرنا وأَمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقى منك .

ولمَّا نهى الله تعالى في هذه الآية وأَمر ، حضَّ بعْدُ على السمع الذي في ضمنه الطاعة [٢] ، وأَعلم أَن لِمَنْ خالف أَمره فكفر عذاباً أَليماً ، وهو المُؤْلِم ، و[اسْمَعُوا] معطوف على [قولُوا] لا على معمولها .

قوله عز وجل :

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

التقدير : ولا من المشركين ، وعَمَّ الذين كفروا ، ثم بين أَجناسهم من اليهود والنصارى وعبدة الأَوثان ، ليبين في الأَلف واللام في [الَّذِينَ] أَنها ليست للعهد يراد بها معين .

ومعنى الآية : أَن ما أَمرناكم به من أَنْ تعظموا نبيكم خير من الله منحكم إِياه ، وذلك لا يوده الكفار ، ثم يتناول اللفظ كل خير

(١) أي نظر البصر والبصيرة ، قال أهل اللغة : نَظَرَ يتعدى إلى المُبْصَرات بنفسه وإلى المعاني بفي ، فعلى الأول معناه : تفقدنا بنظرك ، وعلى الثاني معناه : انظر في أمرنا ، ويقال : نظر بمعنى انتظر ، ويؤيد هذا المعنى قراءة الأعمش : أنظرنا بقطع الهمزة ، أي أخِّرنا وأَمهلنا حتى نفهم منك ونتلقى عنك .

(٢) وهو سماع القلب ليذعن للحق ، ويطيع أوامره ونواهيه .

غير هذا ، و [أَنْ] مع الفعل بتأويل المصدر ، و[مِنْ] زائدة في قول بعضهم ، ولما كان ود نزول الخير منتفياً قام ذلك مقام الجَحْد الذي يلزم أَن يتقدم من الزائدة على قول سيبويه والخليل(١) ، وأَما الأَخفش فيجيز زيادتها في الواجب .

وقال قوم : [مِنْ] للتبعيض لأَنهم يريدون أَلا ينزل على المؤْمنين من الخير قليل ولا كثير ، ولو زال معنى التبعيض لساغ لقائلٍ أَن يقول : نريد أَلا ينزل خير كامل ، ولا نكره أَن ينزل بعض ، فإذا نفي ود نزول البعض فذلك أَحرى في نزول خير كامل(٢) .

والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أَنواعها التي قد منحها الله عباده قديماً و حديثاً ، وقال قوم : الرحمة هي القرآن ، وقال قوم : نُبوَّةُ محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه أَجزاءُ الرحمة العامة التي في لفظ الآية .

وقوله تعالى : [مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا] الآية(٣) ، النسخ – في كلام العرب – على وجهين : أَحدهما النقل ، كنقل كتاب من آخر ، والثاني الإزالة ، فأَما الأَول فلا مدخل له في هذه الآية ،

(١) يعني أن نفي ود النزول كنفي النزول مباشرة .

(٢) أي في نفي نزول خير كامل .

(٣) هذه آية عظيمة من آيات الأحكام ، تتناول النسخ في شريعة الإسلام ، وترد على من ينكره من اليهود وأشباههم – ولمعرفة الناسخ والمنسوخ مقام كبير ، لِمَا يترتب على ذلك من وضع الأحكام في مواضعها ، ولذلك حذّر علماءُ الإسلام من الجهل به والخطأ فيه ، ومن المعقول أن التبدل في الكائنات ناموس طبيعي ، فهذه الخلية الإنسانية تتنقل في أطوار وأحوال كل واحد منها ينسخ ما قبلها ، وإذا كان هذا النسخ موجوداً في الكائنات فكيف يستنكر إبدال حكم سابق بحكم لاحق في أُمة هي في حال نمو وتدرج من أدنى إلى أرقى ؟ وفوق ذلك فالله قادر على كل شيء ، ومالك لكل شيء ، يفعل ما يريد ، ويحكم كما يشاء ، فالنسخ يهيىءُ النفوس لما هو أرقى وأسمى .

وورد في كتاب الله في قوله تعالى : (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون) (١) ، وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية ، وهو منقسم في اللغة على ضربين : أحدهما يثبت الناسخ بعد المنسوخ (٢) ، كقولهم : نسخت الشمس الظل ، والآخر لا يثبت كقولهم : نسخت الريح الأثر .

وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين . والناسخ حقيقة هو الله تعالى ، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً (٣) إذْ به يقع النسخ .

وحد الناسخ عند حذّاق أهل السنة الخطاب (٤) الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه (٥) .

والنسخ جائز على الله تعالى عقلا ، لأنه ليس يلزم عنه محال ، ولا تغيير صفة من صفاته تعالى ، وليست الأوامر معلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أنَّ الإرادة تغيرت ، ولا النسخ لِطُرُوِّ علم ، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول ، ويعلم نسخه له بالثاني .

---

(١) أي : نأمر بنسخه وإثباته . وهي من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية) .

(٢) أي يقوم مقامه ويحل محله .

(٣) أي مجازاً لأنه سبب النسخ .

(٤) يخرج عن الخطاب القياس والإجماع ، فإنهما لا ينسخان ولا ينسخ بهما — ويشمل الخطاب سائر الدلالات ، وقوله : على وجهٍ أي مغاير للخطاب السابق ، ولولا ذلك الوجه لكان الحكم السابق ثابتاً وقائماً .

(٥) قيد في الناسخ ، إذ لو كان متصلا بالمنسوخ لكان بياناً لغاية الحكم لا ناسخاً له ، أو لكان آخر الكلام يرفع أوله .

والبَدَاءُ (١) لا يجوز على الله تعالى ، لأَنه لا يكون إلا لِطُرُوٍّ علم أَو لِتَغَيُّرِ إرادة ، وذلك محال في جهة الله تعالى . وجعلت اليهود النسخ والبَداءَ واحداً ، ولذلك لم يُجَوِّزوه فضلُّوا .

والمنسوخ عند أَئمتنا : الحكم الثابت نفسه ، لا ما ذهبَتْ إليه المعتزلة من أَنَّه مثْلُ الحكم الثابت فيما يستقبل (٢) ، والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أَن الأَوامر مرادة (٣) ، وأَن الحُسْنَ صفة نفسية للحَسَنِ ، ومراد الله تعالى حَسَنٌ ، وقد قامت الأَدلة على أَن الأَوامر لا ترتبط بالإرادة ، وعلى أَن الحُسْنَ والقبح في الأَحكام إنما هو من جهة الشرع لا بصفة نفسية (٤) .

والتخصيص من العموم يوهم أَنه نسخ وليس به (٥) ، لأَن المُخَصَّص

(١) البَدَاء بفتح الباء والمد : اسم من بدا له في الأمر : ظهر له ما لم يظهر أولا ، والفرق بين النسخ والبَداء أن الحكم الثاني معلوم عند الحكم الأول في النسخ ، وفي البداء إنما ظهر في ثاني حال .

(٢) تعرض ابن عطية رحمه الله لمباحث جليلة لها علاقة بالنسخ ، ولأقسام النسخ والنَّسء لأن من الآيات ما هو من قبيل المنسوخ ، ومنها ما هو من قبيل المنسوء ، كما قال تعالى : (مَا نَنْسَخ مِنْ آية أو نُنْسِهَا نأت بخيْر مِنْهَا أو مِثْلِهَا) والأولى بهذه المباحث علم الأصول . ولهذا لم يتكلم أبو (ح) في حقيقة النسخ كما فعل ابن عطية ، وأما القرطبي فقد نقل كلام ابن عطية في الموضوع .

(٣) فقد يأمر الله بالشيء ولا يريده ، وفي جمع الجوامع : «والأمر غير الإرادة خلافاً للمعتزلة» .

(٤) يعني أن الحُسْن والقبح في الأحكام إنما يُدرك بالشرع ، وليس صفة ذاتية تُدرك بمجرد العقل .

(٥) كثيرا ما يتوسعون في تسمية التخصيص نسخاً ، وبذلك وسَّعوا دائرة النسخ ، ولو كانوا يتحرون في التسمية لما اتسع ذلك ، والحق أن النسخ بمعناه الخاص قليل جداً ، وقد أوضح ابن عطية رحمه الله الفرق بين التخصيص والنسخ ، والنسخ في اصطلاح السلف أعم منه في اصطلاح الخلف ، وهذا أبو مسلم الأصبهاني المعتزلي يُسَمِّي النسخ تخصيصاً ، وقال أبو اسحق=

لم يتناوله العموم قط ، ولو ثبت قطعاً تناول العموم لشيءٍ ما ثم أُخرِجَ ذلك الشيءُ عن العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً ، والنسخ لا يجوز في الأَخبار ، وإنما هو مختص بالأَوامر والنواهي(١) ، وورد بعض المعترضين الأَمر خبراً بأَن قال : أَليس معناه : واجب عليكم أَن تفعلوا كذا ؟ فهذا خبر ، والجواب أَن يقال : إن في ضمن المعني إلا أَنْ أَنسخه عنكم وأَرفعه ، فكما تضمن لفظ الأَمر ذلك الإِخبار ، كذلك تضمن هذا الاستثناءَ .

وصور النسخ تختلف :

فقد ينسخ الأَثقل إِلى الأَخف ، كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين(٢) .

وقد ينسخ الأَخف إِلى الأَثقل ، كنسخ يوم عاشوراءَ والأَيام المعدودة برمضان(٣)

=الشاطبي في الموافقات : «الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين ، فقد يطلقون على تقييد المطلق وتخصيص العام – بدليل متصل أو منفصل – نسخاً ، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي – بدليل شرعي متأخر – نسخاً ، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد وهو بيان المراد» . انتهى.

(١) الخبر الحقيقي لا يدخله نسخ سواء كان مما يتغير كإيمان زيد وكُفْر عمرو أو مما لا يتغير كالإخبار بوجود الله وصفاته ، وأما نسخ تلاوة الخبر ، أو نسخ تكليفنا به ، كما إذا كلفنا بأن نخبر بشيءٍ ثم ورد نسخُ التكليف بذلك – فكل من هذين جائز ، لأنه من التكليف فيدخله النسخ ، وكذلك الخبر الذي يتضمن الأمر فإنه يدخله النسخ ، وابن عطية رحمه الله أطلق القول ولم يقيد ، ونحوه قول أبي اسحق الثعلبي في تفسيره هنا حيث قال : «واعلم أن النسخ إنما يعرض للأوامر والنواهي دون الأخبار ، لأن الخبر إذاً نسخ صار المخبر كاذباً» انتهى .

(٢) أي نسخ قوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الآية ، بقوله تعالى : (الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الآية .

(٣) نسخ صيام عاشوراءِ برمضان موجود في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، والأيام المعدودة في قول ابن عباس هي ثلاثة أيام من كل شهر ، وكان ذلك في أول الإسلام .

وقد ينسخ المِثْل بمثله ثقلا وخفة ، كالقبْلَةَ .

وقد ينسخ الشيءُ لا إلى بدلٍ ، كصدقة النجوى .

والنسخ التام أَن تنسخ التلاوة والحكم ، وذلك كثير ، ومنه قول أَبي بكر الصديق رضي الله عنه : كنا نقرأ (لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كُفْرٌ) .

وقد تنسخ التلاوة دون الحكم ، كآية الرجم .

وقد ينسخ الحكم دون التلاوة ، كصدقة النجوي ، وكقوله تعالى : (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا) (١) ، والتلاوة والحكم حكمان ، فجائز نسخ أَحدهما دون الآخر ، وينسخ القرآن بالقرآن ، والسنة بالسنة (٢) ، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي ، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد ، وهذا كله متفق عليه ، وحذاق الأَئمة على أَن القرآن ينسخ بالسنة ، (٣) وذلك موجود في قوله صلى الله عليه وسلم : (لا وصيَّةَ لوارثٍ) ، وهو ظاهر مسائل مالك رحمه الله ، وأَبى ذلك الشافعي رحمه الله ، والحجة عليه من قوله ـ إسقاطُهُ الجَلْد في حدِّ الزنا عن عن الثَّيِّب الذي يُرْجَم ، فإنه لا مسقط لذلك إلا السنةُ ، فعلُ النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) نسخ هذا الحكم ، وصرنا بعده لانعطي الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار شيئاً ، بل ننتظر ، فإن عثرنا عليها استتبناها ، فإن تابت وإلا قُتلت ، وكذلك التي فرت إلينا لا نعطي الكفار شيئاً . والآية هي رقم (١١) من سورة (الممتحنة) .

(٢) يريد (والله أعلم) أن السنة المتواترة تنسخ بالسنة المتواترة .

(٣) قال مختصره رحمه الله : «ويعني بالسنة الناسخة للقرآن الخبر المتواتر القطعي ، وقد أشار إلى أن هذا الحديث متواتر ، ذكره عند تفسير قوله تعالى : (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)انتهى.

وكذلك حُذَّاق الأَئمة على أَن السنة تنسخ بالقرآن . وذلك موجود في القِبْلَة ، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن قط في كتاب الله ، وفي قوله تعالى : [فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ][1] فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي صلى الله عليه وسلم لقريش .

والحُذَّاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً[2] ، واختلفوا هل وقع شرعاً ؟ فذهب أبو المعالي ، وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباءٍ ، في التحول إلى القبلة[3] ، وأبى ذلك قوم .

ولا يصح نسخ نص بقياس ، إذ من شروط القياس أَلا يخالف نصًّا ، وهذا كله في مدة النبي صلى الله عليه وسلم . وأَما بعد موته واستقرار الشرع فأَجمعت الأُمة أَنه لا نسخ ، ولهذا كان الإجماع لا يَنْسَخُ ولا يُنْسَخُ ، لأَنه إنما ينعقد بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصًّا فنعلم أَن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن .

وقال بعض المتكلمين : النسخ الثابت متقرر في جهة كل أَحد ، علم الناسخ أَو لم يعلمه ، والذي عليه الحذاق أَن من لم يبلغه الناسخ

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (الممتحنة) .

(٢) المحققون على أن خبر الواحد لا ينسخ القرآن ، ولا الخبر المتواتر ، لأنه رفع للمقطوع به بالمظنون . وإنما قبلوا تخصيص المتواتر بالآحاد ، ولم يقبلوا نسخه به ، لأن الأول بيانٌ وجمعٌ ، بخلاف النسخ فإنه رفع وإبطال .

(٣) روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة) ، **هذا لفظ** الإمام مسلم في المساجد ومواضع الصلاة — وهذا الذي قاله أبو المعالي إنما يأتي على قول ابن عباس إن استقبال بيت المقدس كان بوحي متلو — روي عنه أنه قال : أول ما نسخ من القرآن القِبْلة .

فهو متعبد بالحكم الأَول ، فإذا بلغه الناسخ طرأ عليه حكم النسخ . والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله ، وهو موجود في كتاب الله تعالى في قصة الذبيح .

وقرأ جمهور الناس : [مَا نَنْسخ] بفتح النون ، مِنْ نَسَخَ ، وقرأت طائفة (نُنْسِخ) ، بضم النون ، مِن أَنسخ ، وبها قرأ ابن عامر وَحْدَه من السبعة .

قال أَبو علي الفارسي : ليست لغة لأَنه لا يقال : نَسَخَ وأَنْسخ بمعنى ، ولا هي للتعدية ، لأَن[1] المعنى يجيءُ : ما نكتب من آية ، أَي ما نُنزل فيجيءُ القرآن كله على هذا منسوخاً ، وليس الأَمر كذلك ، فلم يبق إلا أَن يكون المعنى : ما نجده منسوخاً ، كما تقول : أَحمدت الرجل وأَبخلته ، بمعنى وجدته محموداً وبخيلا ، قال أَبو علي : وليس يجده منسوخاً إلا بأَن ينسخه ، فتتفق القراءتان في المعنى ، وإن اختلفتا في اللفظ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد خَرَّج قَرَأَةُ هذه القراءَةِ المعنى على وجهين[2] : أَحدهما أن يكون المعنى : ما نكتب ونُنْزل من اللوح المحفوظ ، أَو ما نؤخر فيه ونترك فلا نُنْزله أَي ذلك فعلنا فإنا نأْتي بخير من المؤَخر المتروك أَوْ

(١) تعليل لقوله : «ولا هي للتعدية» ، يعني أن المعنى يتغير بذلك ، ويصير : ما نُنسخك من آية يا محمد ، وإنساخه إياها إنزالها عليه — فيؤول المعنى إلى أن كل آية أُنزلت أُتي بخير منها أو مثلها ، وبذلك يصبح القرآن كله منسوخاً ، وهذا غير واقع ، لأنه لم يُنْسخ منه إلا القليل .

(٢) كلاهما الهمزة فيه للتعدية ، إلا أنه من الوجه الأول مأخوذٌ من نَسْخ الكتاب بمعنى الإنزال ، وفي الوجه الثاني من النَّسخ بمعنى الإزالة ، تأمل .

بمثله ، فيجيءُ الضميران في [مِنْهَا] أَوْ [مِثْلِهَا] عائدين على الضمير في (نَنْسَأْهَا) (١) .

والمعنى الآخر : أَن يكون ننسخ من النسخ بمعنى الإزالة ، ويكون التقدير : ما ننسخك أي نبيح لك نسخه ، كأَنه لما نسخها الله أَباح لنبيه تركها بذلك النسخ ، فسمى تلك الإِباحة إنساخاً . و [مَا] شرطية ، وهي مفعولة بننسخ ، و [نَنْسَخْ] جزم بالشرط . واختلف القراءُ في قراءة قوله : [نُنْسِهَا] فقرأَ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وابن عامر ، وجمهور من الناس [نُنْسِهَا] بضم النون الأُولى ، وسكون الثانية ، وكسر السين ، وترك الهمزة ، وهذه من أَنسى المنقول من نَسِيَ ، وقرأَت ذلك فرقة كما تقدم إلا أَنها همزت بعد السين ، فهذه بمعنى التأْخير ، تقول العرب : أَنسأْت الدين وغيره أُنسئه إنساءً إذا أَخرته . وقرأَت طائفة : (أَوْ نَنْسَهَا) بفتح النون الأُولى ، وسكون الثانية ، وفتح السين ، وهذه بمعنى الترك ، ذكرها مكي ولم ينسبها ، وذكرها أَبو عبيد البكري في كتاب «اللئالي» (٢) عن سعد بن أَبي وقاص ، وأَراه وهِمَ . وقرأَ سعد بن أَبي وقاص (٣) (أَوْ تُنْسَها) بتاءٍ على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونون بعدها ساكنة ، وفتح السين ، هكذا قال أَبو الفتح ، وأَبو عمرو الداني ، فقيل لسعد : إن سعيد

---

(١) أي عائدين على المنسوء لا على المنسوخ من اللوح المحفوظ ، بخلاف ما سبق ، فإن الضميرين عائدان على المنسوخ والمنسوء ، لكن على هذا الوجه يبقى ما ننسخ من آية بدون جواب ، إذ لا رابط يربط بين الشرط والجواب ، وذلك لا يجوز .

(٢) شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري الوزير المتوفي سنة ٤٨٧ هـ .

(٣) أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وواحد من الفرسان المعدودين في الفتوحات الإسلامية الأولى ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأحاديث ، توفي سنة ٥٥ هـ .

ابن المسيب يقرؤُها بنون أُولى مضمومة وسين مكسوره ، فقال : «إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب» ، وتلا (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى)(١) (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)(٢) .

وقرأ سعيد بن المسيب ـ فيما ذكر عنه أيضاً ـ أو (تُنْسَهَا) بضم التاء أولاً وفتح السين وسكون النون بينهما ، وهذه من النسيان ، وقرأ الضحاك بن مزاحم ، وأبو رجاء (نُنَسِّها) بضم النون الأُولى وفتح الثانية وسين مكسورة مشددة ، وهذه أيضاً من النسيان ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، وعطاءُ بن أبي رباح ، ومجاهد ، وعبيد بن عمير ، وابن كثير ، وأبو عمرو (نَنْسَأْها) بنون مفتوحة وأُخرى بعدها ساكنة وسين مفتوحة وألف بعدها مهموزة ، وهذه من التأْخير ، تقول العرب : نسأْتُ الإبل عن الحوض أنسؤُهَا نَسْأً ، أي أخرتها ، وكذلك يقال : أنسأَ الإبل إذا زاد في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك ، بمعنى أخرها عن الورد .

وقرأت فرقة مثلَ هذه القراءة إلا أنها بتاءٍ مفتوحة أوّلا على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وإسناد الفعل إليه . وقرأ أبو حيوة مثلَ ذلك إلا أنه ضم التاءَ أولا . وقرأ أُبي بن كعب (أَوْ نُنْسِكَ) بضم النون الأُولى وسكون الثانية وسين مكسورة وكاف مخاطبة ، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة (أو نُنْسِكها) مثل قراءة أُبي إلا أنه زاد ضمير

(١) الآية رقم (٦) من سورة الأعلى .
(٢) من الآية رقم (٢٤) من سورة الكهف .

الآية . وقرأ الأعمش (ما ننسك من آية أو ننسخها نجئ بمثلها) ، وهكذا ثبتت في مصحف عبد الله بن مسعود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه القراءات(١) لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسء أو الإنساء بمعنى التأخير ، أو تكون من النسيان .

والنسيان في كلام العرب يجيءُ في الأغلب ضد الذكر ، وقد يجيءُ بمعنى الترك ، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات ، فما كان منها يترتب في لفظه النسيان (٢) الذي هو ضد الذكر . فمعنى الآية : ما ننسخ من آية أو نقدِّر نسيانك لها فتنساها حتى ترتفع جملة وتذهب ، فإنا نأتي بما هو خيرٌ منها لكم أو مثلٌ في

---

(١) هي إحدى عشرة قراءة بدون قراءة الأعمش .

(٢) يؤيد هذا ما رُوي عن قتادة أنه قال : كانت الآية تنسخ بالآية ، وينسي الله نبيه من ذلك شيئاً . وقبل الدخول في سياق ابن عطية رحمه الله ننقل كلام العلامة القاسمي ، نقلا عن الراغب الأصبهاني : في حل الآية الكريمة – قال : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) أي ما نُبدل من آية بغيرها كنسخ آيات التوراة بآيات القرآن ، أو ننسها ، أي نذهبها من القلوب كما أخبر بقوله: (وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) وقرئ (أَوْ نَنْسَأْهَا) أيْ نُؤَخِّرْهَا ونتركها بلا نسخ كما أبقى كثيراً من أحكام التوراة في القرآن – (نأتِ بخير منها)،أي من المنسوخة المبدلة كما فعل في الآيات التي شرعت في الملة الحنيفية ما فيه من اليسر ورفع الحرج والعنت فكان خيراً من تلك الآصار والأغلال ، (أومثلها أي) مثل الآيات الموحدة قبل كما يرى في كثير من الآيات في القرآن الموافقة لما بين يديها مما اقتضت الحكمة بقاءه واستمراره – قال الراغب : فإن قيل : إن الذي تُرك ولم ينسخ ليس هو مثله ، بل هو هو . فكيف قال : بمثلها ؟ قيل : الحكم الذي أُنزل في القرآن ، وكان ثابتاً في الشرع الذي قبلنا ، يصح أن يقال : هو هو إذا اعتبر بنفسه ، ولم يعتبر بلفظه ، ويصح أن يُقال : هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه ، بل بلفظه ، ونحو ذلك أن يقال : ماءُ البئر هو ماءُ النهر إذا اعتبر جنس الماء ، وتارة يقال : مثل ماء النهر إذا اعتبر قرار الماء . ا هـ .

على أن إرادة العين بالمثل شائعة كما في قولهم : مثلك لا يبخل .

المنفعة . وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان : أحدها : ما ننسخ ـ على وجوه النسخ[(١)] ـ أو نترك غير منزل عليك فإنا لابد أن ننزل ـ رفقاً بكم ـ خيراً من ذلك أو مثله ، حتى لا ينقص الدين عن حد كماله . والمعنى الثاني : أو نترك تلاوته ـ وإن رفعنا حكمه ـ فيجيءُ النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم [(٢)] . والمعنى الثالث : أو نترك حكمه ـ وإن رفعنا تلاوته ـ فالنسخ أيضاً على هذا رفع التلاوة والحكم ، والمعنى الرابع : أو نتركها غيرَ منسوخة الحكم ولا التلاوة ، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه . ويجيءُ الضميران في [مِنها] أو [مِثْلِهَا] عائدين على المنسوخة فقط[(٣)] ، وكأن الكلام : إنْ نسخنا أَوْ أبقينا فإنا نأْتي بخير من المنسوخة أَوْ مثلها ، وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى التأْخير فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأَربعة التي في الترك ـ أولها : ما ننسخ أو نؤخر إنزاله [(٤)] . والثاني : ما ننسخ النسخ الأَكمل أو نُؤَخر حكمه وإن أبقينا تلاوته . والثالث : ما ننسخ النسخ الأَكمل أو نُؤَخر تلاوته وإن أبقينا حكمه . والرابع : ما ننسخ أو نؤخره

(١) وهي ثلاثة ـ نسخ التلاوة والحكم ، أو نسخ أحدهما وبقاء الآخر .

(٢) أي أن قوله تعالى : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) يحمل على ذلك ، وقوله : (أَوْ نُنْسِهَا) يحمل على بقاء التلاوة ورفع الحكم ، والمعنى الثالث كذلك إلا أن المتروك فيه الحكم والمرفوع التلاوة .

(٣) أي دون قوله : (أَوْ نُنْسِهَا) لأن النسيان بمعنى الترك ، أو ترك لفظها وحكمها .

(٤) هذا ضعيف ، إذ لا فائدة في تأخير مالم يعرفه الناس ولا علموه ولا سمعوه .

مثبتاً لا ننسخه ، [١] ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك [٢] . وبعض هذه المعاني أقوى من بعض ، لكن ذكرنا جميعها لأنها تحتمل ، وقد قال جميعها العلماءُ ، إمَّا نصاً ، وإما إشارة فكملناها .

وقال الزجاج : إن القراءة [أو نُنْسِهَا] بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معني الترك ، لأنه لا يقال : أُنسى بمعنى ترك . وقال أبو علي ، وغيره : ذلك متَّجِه ، لأنه بمعنى نجعلك تتركها [٣] وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر ، وقال : إن هذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نسي قرآناً . وقال أبو علي ، وغيره : ذلك جائز ، وقد وقع ، ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ ، أو بتنسية ، واحتج الزجاج بقوله تعالى: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) [٤] أي لم نفعل ، قال أبو علي : لم نذهب بالجميع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

على معنى إزالة النعمة كما توعد ، وقد حكى الطبري القول عن أقدم من الزجاج ورد عليه ، والصحيح [٥] في هذا أن نسيان النبي صلى الله عليه وسلم لِمَا أراد الله أَنْ ينساه ــ ولَمْ يُرِدْ أَنْ يثبتَ قرآناً ــ جائزٌ .

(١) أي إلى مدة .

(٢) أي على المنسوخ دون المنسوء .

(٣) وليس بمعنى نتركك .

(٤) من الآية (٨٦) من سورة الإسراء .

(٥) يشير القاضي ابن عطية رحمه الله إلى تأييد أبي علي الفارسي رحمه الله في أن النسيان جائز وواقع ، ويؤكد ذلك ما سبق عن قتادة رحمه الله .

فأَما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي صلى الله عليه وسلم معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أَحد من أَصحابه ، وأَما بعد أَن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر[1] ، لأَنه قد بلَّغ وأَدى الأَمانة ، ومنه الحديث : (حين أَسقط آية ، فلما فرغ من الصلاة قال : أَفي القوم أُبيٌّ ؟ قال : نعم يارسول الله ، قال : فَلِمَ لَمْ تُذكِّرني ؟ قال : حسبت أَنها رفعت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم ترفع ، ولكني نسيتها[2]) ولفظة خَيْر في الآية صفة تفضيل ، والمعنى : بأَنفع لكم أَيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أَخف ، وفي آجِلٍ إنْ كانت أَثقل ، وبمثلها إن كانت مستوية ، وقال قوم : خير في الآية مصدر ، وَمِنْ لابتداء الغاية .

(١) في الصحيحين ، وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : (إنما أنا بشر ، أنسى كما تَنْسَوْنَ ، فإذا نسيت فذكّروني). وبهذا الحديث الصحيح يرد حديث : (لا أنسى ولكن أُنسى لأسن) ، وقد ذكر الإمام مالك رحمه الله في الموطأ هذا الحديث بلاغاً بغير إسناد ، ونصه : (عن مالك أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إني لأنسى أو أنسى لأسن) . فأثبت النوعين معاً . قال أبو عمر : « حديث (إني لأنسى أو أنسى لأسن) ، أحد الأحاديث الأربعة في الموطأ التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة » . وقال الحافظ في الفتح : « لا أصل له ، فإنه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد » . وقال في الشفاء : إنّه حديث صحيح ، أي من جهة المعنى ، وقد ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر أنه قال : (فنسيتها أو أُنسيتها) ، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : (سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ في المسجد ، فقال : يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا ، آية من سورة كذا) . قال الحافظ بن حجر : «لم أقف على تعيين الآيات المذكورة » . وفي رواية : زيادة كنت أسقطتها . وفي رواية أُخرى : كنت أُنسيتها .

(٢) روى أبو داود ، عن المسور بن يزيد المالكي أنه قال : (شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة فترك شيئاً لم يقرأه ، فقال رجل : يارسول الله تركت آية كذا وكذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلا ذكرتنيها ، قال : كنت أُراها نسخت) . وفيه أيضاً عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة ، فقرأ فيها ، فلبس عليه ، فلما انصرف قال لأبي : أصليْتَ معنا ؟ قال : نعم ، قال : فما منعك . ا هـ وتأمل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقلق هذا القول لقوله تعالى : [أَوْ مِثْلِهَا] ، إلا أن يعطف المثل على الضمير في منها دون إعادة حرف الجر وذلك [(١)] معترض .

وقوله تعالى : [أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ] ، ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير[(٢)] ، والتقرير محتاج إلى معادل كالاستفهام المحض ، فالمعادل هنا على قول جماعة : [أَمْ تُرِيدونَ] ، وقال قوم : [أَم] هنا منقطعة ، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره : أم علمتم ، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة أُمته ، وأما إن كان هو المخاطب وحده فالمعادل محذوف لا غير ، وكلا القولين مَرْوِيٌّ . ومعنى الآية : إن الله تعالى ينسخ ما يشاءُ ، ويثبت ما يشاءُ ، ويفعل بأَحكامه ما يشاءُ ، هو قدير على ذلك وعلى كل شيءٍ . وهذا [(٣)] لإنكار اليهود النسخ ، وقوله : [عَلَى كُلِّ شَيْءٍ] عموم معناه الخصوص إذ لم تدخل فيه الصفات القديمة بدلالة العقل ولا المحالات لأَنها ليست بأَشياءَ ، والشيءُ في كلام العرب الموجود [(٤)] و [قَدِيرٌ] اسم فاعل على المبالغة من قَدَر بفتح العين يقدِر بكسرها ، ومن العرب من يقول : قدِر بكسر العين يقدَر بفتحها .

---

(١) أي العطف من دون إعادة الجار لايجوز ، فالأحسن أنه أفعل تفضيل لا مصدر بمعنى خير من الخيور .

(٢) الاستفهام هنا للتقرير ، والاستفهام التقريري كما هو معلوم لايحتاج إلى معادل ، وما أكثر ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) أي قوله تعالى : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) جاء رداً لإنكار اليهود النسخ .

(٤) حساً كالأجسام أو حكماً كالأقوال ، نحو رأيت شيئاً ، وقلت شيئاً ، والمراد بالموجود الممكن .

قوله عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

الملك : السلطان ، ونفوذ الأمر ، والإرادة ، وجَمْع الضمير في [لَكُمْ] دال على أن المراد بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم خطاب أُمته . والْوَلِيّ : فعِيل من ولي إذا جاور ولصق ، فالناصر ، والمعين ، والقائم بالأمر ، والحافظ ، كلهم مجاور بوجهٍ ما ، والنصير : فعِيل من النصر ، وهو أشد مبالغة من ناصر .

وقوله تعالى : [أَمْ تُرِيدُونَ] ، قالت فرقة : [أم] رد على الاستفهام الأول فهي معادلته (١) ، وقالت فرقة : أم استفهام مقطوع من الأول ، كأنه قال : أتريدون ؟ وهذا موجود في كلام العرب ، وقالت فرقة : أم هنا بمعنى بل وألف الاستفهام ، قال مكي ، وغيره : وهذا يضعف ، لأن أَمْ لا تقع بمعنى بل إلا إذا اعترض المتكلم شكٌّ فيما يورده .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس كما قال مكي رحمه الله ، لأن بل قد تكون للإضراب

(١) سبق أن هذا ضعيف ، والقول الثاني وهو أن (أمْ) بمعنى الهمزة فقط كذلك ، والصحيح هو القول الأخير وهو أنها منقطعة ، والمنقطعة تفسر ببل والهمزة ، فالمعنى بل أتريدون ، وبل إضراب عما قبلها لفظاً لا معنى .

عن اللفظ الأول لاعن معناه ، وإنما يلزم ما قال على أحد مَعْنَيَيْ بل ، وهو الإضراب عن اللفظ والمعنى ، ونِعْمَ ما قال سيبويه : بل لترك كلام وأخذ في غيره (١) . وقال أبو العالية (٢) : إن هذه الآية نزلت حين قال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم : ليت ذنوبنا جرت مجرى ذنوب بني إسرائيل بتعجيل العقوبة في الدنيا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (قد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل) وتلا (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً)(٣) ، فتجيءُ إضافة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأُمة على هذا حسب الأمر في نفسه ، وحسب إقرارهم(٤) ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : إن رافع بن حريملة اليهودي سأل النبي صلى الله عليه وسلم تفجير عيون وغير ذلك ، وقيل : إن كفار قريش سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يأْتِيَهُمْ بالله جهرة ، وقيل : سألوه أن يأْتِيَهُمْ بالله والملائكة قبيلا ، وقال مجاهد : سألوه أن يرد الصفا ذهباً(٥) ، فقال لهم : خذوا ذلك كالمائدة لبني إسرائيل(٦) فأَبَوْا ونكصوا .

---

(١) إنما مدح قول سيبويه لأنه جامع للمعنيين ، وهو تركُ اللفظ فقط أو اللفظ والمعنى .

(٢) رواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم .

(٣) الآية (١١٠) من سورة النساء .

(٤) حاصله أنه إن كان الخطاب للمؤمنين كما قاله أبو العالية فإن الإضافة في (رَسُولَكُمْ) تأتي على حسب ما في نفس الأمر وحسب إقرارهم ، وإن كان الخطاب للكفار فإن الإضافة تأتي على حسب ما في نفس الأمر لا على حسب إقرارهم لأنهم كفار .

(٥) رواه عنه ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

(٦) يعني أن من كفر بعد ذلك فإن الله يعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فتجيءُ على هذه الأَقوال إضافة الرسول إليهم حسب الأَمر في نفسه لا على إقرارهم .

وما سئل موسى عليه السلام هو أَن يرى الله جهرة . وقرأَ الحسن ابن أَبي الحسن ، وغيره (سِيل) بكسر السين وياءِ ، وهي لغة يقال : سِلْتُ أَسْأَلُ[(١)] ، ويحتمل أَن يكون مَنْ هَمَزَ أَبدل الهمزة ياءً على غير قياس ، ثم كسر السين من أَجل الياءِ . وقرأَ بعض القراءِ بتسهيل الهمزة بين الهمزة والياءِ مع ضم السين . وكنّى عن الإِعراض عن الإِيمان والإِقبال على الكفر بالتبديل . وقال أَبو العالية : الكفر هنا الشدة ، والإِيمان الرخاءُ ، وهذا ضعيف ، إلا أَنْ يريدهما مستعارتين أَي الشدة على نفسه والرخاءُ لها عبارة عن العذاب أَو النعيم . وأَما المُتَعَارَفُ من شدة أُمور الدنيا ورخائها فلا تُفَسَّر الآية به ، و[ضَلَّ] أَخطأَ الطريق ، والسواءُ من كل شيءٍ الوسط والمعظم ، ومنه قوله تعالى : [فِي سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ][(٢)] ، وقال عيسى بن عمر : «كتبت حتى انقطع سوائي» ، وقال حسان بن ثابت في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم على ما ذكر ابن اسحق وغيره :

يا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ   بَعْدَ الْمَغِيبِ فِي سَوَاءِ الْمَلْحَدِ

وقال أَبو عبيدة : هو في عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو عندي وهم منه . و[السَّبِيل] عبارة عن الشريعة الّتي أَنزلها الله لعباده ، لمَّا كانت كالسبب إلى نيل رحمته كانت السبيل إليها .

---

(١) من باب : خاف يخاف .

(٢) من الآية (٥٥) من سورة الصافات .

وقوله تعالى : [وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ] ، كثيرٌ : مرتفع بِوَدَّ ، وهو نعت لنكرة ، وحذْفُ الموصوفِ النكرة قليل ، ولكن جازهنا لأَنها صفة متمكنة ترفع الإِشكال ، بمنزلة فريق[١] . قال الزهري : عني بكثير واحد ، وهو كعب بن الأَشرف ، وهذا تحامل [٢] ، وقوله : [يَرُدُّونَكُمْ] يرد عليه ، وقال ابن عباس : المراد ابنا أَخطب حيي وأَبو ياسر [٣] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي الضمن الأَتباع فتجيءُ العبارة متمكنة . و[الْكِتَابُ] هنا التوراة . و[لَوْ] هنا بمنزلة (أَنْ) لا تحتاج إلى جواب ، وقيل : يتقدر جوابها في وَدَّ ، التقدير : لو يردونكم لودوا ذلك ، فود دالة على الجواب ، لأَن مِنْ شرطه أَن يكون متأَخراً عن (لو) ، و[كُفَّاراً] مفعول ثانٍ ، ويحتمل أَن يكون حالاً ، و[حَسَداً] مفعول له[٤] ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال .

واختلف في تعلق قوله : [مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ] فقيل : يتعلق بود ،[٥] لأَنه بمعنى ودُّوا ، وقيل : يتعلق بقوله [حَسَداً] ، فالوقف على قوله : [كُفَّاراً] ، والمعنى على هذين القولين : أَنهم لم يجدوا ذلك في كتاب ،

---

(١) إنما كانت متمكنة لتخصصها بقوله تعالى : (مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ) وهي بمنزلة (فريق) في قوله تعالى : (نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) .

(٢) أي تكلف بعيد .

(٣) رواه عنه محمد بن اسحق .

(٤) أي من (وَدَّ) ، بمعنى أن الحامل لهم على ردكم كفاراً هو الحسد ، وهذا أفضل ما فيه من الأعاريب ، راجع «البحر المحيط» ٣٤٨/١ .

(٥) أي أَنهم ودوا ذلك مِنْ جهة أنفسهم ، لا من جهة دينهم .

ولا أُمروا به ، فهو من تلقائهم . ولفظة الحسد تعطي هذا ، فجاءَ [مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ] تأْكيداً وإلزاماً كما قال تعالى : (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ) ـ و(يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) ، (وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)[١] . وقيل : يتعلق بقوله : (يَرُدُّونَكُمْ) ، فالمعنى : أَنهم ودوا الرد بزيادة أَن يكون من تلقائهم ، أيْ بإغوائهم وتزيينهم .

واختُلِف في سبب هذه الآية ـ فقيل : إن حذيفة بن اليمان ، وعمار بن ياسر[٢] أتيا بيت المدراس ، فأَراد اليهود صرفهم عن دينهم[٣] فثبتا عليه ونزلت الآية ، وقيل : إنما هذه الآية تابعة في المعنى لما تقدم من نهي الله من متابعة أَقوال اليهود في (رَاعِنَا) وغيره ، وأَنهم لا يودون أَن ينزل خير ويودون أَن يردوا المؤمنين كفاراً .

و(الْحَقُّ) المراد في هذه الآية : نُبَوَّةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وصحة ما المسلمون عليه . وهذه الآية من الظواهر في صحة الكفر عناداً[٤] ، واختلف أَهل السنة في جواز ذلك ،والصحيح عندي جوازُهُ

---

(١) الآيات على الترتيب : ـ من الآية (١٦٧) من سورة آل عمران . ـ ومن الآية (٧٩) من سورة البقرة ، ـ ومن الآية (٣٨) من سورة الأنعام .

(٢) حذيفة بن اليمان أبو عبد الله العبسي ، توفي سنة (٣٦) هـ ـ وعمار بن ياسر بن عامر ابن مالك ـ من السابقين إلى الإسلام ، شهد المشاهد كلها مع الرسول ، وقتل مع الإمام علي بصفين سنة (٨٧) هـ .

(٣) هكذا بالأصل ، وواضح أن الضمير للمثنى .

(٤) يعني أن الكفر يكون مع معرفة الحق لقوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ) ، فالمعرفة لا تمنع مِنَ الكُفْرِ حَسَداً وعناداً ، وقد اختلف أهل السنة في ذلك على قولين : أكان كفر إبليس جهلا أمْ عناداً ؟ ولا خلاف أنه كان عالِماً بالله قبل كفره ، فمن قال إنه كفر جهلا قال : إنه سلب العلم الذي كان عند كفره ، ومن قال إنه كفر عناداً قال : إنه كفر ومعه علمُه ، قال ابن عطية : والكفر مع بقاء العلم مُسْتَبْعَد ، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذلان الله تعالى لمن يشاءُ .

عقلا وبُعْدُهُ وقوعاً ، ويترتب في كل آية تقتضيه أن المعرفة تسلب في ثاني حال من العناد . والعفو : ترك العقوبة وهو من عفت الآثار ، والصفح : الإعراض عن المذنب كأنه يولي صفحة العنق . وقال ابن عباس : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) إلى قوله : (صَاغِرُونَ)(١) . وقيل بقوله : (اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ)(٢) ، وقال قوم : ليس هذا حد المنسوخ لأن هذا في نفس الأمر كان التوقيف على مدته (٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهـذا على من يجعل الأمر المنتظـر أَوَامِرَ الشرع ، أو قتل قريظة وإجلاء النضير(٤) ، وأما مَنْ يجعله أَجَلَ بني آدم فيترتب النسخ في هذه الآية بعينها لأنه لا يختلف أن آيات المُوادعة المطلقة قد نسخت

= وروى البيهقي في شرح الأسماء الحسنى في آخر باب قوله تعالى : (وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلا أن يشاءَ الله) عن عمرو بن ذر ، قال : سمعت عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول : «لو أراد الله ألا يُعصى لم يخلق إبليس» ، ثم روى من طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : (يا أبا بكر ، لو أراد الله ألا يُعصى ما خلق إبليس) ، انتهى .

(١) من الآية (٢٩) من سورة التوبة .

(٢) من الآية (٥) من سورة التوبة .

(٣) يعني أن العفو والصفح في هذه الآية محدد بمدة وهي قوله تعالى : (حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) ، وعندما أُمر بقتال الذين لا يؤمنون ، أو بقتل المشركين — في سورة التوبة — كان أمر الله قد أتى ، فلا ينسحب حكم النسخ على هذه الآية حينئذ .

(٤) يعني أن القول بعدم النسخ إنما يأتي على من يجعل الأمر المنتظر المدلول عليه بقوله تعالى : (حتى يأتي الله بأمره) هو أوامر الشرع بقتال الذين لا يؤمنون ، أو بقتل قريظة وإجلاء النضير .

كلها ، والنسخ هو مجيءُ الأَمر في هذه المقيدة(١) ، وقيل : مجيءُ الأَمر هو فرض القتال ، وقيل : قتل قريظة وإجلاءُ النضير . وقال أَبو عبيدة في هــذه الآية : إنها منسوخة بالقتال(٢) ، لأَن كل آية فيها ترك القتال فهي مكية منسوخة ، وحُكْمُهُ بأَنَّ هذه الآية مكية ضعيف ، لأَن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة .

وقوله تعالى : [إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] مقتضاه في هذا الموضع وعد للمؤمنين .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قالت فرقة من الفقهاء : إن قوله تعالى : [وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ] عموم ، وقالت فرقة : هو من مجمل القرآن ، والمرجح أَنَّ ذلك عموم من وجه ، ومجمل من وجه ، فعموم من حيثُ الصلاة الدعاءُ ، فحمله على مقتضاه ممكن ، وخصصه الشرع بهيئات وأَفعال وأَقــوال(٣) ، ومجمل من

(١) وهي : (قاتلوا الذين لا يؤْمنون بالله) إلخ أو : (اقتلوا المُشركين) .
(٢) وجه إعادة هذا الكلام هو الرد على أَبي عبيدة في قوله : إن الآية مكية .
(٣) فالعموم من حيث المعنى اللغوي ، والمعنى الشرعي للصلاة .

حيث الأوقات وعدد الركعات لا يفهم من اللفظ ، بل السامع فيه مفتقر إلى التفسير ، وهذا كله في [أَقِيمُوا ٱلصَّلاةَ] ، وأما الزكاة فمجملة لا غير[١] . قال الطبري : إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة لتحط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود : (راعِنَا) لأن ذلك نهيٌ عن نوعه ، ثم أُمِرَ المؤمنون بما يحُطُّه[٢] . والخير المقدم مُنْقض لأنه فعل ، فمعنى [تَجِدُوهُ] : تجدوا ثوابه وجزاءه ، وذلك بمنزلة وجوده[٣] ، وقوله تعالى : [إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير] ، خبر في اللفظ معناه الوعد والوعيد .

وقوله تعالى : [وَقَالُوا لنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ] معناه : قال اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقال النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فجمع قولهم ، ودلَّ تفريقُ نوعَيْهم على تفرق قولَيْهم ، وهذا هو الإيجاز واللف[٤] . وهُود : جمع هائد ،

(١) لأنه ليس فيه تقدير لنصابها ، ولا تحديد لأنواعها ، ولا يعرفه السامع إلا بالشرح والتوضيح .

(٢) نقله أبو (ح) رحمه‌الله. وقال تعقيباً عليه: «وليس له ذلك الظهور»، البحر المحيط ٣٤٩/١.

(٣) في صحيح البخاري ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيكم مالُ وارثه أحب إليه من ماله ؟) قالوا يا رسول الله : ما منا أحد إلا ماله أحب إليه ،قال : (فإن مالَه ما قدم ومال وارثه ما أخر) . وروى ابن المبارك في رقائقه بسنده قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، مالي لا أحب الموت ؟ فقال : (هل لك مال ؟) قال : نعم ، قال : (فقدِّم مالك بيْنَ يديك ، فإن المرء مع ماله ، إن قدَّمه أحبَّ أن يلحقه ، وإن خلفه أحب التخلف) .

(٤) معنى كلام المؤلف أن الضمير في قوله تعالى : (قالوا) يعود على أهل الكتاب ، ويشمل اليهود والنصارى ، (وهذا لفٌّ) ، ثم جاء قوله سبحانه : (إلا مَنْ كَانَ هُوداً أو نَصَارَى) بتوضيح فيه (نشر) لما سبق من (لفّ) ، وبهذا يتضح لك قول ابن عطية : (وهذا هو الإيجاز واللف) .

مثل عائد وعود . ومعناه التائب الراجع ، ومثله في الجمع : بازل وبُزل ، وحائل وحُول ، وبائر وبُور . وقيل : هو مصدر يوصف به الواحد والجميع كفطر وعدل ورضا . وقال الفراءُ : أَصله يهودي حذفت ياءاهُ على غير قياس . وقرأ أُبي بن كعب : [إلا مَنْ كَانَ يَهُودِياًّ] ، وكذبهم الله تعالى ، وجعل قولهم أُمنية ، وقد قُطعُوا [1] قبل بقوله : [فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ] ، وأُمر محمد صلى الله عليه وسلم بدعائهم إلى إظهار البرهان[2] .

وقيل : إن الهاءَ في [هَاتُوا] أَصلية من (هاتا ، يُهاتي) وأُميتَ تصريف هذه اللفظة كلُّه إلا الأَمر منه ، وقيل : هي عوض من همزة آتي ، وقيل : ها تنبيه ، وأُلزمت همزة آتي الحذف . والبرهان : الدليل الذي يوقع اليقين[3] . قال الطبري : طلب الدليل هنا يقضي بإثبات النظر ، ويردُّ على من ينفيه[4] ، وقول اليهود : [لَنْ] نفيٌ حسنت بعده [بَلَي] إذ هي ردٌّ بالإيجاب في جواب النفي[5] ، حرف مرتجل لذلك ، وقيل : هي (بل) زيدت عليها الياءِ لتزيلها عن حد النسق الذي في (بل) .

---

(١) أي : عجزوا لمّا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم تنفيذاً لأمر الله في قوله : (قُلْ إنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) — وقد سبقت الآية وهي رقم (٩٤) من سورة البقرة .

(٢) بقوله تعالى : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

(٣) أي يثبته في النفس .

(٤) وهو دليل على بطلان القول بالتقليد .

(٥) أي الإثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة .

و[أَسْلَمَ] معناه : استسلم وخضع ودَان ، ومنه قول زيد بن عمرو ابن نفيل :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا[1] .

وخُص الوجه بالذكر لكونه أَشرف ما يُرى من الإنسان وموضع الحواس ، وفيه يظهر العز والذل ، ولذلك يقال : وجه الأَمر ، أَي معظمه وأَشرفه ، قال الأَعشى :

أُؤَوِّلُ الْحُكْمَ على وَجْهِهِ   لَيْسَ قَضَائِي بِالْهَوى الجَائِرِ[2]

ويصح أَن يكون الوجه في هذه الآية ، المقصد ،[وَهُوَ مُحْسِنٌ] جملة في موضع الحال[3] ، وعاد الضمير في (لَهُ) على لفظ [مَنْ][4] وكذلك

---

(١) المزن : جمع مزنة وهي السحابة البيضاء . والبيت ضمن أبيات هي :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالا
دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ   عَلَى المَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الجِبَالا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَت   لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا
إِذَا هِيَ سِيقَتْ إِلى بَلْدَةٍ   أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالا

(٢) البيت من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة ، ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، ومطلع القصيدة :

شَاقَتْكَ مِنْ قَتْلَة أطلالُها   بالشطِّ فالوتر إلى حاجر

(٣) قال أبو (ح) في البحر المحيط : «وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الإحسان الشرعي حين سئل عن ماهيته فقال : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . وقد فسر الإحسان بالإخلاص ، وفسر بالإيمان ، وفسر بالقيام بالأوامر والانتهاء عن المناهي» . ا هـ ١/٣٥٢ .

ويفهم من الآية أن العمل المقبول له شرطان : الإخلاص ، وهو مفهوم من قوله عز وجل : (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله) ، والصواب ، أي موافقة الشريعة ، وهو مفهوم من قوله سبحانه : (وَهُوَ مُحْسِنٌ)،فمن كان عمله خالصاً وموافقاً للشريعة كان له أجره عند ربه .

(٤) وهذا هو الأفصح ، وهو أن يبدأ أولا بالحمل على اللفظ ، ثم يثنى بالحمل على المعنى . قاله أبو (ح) .

في قوله : [أَجْرُهُ] ، وعاد في [عَلَيْهِمْ] على المعنى ، وكذلك في [يَحْزَنُونَ] . وقرأ ابن محيصن [فَلا خَوْفُ] دون تنوين في الفاء المرفوعة ، فقيل : ذلك تخفيف ، وقيل : المراد فلا الخوفُ ، فحذفت الألف واللام . والخوف : هو لما يُتَوَقَّع ، والحزن : هو لما قد وقع .

وقوله تعالى : [وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ] الآية ، معناه ادعى كل فريق أنه أحق برحمة الله من الآخر . وسبب نزول الآية أن نصارى نجران اجتمعوا مع يهود المدينة عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فتسابّوا ، وكفر اليهود بعيسى وبالإنجيل ، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة ، وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابها ، لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة ، والتوراة تتضمن التبشير بعيسى وصحة نبوته ، وكلاهما تضمن صدق محمد صلى الله عليه وسلم . فعنّفهم الله تعالى على كذبهم ، وفي كتبهم خلاف ما قالوا .

وفي قوله تعالى : [وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ] ، تنبيه لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم على ملازمة القرآن ، والوقوف عند حدوده ، كما قال الحر بن قيس [1] في عمر بن الخطاب (وكان وقّافاً عند كتاب الله) . والكتاب الذي يتلونه – قيل : التوراة والإنجيل ، فالألف واللام للجنس ، وقيل : التوراة لأن النصارى تمتثلها ، فالألف واللام للعهد .

(١) الحر بن قيس هو ابن أخي عُيَيْنَة بن حصن الفزاري ، كان ضمن الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من تبوك ، وانظر حديثه في باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتاب الاعتصام من صحيح البخاري .

اختلف ـ مَن المراد بقوله : [لا يَعْلَمُونَ] فقال الجمهور : عني بذلك كفار العرب لأنهم لا كتاب لهم ، وقال عطاءٌ : المراد أُمم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقال قوم : المراد اليهود ، وكأنه أُعيد قولهم(١) ، وهذا ضعيف ، وأخبرهم تعالى بأنه [يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ] ، والمعنى بأن يثيب من كان على شيءٍ أيْ شَيْءٍ حق ، ويعاقب من كان على غير شيءٍ. وقال الزَّجَّاج : المعني يريهم عياناً من يدخل الجنة ومن يدخل النار . و[يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ] سُمي بقيام الناس من القبور ، إذ ذلك مبدأٌ لجميع ما في اليوم ، وفي الاستمرار بعده . وقوله : [كانُوا] بصيغة الماضي حسن على مراعاة يوم الحكم ، وليس هذا من وضع الماضي موضع المستقبل لأن اختلافهم ليس في ذلك اليوم بل في الدنيا .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : [وَمَنْ أَظْلَمُ] الآية . [مَنْ] رفع بالابتداء و[أظلم] ، خبره ، والمعنى : لا أحد أظلم(٢) ، واختُلف في المشار إليه من هذا الصنف الظالم (٣)

(١) اختار الإمام (ط) رحمه الله أن الآية عامة تصلح للجميع ، وليس ثَمَّ دليل قاطع يُعَيِّن واحداً من هذه الأقوال ، فالحمل على الجميع أولى .

(٢) يشير إلى أن الاستفهام ليس حقيقياً ، بل هو بمعنى النفي ، وذلك أبلغ دلالة على أن هذا الظلم بلغ الغاية والنهاية .

(٣) أي في المُراد بقوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله) الآية .

فقال ابن عباس وغيره : المراد النصارى الذين كانوا يؤْذون مَنْ يصلي ببيت المقدس ويطرحون فيه الأَقذار . وقال قتادة ، والسدي : المراد الروم الذين أَعانوا بخت نصر على تخريب بيت المقدس حين قتلت بنو إسرائيل يحيى بن زكريا عليه السلام (١) . وقيل : المَعْنِيُّ بخت نصر . وقال ابن زيد : المراد كفار قريش حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام (٢) .

وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة ، أَو خرَّب مدينة إسلام لأَنها مساجد وإن لم تكن موقوفة إذ الأَرض كلها مسجد لهذه الأُمة (٣) ، والمشهور (مسجِدٌ) بكسر الجيم ، ومِنَ العرب من يقول : (مسجَد) بفتحها . و [أَنْ يُذْكَرَ] في موضع نصب إمَّا على تقدير حذف (من) وتسلُّط الفعل ، وإما على البدل من المساجد ، وهو بدل الاشتمال الذي شأْن البدل فيه أَن يتعلق بالمُبْدَل منه ، ويختص به أَو يقوم به صفة ، ويجوز أَن تكون [أَنْ] مفعولا من أَجله (٤) ، ويجوز أَن تكون في موضع خفض على إسقاط حرف الجر ،ذكره سيبويه .

---

(١) قال أبو بكر الرازي : لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بخت نصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل .

(٢) هذا أرجح الأقوال كما للحافظ ابن (ك) رحمه الله ، وتبعه العلامة القاسمي رحمه الله ، فالآية توجه الذم إلى المشركين الذين أخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ،وصدوهم عنه عام الحديبية ، وأيُ خراب أعظم من هذا ؟ انظر ابن (ك) . وحديث صد المسلمين عن بيت الله الحرام عام الحديبية أخرجه البخاريُّ في «باب الشروط» في «الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب» ،واعتنى به رحمه الله فساقه مطولا في عدة صفحات ، وهو حديث عظيم يجمع فوائد ومعاني كثيرة .

(٣) لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند المحققين .

(٤) بتقدير : كراهية أنْ يُذْكَرَ .

ومَنْ قال من المفسرين : إن الآية بسبب بيت المقدس جعل الخراب الحقيقي الموجود [١] ، ومَنْ قال : هي بسبب المسجد الحرام جعل منع عمارته خراباً إذْ هو داع إليه . ومَنْ جعل الآية في النصارى روى أنه مرَّ زمان بعد ذلك لا يدخل نصراني بيت المقدس إلا أُوجع ضرباً ، قاله قتادة والسدي[٢] ، ومَنْ جعلها في قريش قال : كذلك نُودي بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يحج مشرك[٣] . و [خَائِفِينَ] نصب على الحال .

وهذه الآية ليست بأمر بَيِّن منعهم من المساجد ، لكنها تطرق إلى ذلك ، وبراءة فيها وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين[٤] .

ومَنْ جعل الآية في النصاري قال : الخِزْيُ قتل الحربي ،وجزية الذمي ، وقيل : الفتوح الكائنة في الإسلام كعمورية وهرقلة[٥] وغير

(١) أي الموجود في بيت المقدس من طرف البابليين أولا ، ومن طرف الرومانيين ثانياً .

(٢) هذا وما بعده مرتب على قوله تعالى : (أُولَـٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِين) .

(٣) أي في السنة التاسعة نودي : «ألا لا يحُجّنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته» ، وهو حديث متفق عليه .

(٤) وعدٌ للمؤمنين بإظهارهم على المسجد الحرام ، ووعيد للمشركين بإذلالهم حتى لا يدخله واحد منهم إلا خائفاً ، وقد أنجز الله وعده فمنعهم من دخول المسجد الحرام ونادى فيهم (عام حج) أبو بكر رضي الله عنه : «ألا لا يحُجّنّ بعد العام مشرك» . وفي حق المشركين يقول الله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) وفي حق المؤمنين يقول : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ) الآية .

(٥) عَمُّورِيَّة – بلدة في آسيا الصغرى وكانت حصناً منيعاً من حصون الروم ، فتحها (المعتصم) وخلدها هي ومعركة فتحها أبو تمام بقصيدته التي مطلعها :

السيفُ أصدق أنباءً من الكتب   في حدِّه الحدُّ بينَ الجدّ واللعب

وفيها يقول :

ذلك . ومَنْ جعلها في قريش جعل الخزي غلبتهم في الفتح وقتلهم والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافراً ، و[خِزْيٌ] رفع بالابتداء ، وخبره في المجرور .

و[الْمَشْرِقُ] موضع الشروق ، و[الْمَغْرِبُ] موضع الغروب أي هما له مِلْك(١) وما بينهما(٢) من الجهات والمخلوقات ، وخصهما بالذكر وإن كانت جملة المخلوقات كذلك لأن سبب الآية اقتضى ذلك(٣) .

و[أَيْنَمَا] شرط ، و[تُوَلُّوا] جزم به ، والجواب في قوله : [فَثَمَّ] ، والمعنى : فأينما تولوا نحوه وإليه ، لأن وَلَّى-وإن كان غالب استعمالها أدبر- فإنها تقتضي أنه يقبل إلى ناحية ، تقول : وَلَّيْتُ عن كذا وإلى كذا . وقرأ الحسن : (تَوَلَّوْا) بفتح التاء واللام(٤) ، و[ثَمَّ] مبنية على الفتح وهي في موضع نصب على الظرف . و[وَجْهُ اللهِ] معناه الذي وجهنا إليه(٥) ، كما تقول : سافرت في وجه كذا أي في جهة كذا .

واختلف الناس في تأويل الوجه الذي جاء مضافاً إلى الله تعالى في مواضع من القرآن ، فقال الحذاق : ذلك راجع إلى الوجود ، والعبارة عنه بالوجه من مجاز كلام العرب إذ كان الوجه أظهرَ الأعضاء في

= يا يوم وقعة عَمُّوريَّة انصرفت عنك المنى حُفَّلا مَعْسُولةَ الحَلَبِ

أما (هرقلة) فتقع إلى الغرب من (أدنة) قرب الساحل الجنوبي لتركيا — جهة الشرق — على البحر المتوسط . وقد فتحها المأمون بنفسه .

(١) أي بطريق الإيجاد والاختراع .

(٢) يشير إلى أن في الآية حذف معطوف أي : ولله المشرق والمغرب وما بينهما .

(٣) كما سيأتي بعد في قوله : واختلف المفسرون في سبب هذه الآية .

(٤) أي على حذف إحدى التاءين ويكون الأصل : (تتولوا) .

(٥) أي الوجه الذي وجهنا إليه ، بمعنى الجهة التي وجهنا إليها وهي القبلة .

الشاهد وأَجلَّها قدراً . وقال بعض الأَئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع ، زائدة على ما توجبه العقــول من صفات القــديم تعالى ، وضعَّف أبوالمعالي هذا القول (١) .

ويتجه في بعض المواضع كهذه الآية أَن يراد بالوجه الجهة التي فيها رضاه وعليها ثوابه ، كما تقول : تصدقت لوجه الله تعالى ، ويتجه في هذه الآية خاصة أَن يراد بالوجه الجهة التي وجَّهنا إليها في القبلة حسبما يأْتي في أَحد الأَقوال . وقال أَبو منصور في المقنع : يحتمــل أَن يراد بالوجه هنا الجــاه ، كمــا تقول : فلان وَجْه القوم ، أَي موضع شرفهم ، فالتقدير : فَثَمَّ جلالُ الله وعظَمته .

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية . فقال قتادة : أَباح الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أَن يصلي المسلمون حيث شاؤوا ، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم بيت المقدس حينئذ ، ثم نسخ ذلك كله بالتحول إلى الكعبة(٢) . وقال مجاهدٌ ، والضَّحَّاك : معناها إشارة إلى الكعبة ، أَي حيث كنتم من المشرق والمغرب فأَنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة التي هي وجه الله الذي وجهكم إليه ، وعلى هذا فهي ناسخة لبيت المقدس . وقال ابن زيد : كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، وقالوا : ما اهتدى

(١) قالوا : لأن فيه الجزم بإثبات صفة لله بلفظ محتمل ، وهي صفة لا يدرى ما هي ، ولا يعقل معناها في اللسان العربي ، فوجب اطراح هذا القول والاعتماد على أن المراد وجوده إذ للّفْظ دلالة على التجسيم .

(٢) وعلى أنها منسوخة فلا اعتراض من جهة كونها خبراً لأنها مُحتملة لمعنى الأمر ، ويكون المعنى : ولوا وجوهكم نحو وجه الله ، وهذه الآية تلاها سعيد بن جبير لما أمر الحجاج بقتله .

إلا بنا ، فلما حول إلى الكعبة قالت اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم ؟ فنزلت : [وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ] الآية . وقال ابن عمر : نزلت هذه الآية في صلاة النافلة في السفر حيث توجهت بالإنسان دابته(١) . وقال النخعي : الآية عامة (٢) ، أينما تولوا في متصرفاتكم ومساعيكم فَثَمَّ وجه الله ، أي موضع رضاه وثوابه وجهة رحمته التي يوصل إليها بالطاعة . وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة : نزلت فيمن اجتهد في القبلة فأخطأ ، وورد في ذلك حديث رواه عامر بن ربيعة قال : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر في ليلة مظلمة ، فتحري قوم القبلة واعملوا(٣) علامات ، فلما أصبحوا رأوا أنهم قد أخطؤوها ، فعرّفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فنزلت هذه الآية(٤) ، وذكر قوم هذا الحديث على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مع القوم في السفر وذلك خطأ(٥) .

وقال قتادة أيضاً : نزلت هذه الآية في النجاشي ، وذلك أنه لما مات دعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الصلاة عليه ،

---

(١) حديث ابن عمر هذا رواه الإمام مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم . وعليه فالآية نزلت في التنفل في السفر ، وقد كان صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين يصلي النوافل على راحلته ، ويوتر عليها حيث توجهت به شرقاً وغرباً .

(٢) أي غير خاصة بالصلاة .

(٣) أي خطوا خطوطاً في الجهات التي صلُّوا إليها .

(٤) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وليس إسناده بذلك ولا نعرفه إلا من حديث الأشعث السمان ، وأشعث يضعف في الحديث ، قال الحافظ ابن كثير : وكذلك شيخه عاصم .

(٥) لأن سائر طرق حديث عامر بن ربيعة يوجد فيها : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال قوم : كيف يُصَلىَّ على مَنْ لم يُصَلِّ إلى القبلة قط ؟ فنزلت هذه الآية ، أَيْ أَن النجاشي كان يقصد وجه الله وإن لم يبلغه التوجه إلى القبلة .

وقال ابن جبير : نزلت الآية في الدعاء لما نزلت : [ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ] قال المسلمون : إلى أين ندعو ؟ فنزلت : [فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثم وَجْهُ اللهِ] . وقال المهدوي : وقيل : هذه الآية منتظمة في معنى التي قبلها ، أَي لا يمنعكم تخريب مسجد من أداء العبادات ، فإن المسجد المخصوص للصلاة إن خرب فَثَمَّ وجه الله موجودٌ حيث توليتم [1] ، وقال أيضاً : نزلت الآية حين صُدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت .

و[وَاسعٌ] معناه مُتَّسع الرحمة ، [عَلِيمٌ] أين يضعها . وقيل : واسع معناه هنا أنه يوسع على عباده في الحكم ، دينُهُ يُسْرٌ ، عليم بالنيات التي هي مِلاك العمل وإن اختلفت ظواهره في قبلةٍ وما أشبهها .

قوله عز وجل :

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

---

(١) ما قاله المهدوي رحمه الله في مناسبة الآية لما قبلها واضح ، وفي سبب نزولها راجح ، والله أعلم .

قرأَ هذه الآية عامة القراءِ :[وَقَالُوا] بواو تربط الجملة بالجملة ، أَو تعطف على (سَعَى)(١) .

وقرأَ ابن عامر ، وغيره : [قالوا] بغير واو . قال أَبو علي(٢) : وكذلك هي في مصاحف أَهل الشام . وحذف هذه الواو يتجه من وجهين : أَحدهما أَنَّ هذه الجملة مرتبطة في المعنى بالتي قبلها فذلك يغني عن الواو(٣) . والآخر أَن تستأْنف هذه الجملة ولا يراعى ارتباطها بما تقدم .

واختلف على من يعود الضمير في [قَالُوا] ؟ فقيل : على النصارى لأَنهم قالوا : المسيح ابن الله وذِكْرُهُمْ أَشبه بسياق الآية ، وقيل : على اليهود لأَنهم قالوا : عزير بن الله ، وقيل : على كفرة العرب لأَنهم قالوا : الملائكة بنات الله(٤) .

---

(١) نميل إلى أن الرأي الأول أحسن مما بعده فالواو فيه عاطفة لجملة على جملة خبرية ، وأما العطف على (سعى) فيؤدي إلى العطف على معطوف على الصلة، وقد فُصل بينهما بجمل كثيرة ، وهذا من العطف البعيد الذي ينزه القرآن عن مثله . وهذا هو رأى أبي (ح) — البحر المحيط ٣٦٢/١ .

(٢) هو أبو علي الفارسي — ذكره أبو (ح) في البحر المحيط ٣٦٢/١ .

(٣) والتي قبلها هي قوله تعالى : [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا] ، ويريد أن الربط بالضمير يغني في ملاحظة العطف عن الربط بالواو لما بين الآيتين من الملابسة،فإن الذين قالوا اتخذ الله ولداً من جملة هؤلاء الذين تقدم ذكرهم فيستغنى عن الواو لذلك كما استغني عنها في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وكذبوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، فَبَيْنَ الجملة الأخيرة وما قبلها ملابسة أغنت عن الواو — إلا أن الاستئناف على هذه القراءة أظهر ، والله أعلم .

(٤) الظاهر أنه عائد على الجميع دون تخصيص ، فإن كلا منهم قال ذلك ، وكل من الثلاثة تقدم ذكره .

و[سُبْحَانَهُ] مصدر معناه تنزيهاً له وتبرئةً مِمَّا قالوا[١]، و [مَا] رفع بالابتداء والخبر في المجرور، أو بالاستقرار المقدر، أي كل ذلك له ملك، والذي قالوا: إنَّ الله اتخذه ولداً داخلٌ في جملة ما في السموات والأرض ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد لا من المخلوقات المملوكات[٢]

والقنوت في اللغة الطاعة، والقنوت طول القيام في عبادة، ومنه القنوت في الصلاة، فمعنى الآية: أن المخلوقات كلها تَقْنُت لله، أي تخشع وتطيع، والكفار والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم[٣]. وقيل: الكافر يسجد ظله وهو كاره.

و[بَدِيعُ] مصروف [٤] من مُبْدِع، كبصير مِن مُبصر، ومثله قول عمرو بن معدي كرب:

أَمِنْ رَيْحَانة الدَّاعِي السَّمِيعُ[٥] . . . .

يريد المُسْمِع. والمُبدع المخترع المنشِئُ، ومنه أصحاب البِدَع[٦]

---

(١) أي تبرئة له سبحانه مما يقتضيه قولهم من مجانسته سبحانه لشيء من مخلوقاته، فأضرب الله عن ذلك، وأثبت أن كل ما في السموات والأرض (ومن ذلك المسيح وعُزير والملائكة) مملوكٌ ومخلوق لله.

(٢) فالبنوة والملكية لا يجتمعان، وعليه فالله مخالف لخلقه وبعيد عن مجانستهم، والولد المنسوب إلى الله هو من جنسهم لامن جنسه إذ هم الذين يحتاجون إلى من يخلفهم لبقاء نوعهم، والله عز وجل باق ودائم وغني بنفسه وذاته لاحاجة به إلى غيره.

(٣) هذا جواب عما قد يقال: كيف هذا العموم وكثير من المخلوقات ليس بمطيع؟ فأجاب بما يدل على الطاعة من الكفار والجمادات.

(٤) أي صرف (مُفْعِل) إلى (فَعِيل)، والمراد أنه بمعناه إلا أنه توجد المبالغة في بديع دون مُبْدع.

(٥) تمامه: . . . . يُؤَرِّقني وأصْحَابي هُجُوعُ.

(٦) فكل من أحدث شيئاً فقد أبدعه.

ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة رمضان : نعمت البِدْعَة هذه .

وخص السمٰوات والأَرض بالذكر لأَنها أَعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا .

و[قَضَى]معناه : قَدَّر ، وقد يجيءُ بمعنى أَمضى ، ويتجه في هذه الآية المعنيان ، فعلى مذهب أَهل السنة قدَّر في الأَزل وأَمضى فيه ، وعلى مذهب المعتزلة أَمضى عند الخلق والإِيجاد .

والأَمر واحد الأُمور ، وليس هنا بمصدر أَمر يأْمر ، [ويكون] رفع على الاستئناف ، قال سيبويه : معناه فهو يكون ، قال غيره : [يكون] عطف على [يقول] ، واختاره الطبري وقرَّره[1] . وهو خطأٌ من جهة المعنى لأَنه يقتضي أَن القول مع التكوين والوجود[2] ، وتكلم أَبو علي الفارسيُّ في هذه المسأَلة بما هو فاسد من جهة الاعتزال لا من جهة العربية .

---

(١) قال الطبري : «أَمْرُهُ للشيء بكُنْ لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه ، فلا يكون الشيءُ مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ، ولا موجوداً بالأمر إلا وهو مأمورٌ بالوجود » . انتهى . فعلى ما قال سيبويه يكون فعل الأمر وإن كان معدوماً فهو بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم ، وعلى ماقاله الطبري يكون مع الأمر إذ أمره للشيء بكُنْ لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه ، فلا يكون الشيءُ مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ولا موجوداً بالأمر إلا وهو مأمور بالوجود . راجع البحر المحيط ٣٦٤/١ .

(٢) قال (ح) رحمه الله : «ومعنى رده أن الأمر عنده قديم والتكوين حادث ، وقد نسق عليه بالفاء فهو معه أي يعتقبه فلا يصح ذلك لأن القديم لا يعتقبه الحادث » . انتهى . وقد يقال : إن التعقيب غير المعية ، والتعقيب في كل شيء بحسبه ، ثم إن رد ابن عطية رحمه الله إنما يتم إذا كان هناك قول وأمر حقيقيان ، أما إذا كان ذلك على جهة المجاز ومن باب التمثيل لسرعة الأمر ونفاذه فيجوز العطف على (يقول) ، والله أعلم .

وقرأ ابن عامر [فيكونَ] بالنصب ، وضعَّفه أبو علي ، وَوَجَّهَهُ – مع ضعْفِه – على أن يشفع له شبه اللفظ(١) . وقال أحمد بن موسى في قراءة ابن عامر : هذا لحن(٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأن الفاء لا تعمل في جواب الأمر إلا إذا كانا فعلين يطرد فيهما معنى الشرط ، تقول : أكرم زيداً فيكرمك ، والمعنى : إن تُكْرِمْ زيداً يكرمك ، وفي هذه الآية لا يتجه هذا ، لأنه يجيءُ تقديره : إن تكن تكن ، ولا معنى لهذا (٣) ، والذي يطرد فيه معني الشرط هو أن يختلف الفاعلان أو الفعلان (٤) ، فالأول أكرم زيداً فيكرمك ، والثاني أكرم زيداً فتسود .

وتلخيص المعتقد في هذه الآية أن الله عز وجل لم يزل آمراً للمعدومات بشرط وجودها ، قادراً على تأخر المقدورات ، عالماً مع

(١) يعني أنَّ وجه النصب أنَّه جوابٌ على لفظ (كن) لأنه جاء بلفظ الأمر فهو شبيه بالأمر الحقيقي ، وهذا التوجيه من أبي علي الفارسي مع أنه هو الذي ضعف القراءة .

(٢) لم يقبل أبو حيان كلام أحمد بن موسى ، وقال : هذا قول خطأ ، لأن هذه القراءة في السبعة فهي متواترة ، وابن عامر رجل عربي لم يكن ليلحن . ا هـ . البحر المحيط ٣٦٦/١ – وأحمد بن موسى هذا هو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

(٣) من شرط نصب جواب الأمر أن ينعقد منهما شرط وجزاء ، نحو ائتني فأكرمك ، تقديره : إنْ تأتني أكرمكَ ، وهنا لا يصح إن يكن يكن ، وإلا لزم كون الشيء سبباً لنفسه ، ويمكن الجواب بأن المراد إن يكن في علم الله وإرادته يكُنْ في الخارج فهو على حد : فمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله إلخ . وقول القاضي رحمه الله : وفي هذه الآية لا يتجه هذا ، يقال عليه : قد يتجه على أن يكون التقدير : إن قال له : كن يكون ، لأن كن محكي بالقول ، وليس مستقلا بنفسه حتى يقدر منه فعل الشرط فقط ، والله أعلم .

(٤) أو متعلقات الفعلين .

تأخر وقوع المعلومات ، فكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات ، إذ المحدثات تجيءُ بعد أن لم تكن ، وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل .

ومن جعل من المفسرين (قَضَى) بمعنى أمضى عند الخلق والإيجاد فكأن إظهار المخترعات في أوقاتها المُؤَجَّلَة قولٌ لها : (كُنْ)[1] إذ التأمل يقتضي ذلك على نحو قول الشاعر :

وَقَالَتِ الأَقْرَابُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ[2] . . . .

وهذا كله يجري مع قول المعتزلة ، والمعنى الذي تقتضيه عبارة (كن) : هو قديم قائم بالذات [3] ، والوضوح التام في هذه المسألة يحتاج أكثر من هذا البسط .

---

(١) يعني أن إظهار الأشياء من العدم إلى الوجود عبر عنه بالقول وإن لم يكن هناك قول. كقول أبي النجم العجلي : (وَقَالَتِ الأقرَابُ للبَطْنِ الْحَقِ) ولا قول هناك ، وإنما أراد أن الظهر قد لحق بالبطن . والمراد أن الله سبحانه وتعالى عبّر بالقول عما يريد خَلْقَه وإيجاده وليس ثَمَّ قولٌ ، وهذا لا يتمشى مع قول المعتزلة الذين يقولون: أمضى عند الخلق والإيجاد .

(٢) هذا صدر بيت للشاعر أبي النجم العجلي ، وتمامه :

. . . . قدماً فآضت كالفَنيق المحنَقِ

والأقراب : جمع قُرب (بضمّ الراء وبسكونها) ، والقرب : الخاصرة . قال في اللسان : فرس لاحق الأقراب — يجمعونه ، وإنما له قربان لسعته — والْحَقِ : أمرٌ ، أي الصق يابطن بالظهر وانضمر ، وآضت : أي صارت كالفنيق — أي صارت الناقة كالفنيق — وهو الفحل المنعم المكرم يقال : أفنقه إذا نعمه ، وجارية فنقة : أي ناعمة . والمحنق : المغيظ من الحنق وهو الغيظ والحقد ، والخطاب هنا من باب التمثيل — لأن الأقراب لم تتكلم .

(٣) وأما لفظة (كن) فهي محدثة ، ومن يعقل مدلول اللفظ وكونه يسبق بعض حروفه بعضاً لم يدخله شك في حدوثه ، وإذا كان الأمر كذلك فلا قول ولا خطاب لفظياً ، وإنما ذلك عبارة عن سرعة الإيجاد ، فهو من مجاز التمثيل حتى كأن المعدوم موجود يقبل الأمر ويمتثله بسرعة .

وقوله تعالى : [وَقَالَ ٱلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ] الآية ، قال الربيع ، والسدي : هم كفار العرب (١) ، وقد طلب عبد الله بن أَبي أُمية وغيره من النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا ، فنفى عنهم العلم لأَنهم لا كتاب عندهم ولا اتباع نبوة ، وقال مجاهد : هم النصارى (٢) ، لأَنهم المذكورون في الآية أولا ، ورجحه الطبري ، وقال ابن عباس : المراد مَنْ كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود ، لأَن رافع بن حريملة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أَسمعنا كلام الله ، وقيل : الإشارة بقوله:[لايَعْلَمُونَ] إلى جميع هذه الطوائف ، لأَن كلهم قال هذه المقالة أَو نحوها ، ويكون الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، و[لَوْلا] تحضيض بمعنى هَلاَّ(٣) كما قال الأَشهب بن رُميلة :

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفضل مجدِكُم   بَنِي ضَوْطَرى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعَا(٤)

وليست هذه لولا التي تعطي منع الشيءِ لوجود غيره ، وفرق بينهما أَنها في التحضيض لا يليها إلا الفعل مظهراً أَو مقدراً ، وعلى با بها في المنع للوجوب (٥) يليها الابتداءُ ، وجرت العادة بحذف الخبر .

---

(١) رجح الحافظ (ك) هذا القول بسرد آيات تدل على عتو المشركين وعنادهم ، انظره .

(٢) ونفى عنهم العلم كما نفي عن اليهود على قول ابن عباس الآتي ، لأنهم لم يعملوا بمقتضاه ، وقد تقرر أن الذي لا يعمل بالعلم ينزل منزلة الجاهل به .

(٣) أي : هلاّ يكلمنا الله بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو تأتينا آيةٌ دالة على نبوته .

(٤) الأشهب : هو أبو ثور ، ورُميلة بالراء المهملة اسم أُمِّه ، وقد نسب بعضهم هذا البيت إلى جرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق وقومه ، وهو الصحيح ، والنِّيب : جمع نابة وهي الناقة المسنَّة ، ويقال للقوم إذا كانوا لا يغنون غناء : (بنو ضوطرى) ، وهم أيضاً حيٌّ معروف ، وقيل : الضوطرى : الحمقى — وصححه ابن سيدة ، ولولا الكمي المقنعا (لولا) : بمعنى هلا ، أي هلا تعدون الكميَّ المقنَّع بالسلاح .

(٥) أي منع الشيءِ لوجوب غيره أي لوجود غيره .

والآية هنا : العلامة الدَّالة ، وقد تقدم القول في لفظها[١] . و[الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ] اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب – وهم اليهود في قول مَن جعل الذين لا يعلمون النصارى – وهم الأُمم السالفة في قول مَن جعل الذين لا يعلمون العرب والنصارى واليهود ، والكاف الأُولى من [كَذَلِكَ] نعْتٌ لمصدر مقدر . و [مِثْلَ] نعت لمصدر محذوف ، ويصح أَن يعمل فيه [قَالَ] . وتشابه القلوب هنا هو في طلب ما لا يصح ، أَو في الكفر وإن اختلفت ظواهرهم . وقرأَ ابن أَبي اسحق وأَبو حيوة : (تَشَّابَهَتْ) بشد الشين ، وقال أَبو عمرو الداني : وذلك غير جائز لأَنه فعل ماض .

وقوله تعالى : [قَدْ بَيَّنَّا الآيَات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ] لما تقدم ذكر الذين أَضلهم الله حتى كفروا بالأَنبياءِ وطلبوا ما لا يجوز لهم أَتْبع ذلك بذكر الذين بيَّن لهم ما ينفع وتقوم به الحجة ، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين فلذلك خصهم بالذكر ، ويحتمل أَن يكون المعنى : قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى ، فكأَن الكلام : قد هدينا مَنْ هدينا . واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة[٢] .

وقوله تعالى : [بَيَّنَّا] قرينة تقتضي أَن اليقين صفة لعلمهم ، وقرينة أُخرى وهي أَن الكلام مدح لهم . وأَمَّا اليقين في استعمال الفقهاءِ إذا لم يتصف به العلم فإنه أَحط من العلم لأَن العلم عندهم معرفة المعلوم على ما هو به ، واليقين معتقد يقع للموقن في حقه

---

(١) في أول الكتاب عند التعرض لشرح الآية والسورة .

(٢) اليقين هو العلم الحاصل عن نظر واستدلال ، ولهذا لا يسمى علم الله يقيناً ، ويقال : علم اليقين ، وعلم يقين – فاليقين إذا اتصف به العلم قواه وبلغ به نهاية الوثاقة .

والشيءُ على خلاف معتقده ، ومثال ذلك تيقن المقلد ثبوت الصانع ، ومنه قول مالك رحمه الله في الموطإ في مسألة الحالف على الشيءِ يتيقنه والشيءُ في نفسه على غير ذلك[١] ، وأما حقيقة الأمر فاليقين هو الأخص ، وهو ما علم على الوجه الذي لا يمكن أن يكون إلا عليه .

قوله عز وجل :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

المعنى : [بَشِيراً] لمن آمن ، و [نَذِيراً] لمن كفر ، وقرأ[٢] نافع وحده [وَلاتَسْأَلْ] بالجزم على النهي ، وفي ذلك معنيان : أَحدهما ـ لا تَسْأَل على جهة التعظيم لحالهم من العذاب ، كما تقول : فلان لا تَسأَل عنه ، تعني أنه في نهاية تشهره من خير أَو شر .

(١) يعني أنَّ اليقين أحط من العلم بثبوت الصانع ، وقد يتيقن المقلد شيئاً وهو على خلاف ذلك ، ومنه قول الإمام مالك في مسألة الحالف ، فقوله : «ومثال ذلك» راجع إلى قوله : « فإنه أحط من العلم » ، وقوله : «ومنه قول مالك» راجع إليه وإلى أن الشيء قد يكون على خلاف ما يعتقده ويتيقنه .

(٢) ذكر الواحدي في الوسيط أن نافعاً قرأ (تَسْأَلْ) بفتح التاء وجزم اللام على النهي للنبي صلى الله عليه وسلم . وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن قبر أبيه وأمه فدله عليهما ، فذهب إلى القبرين ودعا لهما وتمنى أن يعرف حال أبويه في الآخرة فنزلت الآية ، وهذا ما ذكره ، والذي نعتقده ونتقرب به إلى الله تعالى نجاتهما لما بيَّنه الحافظ السيوطي في مؤلفاته في هذا الموضوع ، فإنه قد أزال كل شبهة رضي الله عنه وأرضاه .

والمعنى الثاني(١) رُوي فيه أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليت شعري ما فعل أَبواي؟) فنزلت : [وَلاَ تُسْأَلْ](٢) ، وحكى المهدوي رحمه الله أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليت شعري أَيُّ أَبويَّ أَحدث موتاً؟) فنزلت (٣) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا خطا مِمَّن رواه أَو ظنه ، لأَن أَباه مات وهو في بطن أُمه ، وقيل : وهو ابن شهر ، وقيل : ابن شهرين ، وماتت أُمه بعد ذلك بخمس سنين منصرفة به من المدينة من زيارة أَخواله ، فهذا مما لا يتوهم أَنه خفي عليه صلى الله عليه وسلم .

وقرأَ باقي السبعة [وَلا تُسْأَلُ] بضم التاءِ واللام ، وقرأَ قوم [وَلا تَسْأَلُ] بفتح التاءِ وضم اللام ، ويتجه في هاتين القراءَتين معنيان : أَحدهما الخبر ، أَنه لا يَسْأَلُ عنهم ولا يُسْأَلُ هو عنهم ، والآخر أَن يراد معنى الحال كأَنه قال : وغير مسئول (٤) وغير سائل (٥) عنهم ، عطفاً على قوله : بشيراً ونذيراً .

---

(١) هذا المعنى الثاني ذكر فيه المؤلف قولين – الأول ما روي عن محمد بن كعب القرظي – والثاني ما حكاه المهدوي رحمه الله ، وقد اعترض على الثاني وخطأه .

(٢) رواه عبد الرزاق ، وابن جرير بسندهما عن محمد بن كعب القرظي ، قال الحافظ السيوطي فيما رواه عبد الرزاق : إنه مرسل ضعيف الإسناد ، وفيما رواه ابن جرير : إنه معضل الإسناد ضعيف لا تقوم بهما حجة . وقد رد ابن جرير رحمه الله ما روي عن محمد ابن كعب وغيره ، انظره .

(٣) ما حكاه المهدوي من رواية : (أي أبوي أحدث موتا) هراء من القول ، ولذلك اعترض عليه ابن عطية رحمه الله بلهجة حادة .

(٤) أي أنه لا يكون مسئولا ولا مؤاخذاً بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار .

(٥) يعني أن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم ، وفي هذا ما يدل على أن أحداً لا يُسأل عن ذنب أحد ، (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

وقرأ أُبي بن كعب : [وَمَا تسأَل] ، وقرأ ابن مسعود [وَلَنْ تُسأَل] وهاتان القراءتان تؤيدان معنى القطع والاستئناف في غيرهما(١) .

والجحيم إحدى طبقات النار .

ويقال : رَضِي يَرْضَى رِضاً ورُضاًورِضْواناً ، وحُكي رضاءً ممدوداً ، وقال : [مِلَّتَهُمْ] وهما ملّتان مختلفتان بمعنى – لن ترضى اليهود حتى تتبع ملتهم ، ولن ترضى النصارى حتّى تتبع ملتهم فجمعهم(٢) إيجازاً لأَن ذلك مفهوم .

والملة : الطريقة ، وقد اختصت اللفظة بالشرائع والدين ، وطريق ممل أيْ قد أَثَّر المشي فيه(٣) .

ورُوي أَن سبب هذه الآية أَن اليهود والنصارى طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدنة ، ووعدوه أَن يتبعوه بعد مدة خداعاً منهم ، فأَعلمه الله تعالى أَن إعطاءَ الهدنة لا ينفع عندهم ، وأَطلعه على سر خداعهم .

وقوله تعالى : [قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَى] أَي ما أَنت عليه يا محمد من هدى الله الذي يضعه في قلب من يشاءُ هو الهدى الحقيقي لا ما يدَّعيه

(١) قال (ح) قراءة الجمهور وقراءة أُبي بن كعب تحتمل الاستئناف وهو الأظهر ، وتحتمل أن تكون في موضع الحال – وأما قراءة ابن مسعود فيتعين فيها الاستئناف ، والمعنى على الاستئناف أنك لا تسأل عن الكفار ما لهم لم يؤمنوا ، لأن ذلك ليس إليك ، إن عليك إلا البلاغ ، فكأنه قيل : لست مسئولا عنهم فلا يحزنك كفرهم ، وأما قراءة نافع فهي على الاستئناف – تأمل ، والله أعلم .

(٢) استدل بعضهم على أن الكفر ملة واحدة بإفراد الملة هنا ، وبقوله تعالى : [لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ] .

(٣) طريق مُمِلّ أي مسلوك ومطروق بكثرة المشي فيه . والملة اسم من أمليت الكتاب ثم نقلت إلى الدين والشريعة باعتبار أنها يمليها النبي على الناس فيتناولونها ، ومن الناس من يفرق بين الملة والدين فيقول : الملة ما دعا الله العباد إليه ، والدين ما فعله العباد عن أمره .

هؤلاء ، ثم قال تعالى لنبيه : [وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ] الآية ، فهذا شرط (١) خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأُمَّتُهُ معه داخلة فيه (٢) .

و[أهواء] : جمع هوى ، ولما كانت مختلفة جمعت ، ولو حمل على إفراد الملة لقيل : هواهم ، والولي الذي يتولى الإصلاح والحياطة والنصر والمعونة ، و[نَصيرٍ] بناءُ مبالغة في اسم الفاعل من نصر .

وقوله تعالى : [الَّذِين آتَيْنَاهمُ ٱلْكِتَابَ] الآية ، [الَّذين] رفع بالابتداء ، و[آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ] صلته ، وقال قتادة : المراد بالذين في هذا الموضع مَنْ أَسلم من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم . والكتاب على هذا التأْويل القرآن ،وقال ابن زيد : المراد مَنْ أَسلم من بني إسرائيل ، والكتاب على هذا التأْويل التوراة ، وآتيناهم : معناه أَعطيناهم ، وقال قوم : هذا مخصوص بالأَربعين الذين وردوا مع جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنه في السفينة فأَثنى الله عليهم ، ويحتمل أَن يراد بالذين العموم في مؤمني بني إسرائيل والمؤمنين من العرب ، ويكون الكتاب اسم الجنس ، و[يَتْلُونَهُ] معناه : يتبعونه حق اتباعه بامتثال الأَمر والنهي ، وقيل : يتلونه : يقرؤُونه حق قراءَته ، وهذا أَيضاً

(١) واللام مُشْعِرَةٌ بقسم محذوف ، والكلام مبني على القسم لا على الشرط ، ولو بني على الشرط لدخلت الفاء في قوله تعالى : (مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِير)

(٢) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أُمته ، لأن النبي عليه السلام معصوم من اتباع الأهواء ، فالكلام من باب التغليظ والتشديد في اتباع أهل البدع والأهواء ، وترك ما جاء به الكتاب والسنة من العلم ، وقد نبه ابن عطية رحمه الله على هذا المعنى عند قوله تعالى : (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ) ، وكان عليه أن ينبه على ذلك هنا إذْ هذه أول آية تُوهِمُ ما لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم .

يتضمن الاتِّباع والامتثال (١) ، و[يَتْلُونَهُ] ـ إذا أُريد بالذين الخصوص فيمن اهتدى ـ يصح أن يكون خبر الابتداء ، ويصح أن يكون [يَتْلُونَهُ] في موضع الحال ، والخبر [أُولٰئِكَ] . وإذا أُريد بالذين العموم لم يكن الخبر إلا [أُولٰئِكَ] ، و[يَتْلُونَهُ] حال لا يستغنى عنها ، وفيها الفائدة لأنه لو كان الخبر في [يَتْلُونَهُ] لوجب أن يكون كل مؤمن يتلو الكتاب حق تلاوته(٢) .

و[حَقَّ] مصدر ، والعامل فيه فعل مضمر وهو بمعنى أفعل ولا يجوز إضافته إلى واحد معرف ، وإنما جازت هنا لأَن تعرف التلاوة بإضافتها إلى الضمير ليس بتعرف محض ، وإنما هو بمنزلة قولهم : رجل واحد أُمة ، ونسيج وحده ، والضمير في [بِهِ](٣) عائد على الكتاب ، وقيل : يعود على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأَن متبعي التوراة يجدونه فيها فيؤمنون به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل عندي أن يعود الضمير على الهدى الذي تقدم(٤) ، وذلك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في أول الآية وحذر رسوله من اتباع أَهوائهم ، وأَعلمه بأَن هدى الله هو الهدى الذي أَعطاه وبعثه به ، ثم ذكر له

---

(١) لأن المراد يرتلون ألفاظه ويفهمون معانيه ، وبفهم المعاني يكون الاتباع لمن وفقه الله تعالى .

(٢) يعني وليس كذلك سواء فسرت التلاوة بالاتِّباع والامتثال ، أو بالترتيل وإدراك المعنى .

(٣) في قوله : (أولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) .

(٤) هو وإن كان محتملا لذلك فالأولى عوده على (الكتاب) لتناسب الضمائر ، وعدم تنافرها ، فإن تشتيت الضمائر من شأنه التعقيد والإلباس .

أن المؤمنين التالين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى المقتدون بأنواره ، والضمير في [يَكْفُرْ بِهِ] يحتمل من العود ما ذكر في الأول (١) . و[أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] ابتداءٌ وعماد وخبر ، أو ابتداءٌ وابتداءٌ وخبر ، والثاني وخبره خبر الأول . والخسران : نقصان الحظ .

قوله عز وجل(٢) :

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

قرأ الحسن ، وغيره [نِعْمَتِي] بتسكين الياء تخفيفاً لأن أصلها التحريك كتحريك الضمائر : لك وبك ، ثم حذفها الحسن للالتقاء ، وفي السبعة مَنْ يحرك الياءَ ، ومنهم مَنْ يُسَكِّنها .

وإن قدَّرنا فضيلة بني إسرائيل مخصوصة بكثرة الأنبياء وغير ذلك ، فالعالمون عموم مطلق ، وإن قدَّرنا تفضيلهم على الإطلاق فالعالمون عالمو زمانهم لأن أُمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل منهم بالنص ، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية إلى قوله : [يُنْصَرُونَ] .

ومعنى [لا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ] أنها ليست ثَمَّ ــ وليس(٣) المعنى أنه

---

(١) أي من الأقوال . والمراد بالأول الضمير في (به) من قوله : (يُؤْمِنُونَ بِهِ) .

(٢) وجه إعادة هذه الآية مع تقدمها والله أعلم هو المبالغة في نصحهم ، والحث على اتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا تضيع عليهم الفرصة .

(٣) لم ينبه رحمه الله على هذا في الآية السابقة ، ويغلب من صنيعه أنه لا ينبه على الشيء في أول موضع من مواضعه ، ولذلك ينبغي استقراء الآيات التي تتشابه في المعنى حتى يتضح رأيه كاملا .

يشفع فيهم أحد فيُرد ، وإنما نفى أن تكون ثَمَّ شفاعة على حد ما هي في الدنيا ، وأما الشفاعة التي هي في تعجيل الحساب فليست بنافعة لهؤلاء الكفرة في خاصتهم ، وأما الأخيرة التي هي بإذن من الله تعالى في أهل المعاصي من المؤمنين فهي بعد أن أخذ العقاب حقه ، وليس لهؤلاء المُتَوَعَّدِينَ من الكفار منها شيءٌ .

والعامل في [إذ] فعل تقديره واذكر(١) إذ ، و[ابْتَلَى] معناه اختبر(٢) ، وإبراهيم يقال : إن تفسيره بالعربية أب رحيم(٣) .

وقرأ ابن عامر في جميع سورة البقرة (إبْرَاهَام) . وقُدِّم على الفاعل للاهتمام إذ كون الرب مبتلِياً معلوم ، فإنما يَهْتَمُّ السامع بمن ابتُلي ، وكون ضمير المفعول متصلا بالفاعل موجب تقديم المفعول (٤) فإنما بُني الكلام على هذا الاهتمام .

واختلف أهل التأويل في الكلمات (٥) ، فقال ابن عباس : هي

---

(١) وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يكون العامل فيه فعلا مضمراً معطوفاً على قوله : (اذكروا) خطاب لبني إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى عمن ينتمون إليه وهو إبراهيم عليه السلام .

(٢) التكاليف إنما وضعت للابتلاء والاختبار ليظهر في الشاهد ما سبق به العلم في الغائب ، وقد سبق العلم بأن هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، بحسب ذلك الابتلاء ــ فالاختبار من الله لإظهار ما قد علم ــ والاختبار منا لظهور ما لم نعلم .

(٣) وكذلك بالسريانية ، وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السريانية والعربية ، أو يتقاربان في اللفظ كما قاله الإمام السهيلي رحمه الله .

(٤) قال ابن مالك رحمه الله .

وشَاعَ نَحْوُ خافَ ربَّه عمر   وشذَّ نحوُ زانَ نُورَهُ الشَّجَر

فما في الآية الكريمة مفهوم قوله : وشذ نحو زان نوره الشجر .

(٥) هذه الأشياء التي فسرت بها الكلمات إن كانت أقوالا فذلك ظاهر في تسميتها كلمات ، وإن كانت أفعالا فإطلاق الكلمات عليها مجاز ، لأن التكاليف الفعلية صدرت عن أوامر ، والأوامر كلمات .

ثلاثون سهماً هي الإسلام كله لم يُتِمَّهُ أحد كاملا إلا إبراهيم صلوات الله عليه ، عشرة منها في براءة : (التَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ) الآية ، وعشرة في الأحزاب : (إِنَّ المُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ) ، وعشرة في : (سَأَلَ سَائِلٌ)[١] .

وقال ابن عباس أيضاً ، وقتادة : الكلمات عشر خصال ، خمس منها في الرأس : المضمضة والاستنشاق ، وقص الشارب ، والسواك ، وفرق الرأس ، وقيل بدل فرق الرأس : إعفاءُ اللحية . وخمس في الجسد : تقليم الظفر ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، والاستنجاءُ بالماءِ ، والاختتان ، وقال ابن عباس أيضاً : هي عشر خصال ، ست في البدن ، وأربع في الحج : الختان ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب ، والغسل يوم الجمعة ، والطواف بالبيت ، والسعي ، ورمي الجمار ، والإفاضة . وقال الحسن بن أبي الحسن : هي الخلال الست التي امتحن بها : الكوكب ، والقمر ، والشمس والنار ، والهجرة ، والختان ، وقيل بدل الهجرة : الذبح . وقالت طائفة : هي مناسك الحج خاصة . ورُوي أن الله تعالى أوحى إليه أن تطهر ، فتمضمض ، ثم أن تطهر ، فاستنشق ، ثم أن تطهر ، فاستاك ، ثم أن تطهر ، فأخذ من شاربه ، ثم أن تطهر ، ففرق شعره ، ثم أن تطهر ، فاستنجى ، ثم أن تطهر ، فحلق عانته ، ثم أن تطهر ، فنتف إبطه ، ثم أن تطهر ، فقلم أظافره ، ثم أن تطهر ، فأقبل على جسده ينظر ماذا

(١) الذي عند المفسرين : عشرةٌ في براءة ، وعشرةٌ في الأحزاب ، وعشرةٌ في سورة المؤمنون وفي سورة المعارج ، ولا تكمل العشرة إلا بمجموع السورتين .

يصنع فاختتن بعد عشرين ومائة سنة(١) ، وفي البخاري أنَّه اختتن وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم(٢) .

قال الراوي (٣) فأوحى الله إليه : [إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً] يأتمُّون بك في هذه الخصال ، ويقتدي بك الصالحون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أقوى الأقوال في تفسير هذه الآية ، وعلى هذه الأقوال كلها فإبراهيم عليه السلام هو الذي أتَمَّ .

---

(١) قال (ح) رحمه الله : والكلمات لم تُبين في القرآن ما هي ، ولا في الحديث الصحيح ولذلك كان للمفسرين فيها أقوال . قال شيخ التفسير الإمام (ط) رحمه الله : «ولا يجوز الجزم بشيءٍ مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع ، قال : ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له» ا هـ . ، وقال في فتح القدير : وإذا لم يصح شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جاءنا من طريق تقوم به الحجة تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول : إنها ما ذكره الله سبحانه في كتابه بقوله : (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ) إلى آخر الآيات ، ويكون ذلك بيانا للكلمات . قال العلامة القاسمي : وعندي أنَّ الأقرب في معنى الكلمات هو ابتلاؤُهُ بالإسلام فأسلم لرب العالمين ، وابتلاؤُهُ بالهجرة فخرج من بلده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله ، وابتلاؤُه بالنار فصبر عليها ، ثم ابتلاؤُه بالختان فصبر عليه ، ثم ابتلاؤُه بذبح ابنه فسلَّم واحتسب كما يؤخذ ذلك من سيرته في التنزيل العزيز وسفر التكوين من التوراة ، ففيهما بيان ما ذكرنا في شأنه عليه الصلاة والسلام من قيامه بتلك الكلمات حق القيام ، وتوفيتهن أحسن الوفاء ، وهذا معنى قوله تعالى : (فَأَتَمَّهُنَّ) ، كقوله تعالى : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) ، والإتمام : التوفية » . ا هـ .

(٢) في صحيح البخاري : « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم) . ا هـ .

(٣) أي الذي روى ما سبق من الأمور العشرة التي أُمر إبراهيم عليه السلام بالتطهر منها ، ويعني أنه لما أتمها ووفىَّ بها كان جزاؤُه أن جعله الله إماماً يُقتدى به ، وأوحى له بذلك . وفي بعض النسخ : «قال الرازي» ، ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى أبي جعفر الرازي رحمه الله ابن عيسى بن ماهان صاحب الروايات الغريبة إذا كان قد روى ما ذكره المؤلف ، والله أعلم .

وقال مجاهد ، وغيره : إن الكلمات هي أن الله عز وجل قال لإبراهيم : إني مبتليك بأمر فما هو ؟ قال إبراهيم : تجعلني إماماً للناس ، قال الله : نعم ، قال إبراهيم : تجعل البيت مثابة ، قال الله : نعم ، قال إبراهيم : وأمناً ، قال الله : نعم ، قال إبراهيم : وترينا مناسكنا وتتوب علينا ، قال الله : نعم ، قال إبراهيم : تجعل هذا البلد آمناً ، قال الله : نعم ، قال إبراهيم : وترزق أهله من الثمرات ، قال الله : نعم (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى هذا القول فالله تعالى هو الذي أتم ، وقد طول المفسرون في هذا ، وذكروا أشياء فيها بُعْد فاختصرتها .

وإنما سُمِّيت هذه الخصال كلمات لأنها اقترنت بها أوامر هي كلمات . وروي أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما أتم هذه الكلمات أَوْ أتمها الله عليه كتب الله له البراءة من النار ، فذلك قوله تعالى : (وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّى)(٢) .

والإمام : القدوة ، ومنه قيل لخيط البناء إمام ، وهو هنا اسم مفرد ، وقيل في غير هذا الموضع : هو جمع آم ، وزنه فاعل أصله آمم ، فيجيءُ مثل قائم وقيام ، وجائع وجياع ، ونائم ونيام . وجعل الله

---

(١) قول مجاهد وغيره كالربيع بن أنس هو ما قدمناه سابقاً عن فتح القدير في بحث الكلمات اللائي أتمهن إبراهيم عليه السلام ، وقد قال الإمام (ط) : إن قول مجاهد ومن معه أولى بالصواب .

(٢) الآية ٣٧ من سورة النجم . هذا وقد جعل الله جزاء إبراهيم على إتمامه وتوفيته لما كُلِّفَهُ أمرين : جَعْله إماماً للناس — وبراءته من النار .

تعالى إبراهيم إماماً لأهل طاعته فلذلك اجتمعت الأُمم على الدعوى فيه[١] ، وأعلم الله تعالى أنه كان حنيفاً ، وقول إبراهيم عليه السلام : [وَمِنْ ذُرِّيَّتِي] هو على جهة الدعاء والرغبة إلى الله ، أي : ومن ذريتي يارب فاجعل[٢] . وقيل : هذا منه على جهة الاستفهام عنهم ، أي ومِنْ ذريتي يارب ماذا يكون[٣] ؟

والذرية مأْخوذة من ذَرَا يَذْرُو ، أَو من ذَرَى يذْرِي ، أَو من ذَرَّ يذُرُّ ، أَو من ذَرأَ يذْرَأُ ، وهي أَفعال تتقارب معانيها ، وقد طوَّل في تعليلها أَبو الفتح وشفى[٤] .

وقوله تعالى : [قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي] أَي وقال الله . والعهد فيما قال مجاهد : الإمامة ، وقال السدي : النبوءة ، وقال قتادة : الأَمان من عذاب الله ، وقال الربيع ، والضحاك : العهد : الدين ، دين الله تعالى . وقال ابن عباس : معنى الآية : لاعهد عليك لظالم أن تطيعه ، ونصب

(١) أي كلٌّ يدعيه ، ويعتزي إليه ، فهو إمام الجميع .

(٢) قال في الكشاف : (ومن ذريتي) عطف على الكاف — كأنه قال : وجاعل بعض ذريتي كما يقال : سأكرمك ، فتقول : وزيداً ا . هـ . ، ومثل هذا العطف يسمى بالعطف التلقيني كقوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم ارحم المحلقين) قالوا : والمقصرين قال : (والمقصرين) . وقد ناقش (ح) رحمه الله الإعراب الذي أعربه صاحب الكشاف وقال : الذي يقتضيه المعنى أن يكون (ومن ذريتي) متعلقاً بمحذوف والتقدير : واجعل من ذريتي إماماً ، لأن إبراهيم عليه السلام فهم من قوله تعالى : [إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ] الاختصاص ، فسأل الله أن يجعل من ذريته إماماً . ا هـ .

وهذا الذي ذكره (ح) هو الذي قرره ابن عطية رحمه الله أولا .

(٣) هذا ضعيف كما هو ظاهر ، فالإعراب الأول هو الذي عليه المعول كما قدمناه عن (ح) .

(٤) يعني أنه في أصل الكلمة مذاهب ، قيل : من الذَّرْو ، أو الذَّرْي ، أو الذَّرّ ، أو الذَّرء ، ومعانيها تتقارب ، وقد شفى القول فيها أبو الفتح بن جني رحمه الله في كتابه «المحتسب» .

[الظَّالِمينَ] لأَن العهد يَنال كما يُنال (١) ، وقرأ قتادة ، وأبو رجاء ، والأَعمش : (الظَّالِمُون) بالرفع . وإذا أَوَّلنا العهد الدين أَو الأَمان وأَن لاطاعة لظالم ، فالظلم في الآية ظلم الكفر ، لأَن العاصي المؤمن ينال الدين والأَمان من عذاب الله ، وتلزم طاعته إذا كان ذا أَمر . وإذا أَوَّلنا العهد النبوة أَو الإِمامة في الدين ، فالظلم ظلم المعاصي فما زاد(٢) .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

[وإذْ] عطف على [إذ] المتقدمة ، و[الْبَيْتَ] الكعبة ، و[مَثَابَةً] يحتمل أَن يكون من ثاب إذا رجع لأَن الناس يثوبون إليها أَي ينصرفون ، ويحتمل أَن تكون من الثواب أَي يثابون هناك . قال الأَخفش : دخلت

(١) أي لا ينال عهدي الظالمين ، أو لا ينال الظالمون عهدي ، فلو أخر هذا التعليل وذكره بعد القراءتين معا لكان أوجه .

تنبيهان : الأول في قوله تعالى : (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ، إجابة لما طلبه إبراهيم عليه السلام ، وتؤخذ هذه الإجابة من مفهوم الوصف الذي يفيد أن ذريته تنقسم إلى ظالم وغير ظالم ، والظالم لا يناله عهد الله ، وغير الظالم يناله .

الثاني : المراد بالعهد في هذا المقام هو النبوة والإمامة في الدين ، كما يدل على ذلك السبب والسياق ، وليس المراد من ذلك الإمامة الدنيوية بمعنى السلطة والملك خلافاً لمن قصر نظره على ما يعطيه اللفظ من العموم دون نظر إلى سياق الآية وسببها والله أعلم .

(٢) لأن العاصي لا يكون نبياً ولا إماماً في الدين .

الهاءُفيها للمبالغة لكثرة من يثوب أي يرجع ، لأَنه قل ما يفارق أَحد البيت إلا وهو يرى أَنه لم يقض منه وطرا[١] ، فهي كنسَّابة وعلاَّمة ، وقال غيره ، هي هاءُ تأْنيث المصدر فهي مفْعَلَة أَصلها مثْوَبَة نقلت حركة الواو إلى الثاءِ فانقلبت الواو أَلفاً لانفتاح ما قبلها ، وقيل : هو على تأْنيث البقعة كما يقال : مقام ومقامة .

وقرأَ الأَعمش [مَثَابَاتٍ] على الجمع ، وقال ورقة بن نوفل في الكعبة[٢] :

مَثَاباً لأَفْنَاءِ القَبَائِلِ كُلِّهَا   تَخُبُّ إِلَيْهَا اليَعْمَلاتُ الطَّلائِحُ[٣]

[وَأَمْناً] معناه : أَن الناس يغيرون ويقتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك ، يلقى الرجل بها قاتل أَبيه فلا يهيجه لأَن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمةً ، وجعلها أَمناً للناس والطير والوحوش . وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [وَاتَّخِذُوا] بكسر الخاءِ على جهة الأَمر ، فقال أَنس بن مالك وغيره : معنى ذلك ماروي عن عمر رضي الله عنه أَنه قال : وافقت ربي في ثلاث:

---

(١) بل يعود إليه مرة بعد أخرى ، فليس هو مرة في الزمان فقط .

(٢) أي في وصفها ، وورقة شيخ كبير كان على دين النصرانية ، وهو ابن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم أول الوحي : «إن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً » هذا والذي في لسان العرب وشرح القاموس في مادة (ثاب) أن البيت لأبي طالب .

(٣) وفي رواية الذوامل — ويقال : (هو من أفناء الناس) أي لا يدري من أي قبيلة هو ، والأفناء الأخلاط واحدها فنو ، واليعمَلات بفتح الميم جمع يَعْمَلَة وهي : النجيبة من الإبل ، المطبوعة على العمل ، والطلائح : الإبل التي أضمرها الإعياء .

في الحجاب ، وفي (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ)(١) ــ وقلت : يارسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت : [وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى] (٢) فهذا أمر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال المهدوي : وقيل : ذلك عطف على قوله : [اذكُروا] فهذا أمر لبني إسرائيل . وقال الربيع بن أنس : ذلك أمر لإبراهيم ومتبعيه فهي من الكلمات(٣) كأنه قال : إني جاعلك للناس إماماً واتخذوا ، وذكر المهدوي رحمه الله أن ذلك عطف على الأمر الذي يتضمنه قوله : جعلنا البيت مثابة ، لأن المعنى ثوبوا . وقرأ نافع ، وابن عامر : [واتَّخَذُوا] بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعي إبراهيم ، وذلك معطوف على قوله : [وَإِذْ جَعَلْنَا] ، كأنه قال : وإذ اتخذوا ، وقيل : هو معطوف على [جَعَلْنَا] دون تقدير إذْ ، فهي جملة واحدة(٤) ، وعلى تقدير إذ جملتان .

واختلف في مقام إبراهيم ــ فقال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما ، وخرجه البخاري : إنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت

(١) من الآية (٥) من سورة التحريم .

(٢) حديث الموافقة خرجه البخاري عن أنس بن مالك ، وخرجه مسلم عن ابن عمر ، وعلى ما قاله أنس بن مالك فالأمر مقطوع عما قبله ، والخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ــ وعلى ما قاله غيره فالخطاب لبني إسرائيل على أنه معطوف على (اذكروا) أو لإبراهيم وأتباعه على أنه معطوف على معنى (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ) ، فهو في معنى ثوبوا واتخذوا ، والأظهر أنه أمر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) أي التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام .

(٤) أي كلمة واحدة من الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم .

قدماه فيه [١] . وقال الربيع بن أنس : هو حجر ناولته إياه إمرأته فاغتسل عليه وهو راكب ، جاءت به من شق ثم من شق فغرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه [٢] .

وقال فريق من العلماء : المقام : المسجد الحرام . وقال عطاءُ بن أبي رباح : المقام : عرفة والمزدلفة والجمار . وقال ابن عباس : مقامه : مواقف الحج كلها . وقال مجاهد : مقامه : الحرم كله ، و[مُصَلًّى] موضع صلاة ، هذا قول من قال : المقام الحجر ، ومن قال بغيره قال : مصلى مدعى على أصل الصلاة [٣] .

وقوله تعالى : [وَعَهِدْنَا] ، العهد في اللغة على أقسام هذا منها [٤] الوصية بمعنى الأمر ، و [أَنْ] في موضع نصب على تقدير بأن وحذف الخافض ، قال سيبويه : إنها بمعنى أي مفسرة فلا موضع لها من الإعراب .

(١) هذا هو القول الصحيح كما ثبت في الصحيح ، وهذا الحجر كان لا صقاً بالكعبة ثم حوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الموضع الذي يصلى فيه الآن ، والمراد بالمقام المكان الذي فيه الحجر المسمى بذلك .

(٢) روى الطبري عن السدي : «والمقام هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه ، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب فغسلت شقه ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر فوضعته تحت الشق الآخر فغسلته فغابت رجله أيضاً ، فجعلها الله من شعائره فقال : (واتّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيم مُصَلّى) .

(٣) أي موضع دعاء على أصل الصلاة في اللغة ، والأظهر فيه الصلاة الشرعية لا اللغوية والله أعلم .

(٤) هكذا في النسخ التي بين أيدينا — ويبدو أن في الكلام خطأ من الناسخين — والمعروف أن العهد إذا تعدى بإلى كما في هذه الآية كان بمعنى التوصية ، ويمكن أن يراد به الأمر تجوزاً . على أن كلام المؤلف يستقيم لو حذفنا لفظة (هذا) — وتصبح العبارة : «العهد في اللغة على أقسام ، منها الوصية بمعنى الأمر » .

و[طَهِّرَا] قيل : معناه ابنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة (١) فيجيءُ مثل قوله : [أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَى] . وقال مجاهد : هو أمر بالتطهير من عبادة الأوثان ، وقيل : من الفرث والدم (٢) ، وهذا ضعيف لا تعضده الأخبار ، وقيل : من الشرك .

وأضاف الله البيت إلى نفسه تشريفاً للبيت ، وهي إضافة مخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك ، و[لِلطَّائِفِينَ] ظاهره أهل الطواف ، وقاله عطاءٌ وغيره . وقال ابن جبير : معناه للغرباءِ الطارئين على مكة .

[وَٱلْعَاكِفِينَ] قال ابن جبير : هم أهل البلد المقيمون ، وقال عطاءٌ : هم المجاورون بمكة . وقال ابن عباس : المصلون . وقال غيره : المعتكفون .

والعكوف في اللغة ، اللزوم للشيءِ والإقامة عليه ، كما قال الشاعر :

. . . . عَكْفَ ٱلنَّبِيطِ يَلْعبونَ الفَنْزَجَا(٣)

فمعناه الملازمي البيت إرادة وجه الله العظيم .

[وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ] المصلون ، وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى . وكل مقيم عند بيت الله

(١) أي على نية الطهارة والتوحيد حالا واستقبالا . فيكون مثل قوله تعالى : (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى) — وهو من الآية (١٠٨) من سورة التوبة .

(٢) أي لما كان يطرحه المشركون فيه من الفرث والدم في القرابين التي كانوا يتقربون بها إلى أصنامهم .

(٣) هذا عجز بيت للعجاج يصف ثوراً عكفت حوله بقرات — وصدر البيت :

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ به إذا حجــــا . . . .

وعكف معناها : أقام حول الشيء ، فهو يعكف بضم الكاف وبكسرها — والنبيط : جمع نبطي — وهم قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين — والفنزج والفنزجة ، هي رقصة هؤلاء العجم ، إذا أخذ بعضهم بيد بعض ورقصوا . وحجا : معناها أقام — يقال : حجوت بالمكان أقمت به — والشاعر يريد أن يقول : إن الثور حين أقام بمكانه عكفت حوله هذه البقرات كأنها الأعاجم حين يرقصون ويلعبون .

إرادة ذات الله (١) ، فلا يخلو من إحدى هذه الرتب الثلاث : إما أن يكون في صلاة ، أو طواف ، فإن كان في شغل من دنياه فحال العكوف على مجاورة البيت لا يفارقه .

وقوله تعالى : [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ] الآية ، دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد العيش ، و[اجْعَلْ] لفظه الأمر وهو في حق الله رغبة ودعاءٌ ، و[آمِناً] معناه من الجبابرة والمسلطين والعدو المستأصل والمَثُلات (٢)التي تحل بالبلاد ، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفراً لا ماءَ فيه ولا نبات ، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره ونبتت فيها أنواع الثمرات .

وروي أن الله تعالى لما دعاه إبراهيم أمر جبريل صلوات الله عليه فاقتلع فلسطين وقيل قطعة من الأُردن ، فطاف بها حول البيت سبعاً وأنزلها بِوَجّ (٣) ، فسميت الطائف بسبب ذلك الطواف (٤) .

واختلف في تحريم مكة متى كان ، فقالت فرقة : جعلها الله حراماً يوم خلق الله السموات والأرض ، وقالت فرقة : حرمها إبراهيم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول قاله النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته ثاني يوم الفتح(٥) ، والثاني قاله أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي الصحيح عنه :

---

(١) أي وجه الله .

(٢) جمع مثلة وهي العقوبة ، ومنه قوله تعالى : (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ) أي أنواع العذاب التي أصابت القرون الماضية .

(٣) بلد بالطائف ، وقيل : هو الطائف ، وقيل : واد بالطائف ، انظر القاموس .

(٤) يعني أن الطائف قطعة من الشام ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام .

(٥) أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس وغيره .

(اللهم إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ، ما بين لابتيها حرام[١]) .

ولا تعارض بين الحديثين لأن الأول إخبار سابق علم الله فيها وقضائِه ، وكون الحرمة مدة آدم ، وأوقات عمارة القطر بإيمان ، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها ، وإظهاره ذلك بعد الدثور[٢] .

وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه ، عظَّم الحرمة ثاني يوم الفتح على المؤمنين ، بإسناد التحريم إلى الله تعالى ، وذكر إبراهيم عند تحريمه المدينة مثالا لنفسه ، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضاً من قبل الله تعالى ، ومن نافذ قضائه وسابق علمه .

و[مَنْ] بدلٌ من قوله : [أَهْلَهُ] ، وخص إبراهيم المؤمنين بدعائه[٣]

وقوله تعالى : [وَمَنْ كَفَرَ] الآية ، قال أُبي بن كعب ، وابن اسحق وغيرهما : هذا القول من الله عز وجل لإبراهيم . وقرؤوا [فأُمَتِّعه] بضم الهمزة وفتح الميم وشد التاء [ثُمَّ أَضْطَرُّهُ] بقطع الألف وضم الراء ،

---

(١) خرجه البخاري ومسلم وغيرهما . وفي اللسان : اللابة : هي الأرض ، ألبستها حجارة سود ، (عن الأصمعي) ، والجمع لابات .

(٢) وحاصله أنه لا منافاة بين الأحاديث التي أثبتت أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث التي أثبتت أن إبراهيم حرمها ، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها ، وأنها لم تزل حرماً آمناً عند الله من قبل بناء إبراهيم عليه السلام ، كما أن رسول الله كان مكتوباً عند الله خاتم النبيئين وأن آدم لمنجدل في طينته ، ومع هذا قال إبراهيم : (رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِم رَسُولا مِنْهُمْ) الآية ، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه . وأجاب شيخ التفسير الإمام (ط) رحمه الله بأنها كانت حراماً ، إلا أن الله لم يتعبد الخلق بذلك فلما سأله إبراهيم عليه السلام حرَّمها وتعبَّدهم بذلك ، وكل من الجوابين له موضع حسن .

(٣) أي لما سبق من قوله تعالى : (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) فدعا هنا للمؤمنين دون الظالمين تأدباً مع الله تبارك وتعالى .

وكذلك قرأ السبعة حاشا ابن عامر فإنه قرأ [فَأُمْتِعه] بضم الهمزة وسكون الميم وتخفيف التّاءِ [ثُمّ أَضطره] بقطع الألف. وقرأ يحيى ابن وثاب [فَأُمْتِعَه] كما قرأ ابن عامر [ثُمّ إِضطره] بكسر الهمزة على لغة قريش في قولهم: لا إخال. وقرأ أُبي بن كعب [فَنُمَتِّعَه] [ثُمَّ نَضْطره] (١) ومَنْ شرط والجواب في فأُمتعه.

وموضع [مَنْ] رفع على الابتداء والخبر(٢). ويصح أن يكون موضعها نصباً على تقدير: وأرزق من كفر، فلا تكون شرطاً. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: هذا القول هو من إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وقرؤوا: [فَأَمْتعه] بفتح الهمزة وسكون الميم، [ثم اضطرَّه] بوصل الألف وفتح الراءِ، وقرئت بالكسر، ويجوز فيها الضم. وقرأ ابن محيصن: [ثم أَطَّرَّهُ] بادغام الضاد في الطاءِ. وقرأ يزيد بن أبي حبيب: [ثم اضطُرَّه] بضم الطاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن إبراهيم عليه السلام دعا للمؤمنين وعلى الكافرين (٣).

---

(١) تعددت القراءات في هذا المقام، وحاصل ذلك أن قراءة السبعة، وقراءة ابن وثاب، وقراءة أُبي بن كعب، وقراءة ابن محيصن، وقراءة يزيد بن أبي حبيب—هذه القراءات كلها تدل على الخبرية في الفعلين معاً — وأن القول من الله تعالى لإبراهيم — وأما قراءة ابن عباس ومجاهد وغيرهما فهي على الأمر في الفعلين معاً، ويكون القول عليها من إبراهيم عليه السلام، وهذه القراءة شاذة، ويأباها السياق، ولا يقبلها نظم الكلام، والله أعلم.

وقد خلط ابن عطية رحمه الله في عرض القراءات فتأمل.

(٢) عبارة أبي حيان: «ومَنْ يحتمل أن تكون في موضع نصب على إضمار فعل تقديره: وأرزق من كفر فأمتعه، ويكون فأمتعه معطوفاً على ذلك الفعل المحذوف — ويحتمل أن تكون مَنْ في موضع رفع على الابتداء إما موصولا وإما شرطاً، والفاء جواب الشرط أو الداخلة في خبر الموصول لشبهه باسم الشرط، وهو توضيح لما قاله ابن عطية رحمه الله، الذي قد يأتي أحياناً بشيء من الإجحاف والإلفاف في كلامه».

(٣) مبني على قراءة الأمر، وهي قراءة ابن عباس ومن معه.

و[قَلِيلا] معناه مدة العمر ، لأَن متاع الدنيا قليل ، وهو نعت إِمَّا لمصدر كأَنه قال : متاعاً قليلا ، وإِمَّا لزمان كأَنه قال : وقتاً قليلا ، أَو زمناً قليلا .

و[الْمَصِير] مَفْعِل كموضع من صار يصير ، وبيس أَصلها بئس ، وقد تقدمت في بيسما(١) ، وأُمَتِّعه معناه : أُخوله الدنيا وأُبقيه فيها بقاءً قليلا ، لأَنه فانٍ مُنْقض .

وأَصل المتاع الزاد ، ثم استعمل فيما يكون آخر أَمر الإِنسان أَو عطائه أَو أَفعاله ، قال الشاعر :

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقفْرَةٍ مَتَاعٌ قليلٌ مِنْ حبيب مُفَارِقِ (٢)

ومنه تَمْتيع الزوجات(٣) ، ويضطر الله الكافر إِلى النار جزاءً على كفره .

قوله عز وجل :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

---

(١) ابن عطية وأكثر علماء المغرب العربي يميلون إلى التسهيل والتخفيف ، ويعدون عدم الهمز أولى من الهمز .

(٢) هذا البيت تقدم عند قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وقد أنشده سليمان بن عبد الملك بعد دفن ولده أيوب — ومن المعروف أن الوقوف على القبر آخر ما يكون من الأعمال بين الأقارب والأنساب .

(٣) فإنَّه يكون في آخر الحياة الزوجية عند الطلاق .

المعنى : واذكر [إذ] ، و[الْقَوَاعِدُ] : جمع قاعدة وهي الأَساس ، وقال الفراءُ : هي الجدر ، وفي هذا تجوز [(١)] ، والقواعد من النساءِ جمع قاعد ، وهي التي قعدت عن الولد ، وحذفت تاءُ التأْنيث لأَنه لا دخول للمذكر فيه ، هذا قول بعض النحاة ، وقد شذ حذفها مع اشتراك المذكر بقولهم : ناقة ضامر[(٢)] ، ومذهب الخليل أَنه متى حذفت تاءُ التأْنيث زال الجري على الفعل وكان ذلك على النسب .

والبيت هنا الكعبة بإجماع ، واختلف بعْدُ[(٣)] رواة القصص ، فقيل : إن آدم أُمر ببنائه فبناه ، ثم دثر ودرس حتى دُلَّ عليه إبراهيم فرفع قواعده ، وقيل : إن آدم هبط به من الجنة ، وقيل : إنه لمَّا استوحش في الأَرض حين نقص طوله وفقد أَصوات الملائكة أُهبط إليه وهو كالدرة ، وقيل : كالياقوتة ، وقيل : إن البيت كان ربوة حمراءَ ، وقيل : بيضاءَ ومن تحته دُحيت الأَرض ، وإن إبراهيم ابتدأَ بناءَه بأَمر الله ورفع قواعده .

والذي يصح من هذا كله أَن الله أَمر إبراهيم برفع قواعد البيت[(٤)] ،

(١) لأن رفع القواعد معناه رفع البناء فوقها لا رفعها في نفسها ، ولكن لما كانت متصلة بالبناء المرتفع كان ذلك بمثابة رفعها . والمضارع يحكي الحال الماضية استحضاراً لصورتها العجيبة .

(٢) يقال : جمل ضامر وناقة ضامر وضامرة ، والجمع ضمَّر وضوامر ، والضمور الهزال ، وإذا حذفت التاء من الوصف المشترك فالكلام لا يجري على الفعل وإنما يجري على النسب كما قاله الخليل رحمه الله .

(٣) أي أنه بعد الإجماع على أن المراد بالبيت هو ، الكعبة اختلف رواة القصص في أولية البيت .

(٤) الأمر لإبراهيم ببناء البيت رواه الإمام البخاري في صحيحه من طريقين عن ابن عباس في كتاب الأنبياء .

وَجَائزٌ قِدَمُهُ ،وجائزٌ أن يكون ذلك ابتداءً ، ولا يرجح شيءٌ من ذلك إلا بسند يقطع العذر .

وقال عبيد بن عمير[١] : رفعها إبراهيم وإسماعيل معاً ، وقال ابن عباس : رفعها إبراهيم وإسماعيل يناوله الحجارة ، وقال علي ابن أبي طالب : رفعها إبراهيم وإسماعيل طفل صغير ، ولا يصح هذا عن علي رضي الله عنه لأن الآية والآثار ترده .

[وَإِسْمَاعِيلُ] عطف على إبراهيم ، وقيل : هو مقطوع على الابتداء وخبره فيما بعد . قال الماوردي : إسماعيل أصله اسمع ياءايل ، وهذا ضعيف . وتقدير الكلام : يقولان : [ربَّنَا تَقَبَّلْ] ، وهي قراءة أُبي ابن كعب ، وعبد الله بن مسعود كذلك بثبوت (يقولان) ، وقالت فرقة : التقدير : وإسماعيل يقول : ربنا . وحذف لدلالة الظاهر عليه . وكل هذا يدل على أن إسماعيل لم يكن طفلا في ذلك الوقت .

وخَصَّا هاتين الصفتين لتناسبهما مع حالهما ، أي السميع لدعائنا والعليم بنيَّاتنا : وقولهما : اجعلنا : بمعنى صيِّرنا ، تتعدى إلى مفعولين ، [ومُسْلِمَيْنِ] هو المفعول الثاني ، وكذلك كانا فإنما أرادا التثبيت

---

(١) هو عبيد بن عمير بن قتادة أبو عاصم المكي من كبار التابعين ، وقيل : إنه صحابي ، قال الحافظ السيوطي :

وابن عمير من مجاهد أجـــل   كذاك من طاوس الحبر البـــدل
أقدم عهداً وأجل رتبـــة   فإنه تُعزى إليه صحبـــة
ففي زمان المصطفى قد ولـــدا   وقال قوم بلقاه سعـــدا
بمكة قد قضى في عهد عمـــر   وذاك أول امرىء به ابتكـــر

والبدل القائم بحجة الله . وكان أول قاض بمكة على عهد عمر رضي الله عنه ، توفي سنة ٦٤ هـ .

والدوام[١] . والإسلام في هذا الموضع : الإيمان والأعمال جميعاً . وقرأ ابن عباس ، وعوف [٢] : مُسْلِمِينَ على الجمع ، ومِنْ في قوله : [ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا] ، للتبعيض ، وخص من الذرية بعضاً لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين . والأُمة الجماعة ، وحكى الطبري أنه أراد بذلك العرب خاصة ، وهو ضعيف ، لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن مِنْ غيرهم .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [أَرِنَا] بكسر الراء ، وقرأ ابن كثير : [أَرْنَا] بإسكان الراء ، وقرأ أبو عمرو بين الإسكان والكسر اختلاساً ، والأصل أرئينا ، حذفت الياءُ للجزم ، ونقلت حركة الهمزة إلى الراءِ ، وحذفت تخفيفاً ، واستثقل بعْدُ مَنْ سكّن الراءَ الكسرةَ كما استثقلت في (فخذ) ، وهنا من الإجحاف[٣] ما ليس في (فخذ) . وقالت طائفة : أرنا من رؤْية البصر . وقالت طائفة : من رؤْية القلب ، وهو الأصح ، ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل ، وينفصل

---

(١) يعني أنهما كانا مسلمين وإنما أرادا بالسؤال التثبيت والدوام عليه .

(٢) هو ابن أبي جميلة البصري المعروف بالأعرابي ، توفي سنة ١٤٦ هـ .

(٣) أي النقص ، يعرف ذلك مما آلت إليه بعد الأصل ، قال (ح) رحمه الله : وقد أنكر بعض الناس الإسكان من أجل أن الكسرة تدل على ما حذف فيقبح حذفها ، لأن في إقرارها دلالة على المحذوف ، وهذا ليس بشيء — لأن هذا الأصل مرفوض ، وأصبحت الحركة كأنها حركة للراء ، ولأن الإسكان نُقل عن العرب في هذا الحرف ، كما في قول الشاعر :

أَرْنا إداوة عبد الله نملؤُهـــا مِن ماء زمزم إنَّ القوم قد ظمؤوا

ولأنها قراءة متواترة فإنكارها ليس بشيء .

بأنه يوجد مُعَدَّى بالهمزة من رؤية القلب كغير المعدى(١) ، قال حطائط ابن يعفر أخو الأسود بن يعفر :

أَرِيني جَوَاداً ماتَ هَزْلا لأَنَّني أَرى ما تَرَيْنَ ،أَوْ بَخِيلا مُخَلَّدَا(٢)

وقال قتادة : المناسك معالم الحج . وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : لما فرغ إبراهيم مِنْ بناءِ البيت ودعا بهذه الدعوة بعث الله إليه جبريل فحج به (٣) ، وقال ابن جريج : المناسك المذابح أي مواضع الذبح ، وقال فريق من العلماء : المناسك العبادات كلها ومنه الناسك أي العابد . وفي قراءة ابن مسعود : [وأَرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ] كأنه يريد الذرية .

والتوبة الرجوع ، وعرفه شرعاً من الشر إلى الخير ، وتوبة الله على العبد رجوعه به وهدايته له . واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياءُ معصومون ، فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام ، وقيل : أرادا مَنْ بعدهما من الذرية ، كما تقول : بَرَّني فُلان وأكرمني وأنت تريد

(١) يعني أن (رأى) القلبية وجدت تستعمل متعدية إلى اثنين بالهمز وبدونه ، وإذا كانت تتعدى بالهمز إلى اثنين فقد ثبت أن العرب تستعملها استعمالين ، ومن ذلك قول حطائط بن يعفر إلخ ، غير أن البيت لايدل على ما ذكره ،لأن (أرى) فيه بصرية كما يفهم من متعلقاتها،ولأبي (ح) تعليق على كلام بن عطية هنا يحسن الرجوع إليه في البحر المحيط ٣٩٠/١ .

(٢) وبعد البيت :

ذَرِيني أَكُنْ لِلْمَال رَبّاً ولا يَكُنْ لِيَ المَالُ ربّاً تحمدي غبّه غَدَا
ذَرِيني يكُنْ مَالي لِعِرْضِي وقايةً ففِي المال عرضي قبلَ أنْ يتبدَّدَا

والأبيات خطاب لأمه وقد عاتبته على جوده . وقوله : لأنني ، بفتح اللام بمعنى لعلني ــ وحطائط ابن يعفر النهشلي شاعر جاهلي مُقِلٌ ولا عقب له ، كما أن أخاه الأسود لاعقب له ، ومعنى (أريني) على فهم ابن عطية : عرفيني به ، أو دليني على مكانه ــ فهو لا يريد الرؤية البصرية ، وقد ذكرنا أن أبا (ح) له رأي يخالف فيه هذا الكلام .

(٣) هنالك آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومَنْ بعدهم تتضمن أن جبريل عليه السلام أرى إبراهيم المناسك ، وفي أكثرها أن الشيطان تعرض له مرات ، والدعوة التي دعا بها ابراهيم هي قوله : أرنا مناسكنا .

في ولدك وذريتك ، وقيل : – وهو الأَحسن عندي (١) – إنهما لمَّا عرفا المناسك وبنيا البيت وأَطاعا ، أَرادا أَن يَسُنَّا للناس أَنَّ ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة .

وقال الطبريُّ : إنه ليس أَحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معانٍ يجب أَنْ تكون أَحسن مِمَّا هي (٢) . وأَجمعت الأُمة على عصمة الأَنبياء في معنى التبليغ ، ومن الكبائر ، ومن الصغائر التي فيها رذيلة . واختلف في غير ذلك من الصغائر ، والذي أَقول به : إنهم معصومون من الجميع ، وإن قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إني لأَتوب إلى الله في اليوم وأَستغفره سبعين مرة)(٣) ، إنما هو رجوعه من حالة إلى أَرفع منها لتزيد علومه واطلاعه على أَمر الله ، فهو يتوب من المنزلة الأُولى إلى الأُخرى ، والتوبة هنا لغوية (٤) .

وقوله تعالى : [رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ] الآية ، هذا هو الذي أَراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : أَنا دعوةُ أَبي إبراهيم ،

---

(١) هو وإن كان أحسن فهو بعيد من ظاهر الآية الكريمة ، لأن قوله تعالى : (وَتُبْ عَلَيْنَا) معناه على ما قال أنهما نبها بذلك الطلب على أن غيرهما ينال في تلك المواضع التوبة ويتنصل من الذنوب وهذا ليس طلباً حقيقيا وإنما هو في معنى التشريع لغيرهما بطلب التوبة في هذه المناسك ، وهذا خروج عن المعنى الظاهر المتناسق مع ما قبله والله أعلم .

(٢) يعني أنه يتنقل في الدرجات والمقامات من درجة إلى ما هو أحسن منها ، ومن مقام إلى ما هو أفضل منه وهكذا ، وهذا ما يحبه الله تعالى في المعاني التي تكون بينه وبين عباده ، فتوبة الأنبياء عبارة عن تنقلهم من مقام إلى مقام أعلى وتلك هي توبة خواص الخواص .

(٣) خرجه البخاري وغيره في كتاب الدعوات .

(٤) أي لا شرعية لأن التوبة الشرعية لا تكون إلا من الذنب ، والأنبياء معصومون من الذنوب ، فتوبتهم ترقيهم في الكمالات واستعلاؤهم في الدرجات .

وبشرى عيسى)(١). ومعنى [منْهُمْ] : أن يعرفوه ويتحققوا فضله ، ويشفق عليهم ويحرص ، و[يَتْلُوا] في موضع نصب نعت لرسول أي تالياً عليهم ، ويصح أن يكون في موضع الحال ، والآيات : آيات القرآن ، والكتاب : القرآن ، ونسب التعليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطى الأُمور التي ينظر فيها ويعلم طرق النظر بما يلقيه الله إليه ويوحيه . وقال قتادة : الحكمة : السُّنَّة وبيان النبي صلى الله عليه وسلم الشرائع(٢) . وروى ابن وهب عن مالك ، أن الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى ، و[يُزَكِّيهِمْ] معناه : يُطَهِّرُهم وينميهم بالخير ، ومعنى الزكاة لا يخرج عن التطهير والتنمية ، و[العَزِيزُ] الذي يَغْلِبُ ويَتِمُّ مراده ولا يرد ، و[الحَكِيمُ] المُصيب مواقع الفعل المحكم لها .

قوله عز وجل :

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

[مَنْ] استفهام في موضع رفع بالابتداء ، و[يَرْغَبُ] خبره ، والمعنى يزهد فيها ويربأُ بنفسه عنها ، والملة : الشريعة والطريقة ، و[سَفِهَ]

(١) فدعوة إبراهيم هي قوله تعالى : (وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولا) الآية ، وقد حقق الله هذا الدعاء ، وجعله في آخر الزمان ، فكانت رسالته صلى الله عليه وسلم خاتمة للرسالات كلها .

(٢) هذا قول أكثر المفسرين ، وهو الصحيح ، ولا منافاة بينه وبين قول الإمام مالك : الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو نور من الله تعالى ، فالسنة هي التي تُفقِّه في كتاب الله ، والعمل بها هو النور ، وبذلك تكون هي العلم والفهم والعمل والاتباع .

من السَّفَهِ الذي معناه الرِّقَّةُ والخِفَّة . واختلف في نصب [نَفْسَه] فقال الزَّجَّاج : سفِه بمعنى جهِل ، وعدَّاه بالمعنى(١) ، وقال غيره : سفه بمعنى أَهْلَك . وحكى ثعلب ، والمبرد : أن (سَفِه) بكسر الفاءِ يتعدى كسَفَّه بفتح الفاءِ وشدِّها(٢) ، وحُكي عن أَبي الخطاب أَنها لغة . وقال الفراءُ : نصبها على التمييز (٣) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لأَن السفه يتعلق بالنفس والرأْي والخلق ، فكأَنه ميزها بين هذه ، ورأْيي أَن هذا التعريف ليس بمحض لأَن الضمير فيه الإِبهام الذي في (مَنْ) ، فكأَن الكلام : إلاَّ مَنْ سفِه نفساً(٤) . وقال البصريون : لايجوز التمييز مع هذا التعريف ، وإنما النصب على تقدير حذف (في) ، فلما انحذف حرف الجر قوي الفعل ، وهذا يجري على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم : ضرب فلان الظهر والبطن أَي في الظهر والبطن .

---

(١) يعني أنه ضمنه معنى فعل آخر وهو (جَهِلَ) أو (أَهْلَكَ) .

(٢) معناه أنَّ سفِه يتعدى وهو بمعنى سفَّهَ بفتح الفاء وشدها ، وقالوا : إن ذلك لغة ، والمعنى أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم عليه السلام إلا من جهل نفسه ولم يعرف ما فيها من الدلائل ، وقد قال الله تعالى : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون) ومِن ثَمَّ كان الجهل أعظم مذمة لأنه مبدأ كل نقيصة ، وذلك لأن من جهل نفسه جهل أنه مصنوع ، ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى الجهل بالصانع ، والجهل بالصانع يؤدي إلى قلة المبالاة بأمره ونهيه .

(٣) تقدم أنها مفعولة على التضمين ، أو على أنها لغة متعدية ، وقال الفراء من الكوفيين : نصبها على التمييز ، وقال البصريون : التفسير أي التمييز نكرة ولا تكون المعرفة نكرة ، وقد أول ذلك أهل الكوفة ، والله أعلم .

(٤) يقول الفراء : لمَّا حول الفعل من النفس إلى صاحبها خرج ما بعده مفسراً ليدل على أن السفه فيه ، وكان حكمه أن يكون سفه زيد نفساً لأن المفسر لا يكون إلا نكرة ، ولكنه قد ترك على إضافته ونصب كنصب النكرة تشبيها بالمفعول به ، وقال المبرد ، وثعلب : سفِه بالكسر متعد بنفسه ، وقد تقدم هذا القول وهو الوجه وما عداه ضعيف .

وحكى مكي أَن التقدير إلا من سفه قوله نفسه ، على أَن نفسه تأْكيد ، حُذف المُؤَكَّد وأُقيم التوكيد مقامه قياساً على النعت والمنعوت ، وهذا قول متحامل(١) . واصطفى : افتعل من الصفوة ، معناه : تخيَّر الأَصفى ، وأُبدلت التاءُ طاءً لتناسبها مع الصاد في الإِطباق(٢) . ومعنى هذا الاصطفاءُ أَنه نَبَّأَه واتخذه خليلا ، و[فِي الآخِرَةِ] متعلق باسم فاعل مقدر من الصلاح ، ولا يصلح(٣) تعلقه بالصالحين لأَن الصلة لاتتقدم الموصول ، هذا على أَن تكون الأَلف واللام بمعنى الذي ، وقال بعضهم : الأَلف واللام هنا للتعريف ، ويستقيم الكلام(٤) ، وقيل : المعنى إنه في عمل الآخرة لمن الصالحين ، فالكلام على حذف مضاف .

وقوله تعالى : [إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ] ، العامل في [إِذْ] اصطفيناه ، وكان هذا القول من الله حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس (٥) . والإِسلام هنا على أَتم وجوهه(٦) .

(١) أي فيه تحامل وتكلف .

(٢) ولكون مخرجهما واحداً فأتي بحرف وسط بين الحرفين .

(٣) وفي بعض النسخ ولا يصح .

(٤) أي على هذا القول ، وأن (أل) للتعريف كهي في الرجل والغلام – يستقيم الكلام ويصح تعلق الجار والمجرور بما بعده .

(٥) يعني حين ابتلائه بذلك وإطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وأنه لابد لها من مدبر يدبر أمْرها ويُسيِّر أحوالها فعند ذلك قال الله له : أسْلِم ، قال :(أسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أنَا مِنَ المُشْرِكِينَ) .

(٦) ذلك أنه ليس كل إسلام إيماناً ، ودليل ذلك قوله تعالى : (قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا، قُلْ لمْ تُؤْمِنُوا ولكنْ قُولوا أسْلَمْنَا) الآية . وقوله صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم لسعد بن أبي وقاص لما قال له : أعط فلاناً فإنه مؤمن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أو مُسْلِمٌ) . وفي المراصد : =

وقرأ نافع وابن عامر : [وَأَوْصَى]. وقرأ الباقون : [وَوَصَّى]، والمعنى واحد ـ إلا أن وصَّى يقتضي التكثير ، والضمير في [بِهَا] عائد على كلمته التي هي : [أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ] ، وقيل : على الملة المتقدمة ، والأول أصوب لأنه أقرب مذكور (١) . وقرأ عمرو بن فائد الأسواري : [وَيَعْقُوبَ] بالنصب على أن يعقوب داخل فيمن أوصى(٢) . واختلف في إعراب رفعه ـ فقال قوم من النحاة : التقدير ، ويعقوبُ أوصى بنيه أيضاً ، فهو عطف على إبراهيم . وقال بعضهم : هو مقطوع منفرد بقوله : [يَابَنِي] فتقدير الكلام (ويعقوبُ قال: يا بني(٣)). واصطفى هنا معناه تخيَّر صفوة الأديان ، والألف واللام في الدين للعهد (٤) لأنهم قد كانوا عرفوه ، وكسرت إنَّ بعد أوصى لأنها بمعنى القول ، ولذلك

= وَيَتَساوى مُؤمِنٍ ومُسْلِـم   في الصِّدق للزوم شرعاً فاحكـم
وإن تُراع فيهما الْمَفْهُومَـا   كان التَّغايُر به محكومـا

(١) هو ــ وإن كان أقرب مذكور ــ فإن المطلوب هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بهذه الكلمة ، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم ، وأولى بمن بعده من الأنبياء ، فإن الكلمة بعض الملة، وإبراهيم عليه السلام لا يوصي إلا بما هو أجمع للصلاح والفلاح.

(٢) كان ابراهيم عليه السلام وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحق، وكان حاضراً وقت الوصية كما استظهره الحافظ بن كثير واستدل على ذلك بما هو واضح ، وقوله تعالى : (يا بني إنَّ الله اصْطَفَى) ، هو من مقول إبراهيم عليه السلام على قراءة النصب ، وعلى قراءة الرفع إذا كان معطوفاً على ابراهيم ، وأما إذا كان مستأنفاً فهو من مقول يعقوب . وهذه الآية الكريمة تدل على أنه ينبغي للمرء أن يعتني بتوصية أولاده ولا سيما فيما يتعلق بأمور الدين .

(٣) والفرق بين التقديرين :أن الأول لا إضمار فيه لأنه معطوف، ومن ثم كان هذا أظهر القولين ، والثاني فيه إضمار لأنه مقطوع .

(٤) أي دون الاستغراق ، لأنه أراد دين الإسلام بدليل قوله : (فَلا تَمُوتُنَّ إلا وأَنْتُمْ مُسْلِمُون)، وذلك قول الله تعالى : (إنَّ الدينَ عِنْدَ الله الإسلامَ) ، (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلَامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين) .

سقطت أَنْ التي تقتضيها أَوصى في قوله : أَن يابَنِيَّ . وقرأَ ابن مسعود والضحاك : (أَنْ يا بَنِيَّ) بثبوت أَنْ .

وقوله : [فَلاتَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُم مُسْلِمُونَ] إِيجازٌ بليغ ، وذلك أَنَّ المقصود من أَمرهم بالإِسلام الدوامُ عليه[١] فأَتى بلفظ موجز يقتضي المقصود ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت ، وذلك أَن المرءَ يتحقق أَنه يموت ولا يدري متى ، فإِذا أُمر بأَمر[٢] لا يأْتيه الموت إِلا وهو عليه فقد توجه من وقت الأَمر دائباً لازماً[٣] . وحكى سيبويه – فيما يشبه هذا المعنى – قولَهم : لا أَرينك ها هنا[٤] ، وليس إِلى المأْمور أَن يحجب إِدراك الآمر عنه ، فإِنما المقصود : إِذهب وزُلْ عن ها هنا ، فجاءَ بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكراهية . [وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] ابتداءٌ وخبر في موضع الحال .

---

(١) لأن المراد بالجملة : الزموا الإسلام وداوموا عليه إلى الموت .

(٢) أي أُمِر بشيء .

(٣) أي توجه من وقت الخطاب إلى ذلك الشيء واعتنى به ، وقام عليه ، وترك الأشياء التي تكون سبباً للموت على غير حالة الإسلام – فالنهي حقيقة هو عن تعاطي الأشياء التي تتنافى مع الإسلام ، إذ ربما يباغته الموت وهو على تلك الحالة . وهذه المعاني المتضامنة قد أديت بإيجاز بليغ ، فليس النهي عن الموت على غير حال الإسلام لأنه ليس ذلك في مقدور الإنسان ، وإنما النهي عن الكون في حالة غير حالة الإسلام ، وهذا مقدور للإنسان ، فالكلام من باب الكناية ، وهو استعمال اللفظ في معناه لينتقل منه إلى ملزومه .

(٤) فالنهي في اللفظ للمتكلم وهو في الحقيقة للمخاطب ينهاه عن حضوره في هذا المكان ، فكأنه يقول : اذهب من هذا المكان ، وليس للمأمور أن يحجب إدراك الآمر عنه إلا بالذهاب عن هذا المكان . ومثل ذلك النهي عن الصلاة في المكان المغصوب ، فليس النهي عنها لعينها ، وإنما المراد النهي عما اقترن بها من الغصب ، وكذلك الآية ، فالنهي متعلق بالموت لفظا وبما يقترن به من الكفر معنى ، وهذا يعرف «بالمجاز العرفي» ومن هذا الباب قوله تعالى : (ولا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

قوله عز وجل :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياءَ صلوات الله عليهم ، ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية(١) ، فرد الله عليهم وكذَّبَهُمْ وأعلمهم أَنهم كانو على الحنيفية الإسلام ، وقال لهم — على جهة التقرير والتوبيخ — : أَشَهِدْتُمْ يعقوب وعلمتم بما أَوصى فتدَّعون عن علم ؟ أي : (٢) لم تشهدوا ، بل أَنتم تفترون . و[أم] تكون بمعنى أَلف الاستفهام في صدر الكلام ، لغة يمانية(٣) . وحكى الطبري أن [أَمْ] يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره ، وهذا منه ، ومنه : (أَمْ يَقُولونَ افْتَرَاهُ)(٤) وقال قوم : [أَمْ] بمعنى بل(٥) والتقدير : بل

(١) تفسير لقوله : انتحلوا الأنبياء .

(٢) وفي بعض النسخ : أمْ لم تشهدوا ؟

(٣) استغرب أبو حيان رحمه الله هذاالقول، كما استغرب ما حكاه عن الطبري من أنه يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره ، والحق أن (أمْ) هنا منقطعة كما سيأتي عن ابن عطية نفسه في قوله : والأظهر أنها التي بمعنى (بل) وألف الاستفهام معاً . والمنقطعة لا تجيءُ إلا وقد تقدمها كلام كأنه قيل : بل أكنتم شهداء ؟ والهمزة للإنكار ، أي ما كنتم شهداء ، وإنما كان اللفظ على الاستفهام والمعنى على خلافه لأن ذلك أبلغ ، إذ يخرج الكلام مخرج التقدير بالحق فتلزم الحجة ، أو الإنكار ، فتظهر الفضيحة .

(٤) من الآية (٣٥) من سورة هود .

(٥) يشير إلى أنها للإضراب فقط بمعنى (بل) .

شهد أَسلافكم يعقوب ، وعلمتم منهم ما أَوصى به ولكنكم كفرتم جَحْداً ، ونسبتموهم إلى غير الحنيفية عِناداً .

والأَظهر أَنها التي بمعنى بل وأَلف الاستفهام معاً(١) . و[شُهَدَاءَ] : جمع شاهد أَي حاضر . ومعنى الآية : حضر يعقوبَ مُقدِّماتُ الموت ، وإلا فلو حضر الموت لمـا أَمكن أَن يقول شيئاً(٢) . وقدم [يَعْقُوبَ] على جهة تقديم الأَهم ، والعامل في [إذ] (شهداءَ) . و[إِذْ قَالَ] بدل من [إذ] الأُولى ، وعبَّر عن المعبود بـ[ما] تجْرِبةً لهم ، ولم يقل : (من) لئلا يطرق لهم الاهتداءَ(٣) ، وإنما أَراد أَن يختبرهم ، وأَيضاً فالمعبودات المتعارفة من دون الله جماداتٌ كالأَوثان والنار والشمس والحجارة ، فاستفهمهم عما يعبدون من هذه ، و[مِنْ بَعْدِي] أَي من بعد موتي . وحُكي أَن يعقوب حين خُيِّر كما يُخير الأَنبياءُ اختار الموت وقال : أَمهلوني حتى أُوصي بني وأَهلي ، فجمعهم وقال لهم هذا فاهتدوا ، و[قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ] الآية ، فأَرَوْه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم لله تعالى . ودخل إسماعيل في الآباءِ لأَنه عم (٤) ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) [أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ] أم منقطعة ، والمنقطعة تقدر ببل وهمزة الاستفهام ، وبعضهم يقدرها ببل وحدها ، والإضراب انتقالي لا إبطالي ، ومعنى الاستفهام الإنكار والتوبيخ فيئول معناه إلى النفي ، أي لم تكونوا شهداء وحاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال فلم تدعون اليهودية عليه ؟ و(إذ) الثانية بدل من الأولى أو ظرف لحضر ، وقيل : متصلة بمحذوف تقديره : أكنتم غائبين أم كنتم شهداء ؟

(٢) كما جرت العادة .

(٣) يعني أنه أراد بذلك أن يختبرهم ، ولذا عبَّر بما أيْ أيَّ شيءٍ تعبدونه بعد موتي ، ولو قيل مَن لكان المقصود أن يطرق لهم الاهتداء ، والغاية من سؤاله تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما .

(٤) والعرب تُسَمِّي العمَ أباً كما تُسمي الجد أباً .

في العباس : (ردوا عليَّ أبي ، إني أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بِعُرْوَة بن مسعود) [(١)] ، وقال عنه في موطن آخر : (هذا بقية آبائي)[(٢)] ومنه قوله عليه السلام : (أنا ابنُ الذَّبيحَيْن)[(٣)] ، على القول الشهير في أن إسحٰق هو الذبيح[(٤)] ، وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، والجحدري ، وأبو رجاءٍ : (وَإِلٰهَ أَبيكَ) . واختلف بعد ـ فقيل : هو اسم مفرد أرادوا به إبراهيم وحده ، وقال بعضهم : هو جمع سَلامَةٍ ، وحكى سيبويه : أب وأبون وأبين ، قال الشاعر [(٥)] :

فَلَمَّا تَبَيَّنَّ أَصْوَاتَنَا بَكَيْنَ وفدَّيْنَنَا بِالأَبِينَا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المغازي، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا وَادَعَ أهل مكة انطلق العباس إلى قريش ليدعوهم إلى الله فأبطأ عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رُدُّوا عليَّ أبي ، فإن عم الرجل صنو أبيه، وإني أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة ابن مسعود ، دعاهم إلى الله فقتلوه ، أنا والله لئن ركبوها منه لأضرمنها عليهم ناراً) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة ، والطبراني في الأوسط والكبير بلفظ : (احفظوني في العباس فإنه بقية آبائي) .

(٣) هو حديث ضعيف ، بل قال العراقي ـ كما في روح المعاني ـ : لم أقف عليه ، وإنما سُمي بذلك لأن جده عبد المطلب لزمه ذبح ولده عبد الله لنذر نذره ففداه بمائة من الإبل فكان ذلك سُنَّةً ، في الدِّية ، كما كانت قضية إسماعيل سُنَّة في التضحية .

(٤) لا يوجد موضع صحيح من السنة يعتمد عليه في هذه القضية ، وإنما هي إيحاءات واستنباطات من الكتاب العزيز ، ومن ثم رجح جماعة من الصحابة والتابعين أنه إسماعيل ، ورجح آخرون أنه إسحق ، ومن أجل تعارض الأدلة توقف الجلال في الجزم بواحد منهما . وقد قال المسعودي في تاريخه الكبير : إنْ كان الذبيح بمنى فهو إسماعيل ، لأن اسحق لم يدخل الحجاز ، وإن كان بالشام فهو إسحق لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد حمله إلى مكة ، وصوبه ابن الجوزي .

(٥) هو زياد بن واصل السلمي ، قال هذا في جملة أبيات يفتخر فيها بآبائه وقومه وأمهاتهم من بني عامر ، والبيت من شواهد كتاب سيبويه ، يقول : لما تبين النساءُ أصواتنا في الحرب بكين شفقة علينا ورحمة لنا وفدَّيْنَنَا ، أي كل واحدة تقول : فِداكُم أبي ، والأبينا جمع أب ، يُعَرَبُ إعراب جمع التصحيح .

وقال ابن زيد : يقال : قُدم إسماعيل لأنه أسن من إسحٰق ،[وإلٰه] بدل من [إلٰهك](١) ، وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية(٢) .

وقيل : [إلٰهاً] حال ، وهذا قول حسن لأن الغرض إثبات حال الوحدانية ، [وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] ابتداءٌ وخبر ، أي كذلك كُنَّا نحن ونكون ، ويحتمل أن يكون في موضع الحال ، والعامل [نَعْبُدُ] ، والتأويل الأول أمدح(٣) .

وقوله تعالى : [قَدْ خَلَتْ] ، في موضع رفع نعت لأُمَّةٍ ، ومعناه : ماتت وصارت إلى الخلاءِ من الأرض ، ويُعنى بالأُمة الأنبياءُ المذكورون ، والمخاطب في هذه الآية اليهود والنصارى ، أي أنتم أيها الناحلوهم اليهودية والنصرانية ، ذلك لا ينفعكم ، لأن كل نفس لها ما كسبت من خير وشر ، فخيرهم لا ينفعكم إن كسبتم شراً(٤) . وفي هذه الآية رد على الجبرية القائلين : لا اكتساب للعبد ، [وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ] فتنحلوهم ديناً .

وقولهم : [كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا] ، نظيرُ قولهم : [لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى] .

---

(١) أي بدل نكرة موصوفة من معرفة كقوله تعالى : (بالنَّاصِيَةِ ، ناصيةٍ كاذبةٍ خاطِئَةٍ).

(٢) وفي بعض النسخ : لإفادة .

(٣) وهو أن تكون الجملة معطوفة على قوله : (نَعْبُدُ) ، فيكون الجواب قد أربى على السؤال ، أجابوا عن سؤاله وأكدوا الجواب بقولهم : (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

(٤) في هذا ما يرد على من يتكل على عمل أسلافه ، ويُرَوِّح على نفسه بالأماني الباطلة الكاذبة ، فإنَّ من أبطأ به عمله لا يسرع به نسبه .

ونصب [مِلَّةَ] بإضمار فعل ، أي : بل نتبع ملَّةَ (١) ، وقيل : نُصبت على الإغراء ، وقرأ الأعرج ، وابن أبي عبلة : [بَلْ مِلَّةُ] بالرفع ، والتقدير : بل الهدى ملَّةُ ، و[حَنِيفاً] حال (٢) ، وقيل : نصب بإضمار فعل (٣) لأن الحال تقل من المضاف إليه . والحنف : الميل ، ومنه الأحنف لما مالت إحدى قدميه إلى الأخرى . والحنيف في الدين : الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق ، وقال قوم : ألحنف : الاستقامة ، وسُمِّي المعوج القدمين أحنف تفاؤلا كما قيل : سليم ومفازة (٤) . ويجيءُ الحنيف في الدين المستقيم على جميع طاعات الله عز وجل ، وقد خصص بعض المفسرين – فقال قوم : الحنيف الحاج ، وقال آخرون : المختتن ، وهذه أجزاءُ الحنف (٥) . ونفى عنه الإشراك فانتفت عبادة الأوثان واليهودية لقولهم : عزير بن الله ، والنصرانية لقولهم : المسيح ابن الله .

---

(١) ويجوز أن نقدر ذلك بقولنا : بل اتبعوا ملة إبراهيم ، وذلك أن قولهم : (كُونُوا هُوداً أو نصارى) يتضمن معنى : اتبعوا اليهودية أو النصرانية – قل : بل اتبعوا ملة إبراهيم ، فيكون عطفاً على المعنى ، فهذا عطف ، وما ذكره ابن عطية رحمه الله حذف .

(٢) أي لازمة ، لأن دين إبراهيم عليه السلام لم ينفك عن الحنيفية .

(٣) تقديره : (نتبع حنيفاً) ، أي مستقيماً مائلا إلى دين الاسلام .

(٤) أي كما يقال في اللديغ : سليم – وفي المهلكة : مفازة ، للتفاؤل .

(٥) يعني أنه يوجد في الحنيفية أقوال : وكلها ترجع إلى ما سبق من معنى الاستقامة والميل إلى ملة إبراهيم عليه السلام ، وقد كانوا في الجاهلية يسمون من حج واختتن حنيفاً ، وذلك أنه لما تناسخت السنون وبقي من يعبد الأثان من العرب قالوا : نحن حنفاء على دين إبراهيم ، ولم يتمسكوا منه إلا بحج البيت والختان – والحنيف اليوم : المسلمُ .

قوله عز وجل :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ ﴾

هذا الخطاب لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم ـ علمهم الله الإيمان [(١)].

[وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا] يعني به القرآن ، وصحة إضافة الإنزال إليهم من حيث هم المأمورون والمنهيون فيه .

و[إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ] يجمعان براهيم وسماعيل ، هذا هو اختيار سيبويه ، والخليل . وقال قوم : براهم وسماعل ، وقال الكوفيون : براهمة وسماعلة ، وقال المبرد : أباره وأسامع ، وأجاز ثعلب براه كما يقال في التصغير بُرَيْه . و[الأَسْبَاطِ] هم ولد يعقوب ، وهم : روبيل ، وشمْعون ، ولاوي ، ويهوذا ، وربالون ، ويشحر ، ودنية بنته ، وأُمُّهم ليا ، ثم خلف على أُختها راحيل فولدت له يوسف ، وبنيامين ، وَوُلِدَ له من سَرِيَّتَيْنِ ، ذان ، وتفتالى ، وجاد ، وأَشرو . والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد اسماعيل ، فسموا الأَسباط لأَنه كان على كل واحد منهم سبط [(٢)] .

---

(١) في حديث أبي هريرة عند البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله) الآية ،

(٢) تنبيه : وقع للإمام الكشّاف هناأنه فسر الأسباط بحفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثنى=

[وَمَا أُوتِيَ مُوسَى] هو التوراة وآياته ، وما أُوتي عيسى هو الإنجيل وآياته ، فالمعنى : إنا نؤمن بجميع الأنبياء لأن جميعهم جاءَ بالإيمان بالله ، فدين الله واحد ، وإن اختلفت أحكام الشرائع(١) ، وَ[لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ] أي : لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تفعلون ، وفي الكلام حذف تقديره : بين أحد منهم وبين نظيره (٢) ، فاختصر لفهم السامع ، والضمير في [لَهُ] عائد على اسم الله عز وجل .

وقوله تعالى : [فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ] الآية . خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمته ، والمعنى : إن صدقوا تصديقاً مثل تصديقكم ، فالمماثلة وقعت بين الإيمانين(٣) ، هذا قول بعض المتأولين .

=عشر — وهذا تفسير عام يشمل الأمم الإسرائيلية التي هي بمنزلة القبائل في العرب ، والحق أن الأسباط هنا حفدة إسحق أولاد يعقوب ، وأما المعنى الذي ذكره فمحله قوله تعالى في سورة الأعراف : (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً)، فالأسباط هنا أبناء يعقوب، وفيما يأتي أبناءُ أبناء يعقوب — ومعلوم أن الأسباط الثاني في سورة البقرة هو الأسباط الأول المذكور فيها ، وقد فسرهم صاحب (روح البيان) بما فسر به صاحب (الكشَّاف) وإن كان قد مشى في الأسباط الأول على الصواب ، وكيف يكون ذلك والأسباط الثاني ذكروا في معرض التوبيخ لمن نسب لهم التهود والتنصر ؟ فلو كان المراد بهم ما ذكره لكانت نسبة التهود والتنصر إليهم صحيحة ، فإن التهود والتنصر في أولاد أولاد يعقوب موجودان بل جُل الأسباط بهذا المعنى على التهود والتنصر ، فكيف مع هذا يستقيم التوبيخ والتقبيح ؟ نبه على ذلك بعض شيوخنا رحمهم الله تعالى .

(١) يعني أن دين الأنبياء واحد وهو الإسلام وإن اختلفت الشرائع وتنوعت المناهج ، كما قال تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) وكما قال صلى الله عليه وسلم : « نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أولاد علات ، دِينُنَا وَاحِدٌ » .

(٢) لأن (بين) لا يتبين معناه إلا بإضافته إلى اثنين فصاعداً أو ما يقوم مقام ذلك ، كقوله تعالى : (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) ولك أن تقول : إن(أحداً)في معنى الجمع ، كما تقول : المال بين القوم .

(٣) يعني أنه لامثل لله تعالى،وإنما المماثلة بين الإيمانين ، وهذه التأويلات دعا إليها البعد =

وقيل : الباءُ زائدة مؤكدة ، والتقدير آمنو مثل ، والضمير في [بِهِ] عائد كالضمير في [لَهُ] ، فكأَن الكلام : فإن آمنوا بالله مثل ما آمنتم به . ويظهر عود الضمير على [مَا] . وقيل : مثل زائدة كما هي في قوله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)[١] ، وقالت فرقة : هذا من مجاز الكلام ، تقول : هذا أَمر لا يفعله مثلك ، أي لاتفعله أنت ، فالمعنى : فإن آمنوا بالذي آمنتم به ، هذا قول ابن عباس ، وقد حكاه عنه الطبري قراءة ، ثم أَسند إليه أنه قال : «لا تقولوا : فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ، فإنه لا مثل لله تعالى ، ولكن قولوا : فإن آمنوا بالذي آمنتم أَو بما آمنتم به».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهـذا على جهة التفسير[٢] ، أَي هكذا فليتأَول ، وحكاهما أَبو عمرو الداني قراءتين عن ابن عباس [٣] فالله أَعلم .

وقوله : [وَإِنْ تَوَلَّوا] أَي أَعرضوا ، يعني به اليهود والنصارى ، والشقاق : المشاقة والمحادة والمخالفة ، أَي في شقاق لك هم في شق وأنت في شق ، وقيل : الشقاق معناه شق كل واحد وصل ما بينه وبين صاحبه ، ثم وعده تعالى أَنه سيكفيه إياهم [٤] ، ويغلبه عليهم ،

= من شبهة المشابهة والمماثلة لله تعالى، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لا تقولوا : (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به)، فإنه لامثل لله » .

(١) من الآية (١١) من سورة الشورى .

(٢) يعني أنه محمول على أنه فسَّر الكلام ، لا أنه أنكر القراءة الظاهرة مع صحة المعنى — والنهي عن ذلك مبالغة في نفي التشبيه عن الله تعالى .

(٣) أي : (بالذي آمنتم به) ، أو : (بما آمنتم به) .

(٤) إنما كان ذلك لأن شقاقهم كان في مخالفة الحق ، وهي مخالفة عظيمة توجب عداوة الله وغضبه .

فكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء النضير ، وهذا الوعد وانتجازه من إعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . و[السَّمِيعُ] لكل قائل ،[العَلِيمُ] بما يجب أن ينفذ في عباده . و [صِبْغَةَ اللهِ] شريعته وسنته وفطرته ، وذلك أن النصارى لهم ماءٌ يصبغون فيه أولادهم ، فهذا ينظر إلى ذلك[١] ، وقيل : سُمي الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره[٢]. ونصب الصبغة على الإغراء ، وقيل : بدل من (ملَّةَ) ، وقيل : نصب على المصدر الموكّد لأن ما قبله من قوله : [فَقَدِ اهْتَدَوا] هو في معنى يلبسون أو يتجللون صبغة الله ، وقيل : التقدير ونحن له : مسلمون صبغة الله ، فهي متصلة بالآية المتقدمة ، وقال الطبري : «من قرأ برفع [مِلَّةُ] قرأ برفع [صِبْغَةُ] » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد ذكرتها[٣] عن الأعرج ، وابن أبي عبلة . [وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ] إبتداءٌ وخبر .

---

(١) ومن هنا كان يجب على من أسلم أن يغتسل كما ثبت في السنة الصحيحة .

(٢) ومعنى هذا أنها صبغة القلب لا صبغة الظاهر ، وهي صبغة الإيمان التي يظهر أثرها على المؤمن المسلم ، وصبغة الله أحسن الصبغ والله يقول : (سِيمَاهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُود) .

(٣) أي قراءة رفع (مِلَّةُ) .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

معنى الآية : قل يا محمد لهؤلاءِ اليهود والنصارى الذين زعموا أَنهم أَبناءُ الله وأَحِبَّاؤُه وادَّعُوا أَنهم أَولى بالله منكم لقدم أَديانهم وكتبهم : [أَتُحَاجُّونَنَا في الله]؟ أَي : أَتجاذبوننا[١] الحجة على دعواكم؟ والرب تعالى واحد ، وكلٌّ مجازى بعمله فأَي تأْثير لقدم الدين [٢] ، ثم وبخوا بقوله : [وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ] ، أَي : ولم تخلصوا أَنتم فكيف تدعون ما نحن أَولى به منكم؟ وقرأ ابن محيصن : [أَتُحَاجُّونَّا] بإدغام النون في النون ، وخف الجمع بين ساكنين لأَن الأَول حرف مدٍّ ولين ، فالمدُّ كالحركة ، ومن هذا الباب : دابَّة وشابَّة ، و[في الله] معناه : في دينه والقرب منه والحظوة لديه .

وقوله تعالى : [أَمْ تَقُولُونَ] عطف على أَلف الاستفهام المتقدمة [٣] ،

---

(١) وفي بعض النسخ : أي أتجادلوننا .

(٢) أي : كيف تدعون أنكم أولى به منا وهو رب الجميع يجازي كلا بعمله — ونحن أولى به منكم لإخلاصنا ، والمخلص غير المشرك ، فقد ادعيتم ما نحن أولى به منكم وعكستم القضية . والله أعلم .

(٣) يعني أنها معادلة للهمزة ، أي متصلة . وحاصل الأقوال هنا ثلاثة : متصلة على القراءتين ، ومنقطعة على القراءتين ، ومتصلة على قراءة التاء دون قراءة الياء فإنها منقطعة ، والذي رجحه=

وهذه القراءة بالتاء من فوق قرأها ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر ، عن عاصم : [أَمْ يَقُولُونَ] بالياء من أسفل ، و[أم] على هذه القراءة مقطوعة ، ذكره الطبري ، وحكي عن بعض النحاة أنها ليست بالمقطوعة لأنك إذا قلت : أتقوم أم يقوم عمرو ؟ فالمعني : أيكون هذا أم هذا ؟ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المثال غير جيد ، لأن القائل فيه واحد والمخاطب واحد ، والقول في الآية من اثنين والمخاطب اثنان غيران ، وإنما تتجه معادلة [أم] للألف على الحكم المعنوي كأن معنى [قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا] : أي أتحاجون محمداً أم تقولون ؟

وقيل : إن [أَمْ] في هذا الموضع غير معادلة على القراءتين ، وحجة ذلك اختلاف معنى الآيتين وأنهما ليسا قسمين ، بل المحاجة موجودة في دعواهم الأنبياء عليهم السلام .

وَوَقَفَهُمُ(١) تعالى على موضع الانقطاع في الحجة ،لأنهم إن قالوا : إنَّ الأنبياء المذكورين على اليهودية والنصرانية كذبوا ،لأنه قد علم

=ابن عطية فيما يبدو هو القول الثالث حيث قال : وإنما تتجه معادلة (أم) للألف على الحكم المعنوي إلى آخره . ثم إنه قرر القول الثاني تقريراً ينشرح له الصدر فقال : وحجة ذلك اختلاف معنى الآيتين وأنهما ليسا قسمين إلى آخر ما ذكره ، وكأنه رجحه ورضيه وهو الظاهر ، فإن الله سبحانه قد أقامهم على موضع الانقطاع في الحجة بقوله : (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أو نصارى)، أى بل تقولون إلخ ، فإن قالوا : كانوا على دين اليهودية والنصرانية كذبوا ، وإن قالوا : لم يكونوا على ذلك فقد أقروا بالحق وما بعد الحق إلا الضلال .

(١) هذه هي اللغة الفصحى ، وأوقف لغة تميم ، وأنكرها الأصمعي إلا في نحو : ما أوقفك ها هنا ؟ وأنت تريد : أي شأن حملك على الوقوف ؟

أن هذين الدينين حدثا بعدهم ، وإن قالوا : لم يكونوا على اليهودية والنصرانية قيل لهم : فهلموا إلى دينهم إذ تُقِرُّون بالحق .

وقوله تعالى : [قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَم اللهُ] ؟ تقرير على فساد دعواهم ، إذ لا جواب لمفطور إلا أن الله تعالى أعلم . [وَمَنْ أَظْلَمُ] لفظه الاستفهام ، والمعنى : لا أحد أظلم منهم ، وإياهم أراد تعالى بكتمان الشهادة ،

واختلف في الشهادة هنا ، ما هي ؟ فقال مجاهد ، والحسن ، والربيع : هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية لا على ما ادعوا هم ، وقال قتادة ، وابن زيد : هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم واتِّباعه ، والأول أشبه بسياق معنى الآية ، واستودعهم الله تعالى هذه الشهادة ولذلك قال : [مِنَ اللهِ] ، فَمِنْ على هذا متعلقة بـ[عِنْدَهُ](١) ، كأن المعنى شهادة تحصلت له من الله ، ويحتمل أن تتعلق [مِنْ] بـ[كتم] ، أي كتمها من الله .

وقوله تعالى : [وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ] ، وعيد وإعلام أنه لا يترك أمرهم سدى ، وأن أعمالهم تُحْصى(٢) ويجازُون عليها ، والغافل الذي لايفطن للأُمور إهمالا منه ، مأْخوذٌ من الأَرض الغفل ، وهي التي لا علم بها (٣) .

---

(١) نسبة التعلق إلى الظرف نسبة مجازية فإن العامل في الظرف هو الذي يتعلق به الجار والمجرور ، ويظهر من كلام الزمخشري قول آخر وهو أن (مِنَ الله) في موضع الصفة لشهادة ، أي شهادة كائنة من الله ، كقوله تعالى : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِه) والتعلق بكتم يستدعي حذفاً ، والتقدير : كتم من عباد الله شهادةً عنده ، والله أعلم .

(٢) وفي بعض النسخ تَحْصُلُ .

(٣) وفي بعض النسخ لا مَعْلَمَ بها .

وقوله تعالى : [تِلْكَ أُمَّةٌ] الآية ، كررها عن قرب لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، فوجب التأكيد ،فلذلك كررها ، ولترداد ذكرهم أيضاً في معنى غير الأول (١) .

تَمَّ بحمد الله « الجزءُ الأَول » ، ويليه بعونه تعالى « الجزءَ الثاني » ويبدأُ بقوله تعالى :

[سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا . قُلْ للهِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبُ] .

(١) عطف على قوله : لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، فهي علة بعد علة ، والمعنى أن تكرار هذه الآية له سببان — الأول ما تتضمنه من التهديد والتخويف وذلك يقتضيه المقام — والثاني اختلاف الأقوال والسياق ، فهي أولا : جاءت إثر ما حكي من وصية ابراهيم بنيه ، يعني فليس لكم ثواب فعل تلك الأمة ولا عليكم عقابه — وثانياً : لمَّا ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد ذلك أيضاً بقصد التأكيد والتنبيه ، وهذا كله على رجوع الإشارة إلى إبراهيم ومن معه ، والله أعلم فقول . ابن عطية : «ولترداد ذكرهم» . أي الأنبياء .

فهرست الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	مقدمة المحققين	ا ــ ٥
٢	التعريف بالمؤلف	ب ــ ١
٣	نسبه	ب ــ ١
٤	نشأته وحياته	ب ــ ٤
٥	مكانته	ب ــ ٧
٦	آثاره وتلاميذه	ب ــ ٨
٧	منهجه في التفسير	جـ ــ ١
٨	أسس المنهج	جـ ــ ٢
٩	مصادر المؤلف	جـ ــ ٣
١٠	بُعده عن الإسرائيليات	جـ ــ ٥
١١	آراء العلماء في تفسيره	جـ ــ ١٣
١٢	أثره في المفسرين من بعده	جـ ــ ١٤
١٣	عقيدة ابن عطية من خلال تفسيره	جـ ــ ١٧
١٤	منهجنا في هذا التحقيق	د ــ ١
١٥	فاتحة الكتاب ومقدمته	١
١٦	خطبة الكتاب	٥
١٧	باب : ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ونبهاء العلماء رضي الله عنهم في فضل القرآن المجيد ، وصورة الاعتصام به	٣
١٨	باب : في فضل تفسير القرآن والكلام على لغتهوالنظر في اعرابه ودقائق معانيه ...	٢٤
١٩	باب : ما قيل في الكلام في تفسير القرآن ، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين	٢٨
٢٠	باب : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه »	٣٣
٢١	باب : ذكر جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره	٥١
٢٢	باب : في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله ، وللغات العجم بها تعلق	٥٧

الرقم	الموضوع	الصفحة
٢٣	نبذة مما قاله العلماء في إعجاز القرآن	٥٩
٢٤	باب : في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى ...	٦٣
٢٥	باب : في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية	٦٨
٢٦	باب : القول في الاستعاذة	٧٣
٢٧	القول في تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم»	٧٨
٢٨	رأي ابن القيم في الاسم والمسمى	٨٥
٢٩	تفسير فاتحة الكتاب بحول الله تعالى	٩٨
٣٠	القول في آمين	١٣١
٣١	تفسير سورة البقرة بحول الله تعالى ومعونته (نزولها وفضلها)	١٣٦
٣٢	قوله تعالى : الـم (آراء السلف الصالح في الحروف المقطعة)	١٣٨
٣٣	قوله عز وجل : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)	١٤١
٣٤	قوله عز وجل : (الذين يؤمنون بالغيب ...)	١٤٢
٣٥	قوله عز وجل : (والذين يؤمنون بما أُنزل إليك ...) إلى آية ٥	١٤٨
٣٦	قوله عز وجل : (إن الذين كفروا سواءٌ عليهم ...) إلى آية ٧	١٥١
٣٧	قوله عز وجل : (ومن الناس من يقول آمنا...) إلى آية ٩	١٥٨
٣٨	قوله عز وجل : (في قلوبهم مرض ...) إلى آية ١٢...	١٦٤
٣٩	قوله عز وجل : (وإذا قيل لهم آمنوا ...) إلى آية ١٤	١٦٨
٤٠	قوله عز وجل : (الله يستهزئ بهم ...) إلى آية ١٦	١٧٦
٤١	قوله عز وجل : (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ...) إلى آية ١٨	١٨١
٤٢	قوله عز وجل : (أو كصيب من السماء ...) إلى آية ٢٠	١٨٨
٤٣	قوله عز وجل : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...) إلى آية ٢٢	١٩٦
٤٤	قوله عز وجل : (وإن كنتم في ريب ...) إلى آية ٢٤	٢٠١
٤٥	قوله عز وجل : (وبشر الذين آمنوا ...) آية ٢٥	٢٠٦
٤٦	قوله عز وجل : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ...) آية ٢٦	٢١١
٤٧	قوله عز وجل : (الذين ينقضون عهد الله ...) إلى آية ٢٩	٢١٨
٤٨	قوله عز وجل : (وإذ قال ربك للملائكة ...) إلى آية ٣٢	٢٢٥

الرقم	الموضوع	الصفحة
٤٩	قوله عز وجل : (قال يا آدم انبئهم بأسمائهم ...) إلى آية ٣٤	٢٣٩
٥٠	قوله عز وجل : (وقلنا يا آدم اسكن ...) إلى آية ٣٦	٢٤٩
٥١	قوله عز وجل : (فتلقى آدم من ربه كلمات ...) إلى آية ٣٩	٢٦٠
٥٢	قوله عز وجل : (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي) إلى آية ٤١	٢٦٦
٥٣	قوله عز وجل: (ولا تلبسوا الحق بالباطل ...) إلى آية ٤٦	٢٧٢
٥٤	قوله عز وجل: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ...) إلى آية ٤٩	٢٨٠
٥٥	قوله عز وجل: (وإذ فرقنا بكم البحر ... إلى) آية ٥٣	٢٨٨
٥٦	قوله عز وجل: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ...) إلى آية ٥٥	٢٩٦
٥٧	قوله عز وجل: (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ...) إلى آية ٥٨ ...	٣٠٢
٥٨	قوله عز وجل: (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذين قيل لهم ...) إلى آية ٦٠ ...	٣١٠
٥٩	قوله عز وجل: (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ...) إلى آية ٦١ ...	٣١٤
٦٠	قوله عز وجل: (إن الذين آمنوا والذين هادوا ...) إلى آية ٦٤	٣٢٣
٦١	قوله عز وجل: (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ...) إلى آية ٦٧ ...	٣٢٣
٦٢	قوله عز وجل: (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ...) إلى آية ٧٠	٣٤١
٦٣	قوله عز وجل: (قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ...) إلى آية ٧٣	٣٤٦
٦٤	قوله عز وجل: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ...) إلى آية ٧٥	٣٥٣
٦٥	قوله عز وجل: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ...) إلى آية ٧٨	٣٦٠
٦٦	قوله عز وجل: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ...) إلى آية ٨٢	٣٦٥
٦٧	قوله عز وجل: (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ...) إلى آية ٨٤	٣٧١
٦٨	قوله عز وجل: (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ...) آية ٨٥	٣٧٨
٦٩	قوله عز وجل: (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ...) إلى آية ٨٨ ...	٣٨٤
٧٠	قوله عز وجل : (ولما جاءهم كتاب من عند الله ...) إلى آية ٩١	٣٨٩
٧١	قوله عز وجل : (ولقد جاءكم موسى بالبينات ...) إلى آية ٩٥	٣٩٦
٧٢	قوله عز وجل : (ولتجدنهم أحرص الناس ...) إلى آية ٩٩	٤٠٢
٧٣	قوله عز وجل : (أو كلما عاهدوا عهداً...) إلى قوله تعالى : (هاروت وماروت)	٤١١

الرقم	الموضوع	الصفحة
٧٤	قوله عز وجل: (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) إلى آية ١٠٤	٤٢١
٧٥	قوله عز وجل : (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ...) إلى آية ١٠٦ ...	٤٢٧
٧٦	قوله عز وجل : (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض...)إلى آية ١٠٩ ...	٤٤٢
٧٧	قوله عز وجل : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ...)إلى آية ١١٣	٤٤٨
٧٨	قوله عز وجل : (وقالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ...) إلى آية ١١٨	٤٥٩
٧٩	قوله عز وجل : (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ...) إلى آية ١٢١	٤٦٧
٨٠	قوله عز وجل : (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم ...)إلى آية ١٢٤	٤٧٢
٨١	قوله عز وجل : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ...)إلى آية ١٢٦	٤٧٨
٨٢	قوله عز وجل : (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت ...) إلى آية ١٢٩... ...	٤٨٦
٨٣	قوله عز وجل : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ...)إلى آية ١٣٢	٤٩٢
٨٤	قوله عز وجل : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ...)إلى آية ١٣٥ ...	٤٩٧
٨٥	قوله عز وجل : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ...) إلى آية ١٣٨...	٥٠٢
٨٦	قوله عز وجل : (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ...) إلى آية ١٤١ ...	٥٠٦
٨٧	فهرست الموضوعات	٥١١

طبع
بمؤسسة دار العلوم
الدوحة - قطر